رواية

زياد قاسم





تدوين وكتابة العامية..وجهة نظر

بقلم : حسين المزداوي

كاتب وباحث مهتم بالأدب والتراث الليبي

الإهداء

إلى جدتي الحاجة جازية التي علمتني أن هذا الوطن

يعج بالشعر والحب والحكايات .

ملاحظة أخيرة :

آسف إلى روح جدتي فقد فاضت الروح قبل موسم قطاف الشعر .

كلمة لابد منها

حين تكون القصيدة مشـروعاً لمشـروع اكبـر ،... حـين تتحـرر القصـيدةمن مقـدماتها، وتنـأى عـن الأجوبـة والصـيغ الجاهزة، وتتحولغلى سـؤال لا ينتهـي، وقـوسٍ لا يقفـل،... حـين تكـون القصـيدة تأسيسـاً لتأسـيس، وبدايـة لبدايـة، وريادةلإستكشاف... حينئذٍ فقط يمكننا الحـديث ، وبإطمئنـان، عـن قصيدة المستقبل،أو قصيدة الحداثـة، وبصـرف النظـرعن عاميتهـا أو فصـاحتها؛ فالمشـهد الشـعري يتسـع للجميـع، والمجـال الأبداعييستوعب هـذا، وذاك؛مـادام الهـدف واضـحاً، والرغبـات مخلصة... ، مادام التجريـد والتحـديث والإنـدفاع إلـى الأمامبكـل قوة وجسارةهو شعار الأدباء والمثقفين في كل مرحلة.

أقول هذا الكـلام وقصـيدة االمحكيـة او قصـيدة العاميـة تخطو خطواتها الأولى بثبات وثقة وتكسب في كـل خطـوة المزيـد من الهتمام والتقدير والمزيد مـن العشـاق والمعجبينعلـى إخـتلاف مشاربهم ومسـتوياتهم ، لاهـم لهـا ولا شـاغل إلا إثـراء المشـهد الشعري الليبي ، وتعميق مجراه ، دون إدعاء أو تطاول .

فالقصيدة المحكية هي أنتصار لقصـيدة الحداثـة إجمـالاً ، وهي الوجـه الأخـر لهـا ، مهمـا تنوعـت أطيافهـا ، وتباينـت ألوانها... بل هـي رافـد مـن روافـدها ، ولا يمكـن بحـال مـن الأحوال تصورها منافساً أو خصماً مزاحماً ،لأننـا ببسـاطة شـديدة

نعتبر قصيدة الحداثـة بكـل تجلياتهـاهي الـرحم الشـرعي الـذي ينتسب إليه شعراء المحكية؛ فالمرجعيـة واحـدة، والحقـل المعرفـي والثقافي واحد، والإشكاليات الفكريـة التـي يفكـرون داخلهـا هـي ذاتها إشكاليات شـعراء قصـيدة الحداثـة ، وفـوق ذلـك فـالجميع يستسقون من معين واحد ،وينهلون مـن نفـس الينبـوع ، ألا وهـو الفكر الحديث والمعاصر ، بنزعاتـه الأنسـانية ، وآفاتـه العقلانيـة وأبعاده المستقبلية وجمـيعهم حريصـون علـى مواكبـة العصـر ، وإسـتلهام روحـه وتبنـي إيقاعـه ، والمراهنـة علـى الجديـد ، والانفتاح على كافة التيـارات والاتجاهـات ،دون خـوف أو تـردد يقيناً منهم بأن الجهل سينتهي عندما يقدم كل شيء على حقيقته .

إن القصيدة المحكية إذ تعلن عـن نفسـها بعـد إحتجـاب ، وتنتزع ورقة الاعتـراف بعـد مماطلـة وتسـويف ، تجـد نفسـها ملزمة بالوفاء بما وعدت ، وهو السير قـدناً فـي طريـق التحـديث مهما كانت العقبات والعراقيـل ، وملزمـة بتحقيـق حلـم روادهـا ومريديها وجمهورها الذي التفّ حولهـا بسـرعة أثـارت الإعجـاب والذهول ،إلا ان أهم الاسـئلة تبقـى مطروحـة ، وتبقـى أجوبتهـا معلقة بما تضمره الاعوام المقبلة .

فهل سيستمر هؤلاء الشعراء بـنفس الحمـاس والأصـرار ، مستخفّين بكافة الصعوبات حتى آخر المشوار ؟

وهل يمتلكـون مـن القـوة والصـلابة مـا يضـمن لهـم الصمود في وجه مفاجأت قد يخبؤها لهـم المسـتقبل ، ولـم يحسـبوا لهاحساباً؟

يقيناً أن هناك من سيسـقط فـي منتصـف الطريـق ، وأن هناك من سيتوقف راضياً بما انجز ، ولكن الأكيـد ايضـاً أن هنـاك من سيسـتمر ، ويمضـي إلـى الغايـة ... لـن الشـعر قضـيته ، والحداثة رسالته ، وتحرير الأذواق والأخيلـة ممـا علِـق بهـا مـن أوشاب هو جوهر الثورة الثقافية التـي لابـد ان يسـهم الشـعر فـي إنجاز جانب مهم منها .

وها انا ذا- إذ اقـدم للقـاريء الكـريم ديـوان ((خريـف الريح)) للشاعر سالم العالم احد أبرز شعراء المحكيـة فـي ليبيـا – لا يسعني إلا ان أهمس في أذن القـاري برفـق ومحبـة ، والـتمس منه أن يتمهـل فـي قراءتـه ويتـأنى ، وألا يسـرع فـي تقليـب الصفحات والتنقل من قصـيدة إلـى أخـرى إلا بعـد وقـت لـيس بالقصير ، لأن هذا اللون من الشـعر- أعنـي المحكـي – مختلـف تماماً عما قرأ واستظهر من صـنوف الشـعر الأخـرى ، كالشـعر الشعبي والغنائي .

فالشعر المحكي نمط مختلف تمامـاً ، فهـو يبتعـد كثيـراً عن انطباعية الشعر الشعبي وفطريته وقـرب مآخـذه ن ومحدوديـة أغراضه ن وتوارد تراكيبه وصوره وأخيلته .

كمـا يغـاير مغـايرة كاملـة الشـعر الغنـائي بسـهولته المفرطة ن وسلاسة أوزانه ، وقصر أنفاسـه ، ووضـوح اتجاهاتـه وأبعاده .

ليس عيباً أن نذكر القـاريء الكـريم بكـل هـذا ، وهـو يمضي في قراءة هذا السِـفر الجميـل الـذي احسـبه مـن روائـع الشعر المحكي ، لأنه لاشـك سيكتشـف اليـوم أو غـداً ان الشـعر المحكي ليس ما أَلِفَ وسمِع مـن أجنـاس شـعرية أو اجنـاس أراد لها اصحابها ان تكون شعراً .

وأحسب أن البـون سـيكون شاسـعاً فـي نظـرة القـاري ومحاولته الموازنة بين ما قرأ وما يقـرأ ومـا يزمـع قراءتـه مـن دواوين المحكية التي صدرت وتصدر تباعاً بعون ا .

غنها قصـيدة لا تفـتح ابوابهـا لأول طـارق ، ولا تسـلم نفسها إلا بعد طول مراودة ومعاودة ، فهـي الـنص الحـي الـذي لا يموت ، بـل تبقـى قدرتـه علـى السـتمرار فتيـة طازجـة تبعـاً لأختلاف ضروب القراءة ، وتباين سـبل التأويـل ؛ ولـذا فـأظنني لا أحيد عن الصواب عندما أطلق عليها "قصـيدة النبـؤة والتجـاوز" فهي أستشرافية النزع ، مستقبلية الرؤيـا ، ثوريـة الطـابع ، تحمـل طموح أصحابها ومبدعيها في تجاوز ما هو مطـروح ، سـعياً إلـى ابداع نص مغاير مختلف ، عبـر لغـة مكثفـة مشـحونة ، متفجـرة لها إنزياحاتها وأنجرافاتها التي تخلخـل ثوابـت العقـل المسـتقيل ، وتمهد لنوع من المعرفة الكاشفة التـي تتجلـى فيهـا الأشـياء علـى

ضفاف الوجدان حيـة ، طريـة وتـنعكس علـى صـفحات الخيـال عالماً رحباً فسيحاً وأنفساً نقية طاهرة ترتفع بالإنسـان ، وتسـمو بـآدميته في عالم لم يعرف بعد مفهوم السمو والتسـامي ، ولـم يـدرك بعد ما معنى الحضارة والمدنية في غيـاب أو تغييـب جوهرهـا ألا وهو الأنسان .

أتركك أيها القـاريء العزيزلتكمـل الرحلـة وأنـا أضـمن لك الأمتاع والأثارة وحـان وقـت الـوداع لتتفـرغ أنـت للقـراءة وأعود أنا لتصفح ديوان جديد لعلي أقدمـه فـي القريـب العاجـل إن شاء ا تعالى .

الصيد عبد السلام الرقيعي

طرابلس في ٢٠٠٤/٧/٢٥ف

الصيد الرقيعي:أحد أبرز شعراء المحكية في ليبيا

بالنظر إلى مجمل ما نشر من إصدارات بالعامية الليبية شعراً ونثراً نلاحظ مدى التخبط الذي تعانيه طريقة كتابتها، ومن بديهي القول أن تشترك العامية الليبية مع الفصحى ومع العاميات العربية الأخـرى في جذر لغوي واحد وفي كثير من الخصائص الصوتية، التي تـنعكس على إملائهـا، ومـع هـذا فخصوصـيتها الصـوتية، أو مجموعـة الخصوصيات التي تخلق ذلك التنوع من التباينات الصوتية في اللهجـة الليبية نفسها، تتطلب دقة ضبطية بإعادة الحياة إلـى مجموعـة مـن الرموز والأشكال المستحدثة من قبل مجامع اللغة، أو استحداث حروف و علامات جديدة لضبط عملية نطق هذه العامية.

وقد نبهت مقدمة " ديوان الشعر الشعبي[١] إلى ما تعانيه كتابة العامية الليبية من تخبط واختلافات وأغلاط، ونضيف من عنـدنا أنهـا تعاني لا مبالاة المعنيين على تطوير الأداء اللغوي العربي، مما دفـع لجنة جمع التراث التي أعدت الديوان المذكور إلى التنبيه على ضرورة الاتفاق على قواعد ثابتة لهذه الكتابة، واقتراح بعض القواعد الجديـدة، وهذه خطوة رائدة في هذا المجال، إلا أنها رغم ما حاولت أن تؤسسـه لم تخلُ من قصور وأخطاء هي الأخرى، ومن هنا جاء التفكيـر فـي

---

[١] ديوان الشعر الشعبي ، مج ١ ، منشورات جامعة قـار يـونس ، بنغازي ، كلية الآداب ، لجنة جمع التـراث ، ط ٣ ، ١٩٩٣ م ، ٢٩٤ ص .

محاولة إضافة وتصحيح هذا العمل الجاد والرائد للوصول إلى كتابـة العامية الليبية بشكل أكثر دقة.

والسؤال؛ هل نسـتطيع أن نكتـب مفـردة عاميـة تحـافظ على بنيتها الصوتية مثلمـا خرجـت طازجـة مـن حنجـرة قائلهـا الأول، أو بشـكل أكثـر وضـوحاً، هـل نسـتطيع كتابـة العاميـة بمعاييرها الصوتية والإملائيـة الداخليـة الخاصـة بهـا، ومـن ثـم نستطيع قراءتها بشكل أكثر دقـة ؛ فمـثلاً إذا كـان الشاعــــر أو المتحدث من قبيلة الفواخـر " شـرقاً "، أو مـن قبيلـة الصـيعان[٢] " غرباً " وقمنـا بتـدوين شـعره أو حديثـه ؛ هـل نسـتطيع كتابتـه وقراءته وكأننـا أحـد أفـراد هـذه القبيلـة أو تلـك ؛ مـن خـلال الاستفادة بما هو متوافر من

علامات وقواعـد ضـبطية للشـكل والتـرقيم، أو بابتكـار أخرى جديدة، وهي مسؤولية المجامع اللغويـة، يسـاعدها فـي ذلـك الباحثون والمهتمون.

إن الجزم بإيجـاد صـيغة إملائيـة متطابقـة تمامـاً بـين المنطوق والمكتوب للكلمة أمـر مـن الصـعوبة بمكـان، ولكـن - وكما أسلفنا - فإن تضييق الفجوة بين المنطـوق والمكتـوب لا يـتم

---

(٢) اقترح اسم القبيلتين لأنهما من أشـعر القبائـل كـل فـي نطاقهـا الجغرافي.

إلا من خلال البحث والتطوير والممارسة ؛ فحـروف العربيـة الـ ـ (٢٨) إضافة إلى حركاتها ومدودها...الـخ، هـي معيـار فُصـحوي وأدوات جاءت لتقـدم البنيـة الشـكلية والصـوتية للكلمـة والجملـة الفصـيحة، دون الأخـذ فـي الاعتبـار مـا يكـون مـن تباينـات واختلافات مع العامية، والالتزامات التي تتطلبهـا بنيتهـا الخاصـة، وبالتالي فإن هذه المعايير الفصـحوية تضـيق بالعاميـة، ولا تلبـي كل ذلك التنوع والاتساع الصوتي الذي تتميز به العامية.

ودون الإبحـار بعيـداً فـي مثـل هـذه الأمـور الشـائكة والبحثية التي تتطلـب مجـالاً أرحـب علـى مسـتوى الموضـوع والمقام، ولتوخي أكبر قـدر مـن الدقـة، لتخـرج الكلمـة مكتوبـة ومقروءة بشـكل سـليم، فهـذه قـراءة لـبعض الظـواهر اللغويـة والصوتية للعامية الليبية للوصول إلى كتابة أدق لها :

◊ الاستفادة من تقنيات الشكل الفصيح للكلمة :

- نظراً للباع الطويل الذي قطعتـه الفصـحى مـن حيـث التوافق بين المكتـوب والمقـروء فيـتم مراعـاة الشـكل الفصـيح للكلمة دون الإخلال بالطريقة السليمة لنطق المفـردة، مثـل كلمـة " انتِ " فيكتبها البعض " انتي "، مثلما هـي فـي ديـوان (نـا ونتـي) والصحيح أن يحافظ علـى أصـل الكلمـة الفصـيح وهـو (أنـتِ) فتكون الكتابة الصحيحة لها (انتِ) وأيضـاً كلمـة " ديمـا " فتكتـب بهذا الشكل، ولا تكتب " ديمة "، لأن أصلها " دائماً ".

ثبات ألف التفريق بعد واو الجماعة مثـل (قـالوا، مشـوا، ناموا) ولا تكتب : قالو، مشـو، نـامو، حفاظـاً علـى قاعـدة فـي الفصحى تصلح أيضاً للعامي.

◊ التسكين والاختلاس والتنوين (في الحركات) :

١ - التسكين :

خلافاً للفصحى التي لا تبدأ بسـاكن، فـإن العاميـة الليبيـة في كثير من الحـالات تبـدأ بسـاكن، وفـي الغالـب تنتهـي بـه، فالسكون هو الحركة الإعرابية الشائعة في العاميـة الليبيـة، شـأنها شأن معظم العاميات العربية الأخرى، والتسكين تلجـأ إليـه العاميـة للتسهيل، فتكتب الكلمات التي تبدأ بسـاكن، مثـل "يـ ْقول" بوضـع علامة السكون على الحرف الساكن الـذي تبتـدئ بـه، ولا تكتـب بهمزة وفق ما يبدو للسامع الذي تعود علـى نطـق الكلمـة متحركـة الحرف الأول في الفصحى، فتكتب خطأً : ايقـول، ايكـون، ايـدير، والصحيح : يقول، يكون، يدير.

- تسكين حرف العطف (الـواو)، فيكتـب بوضـع سـكون فوقها " و " كما فـي قـول الشـاعر : " والليـلْ متوسـد غَنـاوي صوبنا "، ولا تكتب قبلها همـزة، بهـذا الشـكل " او "، تمييـزاً لـه عن حالته بفتحة " و "، كما في قول الشـاعر : بروحـك ع الهـوى سلطان.. وانا المغلوب على امري.

٢ - الاختلاس :

عادة ما تكـون الحركـات فـي الكلمـة العاميـة مختلسـة (خفيفة)، وهذا من باب التسهيل أيضاً.

٣ – التنوين:

لا يكاد يظهر التنوين إلا فـي بعـض الحـالات الشـعرية أو الأمثال، فالتنوين في العامية يشـبه تنـوين الفـتح، ولكنـه أشـبه شيء بإضافة حرف نون للكلمة، وهو مـا أسـتطيع تسـميته بتنـوين السكون هكذا : **برقـاً**، واقترحت كتابتـه بسـكونين إسـوة بكتابـة التنوينات الأخرى، كما في أغنية الرحى :

برقاً يهمت مع الليلْ	يهمت وتاني يراجع
يخلّي بناتْ الغديداتْ	يتهاقلن فْ المراجع

وهو واضح في كلمـات تسـتخدم فـي العاميـة تسـربت إليها من الفصحى مثـل : غضـبا، عفـوا، شـكرا، وهـي كلمـات فصيحة البناء والتراكيب تسربت إلى العاميـة مـن خـلال علاقـات متعددة أهمها اتساع تـأثير العمليـة التعليميـة، وسـهولة الاتصـال واتساع دائرة وسائله.

◊ قلب تاء المضارعة ألفاً وتشديد مـا بعـدها فـي بعـض الحالات، مثل : تَضم، تصبح : اضـم، ننـوض (نقـوم) : انـوض، ننام : انام ؛ كما في قول الشاعر :

وتذّكّريشْ زمان.. ويـن مـا يحـدِثْ منـاب لْحـد مـن جِيرانّا.. انّوضوا جميع نْعولوا.

◊الإمالة :

في حروف العلة :

الألف : جا : جي ؛ مشى : مشي ؛ أنـا : أنـي ؛ حسـا : حسي ؛ ما : مي...الخ

الواو : موت، نوم، دوم...الخ

الياء : بيت، زيت، ريت...الخ

إمالة التاء المربوطة في الكلمات المنتهية بهـا (كمـا فـي لهجة أهل الزاوية الغربيـة) : يوقـة، الزاويـة : يـوقي، الزاويـي (مثلما هي أيضـاً عنـد قبائـل المسـبعات فـي دار فـور بغـرب السودان، وفي اللهجة الشامية وهي أكثر ميلاً إلى الكسر).

◊ الفرق بين التفريـق بـين الضـم وإمالـة الضـم فـي كلمات مثل (شْوف) بمعنى : فقـر، عـوز ؛ و (شُـوف)، بمعنـى : أنظر، و (قْول) بمعنى :

كلام، خبر ؛ و (قُول) بمعنى : قُل.

◊ إبراز الشدة وتسهيلها فـي كلمـات مثـل : تِبـي، فـي لهجة الوسط وبعض المناطق البدوية،

وكلمة : تِبي، في لهجتي طـرابلس وبنغـازي، والكلمتـان بمعنى : تريد؛ وفي كلمات أخرى مثل : هـو، هـو ؛ هِـي، هـي ؛ فِي، فِي، يِي، يِي..الخ.

◊ ملاحظة التباينات حول نطق اسم الاشارة **(**هذا)، وضـمير المتكلم (أنا) :

- اسم الإشارة (هذا)، ينطق بعـدة طـرق، مثـل : هـذا، هدا، هِذا، هضـا، هاضـا، هاضـايا، هاضـاهي، ويجمـع علـى : هاضوم، هاضـوما، هاضـم، هـاذين، هاذينـا، هـادون، كمـا أن البعض ينطقها باللام : هاذول، وهاذولا.

وفي غرب ليبيا تجمع على (**هوضـا**) خاصـة عنـد قبائـل الصيعان وغيرهم مـن قبائـل أقصـى المنـاطق الغربيـة ؛ يقـول خليفة الكردي :

مـا زالْ ما واتاشْ بابْ كلامكْ	وْ لا بـانْ باشْ أهـلْ العقولْ يخفـّوا
مـا دامْ **هوضَـا** شادّين خزامكْ	وما دام **هوكا** بعهـــــدهم ما وقّوا

- ضمير المتكلم (أنا) و ينطق أيضاً بعـدة طـرق : انـا، نا، اينا، اني، ني، نِي، انايا.

◊ الادغـام والحـذف للصـلة الوثيقـة بـين الادغـام والحذف رأينا جمعهما في باب واحد :

الادغام :

ادغام ال التعريف :

عند إضافتها إلى الكلمات التي تبـدأ بهمـزة مثـل : ايـام، اصحاب، اولاد، فـإن الهمـزات تـدغم فـي لام مفتوحـة، فتكتـب كالآتي: لَيام، لَصحاب، لَولاد..الـخ ؛ يقـول الشـاعر سـيدي قنانـة الزيداني :

لَيام كيفْ الريح فْ الدرجاحةْ   مـرةْ شـقا الخــاطر ومرةْ راحةْ

- ادغام هاء الضـمير وتشـديد مـا قبلهـا (فـي شـرق ليبيا) : كتابها، سيارتها، نعرفها : كتابا، سيارتّا، نعرفّا.

- إدغام الدال أو الذال إذا جاءت بعدها تاء، مثل :

اخــت : أخــذت ؛ ارت : أردت ؛ رقــت : رقــدت ؛ زت : زدت ؛ قصت : قصدت ؛ قعت : قعـدت ؛ وجـت : وجـدت ؛ وعته : وعتهم، وعدتـه : وعـدتهم ؛ والتـه : والتـي، والدتـه : والدتي.

الحذف : في بعض الكلمات والأفعال، مثل :

* حـذف الهمـزة : فـأر، فـأس، رأس، يـأس : فـار، فاس، راس، يـاس – مـرأة : مـراة ؛ بئـر : بيـر، الشـواطئ، المرافئ : الشواطي المرافي ؛ يأكل : ياكل ؛ هدأ : هدا.

* حذف همزات المد : السماء، المـاء، الرجـاء : السـما، الما، الرجا

* حذف همزة أبو : بو ؛ أبوبكر، أبـو صـاع : بـوبكر، بوصاع

* حـذف نـون المضـارعة فـي الأفعـال الخمسـة : تشربين، تشربون : تشربي، تشربوا.

* حذف همزة الرباعي من أصل ثلاثي الـذي جـاء علـى وزن (أفعلَ)، أصاب، أفاق، أقام : صاب، فاق، قام،...الخ.

* حذف لام (قـال) إذا أضـيفت إلـى بعـض الضـمائر : قُتْ، قَاتْ، قُنّا.

* حـذف حـرف الـواو فـي بعـض الكلمـات، مثـل : بواريد : اباريد (جمع بارود) ؛ مـويس تصـغير مـوس : أمـيس، وهو السكين)، وجمعها امواس : أمـاس ؛ مويـة : أميـة (مـاء) ؛ بواقيل : أباقيل (جمـع باقولـة، وهـي جـرة المـاء) ؛ مواعيـد : أماعيد ؛ مواجن : أماجن (جمع ماجن (وهـو المأجـل يحفـر لحفـظ الماء) ولا تحذف هذه الواو عند البعض، خاصة في شرق ليبيا.

* حذف بعض حروف بعض الكلمـات، مثـل : نصـف : نص، ولد : ود، المرأة : المرا.

◊ تسهيل الهمز، ويكون نطقة الهمـزة أخـف مـن نطقهـا في الفصحى مثلما نلاحظ فـي الكلمـات التاليـة : أيـام، أحـزان، أولاد (فصحى) ؛ وتكـون كتابتهـا فـي العاميـة : ايـام، احـزان، اولاد ؛ وهذا التسهيل هو الذي يوضح طريقة كتابـة اسـم (أحمـد)، ففي العامية يقال له (احمد) بتسـهيل الهمـزة، وتشـديد الـدال، فـي حين أن بعض العاميات تحذف الهمزة وتفتح الحاء

(حمد) مثلما هي في (قصر حمد)

- تسهيل همزات : شواطئ، مرافئ، فـأس ؛ رأس، مـرأة، يأكل، يأخذ : شواطي، مرافي، فاس ؛ راس، مراة، ياكل، ياخذ.

◊ ضرورة التمييز بين حروف الجر : فِـي، مِـن، علـى، في حالاتها المختلفة، وتكتب كل حالة وفقاً لنطقها كالآتي :

١ - يأتي حـرف الجـر : فـي أحيانـاً مختصـراً (فْ)، وأحيانا كاملاً كما في قول الشاعر :

(وفْ غفلْة بهرني نور.. سـطَع فْ عيـون لمّاعـةْ .. وفْ لحظةْ حزمت امري خـذيت خْطـاي فـي عُمـري) ؛ ولـيس كمـا وردت في ديوان الشعر الشعبي بأنها تكتـب دائمـاً " فـي " كاملـة، حتى ولو جاءت مختصـرة (فْ) فهـذا يخـالف القاعـدة الصـوتية، ويحدث لبساً للقارئ والسامع.

٢ - علَى، علي (بالامالة)، عـلْ، ع، مثـل : عـلْ البـال، ويجب فصلها عن الكلمة اللاحقة لهـا لأنهـا حـرف لـه شخصـيته

المستقلة ولو جاء مختصراً، ولا تكتـب (علبـال، أو عالبـال)، بـل تكتب (عل البال، ع البال) حسب نطقها، كما في قول الشاعر :

وحبي قصيدةْ ما لْها موضوع   لا شِعر فيها ع الحياةْ ترويه

٣ - اختصار حرف الجر : من، م، كما في قول الشـاعر :
ولما يِخِشّ الصيفْ.. يلمنا مِيعادنا فْ جنان سِي الشريفْ.. وتْنَسم علينا أْنسام م الكورنيشْ.

◊ وفي الوقت نفسه فإنه إذا أضيفت هاء التنبيه للكلمة فإنهـا لا تفصل عنها مثل (هالوقت) أي : هذا الوقت، لأن الهاء للتنبيـه، ولا تكتب (ها الوقت).

◊ التثبيت :

وهو تثبيت بعض الحروف أو الصـيغ، مخالفـة فـي ذلـك طريقة الفصحى، مثل :

- تثبيت ألف الماضي الأجـوف عنـد إسـناده إلـى نـون النسوة : قُلن، عمـن، صـمن، بِعـن ؛ يصـبح : قـالن، صـامن، عامن، باعن.

- تثبيت حرف العلة، في الأفعال المجزومة فـي الفصـحى بحذف حرف العلة، حيث تثبت كتابة الحرف المجزوم، فيقال (قـول، خوذ، كول، صيم، عيش، امشي) لأفعال : قل، خذ، كُل، صم، عـش، امشِ...الخ، كما في قول الشاعر (وانهي رحلة سندبادي).

الحروف المتشابهة :

- التفريق بين بعـض الحـروف المتشـابهة فـي شـكلها (التاء والثاء، والدال والذال، والضـاد والظـاء) فـبعض الجماعـات القبلية لا تفرق بين هذه الحروف، فيقال تعلـب : للثعلـب، وديـب : للذئب، وفظة : للفضة ؛ وهنا يجب أن يحـافظ علـى طريقـة نطـق المصدر ولو اختلف مع الفصـحى، لأن فـي ذلـك محافظـة علـى الأصل العامي للكلمة وطريقة نطقها.

- التفريـق بـين : التـاء المربوطـة " **ة** "، والهـاء " **ه** " بحيث تكتب الهاء بدون نقطتـين فوقهـا، وتكتـب التـاء المربوطـة بنقطتين، مع مراعاة أن الوقف على التاء المربوطة يكون هاءً.

- التفريق بين : اليـاء " **ي** "، والألـف المقصـورة "**ى**"، ولم يلتزم بهذه القاعدة في ديوان الشعر الشـعبي، خاصـة فـي ظـل استخدام كلمات عامية، ليست معروفـة أو مطروقـة لـدى الـبعض، فتشكل عليهم القـراءة ؛ فمـثلاً جمـع كلمـة كرسـي : كراسـي، وكراسى، وجمـع كلمـة طاسـة (فنجـان)، طواسـي، وطواسـى، وجمع كلمـة تبسـي (صـحن مـن الفخـار) : تباسـي وتباسـى، وسبسي، على : سباسي، وسباسى، وجمع كلمـة برنـي (نـوع مـن الصقور) : براني وبرانى، وللتفريـق بينهـا فـي النطـق والايقـاع الصوتي، لابد من تحديد الحـرف بشـكل دقيـق أهـو " ى " ألـف مقصورة أم " ي " ياء.

◊ التفخيم والترقيق :

إن باب التفخيم والترقيق في الحروف بابٌ واسع في العامية، فيضم عدداً

من الحروف مثل التاء والطاء (بتيخ وبطيخ)، والدال والـذال والضاد مثل : يذر، يدر : يضر، يضرضر (يرش) ؛ يذوق، الذوقـة، الذواقة : بضوق، الضوقة، الضـواقة ؛ يمـدغ : يمضـغ، والظـاء والضاد : فظة : فضة، كما يجب ملاحظة الاختلافات في نطق الـلام والزاي والكاف وغيرها التي تفخم عند البعض وترقق عنـد الـبعض الآخر، كما أن حروفاً أخرى مثل ترقيق حرف الزاي " ز " كمـا فـي (مدينة زلة)، أو في كلمة (زلة)، بمعنى : انزلاق، خطيئـة، و تفخـيم حرف " ز " كما في (كلمة ژلة)، بمعنى : أبهة، اختيال، وتكتب (ژلة) وفي فعل " باژ " يبوژ، تبويژ، بايژ، بوژة ؛ وكلمة " كتان " بمعنـى : قماش (بتخفيف الكاف)، وكلمة " كتان " (بتفخـيم الكـاف) بمعنـى : ضجر.

◊ ينطق لفـظ الجلالـة (ا) فـي الفصـحى بطـريقتين : مفخماً، ومرققاً، كما هو معروف، ولكنه فـي العاميـة ينطـق بسـت طرق : مرققاً، ومفخما، ومسهلا، ولكل حالـة مـن هـذه الحـالات الثلاث حالة أخرى تخفف فيهـا الهـاء بحـذفها : ألاّ، إلاّ، ألا، كمـا في قولنا (ا لا تغيبه) فهي تنطـق (ألاّ لا تغيبـه)، ولكـن حفاظـاً على كتابة لفظ الجلالة كما اتفق عليهـا فإننـا نقتـرح كتابتهـا كمـا هي (ا) مع إضافة علامة تبين أن حرف الهـاء محـذوف ؛ وفـي

هذا المجال فإن عدداً من الكتابات العامية تخطئ في كتابة (إلاّ) التي تأتي أداة استثناء، وتأتي بمعنى حرف عطف (أو) فيكتبونها (والله) مسهلة، ويعتقدون أنها (ولاّ) لاقترابهما الصوتي، وهي في الغالب تأتي مرفوقة بواو (ولاّ) كما في قولنا (بتمشي ولاّ نجيك)، ولكن إلاّ (المسهلة) تعطي في عامية برقة معنى (أما) كما في قول شاعرة الجوازي (حبقّ) تستحث الشيخ عبد النبي مطيريد للقضاء على أحمد سيف النصر شيخ أولاد سليمان وابنه غيث، بعد أن ذبح (بياض) شيخ البراعصة في يوم العيد :

ما زال غيث وبوه   إلاّ بياض قضيتْ حاجته

◊ الإشباع (في الحركة حتى تصبح حرفاً) :

وهو تحور الحركة إلى الحرف المناظر لها، كما في الكلمات : لُغة، سلّم، برنس، بطم : لوغة، سلّوم، برنوس، بطوم (إشباع الضم) ؛ بِه، له، صفة : بِيه، لِيه، صيفة (إشباع الكسر) ؛ أمس، رجل : آمس، راجل (إشباع الفتح).

◊ تباين النطق :

ضرورة وضع حركات على الكلمات التي يتباين فيها النطق حسب المناطق أو القبائل مثل (حلْمنا، حِلمنا ؛ دِنيا، دنيا ؛ سكت، سكت ؛ يقْدر، يقْدِر، يِقْدِر)...الخ.

◊ النحت :

وهو ادغام وتوليف لأكثر من كلمة، بحيـث تصـبح كلمـة واحدة تؤدي المعنى نفسه، وتختصر الإطالة :

- عائلـة أي شـيء : آش، ايـش : أي شـيء ؛ بـاش، بيش : بأي شيء ؛ عـلاش، علـيش : علـى أي شـيء ؛ بـلاش : بلا أي شيء ؛ معليشـي : مـا عليـه أي شـي ؛ قـداش : قَـد أي شيء؛ مهناش، مهناكش : ما هنالك شـيء ؛ شـنو : أي شـيء هـو ؛ شني : أي شيء هي (ثم اختلط استخدامهما).

- منحوتـات أخـرى : فيسـع : فـي السـاعة ؛ منهـو، منهي، منو، مني : من هو، مـن هـي ؛ علْشـان، عشَـان : علـى شأن ؛ ماني، ماك، ماكم، ماهم : أما إني، أمـا إنـك... الـخ ؛ بكّـل (غرب)، بِكّل، بِلكّل (شرق) : بالكُل، أي : كُلِيـةً ؛ لـين : إلـى أن، وحيث أن اللام تنوب عن إلى في العامية فهـي فـي الأصـل (لـ ـِ، أن)...الخ.

◊ الاختزال :

ويبرز في استخدام (اللّي) اسماً بـدلاً عـن جميـع أسـماء الموصول (الذي، التي، اللذان، اللتان، الـذين، اللاتـي أو اللـواتي)، وهذا الباب يجمع بين النحت والإدغـام والتخفيـف، وكـل ضـروب التسهيل.

◊ القلقلة :

تقلق في العامية الليبيـة حـروف أخـرى غيـر الحـروف الخمسة المقلقلة في الفصحى (قطب جـد) الفـرق فيهـا بـين قبيلـة وقبيلة، وبين البدو والحضـر مثـل : كلْـب : كلـب (قلقلـة الـلام) وحلة : وحلة، أحمـر : أحمـر (قلقلـة الحـاء) أخضـر : أخضـر (قلقلة الخاء)

◊ التشديد والتضعيف :

التشديد الذي يحدث فـي أواخـر بعـض الكلمـات مثـل : عمر، وعمر، فرج، وفرج...الخ، وهنـا يجـب أن تميـز اللهجـات عن بعضها، فالفزازنـة مـثلا لا يشـددون الحـرف الأخيـر فـي الكلمات السابقة، في حين أن الآخـرين يشـددونه ؛ وأحيانـاً تشـديد الحرف في الكلمة نفسها يعطـي معنـى آخـر لهـا وهـي مسـهلة، مثل : النفس، ومعناها التنفس، والـنفس، ومعناهـا العـين، الحسـد، الروح، كما في قول الشاعر :

متعودهْ ع الهمس ..ْمتغزلـهْ فْ الشـمس والشـوقْ فـي زلّهْ بحر

والليلْ في زلهْ ونَس.. والشِعر في زلهْ شْجر

ولِنْجوم علي زلة حرس

والود في زلهْ مطَر.. وزلهْ اتكّتْ ع الغيم.. تْرسم فْ القمر

التضعيف : تضعيف نون مـن، وعـن عنـد إضـافتها إلى الضمائر، مثل :

منّك، منّي، منّه، وأحياناً تسهل.

◊ القلب والإبدال :

القلب : وهـو أن يسـبق أو يتـأخر حـرف أو حركـة أو تركيب لفظي عن مكانه في الكلمة أو التعبير :

والمقلوبات في العامية الليبية كثيرة، وتـأتي فـي المعـاني وفي التعابير، والأسماء، والأفعال، والحـروف، والحركـات، نـذكر منها بالنسبة لقلب المعنى : البراد : تقـال للإنـاء الـذي يغلـى فيـه الشاي، وعكسها السخّان : تقال للإنـاء الـذي يوضـع فيـه المـاء غير الساخن للغسيل، وفي التعـابير : زن طـب : طـب زن، وفـي الأسماء : النعيل : اللعين، ومنها مناعيـل، ومنعـول. نغـج : غـنج ؛ الريلة : الليرة، الصاقعة : الصـاعقة (يطلـق عليهـا : الرحمـة، تفاؤلاً) ؛ والجضر : الضجر (في شرق ليبيـا) وبالنسـبة للأفعـال : يسحاب : يحساب (يحسب) ؛ يقبى : يبقى، ومنهـا : قـابي : بـاقي ؛ وأحيانا يحدث القلب في الاستخدام بـين منطقـة وأخـرى، مثـل : قعمز (للأمر وللماضي) بمعنى : اجلس أو جلس فـي غـرب ليبيـا، ومصدرها : التقعميـز، وهـو مقعمـز، والقعمـاز : مقعـد خـاص يتعلم الطفل من خلالـه الجلـوس، وموضـع الجلـوس فـي بعـض الأدوات، أما فـي شـرق ليبيـا فيقـال لهـا : قمعـز، ومصـدرها

التقمعيز، وهو مقمعز ؛ وأحياناً يحدث القلب في المنطقة الواحدة نفسها، مثل : يعدِي، ويدعِي (من العدوى) وينفص : نصف، وجمعها انفاص، ومنها تناوص، يتناوص، متناوص ؛ أو عند تصريفها مثل : سفنز (نوع من الفطائر المقلية بالزيت، وأصلها : إسفنج، لكونه رخواً مثله) صيغة المبالغة منها : سنفاز، حيث سبقت النون الفاء فيها، ويأتي القلب في الحروف : عما : مع، أو في الحركات كقولنا شِبكة، عند حضر غرب ليبيا (تقلقل الباء عند بادية الغرب)، وشْبِكة في شرق ليبيا، ومثلها نَعجة، ونْعجة، وقَهوة، وقْهوة، رقبة، ورقُبة، ولكنها في كلمة (ركْبة) لا تتغير..الخ.

الابدال : وهو أن يقوم حرف مقام حرف في الكلمة يشترك معه في المخرج الصوتي وتشترك في إبراز هذه الظاهرة ظواهر لغوية عدة كالترقيق والتفخيم والتسهيل والاشتراك في مخرج صوتي واحد :

١ - ابدال الجيم زاياً، وفي العامية الليبية كثيراً ما تبدل الجيم زاياً : زازل، زبس، زسم، زليز، زايزة، زازية، الزوازي "قبيلة"، زيزة، زواز، زنس، سرز، زرزة، زنازة، زنزاري...الخ، ولمعرفة أصلها تبدل الزاي الأولى إلى جيم.

٢ - إبدال الألف ياءً، أو واواً، مثل : أين، أراه، آخذ : وين، وراه، واخذ ؛ ذئب، بئر : ذيب، بير.

٣ - إبدال الباء ميماً، مثل : مكان : بكان.

٤ - إبدال الدال تاءً، مثل : زغرد، تنهد: زغرت، تنهت.

٥ - إبدال الذال دالاً، والثاء تاء، والظاء ضاداً، مثل : جبذ، ذيب، ثوم : جبد، ديب، توم.

٦ - إبدال الذال باءً، مثل : ذو : بو : ذو جنب، بو جنب.

٧ - إبدال السين صاداً، مثل : صطل ؛ فصكية، صقطّ : سطل، فسكية، سقطّ.

٨ - إبدال السين أو الصاد زاياً، مثل : سقف : زقف، صغير : زغير.

٩ – إبدال الضاد زايا (كما في لهجة مصراتة)، مثل : ضوا الضي : ثوا الثي.

١٠ – ابدال السين شيناً (كما في لهجة مرزق) سكّر : شُكّر.

١١ - إبدال اللام نوناً أو العكس، مثل : جبريل، إسماعيل، قربيلة، لين : جبرين ؛، اسماعين، قربينة، نين ؛ غنم، طراشين : غلم، طراشيل.

١٢ - إبدال النون ميماً، مثل : جنب : جمب، انبية (اختصار لعبد النبي) : امبية.

١٣ - إبدال العين حاءً، مثل : معهد : محهد، والأغلب فيها حذف الهاء وتشديد الحاء : محد.

١٤ – إبدال القاف كافاً، مثل : صندوق : سندوك.

١٥ - إبدال الهاء ألفاً، مثل : ناض : نهض، كاف : كهف.

◊ القـاف اليمنيـة و الجـيم المصـرية : وتنطـق مثـل الحرف الإنجليزي G والأصح كتابتها مثلما هو شـائع فـي تـونس (بالقاف المثلثة) وليس كما هو شائع فـي مصـر بـالجيم المثلثـة ؛ نظراً لأن أصلها قـاف : مثـل : بلقاسـم، قـال، قعـد ؛ والعاميـة الليبيـة اسـتوعبت القـاف، والقـاف اليمنيـة نظـراً لاحتكاكهـا بالفصحى ونقل تراكيب صوتية منها، فمـع شـيوع اسـتخدام القـاف اليمنية إلا أن هنـاك كلمـات لا تنطـق فـي العاميـة إلا بالقـاف، مثل : (قاعدة، صلاة القيام، قائد، عقيـد، قـرار)، فيسـتثقل نطقهـا بالقاف اليمنية ؛ كما أن استخدام القاف اليمنية فـي بعـض الكلمـات يعطي معنى مغايراً لو استخدمت بـدلاً عنهـا القـاف، مثـل : قـوم (جماعة)، ڨوم (همج) ؛ بنت رقيقـ ـ ـ ـة (ناعمـة) ؛ بنـت رڨيڨـة (نحيفة) ؛ متقهقـر (متراجـع) ؛ **متڨهڨر** (مشـمئز، بـه غثيـان) ؛ قطاف (بالقاف)، كما فـي جملـة : حـان قطافهـا، أي : جنْيهـا ؛ وڨطاف (بالقاف اليمنية) : هـذر، كـلام لا جـدوى منـه، فنقـول : تسمع فْ ڨطافها : تسـتمع إلـى هـذرها ؛ وللتـدليل الـدقيق علـى التفريق في كتابتها بالقاف المثلثـة، ولـيس بـالجيم المصـرية فـإن

جملة عامية مختلطة ليبية مصرية مثل (جنـدي شـد قُنـدي) تكـون كتابتها الصحيحة (چُندي شد ڤندي)[3].

◊ الاقتراض والتحريف : ساهم عدم تقـديس العاميـة فـي حل إشكالات الاقتراض، فلا توجد ضوابط معينـة للاقتـراض مـن اللغات الأخرى، فهي تقتـرض ألفـاظ الحضـارة وأحيانـاً بالجملـة كما في أجزاء السيارة التي تكاد تكون بالكامـل فـي اللهجـة الليبيـة إيطالية، مع بعض التحريف في بعضها بمـا يتناسـب مـع سـهولة النطق، كما أن التحريف نصـيب كثيـر مـن الكلمـات المقترضـة لتلائم وضع الكلمة العامي، فالدنمارك تصـبح عنـد المـؤرخ حسـن الفقيه حسن وجيله : الدالي مـرك، ومنفلـوط تصـبح عنـد محمـد عبد الجليل (فـي منتصـف القـرن التاسـع عشـر) : بـن فلـوط، ومثلهما سيدي الأندلسي، تصبح سيدي بـن دلسـي، لسـيطرة لفظـة (بن) علـى الـذاكرة الشـعبية، والبوابـة الرئيسـة main gate (مين قيت) تصبح : المنقيط، والأمريكان، تصبح الميلكان..الخ.

---

[3] - الأمير مصطفى الشهابي ، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، ص ص ١٧٢ – ١٧٤ .

وينْ ما برحّ

وين ما برح وانتِ بعيدةْ شوقي

ومرتْ علي ذكرى ايام غلانا

وحسيتْ نيرانك سرتّ فْ عروقي

ولْقِيت ليلي حلّ قبل اوانه

دزيتْ طرفي للقمر بالك يقابلْ طرفك

يوريه كيفْ القلب زادن بلاك احزانه

وين ما خلاص شوقي تعذر وصفه

والقلب ينده م الحنين لْولْفه

دزيت لِك مرسولْ ... ينشد عليك ويقولْ

مشتاقلك ... مشتاقلك ... عودي بلا تبطاي

نا مسامحك ... نا مسامحك ... مهما خْطِيتي معاي

نا القلب عندي ما عرفّ هِجران.. لا نجفاك

نا العقلْ عندي ما عرفّ نسيان.. لا ننساك

لا ننساك ... كيف الحزين ينسى اسباب احزانه

بنغازي ١٩٩٠ ف

الميعاد

حدود المسافةْ بينا ميعاد

ما حد ِبيه اهتم

واحنا بعاد.. بعاد

لا حِلم لْنّا ينحلم

لا شَملنا ملتم

لا جمر ِفينا للحياةْ وقّاد

!!!!!

لَمتَى المواجع ظافرةْ

والبعد بيها منتصر

ولمتى الشواطي مسافرةْ

والموج عنها ينحسر

ولمتى النوارس نافرةْ

والحزن فيها ينصهر

والنفس ماهي غافرةْ

والمد ِفينا ينكسر

واحنا بعاد.. بعاد

وبيناتنا ما يصنع الحداد

لا حظّ لنّا مبتسم

لا شملنا ملتم

لا جمر ِفينا للحياة وقّاد

!!!!!

ِلنجوم في ليلي دموع

تُمطر علي خد القمر تْضويه

والفجر ِمن ياسه

كسر لشموع

وذابتْ خيوطْ الشمس

بين يديه

وحِلمي مراكب راحلةْ

ماْ فكْرتْ فْ رجوع

لا هِلِب * في شط اِللقاْ ترمِيه

وحبي قصيدةْ ما لْها موضوع

لا شِعر فيها ع الحياةْ ترويه

واحنا بعاد.. بعاد

والشوق فِينا لا نقص لا زاد

وجروحنا ما تِلتئم

لا شملنا ملتم

لا جمر فِينا للحياةْ وقّاد

!!!!!

طرابلس ٢٠٠١ ف

*الهِلِبْ : مرساة السفينة في اصطلاح البحارة.

زّلة والشعر

زلْة انبرت للشعر

غّنتْ خفا.. غنّت جهر

والليلْ متوسد غَناوي صوبنا

يسمع وجِيب قْلْوبنا

و زلْة اتكتْ ع الفجر ... تْغني للقمر

* * * *

زلةْ فْ حضن الشِعر

طفلةْ مدلّلَة

متولّعةْ بالرقص

مْتعودةْ ع الهمس

مْتغزلةْ فْ الشمس

والشوقْ في زلّةْ بحر

والليلْ في زلةْ ونَس

والشِعر في زلةْ شْجر

ولِنْجوم علي زلة حرس

والود في زلةْ مطَر

وزلةْ اتكّتْ ع الغيم.. تْرسم فْ القمر

* * * *

زلة حكايةْ مسافرةْ فْ الصبر

للريح يحكِيها النْخيلْ

زلةْ اسرار الارض.. سِر التمر

تْصعب على التأويلْ

وزلة مواسم فايحةْ بِالعطر

وانغام تصعد للسما ترتيلْ

وزلةْ مكان جميلْ

والقلب في زلة هدا

والشعر في زلة سما

يا ريت فْ لحظةْ هالهنا

يوقفْ بزلةْ العمر

* * * *

وزلةْ حديث الشِعر

غنّت خفْا ... غنّت جهر

والليل متوسد غْناوي صوبنا

يسمع وجِيب قْلوبنا

وزلةْ اتكت ع الليلْ... وباست هالقمر

* * * *

زلة ٢٠٠١/١١/١ ف

انا والليل خوت

انا والليلْ خُوتْ

ان طلّ القمر نحيوا

وان طلعتْ الشمس نموتْ

سِنين والليلْ ساكنّي

كما يونس فْ بطن الحوتْ

!!!!!

انا والليل مولودين

من رحم الشفقّ والعتمةْ

رضعنا الريح

من صدر الحياةْ

وفْطمتْنا علْ النسمةْ

ركضنا ورا همس الغُروب

سمعنا تْرانيم الحرفْ للكِلْمةْ

ودندنّا بلحن شفّافْ

ورقَصنا القمر

وغنينا مع لَصدافْ

في لمة سمر

توحدنا مع النغمةْ

انا والليلْ ريشةْ و وتر

من دونّا لا دنْدنْة لا صوتْ

انا والليل خُوتْ

!!!!!

انا والليل كُنّا اطفالْ صغار

نْخربش ع البحر فْ احلامنا

ونقولها للرملْ

وفْ قلوبنا فِي امل

ما يبان هاللّي فْ بالنا مكبوتْ

انا والليل خُوتْ

!!!!!

وفْ غفلْة بهرني نور

سطَع فْ عيون لمآّعةْ

وفْ لحظةْ حزمت امري

خذيت خْطاي في غُمري

ركبتْ النور وشْعاعه

لقَتْني الشمس.. حضنتني

وشالتني في فَضا مسحور

وخْذَاني الوقتْ من ليلي

ونحساب الوقتْ ساعةْ

وجرحني حنان النار

تاريتْ الشمس خدّاعةْ

رجعتْ بشوقْ

نبحثْ عن دفا ليلي

نِبي نْدفن اسى جروحي

لقِيت الليلْ

مازال طفلْ صغّير

وانا ياللي كْبرتْ بروحي

طرابلس ٢٠٠١/١٢/٨ف

الغريب

من نجوى الغريب وشوقه
ساعةْ تضيقْ خْلُوقه
تطلع الآه بدمها
ويحس وهج الجمر تحتْ لسانه
يهجر مكانه
والِريح تنفثْ سمها
يخْلى مكان الصبر
يوقْفْ زمانه
والشمس تفتْح فَمها
تْجفّفْ انهار الحلم
تنبتْ اشجار الظْلم
تَروى بدم الآه
ودرب الغريب يتُوه
والنفس تاكل همها
واحلام الغريب فْ بيتْ
ينْهكْها التعب

والارض يسكنها الغضب

والكون ميزانه انقلاب

هالوقتْ ما هو وقتْ حب

ما اشبه البنتْ بامها

وهم الغريب همين

هم الحنين

لْصدر في حضنه يحطّ

وهم الافكار التايهة ع الشطّ

يهجم الموج يلمها

و من ياس الغريب وصبره

في وقتْ ينضب حِبره

يكتب الآه بدمها

ويكتب احداها اسمها

ينحتْ ملامح جِسمها

يلّون بدمه رسمها

وفي قلبها

يحفْر بيده قبره

ويكتب علٰى شاهد القبر

للناس تأخذ عِبرةْ
ماتْ الغريب بشوقه
جفّت الما في عروقه
وما طالها
ضحى عليها بعمره
ما نال منها تمره
لكن فْ قبره ضمها
وعاش الغريب فْ بالها
!!!!!!

طرابلس ٢٠٠١/٨/٨ف

راحل

راحلْ في مركب بلا بحارةْ
في بحرك قوي تياره
نَا قاصدك بِاحساسي
في بحر موجه قاسي
لا ريتْ فيه مراسي
لا ريتْ فيه منارةْ
راحلْ وحاطْ اصدافي
نُوصل غلاك نْصارحِك باريافي
نسقِيك من منهلْ محبةْ صافي
نْنْهي عذاب القلب وانتِظاره
لكن امواجِك كسرتْ مجدافي
وردت تْعاند مركبي في ابحاره
صمد مركبي للريح ... وعاند امواج بحركم
لا ينقِلب لا يميح ... مجرب اهوالْ خطركم
نَا مركبي ما يريح ... حتى لو غاب قمركم
عندي قمر ونجوم

لا ينطفن لا يختَفن بغيوم
عزم و وفا وايمان بالقيوم
وقلباً احتار العقل في اصراره
او مركبه يغرق يجيكم عوم
يصارع وراكم هالبحر واخطاره

بنغازي ١٩٩٠/٦/٢٤ف

علی رِسْلِك

على رسِلِك تهأدي

واسكُني ليلي وسهادي

وازرعي فْ عمري ابتسامةْ

وانفخي فْ جمرة رمادي

وكُوني فْ بحري محارة ... وشكّلي لؤلؤ فؤادي

واجعلي اللحظة العجولة..اتّمهل فْ العبور

واجعلي القُبلة الخجولة

تنتشْر زي البخور

واقلبي كُلْ الموازين القديمة.. والتقاليد العقيمةْ

وجددي كل المبادي

وكوني في بحري محارة

وشكّلي لؤلؤ فؤادي

وطيري في فضاءات المدينة°

كالعصافير اللعوبةْ

وارسميني فوق خد الياسمينةْ

صورةْ الضحكةْ الطروبةْ

وغردي باللحن شَادي

وكوني في بحري محارة ... وشكّلي لؤلؤ فؤادي
وهدهِديني..هدهِديني
طفلٌ فْ احضانك تربى
ومِن دفا صدرِك تعود ع المحبةْ
واذكريني اسم فْ حروفك تخبى
واكتبي الشِعر بمِدادي
وكوني في بحري محارة ... وشكّلي لؤلؤ فؤادي
واحضنيني واشربي مني الندى
ورددي احلامي صدى
وهِمي خلينا نْتْشَابك
بالشفاهْ وبالعيون وبالأيادي
ودوني فْ لوح المدى
هذِهِ لحظةْ ميلادي
وكوني في بحري محارة ... وشكّلي لؤلؤ فؤادي
على رِساك تهادي.. وسافري فْ نبضي
ورشي بِالعطر أرضي
ولوني ليلي بألوان الربيع
وامسحي عني الصقيع

كُوني عمقِي كُوني طُولي كُوني عرضِي
وادخُلِي فْ عنصر موادي
وخَلِني فِيك نْتِلاشَى..وانْتِ في روحي اتّلاّشي
وغَذّي لحظةْ انتعاشي
وارمِيني بسهم المودة.. وكُوني قوسي وارتدادي
وكوني في بحري محارة ... وشكّلي لؤلؤ فؤادي
وهاتي انْسامك حنُونه
وخَلّي نفتَح ِلك شِراعي
ومدي كونِك باتْساعي
وساوي موجِك بارتفاعي
وانهي رحلة سندبادي
وازرعي فْ عمري ابتسامة
وانفخي الجمر فْ رمادي
وكوني في بحري محارة ... وشكّلي لؤلؤ فؤادي

طرابلس ٢٠٠٢/١/١٢ف

عَلَى كفك

علَى كفّك.. قْريتْ عمري

عرفْت امتَى يجِي ليلي

عرفْت امتى يغيب قمرِي

ومن كفّك.. عرفتْ انك

بروحك ع الهوى سلطان

وانا المغلوب على امري

على كفّك.. قْريتْ إنّي

أنا الجنّي ... وانا الإنسان

وشفتْ إنّي

أنا الموجة وانا المركب وانا الربان

وإنّي في هواك نْدور

بلا شاطى وبلا عنوان

وفي كفّك.. فْهمتْ اِلسر

ولِيشْ ان القمر والارض

مجبورين ع الدوران

على كفك.. قريتْ الوهم

مكتوب بعذاباتي

علِمتْ إن الألمْ آتي

وعرفت ِإنّي.. في وجه الريح

نْسرد في حكاياتي

وترجع ِلي صدى أَحزان

على كفك

تراءتْ ِلي

عيوني ساكنْة اللهفةْ

وبان الشوقْ فْ عيونك

كْما البركان

وقتْ يصحى

و وقتْ يغْفى

ومِن خَطّين في كفّك

لمحتْ إن الحياةْ فْ صفك

وعرفتْ إن الحياةْ والموتْ

مِشْ ممكن يجوا صدفةْ

وإنّي فْ الزمن لحظةْ

نهايتها بدتْ م الآن

على كفك

طرابلس ٢٠٠٢/١/١٥ف

نحْنا وْينْ ؟

(إلى روح المرحوم الشاعر : الجيلاني طريبشان)

لما يجوع الشاعر

ياكل كلام اشعاره

ولما يموتْ الشاعر

تحكِي الناس اخباره

وكيفْ كان زاهد في مسراتْ الحياةْ

ويطلُب شْويةْ راحةْ

وكيفْ كان طاير فْ السما

يحمِلْ احلام الأرض فوقْ جناحه

وكيفْ كان هم الشعر

نبض جراحه

ونَزفْ الحروفْ فْ روحه

يترك على وجه الزمان آمارةْ

ومهما تْباعد مركبه في غُربةْ الترحالْ

مازال صوته ينسمع فْ ألحانّا موالْ

يندَه علَى الحيرين

و فْ عقُولنا تارك سؤالْ

يقُولْ

نِحنَا وين ؟

نِحنَا وين م الدِنْيا

زعمنَا وين

نِحنا فوقْ.. و لاّ تحتْ

و لاّ بين ها لبينين

لا رزقْ عَطّانا عليه نْخافْ

و لانا فْ فقر معدومين

و لا جِينا علي لَعراف *

واحنا وين ؟

نحنا وين مِن دِنيا

غذاها صبرنا القاسِي

وتْتْسلى بمواجِعنا

وعشَاها حِلمنا الماسِي

و تَسكَر من مدامعنا

و طمعانين نْمِلكْها

و تَسخَر مِن مطامعنا

تموتْ احلامنا فيها

وفيها يموت واقعنا

واحنا وين ؟

نحنا وين مِن دِنيا

لْها مليون درب ودرب

وتمشّينا خْطاوِيها

خَطْوةْ شرقْ ... خَطْوةْ غرب

ولا نُوصلْ معاها لْحلّْ

لا نا فْ سلم.. لا نا فْ حَرب

ولا نا فْ شمس.. لا نا فْ ظِلّْ

و احنا وين ؟

نَحنا وين مِن دِنيا

لْها لون الحياةْ والموتْ

وفِيها افكار مخْتِلّفَةْ

عن الناسوتْ واللاهوتْ

وفيها احجار مخْتْلطةْ

زمرد محتضن ياقُوتْ

وفيها الخوفْ ابن الكبتْ

والدمعة انين الصمتْ

والكِلْمةْ صداها سكُوتْ
واحنا وين ؟

نْحنا وين مِن دِنيا
خَلّتْنَا وراهاْ نحِير
نْحلْل لُغز معناها
تْعادي هاْ للّي صاحبها
وتَضحك ع اللّي عاداها
و وين تْظنّها بتَصفَى
يخالط صيفها شتاها
وتكتبنا بحروف الألم
على لوح الجرح
آهةْ
واحنا وين ؟

طرابلس ٢٠٠٢/٢/٢٦ف

* لعراف : الأعراف / وهي سور بين الجنة والنار

أمي والصبرْ وْحكاوي الخريفْ

لما الخريفْ يحن لاوراق الشجر

ولما الليالي تْنام في حضن القمر

تخطر حكاوي أمي

واشعارها ع الصبر

خُوذْ صبر داوي داك.. اِحسن عزاك في مولى الغلاَ *

وتبدا لوتار تِئْن من حزن الشِعر

صبري كْمّلّ والنوم ما واتاني

واللّي انتظرته لا اعتذر لا جاني

و فْ ليالي الخريفْ الباردةْ

نشتاقْ دفء عيونْها

ولحظْة حنان فْ عُمرها

و يخطر علّي كانُونها

ملموم فيه الجمر

وذايب علي صفحةْ حكاوي عمرها

لوبان مر وصبر

صابرْ عَلي ما فيْه..العقلْ نينْ غِيّابَهْ يْجُوا*

وتفوح ريحة أُمي

حنةْ وشيح وزهر

وفي ليلْ الخريفْ

تخرفْ عن خريفْ العمر

عن بنتْ سمحةْ

عايشةْ في قصر

عن شاب أسمر

ما عيراشْ الفقر

فارس عزيز النفس

وحر كيفْ الصقر

بعزمه تحدى نَاسها

بسيفه هزم حراسها

وفوقْ الحصان خذاها

وكملْ معاها العمر

وترحلْ حكاوي أُمي

وتْجولْ بين الناس

وتُخطر عليها هوومها

ويقوى وجِيب الياس
ويفيض بِيها الكاس
تْذكر غناوي الصبر

صبارْ وْالكواينْ فِيهْ..شدِيدْ عزْم تاريتْ خَاطري*

يا يام
نَا عارفك صبارةْ
ع الصاْيبةْ والمرةْ
وقلبك كبير و وافي
نَا عارفك صبارةْ
أصلاك كريم وحرةْ
لا تْحقْدي لا تْجافي
نَا عارفك صبارةْ
والْحر هضا سِره
بالخْير ديما يكافي
وبالصبر درتِي فاصلْ
بين الرجا والياس
صبرك صلاةْ

واجرك عليها حاصلْ
ما يضيع عند ا
ولا يضيع عند الناس

وْمْغير اصبري يا يامْ.. فرج ا ما ريتْ ما اقربه*

طرابلس من ٢٠٠١/٩ إلى ٢٠٠٢/٣/٤ف

*** أغاني علم من التراث**

على خد المسا

على خد المسا بكِّيتْ مساءاتي

وتأوه في خيالي صوتْ ضحكاتي

وذوبني حنين الوجد

لصحابي وشْقاواتي

وسهرني أنين الليلْ في راسِي

وين شافْ الصبح آتي

وتَنهدتْ !!

وطافتْ في دهاليز الخيالْ

ذِكرى بعيـ ـ ـ ـدةْ قْريبةْ

و شميتْ ريحةْ طيبةْ

خطرت علَي أميمتي

وهِي داعيةْ فْ الفَجر

لْبويا اللّه لا تغيبه

وتنهدتْ

ايه يا يام

وين الملاعب لْولى

وين الرفَاقةْ جولوا

وجيرانّا ِلقْدِم وايشْ اخبارهم

هالوقت وين ديارهم ؟

زعم ساكنين فْ دارهم

ولاّ بعدنَا حولُوا ؟

وتذّكّريشْ زمان

وين ما يحدِثْ مناب لْحد من جِيرانّا

انّوضوا جميع نْعولوا ؟

وتّذكّريشْ زمان واحنا صغار

ان دِرنا الخَطَا

وينتّ ِفينا شيخْ ِمن جيرانّا

نْواطوا العيون ونْخَجلُوا ؟

وتنهدتْ !!

وتذّكْريشْ فرحتْنا صغار

بلبس الجدِيد فْ العيد والتبويزة*

وكيفْ نْتْربوا ع العصر من صغرنَا

وكيفْ النفوس عزيزةْ

وخدود البنْت كيفْ تَنْحمر

وين ينْحكى ع الجِيزةْ

وكيفْ كان دِيما ضِحكنَا مِن قَلْبنَا

اولاد وبناتْ صغار طاهر لِعبنا

وين نلعبوا الوابيس والنقْيزةْ *

ووقْت العصر وشِيابنا متكْيين

ويلعبوا فْ السيزةْ *

و فْ برد الشتا.. كيفْ العويلْةْ يلمهم

شَاهي مع لويزاتْ وتهدريزةْ

وتنهدت !!

تْرى خبريني يام

شِن صار في هالناس

وكَنْهم تّْغير حالهم

واحوالهم تَمتْ عجب

ووين الحشَم

ووين تِربايةْ الأُم

وسطوةْ وهيبةْ لَب

ووين النخَلّ لَولْ

تْرمِيه بحجارةْ

ينزلْ على كِتْرك رطَب

وتنهدت

آخر كْلامي يام

أكيد الزمان تغير

وماهوشْ كيفْ زمان

والمادةْ فْ عقُولْنَا

طْغِيْتْ على الانسان

لكن أنا في خَاطري

مازال عِنْدي أملْ

في ناسنَا.. فْ اولادنا

مازالْ فِيهم خير

وفيهم صفاْ وايمان

مادام ذِكْر ا

فْ بلادنا

يعلى مع لَذَان

ومادام في قعدأْتنَا

ندكّروا ما كان

ومادام جوا عيونّا

فِيه للحبيب مكان
ومادام عِزك ليبيا
فْ قْلُوبنا ما هان

طرابلس من ٢٠٠١/١٢/٧ إلى ٢٠٠٢/٣/٤ ف

*** التبويزة (بتفخيم حرف الزاي) : الأبهة.**

بَنْغازِي

بنْغازِي ... ُأمي

إن كان غابت ُأمي

وطَعم المِلح فْ دموعِي

وطَعم الزيتُون فْ فمي

بنْغازِي.. نِعرِفْها.. مخّبيها تِحتْ جفني

في تْشم ريحتْها.. مهما نْغِيب.. تِعرِفْني

وتِعرِفْ ما يكْدرني ... وتِعرفْ ما يكّيفْني

مثلْ.. ُأمي ... شْفَقْها لونه.. دمي.

* * *

بنْغازِي.. تِعرِفِني زنَاقِيها

وتِعرِفْ صوتْ ضِحكَاتي

وتسمعها فْ اشْعاري

تْشَكّلْ نَبض كِلْماتي

وتَقْراها فْ تَعابِيري

وتلقَاها فْ حِكَاياتي

وتعرفْني ليالِيها
وتعرفْ كُلْ شَطْحاتي
وتذْكُرني مقَاهِيها
وتْذْكُر من هم اصحابي
وتْذْكُر أجملْ اوقَاتي
* * *
بنْغَازي
تَعلّمتْ العِشِقْ مِنّها
وحضرتْ جلْ غَياتي
ومازالْ الشجر فِيها
محفّر مِن مسامِيري
رسمتْ قْلُوب.. نْقشتْ اسهام.. نْقشتْ اسمي
بجنبْ حروفْ صحباتي
وشَافتْني فْ ملاعبها
فارح بانْتصاراتي
وسخْرتْ مِن تخلِيطي
وحزنَتْ لانْهزاماتي
ومهما نْتُوه فْ الدنيا
ومهما نْسِير فْ الزحمةْ

تّميز صوت خَطواتي

ومِن وقْع الخُطا ع الارض

تِعرفْ كَان أنا فَرحان

ولا غارقْ فْ همي

وتحضنّي بِدفَا لَحلام

وتقْرا علي واتْسمي

مِثل.. أُمي

بنْغَازِي.. يا حنَان الأُم

ضميني بعطفْ ضمي

بنْغَازِي حنُونَة وكُلْ حد تْضم

والخير فِيها ع الجميع يعِم

واللّى ما عرفْ بنْغَازِي

ما عرِفشْ.. كيف الأرض.. كيفْ الشجر

كيفْ الموج.. كيفْ البحر

كيفْ الشّمس.. كيفْ القمر والليلْ

يبقَن أُم

* * *

بنْغَازي ... عروس اليَم

وحلْم الضيفْ واللاّفي

تْلاقيك بكْرم هلْها.. ودِيماً وِدها صافي
ولُو مرةْ زمان البرد حاصرنا
نْلوذْ بحِضنها الدافي
وكَان الصهد شَفْشَفْنا ... علينا تْجود
بِنسمةْ ريح هفْهافي
* * *
قْمرها في سهارِيها مونسها
وماَ تغنّي نْجوم الليلْ ... إلا في مجالسها
وهِي بالنور محتفْلةْ
شَذَى لَنْسام ينَعسها
تَغْفَى غَفْيةْ الطفلةْ
ويصحى الليلْ يحرسها
وبرموشَه يغطّيها
و فْ جفُونه يدسدسها
°وتضحك كان هبْ الريح
وداعب زهرةْ الدفْلَى
وبِكْفُوفَه تْحسسها
وتفرح لهطول المطر
علي غَفْله

ويد الموج تَلمسها

* * *

مراكْبها.. فْ غْروب الشّمس

تْشِقْ اليم مطْمانةْ

تّطاوع راى ريسها

وتَرجع في غَباشْ الفَجر

بخير ا ملْيانةْ

تواكْبها ... تسابقْها ... نوارسها

* * *

بنْغَازي

هواها عطّر أنْفاسِي ... وتسكُنّي

ونا فْ روحي نْتَنَفْسها

مثل أُمي

نْوشْمها علي صدري

وتْغرب شَمسها فْ دمي

* * *

بنْغَازي اولاد بلاد ... ربِة عصر واجواد

وحتى صغيرهم يسمى.. قَدر وهِمةْ

ومايخِيبش وسطْ الميعاد

يفرح كان الضيفْ لفاله ... يِرقّةْ حاله
يرحبه.. وبود يضمه
رحبك.. اجعنّا الزمان ما يكْبك
ومرحبا بضيوفنا
إن ما تْساع الأرض.. نشيلوك فوقْ كْفُوفْنا
مرحبا.. ايشْ حالك ... قَمعِز وهدرز ... تْريح
م الهم قَضي بالك.. راك في بنْغَازِي
لا تْحِير، لا اتّوه، لا تتعب ... لا ينقص عليك الزاد
والحوشْ حوشَك ... و الخدود وساد
* * *
بنْغَازِي.. أهل الكرم والجود بالموجود
واطفالْ ديما فارحةْ بالعيد والميلود
نَصنَع قناديلْ الورقّ
مْلونة ونحطْ فيها شْموع... ونرسم عليها ورود
وعند الشْفَقّ ... نَطْلَع نَقندِل بيها.. نْغّني غَنَاوِيها
هضا قِنْديلْ وقِنْديلْ.. يشعِلْ في ظَلْماتْ الليلْ
هضا قنديلك يا حوا.. يشعِلْ م المغْرب لا توا
هضا قنديلْ النبي.. فاطمة جابتْ عِلي
هضا قنديلْ الرسولْ.. فاطمة جابتْ منصور

واخر الليل تبدا الحضرةْ ف زاويةْ بِن عِيسى
لا مِيشْ لا بارود،لا خُطّ لا لوح،لا العاب رخِيصةْ
ونْمسى ونا فَرحان..ونَصبح فْطُورِي..رب.. سمن وعيشْ
* * *
بنْغَازِي ملاعبنا بين البحر..والشابي وسوقْ الحشِيشْ
ومنزلْ رفيقْ المِهدِوي.. وسوقْ الجريـد.. احـدا سِـيدنا خْرِيبيشْ
واحلام تَكْبر في قلوب صغِيرةْ
واحنا صغار ونِدرسوا في مدرسةْ لامير
ولاّ عويلةْ ونلْعبوا في مدرسةْ لاميرةْ
ولما يِخِشّ الصيفْ.. يلمنا مِيعادنا فْ جنان سِي الشريفْ
وتْنَسم علينا أْنسام م الكورنيشْ
وتبدا شطانتنا مع لِطْيور ... نْصوب مقالْعنا علي لخْلِيشْ
الجازر بيدك ليسرى.. مربوطْ فيه ستيك
وبليمنَه تْحطّ النواةْ فْ الجِلْدةْ
وتْمقْصِد ... وتطلُقها النواةْ.. ساعاتْ تِصدِفْ وحدةْ
واغْلاب الرمي يطِيشْ.. !!
وايه.. يا يمي ... مهما عليك نغيب
دِيما هوايا تْحضني وتْلمي

وسبحان.. يا بنغازي .... ياأمنا سبحان
حتى ونِحنَا كْبار.. مازالْ فِينا طْفلْ
يذّكْر ايام زمان
ومازالْ فِينا للمكان ... مكان !!

طرابلس ٢٠٠٢/٥/٨ ف

الوطن

هاضا أنا.. وهاضا الوطُن.. وا   فُوقْ الكُلْ
كَلّا أنا منهو أنا ... غير اسم بين أسماء
وشوية مواجع ساهرة.. تلفى مع حلولْ المسا
وباقي شهادةْ معلّقةْ.. وكم قصةْ غَلا
وحفنة حكاوِي مسافرة.. فْ الذاكرةْ.. اغلَبها انتسى
وأحلام ديما مأجلَةْ.. ومراتْ يحييها الأملّ..
وا   فُوقْ الكُلْ
كَلاّ الوطُن ا .. يا ما أبهى الوطن
كِلْمة كبيرةْ وساهلةْ ... تخلي البعيد يحن
الوطُن..كيفْ الأم تِعرفْ ابنها.. ما تسأله
مِن وين ؟ ولاّ لمن ؟
الوطن حاجة ثانيةْ ... لمسة عطُوفَةْ وحانيةْ
الوطُن.. هو الصوتْ ياللّي تسمعه
وين ما تْكون بروحك ... تحِس البعيدةْ قْريبةْ
والوطن.. هو الشوق ياللي يسكْنَك
يمسح مواجع روحك ... تحس الغريبةْ حبيبةْ

والوطن.. هو رفيقْ أحلامك..

وهو من يحِس جروحك

مهما اتّطُول الرحلةْ.. لا يسيبك لا تسيبه

الوطن..ضحكةْ الطفلْ الصافيةْ..

وضمةْ الأم الدافيةْ..وريحةْ الأرض الطيبةْ

والوطن.. أول خَطاوي اقدامْنا.. وأولْ مواعيد الغلاَ

واولْ حروفْ كلامْنا ... وتهجاي أولْ ألف وأولْ باء

ومنهو أنا لولا الوطن ... اسمِي خذيته م الوطن

شَكِلي تحدد فْ الوطن ... فَرحِي عرفته فْ الوطن

جرحِي يداويه الوطُن ... ورزِقي مقَسم فْ الوطن

و جدي دفنْتَه فْ الوطُن

وان ضاقْ بي الكون ... فْ الوطن نلقَى حلّ

وا فوقْ الكلْ

طرابلس – ناصر ٢٠٠٢ ف

اعترافات

انا معترف.. إني أنا مشتاقْ لْميعاد يجمعنا أنا وهي
بعد غيبةْ
انا وهي والليلْ ثالثنا ... والشوقْ بين عيونّا مرسولْ
يشيلْ الوجد ويجيبه
وتبدا تقولْ.. وآنا نقولْ
ولا في حد يسمعنا.. ولا في حد يشبحنا
بعين الشك والريبةْ
وطيور المسا تفْرد جوانحها وتبدا علينا تْرِفّ
انا معترفْ
انا معترف.. إنّي انا مشتاق لميعاد يجمعنا انا وهي
علي شَطْ البحر وانسامه تلاطفْنا
ويحجبنا جدار الليلْ.. ونجومه تْوالفْنَا
ويحضنّا شُعاع البدر.. تتلاشى مخاوفنا
نْديروا ما فْ خاطرنا.. وتدفّقْ مشاعرنا
وتتهامس وتتلامس شفايفنا
ويهتز البحر نشوان.. وياخذنا.. علَى جناحه ويجرفْنا

ونركْب فوقْ ظهر الريح.. معاها نافّ وين تْلافّ
انا معترفْ ...
انا معترفْ.. انّي عشقتْ عيون ما قَبلي عشَقْهن حد
عيون ينام فيها الليلْ ... تْظّللها اشجار نخِيل
وتسِقي م المدامع ورد
عيون إن كان فيها أبحرتْ
تْرسِي في مرافي ود
عيون كيفْ سِحرها.. كيفْ عمقْها
كَيف لُونها.. كَيفْ حِزنْها.. ماْ حد في الدنيا عرفّ ...
اناْ معترفْ
اناْ معترفْ.. انّـي عشـقتْ عيـون هامـتْ فـي هـوى بلاَدي
وعشِقْتْ كُلْ حبةْ رملْ.. جرفْها سيلْ في وادي
ودفّتْني فْ لْيالي البرد.. وهنّتنْي علَى اولادِي
وغَنْتْ كُلْ ألحاني ... وحفْظتْ كُلْ أورادِي
وسكْنِتْ في حِكاياتي
ومرسومة فْ جوازاتي.. وبِطاقاتي
ومكتوبة فْ شهادةْ يوم مِيلادي

ومقرية فْ خْطُوطْ الكفّ
انا معترفْ
انا معترف.. انّي انا من كحلْ عيون السمو *
ومن حنا اقْدامه
وانّي انا من خَربشْ جدار الليلْ باحلامه
وانّي صاحب العِقْد الفريد.. ومن كتب طوقْ الحمامةْ
واني من ألّفْ كتاب الصدقْ منفذْ للسلامةْ
وانّي انا من عاشْ عمره ع الشرفّ
انا معترفْ
انا معترفْ اني اناْ عربي
ومِن نَسلْ عنتر وزرقاء اليمامةْ
وانّي ليبي.. واني سيد فوقْ أرضِي
وان وطني هو حبيبي
من مراكِشْ للمنامةْ
وأنّي نِحملْ كُلْ ألقاب المعالي والسيادةْ والجلالةْ والفخامةْ
وأنّي في زمن التَردي باقيةْ عندي كرامةْ
ولا عشتْ مرةْ يوم في حضن الترفّ
ولا حد مرةْ داس مِن طَرفِي طَرفْ

انا معترفْ

انا معترفْ ... ومليون مرةْ معترفْ

انّي كتبتْ الشعر بدموعي ومن واقع حياةْ الناس

عن الأرض.. وعن الثورةْ

وعن فارس حيا ُأمةْ.. رواها مِن صفَا دمه

وعاشْ عمره عزيز الراس

وعن الحب.. وعن المرأةْ.. وعن الشجرةْ

وعن أجملْ قمر ونّاس

وانّي انا من غَنّى في ليلْة صفَا مع لحن الصدفْ..

انا معترفْ

انا معترفْ ... انّي انا الشاعر.. وانا الفّنان

وانّي في الحياةْ مركب.. والكِلْمةْ هِي الربان

وانّي منفطم ع الشِعر.. وانّي مِتّكِي ع الصبر

واني مشيتْ فوق الجمر.. بافكاري وانا حفيان

وانّي ضيعتَه زمانِي.. وأجمل ايام العمر

نَبحثْ فْ سِر المِعاني ... فْ التوراةْ والانجيل والقُرآن

وسر إبداع البشر ... ف الأنغام والألحان

حتى نِعرفْ إن سِر الكون كِلّه

وضعه ا   فْ الانسان
وإن سِر الشِعر مخفِي
بين الياء وبين الألفْ
انا معترفْ
انا معترفْ.. انّي انا نِبي نْحقّقْ شَي.. أيا شي
ونحس انّي انسان
ونحس انّي حي
ونِتْرك بصمتِي ع الكَلْمة
و فْ عِز ضِيقْ الضلْمةْ
نفتح مساحةْ ضي
في كِلْ زنْقَةْ ومنْعطفْ ... انا معترفْ
انا معترفْ.. انّي انـا المسـكون بالكِلْمـةْ وسـر النـون وجنون الألفْ
وانّي انا من قال إن الصبر طَعمه مختلفْ
وانّي انا من نَام.. فْ احضان الكلام ولحافِي الحرفْ
و انّي انا من شَكّلْ من حروفه تُحفْ
و انّي انا أبو الطيب.. وانا الأخطلْ.. و انا شوقي
وانا قيس.. وانا لطفي وانا صدقي.. وانا الأحنفْ

و انّي انا من خَلاّ ... نخلْ زلّةْ

بعد يسمع كْلاَمي

يميلْ م النشوةْ

ويبدا يرتجفْ

انا معترفْ ... انا معترفْ

بدأت في طرابلس و انتهت في بنغازي التمور ٢٠٠٢ ف

النوّة

بعِيدِين مازلنَا عن الشاطي
تايهين ع المينا
وعلى شْراع الوهم و الزيفْ ترحلْ امانينا
واحلامنا فْ شْبا كْنا
وشْباكْنا متْكبلة فْ صخر الضجر
و مجدافنا ف يد البحر
و الخوفْ في ايدينا
و يهطلْ علي خَد القمر
دمع الشّتَا
و الفجر يحويه الضباب
و الصيفْ يدمِي حلُوقْنا
والمِلح يعمِي عيونّا
نْشُوفْ الطريقْ سراب
نْجرعوا شْويةْ صبر
تبدا الشفايفْ تْرتِجفْ
الصبر طعمه مختلفْ

الصبر ما هو مر
الصبر كيفْ الجمر.. يكوينَا
و احنا كما احنَا
مازلنا بعيدين عن الشاطي
تايهين ع المينا

وفجأ ةْ
هاج البحر.. وعِلِيَتْ امواج النوة
والغيم غطّى ع القمر
والريح بين سوه
و وهج المراكب للرحيلْ
خيم عليه الليلْ
و طيور النوارس سكّتَتْ
ما عاد شَالت للشواطي دوة
وبين البحر والريح
لا المد عنده حيلْ
لا الجزر عنده قوةْ
و الشمس دَابتْ فْ الشفقّ

والوقتْ غير جوه

وانا وقفتْ.. لا همني..لا خُفتْ

إن كان هاذي ريح

أنا داخلي اعصار

وإن كان هاذي نَوةْ

أنا داخلي تيار

وان ضاقْ النفس ع الناس

فْ عيونها

نفتح بشوقي للتنفس

كُوةْ

القسم الأول

١

- خير . خير.

أجفله الصوت كمن لسعته الكهرباء، واستنهض الصراخ أعصابه كأنه النذير. انتبهت عيناه على اتسـاعهما وسـكنت أنفاسه للحظة وانكمش جسده تحت الغطاء المهلهـل وزفـر أنـّـةً قبل ان يدوي الصراخ مرة أخرى ويهب قاعداً فـي فرشته الرثـّـة : خير. خير. يا ويلي.

- ما هذا.؟..

نفض الغطاء عن جسده العاري إلا من سروالٍ قصـيرٍ كالحٍ بالأوساخ. قفز خطوتين إلى الأمام أوصلته إلى خشـب الطوبار. مد رأسه متوجساً باتجاه لوح الزينكو الذي تطقطقه دفعات ريح متقطعة وأصاخ ساكناً كمن يتوقع إغارة. ارتـج جسده مع صراخ أمه المذعورة : أبوك. أبوك يا خير..

ارتد فزعاً الى الوراء وتناول من غير وعـي بنطالـه والكنزة الصوفية المرميتين بجانب الفرشة. تعثر وهو ينساب مرتعشاً في بنطاله. اختلّ توازنه وفحج مترنحاً للأمام فحالت دون سـقوطه سـتفة الأخشـاب المتحجبـة بالرمـل

والخرسانة .تسال في الكنزة وهو يقطع طريقه حافيـاً فـوق ثرى التسوية الرطب. أزاح لوح الزينكو ومد رأسـه عبـر فتحة الباب. تلفت يميناً ويساراً في المدخل المكشوف الموحل متبيناً مصيخ السمع.

كل شيء يثير الانقباض. العتمة والريح والسكون. رفع نظره للأعلى، فكان الضوء ينبعث من نافذة مخدع أبويه في الطابق الثالث، كذلك نافذة بيت الجيران من تحتها. تسـللت الريبة اليه : أمعقول.؟!.. بارح التسوية إلى المدخل محـاذراً بـرك الماء غير مبالٍ بالوحل. رفع رأسه مع اندفاع بغشـة رذاذ إلى وجهه كأنها الإبر. أغمض عينيه وأطـرق وهـو يمسح براحته وجهه ونفخ متأففاً. ارتجف برداً فجمع ذراعيه متكتفين إلى صدره ونظر من جديد للأعلى.كانـت السـماء قاتمةً تلتئم سحبها وتتفسخ، تتكثف كتلهـا وتتكشـف. كأنهـا أشباح هاربة من ضوء القمر. أطال التحديق بالنافذة المضاءة في الطابق الثالث ثم أرخى رأسه وحركه باسـتياء. غلبتـه الحيرة قبل أن يجفل على صوت أمه وهي تصـيح مسـتندة بذراعيها إلى حافة النافذة :خير... سكتت وهي تمد رأسـها للأسفل متبينة الظلّ الذي لم تمتصه العتمة. سألت : من.؟.

سأل بالمقابل : ماذا هناك.؟...

صرخت بحزم : أما زلت محلك.؟.. استدعته بحركة من يدها وهي تضيف : تعال شوف مصيبتنا. أبوك أبوك أبوك.

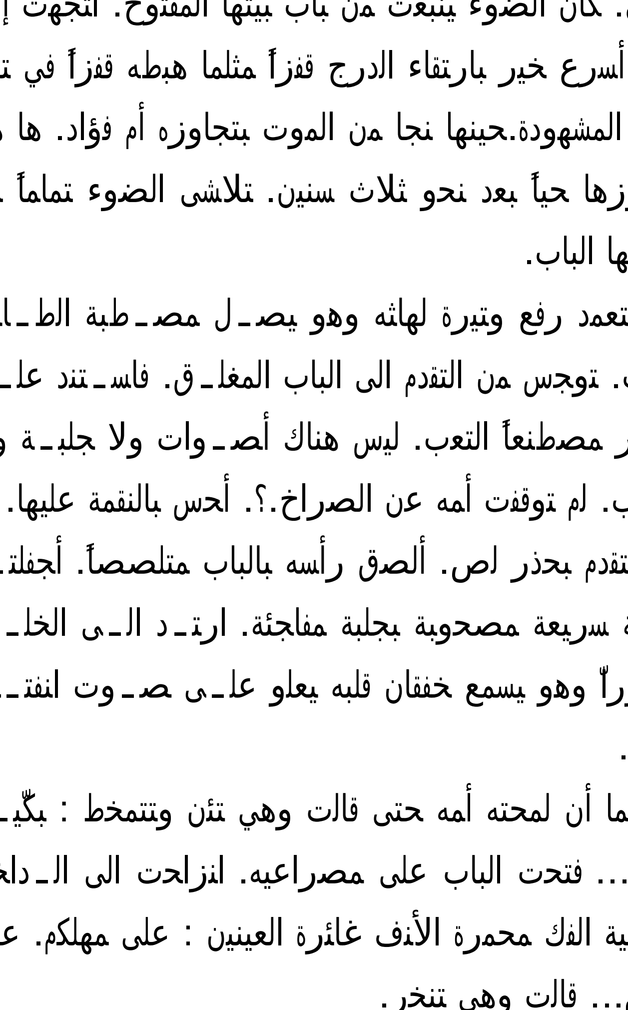
تكثفت البرودة في ركبتيه مع أطلالة القمر عبر خصاص الغيم المتكسر، فانفرج الضوء شاحباً وكأنه محتجب بالدخان.

غادر المدخل مهرولاً محاذياً البناء من الخلف فانتهى إلى درجٍ صغيرٍ من الدبش ملتصقاً بالبناء من جهته الغربية. أرتقاه مفاجئة إلى الرصيف وتجاوز باب الدكان الصاج المغلق مجانباً النظر إلى المبنى الكبير في الجهة المقابلة، يفصله عنه شارع عام بعرض ستة أمتار. أعطاه ظهره وقد هيئ له أن وراء النوافذ المعتمة أعين تراقبه. تلكأ قليلاً قبل أن يطرق على باب الحديد بضع طرقاتٍ واهنة ثم التفت خطفاً الى الوراء فشملت نظرته المبنى بنوافذه وشرفاته وجدرانه والآرمة التي اعتادها الى درجة النسيان " ثانوية بنات الجوفة ". لمعت في رأسه صورة نجلاء.

صرصر المزلاج في باب الحديد فارتد خطوة واسـعة الى الوراء منحرفاً إلى الجانب. انشق الباب قليلاً، لكن هجمة ريح عاتية دفعته في وجه أم فؤاد. تشـبثت بـه وقاومـت ارتجاجه، فأسرع نحوها ودلف إلى الداخل. تقهقـرت نحـو الدرج بينما تولى زلج الباب. كان االدرج مستنيراً بالضـوء المتسلل من المصطبة العليا. تفرست به وقد جاش خاطرهما بحرج تلك اللحظة التي لم تمح ذكراهـا الأيـام. اعتراهمـا الخجل. لو مات يومها لكان جسدها العاري آخر شيء يراه. بلع ريقه وهو يسأل : ماذا هناك.؟..

بلعت ريقها أيضاً. انها المرة الأولى التي يتواجهان منذ ذلك الوقت . تذكرت سيماء الرعب في وجهه وهو يباغتهـا مكشوفةً يطارده أبوه : أبوك.... توقفـت للحظـة قبـل ان تسترسل : الأحسن أن تصعد إليه. واستدارت نحو الدرج

- ماذا حصل له.؟.. قالها بخشية وتردد. كأنه يماطل.
- تعبان قليلاً. سيأخذونه إلى المستشفى.
- مستشفى.!!. لماذا.؟.
- لا أدري. أبو فؤاد معه فوق.



ارتقت الدرج وهو يتبعها صامتاً إلى مصطبة الطـابق الثاني. كان الضوء ينبعث من باب بيتها المفتوح. اتجهت إليه بينما أسرع خير بارتقاء الدرج قفزاً مثلما هبطه قفزاً في تلك الليلة المشهودة.حينها نجا من الموت بتجاوزه أم فؤاد. ها هو يتجاوزها حياً بعد نحو ثلاث سنين. تلاشى الضوء تماماً مع إغلاقها الباب.

تعمد رفع وتيرة لهاثه وهو يصـل مصـطبة الطـابق الثالث. توجس من التقدم الى الباب المغلـق. فاسـتند علـى الجدار مصطنعاً التعب. ليس هناك أصـوات ولا جلبـة ولا صخب. لم توقفت أمه عن الصراخ.؟. أحس بالنقمة عليها.

تقدم بحذر لص. ألصق رأسه بالباب متلصصاً. أجفلتـه حركة سريعة مصحوبة بجلبة مفاجئة. ارتـد الـى الخلـف مذعوراً وهو يسمع خفقان قلبه يعلو علـى صـوت انفتـاح الباب.

ما أن لمحته أمه حتى قالت وهي تئن وتتمخط : بكّيـر عليك... فتحت الباب على مصراعيه. انزاحت الى الـداخل مرتخية الفك محمرة الأنف غائرة العينين : على مهلكم. على مهلكم... قالت وهي تنخر.

سكن في مكانه وعيناه تحملقان بالباب. انزاح الى الجانب مأخوذاً عندما ظهر أبوه محمولاً من إبطيه بين أبي فؤاد وابنه، وقد تدلى رأسه مرتخياً إلى صدره وأطبقت أجفانه وشخرت أنفاسه وثقلت ساقاه المجرورتان.

قال له أبو فؤاد : تعال عمي.

علّقت أم الخير من خلفه : خلّيه. كأن الذي تحملانه ليس أباه.

أسرع خير إلى جهة أبي فؤاد الذي قال بلطافة : خذ عني ريثما آتي بالسيارة... حل محله بلهفة. ما أن أدار أبو فؤاد ظهره حتى استوقفه خير : سوف نلحقك إلى تحت... شهقت أمه وضربت على صدرها : وإذا أوقعته.؟.

رد بحدة : كيف سأوقعه.؟...

قال أبوفؤاد : ماشي... وهبط الدرج مسرعاً.

خرجت أم فؤاد من بيتها بمجرد وصولهم مصطبة الطابق الثاني. تبعتهم إلى الرصيف، بينما أم الخير لا تتوقف عن تحذيرهم وهي تشهق وتتمخط مع تواتر شخير زوجها وخرخرة صدره.

تساعدوا جميعاً في إدخاله إلى المقعد الخلفـي للسـيارة وأحاط به فؤاد وخير من الجانبين بينمـا احتلـت أم الخيـر المقعد الأمامي. تكتفت أم فؤاد على الرصيف وهي ترتجـف برداً إلى أن تحركت السيارة فدلفت المبنى وأحكمت المزلاج.

ظلوا صامتين طيلة الطريق الـى المستشـفى بينمـا أم الخير تكرر وتعيد ما حدث لزوجها الغائب عـنهم إلا مـن شخيره، كأنها تريد إسـماعه. أجفلهـا اختطافـه الغطـاء. استيقظت مذعورة تستعيذ من الشيطان ـ ابتسم خير ـ قالت يا ساتر وقد أعجزها الخوف عن الحركة للحظة ـ زنخـر خير باستخفاف ـ لما تبين لها زوجها يقف مستنداً بيمناه إلى الخزانة وقابضاً باليسرى على الغطاء فاغراً فمه عاجزاً عن التنفس ـ انتبه خير ـ استشرى الرعب في كيانهـا. نادتـه بهلع : أبا الخير. أبا الخير. بالتأكيد سمعها ـ نظر إليها خير باستهزاء ـ بحلق فيها بوجه محتقن وعينين غائرتين قبل أن يشخر شخرة قوية هوى معها أرضاً دون ان تفك يـده عـن اللحاف ـ انتبه خير ـ قفزت من السرير ومالت عليه وهي تنادي وتصرخ ولا من مجيب. لولا شخيره الذي كان يتحرك معه بطنه لحسبته فارق الحياة ـ لعن خير الشخير باستخفاف

ـ لم تجرؤ على تحريكه، ولا حتى على لمسه. دفعها الرعب إلى غرفة ابنتيها تناديهما بخوفٍ وهلـع ـ لعنهـا خيـر وابنتيها ـ أخافهما صراخها بدلاً من أن يوقظهما، فتكومتـا تحت الغطاء. كلما شدته تشبثتا بـه أكثـر. المسـكينتان ـ سكين ـ.

التفتت إليه وقالت موبخة : وحضرتك.؟. لم لم تأتِ من أول صوت.؟..

هم بالرد فاسترسـلت : يعنـي لازم نتعـب الجيـران ونوقظهم في نصف الليل.؟.

- ماذا تقولين يا أم الخير. نحن لبعض... قال أبو فؤاد.

- وا ليس لي سواكم. لا أدري كيف كنـت سـأتدبر أمري من غيركم.؟.. التفتت بسرعة إلـى خيـر ووبختـه مزمجرة : ساعتين حتى ترد !!. ماذا كنت تفعل.؟.

حدجها بنظرات قاسية وقال بجلافة : كنت نائماً.

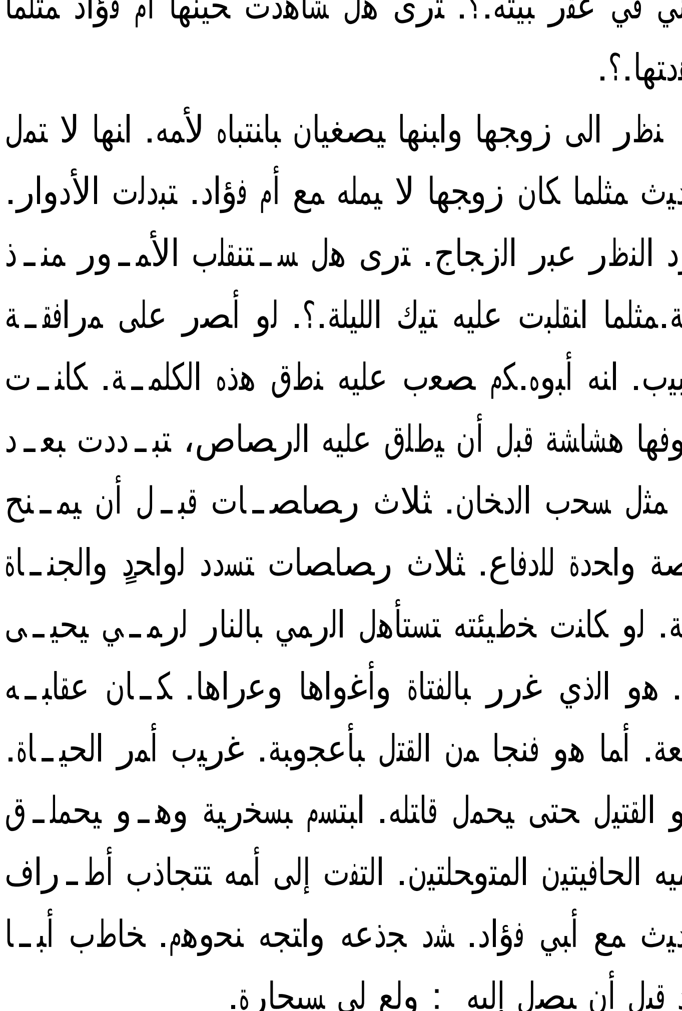
علقت باستخفاف: نائم..!. عقّبت : عشرون صوتاً لـم توقظك !!.على حساب، كنت تصـحو لأوـل الأصـوات... صدر عن أبيه أنين خافت تحرك معه جسده وكأنـه يسـترد

وعيه. ارتعدت فرائص خير وهو يحدجه متوجسـاً. تـنفس بارتياح مع ارتخاء أبيه ثانية. وساد الصمت بين الجميع.

- وصلنا... قال أبو فؤاد وهو ينحرف بالسـيارة إلـى شارع المستشفى. أحس خير بالتوتر وقبض على ذراع أبيـه كأنه يتقيه.

استعلم موظف الاستقبال باختصار عن الحالـة، وأبلـغ الأمر هاتفياً. جاء الطبيب وبصحبته ممـرض يـدفع نقّالـة مدولبة. تساعدوا جميعاً في تحميل ابي الخير عليها وطلـب الطبيب منهم الانتظار في صالة المدخل.

أخذت أم الخير تنشج وتشهق وتتمخط، فيهـدىء منهـا فؤاد ويطمئنها أبوه. هيئ لخير أنها تستجدي منهما الاهتمـام والشفقة. سألها بنفاد صبر : هل كان غافياً عندما وقـع.؟.. أخذت تعيد على مسامعهم الحكاية، فيجاملهـا فـؤاد بإبـداء الانتباه ويستثيرها أبوه بطرح الأسئلة. بينما ابتعد خير الـى الباب الزجاجي العريض، يتأمل من خلاله عتي الريح فـي غمرة العتمة. ليلة مشهودة كتلك الليلـة المشـهودة. ثـلاث طلقات يا مجرم.!. ثلاث طلقات !. من كان سـيحملك لـو أصبتني.؟. أبو فؤاد.؟. وهل كان سيظل لك أبـو فـؤاد لـو



قتلتني في عقر بيته.؟. ترى هل شاهدت حينها أم فؤاد مثلما شاهدتها.؟.

نظر الى زوجها وابنها يصغيان بانتباه لأمه. انها لا تمل الحديث مثلما كان زوجها لا يمله مع أم فؤاد. تبدلت الأدوار. عاود النظر عبر الزجاج. ترى هل ستنقلب الأمور منذ الليلة.مثلما انقلبت عليه تيك الليلة.؟. لو أصر على مرافقة الطبيب. انه أبوه.كم صعب عليه نطق هذه الكلمة. كانت حروفها هشاشة قبل أن يطلق عليه الرصاص، تبددت بعد ذلك مثل سحب الدخان. ثلاث رصاصات قبل أن يمنح فرصة واحدة للدفاع. ثلاث رصاصات تسدد لواحدٍ والجناة ثلاثة. لو كانت خطيئته تستأهل الرمي بالنار لرمي يحيى قبله. هو الذي غرر بالفتاة وأغواها وعراها. كان عقابه صفعة. أما هو فنجا من القتل بأعجوبة. غريب أمر الحياة. ينجو القتيل حتى يحمل قاتله. ابتسم بسخرية وهو يحملق بقدميه الحافيتين المتوحلتين. التفت إلى أمه تتجاذب أطراف الحديث مع أبي فؤاد. شد جذعه واتجه نحوهم. خاطب أبا فؤاد قبل أن يصل إليه : ولع لي سيجارة.

عبر وجه أبي فؤاد عن دهشته ونقل فؤاد نظره بين خير وأمه التي شهقت واضعة يدها على صدرها : صحيح انك لا تستحي... كان موظف الاستقبال يراقب الموقف من خلـف الحاجز.

- تركت الحياء لغيري...

ناوله أبو فؤاد سيجارة وأشعل لنفسه واحدة قبل أن يمد له عود الثقاب. حاوصت أم الخير في مكانها وهـي تنظـر بغيظ إليه يسحب من سيجارته عميقاً وينفث دخانها دوائـر. أسرعت الى موظف الاستقبال، فتابعوها بنظـراتهم وهـي تستأذن لاستخدام الهاتف.

قال أبو فؤاد : المهم يقوم الوالد بالسلامة.

- إيه... لفظها خير وهو يصيخ السمع لأمـه تهـاتف بانفعال. في الأثناء كان موظـف الاسـتقبال يرمـق خيـر بازدراء.

- ا يعينك...قال أبو فؤاد متودداً بمجرد عودتها. أبدى خير استخفافاً : إيه... وسألها باستهانة : حكيتِ مع نذير.؟.. واستدار.

- نعم. حكيت مع خالك نذير... ردت بفجاجـة بينمـا يتجه نحو باب المدخل : هل عندك مانع.؟.

وصل نذير بسيارة أجرة بعد حوالي النصف ساعة. لمح خير يحدق به من خلف الزجاج ويشيح عنه بمجرد ولوجـه الباب. استقبلته شقيقته بالعويل والنواح. أخذ يهـدىء منهـا، وأبو فؤاد يطمئنها. انسحب في الأثناء فؤاد وانضم إلى خيـر قرب الباب.

طلب منه بعد قليل أن يأتيه بسـيجارة. تـذمرت أمـه وقطعت روايتها لنذير : أستغفر ا العظيم... خاطبته بحدة : صرت تدخن علناً. أبوك لم يمت بعد...

قال لها نذير : أتركيك منه...

خاطب خير من مكانه أبا فؤاد : أشعلها لو سـمحت... التقت عيناه بعيني موظف الاسـتقبال الغاضـبتين. تقابلـت نظراتهما بثبات إلى أن طرفش الموظف بعينيه نحو الهاتف. بينما خير يسحب من سيجارته بتحدٍ وينفث باستهتار دوائر الدخان.

ظهر الطبيب فهب الجميع نحوه بمن فيهم خيـر الـذي وضع يده بالسيجارة خلف ظهره.

قالت أم الخير : طمئننا يا حكيم... قال أبو فـؤاد : ان شاء ا خير... قال نذير : رجاء لا تخفي عنا شيئاً.

وجه الطبيب حديثه لأبي فؤاد : يـا سـيدي. قـريبكم مصاب بشلل نصفي.

- يي... وصفقت أم الخير على فمها براحتها.

سأل نذير متلعثماً : كيف شلل نصفي.؟.

تساءل أبو فؤاد : قصدك فالج.؟.

- نعم... قال الطبيب. التفتوا جميعاً إلى خير الذي قال متأسياً : يا ا ...بينما راحت أمه تنشج وقد أحاطهـا نـذير بذراعه : المهم، كيف حالته الآن.؟..

- لم تستقر بعد. عملنا ما علينا ، والباقي على ا .

انتبهت أحاسيس أم الخير : يعني هناك أمل.؟...سـألت بلهفة ونظرت إلى خير وقد توقفت دموعها مرة واحدة.

- طبعاً.

تدخل خير : أمل في أن يشفى.؟..

أجابه الطبيب وهو ينظر للآخرين : أمـل ليعـيش. إذا تجاوز الخطر سيعيش مفلوجاً... صـمت للحظـة قبـل ان يضيف : كله بيد ا .

- كل شيء من ا   مليح... قال نذير.

- لماذا يا رب.؟. لماذا.؟... قال خير وهو يستدير عنهم ويقذف بعقب السيجارة نحو الباب.

ثلاث سنوات، جاع فيها وعطش. تعب ومرض. قرصه البرد ولفحه الحر. يأتي التسوية خلسة ويغادرها خفية. يخاف المباغتة أكثر مما يطمع بالغفران. يخشى الطرد أكثـر ممـا يطمح للاستقرار. حتى سراج الكاز منع من استخدامه حرصاً على خشب الطوبار، بينما هم في الأعلى يستنيرون بالكهرباء ويأكلون الطعام الساخن ويستدفئون بالفراش المريح.

ثلاث سنوات بائسة طغت مراراتها على ما تخللها مـن حلاوات. غيبه الأهل وتفقده الأصحاب. أنكـره الأقـارب وساعده الأغراب. واظب على الدراسة خشية من العقـاب. تجاوز المترك بنجاح فلم يغفروا له ولم يكترثوا بنجاحه، بينما صخبت بيوت أصحابه بالسهرات والولائم وأفراح النجـاح. أقامت عائلة شريكه في الخطيئة الدنيا وأقعدتها فرحاً بنجـاح ابنهم. زينوا بيتهم المنيف بحبال الكهرباء، وتواصـلت فيـه السهرات ليالٍ صدحت فيهـا الألحـان وغنـى المطربـون

ورقصت الجناكي وأطلق الرصاص ابتهاجاً، فارتعد يومهـا من الأعماق.

جاءه فؤاد بسيجارة مشتعلة بينما الطبيب يشرح الحالـة ويجيب على الأسئلة. اتجه نحوهم وهـو يسـحب الـدخان بعمق : أريد أن أشوف أبي.

- مستحيل... قال الطبيب. أضاف وقد تساءلت الوجوه جميعها : حالته لا تسمح.

- دقيقة، ولو من بعيد. ا يخليك... قالت أم الخير.

كان مسجى على ظهره غائباً عن وعيه. ترفرف شفتاه مع زفيره، وتشخر خياشيمه مع استنشـاقه الأكسـجين مـن أنبوب في طرف فمه موصول باسطوانة قريبة من السـرير. لاذوا بالصمت خلال زيارتهم القصيرة. حتى البكاء تمنـّـع على أم الخير. رافقهم الطبيب أثناء إيـابهم الـى الصـالة. نصحهم بالمغادرة والمجىء صباحاً. المريض يحتـاج فقـط لرحمة ا   ورعاية الأطباء. وافقه خير بعنجهية : ما يقولـه الطبيب صحيحاً. وماذا نستطيع ان نفعل.؟..ثنى نذير علـى قوله. كذلك أبو فؤاد.

جلس خير بين نذير وفؤاد واحتلـت أم الخيـر المقعـد الأمامي. غلبها وخير وجوم ملحـوظ. حـاول أبـو فـؤاد طمأنتهما بالتهوين عليهما. ذكر لهم حالات مشـابهة تحسـن فيها المصابون وعادوا إلى عوائلهم خلال أيام. ظـل نـذير يردد من حين لحين : كل شيء من ربنا مليح.

عرض على أخته أن يبيت عنـدها، لكنهـا مانعـت : اذهب نام عند زوجتك. لا بد انها قلقة عليك الآن.

ترجل بجانب مصبغته وواصلت السيارة صعوداً حتـى شارع ثانوية البنات. قالت أم الخير قبل الوصول : تعال يـا ابني نام في البيت. نحن ولايا وخلّيك الليلة معنا...

ظل على صمته ووجومه. ترجل بتثاقل وداف المبنـى دونما كلمة. تقدمته أمه في ارتقاء الدرج. قالت قبل أن يلجـا الباب : أدخل اغسل قدميك... لفظتها بنبرة حميمية لم تخف حرصها على الأرضية : من اين جاءك كل هذا الوحل.؟.

لم يجب ولم تتوقع جواباً وهي تتقدمه عبـر المـوزع. كانت ابنتاها منكمشتين متلاصقتين في سـرير واحـدٍ فـي غرفتيهما. نظرتا إليها بخشية. سألت الكبرى متهيبة : مـاذا جرى.؟.

طمأنتهما قائلة : إن شاء ا خير... التفتت إلـى خيـر الذي كان يرمق شقيقتيه بحقد : روح اغتسل...

اتجه بعنجهية إلى الحمام عبر مخدع والديـه. اسـتحم بالماء البارد لساعة كاملة وهو يدندن بصوتٍ عـالٍ، يتعمـد إسماعهن.

خرج من الحمام إلى مخدع والديه وهو يجفف شـعره بمنشفة أبيه، مرتدياً السروال فحسب وواضعاً بنطاله وكنزته على كتفيه.

ارتدى ملابسه وهو يتفرس بأمه وشقيقتيه اللواتي جلسن على حافة السرير مطرقات. استدار إلى الخزانة. عبث فيهـا بعصبية: ماذا تفعل.؟... سألت أمه وهي تنهض واقفة.

لم يلتفت إليها فأسرعت نحوه وأمسكته من كتفه : عـن ماذا تفتش.؟.. دفعها بذراعه دفعة قوية أبعدتها إلى الـوراء وواصل البحث.

استدار إليهن قابضاً على المسدس. شهقت أمه وضربت على صدرها بينما تلاصقت شقيقتاه. ابتسم بلؤم وهو يحشـر المسدس في وسطه. نفض أصابع راحته وقال لشقيقتيه بنبرة

آمرة : قومي انت وإياها... تسـاءلت تعابيرهمـا، فصـرخ بهما : قلت قوما... فوقفتا مرتعدتين.

نخر وهو يبتسم باستخفاف. انتزع اللحاف عن السـرير وحمله على كتفه.

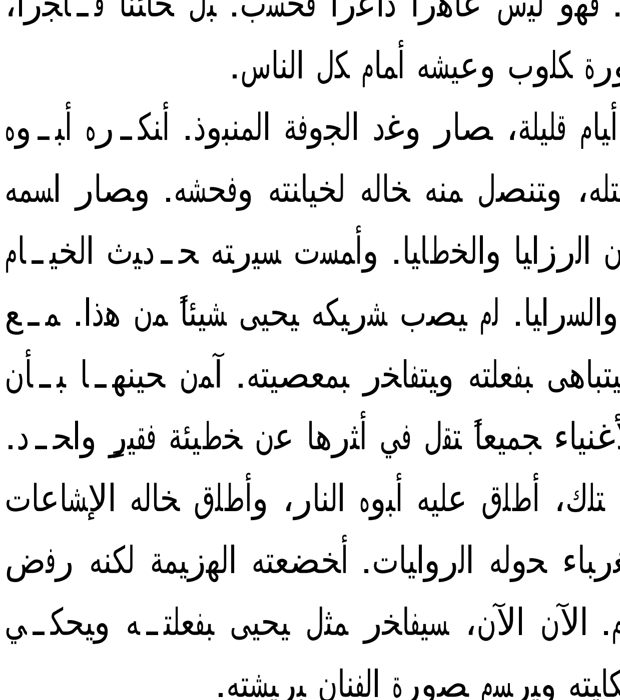
- الى أين تأخذه.؟...سألت أمه جزعة.

- إلى بيتي.

- سوف يتسخ تحت... استدركت بسرعة : نام الليلـة هنا.

- ومن سيحرس الخشب.؟..

من كان سيأويه لو لم يتواسط له أبو فؤاد للبقـاء فـي التسوية بعدما صار اسمه على كل شفة ولسان. بـين ليلـة وضحاها غدا زيـر نسـاء ووحشـاً يفتـرس الصـغيرات والكبيرات ويفتض العذارى ويوقع بالمتزوجـات ويعاشـر البغايا وينام مع العاهرات. كانت القصص التي يتناقلها الناس عنه تخيفه أكثر مما تخيفهم، فيذهله تعددها ويربكه تنوعهـا وتخجله تفاصيلها وهي تصطبغ في مصبغة خاله بالألوان قبل ان تنتقل الى البيوت مهندمة مكويـّة. فإذا به دنس شـرير. عدو للشعب ملعون في الدين. يحظر النـاس علـى ابنـائهم



مرافقته، ويمنعون نساءهم من مخاطبته، ويحذرون بناتهم من مصادفته. فهو ليس عاهراً داعراً فحسب. بل خائناً فـاجراً، رسم صورة كلاوب وعيشه أمام كل الناس.

في أيام قليلة، صار وغد الجوفة المنبوذ. أنكـره أبـوه وحاول قتله، وتنصل منه خاله لخيانته وفحشه. وصار اسمه تعبيراً عن الرزايا والخطايا. وأمست سيرته حـديث الخيـام والبيوت والسرايا. لم يصب شريكه يحيى شيئاً من هذا. مـع أنه كان يتباهى بفعلته ويتفاخر بمعصيته. آمن حينهـا بـأن خطايا الأغنياء جميعاً تقل في أثرها عن خطيئة فقيرٍ واحـد. في حالته تلك، أطلق عليه أبوه النار، وأطلق خاله الإشاعات ونسج الغرباء حوله الروايات. أخضعته الهزيمة لكنه رفض الاستسلام. الآن الآن، سيفاخر مثل يحيى بفعلتـه ويحكـي بلسانه حكايته ويرسم صورة الفنان بريشته.

٢

في فصل ربيعـي دافـئ، أزهـرت فيـه الأشـجار واعشوشبت الجوائف ونهضت الغرائز، تفيأوا في استراحتهم الصباحية، خلف جـدار المـراحيض. يـدخنون السـجائر ويتبادلون الأطعمة ويتكاشفون الأسرار.

لم تكن الشلة كبيرة وان كانت الأشد رهبة بين طلبـة الرابع الثانوي. حسن الشيشاني أعتـاهم، سـريع الغضـب، يحتقن وجهه إذا استثير وتصيبه الرجفة إذا أُلجم، ولا يتردد في استخدام شبريته. وكان هـاني العـالي أقـواهم، ربـاع المدرسة، يستطيع حمل متوازي الجمباز ورفعه على امتـداد ذراعيه القويين. وحاز نجم الطيب على بطولة البلقـاء فـي سباق الضاحية لسنتين متعاقبتين وهو علـى ضـآلة حجمـه أكثرهم شراهة بالأكل وأسرعهم في الالتهـام. امـا يحيـى العفيف فكان ثرثاراً عظـيم الثـراء. يـزودهم بالسـجائر والأطعمة ويدفع حساب المقهى والبيبي فوت. يرتادون معـه بالمجان صالات السينما التي يمتلكها أبوه. بالمقابل يحتملون كذبه وتفاخره وتباهيه. كان لواب الشلّة وموجهها. يجلسـون إذا جلس ويتحركون إذا تحرك ويصغون إذا تحدث. يـزود

خير بالأقلام والمحابر والأوراق التي تلزمه للرسم والتخطيط لقاء تبييضه دفاتره ونسخه لواجباته وكتابته لرسائله الغرامية المزينة بالورود والألوان.

ينضم خير للمجموعة في فترات الاستراحة فقط وخلال مسافة قصيرة في طريق الرواح قبل أن ينفصل عنهم حتى لا يسبقه فؤاد فيعاقب على التأخير. لهذا لم يكن يجامل يحيـى كالآخرين او يحتمل مثلهم تباهيه بأبيه وقد رفض مـراراً أن يرسمه : ومن يكون حتى أرسمه.؟!.

أحياناً يصل التحدي بينهما إلى درجة الاستثارة فتتحول الملاسنة إلى مشاحنة، وتنقلـب المشـاحنة إلـى مشـاجرة. فيتماسكان، وإن لم يتدخل أحد من الشلّة، يتباطحان. وقلمـا تغلب أحدهما على الآخر، لتقاربهما فـي الحجـم والقـوة. يعودان أصحاباً في دقائق، وكأنهما في عراكهما يستعرضان. كان تنافرهما الظاهري يخفي انجذاباً داخلياً يستثار بالتحـدي مما يجعلهما خصمين لدودين أحياناً وصديقين متحالفين فـي أحيان أخرى. كانا ندين لكل منهما ما يميزه عـن الآخـر. فخير يستطيع ان يكذّب يحيى بكل شيء لكنه لا يستطيع ان ينكر عليه ثراءه. ويحيى يستطيع ان يتشاوف بكـل شـيء،

باستثناء الموهبة التي يمتاز بها خير على طلبـة المدرسـة وأساتذتها. أولئك يخطبون وده كي يطرز رسائلهم الغراميـة بالرسوم والألوان، وهؤلاء يبغون مرضاته كي يخطط لهـم الأسماء ويرسم اللوحات. فيحظى بالأقلام والدفاتر من الطلبة ، ويحظى بالتسامح والنجاح من الأسـاتذة. فهـو لا يسـأل كالآخرين إذا تأخر عن الدوام ويعطى الإذن للمغادرة دونمـا استجواب. ويمنح علامات إضافية عن مجلة الحـائط التـي يكتبها وحده ويخططها ويزركشها بالصور الملونة التي تجاب الانتباه والإعجاب أكثر من المقالات والأشعار. وإذا أثـارت إحداها إعجاب المدير، يحتفظ بها في خزانته ويعرضها بزهو وافتخار على زواره الشخصيين والرسميين.

موهبته التي تميز بها في المدرسة ضاعفت من السخط عليه في البيت. فأبوه يغير على صندوق كتبـه بـين اليـوم والآخر. يمزق أوراقه ويستولي على محابره وأقلامه، متهماً اياه بسرقتها من الدكان او المدرسة او الأولاد. اذا ضبط في الدفاتر او بين الأوراق رسومات من أي نوع، يطيش صوابه وتثور ثائرته، فيعاقبه علـى إهمالـه وتلهيـه. وإذا كانـت الرسومات مجسمة يجن جنونه مثلما حصل يوم ضبط رسماً

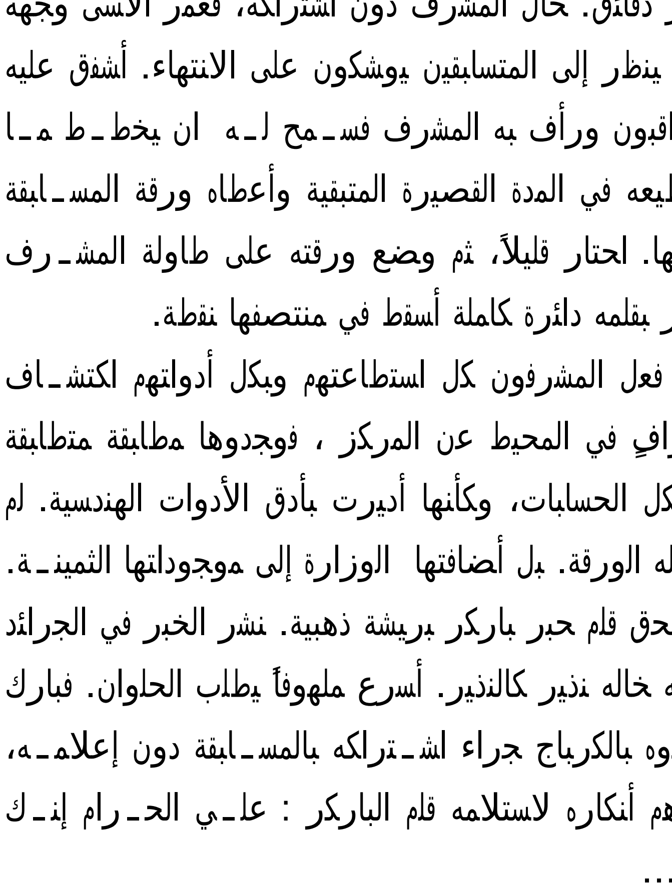
لوجه فتاة. وصمه حينها بالكافر الجحود واتهمـه بـالخروج على الشرع والدين. ضربه حتى أنزف أنفـه وأدمـى فمـه وخلخل اسنانه وحفر بالتربيج أخاديد على أنحاء جسده.

لم يحل ذلك دون استمراره بالرسـم، وإن حولـه مـن الأجسام إلى المجسمات ومن الإنسـان إلـى النبـات ومـن الأعضاء البشرية إلى الأشكال الهندسية. تفنن في التخطـيط مجرداً الحروف من فراغاتها، بتعبئتهـا بأشـكال هندسـية متجانسة تجعلها أقرب إلى تطاريز السجاد. كما بـرع فـي الرقش بحيث غدت خطوطـه متوازنـة الأبعـاد متحركـة الفراغات وكأن كل نقطة فيها لوحة فنية يترجرج وضـوحها بين الصراحة والغموض ويتراوح جمالهـا بـين المطابقـة والتجريد، محققاً بذلك استقلالية الشكل والمسافة في خطوط كوفية مترابطة معقدة، مستخدماً الحبر الصيني وقلم الثلث في رسم البسملة والطغـراء والمبـاخر المزخرفـة بالأشـكال الهندسية التي امتلأت بها حواشي دفـاتره. فـي رسـوماته الغامضة كشف التزامه بالأسود والأبـيض بـواطن نفسـه المعذبة وهو يقدم عالماً لا روح فيه ولا زمن. انهـا مملكـة العتمة التي سمحت لذهنه المتقد بالتنقل من غيـر قيـود او

حدود. فجاءت خطوطه انعكاساً لمعاناته. فإذا بكتابته وسـيلة للتزيين كما هي وسيلة للمعرفة. كانت رسوماته الملونة فـي مجلة الحائط تجسيداً لطريقته فـي الرؤيـة، وهـو يتـدرج بالألوان من الفاتح إلى الغامق بواسطة بقـع لونيـة داكنـة تتمركز في نقطة مفردة سوداء. إنها أبوه الذي يمتص ضوء نهاره ويقتل الهامه.

كان الركن الذي ينام فيه ويدرس ويحلم، زنزانة ينسـى ضيقها وقضبانها بالعمل الدؤوب وهو ينسخ للطلبة واجباتهم مدعياً أمام أبيه بأنها واجباته. فيظل ينسخ الى ان يتيقن مـن هدوء البيت ونوم الجميع. عندها يبدأ الرسم والتخطيط إلـى ان تستدعيه الأحلام.

في الصباح ينقل ما أنجزه خفية في حقيبته المدرسية إلى خزانة المختبر حيث يحتفظ بأقلامه وريشه وعلـب ألوانـه المائية وحزمة من أنابيب الزيت التي يستخدمها فـي تلـوين المجلة وما يكلف به من قبل المدير الذي كـان يسـمح لـه باستخدام غرفة المختبر وقتما يريد. وصل في تمكنه من القلم وخفة يده في الانسياب والتنقيط درجة عالية من الدقة مكنتـه من الحصول على جائزة وزارة المعارف في التخطيط.



وصل قاعة المسابقة ولم يبق على انتهـاء الوقـت إلا عشر دقائق. حال المشرف دون اشتراكه، فغمر الأسى وجهه وهو ينظر إلى المتسابقين يوشكون على الانتهاء. أشفق عليه المراقبون ورأف به المشرف فسـمح لـه ان يخطـط مـا يستطيعه في المدة القصيرة المتبقية وأعطاه ورقة المسـابقة وقلمها. احتار قليلاً، ثم وضع ورقته على طاولة المشـرف وأدار بقلمه دائرة كاملة أسقط في منتصفها نقطة.

فعل المشرفون كل استطاعتهم وبكل أدواتهم اكتشـاف انحرافٍ في المحيط عن المركز ، فوجدوها مطابقة متطابقة في كل الحسابات، وكأنها أديرت بأدق الأدوات الهندسية. لم تعد له الورقة. بل أضافتها الوزارة إلى موجوداتها الثمينـة. واستحق قلم حبر باركر بريشة ذهبية. نشر الخبر في الجرائد فتلقفه خاله نذير كالنذير. أسرع ملهوفاً يطلب الحلوان. فبارك له أبوه بالكرباج جراء اشـتراكه بالمسـابقة دون إعلامـه، والأهم أنكاره لاستلامه قلم الباركر : علـي الحـرام إنـك بعته...

تقصى أبو الخير مـن فـؤاد الـذي أبـدى الدهشـة والاستغراب فهو لم يسمع بأمر المسابقة ولا الجائزة، مبرراً

له بأدبٍ أنه في غير شعبة خير. ولما استلم الباركر وسـلّمه إياه تلقى صفعة رنحته إلى الوراء خطوات : لمـاذا ملأتـه بالحبر. سيقولون الآن أنه مستعمل... وأضافه إلى موجودات الدكان مبقياً لخير شهادة التقدير، فأقسم أن لا يشارك في أي مسابقة مثلما أقسم من قبل على الامتناع عن رسـم الوجـوه والأجساد. كان يؤكد لأبيه على قسمه، بالصلاة في مواعيدها ولو من غير وضوء.

٣

يعتقد الكثيرون أن عائلة العفيف أغنى عائلة في البلاد، ويعود ثراؤها إلى زمن الانتداب حين آثر الإنجليز شراء المواد التموينية محلياً بدلاً من استيرادها. فتولى جد يحيى تزويدهم بالبيض الذي كان يجمعه من القرى وينقله إلى القدس بالعربات ثم باللوريات التي تولاها أبناؤه الثلاثة وصاروا يزودون الإنجليز أيضاً بالطيور والحليب والخضراوات.

لم يتوقفوا عن العمل حين أعلن الإضراب الكبير سنة ١٩٣٦، رغم نداءات المجلس الإسلامي الأعلى وتنديده بالخارجين على الإضراب واتهامهم بالخيانة الوطنية. بالمقابل، ناصبت عائلة العفيف العداء للمجلس الإسلامي وصاروا يتهمونه بالفساد وتجويع الناس والتعامل بالخفاء مع اليهود والإنجليز. كان أبو يحيى أصغر أخوته تأثراً بأبيه فنشأ أشدهم عداوة للإسلاميين وبغضاً لتنظيماتهم. لما انتهى الإضراب كافأ الإنجليز المتعاونين معهم فقصر تعاملهم التمويني على عائلة العفيف مما جعل ثروتهم تتنامى في فترة قياسية.

بعد النكبة، قدم أفراد العائلة إلى عمان جـالبين معهـم أموالهم وخبراتهم وطموحهم، فحصلوا على تعهـد التمـوين للقوات المسلحة التي تـولى الإنجليـز تنشـئتها وإدارتهـا وقيادتها. فتوافرت لهم سيولة مالية عالية مكنتهم من احتكار العديد من السلع، وبخاصة الغذائية منها. وكان تآلفهم العائلي في ظل أبيهم من أهم أسباب هيمنتهم الواسعة، فمع أنه صار لكل واحد ثروته وأملاكه واستثماراته الخاصة، إلا انها لـم تكن تتقاطع مع العمل الرئيس للعائلة في سوق المواد الغذائية والتعهدات التموينية.

بعد أن أودى حادث سيارة بالأب وسائقه، ظلت أمـور العائلة المالية قوية متماسكة. وكان أبو يحيى أكثرهم نشـاطاً وجرأة وذكاء وأقواهم شخصية. ترك أمر التعهدات والمـواد الغذائية لاخوته يديرونها بطريقتهم ويقـبض حصـته مـن الأرباح أولاً بأول، متفرغاً لشؤونه الخاصة بعيداً عن سـوق المواد الغذائية، فشملت استثماراته تجارة الزجـاج والـورق والخشب ومواد البناء إضافة إلـى توجهـه نحـو الإنتـاج السينمائي وامتلاكه أضخم وكالة توزيع للأفـلام السـينمائية المصرية والعديد من صالات السينما الراقيـة. كمـا شـيد

مراكزاً تجارية ضخمة في بعض العواصم العربية، أكبرهـا مركز العفيف الذي يقع في قلب عمان ويحتوي على صـالة سينما ومقهى ومطعم وعشرات المحلات التي تنوعت أعمالها وخدماتها. بينها " مكتبة موفق " التي يتوافر فيها كل جديد في عالم الكتب إضافة إلى قسم خاص بلوازم الكتابة والدراسـة والتعليم. كان صاحبها موفق قيماً على شؤون المبنى، يتفقـد احتياجاته ويشرف على خدماته ويتابع المستأجرين ويقـبض الإيجارات. كما كان يلبي احتياجات بيـت العفيـف خـلال سفرات أبي يحيى المتواصلة. وكان يحيى يـدعي أن أبـاه يمتلك جميع المحلات في مركز العفيف، وأن أصحابها ليسوا سوى مستخدمين عنده، بمن فيهم موفق.

تعود علاقة موفق بأبي يحيى إلى أيام ابيه الـذي ابتـدأ العمل منذ يفاعته مع الأب المؤسس وانتهى سائقاً خاصاً لـه وتوفي معه في الحادث. فانتقل الولاء إلى موفق الذي واظب على زيارة آل العفيف، لاسيما في المناسبات الدينية والعائلية التي يتخللها دائماً مداولات عن المبنى وحجم الإنفاق عليـه. وكلما احتج أبو يحيى على سحوبات ابنه من المكتبـة، يـرد موفق بمودة : اتركها على حسابي يابيـك... فيوبخـه أبـو

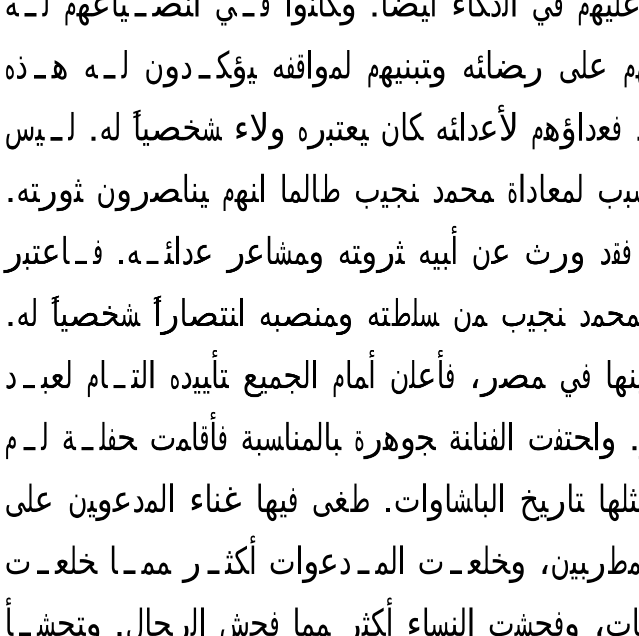
يحيى : قلت لك ألف مرة، لا تكرر هذا. لست بخيلاً لكنـي أكره التبذير. هذا كل ما في الأمر...

إذا عكست نبرته ضيقاً في وجه موفق يغير نبرته وهو ينبهه : المهم، ان لا تعطيه نقوداً...ويحذره بحزم لا يخلو من تودد وهو يرفع اصبعه : إياك... وينسيان الأمر بعد ان يتجه أبو يحيى بالحديث نحو أفلام السينما، لاسـيما تلـك التـي توزعها وكالته وتعرضها صالاته.

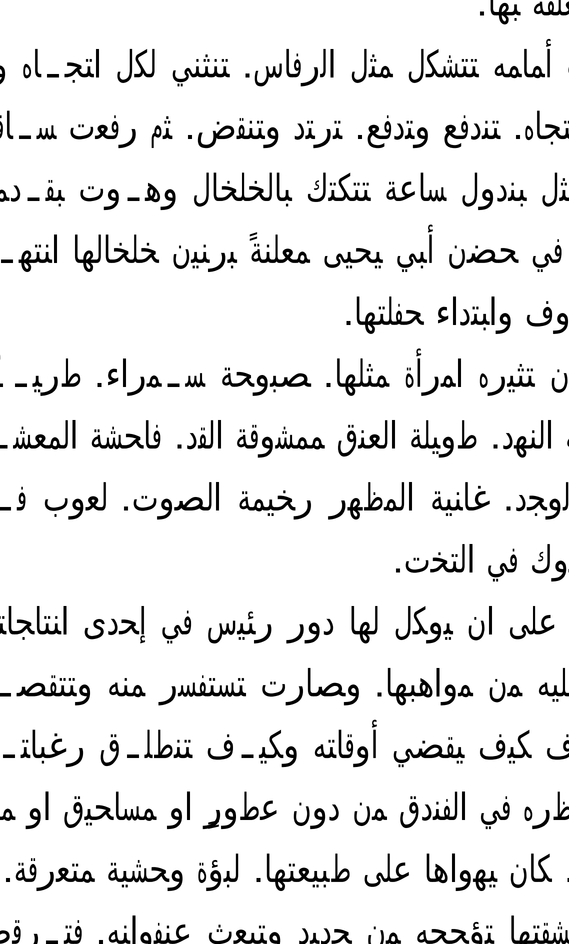
لم يكن يعنيه شيئاً سوى المال والعمل من أجل المـال. لأن الجهد الذي لا يجلب المـال بنظـره مضـيعة للوقـت والعلاقات والصداقات، فطغت الناحية المادية على ارتباطاته الاجتماعية. دون أن تهتز هذه الارتباطات او تختل. وكثيـراً ما كان يردد، أن المال كفيل بامتلاك كل شيء بما في ذلـك المال نفسه. فوصل حرصه على المال الى درجة التقـديس، فهو لم يرسل ابنه إلى مدارس خاصة أسوة بأبناء شقيقيه ولم ينتقل من الجوفة مثلهما رغم اتساع أعماله وتعاظم ثرائـه : وما بها الجوفة.؟!.انها منطقة كبيرة واسعة قريبة من السوق. المهم ان تكون قريبة من السوق... ويضيف مؤكداً قناعتـه وهو يشير إلى قصر الكردي في القمة الغربية : مـا يـزال

أكبر إقطاعي يعيش في الجوفة... وكان في قـرارة نفسـه يتطلع إلى اليوم الذي سيشتري فيه القصر ومخيم اللاجئـين من تحته.

أنتج أفلاماً عديدة لاقت رواجاً كبيراً. جعلته شخصـية مرموقة في الوسط الفني المصري. يدعى للحفلات ويحضر المؤتمرات ويكرم في المهرجانـات، دون ان تـؤثر علـى مجريات أعماله الحفلات الماجنة والسهرات الصاخبة. مـع أنه كان يبهجه سعي المخرجين إليه وتسابق الممثلين نحـوه. فيطربه الغناء ولا يطلقه. ولا يورطه الرقص او التعري وإن كان يبهجه. فهو ينال ما يريد من غيـر كـلام او أفـلام او إعلام. الشهرة بنظره تسرق المال وتسبب العداوات وتخلـق الأعداء. أما المال فيأتي بالسلطة والسلطة تأتي بالمال.كـان يعتبر المجون كالحلم، يترك أثره في لحظته وينتهي بمجـرد اليقظة. انه وهم كوهم الرؤية. تقرب العدسة النجم او تبعده. احياناً تخلقه او تعدمه. لهذا فإن متعة الرائي حقيقية ومتعـة المرئي وهمية. كان اعجابه بذكائه يدفعه لفلسفة الحياة أحياناً على أساس السمات الشخصية التي تصنع القدرات الماديـة، فيعامل الفنانين فوقياً ليس بسبب سطوته المالية فحسب، وإنما



لتقدمه عليهم في الذكاء أيضاً. وكانوا في انصياعهم له وتسابقهم على رضائه وتبنيهم لمواقفه يؤكدون له هذه الحقيقة. فعداؤهم لأعدائه كان يعتبره ولاء شخصياً له. ليس لديهم سبب لمعاداة محمد نجيب طالما انهم يناصرون ثورته. أما هو فقد ورث عن أبيه ثروته ومشاعر عدائه. فاعتبر تجريد محمد نجيب من سلطته ومنصبه انتصاراً شخصياً له. كان حينها في مصر، فأعلن أمام الجميع تأييده التام لعبد الناصر. واحتفت الفنانة جوهرة بالمناسبة فأقامت حفلة لم يشهد مثلها تاريخ الباشاوات. طغى فيها غناء المدعوين على غناء المطربين، وخلعت المدعوات أكثر مما خلعت الراقصات، وفحشت النساء أكثر مما فحش الرجال. وتجشأ الخدم في أقداح الأسياد، وتبول السكارى في جوزات الحشاشين، وترنح الأثاث تحت أجساد المترنمين، ولهثت أنفاس المدخنين والضاحكين، وضاقت الثياب على النحيلين والسمينين، فتعممت الرؤوس بالصدارات والسراويل، وما أن رن الخلخال حتى نظفت الأرضية وأزيح الأثاث وشخصت العيون بالركن الذي تقدمت منه جوهرة بثوب رقصها تهتز



وتتمايل بغنجٍ ودلال وعينيها متعلقة بأبي يحيى وعيون الجميع متعلقة بها.

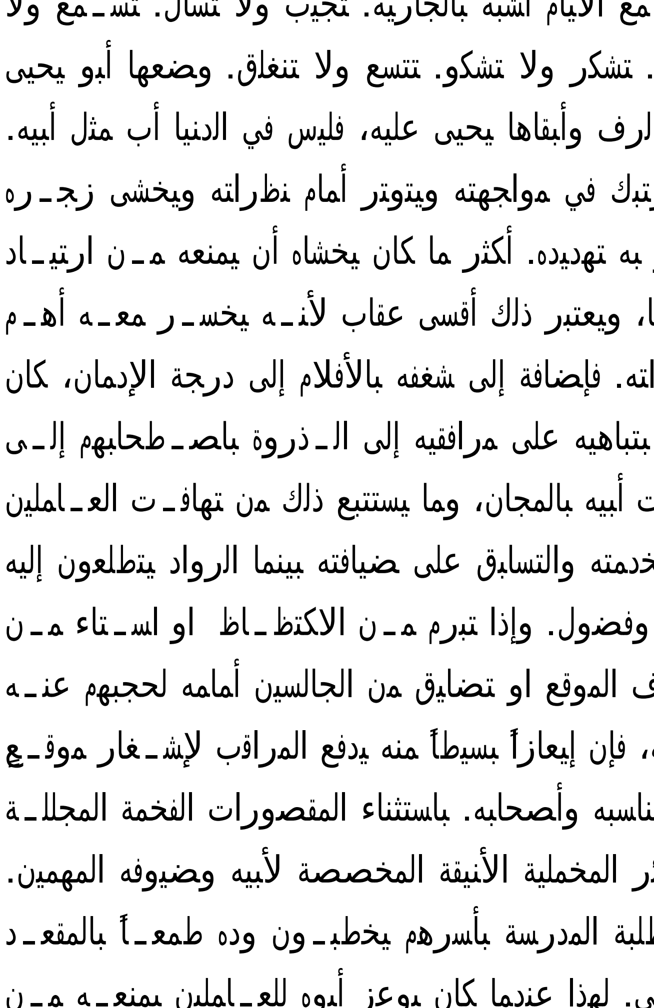
وقفت أمامه تتشكل مثل الرفاس. تنثني لكل اتجاه ولا تثبت في اتجاه. تندفع وتدفع. ترتد وتنقض. ثم رفعت ساقها ولوحتها مثل بندول ساعة تتكتك بالخلخال وهوت بقدمها مترجرجة في حضن أبي يحيى معلنةً برنين خلخالها انتهاء حفلة الضيوف وابتداء حفلتها.

لم تكن تثيره امرأة مثلها. صبوحة سمراء. طريّة اللحم مقببة النهد. طويلة العنق ممشوقة القد. فاحشة المعشر جيّاشة الوجد. غانية المظهر رخيمة الصوت. لعوب في الرقص هلوك في التخت.

أصر على ان يوكل لها دور رئيس في إحدى انتاجاته، فأغدقت عليه من مواهبها. وصارت تستفسر منه وتتقصى عنه وتعرف كيف يقضي أوقاته وكيف تنطلق رغباته، فيجدها تنتظره في الفندق من دون عطورٍ او مساحيق او ماطٍ او تنظيف. كان يهواها على طبيعتها. لبؤة وحشية متعرقة.

في شقتها تؤججه من جديد وتبعث عنفوانه. فترقص كالمحترفات وتكشف كالمومسات، وتسترخي في حضنه

مشاكسة مثل قطة. موفورة مثل بطـة. قـال لهـا مـرة : الجميلات كثر والمغريات قليلات... أثبتت له على الفـراش صحة قوله مثلما أثبتته على الشاشة. فحملت أفلامهـا اسـم ملكة الإغراء بعدما أثنى على اللقطة التي تصـورها وهـي تعصر غسيلها في الطبق وقد ضمت طرف الجلابية إلى مـا بين فخذيها. أعادت تمثيل المشهد بأكمله في وسـط الصـالة التي سرعان ما وضع فيها الطبق بغسيله ورغوته وجلسـت على طبلية تقابله مرتدية الجلابية، وأخذت تغنـي بصـوتها الرخيم وهي تعصر الغسيل وفي تقديرها انها تعصـر أبـا يحيى الذي كان يعصرها ويعصـر سـواها مـن الممثلـين والممثلات. فقد أدى تألق اسمها الى الإقبال علـى أفلامهـا بحماس لا يماثله إلا حماس أبي يحيى الذي حققت له أفلامها أضعاف ما حققته الأفلام الأخرى مـن إيـرادات. فحظيـت جوهرة بالنجومية، وحظي أبو يحيى بالثروة الحقيقية. ومـع انه كان لا يقبل هدية على الإطلاق، إلا أنه قبل منها بكـرة تسجيل يغني فيها فريد الأطرش على أنغام العـود فحسـب. ولأنه ليس لديه وقت للأغاني، استولى يحيى على الشـريط وحفظ معظم أغانيه.



كانت شخصيته قوية، طغت على شخصية زوجته التي غدت مع الأيام أشبه بالجارية. تجيب ولا تسأل. تسـمع ولا تناقش. تشكر ولا تشكو. تتسع ولا تنغلق. وضعها أبو يحيى على الرف وأبقاها يحيى عليه، فليس في الدنيا أب مثل أبيه. انه يرتبك في مواجهته ويتوتر أمام نظراته ويخشى زجـره ويؤثر به تهديده. أكثر ما كان يخشاه أن يمنعه مـن ارتيـاد السينما، ويعتبر ذلك أقسى عقاب لأنـه يخسـر معـه أهـم امتيازاته. فإضافة إلى شغفه بالأفلام إلى درجة الإدمان، كان يصل بتباهيه على مرافقيه إلى الـذروة باصـطحابهم إلـى صالات أبيه بالمجان، وما يستتبع ذلك من تهافـت العـاملين على خدمته والتسابق على ضيافته بينما الرواد يتطلعون إليه بحسدٍ وفضول. وإذا تبرم مـن الاكتظـاظ او اسـتاء مـن انحراف الموقع او تضايق من الجالسين أمامه لحجبهم عنـه الرؤية، فإن إيعازاً بسيطاً منه يدفع المراقب لإشـغار موقـع آخر يناسبه وأصحابه. باستثناء المقصورات الفخمة المجللـة بالستائر المخملية الأنيقة المخصصة لأبيه وضيوفه المهمين. كان طلبة المدرسة بأسرهم يخطبـون وده طمعـاً بالمقعـد المجاني. لهذا عندما كان يوعز أبوه للعـاملين بمنعـه مـن

الدخول يحس بأنه خسر أهم امتياز. فينصـاع ويلتـزم ولا يخرج عن القاعدة إلا بالكذب والتحايل. كـان يبـرر لأبيـه مسحوباته من مكتبة موفق بأنها لأغـراض النشـاط الـذي يستحق عليه علامات إضافية. فهو المسـؤول عـن مجلـة الحائط الشهرية، إعداداً وكتابة ورسماً وتخطيطـاً. ولتأكيـد ادعائه علّق في غرفته عدداً من أعمال خير، مدعياً أنها من صنعه، دون أن يثير بها اهتمام أبيه الذي لـم يكـن يعنيـه المجلة او الرسم او التخطيط. ورغم هذا ظل يحيى يرجـو خير أن يرسم بالألوان صورة لأبيه، مبدياً الاستعداد لتزويده بما يلزمه من رقع وألوان وأقلام ، لكن خير كـان يـرفض باستمرار، فرسم الوجوه حرام.

كان البيت كبيراً واسعاً ابتناه الأب ليسـتوعب أبنـاءه وعوائلهم، وبعد رحيله ارتحل الشقيقان، فوزعه أبو يحيى إلى أجنحة استقل يحي بواحد منها مطل على البستان. حذره أبوه من استضافة أصحابه فيه وهدده أن يوقف عنه المصـروف إن فعل ذلك وسيمنعه أيضاً من دخول السـينما وأصـحابه بالمجان. للبيت حرمة وللعائلة أسرار. فظلت مكونات البيـت وموجوداته مجهولة للشلة، يعرفونها فقط من خلال أحاديـث

يحيى الذي كان يدعي أن كثيراً من مشاهد القصور الداخلية تصور في بيتهم الذي لا مثيل له في عمـّان وغير عمان.

كان يشبه أباه في حبه للهيمنة، لكنه يختلف عنـه فـي وسائلها. فإذا كان أبو يحيى يسعى للمال رغبة بالسلطة. فإن يحيى يسعى لإنفاقه في سبيلها. لأن المـال بنظـره مفتـاح لأبواب الحياة وليس قفلاً لخزائنها.

لم يكن يكفيه مصروفه بالغاً ما بلـغ، فيسـطوا علـى مدخرات أمه أو حليها المتقاعدة أو أوانيها المهملـة. يبيعهـا ويبدد أثمانها في يومه. وإن ظل لديه فائض يثير الشبهة يبقيه مع هاني العالي الذي يعتبره شبعاناً أكثر من البـاقين، فقـد تصرف خير بمعظم المبلغ الذي أبقاه معـه ممـا أدى إلـى تلاسنهما ثم تماسكهما وتباطحهما إلـى أن فـك الآخـرون بينهما. وعندما ائتمن حسن الشيشاني على مبلغ آخر، صـار حسن يقابله بجلافة ويشيح عنـه إذا حدثـه ويبـري قلمـه الرصاص بالشبرية كلما جاء على ذكر المبلغ او لمح إليـه. أما نجم فجاءه معتذراً لأنه لم ينتبه لجيبه المثقوب واعداً أن يرجع له المبلغ بعدما ترجع البلاد.. فاستأثر هاني بالأمانـة، يقبض منه ما يفيض وينقده ما يطلب. ولم يكن هـاني أمينـاً

على المال فحسب ,إنما على أسرار الشلة أيضاً، فهو أقلهـم حديثاً وأكثرهم إصغاء وأحسنهم غنـاء. لهـذا كـانوا فـي مجموعهم يسرون له على انفراد بما لا يستطيعون البوح به مجتمعين. كان قوي البنية ميسور الحال، لكنه لـيس عتيـاً كحسن ولا متباهياً كيحيى. ينقاد إلى الشقاوة بدافع الصـداقة. ويصر، دون باقي الشلة، بالمساهمة في الإنفاق. ولـم يكـن الأمر بذي بالٍ بالنسبة ليحيى الذي كان يهتم بالإنفاق بغـض النظر عن المصدر. عندما يدخن يـوزع سـجائر للجميـع، وعندما يرتادون المقهى او المطعم او البيبي فوت، لا يبـالي ان دفع كلٌ عن نفسه او دفع هو عن الجميع. وقلما يذهب إلى السينما وحده ، ليس لأنه يدخل ورفاقه بالمجان فحسب، بـل لكي يتفاخر عليهم وهو يتقدمهم إلى البلكون فيجلسون معـه باستحياء بين العائلات التي تتطلع إليه وتتساءل عنه بينمـا المراقبون يأتونه بالكازوز والسندويشات. وكلما أبدى أحدهم الاستياء من تميزه واقترح الجلوس في الصالة حيث يتحدثون بلا حرج ويصرخون ويقهقهون. يرد يحيى موبخاً : عمـرك ما راح تصير كُبار...

كان شغوفاً بالأفلام الاستعراضية والغنائية. لاسيما أفلام جوهرة التي كانت تثير بإغرائها لـواعج جسـده وتحـرق برقصها أنفاسه. وكان باقي الشلة شغوفين بأفلام الكـاوبوي، وبخاصة حسن، الذي يهيجه العراك وينهضه ويقعـده وهـو ينبه البطل ويحذره، وأحياناً يصفر له او يناديه. فيهدىء منه رفاقه لاسيما نجم الذي تمنى أن يصبح راعي نمـورٍ ممـا جعلهم يطلقون عليه لقب " أبو نمور".

عند الرواح يوزع يحيى في العادة مـا بحوزتـه مـن سجائر ويبقي النقود مع هاني، فيبيت خفيفاً نظيفاً هادئ البال، يواتيه الكرى سريعاً فيستغرق في النوم دونمـا قلـق حتـى الصباح.

كان على العكس من أبيه بالنسبة لعشقه للمال. فـأبوه يعشق المال من أجل المال، بينما يعشقه يحيـى مـن أجـل الإنفاق. دخّن السجائر في الإعدادية، وشرب الكحـول فـي الثانوية، ولما دخن الحشيشة للمرة الأولى، قال بأنها خفيفـة وتأثيرها ضعيف. فاستثاره أحدهم لتدخينها في محششة أبـي شعبان المعروفة في شارع الطلياني. لم يتردد فـي الـذهاب إليها مع حسن وجربا الحشيشة في النرجيلة مراراً. وصـارا

يتزودان منها مباشرة، لتدخينها مع الشـلة عنـد الصـخرة فيتمازحون ويتكركرون من تعليقاتهم إلى أن يبـدأوا رحلـة العذاب مع غناء يحيى وهو يدندن بيده ويفنج منخريه ويهـز رأسه على طريقة فريد الأطرش.

مع البنات كان يدعي الصـولات والجـولات دون أن يحظى في الحقيقة إلا على الابتسامات والإشارات. كتب لـه خير رسائل غرام بعدد الطالبات ولم يأته منهن أي جـواب. لما قيل له بأن محل البكري للأدوات الرياضية يبيع صـوراً جنسية، صار يتردد عليه ويشتري من الصـور بالعشـرات يوزعها بعد أن يمل منها على أصحابه ومريديه. لما سـمع عن شارع العرصات، ادعى أمام أصحابه أنه ذهـب إليـه وقاده أحدهم إلى بيتٍ فيه بغيين، تشبه إحداهما شادية وتشـبه الأخرى صباح، فأحبتاه وتنازعتا عليه وبدلاً من أن يدفع لهما دفعتا إليه. كان بتباهيه يثير حنق خير. فهـو ينسـخ عنـه واجباته ولا يكسب منه سوى سجائر وأقلام وألـوان، بينمـا باقي الشلة يكسبون أكثر من ذلك بكثير ولا يقدمون بالمقابـل سوى احتمال تباهيه.

ذهبوا يوماً لمشاهدة فيلم لجوهرة. اشتروا في طـريقهم زجاجة كونياك خبأها حسن في جيب سترته. كانت الصـالة شبه مشغولة، فأجلسهم المراقب في ركن محجـوز لإحـدى العائلات.

في غضون ربع ساعة قضوا بالتناوب على الزجاجة. لمعت الخمرة في رأس يحيى أكثر مـن الآخـرين، عنـدما راحت جوهرة تعصر غسيلها في الطبق. ثارت حميته أكثـر مما فاضت شهوته، فاهتز صف المقاعد الذي يجلسون فيـه عندما هب كالملسوع وصرخ بحدة وصرامة مشيراً بإبهامـه إلى الأسفل : الليلة لازم أزني... التفت رواد البلكون إلـى جهته وانكمش أصحابه في مقاعدهم وكأن جوهرة عصـرت غسيلها فوقهم : انفضحنا... قال هاني والحرج يمتصه إلـى جوف الأرض. بينما قبض حسن على شبريته : مـن غيـر كونياك، أخونا مشعوط... علق نجم بأسى : ألف مرة قلـت لكم مستوانا درجة ثانية...

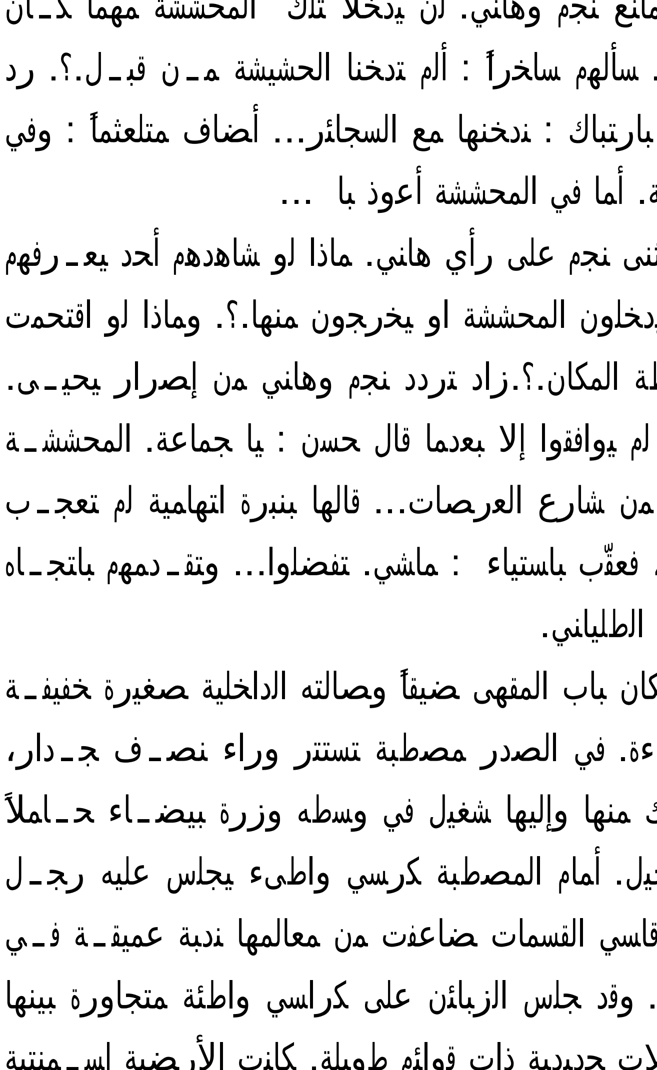
تسللوا هاربين قبل ان تنسدل الستارة وتكشفهم الأضواء. هبطوا الدرج قفزاً يتبعهم يحيى ببطء وهـدوء مبـدياً عـدم الاكتراث. قال لهاني بمجرد مبارحته البوابة : إيـدك علـى

المبلغ... اضاف بحزم وثقة وهو يختطـف النقـود : كلكـم ورائي إلى شارع العرصات...

وصلوا إلى رصيف عريض أمام محلات تجارية تعلوها آرمة كتب فيها "فندق ومطعم ومقهـى الجامعـة العربيـة". راوحوا في الموقع المزدحم ذهاباً وإياباً لأكثر مـن نصـف ساعة دون ان يصادفوا عرصاً ممن وصـفهم يحيـى. لمـا ضجروا من التسكع والازدحام وتصادمهم مع المشـاة وقـد أتعب الكونياك رؤوسم وخنق الدخان صدورهم. وقفوا علـى طرف الرصيف. تأفف يحيى وهـو يجيـل النظـر : أولاد العرص. أين ذهبوا.؟!..ثم إلى نجم بينمـا حسـن وهـاني يتبادلان النظرات : لننتظر قليلاً. بالتأكيـد لقطـوا زبـائن خرائيين...

قال حسن متأففاً : إلى متى سننتظر.؟.

- ماذا أفعل.؟.. رد يحيى وهو يومئ بيديـه وأضـاف مبرراً : أكيد وقعوا بيد الشرطة... استدرك بسـرعة كأنـه فطن أمراً : يا جماعة. أفضل حل أن نذهب إلى مقهى أبـي شعبان. أكيد سنجد أحدهم هناك.



مانع نجم وهاني. لن يدخلا تلك المحششة مهما كـان الأمر. سألهم ساخراً : ألم تدخنا الحشيشة مـن قبـل.؟. رد هاني بارتباك : ندخنها مع السجائر... أضاف متلعثماً : وفي الجوفة. أما في المحششة أعوذ با ...

ثنى نجم على رأي هاني. ماذا لو شاهدهم أحد يعـرفهم وهم يدخلون المحششة او يخرجون منها.؟. وماذا لو اقتحمت الشرطة المكان.؟.زاد تردد نجم وهاني من إصرار يحيـى. لكنهم لم يوافقوا إلا بعدما قال حسن : يا جماعة. المحششـة أستر من شارع العرصات... قالها بنبرة اتهامية لم تعجـب يحيى، فعقّب باستياء : ماشي. تفضلوا... وتقـدمهم باتجـاه شارع الطلياني.

كان باب المقهى ضيقاً وصالته الداخلية صغيرة خفيفـة الإضاءة. في الصدر مصطبة تستتر وراء نصـف جـدار، يتحرك منها وإليها شغيل في وسطه وزرة بيضـاء حـاملاً النراجيل. أمام المصطبة كرسي واطىء يجلس عليه رجـل بدين قاسي القسمات ضاعفت من معالمها ندبة عميقـة فـي وجهه. وقد جلس الزبائن على كراسي واطئة متجاورة بينها اسكملات حديدية ذات قوائم طويلة. كانت الأرضية إسـمنتية

خشنة مبقعة بالبصاق وصوت أم كلثوم واضـحاً لا يكـدره سوى صوت الشغيل وحركته المتواصلة.

حيا حسن ويحيى الرجل البدين بفخامة : مساء الخيـر أبا شعبان.

رد عليهما باقتضاب : أهلاً...

تحولوا إلى ركن شـاغر تتـابعهم نظـرات الزبـائن الواجمين الشاردين بالغلمان الذين اتخذوا مجلسهم في الزاوية الداخلية لجدار الباب. جلس نجم وهاني متجاورين متـوترين وفي الجانب الآخر جلس حسن ويده داخل سـترته وبجانبـه يحيى مبدياً ثقة مفرطة لم تخف ارتباكه. بينما الرجل البـدين يحملق من مكانه عبر فتحة الباب بغير اكتراث.

دفع يحيى للشغيل أربعة قروش مقدماً كالمعتاد، ولمـا جاء بالنرجيلة يعبق دخانها كالمبخرة، تناول يحيى النـربيج كالعارفين وسحب منه بضعة أنفاس وأعاده للشـغيل الـذي حوله الى نجم ثم هاني ثم حسن قبل أن يدور به على بـاقي الزبائن الذين انتهى فضولهم بتأمل الغلمان وتعلقت أنظارهم بالدخان.

أنقد يحيى الشغيل عشرة قـروش ثمنـاً لـنفسٍ آخـر وأربعة أقداح شاي وترك له المتبقي فطـار الشـغيل فرحـاً وكانت رؤوس البعض قد طارت قبله، فراح أحـد الزبـائن يتكركر وحده بينما اشتد السعال علـى آخـر وراح يغـرق الأرض بالبصاق دون أن يبالي به عجوز موشك على البكاء يجلس بجواره : والناي على الشط غنّا.

جاء الشغيل بالنرجيلة وقدم النربيج ليحيى فسحب منـه سحبات قوية متتالية جعلته يحس بجسده أكثـر خفـة مـن الدخان : والقدود بتميل بتميل. قال للشغيل بعدما دار بالنربيج على الباقين : ارجع لي... لما عاد اليه سأله وهو يمـد لـه خمسة قروش : ألا تعرف أحداً يستطيع تدبيرنا.؟.

تغيرت تعابير الشغيل وسأل بحدة : يدبركم بماذا.؟.

قال حسن وقد أرخت الحشيشة لسانه : شلكّات.

- ماذا.؟... صرخ الشغيل... بسرعة جاء صوت أبـي شعبان : ماذا هناك.؟... نظر الشغيل إليه وقال بقرف : تعال اسمع يا أبا شعبان ماذا يريدون.؟.. اتجه نحوه وهمس لـه، بينما انكمش يحيى والباقون خجلاً وخشـية وقـد تبخـرت الحشيشة من رؤوسهم مع ما تبقى فيها من نشوة الكونياك.

تبخرت تماماً عندما وصلوا منطقة النور، التـي أشـار عليهم أبو شعبان بالذهاب إليها. وكان يحيى قد أعطى كـلاً منهم ربع دينار ليدفع حسابه بنفسه كما اقترح عليهم سـائق سيارة الأجرة الذي أقلّهم إلى هناك.

ما أن عبرت السيارة طريق الخرابيش حتـى تشـكلت مظاهرة من النوريات لحقن بها إلى ان توقفـت. فتـزاحمن على الأبواب وكان حسن أول الفرائس. قبضت عليه إحداهن من ذراعه المتشبثة بالشبرية وسـحبته مـن المقعـد وهـو يحاوص ويتفلت واتجهت به عنوة إلى خربوشـها. قبضـت أخرى على شيء هاني وسحبته منه فصرخ وهو يترجـل : طيب طيب... مشى معها متراخياً متفحجاً يتأرجح مع اتجـاه يدها وكأنه يدحل من غير كوابح. ناور نجم، الذي كان يجلس بينهما، للخروج من الباب الأيمن وقفز من الأيسـر فلحقتـه نورية وهو يطلق لساقيه العنان. تمكنت منـه فـي لحظـات وقبضت بكلتا يديها على قميصه من الوراء، لكنه ظل مندفعاً يسحبها خلفه وقد ثبتت قدميها الحافيتين بـالأرض. توقـف لاهثاً، فدفعته بقوة جعلته يصرخ متأخخاً وهو يتدحرج إلـى داخل خربوش قريب. أسرعت خلفه فرفع راحتيه مستسلماً :

خاص خاص. مثلما تريدين... قالها وقد امتزج خوفه بكآبـة وارتباك شديدين فأنقدها ما لها ولم ينتصب ما له، فرفسته في حوضه حتى كادت تخصيه : انجقم...

غادر الخربوش منكسراً وهو يحس بالانسحاق. هزمته النورية مرتين، أولاً في السباق وثانياً في العنـاق. عنـدما وصل السيارة وجد السائق في الكرسي الخلفي مع نـوريتين في وضعٍ فاحشٍ فانتصب على الفور. نظـر إلـى حوضـه مذهولاً : بعدك عايش.؟.. قالها موبخاً قبل أن تغمره سـعادة أبٍ استعاد وحيده الضائع. كاد يصيح بأعلى صوته أنه ليس بعنين.

عندما توقفت السيارة كان يحيى مسترخياً فـي المقعـد الأمامي، فانقضت عليه نورية بشعة نحيلة ترتـدي قميصـاً ملوناً من تحت صدارٍ أسود وشروالٍ فضفاضٍ متزنراً بحطة حمراء. تشبث بالباب وهو يدفعها عنـه قـائلاً : سـأنزل وحدي. سأنزل وحدي... ما أن ترجل حتى شبكت راحتهـا براحته وحشرتهما معاً في الزنار وقادته إلى خربوش مضاء بسراج كاز صغير وقد فرشت الأرضيه الترابية ببساطٍ رث أشبه بكيس الخيش. اقتعدته متوسدة ساقيها وهي تتفرس بـه

ويتفرس بها. سرعان ما باغتهما رجل نحيل قصـير القامـة عريض الشاربين يعتمر الحطة والعقال. قرفص فـي فتحـة الخربوش وهو يتفرس بعينين متقدتين بوجه يحيـى الـذي انتابه خوف شديد وأحس كأنه وقع في مصيدة. قالـت لـه : أكرم الولد... سألها وهو يبلع ريقه : أي ولد.؟.

أجابته زاجرة وهي تشير للرجل : الذي أمامك. ألسـت تراه.؟. أعطه شلم.

ناوله شلناً، فغادر الولد، وعلى الفور أخفضت إضـاءة السراج وفكت الحطة عن وسطها وتوسدتها خلـف رأسـها. رفعت ساقيها منثنيتين وسحبت الشـروال حتـى ركبتيهـا : اقترب أشوف... فاقترب وهو لا يشوف.

٤

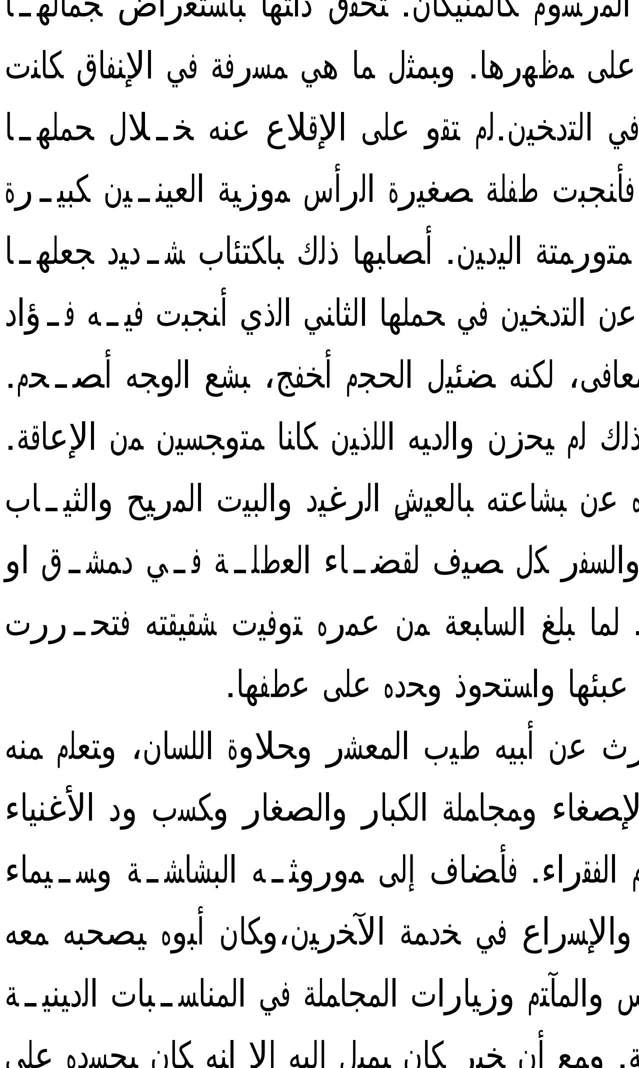
سمعة أبي فؤاد ومهارته وأرستقراطية زبائنه جعله من أعلى الخياطين أجراً، وكان تهذيبه ودماثته من أهم أسـباب نجاحه. فهو حلو اللسان دائم الابتسامة. يصغي بانتباه لزبائنه وجلسائه سواء أتحدثوا بالعموميات أم باحوا بالخصوصـيات أم أغرقوا بالسخافات.

كان محله يحتل طابقاً بأكمله فوق عدد مـن المحـلات التجارية في شارع بسمان، ويتألف مـن غرفـة للخيـاطين وأخرى للكي ومستودع للأقمشة ومنافع إضافة إلـى غرفـة أمامية واسعة فيها خزائن زجاجية ستفت فيها لفائف الأقمشة، وضع في صدرها طاولة قصٍ عريضة يظل علـى الغالـب واقفاً خلفها بينما زبائنه يحتلون المقاعد المريحة أمامها. كان زبائنه يتباهون بأنه خياطهم ويجدون متعة في التردد علـى محله فيروحون عن أنفسهم ويتسـلون بأحاديـث السياسـة وأخبار المجتمع الراقي. زاره أبو الخير مـرة وفـي نيتـه تفصيل بدلة يحصل فيها بعض ما يستحق له مـن إيجـار. أحس بالصغارة أمام الجالسين المنتفخين في ثيابهم المهندمـة الأنيقة، فادعى أنه كان في الأنحاء وجاء للسلام. رحب بـه

أبو فؤاد بحرارة وحاول أن يستبقيه، لكنه أصر على المغادرة بدعوى الاستعجال.

ومع أن إيراد المحل كان كبيراً وساعد أبا فـؤاد علـى اقتناء سيارة خاصة والعيش فـي رغـدٍ وبحبوحـة، إلا أن اقتداءه بحياة الأغنياء التي كان يحقق فيها ذاته أثقله بالديون. فأثاث شقته الفاخر يتجدد باستمرار. وزوجته تشتري أغلـى الثياب من محلات الحايك أو تتسوقها من دمشـق وبيـروت أثناء زياراتها الصيفية، فتنفق خلالها ما يزيـد عـن إيـراد زوجها في عام. ولم يكن أبو فؤاد يحتج او يعارض حتى لو استدان. فهو لا يعتبر الإنفاق تبذيراً وانما تعبيراً عن الرقـي الذي جعل زبائنه الأرستقراطين يعتبرونه واحـداً مـنهم ولا يقل شأناً عنهم فأفصحوا له عن مواقفهم وصرحوا بمشاعرهم وكشفوا أوراقهم والكثير من أسرارهم وارتباطاتهم ودقـائق أعمالهم. كان ذلك يورطه أكثر مما يورطهم. فصار يحـذو حذوهم في أسلوب حياته وسهراته وسفراته.

كان وسيماً متهندماً باستمرار، وكانت زوجته آية فـي الجمال، تحرص ان تبدو في ثيابها برشاقة الممثلات وأناقـة الأميرات. معتدلة في أكلها وشرابها حتى لا يختـل تناسـق



جسدها المرسوم كالمنيكان. تحقق ذاتها باستعراض جمالهـا والبذخ على مظهرها. وبمثل ما هي مسرفة في الإنفاق كانت شرهة في التدخين.لم تقو على الإقلاع عنه خـلال حملهـا الأول، فأنجبت طفلة صغيرة الرأس موزية العينـين كبيـرة الأذنين متورمتة اليدين. أصابها ذلك باكتئاب شـديد جعلهـا تتوقف عن التدخين في حملها الثاني الذي أنجبت فيـه فـؤاد سليماً معافى، لكنه ضئيل الحجم أخفج، بشع الوجه أصـحم. إلا أن ذلك لم يحزن والديه اللذين كانا متوجسين من الإعاقة. فعوضاه عن بشاعته بالعيشٍ الرغيد والبيت المريح والثيـاب الأنيقة والسفر كل صيف لقضـاء العطلـة فـي دمشـق او بيروت. لما بلغ السابعة من عمره توفيت شقيقته فتحـررت أمه من عبئها واستحوذ وحده على عطفها.

ورث عن أبيه طيب المعشر وحلاوة اللسان، وتعلم منه حسن الإصغاء ومجاملة الكبار والصغار وكسب ود الأغنياء واحترام الفقراء. فأضاف إلى موروثـه البشاشـة وسـيماء البراءة والإسراع في خدمة الآخرين،وكان أبوه يصحبه معه للأعراس والمآتم وزيارات المجاملة في المناسـبات الدينيـة والعائلية. ومع أن خير كان يميل إليه إلا انه كان يحسده على

دلاله ورغد عيشه وباص مدرسته الخاصة الذي يحمله مـن البيت ويعيده إليه.

رافق خير بعد انتقاله إلى ثانوية الجوفة وانضـم إلـى الشلة إلى أن صار له رفقاء آخرين. لا يدخنون ولا يقتعدون الأرض خلف المراحيض. إلا أن خير ظل يحـرص علـى العودة معه في الرواح كأنه جواز مرور يسهل لـه تجـاوز الدكان دون زجرٍ أو عقاب. غالباً ما يستوقفهما أبوه خـلال الإياب فيستفسر من فؤاد ببشاشة عـن دروسـه ومدرسـته ويدلـلـه بالتمليس على شعره ويرسل معه سلاماً لأبويـه. ويعاتبه ويوبخ خير لأنهما لا يتزاوران..

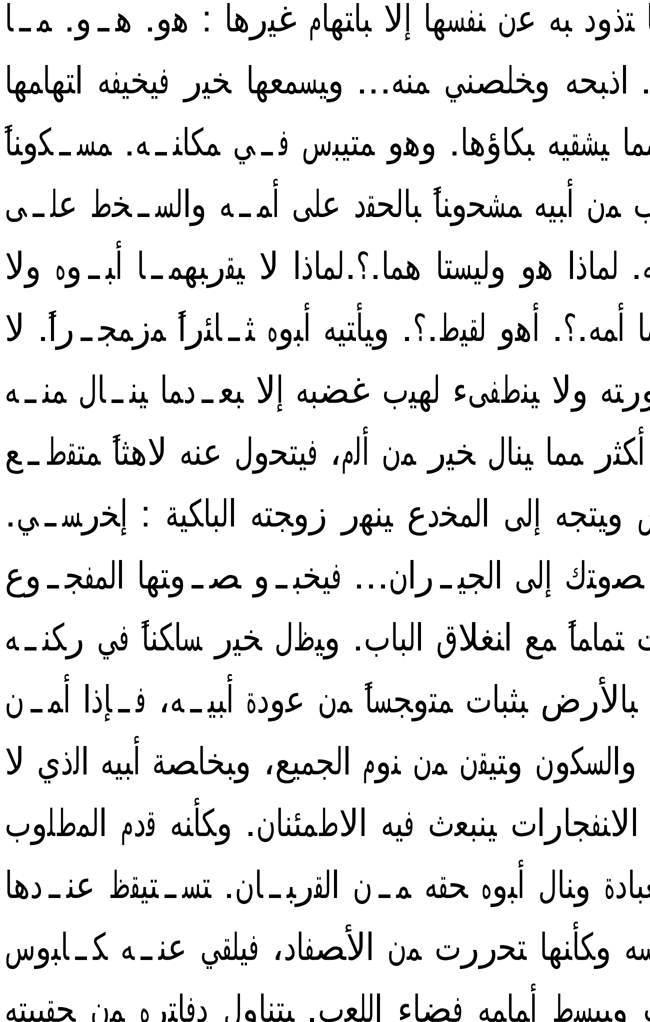
من حين لحين يذهب إلى المحل بعـد انصـرافه مـن المدرسة مباشرة، فيقف خلف طاولة القـص بجانـب أبيـه. يصغي للجالسين بانتباه وهم يتداولون أخبار الساعة والمجتمع والسياسة فيستنير بأفكارهم ويسمع آراءهم وأحكامهم حـول الناس الذين يستحقون الحياة وأولئك الـذين يعيشـون عبئـاً عليها.

في الإياب يعود وأبوه محملين بالأكياس التي يضمنانها أحياناً حصة للجيران. فيشرق وجه أبي الخير وهو يتلقاهـا

كمن يتلقى رسالة من حبيب، ويودعه حتى المصطبة كأنـه رسول غرام، فتحتقن أم الخير بالغيظ وهي تسـمعه يشـكره بصوت عالٍ موصياً إياه أن يسلم على أمه وأبيه كثير السلام.

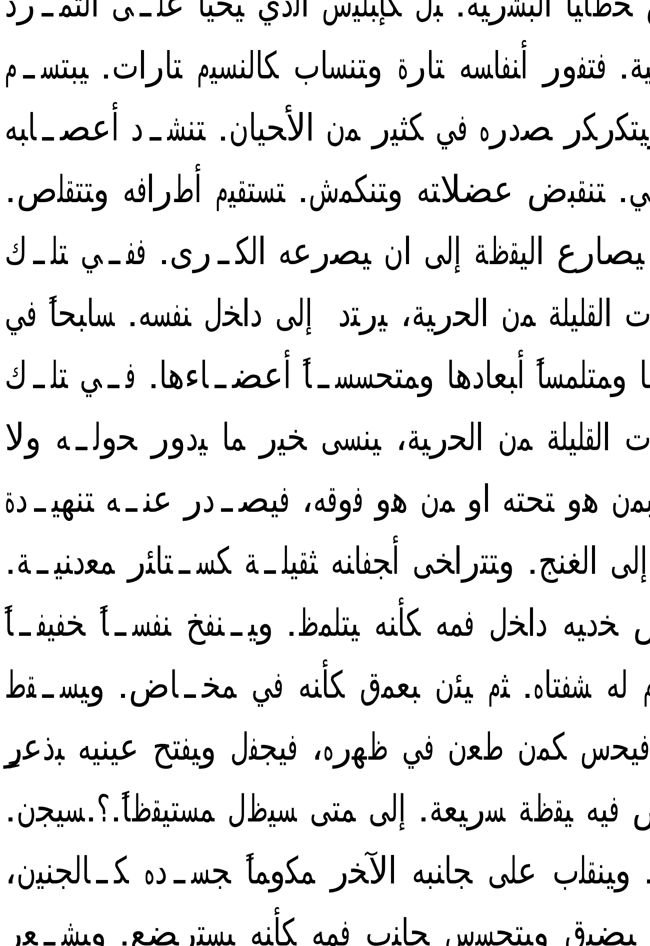
إذا جاء يخبره بأنهم سيأتون للسهر عندهم، وغالباً مـا يفعلون ذلك مع استحقاق قسط الإيجار، فإن أبا الخير يستنفر موجودات الدكان، وتستنفر أم الخير موجـودات المطـبخ، وتندفع الابنتان بحماس لتوضيب البيـت وتنظيـف الصـالة ومسح الغبار عن العفش والنوافذ والأبواب، ويتراكض خير بين البيت والحلواني والخضرجي والمحمص والدكان. ويقبل أبو الخير أي مبلغ ينقده إياه أبو فؤاد دون أن يأتي على ذكر المبلغ المستحق من قبل. وإن طلبت منه أم فؤاد تأجيل القسط المستحق او جزءاً منه، فإن أبا الخير لا يخيب لها رجاء. بل يبدي استعداده لإقراضهما : وا إنني مستعد أن أبيع الـدكان من أجل الجيران. نحن مسلمون يا أم فؤاد...وينظـر إلـى زوجته والدخان يعبق من فمه الذي لا يتوقف عـن الحـرق والاحتراق : روحي شوفي إن كان ابنـك وفـؤاد يحتاجـان شيئاً... فتغادر على الفور لتجد فؤاد منهمكـاً باسـتعراض التخطيطات بينما خير يلتهم الفواكه والحلوى والبـزورات،

التي تتحول إلى سكاكين في بطنه بمجرد مغادرة الضـيوف: فضحتنا يا ابن الكلبة. سيقولون عنا مجوعينك يا فجعـان... ويلطمه على رأسه ولا يتردد في ركله. كما ينال أمه بعـض من غضـبه : لا تعـرفين الحـديث ولا التصـرف مثـل الناس.؟... تتيقظ حواسها حتى تتفـادى الضـربة التـي لا تستطيع صدها، فتترنح على أثرها ويتراخي خير في موقعه وتنشغل الابنتان في تفريغ الأواني ونقلها. ويظل أبو الخيـر مدووشاً لبضعة أيام. توقـّـد معلمات المدرسة مـن لهيبـه ويزيد تذكره لأم فؤاد من عذابه. فهي تمنحه الوله ويمنحها الرضى. تأخذ عيناً وتمنح بسمة. تحرقـه بتألقهـا ويحيـره تناسقها ويربكه تماسكها. عندما يلقاها يسعده بريقها حتى لـو أذابه توهجها. وعندما تغيب يستوحش لنورها حتى لو أعماه شروقها. كانت شمسه التي يعجز عن الاقتراب منها والعيش من دونها. فهي الضوء الذي لولاه ما عرف العتمة : أعميت ضوئي يا بنت الكلب... ويلطم زوجته متذرعاً بأوهى سبب. وإذا تأجج حريقه، يقيدها من شعرها بقضبان السرير، وينهال عليها ضرباً بكل قوته، فهي الظلم والعثرة والعتمة.. فتـذود بيديها وتدافع بتلويح ساقيها وتصرخ مستجدية مسـترحمة لا

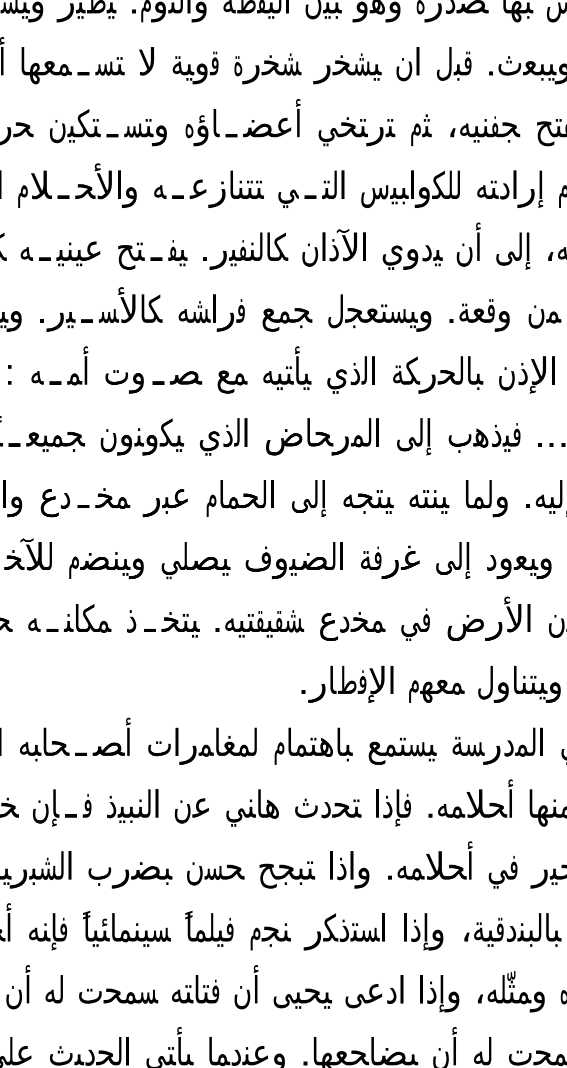


تجد ما تذود به عن نفسها إلا باتهام غيرها : هو. هو. ما دخلني. اذبحه وخلصني منه... ويسمعها خير فيخيفه اتهامها أكثر مما يشقيه بكاؤها. وهو متيبس في مكانه. مسكوناً بالرعب من أبيه مشحوناً بالحقد على أمه والسخط على شقيقتيه. لماذا هو وليستا هما.؟.لماذا لا يقربهما أبوه ولا تتهمهما أمه.؟. أهو لقيط.؟. ويأتيه أبوه ثائراً مزمجراً. لا تهدأ ثورته ولا ينطفىء لهيب غضبه إلا بعدما ينال منه التعب أكثر مما ينال خير من ألم، فيتحول عنه لاهثاً متقطع الأنفاس ويتجه إلى المخدع ينهر زوجته الباكية : إخرسي. وصل صوتك إلى الجيران... فيخبو صوتها المفجوع ويسكت تماماً مع انغلاق الباب. ويظل خير ساكناً في ركنه يحملق بالأرض بثبات متوجساً من عودة أبيه، فإذا أمن الهدوء والسكون وتيقن من نوم الجميع، وبخاصة أبيه الذي لا توقظه الانفجارات ينبعث فيه الاطمئنان. وكأنه قدم المطلوب من العبادة ونال أبوه حقه من القربان. تستيقظ عندها أحاسيسه وكأنها تحررت من الأصفاد، فيلقي عنه كابوس الرعب ويبسط أمامه فضاء اللعب. يتناول دفاتره من حقيبته ويخطط ما استطاع ويرسم الدوائر والمثلثات والمربعات وهو

يحس بمعرفته ملائمة لمطالبه وانطباعاته موائمـة لتجاربـه وتمثله مطابق لحاجاته. فيوسع بذكائه خياله، وينمي بخيالـه قدراته، وهو يشحذ همته بتحويل الوهم إلى سلاح يقهر بـه ازعاجات الأحداث، ويقفز من قمة الألم إلى ذروة اللذة فـي صخب وفرح لا يدركه سواه وهو يتسلل تحت الغطاء بهدوء وقد سكنت آلامه وكأنه تجرع الدواء، وأهمل جراحه وكأنـه اعتاد القتال والنزال. ويحس مع نوم المدينة بمتعة اليقظـة، فيبدد خياله طغيان الواقع ويكشف له عن روعة الأحلام وهو ينعتق من اتجاه الزمن وقيود المكان. فتتجلى حريته في ذاته وذاته في حريته. ليصـبح الصـانع والمصـنوع والخـالق والمخلوق. في كون مباح متاح. فهو الذي يخلق الحلم وينتهي إليه. وهو الذي يبدد الكابوس ويستولي عليه. وفـي غمـرة رحلته السحرية يحس بعطر أنفاسه وجمال أعضائه، فيغشاه الرضى من مواهبه الفذة، ويغبط نفسه على قدراته الجمـّـة وهو يستحوذ بخياله على كل عصـي ويقهـر كـل عتـي، ويتلاعب كيفما شاء بدقائق الزمان ويغير ما يحلو لـه مـن أوضاع المكان، فيضغط الجحـيم دركـات ويرفـع الجنـة درجات. إنه متفوق، ليس كالمسيح، يتحمل وحده الخطيئة ولا



تخاص خطايا البشرية. بل كإبليس الذي يحيا على التمرد والغواية. فتفور أنفاسه تارة وتنساب كالنسيم تارات. يبتسم حيناً ويتكركر صدره في كثير من الأحيان. تنشد أعصابه وترتخي. تنقبض عضلاته وتنكمش. تستقيم أطرافه وتتقاص. ويظل يصارع اليقظة إلى ان يصرعه الكرى. ففي تلك الساعات القليلة من الحرية، يرتد إلى داخل نفسه. سابحاً في أعماقها ومتلمساً أبعادها ومتحسساً أعضاءها. في تلك الساعات القليلة من الحرية، ينسى خير ما يدور حوله ولا يبالي بمن هو تحته او من هو فوقه، فيصدر عنه تنهيدة أقرب إلى الغنج. وتتراخى أجفانه ثقيلة كستائر معدنية. ويمتص خديه داخل فمه كأنه يتلمظ. وينفخ نفساً خفيفاً تتبرطم له شفتاه. ثم يئن بعمق كأنه في مخاض. ويسقط رأسه فيحس كمن طعن في ظهره، فيجفل ويفتح عينيه بذعرٍ فتومض فيه يقظة سريعة. إلى متى سيظل مستيقظاً.؟.سيجن. سيجن. وينقلب على جانبه الآخر مكوماً جسده كالجنين، ويزفر بضيق ويتحسس جانب فمه كأنه يسترضع. ويشعر بالانقباض فينفض يده على امتدادها وكأنه يرميها ويمد جسده منقلباً على ظهره مرتخياً مستسلماً للجلاد، وتتحسس يده عنقه


ثم يهرش بها صدره وهو بين اليقظة والنوم. يطير ويسقط، يموت ويبعث. قبل ان يشخر شخرة قوية لا تسمعها أذناه لكنها تفتح جفنيه، ثم ترتخي أعضاؤه وتستكين حركته وتستسلم إرادته للكوابيس التي تتنازعه والأحلام التي تتباضعه، إلى أن يدوي الآذان كالنفير. يفتح عينيه كمن استفاق من وقعة. ويستعجل جمع فراشه كالأسير. ويتهيأ منتظراً الإذن بالحركة الذي يأتيه مع صوت أمه : هيا خلّصوا... فيذهب إلى المرحاض الذي يكونون جميعاً قد سبقوه إليه. ولما ينته يتجه إلى الحمام عبر مخدع والديه فيتوضأ ويعود إلى غرفة الضيوف يصلي وينضم للآخرين المقتعدين الأرض في مخدع شقيقتيه. يتخذ مكانه حول الطبلية ويتناول معهم الإفطار.

في المدرسة يستمع باهتمام لمغامرات أصحابه التي يستمد منها أحلامه. فإذا تحدث هاني عن النبيذ فإن خدره ينشي خير في أحلامه. واذا تبجح حسن بضرب الشبرية فإنه ضرب بالبندقية، وإذا استذكر نجم فيلماً سينمائياً فإنه أخرجه وصوره ومثّله، وإذا ادعى يحيى أن فتاته سمحت له أن يقبلها فإنها سمحت له أن يضاجعها. وعندما يأتي الحديث على دار

الممرضات، يتخيله مرقداً خاصاً بـه تخدمـه الممرضـات وترعاه وتمتعه. وكلما جاء يحيى بصورٍ جنسية، يأخذها قبل الآخرين ويعيدها إليه بمجرد الانصراف من المدرسة. وإذا هاجمته غلمته في البيت يستذكر الصورة فـي المرحـاض. وكان وقت الحمام بالنسبة له عرساً حقيقياً يستحضـر فيـه الصور التي رآها والقصص التي سـمعها والوجـوه التـي اشتهاها.

أحياناً تستحوذه الأحلام داخل غرفة التدريس. لاسـيما إثناء حصة الدين وهو يستمع إلى نعيم الجنان وحور العـين والغلمان. وإذا أطلقت حكاية جديدة غريزته وهيجت رغبته، فإنه يستعجل الرواح مهما كان المصير الذي ينتظره طالمـا سيضم الحكاية إلى رصيد خيالاته ويتصرف بها كأملاكـه، مثلما تهيأت له الخرابيش وكأنه يعرفها قبل أن يسـمع مـن الشلة عنها.

٥

ألهبت قصة النور خيال خير وأججت رغبتـه. ظـل منتصباً يكبح جماحه طيلة الحصة، حتى يفعلها فـي البيـت بارتياحٍ وتأنٍ يمكنه من التنقل بين خربوش وآخـر قبـل أن يتدفق في النهاية داخل السيارة.

ما أن قرع جرس الانصراف حتى هب قبل الآخـرين ممسكاً بكتبه أمام حوضه.لم ينتظر فؤاد، بل انـدفع راكضـاً بمجرد مبارحته البوابة. وصل المبنى ولم يكن أبوه يجلـس أمام الدكان. اختفت صور الخرابيش من مخيلته، وتجاذبتـه هواجس جمة. فأبوه لا يصعد إلى البيت إلا بعـد انصـراف الطالبات. أحس بالندم على استعجاله.

صعد الدرج وهو يحاول أن يتذكر إن كـان أخطـأ أو أذنب، فوجد أباه يفتش في صندوق كتبه. ارتعدت فرائصـه فأحس بالخوف يستشري في أوصاله ويرخي له مفاصله فاتكأ على الجدار. أربكته المفاجأة بمثل ما أربكـت أبـاه الـذي خالجه ومض للحظة في قلبه العتي شعور بالصغارة. فهـو يفتش دائماً في الصندوق. لكن ذلك يتم بغياب خير التـام او وجوده التام. في الحالة الأولى يكون تقصياً وفي الحالة الثانية

يكون تحدياً. هذه المرة حركت نجـلاء ظنونـه بانصـرافها المبكر، وأثار تفرسها في وجهه ريبته ونقمته. هيئ له أنهـا نظرت إليه لأنه أب لخير وليس لأنه أبو الخير، فلم يتمالـك نفسه وأسرع إلى البيت يبحث في الصندوق عن رسـالة او رسمة او شطحات كتابية، فأربكته مباغتة خير له.كأنه ضبط متلبساً. دافع عن نفسه بهجوم مضاد : أهذه هي الدروس يـا ابن الكلبة.؟.. ورماه بدفترٍ. بلع خير ريقه وهو يقول: هـذا قديم...لكن أباه لم يكن يسأل، بل كان يدفع بعض اهتياجه من فمه قبل أن يندفع وراءه بكل جسده وهو يصـفعه ويركلـه. بينما خير يتأوأو وهـو يـذود بـالقول تـارة : وا انـه قديم...وتارة أخرى : وا ، من دفـاتر السـنة الماضـية.. وحيناً : ضربتني لأجله وا العظيم.

- وهل الضرب يؤثر بك.؟.. وركله : إلى دروسك...

تحول عنه وأخرج علبة السجائر. نادى علـى زوجتـه وهو يشعل واحدة : أنت يا معدلة.؟.

جاءت مهرولة، فقال بنبرة آمرة وهو ينفث الدخان فـي وجهها : روحي طلي على أم فؤاد... أضاف باسـتعلاء : لا أدري متى سيدفعون الإيجار.؟.

سألت وهي تبلع ريقها : هل أطالبها.؟.

- كيف تطالبينها يا امرأة.؟. هذا حديث رجال. جسـي نبضها فقط وأنا سأطالب زوجها... ونظر إلى ساعته.

هبط إلى الدكان واستقر في كرسيه على الرصيف متيقظ الحواس مشدود الأعصاب. يسحب مـن سـيجارته وكأنـه يتشربها. سحق عقبها بقدمه ونظر إلى ساعته.

عندما ظهرت أول طالبة في البوابة، اسـتقام ظهـره وانشد جذعه وأشعل سيجارة وهو مطرق. نفث الدخان وهو ينظر إلى الطالبات يتزاحمن بالخروج.

نهض بشموخ بمجرد أن ظهرت ابنتـاه. ابتسـم لهمـا باستكبار وهما تتقدمان نحوه بحقيبتيهمـا : أهـلاً أهـلاً... أضاف بحنان : تأخرتما.؟.

تساءلت نظراتهما : خرجنا على الوقت.

- ظننت أنهم سيصرفونكما باكراً.

- لماذا.؟.

- شفت كم واحدة تغادر من نصف ساعة تقريباً.

- أكيد كان عندهن امتحان.

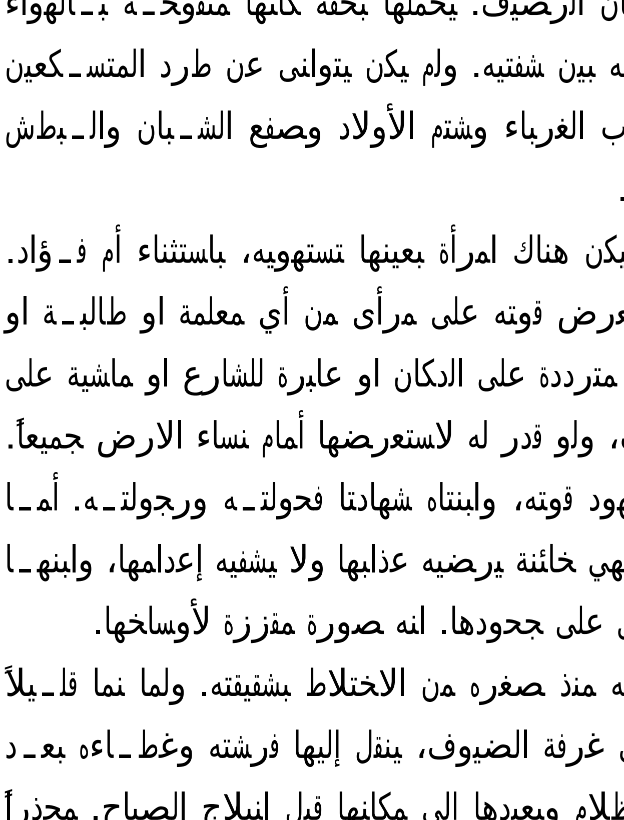
قال بصوت عالٍ مع ظهور ثلاث معلمات في بوابة المدرسة: ماشي الحال بابا. إذا احتجتما شيئاً من الدكان ارسلا خير.

أشارتا للمعلمات مودعات فرددن عليهما مبتسمات. فاستدفأت أحاسيس أبي الخير وغمر قلبه المسرة. لم تكن ابنتيه تعلقان سلباً أو إيجاباً على ادعاء أمهما بأنه يخاف عليهما لخشيته من هذا الزمن الرديء، وتذكرهما دائماً كيف كان يأخذهما صباحاً إلى الابتدائية ويعود بهما ظهراً. وعندما انتقلتا إلى الثانوية دفعه الحرص عليهما لترك مهنته في البناء وافتتاح الدكان.. مرابطته على الرصيف تمنع الزعران من الاقتراب وتخيف المتسكعين من الطلاب. كل من خبر قوته يتجنبها وكل من سمع عنها يخشاها. الجوفة بأسرها ترهبه : لا تعلقوني معه ا يخليكم... وكانت وهي تردد هذا تتذكر يوم شكت أمرها لعائلتها ولم يمض على أنجابها خير سوى بضعة أشهر. بطش حينها بنذير الذي جاءه موفقاً وليس مغيثاً. حمله مثل دمية ورماه على الأرض وداس على وجهه كأنه قمامة. من حينها ابتدأ الشقاء. كان يجب أن تسمي خير شراً. لا تدري كيف جاء غامق البشرة واسع العينين طويل

الأطراف، بينما أبوه حنطي اللون ضـيق العينـين مربـوع القامة. كان مع كل يوم ينقضي يتضح تباينه عن أبيه : إنه لا يشبهني في شيء. من أين جئت به يا بنت الكلب.؟.. حفرت كلماته في نفسها آثاراً كدقّات الأزاميل. احتملت اتهامه خوفاً منه واحتمل ظنونه خوفاً من أقاويل الناس. حـال شـعوره بالجبروت والقوة دون طلاقه لها. فواجه عدوه بحقد مقـاومٍ لمحتلٍ لئيم. لا يروم الانتصار بقدر ما يروم الضرب والفتك والتلاذذ بقتل المعتدين. غدا بطشه غاية وانتقامه تعبيراً عـن ذاته وليس استرداداً لكرامته، فمرارة الهزيمة كانـت تشـقيه وحسم الانتصار لا يشفيه. كان الآخرون يوقدون ناره مـن حيث يدرون ولا يدرون : كأن ابنك غوراني...ولمـا قالـت احداهن لأم الخير : كأنك متوحمة على كاكاو... شـعرت أم الخير بالخزي والعار، وكان خوفها من زوجها يعجزها عن المواجهة، فبررت قائلة : الصحيح، للآن أتوحم على عنـب الشام...أكثر ما كانت تتوجس منه، عندما كان يعمـل فـي البناء، مباغتته لها من غير موعد وعيناه تتوهجان بالريبـة، وهو يتفقد الفراش والأواني وأدوات الحمام، وأحيانـاً يتفقـد الثياب. لم يكن لديها من حيلة تدفع عنها الاتهام إلا رد السبب

لطبيعة عمله المضنية وما يتكبده في سبيل ذلك مـن تعـبٍ وعناءٍ وما يتعرض له من احتيالات.

عندما حملت ثانية كان جل ما تخشاه أن تنجب شـبيهاً لخير او مختلفاً عنه وعن أبيه، فأنجبت ابنتين توأمين، أقـر بشبههما لوالديهما، الداية والأقارب والجيران. مـع الأيـام ازدادتا شبهاً بأبيهما، على عكس خير الذي وإن نصع قلـيلاً مع الأيام، إلا أنه ظل مختلفاً عـن بـاقي أفـراد العائلـة، باسمراره الناشف واستدارة وجهه وحور عينيه السـاحرتين المتوقدتين اللتين كانتا تشـدان الانتبـاه وتدغـدغان قلـوب البعيدين وتوقدان الحقد في قلوب القريبين، وبخاصة شـقيقتاه اللتان كانت أعينهما غؤورة كعيني أبيهمـا. ضـيقة عسـلية كعيني أمهما. ولم يكن خير ينظر إلى عينيه إلا عندما يتفقـد ضربات أبيه ولم يدر أن السر في السحر وأن السحر سـره دفين مثل مرض خبيث. يعذب أباه ويشقي أمه ويهاجمه بدون مثيرات ومن غير موعد ويناله دون أن ينال منه. كان يخاف أباه أكثر من أهل الجوفة كافة والذين كان معظمهم يخشـون بطشه ويرهبون قوته.



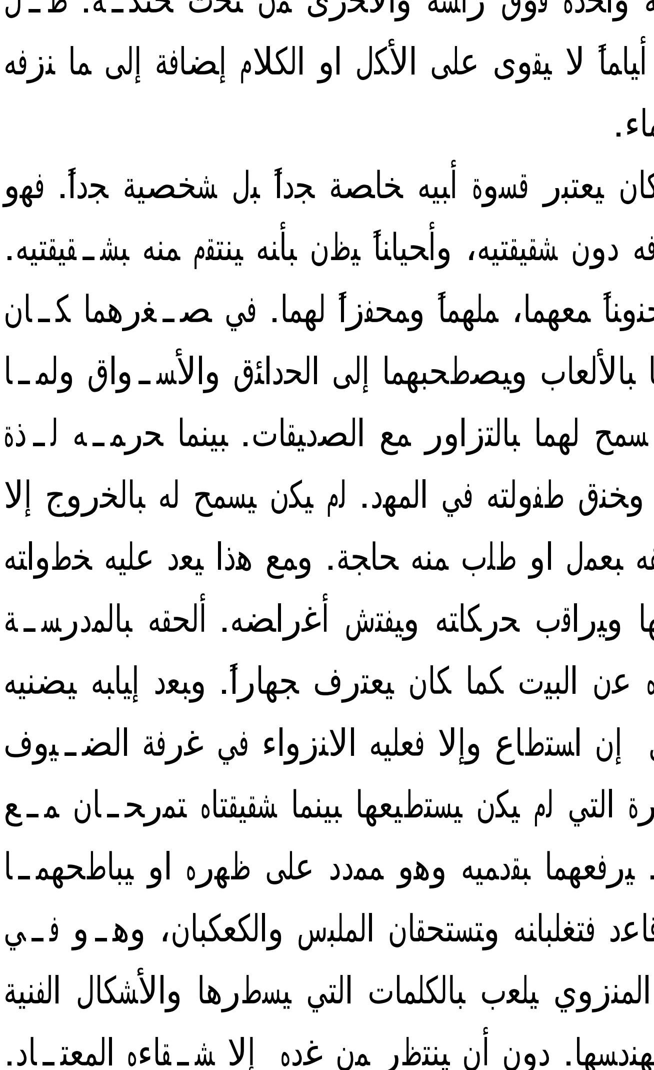
كان يتباهى بقوته أمام المعلمات وهن يتكئن على النوافذ في أوقات الاستراحة بينما الطالبات يراقبنه من على السطح وهو يستعرض قوته بنقل الشوالات المثقلة بالبضائع بين الدكان الرصيف. يحملها بخفة كأنها منفوخة بالهواء وسيجارته بين شفتيه. ولم يكن يتوانى عن طرد المتسكعين واستجواب الغرباء وشتم الأولاد وصفع الشبان والبطش بالدخلاء.

لم يكن هناك امرأة بعينها تستهويه، باستثناء أم فؤاد. فهو يستعرض قوته على مرأى من أي معلمة او طالبة او جارة او مترددة على الدكان او عابرة للشارع او ماشية على الرصيف، ولو قدر له لاستعرضها أمام نساء الارض جميعاً. كلهن شهود قوته، وابنتاه شهادتا فحولته ورجولته. أما زوجته فهي خائنة يرضيه عذابها ولا يشفيه إعدامها، وابنها خير دليل على جحودها. انه صورة مقززة لأوساخها.

منعه منذ صغره من الاختلاط بشقيقته. ولما نما قليلاً عزله في غرفة الضيوف، ينقل إليها فرشته وغطاءه بعد حلول الظلام ويعيدها إلى مكانها قبل انبلاج الصباح. محذراً إياه من الجلوس على الكنبايات او استخدام الاسكملات، فيقعد

على السجادة، يقرأ او يكتب متصنعاً الدراسة، وهـو يحـس بالغرفة جنة النعيم طالما أن الباب مغلق وأبوه بعيد، وبمجرد ان ينفتح الباب يحس بسطوة السجان، فإذا طلب منه مغـادرة الغرفة لمجيء ضيوف أو لأي سبب كان يضيق عليه المنزل ضيق زنزانة تخنقه وهو مقيد الأطراف، فينقضي وقته بطيئاً ثقيلاً وهو يحس بأركان المنزل ومحتوياتـه عيونـاً تراقبـه وأجهزة تصوره لتقديم دليل لمن لا يعوزه الـدليل. مجـرد رؤيته لأبيه ولو عن بعد كانت ترخيـه وتضـعفه وتشـقيه، وعندما يعاقبه يحس بأنه يستولي على رجولتـه ويغتصـب جسده. وحين يعترضه يتلمظ سريعاً متبيناً وضعية لسانه، فقد ظل يصفعه على إبقائه لسانه بين اسنانه وشفتيه. كان يعـي أنها عادة قبيحة ويتمنى الخلاص منها. لكنـه دون إرادة او انتباه كان يعض على لسانه مبقياً طرفه خارج فمه. لاسـيما عندما يستغرق بالكتابة والرسم. فظل يتلقـى بسـبب ذلـك الصفعات، إلى أن فعلها يوماً أثناء زيارة الجيران.

جن جنون أبيه بعد مغادرتهم، فأرغمه على مد لسـانه خارج فمه. انصاع له مرعوباً بعدما استرحمه واستجداه وقد هيئ له بأنه سيقتطعه له، فباغته أبوه بصفعه مزدوجة مـن

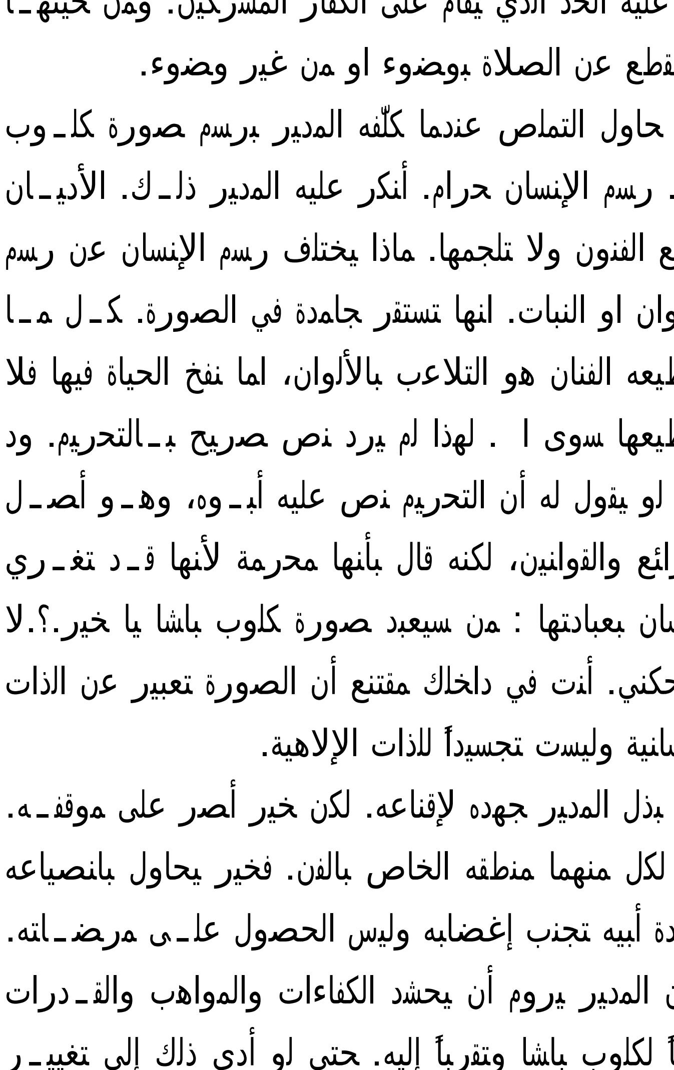


راحتيه واحدة فوق رأسه والأخرى من تحت حنكه. ظل بعدها أياماً لا يقوى على الأكل او الكلام إضافة إلى ما نزفه من دماء.

كان يعتبر قسوة أبيه خاصة جداً بل شخصية جداً. فهو يستهدفه دون شقيقتيه، وأحياناً يظن بأنه ينتقم منه بشقيقتيه. كان حنوناً معهما، ملهماً ومحفزاً لهما. في صغرهما كان يأتيهما بالألعاب ويصطحبهما إلى الحدائق والأسواق ولما كبرتا سمح لهما بالتزاور مع الصديقات. بينما حرمه لذة اللعب وخنق طفولته في المهد. لم يكن يسمح له بالخروج إلا إذا كلفه بعمل او طلب منه حاجة. ومع هذا يعد عليه خطواته ويوقتها ويراقب حركاته ويفتش أغراضه. ألحقه بالمدرسة لإبعاده عن البيت كما كان يعترف جهاراً. وبعد إيابه يضنيه بالعمل إن استطاع وإلا فعليه الانزواء في غرفة الضيوف للمذاكرة التي لم يكن يستطيعها بينما شقيقتاه تمرحان مع أبيهما. يرفعهما بقدميه وهو ممدد على ظهره او يباطحهما وهو قاعد فتغلبانه وتستحقان الملبس والكعكبان، وهو في ركنه المنزوي يلعب بالكلمات التي يسطرها والأشكال الفنية التي يهندسها. دون أن ينتظر من غده إلا شقاءه المعتاد.

وإن سكن البيت وأمن الأصوات يخاطر بالرسم، فصور أباه مراراً في أبشع الأشكال ورسم شقيقتيه في أرذل الحالات ثم يمزق الأوراق قبل أن يلملم كتبه ويستغرق بالأحلام، فيـرى ببصيرته أشياء لم يعرف هيأتها ويسجل في ذاكرته قصصاً لم تكتب حكايتها. وكأنه يضيف للطبيعـة لمسـة فنيـة ولا يتحسس منها شيئاً.

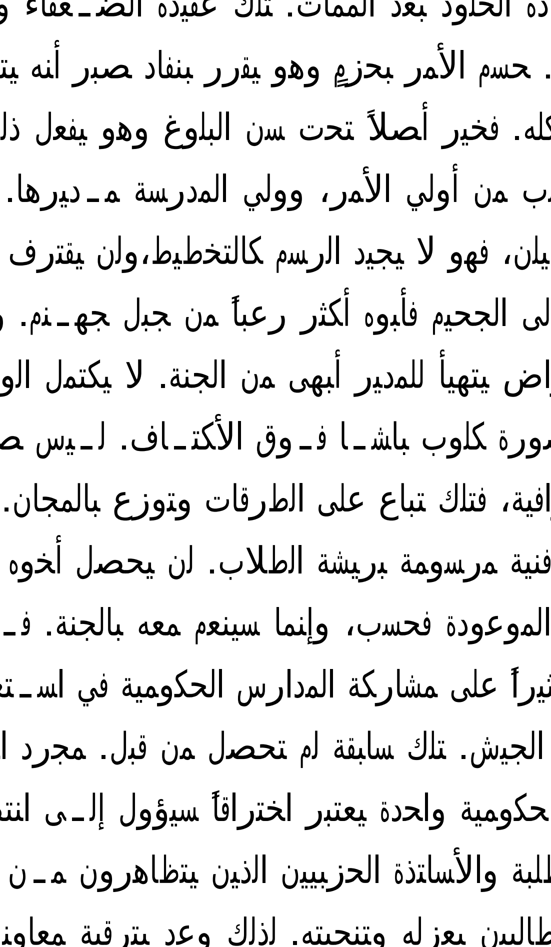
لم يكن هناك شيء يقارب بينه وبين أبيه سـوى خطـه الجميل. حتى في هذا كان يقربه منه دقائق معدودة فحسـب، عندما يملي عليه رسالة او يكتب له استدعاء او وصـلاً او عقد إيجار. عدا ذلك فإن خطه وبال عليه. يزيد من شـكوك أبيه ويفاقم من غيرته ويثير حنقه ويمنحه حجة لا يحتاجهـا من أجل معاقبته وتمزيق دفاتره ومصادرة أقلامه، متهماً إياه بسرقتها من الدكان او المدرسة او الأصحاب. وكلما ضبطه يرسم يعاقبه. وإذا وقع بيديه رسمة يمزقها. لكن ذلك لم يحل دون مواصلته رسم الأشكال الهندسية وتخطـيط الحـروف العربية. خفية بعدما يأوي أهل البيت إلى مهاجعهم، وعلانية في المدرسة أمام الطلبة والمدير والمدرسين. ملتزماً بعهـده ملزماً نفسه أن لا يرسم أشكالاً بشرية بعدما أوشك أبـوه أن



يقيم عليه الحد الذي يقام على الكفار المشركين. ومن حينهـا لم ينقطع عن الصلاة بوضوء او من غير وضوء.

حاول التماص عندما كلّفه المدير برسم صورة كلـوب باشا. رسم الإنسان حرام. أنكر عليه المدير ذلـك. الأديـان تشجع الفنون ولا تلجمها. ماذا يختلف رسم الإنسان عن رسم الحيوان او النبات. انها تستقر جامدة في الصورة. كـل مـا يستطيعه الفنان هو التلاعب بالألوان، اما نفخ الحياة فيها فلا يستطيعها سوى ا . لهذا لم يرد نص صريح بـالتحريم. ود خير لو يقول له أن التحريم نص عليه أبـوه، وهـو أصـل الشرائع والقوانين، لكنه قال بأنها محرمة لأنها قـد تغـري الإنسان بعبادتها : من سيعبد صورة كلوب باشا يا خير.؟.لا تضحكني. أنت في داخلك مقتنع أن الصورة تعبير عن الذات الإنسانية وليست تجسيداً للذات الإلاهية.

بذل المدير جهده لإقناعه. لكن خير أصر على موقفـه. كان لكل منهما منطقه الخاص بالفن. فخير يحاول بانصياعه لإرادة أبيه تجنب إغضابه وليس الحصول علـى مرضـاته. وكان المدير يروم أن يحشد الكفاءات والمواهب والقـدرات تحبباً لكلوب باشا وتقرباً إليه. حتى لو أدى ذلك إلى تغييـر

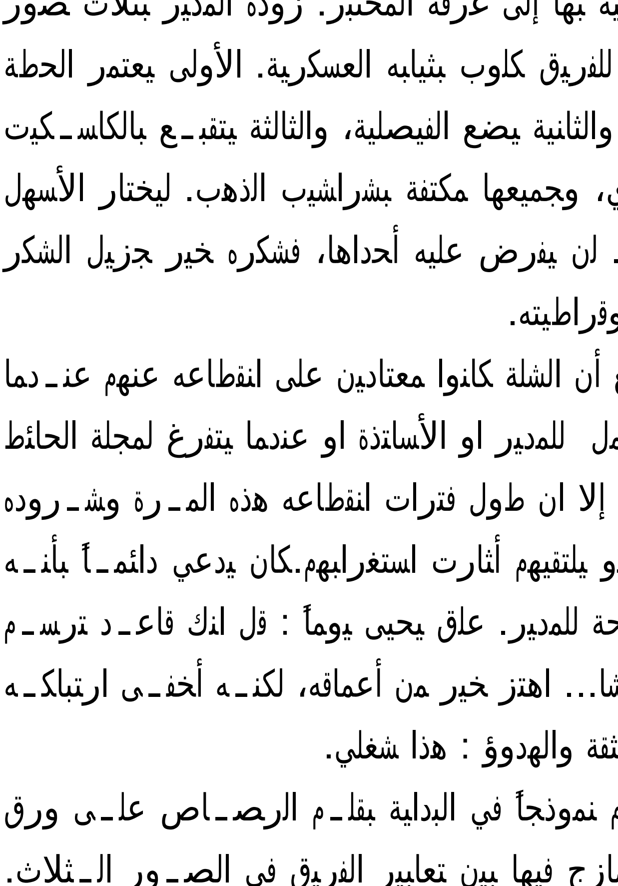


دينه، فسعادة اللحظة الآنية في الحياة كانت بالنسبة له أصدق من سعادة الخلود بعد الممات. تلك عقيدة الضـعفاء ولـيس الأقوياء. حسم الأمر بحزمٍ وهو يقرر بنفاد صبر أنه يتحمـل الوزر كله. فخير أصلاً تحت سن البلوغ وهو يفعل ذلك بناء على طلب من أولي الأمر، وولي المدرسة مـديرها. إلا ان خير لم يلن، فهو لا يجيد الرسم كالتخطيط،ولن يقترف خطيئة ترسله إلى الجحيم فأبوه أكثر رعباً من جبل جهـنم. وكـان الاستعراض يتهيأ للمدير أبهى من الجنة. لا يكتمل الولاء إلا برفع صورة كاوب باشـا فـوق الأكتـاف. لـيس صـورة فوتوغرافية، فتلك تباع على الطرقات وتوزع بالمجان. لكـن صورة فنية مرسومة بريشة الطلاب. لن يحصل أخوه علـى الترقية الموعودة فحسب، وإنما سينعم معه بالجنة. فـالفريق يعول كثيراً على مشاركة المدارس الحكومية في اسـتعراض مدارس الجيش. تلك سابقة لم تحصل من قبل. مجرد اشتراك مدرسة حكومية واحدة يعتبر اختراقاً سيؤول إلـى انتصـارٍ على الطلبة والأساتذة الحزبيين الذين يتظاهرون مـن حـين لحين مطالبين بعزله وتنحيته. لذلك وعد بترقية معاونـه ان حقق له هذا الاختراق، ووعد المعاون شقيقه بمركز مهم في

الوزارة بعد الاختراق. ولما نجح المدير في تجاوز الأسـاتذة الحزبيين واستجابت الفرق الرياضية على الاشتراك ووافـق مئات من الطلبة على الحضور، أغراه النجاح بمزيـد مـن النجاح، فقرر التحدي برفع لافتات التأييد لكلـوب وإهدائـه صورته مرسومة بـأزهى الألـوان تعبيـراً عـن الـولاء والعرفان : سترسم الصورة أيضاً في غرفة المختبر. قل من البداية ان المشكلة بأبيك.

لم يكن أمام خير إلا أن يقبل، وإلا اتسع نطاق القهـر ليشمل المدرسة. ناسبته رغبة المدير فـي أن يخفـي أمـر اللوحة. وناسب المدير عدم مشاركة خير في الاسـتعراض، مع انه سيعاقب كل من يتخلـف ذلـك اليـوم بنقلـه إلـى الضواحي. أساتذة كانوا أم طلاباً. كان هذا التهديد من أكثـر وسائله إقناعاً بالنسبة للجميع، بمن فيهم خير الذي شاهد أبـاه يجلس في فم المدير.

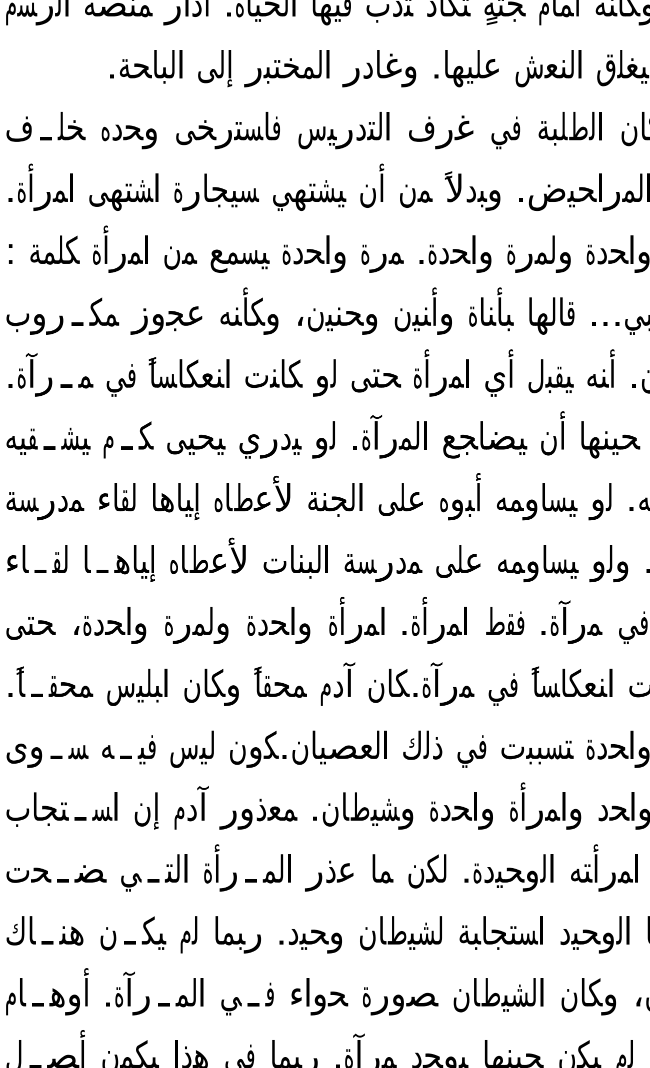
سأل يحيى أن يجلب له من مكتبة موفق مستلزماته من أقلامٍ وورقٍ. اشترط يحيى عليه أن يرسـم أبـاه بالمقابـل. رفض خير بإصرار. قال بأنه سـيدفع لـه ثمنهـا بمجـرد إحضارها. لكنه لم يدفع شيئاً، مع أنه قبض قيمتها سلفاً مـن



المدير، وانفق المبلغ على السندويشات والسكاكر التي كـان الآذن يأتيه بها إلى غرفة المختبر. زوده المدير بثلاث صور شخصية للفريق كاوب بثيابه العسكرية. الأولى يعتمر الحطة والعقال، والثانية يضع الفيصلية، والثالثة يتقبـع بالكاسـكيت الإنجليزي، وجميعها مكتفة بشراشيب الذهب. ليختار الأسهل والأنسب. لن يفرض عليه أحداها، فشكره خير جزيل الشكر على ديموقراطيته.

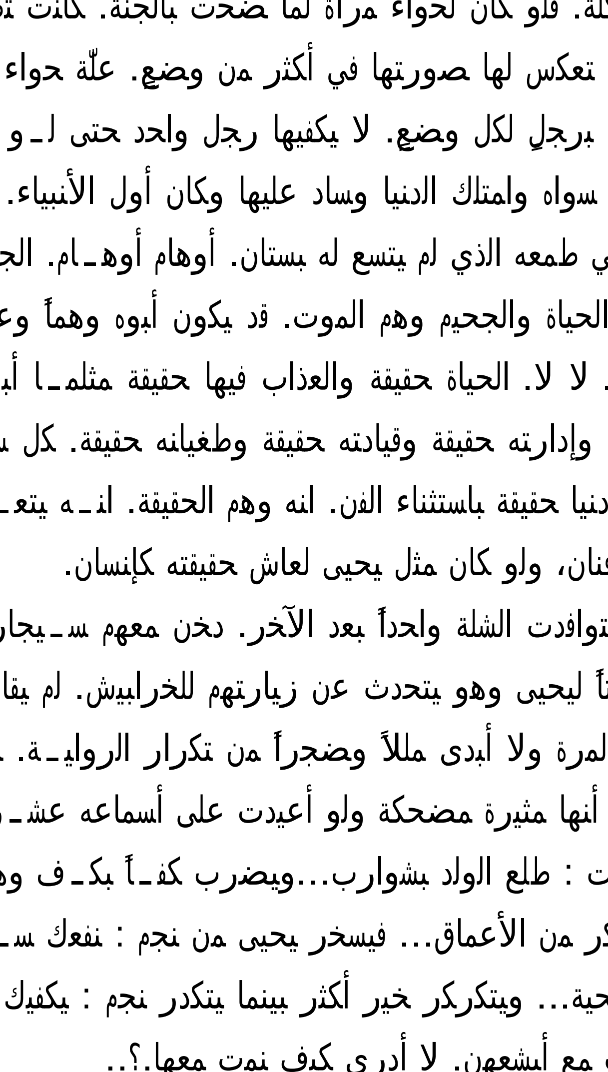
ومع أن الشلة كانوا معتادين على انقطاعه عنهم عنـدما يكلف بعمل للمدير او الأساتذة او عندما يتفرغ لمجلة الحائط الشهرية، إلا ان طول فترات انقطاعه هذه المـرة وشـروده الدائم وهو يلتقيهم أثارت استغرابهم.كان يدعي دائمـاً بأنـه يرسم لوحة للمدير. علق يحيى يوماً : قل انك قاعـد ترسـم كاوب باشا... اهتز خير من أعماقه، لكنـه أخفـى ارتباكـه بتصنع الثقة والهدوؤ : هذا شغلي.

رسم نموذجاً في البداية بقلـم الرصـاص علـى ورق أبيض، مازج فيها بين تعابير الفريق في الصـور الـثلاث. وقبل ان يبدأ التلوين فوق رقعة بحجم متر مربع، انتابه خوف



شديد وكأنه أمام جثةٍ تكاد تدب فيها الحياة. أدار منصة الرسم وكأنه يغلق النعش عليها. وغادر المختبر إلى الباحة.

كان الطلبة في غرف التدريس فاسترخى وحده خلف جدار المراحيض. وبدلاً من أن يشتهي سيجارة اشتهى امرأة. امرأة واحدة ولمرة واحدة. مرة واحدة يسمع من امرأة كلمة : يا حبيبي... قالها بأناة وأنين وحنين، وكأنه عجوز مكروب بالسنين. أنه يقبل أي امرأة حتى لو كانت انعكاساً في مرآة. مستعد حينها أن يضاجع المرآة. لو يدري يحيى كم يشقيه بأكاذيبه. لو يساومه أبوه على الجنة لأعطاه إياها لقاء مدرسة البنات. ولو يساومه على مدرسة البنات لأعطاه إياها لقاء امرأة في مرآة. فقط امرأة. امرأة واحدة ولمرة واحدة، حتى لو كانت انعكاساً في مرآة.كان آدم محقاً وكان ابليس محقاً. امرأة واحدة تسببت في ذلك العصيان.كون ليس فيه سوى رجل واحد وامرأة واحدة وشيطان. معذور آدم إن استجاب لغواية امرأته الوحيدة. لكن ما عذر المرأة التي ضحت برجلها الوحيد استجابة لشيطان وحيد. ربما لم يكن هناك شيطان، وكان الشيطان صورة حواء في المرآة. أوهام أوهام، لم يكن حينها يوجد مرآة. ربما في هذا يكمن أصل



المشكلة. فلو كان لحواء مرآة لما ضحت بالجنة. كانت تطمع بمرآة تعكس لها صورتها في أكثر من وضع. علّة حواء أنها تطمع برجلٍ لكل وضعٍ. لا يكفيها رجل واحد حتى لو لم يخلق سواه وامتلك الدنيا وساد عليها وكان أول الأنبياء. علة آدم في طمعه الذي لم يتسع له بستان. أوهام أوهام. الجنة وهم الحياة والجحيم وهم الموت. قد يكون أبوه وهماً وعذابه وهماً. لا لا. الحياة حقيقة والعذاب فيها حقيقة مثلما أبوه حقيقة وإدارته حقيقة وقيادته حقيقة وطغيانه حقيقة. كل شيء في الدنيا حقيقة باستثناء الفن. انه وهم الحقيقة. انه يتعذب لأنه فنان، ولو كان مثل يحيى لعاش حقيقته كإنسان.

توافدت الشلة واحداً بعد الآخر. دخن معهم سيجارتين منصتاً ليحيى وهو يتحدث عن زيارتهم للخرابيش. لم يقاطعه هذه المرة ولا أبدى مللاً وضجراً من تكرار الرواية. بل أحس أنها مثيرة مضحكة ولو أعيدت على أسماعه عشرات المرات : طلع الولد بشوارب...ويضرب كفاً بكف وهو يتكركر من الأعماق... فيسخر يحيى من نجم : نفعك سباق الضاحية... ويتكركر خير أكثر بينما يتكدر نجم : يكفيك انك ذهبت مع أبشعهن. لا أدري كيف نمت معها.؟..

- أولاً انا لم أنم معها. بل فوقها. ثم أنك رأيتهـا فـي العتمة. لكن صدقني، أنها بدت في الضوء والحطـة تحـت رأسها أحلى من مديحة يسري... التفت إلى خير وقال : لـو شفتها راح ترجع عن يمينك وترسمها.

- خلصني... رد خير وقد لمعت في رأسـه صـورة الفريق يعتمر الكوفية والعقال، ثم يعتمرها من غير عقال ثـم يتلثم بها ثم يحيطها حول عنقه ثم يلوح بها للجنود : خيـر. أين سرحت.؟.. سأله يحيى.

- ولا لمكان... قال ذلك وهو يهب واقفـاً ويضـيف : نسيت شيئاً في المختبر... وغادر مهرولاً.

تأمل الرقعة وأنفاسه تتعالى وقلبه يخفق بشدة. ثم تناول ريشته وملونته دون ان يحيد بنظره عن الرقعة. اقترب منها بحذرٍ شديد، ثم ابتعد بتأنٍ. رمى الملونة جانباً وتناول انبوب تلوين أحمر. أفرغ نصفه فوق اللوحة وراح يفتّح احمـراره فوقها، وقبل ان ينتهي الدوام كان قد انتهى من رسم الخلفيـة فبدت اللوحة وكأنها حطة حمراء مكويـة.

اعجبت الفكرة المدير. وأدهشته اللوحة عنـدما انتهـى خير منها. وقد جاء وجه الفريق يتقبع بالكاسكيت أزاء خلفية

مزينة بتطاريز بين الأحمر والبرتقالي تتخللها نقوش بيضـاء وكأنها فتحات تهوية، فبدا الفريق وكأنه ينـدفع قـدماً الـى الأمام. كان الوجه مشابهاً تماماً لوجه الفريق، لكنه لم يكـن مطابقاً لأي من الصور الثلاث، فقد أحاطه جـلال وفخامـة وصرامة، فانكمشت ابتسامته وتدبب أنفه ولمع الاخضـرار عميقاً في عينيه، فشعت الرهبة في نظراته، حتى أن المـدير أخفى ارتباكه أمامها بالقول : ستسحر الفريق عيناه... ولـم يدر خير ان كان المدير يطريه أم يتغزل بالفريق. لما سـأل بمكر وهو ينقل نظره لأسفل اللوحة : اهذا توقيعك.؟.

هز خير رأسه قليلاً. فهو يريد أن يضـع توقيعـه ولا يريد. إنها لوحته التي يفخر بها ويخاف منها، فذيلها بحـرف خاء مد قوسه بخط لولبي أحاط بالحرف من الجهة الأخـرى وبقيت نهايته مفتوحة : يكفي أول حرف من اسـمك حتـى يعرف الجميع أنك الرسام... وكأن المدير يريدها من غيـر إشارة له على الإطلاق.

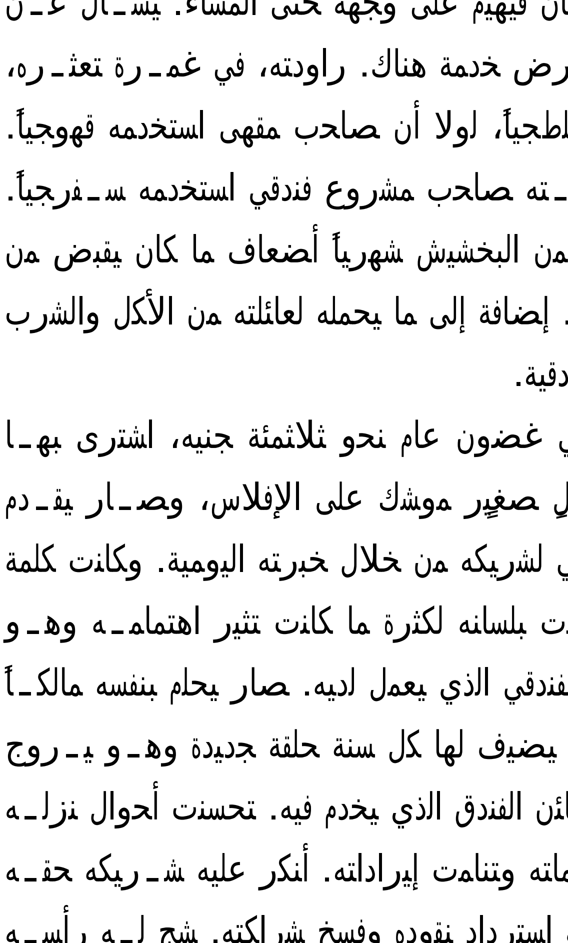
٦

كانت الجوفة كلها مسرحاً للشلة، باستثناء الشارع الذي يقع فيه بيت صبحا المؤجر سـكناً لممرضـات المستشـفى الباطني. كلف شرطي بحراسته لكثرة تعرض الممرضـات للمضايقات وتحرشات الكبار والصغار. كان يتمـادى فـي سلطته لتشمل الشارع بأكمله وإبعاد المتسكعين ومنع الرجال من دخول السكن مهما كانت الأسباب. أما الصـبية والأولاد فكثيراً ما تلقوا منه الصفعات حتى لو كانوا مجبـرين علـى المرور من هناك. صارت الشلة تتجنب المكـان وإن ظلـت تحلم بالإغارة عليه. يلتئمون عادة بعد الدوام في كنف صخرة ملساء تشبه المنجل شرقي الجوفة . يخفيهم اعوجاجها عـن المساكن المتناثرة فوق الهضبة والتـي كـان بيـت العـالي أكبرها، وتطل مقدمتها على بيت الجندي الذي كان أقرب إلى قلعة كبيرة تحتل مع خدماتها رابية تزيد على عشرين دنمـاً يفصلها شارع مسفلت عن الصخرة. وكلمـا أبـدى أحـدهم إعجاباً ببيت الجندي او أبدى آخر فضولاً لدخوله واكتشـاف دهاليزه، يردد هاني مقولة أبيه، بأن آل الجندي بنوا حصنهم

بأموال حرام. بينما جنى أبو هاني ثروته بجهده وعرق جبينه.

كانوا يحبونه فيجاملونه بالسكوت. فسواء ابتنى آل الجندي قلعتهم بأموال حرام أم حلال، يظل بنظرهم أجمل بيت في الجوفة. من الخارج على الأقل، كما كان يقول نجم. وغالباً ما يعرجون على بيت العالي بعد مغادرتهم الصخرة، فيجلب لهم هاني الماء ويمرر لهم خلسة ما يستطيع من طعام او شراب. وإذا كان أبوه في المنزل، يجالسهم، فيصغون له باهتمام وهو يحدثهم عما أنجزه بعد عناء وشقاء. كان يؤكد دائماً على شبوبيته وأنه ما يزال قوياً مثلما كان في صباه.

أبتدأ حياته عسكرياً في الجيش، ولما استحق الترقية إلى شاويش، اتهمه أحد المبغضين بالشيوعية، فطرحه أرضاً وكاد يبطش به. حوكم بتهمة الاعتداء ورمج بشبهة الحزبية. وكانت العسكرية بالنسبة له امتيازاً أكثر من العضلات. المدنيون يخشون بزتها والعائلة تعتاش من معاشها وتوفر لهم دكان النافي احتياجاتهم بأسعار زهيدة. كانت خسارته الأكبر فقدان حقه في إلحاق ابنه بمدرسة الجيش. انتابه القلق على عائلته وأحس بالندم على فعلته وطول لسانه. حاول توسيط



عشيرته لإرجاعه إلى الخدمة، فأنكره أغنياؤهم وشمت به فقراؤهم فنقم عليهم وكره قريته ومساكنها، وصار يغادر باكراً إلى عمان فيهيم على وجهه حتى المساء. يسأل عن عمل هنا ويعرض خدمة هناك. راودته، في غمرة تعثره، فكرة العمل بلاطجياً، لولا أن صاحب مقهى استخدمه قهوجياً. اعجبت همته صاحب مشروع فندقي استخدمه سفرجياً. فصار يجمع من البخشيش شهرياً أضعاف ما كان يقبض من الجيش سنوياً. إضافة إلى ما يحمله لعائلته من الأكل والشرب والأدوات الفندقية.

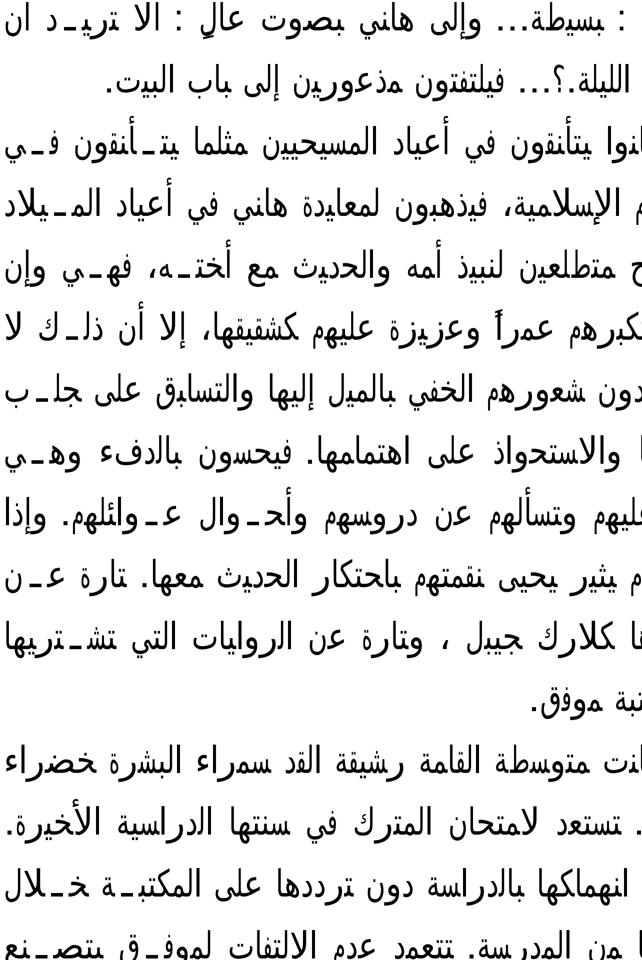
ادخر في غضون عام نحو ثلاثمئة جنيه، اشترى بها حصة في نزلٍ صغيرٍ موشك على الإفلاس، وصار يقدم النصح الفندقي لشريكه من خلال خبرته اليومية. وكانت كلمة سلسلة قد علقت بلسانه لكثرة ما كانت تثير اهتمامه وهو يسمعها من الفندقي الذي يعمل لديه. صار يحلم بنفسه مالكاً لسلسلة فندقية يضيف لها كل سنة حلقة جديدة وهو يروج للنزل بين زبائن الفندق الذي يخدم فيه. تحسنت أحوال نزله وانتعشت خدماته وتنامت إيراداته. أنكر عليه شريكه حقه وعرض عليه استرداد نقوده وفسخ شراكته. شج له رأسه

وكسر ذراعه، وتوعده ان يظل يكسرها إذا لم يوقع بها صكاً يعترف فيه بحصة إضافية له عن كل زبون يرسـله إليـه. رفض الشريك ووضعه أمام خيار البيع او الشراء، فاشـترى أبو هاني النزل وتفرغ له، بعد ان اتفق مع الفندق الذي كان يعمل فيه على التعاون والترويج المتبادل.

بعد عامين اشترى فندقاً أكبر فصار لديه حلقتان وشارك في فندق أرقى قبل ان يهجر قريته متعالياً على أهله الـذين أنكروه وشمتوا به. سكن في جبل الجوفة وانضم هاني إلـى ثانويتها، بينما ألحق ابنته وعد بمدرسة خاصة أهلية. وكـان كلاهما متأثراً بأبيه الذي عانى وتعب وشقي إلى ان صارت لديه هذه السلسلة التي حسنت أحوالهم وأرغدت عيشهم ، فلا يملان تكرار حديثه عن ماضـيه وتضـحكهما نكاتـه مـن الأعماق، وعندما يسهر يشاركانه الأكل والشرب والسـمر. فغدا بيته من أكثر بيوت الجوفة صخباً ومرحاً وسـهرات لا يمل أبو هاني الحديث خلالها عن السلسـة ولا يمـل هـاني الغناء.

كانت عذوبة صوته تغنـي عـن الموسـيقى. وتفننـه بالألحان يجدد في قديمها. فشدوه لا يطرب سامعيه فحسـب.

بل يحمسهم للرد معه والانطلاق من بعده، فيشـجيهم حسـن بالترانيم الشيشانية ويحزنهم نجم بالميجنا الفلسطينية. وما أن يرفع يحيى يده حتى تشخص العيون إليه وتتـابع نظـراتهم ارتخاء يده وكأنها تدير آلة التسجيل فيحسون بشريط فريـد الأطرش يدور حولهم دون ان يوقفه التململ أو التثاؤب. وإن حاوص أحدهم يريد المغادرة يشير يحيى برأسه دون ان يهتز صوته فيستجيب هاني على الفور ويوزع السجائر للجميـع، فيلجمهم التدخين بينما يحيى يواصل الغناء وهـو يـراقص رأسه ويفنج منخريه ويدندن بإصبعيه كأنه يعزف على العود. وإن لم يجدوا مفراً يشيرون لحسن، الـذي يجفـل صـوته الجميع: إحضر لنا ماء يا أخي... فيغادر هاني ويلحقه حسن بعد قليل وهو يلعنه على تأخره. ثم يشير نجـم إلـى خلـف الصخرة طالباً الإذن للتبول، فيأذن له يحيـى بهـز رأسـه، ويتسلل نجم من ورائها قرفصة، ثم يطلق لساقيه العنان باتجاه بيت العالي. فيظل يحيى وحده ويخبو صوته بالتـدريج، ثـم يلحق بهم مغتاظاً. يتقدم عبر البستان عابسـاً مكشـراً وهـم يتكركرون بصمت. فيسأل حسـن بجلافـة : أشـربت.؟... ويتحول إلى نجم مباشرة : وأنت. أتبولت.؟... ويهز رأسـه



متوعداً : بسيطة... وإلى هاني بصوت عالٍ : ألا تريد أن تحشش الليلة.؟... فيلتفتون مذعورين إلى باب البيت.

كانوا يتأنقون في أعياد المسيحيين مثلما يتأنقون في أعيادهم الإسلامية، فيذهبون لمعايدة هاني في أعياد الميلاد والفصح متطلعين لنبيذ أمه والحديث مع أخته، فهي وإن كانت تكبرهم عمراً وعزيزة عليهم كشقيقها، إلا أن ذلك لا يحول دون شعورهم الخفي بالميل إليها والتسابق على جلب انتباهها والاستحواذ على اهتمامها. فيحسون بالدفء وهي تسلم عليهم وتسألهم عن دروسهم وأحوال عوائلهم. وإذا جالستهم يثير يحيى نقمتهم باحتكار الحديث معها. تارة عن معبودها كلارك جيبل ، وتارة عن الروايات التي تشتريها من مكتبة موفق.

كانت متوسطة القامة رشيقة القد سمراء البشرة خضراء العينين. تستعد لامتحان المترك في سنتها الدراسية الأخيرة. لم يحل انهماكها بالدراسة دون ترددها على المكتبة خلال رواحها من المدرسة. تتعمد عدم الالتفات لموفق بتصنع الانشغال بتفقد الكتب وتقليب صفحاتها بينما زميلاتها يختلسن النظر إليه بعد ان فتنهن شبهه بكلارك جيبل، وكانت قد

علقت عندما شاهدته للمرة الأولى بأنه لا يشبه كلارك جيبل، بل كلارك جيبل يشبهه...

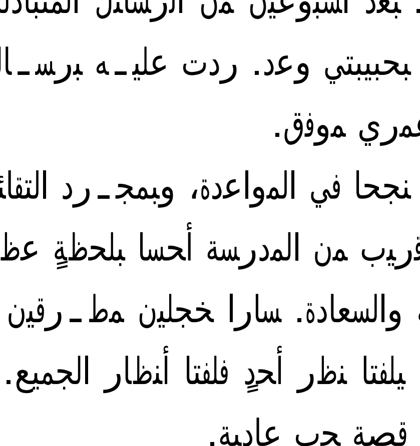
أغبطتها الدهشة عندما عرفت أنه شقيق تغريد التي تزاملها في الشعبة الثانية للمترك وتتفوق على الشعبتين في العلامات. صادقتها، مختصرة الطريق إلى موفق الذي كان صدوده ينفر المعجبات بينما جذب سلوكه وعد فعشقت فيه جديته ورصانته أكثر مما عشقت شكله.

زارت تغريد في بيتها مراراً، لكن تغريد لم ترد الزيارة. كانت الدراسة تستغرق كل وقتها فهي لا تتطلع إلى النجاح فحسب بل الى التفوق في النتيجة والحصول على بعثة جامعية. مع هذا صارت تعرج على المكتبة مع وعد، فأذابت بعضاً من رهبة موفق وقاربت ببراءة بينه وبين وعد.

تحدث معها أحاديث بعيدة عن الكتب والجرائد والمجلات. وصار يستقبلها ببشاشة يشوبها خجل وارتباك ويرفض أن يأخذ منها أجرة الكتب التي تستعيرها. أعادت له يوماً كتاباً فيه وردة فلم يعرها انتباهاً. قاطعته على أثرها وتوقفت عن التردد على المكتبة. استفسر من شقيقته عنها، فزارتاه معاً.

بعد استعارتين متتابعتين في أقل من أسبوع، وضع لهـا في الثالثة رسالة رصينة يخبرها فيها انه يفكر بهـا كثيـراً، فأعادت الكتاب في اليوم الثاني وفيه رسالة كتبت فيها أنهـا تفكر به أيضاً. بعد اسبوعين من الرسائل المتبادلة، كتب لها واحدة، ابتدأها بحبيبتي وعد. ردت عليـه برسـالة ابتـدأتها بحبيبي وكل عمري موفق.

بعد شهر نجحا في المواعدة، وبمجـرد التقائهمـا فـي شارع فرعي قريب من المدرسة أحسا بلحظةٍ عظيمـةٍ مـن الفرح والغبطة والسعادة. سارا خجلين مطـرقين متباعـدين أمتاراً حتى لا يلفتا نظر أحدٍ فلفتا أنظار الجميع. وعاشا إلى أن فرق بينهما قصة حب عادية.



٧

كأن ظلمة الخربوش لم تكن تحتاج إلا للمسة ضوءٍ خفيفةٍ حتى تنكشف دهاليز الحياة بداخلها ومخارجها، وتتضح أشكال بضائعها وكيفية مواضعها، ويزول الخجل من وجوه مشتريها والحذر من وجوه بائعيها.

اكتشف يحيى أن مسرح السينما الذي فتنه أضيق بكثير من مسرح الحياة الذي جذبه. في كل شارع تتمسرح أحداث مدينة، كصالة تتدرج مقاعدها من الدرجة الثانية إلى البلكون. ويتجاور في عتمتها الكبار والصغار. جميعهم يدفعون وجميعهم يقبضون. صبية وصبايا وفتية وفتيان ومسنون. فرادى ومجتمعون. متدينون وكافرون. شباع وجائعون، عزاب ومتزوجون. عائلات وعاهرات. ممنوعات ومسموحات. أصول ونفايات. فجأة يكتشف أن عمان صالة فيها ستارة تحجب الواقع عن الخيال، وأن الجوفة مدينة لها أسطح وقيعان.

رافقه حسن إلى النور مرة ثانية بعد أن رفض هاني ونجم الذهاب. في المرة الثالثة اقترح عليهما السائق أن يأخذهما إلى مومس في بيت قريب بدلاً من الذهاب إلى النور

خارج عمان : خمسين قرشاً عن كل واحد... حاول يحيى ان يكون حصيفاً فسأل السائق عن اسم العاهرة. رد السائق بهدوء وثقة : حسنة الزيات..

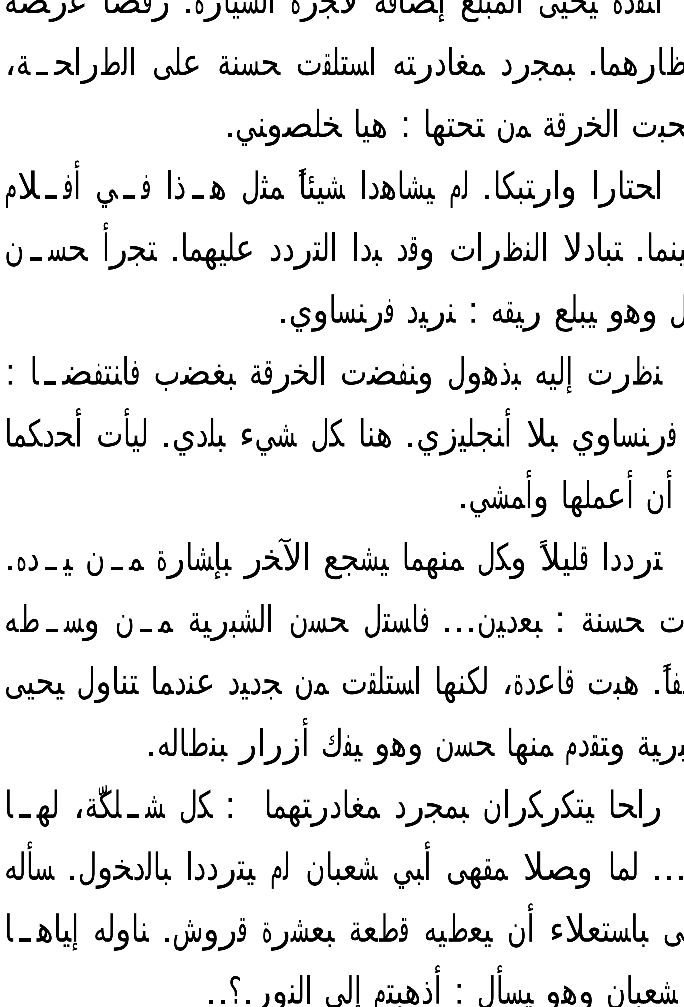
كانت دهشتهما شديدة عندما توقفت السيارة بجانب مقهى أبي شعبان. ولجا مدخلاً ضيقاً فيه عدد من الأبواب قرع السائق على أحدها قائلاً : هيا... وواصل إلى باب آخر ولجه وهما يتبعانه إلى غرفة ضيقة متسخة. أرضيتها ترابية صلدة. شاغرة إلا من طراحة مستطيلة فوق حصيرة مهترئة حشر تحتها خرقة خشنة. جاءت حسنة بعد قليل. لم تكن تختلف كثيراً عن النوريات. سمراء نحيلة قصيرة القامة، شعرها معقود للخلف وفي فمها علكة وأحد أسنانها ذهبي : آ. أعجبتكم.؟...

تبادل حسن ويحيى النظرات، ثم تنهد يحيى وقال : ماشي.

- ستين قرش عن كل واحد... قال السائق.

- قلت خمسين... قال يحيى وهو يبلع ريقه.

- ومحسوبك.؟..أضاف : هيا عمي عشرتي قبل خمسينها.



انقده يحيى المبلغ إضافة لأجرة السيارة. رفضا عرضه بانتظارهما. بمجرد مغادرته استلقت حسنة على الطراحـة، وسحبت الخرقة من تحتها : هيا خلصوني.

احتارا وارتبكا. لم يشاهدا شيئاً مثل هـذا فـي أفـلام السينما. تبادلا النظرات وقد بدا التردد عليهما. تجرأ حسـن وقال وهو يبلع ريقه : نريد فرنساوي.

نظرت إليه بذهول ونفضت الخرقة بغضب فانتفضـا : بلا فرنساوي بلا أنجليزي. هنا كل شيء بلدي. ليأت أحدكما قبل أن أعملها وأمشي.

ترددا قليلاً وكل منهما يشجع الآخر بإشارة مـن يـده. تأففت حسنة : بعدين... فاستل حسن الشبرية مـن وسـطه خطفاً. هبت قاعدة، لكنها استلقت من جديد عندما تناول يحيى الشبرية وتقدم منها حسن وهو يفك أزرار بنطاله.

راحا يتكركران بمجرد مغادرتهما : كل شـلكّة، لهـا ولد... لما وصلا مقهى أبي شعبان لم يترددا بالدخول. سأله يحيى باستعلاء أن يعطيه قطعة بعشرة قروش. ناوله إياهـا أبو شعبان وهو يسأل : أذهبتم إلى النور.؟..

رد يحيى ساخراً : لماذا النـور وحسـنة جارتـك.؟!. وغادر مع حسن وهما يقهقهان تاركين أبا شعبان في غـيظ وحيرة.

كانت النهاية مع مقهى أبي شعبان والبداية مـع دكـان سعود الذي تعرف عليه يحيى عن طريق سائق حمله يومـاً إلى بيت دعارة في المحطة. لما قال للسائق أنه مـن سـكان الجوفة، سأله عن دكان سعود، فقال يحيـى : كـل الجوفـة تعرف دكان سعود..

- إذا احتجتني إذن، اترك لي خبراً عنده.

لم تفاجئه معرفة السائق لسعود، بل فاجأه بيـع سـعود للحشيشة والأفيون. أعد له وللسائق صاروخين دخناها معـاً قبل ان ينطلق السائق بيحيى إلى بيت زاهر في تقاطع الجوفة والإشرفية.

أخبر أصحابه باستعلاء عن مغامرته : فشرت جـوهرة قدام شهيرة...

أثار غيظهم جميعاً بمن فيهم حسن الذي توقفت مغامراته عند حسنة. ظل يعزي نفسه كلما أتى على ذكرها بالقول تارة انه فعل بها قبل يحيى وتارة ان يحيى فعل بها من بعده.

لم يأبه يحيى بمن فعل أولاً طالما أنه مســتمر بالفعــل والباقون مستمرون بالإصغاء رافضاً بإصــرار اصــطحابهم معه. صديقه الذي يأخذه معه إلى الــبلاوي حــريص علــى سمعته ويقوده من ماخورٍ إلى ماخور وهو ملثم بالحطة.كان يتلذذ بإخفائه الأمر على هذا النحو، فيحسون بالقصور أمامه وهو ينفرد عنهم بالواقع الذي يحلمون به، باستثناء خير الذي قربت هذه القصص خياله من دنيا الواقع، فبعد ان كان يحيى يختلق المغامرات من وحي الأفلام التــي يشــاهدها، صــار يروي قصصاً لا يمكن ان تنطبق إلا على عمــان. فالأزقــة التي يرتادها هي أزقة الجوفة بأدراجها المهلكــة وأوســاخها المقرفة. بساطة الأثاث الذي يصفه ليس أثاثاً سينمائياً وانمــا أثاث جوفي من الحصائر المثقوبة والبسط المهترئة وطراريح الشرائط والبطانيات الموصولة التي تســتر النوافــذ. حتــى وصفه للعاهرات يختلف عن وصفه لهن فيما مضى. لم يعدن شبيهات بنجوم السينما، بــل بنســاء عمــان. ســافرات أم متمدلات. شقراوات أم سمراوات. حتى أقوالهن صار ينطقها بلهجات عمانية وليس باللهجة المصــرية. أدرك الجميــع أن

تجاربه حقيقية. لا سيما العموميات منهـا وإن ظـل يكـذب بالتفاصيل.

لم تهدئ الأجواء الجديدة التي اقتحمها من اندفاعـه او تلهيه عن مغامراته السابقة. بل ازداد جرأة وتهوراً، فبعد ان كان يلاحق فتيات المدرسة، صار يعترضهن. وبعد أن كـان يقذف لهن الرسائل عن بعد صار يحادثهن عن قرب ويصر على مواعدتهن، حتى لو تهـربن او هـربن او نفـرن او تضايقن او غضبن. كلما تهددته إحداهن تحول بغير اكتراث لسواها. فتضايق صحبه لكثرة ما صار يحرجهم تماديه. لـم يكن هذا نهجهم بل كان كل واحد منهم على استعداد للملاحقة حتى التخرج مكتفياً بمن يهواها بالنظرات والابتسامات، وان ملّست على شعرها إشارة له يحس بأنه حصل على تأشـيرة للجنة. اما يحيى، فقد اختلف كل شيء فيه مذ صـار يتـردد على المواخير. فطالما انه يبتاع الآن ما يشتهي فلم لا يبيـع من يشتري. تخلى عن الرسائل، تاركاً الكتابة لأمثـال خيـر الذين يهربون من عجزهم ويخفون ضعفهم خلف السـطور. الكتابة للمرضى والخائفين والمنبوذين، كما صار يقول. أمـا

الحياة، فنهر متدفق بالشهوات تمحي مياهه لمسات الأصـابع على الرمال حتى لو كتبت بأعذب الكلمات.

لم يكن يدري ان صيته قد ذاع في مدرسة البنات وهـو لم يتذوق بعد لذة القبلات. كانت ادعاءاتـه الكثيـرة تقابلهـا ادعاءات مثيرة. فتلك واعدها وهو في الواقع لـم يلاحقهـا وأخرى غازلها وهو في الواقع لم يكلمها. وأخـرى راسـلها وهو لم يلحظها. وثالثة ظل يدندن تحت نافذتها لنصف الليـل وهو لا يدندن لفريد الأطرش ربع الليل. كم من واحدة صدته او رفضت منه هدية وهو لم يتعلم في بيته معنـى الهديـة. استحوذ على النجومية في مدرسة البنات، بينما كان ينفق في مدرسته ماله ويبذل جهده لشراء الرفاق والأصـحاب. كـان جل اهتمامه ان يجعل من ابتسـامات البنـات وإشـاراتهن وملاحقتهن مغامرات ينقلها لأصحابه. اما الآن فإنه يريد ان ينتقل منها إليهن. وكانت نجلاء من أكثـر الفتيـات عشـقاً للنجومية.

كانت مثل يحيى تعيش يومها الآني ولا يستثيرها الآتي. لكنها لم تكن مثل الأخريات اللواتي يتراقصن أمام الشـباب ويتدللن بالابتسامات ويتجرأن بالرد على الاشارات. مـع أن

المجموعة التي ترافقها من أكثر المجموعات جرأة بين فتيات المدرسة. تمشي معهن مختالة دون التفـات وهـي تحـس بنظرات الطلاب المرابطين سهاماً تخترقها، وتنساب تعليقاتهم في ثيابها فتعريها، حتى لو كانت تخصها او تخص سـواها. فيتسع صدرها وتثبت نظراتها الى الأمام وكأنها تمشي عارية فوق حبل مربوط بين جبلين والناس مـن تحتهـا كـاتمين أنفاسهم مأخوذة عقولهم بعيونهم انبهاراً بجمالهـا وفتنتهـا، فتتيقظ حواسها، وتتماوج اعضاؤها، وتتأجج الرغبة في كـل منبت شعرة في جسدها. كانت مجنونة بانجذاب الناس إليهـا وهيامهم بجمالها وتهافتهم على رؤيتها وانصعاقهم بمفاتنها.

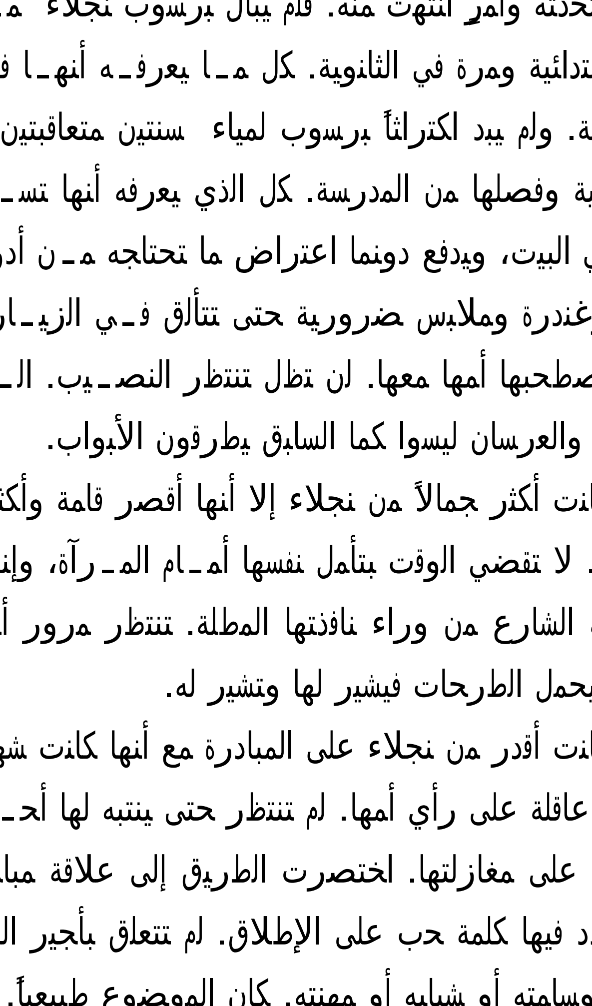
كانت جميلة الشكل ممتلئة طويلة القامة بيضاء البشـرة خرنوبية الشعر عسلية العينـين. لا تعقـد جـدائلها كبـاقي التلميذات، بل تتركه منسدراً مسترسـلاً كـالكبيرات. تملـط جسدها باستمرار وتتفقده أمام المرآة وهي تتحسسه بخشـوع معبود في حركات مثيرة تكشف فيها مفاتنه خطفاً وتغطيهـا دلالاً، وأحياناً تمانع بهز رأسها أن تكشف المزيد. عندما تدق أمها او شقيقتها الباب، تكشف كل شيء وتستدير بسرعة دون ان تدير وجهها عن المرآة وتنفخ بسمة مغناجة قبل ان تبتعد

إلى ملابسها ترتديها وهي تخطف النظرات إلى المرآة وكأنها تثير الأمة بأسرها من خلفها حتى تتقاتل من أجلها.

يمتلك أبوها معملاً للتحميص ويبيع بزوراتـه بالجملـة والمفرق. كان عمله مضنياً وأرباحه قليلـة قياسـاً بأربـاح البقالات التي كان عليه أن يلبي احتياجاتها على الدوام حتـى لا تتحول إلى سواه.

كان يغادر باكراً ويعود متأخراً، تعبـق منـه روائـح التحميص ويتخلل ثيابه وشعره غبار الملح. يغتسـل قبـل تناول العشاء الذي يمضغه بتأن وروية مهمـا كانـت شـدة جوعه. وإذا كان لزوجته حاجة، فإنها تفصح عنهـا بمجـرد وصوله : لماذا تأخرت.؟.القازان كفر فوق البابور. غياراتك سبقتك إلى الحمام... يستحم ويتعشى ويقوم بالواجـب أسـوأ قيام، وينام مهدوداً خائر القوى. لا يعنيه من شؤون السـاعة إلا رنينها الذي ينبهه إلى انتهاء الليل وابتداء مشوار العذاب.

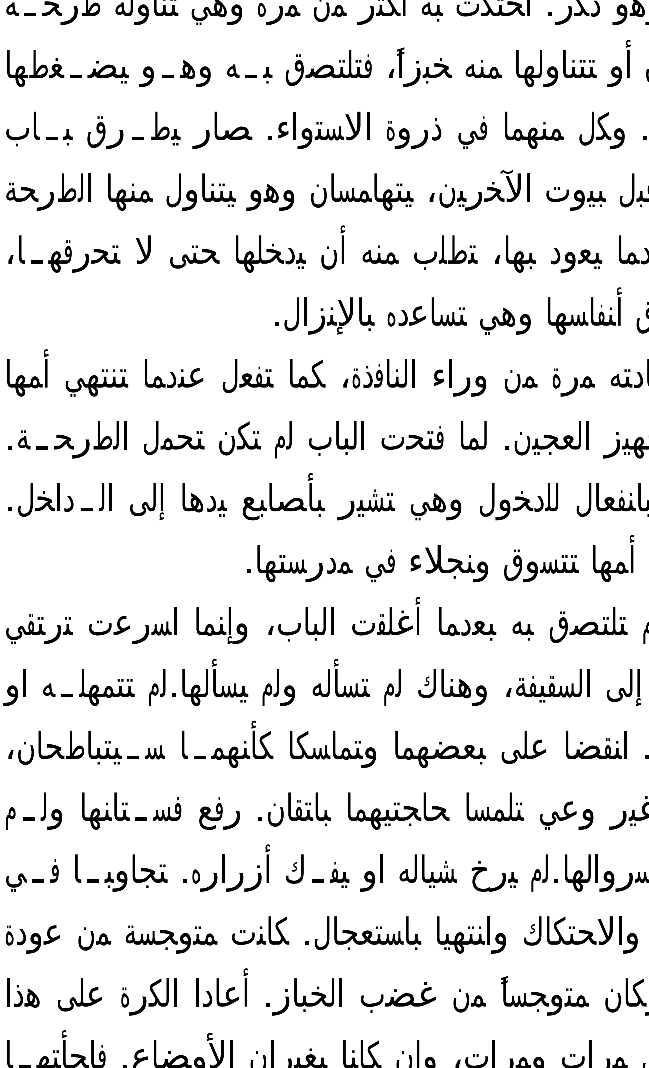
تتولى زوجته شؤون البيت كافة، فليس لديه وقـت ولا معرفة باحتياجات العائلة ولا قدرة على إدارة شؤونها. نشف الملح بشرته وجفف حواسه وصحر مشاعره، فأوكل لزوجته طوعاً التربية والتدبير. لا يتدخل فـي شـؤون البيـت ولا



الابنتين اللتين لا يعرف عنهما إلا ما تخبره به زوجته مـن قرارٍ اتخذته وأمرٍ انتهت منه. فلم يبال برسوب نجلاء مـرة في الابتدائية ومرة في الثانوية. كل مـا يعرفـه أنهـا فـي المدرسة. ولم يبد اكتراثاً برسوب لمياء سنتين متعاقبتين في الإبتدائية وفصلها من المدرسة. كل الذي يعرفه أنها تسـاعد أمها في البيت، ويدفع دونما اعتراض ما تحتاجه مـن أدوات زينة وغندرة وملابس ضرورية حتى تتألق فـي الزيـارات التي تصطحبها أمها معها. لن تظل تنتظر النصـيب. الـدنيا تغيرت والعرسان ليسوا كما السابق يطرقون الأبواب.

كانت أكثر جمالاً من نجلاء إلا أنها أقصر قامة وأكثـر اكتنازاً. لا تقضي الوقت بتأمل نفسها أمـام المـرآة، وإنمـا بمراقبة الشارع من وراء نافذتها المطلة. تنتظر مرور أجير الفرن يحمل الطرحات فيشير لها وتشير له.

كانت أقدر من نجلاء على المبادرة مع أنها كانت شهلاء نصف عاقلة على رأي أمها. لم تنتظر حتى ينتبه لها أحـدهم ويتجرأ على مغازلتها. اختصرت الطريق إلى علاقة مباشرة لم تتردد فيها كلمة حب على الإطلاق. لم تتعلق بأجير الفرن بسبب وسامته أو شبابه أو مهنته. كان الموضوع طبيعياً. هي



أنثى وهو ذكر. احتكت به أكثر من مرة وهي تناوله طرحـة العجين أو تتناولها منه خبزاً، فتلتصق بـه وهـو يضـغطها بجسده. وكل منهما في ذروة الاستواء. صار يطـرق بـاب بيتهم قبل بيوت الآخرين، يتهامسان وهو يتناول منها الطرحة ، وعندما يعود بها، تطلب منه أن يدخلها حتى لا تحرقهـا، فتحترق أنفاسها وهي تساعده بالإنزال.

نادته مرة من وراء النافذة، كما تفعل عندما تنتهي أمها من تجهيز العجين. لما فتحت الباب لم تكن تحمل الطرحـة. دعته بانفعال للدخول وهي تشير بأصابع يدها إلى الـداخل. وكانت أمها تتسوق ونجلاء في مدرستها.

لم تلتصق به بعدما أغلقت الباب، وإنما اسرعت ترتقي الدرج إلى السقيفة، وهناك لم تسأله ولم يسألها.لم تتمهلـه او يمهلها. انقضا على بعضهما وتماسكا كأنهمـا سـيتباطحان، ومن غير وعي تلمسا حاجتيهما باتقان. رفع فسـتانها ولـم ينزل سروالها.لم يرخ شياله او يفـك أزراره. تجاوبـا فـي العناق والاحتكاك وانتهيا باستعجال. كانت متوجسة من عودة أمها وكان متوجساً من غضب الخباز. أعادا الكرة على هذا المنوال مرات ومرات، وإن كانا يغيران الأوضاع. فاجأتهـا

أمها بالدخول والأجير على وشك الخروج. زجرتها وشـدت لها شعرها ومنعتها من مناولة الطرحة وصارت تقفل عليهـا الباب بالمفتاح كلما اضطرت للخروج. إلا إذا كانت نجـلاء في المنزل.

ناسب هذا الوضع لمياء أكثر من السابق، فنجلاء تصل البيت بعد الظهر. يكون عندها الفرن قد انتهـى مـن خبـز الطرحات كافة، وبعد العصر بقليل يغادر الخبـاز ويتفـرغ الأجير للتنظيف وتعزيل الرماد وجاب الحطب والاغتسـال، فيذهب إلى لمياء نظيفاً لامعاً مرتاح البال. الباب مفتوح يغلقه من خلفه كأنه من أصحاب الدار، ولمياء في السقيفة على أتم استعداد، ونجلاء تجلس في النافذة تراقب الطريق. عادت الأم بغتة يوماً فوجدت كل شيء على ما يرام. مـا أن حـذرت نجلاء شقيقتها، حتى هبطت لمياء سريعاً ودخلت المرحاض، فصارت أمها تستعجلها لأنها محشورة. لما خرجت كانت قد أصلحت من هيأتها وهدأت من انفاسها، وظـل أجيرالفـرن كامناً ألى أن تلقى من لمياء إشارة للخروج، فغـادر مثلمـا يغادر البيوت التي يدخلها بطرحات الخبز وصواني الأطعمة والحلويات.

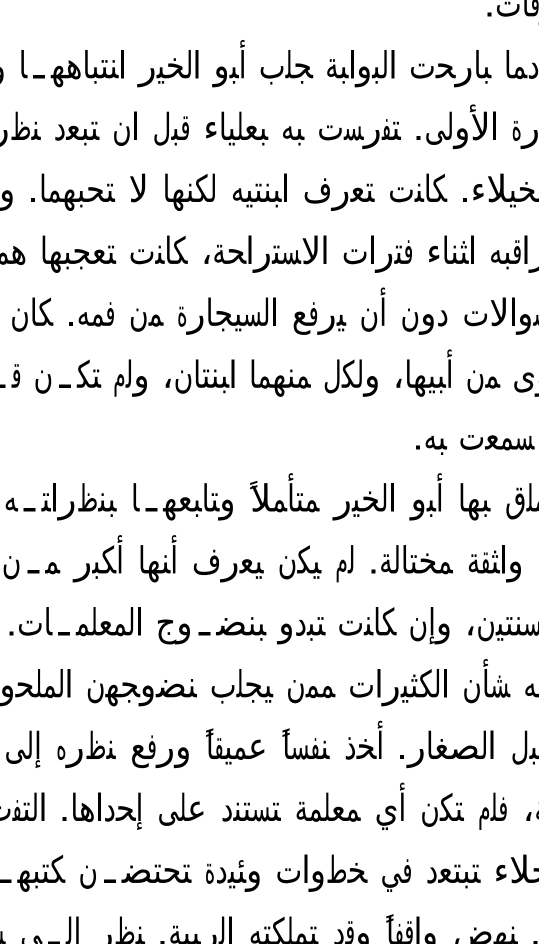
اقترح على لمياء حفظاً للسان نجلاء أن يداعبهما معاً. أقنعتها الفكرة. ستحظى أيضاً شقيقتها باللهو والمتعـة. لكـن نجلاء رفضت وأنبتها : ناقص علي أجير فرن... أضـافت بخيلاء : بنظرة واحدة أستطيع أن أوقـع بالعشـرات. هـل تعلمي بماذا يناديني الطلبة...

سألتها لمياء بلهفة : ماذا.؟.

- قمر. وليس الطلبة فحسـب. انمـا كـل أصـحاب المحلات. يتنادون على مسمعي، وصل القمر. وصل القمر.

كانت في ادعائها لا تتباهى فحسب، وانما تقصد الترفع على شقيقتها التي لم تجد سوى أجير فرن تلهو معه. صدقتها لمياء وابتهجت لها، سألتها : بالتأكيد خرجـت مـع واحـدٍ منهم.؟..كانت تقصد أن تشد على يدها، لكن نجلاء ظنت أنها تستدرجها، فقالت بأنفة : يا سلام. تظنينني مثلك.كلهم عندي أقل من واحد... كان يحيى بنظرها أقربهم إلى الواحد. عائلته معروفة بالثراء، وهو نجم مدرسة البنات.

الصدفة والتحدي طابقتـا بـين نجـلاء أمـام المـرآة وصورتها في داخلها. فعندما أجرت المعلمة امتحاناً لطالبات الصف في الحصة الأخيرة من الدوام، صـرفت الطالبـات



فرادى بمجرد ان تسلم الواحدة ورقتها، وكانت نجلاء أولى المنصرفات.

عندما بارحت البوابة جاب أبو الخير انتباهها وكأنها تراه للمرة الأولى. تفرست به بعلياء قبل ان تبعد نظرها عنه وتتابع بخيلاء. كانت تعرف ابنتيه لكنها لا تحبهما. وعندما كانت تراقبه اثناء فترات الاستراحة، كانت تعجبها همته وهو ينقل الشوالات دون أن يرفع السيجارة من فمه. كان على ما يبدو أقوى من أبيها، ولكل منهما ابنتان، ولم تكن قد رأت خير او سمعت به.

حملق بها أبو الخير متأملاً وتابعها بنظراته وهي تتجاوزه واثقة مختالة. لم يكن يعرف أنها أكبر من بنات صفها بسنتين، وإن كانت تبدو بنضوج المعلمات. كانت مألوفة له شأن الكثيرات ممن يجاب نضوجهن الملحوظ انتباه الكبار قبل الصغار. أخذ نفساً عميقاً ورفع نظره إلى نوافذ المدرسة، فلم تكن أي معلمة تستند على إحداها. التفت إلى حيث نجلاء تبتعد في خطوات وئيدة تحتضن كتبها إلى صدرها. نهض واقفاً وقد تملكته الريبة. نظر إلى ساعته وأسرع إلى المنزل مع تجاوز نجلاء عربة ترمس أوقفها

صاحبها قرب التقاطع. كان هناك صبي يدفع دحريجة أمامه، وآخر يقتعد صفيحة تنك يتزلج بها فوق المنحدر. انقبضـت أعضاؤها بسبب الاحتكاك وتقززت أحاسيسها فشدت علـى أطراف أصابعها وسرعت من خطواتها باتجاه الكوربة التـي ينحدر منها الشارع المؤدي إلى المدينة ويرتبط بهـا شـارع منبسط تسلكه في الطريق إلى بيتها.

لمحت عن بعد يحيى وأصحابه يقفون في أوضاع شتى أمام باب سحاب منغلق لأحد المخـازن. أربكتهـا المفاجـأة فتحول انقباضها إلى حنق وتقززها إلـى تـوتر. سـرعت خطواتها أكثر في الاتجاه نفسه الذي يقفون فيه وهي تهيـئ نفسها أن تكيل لهم الشتائم بالقنطار إن أسمعوها وقية كلام.

تساءل نجم وهو يلكز ذراع يحيى : أين شلّتها.؟.

- ا أعلم.!.. قال يحيى بهدوء وهو يتمعن بها مرخياً أجفانه.

تعلقت أنظارهم بها للحظة ثـم تبـادل حسـن وهـاني مواقعهما واستند يحيى براحته على جـدار البـاب. كـأنهم ينظمون أوضاعهم قبل وصولها فباغتتها الرهبة، وتحولـت سريعاً إلى الجانب الآخر.

علّق نجم وهي تتجاوزهم : خير يا طير.؟.

سرعت خطواتها ولم تلتفت.

قال هاني بصوت خفيض وقد ابتعدت بضعة أمتـار : دعونا نلحقها...

- نلحقها.؟!..تساءل يحيى باستغراب وأشـار دائريـاً بإصبعه: كلنا.؟... أضاف بسرعة ونبرة حازمة : كثير عليها واحد... وكانت قد ابتعدت نحو عشرين متراً فباطـأت فـي خطواتها.

قال هاني كأنه يعتذر : قصدي لأنها وحدها.

لمعت كلماته في رأس يحيى ومع هذا أبدى اسـتخفافاً : وماذا يعني.؟..أضاف متحدياً : هيا. الحقها.

- لا يا عمي. لا ألحق أحداً وحدي.

- جبان... قال حسن

- اتركوها علي... قال يحيى، وكانـت قـد اسـتقرت خطواتها كالمعتاد.

تبعها بخطوات سريعة أقرب إلى الهرولة. لما أصبحت المسافة بينهما نحو المترين واكبها في سرعتها. أدركت أنـه

أحدهم فابتهجت وإن كانت تتمنى لو لحقوهـا بـأجمعهم وأن تشاهدهم لمياء.

انحرفت لقطع الشارع في نصف التفاتة إلـى الـوراء، كأنها تتبين الطريق فتبينت يحيى الذي سرع مـن خطواتـه ووصل معها محاذياً إلى الجانب الآخر : إلى متى سـتظلين متثاقلة علي.؟

التفتت للخاف خطفاً وانحرفت مبتعدة فانحرف معها.

-ألم يقل لك أحد أنك قمر الجوفة...

اختطفت من أنفها نفساً قصيراً أحست بـه يمـلأ كـل شرايينها ويفيض من كل معابرها. لو تسمع لمياء. اكتسـحها الرضى وقالت في قرارة نفسها، وأنت قمر أيضاً. مع هذا لم يكن في نيتها التجاوب ولا لديها القدرة لتسـتجيب : قـولي أيضاً أنك لا تعرفينني.!.

- طبعاً لا أعرفك... قالت ذلك عفوياً ولا إرادياً ودون تفكير على الإطلاق. كمن يوازن نفسه بالتلوح بالهواء.

- يا ستي. ليس عيباً ان تتعرفي علي.

توقفت ونظرت بثبات في عينيه : ماذا تريد مني.؟.

- أنت ماذا تريدين مني.؟.

- ياسلام. تلحقني وتسألني ماذا أريد منـك... ومشـت بخطوات سريعة فأسرع معها.

- لماذا غضبت.؟.

توقفت ورفعت إصبعها محذرة : إياك أن تظن أني مثل بقية الفتيات.

بسط راحتيه وقال بنعومة : لو كنـت أظنـك كـذاك، لتعاملت معك مثلهن.

- ماذا تقصد.؟... سألت بغضب.

- أقصد، كنت سألحقك مع أصحابي.

عاودت السير وهو يقول : لكني انتظرت اليـوم الـذي تكونين فيه وحدك حتى ألحقك وحدي.

- لماذا.؟. سألت ببعض الليونة.

تلعثم وهو يقول : لأنك مختلفة.

- مختلفة بماذا.؟.

-بكل شيء.

- اذكر لي شيئاً واحداً...

ظل طيلة الطريق يعدد لها من الصـفات مـا حيرتـه وحيرتها. لو أجريت مسابقة لاختيار ملكة جمـال لاختارهـا الناس بالإجماع. ولو ظهرت على الشاشة لطغى بهاؤها على أبهى الممثلات. ليس في يده إذا كان ينتابه خشوع أقرب إلى الإيمان عندما يلمحها. خلقها ا كاملة لا ينقصـها إلا يحـي العفيف.

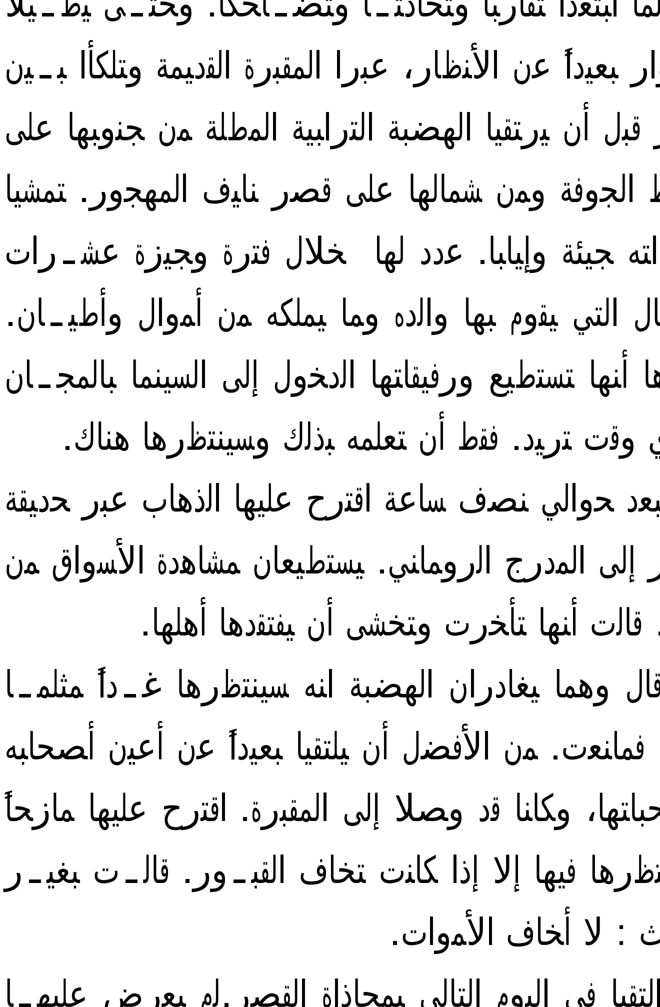
لما عاد أدراجه، قال بمجـرد انضـمامه لأصـحابه : أسبوع بالكثير، وتستوي الطبخة.

قال حسن : لم أسمع بطبخة تستوي في أسبوع.

رد عليه مؤنباً : يا أخي، العرب ليسوا كالشيشان. أنـتم بصلتكم محروقة. نحن نحب أن نطبخ على نارٍ هادئة.

-الآن اقتنعت... وضجوا ضاحكين.

في اليوم التالي لم تنتظر نجلاء مجموعتها. بل زاحمت الطالبات في الإنصراف لتسبقهن في الخروج وحـدها. لمـا لمحت يحيى وأصحابه عند التقاطع لم تواصل فـي طريـق بيتها، بل اتخذت طريقها في الشارع المنحدر إلى المدينـة. يتبعها يحيى.



لما ابتعدا تقاربا وتحادثـا وتضـاحكا. وحتـى يطـيلا المشوار بعيداً عن الأنظار، عبرا المقبرة القديمة وتلكأا بـين القبور قبل أن يرتقيا الهضبة الترابية المطلة من جنوبها على منبسط الجوفة ومن شمالها على قصر نايف المهجور. تمشيا بمحاذاته جيئة وإيابا. عدد لها خلال فترة وجيزة عشـرات الأعمال التي يقوم بها والده وما يملكه من أموال وأطيـان. أخبرها أنها تستطيع ورفيقاتها الدخول إلى السينما بالمجـان في أي وقت تريد. فقط أن تعلمه بذلك وسينتظرها هناك.

بعد حوالي نصف ساعة اقترح عليها الذهاب عبر حديقة القصر إلى المدرج الروماني. يستطيعان مشاهدة الأسواق من هناك. قالت أنها تأخرت وتخشى أن يفتقدها أهلها.

قال وهما يغادران الهضبة انه سينتظرها غـداً مثلمـا اليوم، فمانعت. من الأفضل أن يلتقيا بعيداً عن أعين أصحابه وصاحباتها، وكانا قد وصلا إلى المقبرة. اقترح عليها مازحاً أن ينتظرها فيها إلا إذا كانت تخاف القبـور. قالـت بغيـر اكتراث : لا أخاف الأموات.

التقيا في اليوم التالي بمحاذاة القصر.لم يعرض عليهـا الدخول إلى حديقته، ولم يسألها عندما طلبت منه الذهاب إلى

مكان آخر. تجاوزا الهضبة إلى حارة الخلايلة. من هنـاك ارتقيا الدرج المؤدي إلى الشارع الأعلى فتماست يداهما أكثر من مرة وتماسك خنصريهما بمحاذاة شجرية البشارات.

قال : ما رأيك أن نجلس فيها. لـيس هنـاك أحـد... عارضت بهمهمة. واستدارت : لازم أرجع.

في اليوم التالي واصلا دون توقف فـي الهضـبة او التمشي بجانب أكمة البشارت. وصلا إلى شـارع الجيلانـي المطل على أسواق المدينة. غلبهما الصمت معظم الطريـق. ارتقيا سفحاً صخرياً قليل الانحدار واقتعدا الأرض. قالـت : نستطيع مشاهدة الأسواق من هنا...

لاذ بالصمت وراح يحملق بالمدينة في القاع وهو مرتبك عاجز عن الحديث متردد في إمساك يدها. الكلمات تترنح في فمه وتركيزه مختل. كأنه مخمور.

أخذت تدندن وهي تحس بتوتره. سألها بغتة كأنه فطـن أمراً : ما رأيك أن نذهب إلى السينما.؟.. وأشار بيـده إلـى الأمام.

هزت رأسها سلباً ولم تتوقف عن الدندنة. أشار بإصبعه للأسفل : تعرفين سوق الخضار.؟.. هزت رأسها بالإيجاب.

مال بجذعه نحوها وهو يمد ذراعه مشيراً بسبابته إلـى مبنى مستطيل في القاع : سينما البتـراء بجانبـه هنـاك... وألصق كتفه بكتفها. هزت رأسها بالإيجاب : يسمون الشارع سوق السكر... أبعد كتفه عنها ونظر إليهـا وهـو يضـيف بفخامة : وكل سكر البلد إلى جانبي... انفجـرت ضـاحكة فضحك بسرور. لم يكن ينقصه حتى ينطلق سوى المـزاج. التصق بها واضعاً ذراعه على الكتف الآخر. راحت تميـل ذات اليمين وذات اليسار وهو يميل معها ويدنـدن بأحسـن مزاج. أرخى يده من فوق كتفها متحسساً رقبتها. رفعها إلى وجهها فرفعت رأسها ممانعة وتوقفت عن الدندنة. أبعد يـده قائلاً : مثلما تريدين... قالها بامتعـاض وغلبهمـا الصـمت للحظات. ثم وضع يده فوق يدها وقال برخاوة :لم لا نلتقـي في مكان آمن مريح.؟.

سألت بسرعة : أين.؟.

٨

ابتنى أبو موفق بيته في منبسط الجوفـة مـن طبقتـين وأحاطه بسورٍ عالٍ لم يحل دون انكشافه للبيوت القائمة فوق الجرف. وأكثر ما كان يغيظ سكان المنبسط تـربص الأولاد على حافة الجرف وتأشيرهم لبناتهم والتصفير لهم في وضح النهار. في الليل يكشف توهج سجائرهم عن المواقـع التـي يستحكمون فيها متلصصين. إلا أن ذلك لم يكن يزعج عائلة موفق بعد أن كبرت تغريد على الصغار ولم يعد يلهيها شيء عن دروسها ودراستها. حتى أنها لم تكن ترافق أمها وشقيقها في زياراتهما للأقارب او الجيران بمن فيهم آل العفيف.

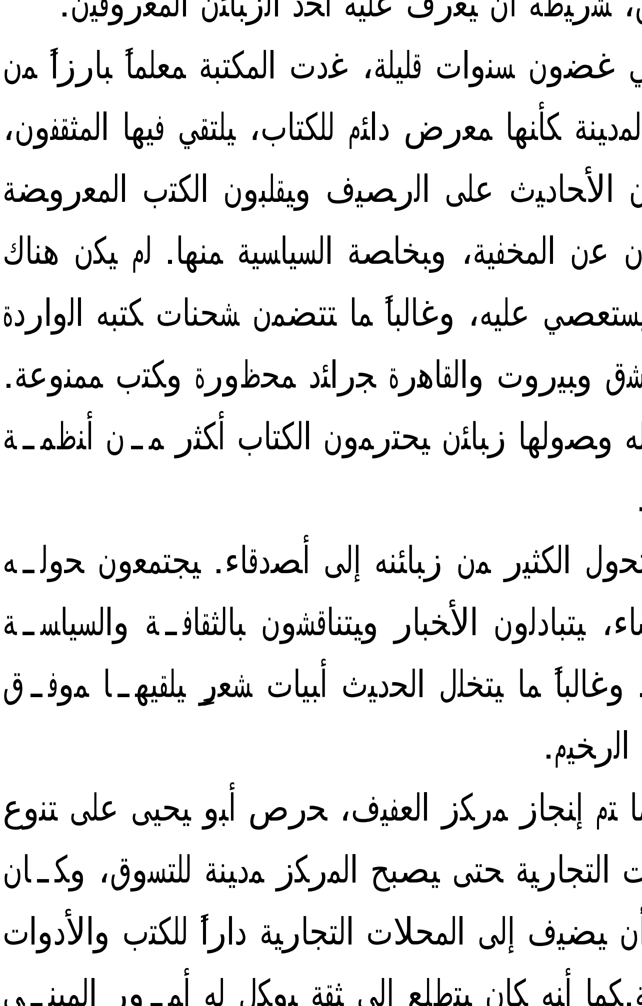
كانت جذور العائلتين واحدة دونما رابطة دم أو قرابـة. توطدت العلاقة بينهم منذ أيام الأب الذي ابتدأ العمل معهـم سائق شاحنة ثم مراقب تزويد قبل أن ينتهي سـائقاً خاصـاً للعائلة.

تمكن عندما كان مراقباً من إمساك مفاتيح التعامل مـع الضباط الإنجليز. لم ترد في عهده طلبية واحدة من تموين اتهم للجيش الإنجليزي. فقد كان يستطيع الحصول على المسـتند المطلوب موقعاً حسب الأصول دونما سؤالٍ أو تمحيص. كما

كان العفيف المؤسس يطريه بعدما تقدم به العمـر وصـار يتبجح في مسامراته عن مغامراته مع الأنجليـز وكيـف أن شاحناته وصهاريجه لم تكن تفك روابط شـوادرها او تفـتح صنابيرها بل تخرج بحمولتها التي دخلت فيها ومعها وصـل تسليم أصولي.

حفظ العفيف المؤسس لأبي موفق فضله، فمكنـه مـن بناء بيته في المنبسط، وتعهد بدفع رسوم المدرسة الخاصـة التي التحقت بها تغريد بعدما أبدت ذكاء وتفوقاً. وبعد وفاتـه ضمن أبو يحيى لعائلة موفق كل الامتيازات التي حظيوا بها من أبيه، إضافة إلى مبلغ ألف دينار تعويضـاً إثـر حـادث الوفاة. أنقذ المبلغ موفق من المدرسة التي يكرهها وحقق لـه حلمه في التفرغ للقراءة التي يحبها. فافتتح مكتبة صـغيرة، صارت مع الوقت أهم مكتبة شعبية في المدينة، يجـد فيهـا المثقفون ضالتهم من قديم الكتب وحديثها.

كان شغوفاً باقتناء الكتب النادرة والممنوعة، التي كانت تأتيه غالباً عن طريق الصبية والمحتاجين، فيجلّدها ويحـتفظ بها ويؤجرها لزبائنه الموثوقين الذين يزدادون يوماً بعد يوم.

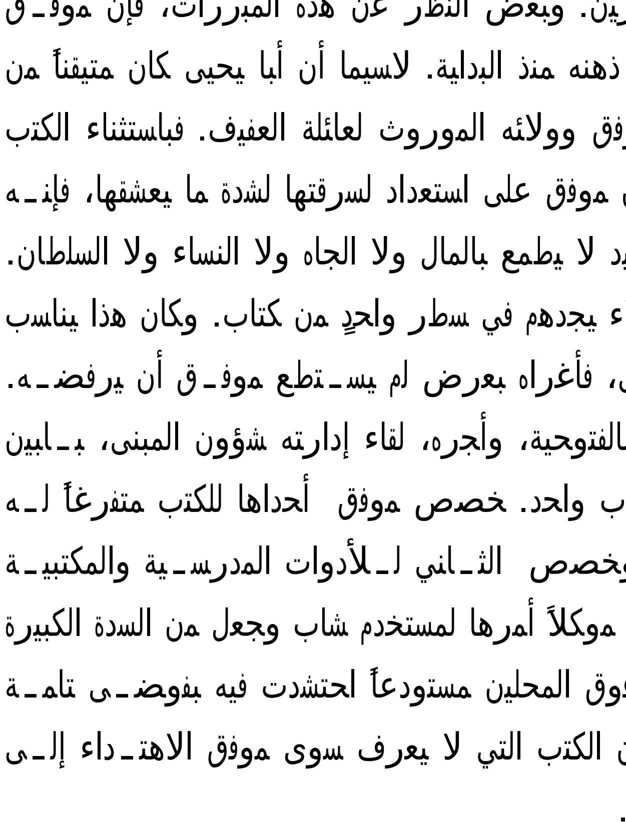


أما الكتب العادية فلم يكن يتوانى عن تأجيرها لمراق الطريق، شريطة أن يعرف عليه أحد الزبائن المعروفين.

في غضون سنوات قليلة، غدت المكتبة معلماً بارزاً من معالم المدينة كأنها معرض دائم للكتاب، يلتقي فيها المثقفون، يتبادلون الأحاديث على الرصيف ويقلبون الكتب المعروضة ويسألون عن المخفية، وبخاصة السياسية منها. لم يكن هناك كتاب يستعصي عليه، وغالباً ما تتضمن شحنات كتبه الواردة من دمشق وبيروت والقاهرة جرائد محظورة وكتب ممنوعة. يسهل له وصولها زبائن يحترمون الكتاب أكثر من أنظمة العبور.

تحول الكثير من زبائنه إلى أصدقاء. يجتمعون حوله كل مساء، يتبادلون الأخبار ويتناقشون بالثقافة والسياسة والدين. وغالباً ما يتخلل الحديث أبيات شعرٍ يلقيها موفق بصوته الرخيم.

لما تم إنجاز مركز العفيف، حرص أبو يحيى على تنوع المحلات التجارية حتى يصبح المركز مدينة للتسوق، وكان بذهنه أن يضيف إلى المحلات التجارية داراً للكتب والأدوات المكتبية.كما أنه كان يتطلع إلى ثقة يوكل له أمور المبنى



فيتولى عنه شؤونه ويتابع نيابة عنه خدماته ولم يكن مستعداً للمغامرة بتفريغ شخص خشية أن يتفق من ورائه مع المستأجرين. وبغض النظر عن هذه المبررات، فإن موفق كان في ذهنه منذ البداية. لاسيما أن أبا يحيى كان متيقناً من أمانة موفق وولائه الموروث لعائلة العفيف. فباستثناء الكتب التي كان موفق على استعداد لسرقتها لشدة ما يعشقها، فإنه قانع سعيد لا يطمع بالمال ولا الجاه ولا النساء ولا السلطان. كل هؤلاء يجدهم في سطر واحدٍ من كتاب. وكان هذا يناسب أبو يحيى، فأغراه بعرض لم يستطع موفق أن يرفضه. سامحه بالفتوحية، وأجره، لقاء إدارته شؤون المبنى، بابين بأجرة باب واحد. خصص موفق أحداها للكتب متفرغاً له بنفسه، وخصص الثاني للأدوات المدرسية والمكتبية والكتابية موكلاً أمرها لمستخدم شاب وجعل من السدة الكبيرة الممتدة فوق المحلين مستودعاً احتشدت فيه بفوضى تامة أكوام من الكتب التي لا يعرف سوى موفق الاهتداء إلى عناوينها.

تكليفه بشؤون المبنى لم يحوله إلى مستخدمٍ عند أبي يحيى، كما لم يؤثر على ودية العلاقة بين العائلتين، فظل

موفق يزور عائلة العفيف كصديق وابن بلد، ولما رحل شقيقا أبي يحيى عن الجوفة اقتصرت زيارات موفق على بيت أبي يحيى الذي كان يأنس لموفق ويرتاح لمجلسه وتعجبه ثقافته وسعة اطلاعه ووفرة معلوماته. وهو إضافة لذلك، كان مؤدباً دمثاً يتحدث باتزان ويأكل بتروٍ ويستمع بتواضع وإصغاء. أحياناً يثير هدوؤه وبرودة أعصابه نقمة أبي يحيى فيؤنبه على ليونته مع المستأجرين، ويحثه عندما يتباطأ في الأكل، ويستثيره كلما أتى الحديث على الزواج : الرجل يجب أن يكون أكولاً نكوحاً يا موفق.

كان على ابواب الثلاثين. طويل القامة وسيم الوجه ضاحك العينين يوحي وجهه بالثقة والبراءة والرجولة. شغفت به البنات بسبب شبهه الكبير بكلارك جيبل. كانت معجباته على الغالب من طالبات المدارس اللاواتي يتوقفن خلال رواحهن من المدرسة أمام واجهة المكتبة لمشاهدته فحسب، وأخريات كن يتجرأن على دخول المكتبة ويستفسرن منه حول الكتب التي يحفظ معظم عناوينها وأسماء مؤلفيها. فيجيبهن بجدية واختصار. غاضاً طرفه حيناً ومتصنعاً

القراءة حيناً آخر، وفي بعض الأحيان يتحول عـنهن إلـى معاونه او زبائنه.

كان يخجل لدرجة لا يستطيع معها أن يواصل الحديث مع الفتيات، ولا يجرؤ على تأملهن او الرد على ابتساماتهن. اعتبرت بعضهن سلوكه إهمالاً متعمداً فنفرن منه، وبعضهن ابتعدن ساخرات، وأخريات أطلقن الإشاعات. لكن وسـامته ظلت تجذب المعجبات. وظلت شقيقته تغريـد توصـل لـه السلامات من زميلاتها فيرد بهدوء واقتضاب : ا يسلّمها... لا يضيف سؤالاً او استفسـاراً ولا يبـدي اهتمامـاً علـى الإطلاق.

كان بروده يثير حنق شقيقته وتساؤلات أمه التي كانـت تتفقد ملابسه الداخلية باستمرار بحثاً عن آثـار النطـف أو بقاياها، وعندما لا تكتشف شيئاً تهز رأسها حسـرة وتتنهـد بأنين وهي تكاد تتيقن أنه عنين... مع هذا لا تتوقـف عـن الإلحاح : يا إبني، مناي أشوفك عريس... فيقول ببرود يفاقم من ظنونها : يا أمي أنا راضٍ عن وضعي هكذا...

كان حقاً راضياً. فتأخر زواجه لم يكن يربكه او يحرجه بعد أن أسرته الكتب فعشقها واستحوذته عناوينها ومواضيعها

التي غدت ماضـيه وحاضـره ومسـتقبله وأسـاس بقائـه ومسؤولية حياته. كان الكثيرون يحسدونه على الكتب التـي يمتلكها ولم يدركوا أنه مملوك لها.

تعتمد إيراداته في الدرجة الأولى على تـأجير الكتـب، الدارجة منها والنادرة . والأجرة يحددها موضـوع الكتـاب وندرته. في كل الأحوال لا يقل عن تعريفة ولا يزيـد عـن قرشٍ لليوم الواحد. غالباً ما تتنقل الكتب من شخصٍ لآخـر قبل أن تعود إليه عجوزاً متغضنةً فيعمل جهده في هنـدمتها وأن أعياه ذلك يستنسخها لدى ناسخين بالأجرة. كذلك يفعـل عندما يحصل على الممنوعات الإباحية والسياسية. وتكـون أجرة هذه في العادة أكثر من المعتاد.

لم يكن زبائنه يساومونه او يحتالون عليـه، فقـد كـان لطيبته وحسن أخلاقه ونظافة تعامله أثر كبير في العديد مـن زبائنه الذين تحولوا إلى محبـين وأصـدقاء يخلصـون لـه ويتابعون معاملاته ويؤازرونه ويذودون عنه. يجتمعون حوله في الأمسيات الشتائية الدافئة بعواطف الحب النبيلة والمشاعر الوطنية والانتماء للفضيلة، بينما الريح تصرصـر والبـرد يقرقر. يقرأ لهم بصوته العذب ونبرته الفياضـة بالمعـاني

والعواطف والأفكار أشعار الأقدمين والمعاصـرين، فيبكـي شدوه بعضهم ويثير حماسه آخرين. لما ينتهي يصغي بانتباه لأحاديثهم ويشارك بتعابير وجهه فـي آلامهـم وأحـزانهم وأفراحهم. وإذا أحرجوه بالحديث عن المرأة يقول : في قلب كل رجل تسكن امرأة...ويسكت. فإن ألحوا، يقول : هي من دين وأنا من دين.وكلانا دينه هو... ويغير الموضوع سريعاً بإلقاء أبياتٍ من الشعر :

بـاح مـجـنون عـامر بهـــــــــــــــــواه
وكـتمت الهوى ففـزت بـــــــــــــــوجدي
فإذا كان في القيامة نودي
أين أهل الهوى" تقـدمت وحـــــــــــــــدي

كانت وعد ترتاد المكتبة كالأخريـات. تعبـث بالكتـب وتقلب الصفحات وتستأجر كتاباً بعد كتاب. تتناقـل طياتـه رسائل غرامهما. دون أن تلفت انتباهاً او تثيـر تسـاؤلاً او شكوكاً. تلتقي مع موفق في الشـوارع البعيـدة، يتحاذيـان متباعدين ويتحدثان عن كل شيء باستثناء عواطفهمـا التـي تفيض بها تعابيرهما وتطفح بها رسـائل عشـقهما. أحيانـاً

يتناقشان في العبارات التي كتباها وأحياناً في التـي قرآهـا. عندما وصلت إلى موفق قصيدة الملّوحي الممنوعة، قرأهـا لوعد قبل أن يقوم باستنساخها. كان ذلك أول لقاء جمعهمـا بعيداً عن الشوارع والطرقات وفي مكان آمن هادئ مريح. إذ عاتبت وعد تغريد لأنها لا تزورها وردت تغريد العتـاب عليها، فلم تفشلّها وعد وجاءت لزيارتها وكان موفـق فـي المنزل، فقرأ المرثية لهما معاً. وكان في انسجامه وتغييـره للكلمات كأنما يرثي حبهما المحظور، فجاشت عواطف وعد ولم تقو على كبح دموعها، فأدركت تغريد أنهما عاشقان.

ومضتْ تريـد الحـب أسـرار العـذارى
والبـغايـــــــــــــــــــــا
ويـقلن لي: ما زال في الدنـيا فلا تـجـزع
صـــــــــــــــــــــباي
ما زالتِ الشـقراء يـخـجلُ جـيدها زهـر
الأقـــــــــــــــــــاحي
وتَـود تسـرقُ شـعـرها لشـعاعِها
شمـــــــــس الصـــــــباحِ
ما زالـت السـمراء تـنِـض شـهوةً
وتـــــــبض فتـــــــــنه
مـا بـين نـهديها تـثـور وتـنـطـفي
نـــــــار وجـَـنـــــه

ويريـنـَني أذوي أسـى فـيـقلن:

ويــــحك يــــا غبــــي

النـاس كـل النـاس فـي فــرحٍ

وأنــــتَ بنــــا الشــــقي

٩

أنجز خير اللافتة الأخيرة قبل موعد الاستعراض بأيامٍ قليلة. فأضافها المدير إلى الرسمة واللافتات الأخـرى فـي خزانته المقفلة انتظاراً لليوم الموعود الـذي سـيفاجىء بـه المعارضين ويحظى برضى المؤيدين لكلوب وأتباعه.

غيبت فرحة الإنجاز قلق خير من ذيوع سره وخشـيته من اكتشاف أمره. فالتقى بالشلة خلف المـراحيض. أفـاض بالأسئلة حول مشاركة هاني ونجم بالاستعراض. استرسـل كلاهما بالحديث مغتبطاً بعدما أضجر يحيى الجميع بقصص مغامراته. كما ان الحديث في الرياضة، يذكرهما بالبطولـة وينسيهما هزيمة الخرابيش المرة التي لا يمل يحيى ذكرهـا وتذكيرهم بها.

لم يكن الحديث بالرياضة يستأهل كل هـذا الإسـهاب بنظر يحيى، وإن كان سيشارك فـي المسـيرة ويحضـر العروض، فيقاطعهم بين الفينة والفينة، ويعرج بالحديث دون مقدمات عن مغامراته، مما أثار خير الذي لم يكن أحد مـنهم يعرف سبب اهتمامه باستعراض لن يحضره ولـن يشـارك فيه.

صرخ بوجه يحيى محتداً : من يسمعك يظن بأن بنـات الجوفة في جيبك.

- إنهن كذلك... طبطب على الجيب الصغير في بنطاله وهو يضيف بنزق : هنا.

- خلصني... عقّب خير بمال، وأضاف : مستعد أحلف على رقبتي أنك لم تحكي قصة واحدة صحيحة.

- حتى قصة نجلاء.؟.

- حتى قصة نجلاء... وإلى الآخرين : من شاهده يوماً معها.؟.

تنوعت إشاراتهم المتسائلة، فسأله يحيى بتحدٍ : وقصـة النور.؟. أليست صحيحة.؟.

لمعت أعين الأخرين، فقال نجم مهـدئاً : خلـص يـا جماعة. دعونا نتحدث بالرياضة... وإلـى هـاني : يعنـي، حضرتك شايف أن رفع الأثقال أهم من الجري.

- كلها رياضة...علّق هاني بفخامة... لكن أحـداً لـم يسمعه مع تقاطع تعقيبه وتعليق خير : حتـى قصـة النـور نصفها كذب.

استثار يحيى حسن : وقصة حسنة، كذب يا أبا علي.؟.

زاغت عينا خير، فتدخل نجم مهدئاً : يا أخي كـذب او صح. خلصونا من هذه السيرة.

بسرعة اختطف خير نظره نحو يدي حسن المتشابكتين حول ركبته :لم أقصد الشلكات. بعدين يـا أخـي، زهقّنـا قصص البنات، ولم نشاهدك يوماً مع بنت.

- حسناً. تعال غداً إلى شجرية البشارات وسوف تراني مع نجلاء المكنوز.

-نجلاء المكنوز... ردد خير باستخفاف.

-نعم نجلاء. أنا أتحداك.

- تتحداني.!.. ردد باستخفاف أيضاً.

- وماذا أفعل حتى تصدق يا محترم.؟.هل أتمشى معها أمام دكان أبيك أم آتيك بها إلى تسوية بيتكم...

كلمة ضالة قصد يحيى فيها الاستخفاف، جعلـت خيـر يقرن الواقع بالخيال. كلمة يتيمة سحرية بعثت الميت حياً : التسوية. مستوطنة العناكب والعقارب والحشـرات. مقبـرة المسامير والعدة القديمة وخشب الطوبار. إنها النعش الـذي دفن فيه أبوه ماضيه فنسيه ونسيها منذ انتقل من العمارة إلى البقالة، فكيف تذكرها يحيى.؟. ماذا يعرف عنها غيـر لـوح

الزينكو المتمسمر في فتحة الباب.؟. كيف يمكن أن تبعـث أحلامه ظلمة هذا المكان.؟.وكيف تخطر على بـال أثـرى الأثرياء.

انقضت الجلسة وهو ينقل نظره في وجوه أصحابه بينما مخيلته تتفقد التسوية المهجورة فتبعث فيها الحياة. تارة مـع الشلّة يدخنون السجائر والحشيشـة ويشـربون المرطبـات والكحول وتارة مع يحيى يعانقان الفتيات. مرة واحدة أصبح للتسوية صدى في عالمه السحري وصار لها صوت وصورة وتحركت فيها الحياة. لم يكن في عالمه تسويات ولا حفريات ولا تشييد ولا إعمار ولا خشب طوبار، بل أبـراج جـاهزة ومحافل قائمة ونوادي عاملة ودواوين حاضرة ومن حولهـا حدائق وبساتين وغـدران وشـطآن. جنـات مـن الفـرح يستحضرها في فراشه ويخفيها في ليله. أما الآن فإن التسوية تستحضره في وضح النهار. كيف تكون ملكاً لأبيه وممنوعة عليه، متاحة ليحيى عصية عليه. كم مرة ذهبت هنـاك يـا يحيى.؟. كم غانية ضاجعت فيها وكم صبية.؟.

قال له وهما ينضبطان في الطابور : هل كنـت تـتكلم جاداً.؟.

- عن أي شيء.؟. سأل يحيى باستغراب.

- نجلاء.

تمعن به يحيى للحظة كأنه يستذكر ثم فغر فاه وهو يرفع رأسه مصدراً صوتاً كالتنهيدة : آ.

- هل تستطيع جلبها إلى التسوية.؟... قالهـا بسـرعة وتوتر وصوت خفيض. وقبل ان يرد يحيى أضاف ساخراً : شاطر تتباهى فحسب.؟... جاء صوت الأستاذ في الأمـام : هيا أنت وأياه. صف واحد.

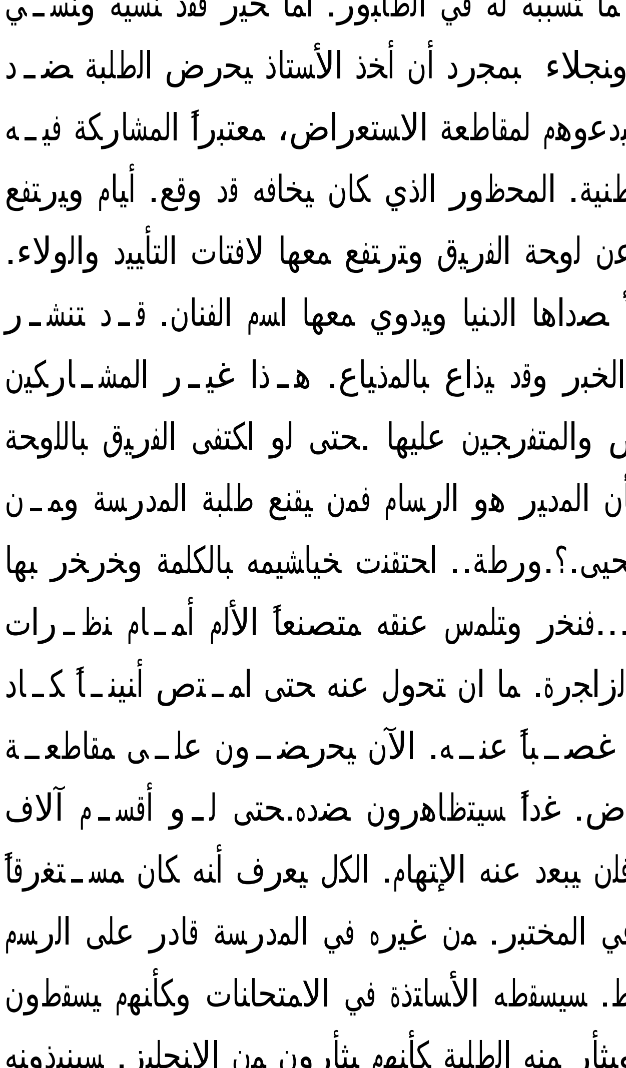
- أجلبها إلى التسوية حتى أشوف.

جاء صوت الأستاذ : تهيأ.

- لا. تعال إلى الشجرية وشوف...

جاء صوت الأستاذ المناوب : يحيى العفيف. إطلع مـن الطابور... ونودي على أسماء أخرى معه.

لم يكن الأستاذ قد ابتدأ الحصة عندما دخل يحيى غرفة الصف، فجلس مغتاظاً في الرحلاية وراء خير وفي وجهـه علامات استياءٍ بسبب توبخه على عدم الانضـباط. قـرص خير في ظهره فمرر له خير قصاصة كتب فيها " اما زالـت تريدني أن أرسم صورة أبيك.؟.".لم ينسـه هـذا العـرض



المفاجئ ما تسببه له في الطابور. أما خير فقد نسيه ونسي التسوية ونجلاء بمجرد أن أخذ الأستاذ يحرض الطلبة ضد كلوب ويدعوهم لمقاطعة الاستعراض، معتبراً المشاركة فيه خيانة وطنية. المحظور الذي كان يخافه قد وقع. أيام ويرتفع الغطاء عن لوحة الفريق وترتفع معها لافتات التأييد والولاء. وقد يملأ صداها الدنيا ويدوي معها اسم الفنان. قد تنشر الجرائد الخبر وقد يذاع بالمذياع. هذا غير المشاركين بالعروض والمتفرجين عليها .حتى لو اكتفى الفريق باللوحة واقتنع بأن المدير هو الرسام فمن يقنع طلبة المدرسة ومن يسكت يحيى.؟.ورطة.. احتقنت خياشيمه بالكلمة وخرخر بها منخاريه...فنخر وتلمس عنقه متصنعاً الألم أمام نظرات الأستاذ الزاجرة. ما ان تحول عنه حتى امتص أنيناً كاد ينطلق غضباً عنه. الآن يحرضون على مقاطعة الاستعراض. غداً سيتظاهرون ضده.حتى لو أقسم آلاف الأيمان فلن يبعد عنه الإتهام. الكل يعرف أنه كان مستغرقاً بالرسم في المختبر. من غيره في المدرسة قادر على الرسم والتخطيط. سيسقطه الأساتذة في الامتحانات وكأنهم يسقطون كلوب، ويثأر منه الطلبة كأنهم يثأرون من الإنجليز. سينبذونه

ويقاطعونه ويتحرشون به. حتى الشلة ستبتعد عنه. كان يعرف هذا، وإلا لماذا أخفى الأمر.؟. انصاع للمدير حتى يحظى المدير برضى الفريق ويحظى هو بعداء الطلبة والأساتذة الحزبيين.كان عليه أن يرفض، فمهما سيفعله المدير أهون مما سيفعله أبوه. إن لم يعرف كل شيء يوم الاستعراض ففي اليوم الذي يليه. ابنك من جماعة كلاوب. نحن جنودك يا كلاوب. ابنك جاسوس للإنجليز. انت فصل ونحن نلبس ياكلاوب. لن تواتي أباه فرصة كهذه. إذا كان مجرد رسم وجه عادي قد جلب له الهول فكيف سيكون حاله عندما يعرف أنه رسم وجه أبي الهول.

- وجهك للأمام... قال الأستاذ بعد أن التفت خير إلى الوراء إثر نكزة في ظهره.

بمجرد أن قرع الجرس حتى أحس بيد يحيى تمسكه من ذراعه وخرجا معاً متراصين : هل أنت جاد.؟.

- بماذا.؟.سأل خير باستغراب.

- رسم صورة أبي... قال بسرعة وتوتر وصوت خفيض.

تمعن به خير للحظة كأنه يستذكر ثم فغر فاه وهو يرفع رأسه وأصدر صوتاً كالتنهيدة : آ.

- هل تراجعت.؟... جاء صوت حسن مـن الخلـف : انتظر انت وإياه.

سرع خير خطواته قابضاً على ذراع يحيى هذه المرة : إياك ان تخبر أحداً. هذا بيني وبينك... وبارحا المبنى.

- ولا حتى نجلاء.؟... سأل يحيى ساخراً. فقال خيـر بحدة : لا تتمسخر... وسرع بخطواته أكثر فاتسعت المسافة بينهما وبين حسن الذي انضم إليه نجم وهاني على التعاقب.

- انا لا أتمسخر. لكنك حالف يمين أن لا ترسم بشراً.

- أبوك ليس بشراً... أضاف بسـرعة قبـل أن يفكـر يحيى : أبوك فوق البشر. سأرسمه وأرسمك وأرسم أي فتـاة تأتي بها إلى التسوية.

- سأجلب عشرين فتاة...

تحوقل متذمراً : لا حول ولا قوة إلا بـا ... وصـرخ به : واحدة... هدأ من صوته مع التفات الـبعض إليهمـا : واحدة، لا أريد عشرين.

- عمري ما شاركت أحداً بفتاة... أكـد ذلـك بتلـويح سبابته نفياً. توقف خير عن المشـي : أهكـذا إذن... قالهـا بامتعاض شديد. التفت إلى الوراء فالتفت معـه يحيـى ولاذا بالصمت، وكان الطلبة يغادرون مسرعين.

وصل الآخرون، فبادر خير حسن : الأفندي... وأشار براحته إلى يحيى : يقول أنك لم تشاركه في حسنة الزيـات. وتزعل عندما أقول عنه كذاب.

انفضوا جميعهم إلى الـوراء بعـدما صـرخ حسـن : ماذا.؟... احتقن وجهه وتوقدت عيناه وهو ينظر بغضبٍ إلى يحيى بينما وقف بعض الطلبة يتبينون بفضول : وصلت لي يا يحيى.؟... صارت يداه تنتفضان وصرخ بـه : احكـي الصحيح... وبصوتٍ أعلى : الآن.

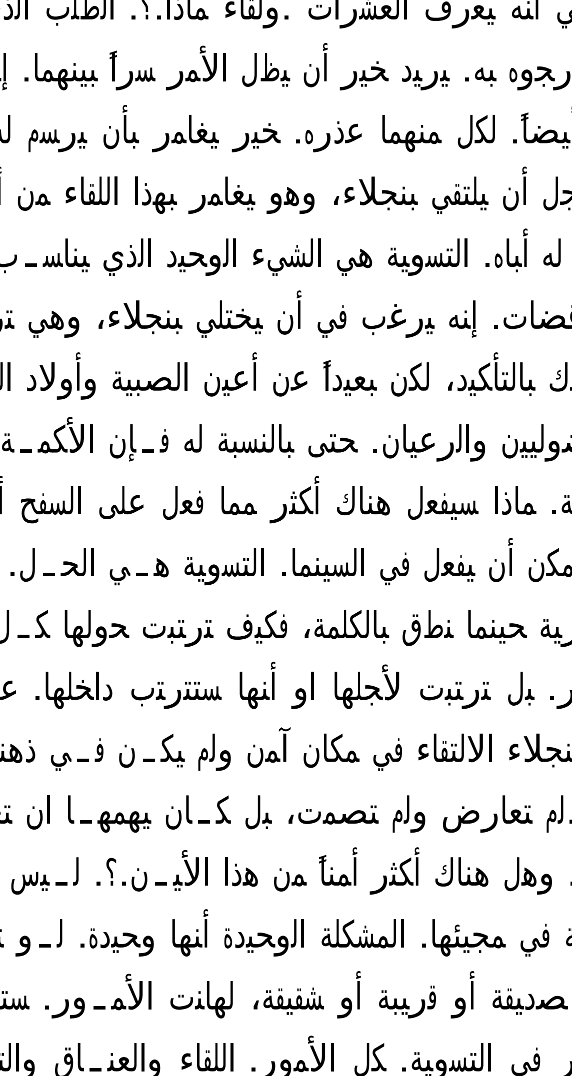
-لم أقل هكذا. قلت... فقاطعه حسـن : الصـحيح يـا يحيى... حته من بين أسنانه.

- يا أبا علي... استدرك بصوتٍ عالٍ وهو يشير إلـى خير : المحترم يريد... قاطعه خير بسرعة وهو يرفع أصبعه محذراً : قلت بيني وبينك. إياك... وابتعد مهرولاً.

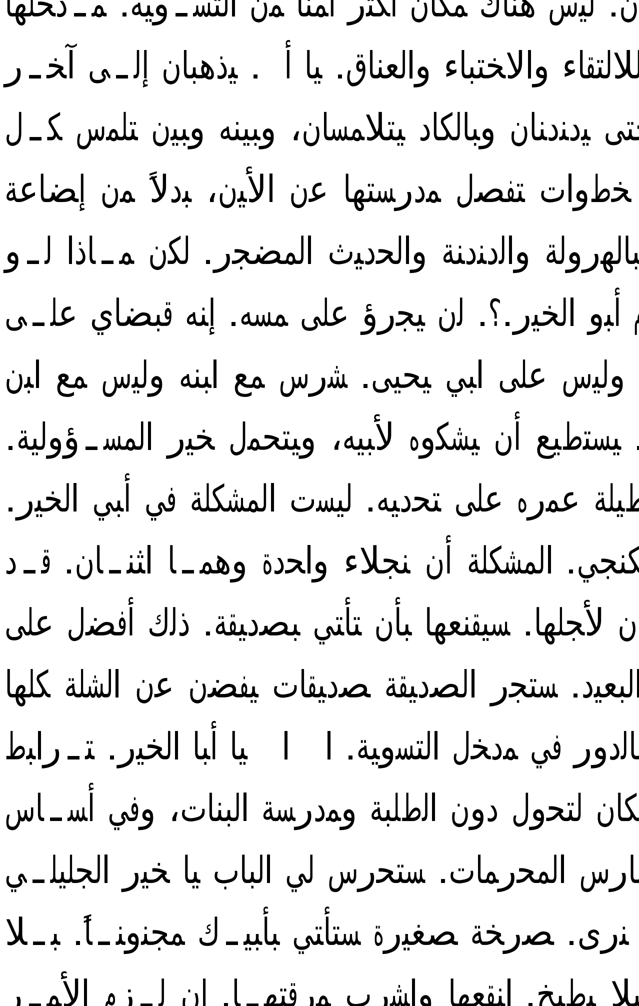
١٠

كان يمكن أن ينسى خير كعادته كل الذي جـرى، ولا يستذكر منه إلا ما يثير رغبته ويطلق خياله. ففـي تحدياتـه ليحيى، كان دون وعي منه انما يعبر عن رغبة بالمشـاركة التي لا يستطيع يحيى أن يوفرها ولا يستطيع هو أن يقطفها، فيقهرها بمقاهرة يحيى خلال لقائه بالشـلة ويحتـال عليهـا بالتمني في يقظته الحالمة. فلو قدر له أن يعيش معه قصـة واحدة من تلك القصص، صحيحة كانت أم كاذبة، لما قاهره ولا تحداه. أما أن يستثنى دائماً من أكاذيبـه، فإنـه سـيظل يتحداه. فهو وإن كان يتمنى التعرف على أي فتـاة، نجـلاء كانت أم شهلاء أم عوراء، إلا أنه على يقين باستحالة الأمر، فأبوه ليس شبحاً تطفئ ومضته بصة نور وانما غول يأكل في الظلمة والضوء. إنه يدركه في كل شيء إلا في أحلامه التي لا يقوى على الإفصاح عنها للشلة إلا بالتخطيط والرسومات.

هذه المرة جاء تحديه حاسماً وضع فيه يحيى بالمحـك. ليس الأمر كلاماً في كلام. يؤخذ فيـه ويعطـى. وزعـت الأوراق وعليه الانسحاب او قبول الرهان. يتحداه أن يثبـت مرة واحدة علاقته بفتاة واحدة وهـو لا يعـرف إلا واحـدة



ويدعي أنه يعرف العشرات .ولقاء ماذا.؟. الطالب الذي ما فتئ يرجوه به. يريد خير أن يظل الأمر سراً بينهما. إنه يريد ذلك أيضاً. لكل منهما عذره. خير يغامر بأن يرسم له أباه من أجل أن يلتقي بنجلاء، وهو يغامر بهذا اللقاء من أجل أن يرسم له أباه. التسوية هي الشيء الوحيد الذي يناسب هذه المتناقضات. إنه يرغب في أن يختلي بنجلاء، وهي ترغب في ذلك بالتأكيد، لكن بعيداً عن أعين الصبية وأولاد الحارة والفضوليين والرعيان. حتى بالنسبة له فإن الأكمة غير مناسبة. ماذا سيفعل هناك أكثر مما فعل على السفح أو أكثر مما يمكن أن يفعل في السينما. التسوية هي الحل. قصد السخرية حينما نطق بالكلمة، فكيف ترتبت حولها كل هذه الأمور. بل ترتبت لأجلها او أنها ستترتب داخلها. عرض على نجلاء الالتقاء في مكان آمن ولم يكن في ذهنه أي مكان.لم تعارض ولم تصمت، بل كان يهمها ان تعرف الأين. وهل هناك أكثر أمناً من هذا الأين.؟. ليس هناك مشكلة في مجيئها. المشكلة الوحيدة أنها وحيدة. لو تجلب معها صديقة أو قريبة أو شقيقة، لهانت الأمور. ستسوى الأمور في التسوية. كل الأمور. اللقاء والعناق والتحدي



والبرهان. ليس هناك مكان أكثر أمناً من التسـ وية. مـ دخلها يصلح للالتقاء والاختباء والعناق. يا أ . يذهبان إلـى آخـ ر الدنيا حتى يدندنان وبالكاد يتلامسان، وبينه وبين تلمس كـ ل جسدها خطوات تفصل مدرستها عن الأين، بدلاً من إضاعة الوقت بالهرولة والدندنة والحديث المضجر. لكن مـ اذا لـ و ضبطهم أبو الخير.؟. لن يجرؤ على مسه. إنه قبضاي علـى الغلابى وليس على ابي يحيى. شرس مع ابنه وليس مع ابن العفيف. يستطيع أن يشكوه لأبيه، ويتحمل خير المسـ ؤولية. سيندم طيلة عمره على تحديه. ليست المشكلة في أبي الخير. شقفة دكنجي. المشكلة أن نجلاء واحدة وهمـ ا اثنـ ان. قـ د يتباطحان لأجلها. سيقنعها بأن تأتي بصديقة. ذلك أفضل على المدى البعيد. ستجر الصديقة صديقات يفضن عن الشلة كلها ويقفن بالدور في مدخل التسوية. ا ا يا أبا الخير. تـ رابط أمام الدكان لتحول دون الطلبة ومدرسة البنات، وفي أسـ اس بيتك تمارس المحرمات. ستحرس لي الباب يا خير الجليلـ ي وسوف نرى. صرخة صغيرة ستأتي بأبيـ ك مجنونـ اً. بـ لا رسمة بلا بطيخ. انقعها واشرب مرقتهـ ا. إن لـ زم الأمـ ر سيسمح له بأن يلتصق بها من الوراء وهـ و يضـ مها الـ ى

صدره. أوف. ليس معقولاً. لا هو يرضى ولا هي ترضى. الأفضل أن تأتي بصديقة.

لازمته تداعياته خلال الطريق وفي تمشيه فوق الهضبة، ووصلت نجلاء قبل ان يهتدي لأسلوب يمهد به للموضـوع. التسوية مفروغ منها. المشكلة بصاحبه وصاحبتها.

لم يتمشيا فوق الهضبة، بل واصلا غرباً باتجاه حـارة الخلايلة. أحست بأنه نزق ثقيل الدم وهو يخبرهـا خـلال الطريق كيف أن الأستاذ عاقب الطلبة غير المنضبتين وأعفاه من العقاب. الأساتذة لا يجرؤون حتى على توبيخه.

عندما ارتقيا الدرج سألته عن أصحابه فحلت له نصـف المشكلة. اختصر الحديث عن الجميع وأفاض في إطراء خير والتغني بموهبته الفنية الفـذة : يسـتطيع أن يرسـمك مـن شعرك... وتلمس شعرها : وحتى قدميك... ودفع قدمه إلى قدمها : في خمس دقائق.

- أوف... قالت متعجبة وهي تزيح عنه قليلاً.

- وا العظيم، مثلما أقول. لا يوجد في المدرسـة ولا في عمان ولا في الأردن فنان مثله. ما رأيك أن يرسمك

- أنا.؟.. تساءلت بحبور وهي تتخيل نفسها عارية فـي لوحة فنية آسرة. لما انتبهت ليحيى كان ما يزال يتحدث عن خير : تعرفين بيته. إنه المقابل للمدرسة.

أبدت استغراباً ودهشة : إبن الدكنجي.؟!.

قالت بإنها تعرف ابنتيه لكنها لم تلحظ يوماً ابنه. أوشك أن يخبرها عن بطش أبيه، لكن شيئاً ما منعه. قال بأن خيـر انطوائي. سألته إن كان قوي البنية مثل أبيه، قـال بصـوت ناعم طويل : من أين له.؟!.مسكين خير. القط يأكل عشاءه. دينه ومعبوده الرسم. اسمعي مني وخلّيه يرسمك.

- كيف سيرسمني.؟. أهكذا.؟... وحركت كفّهـا أمـام جسدها من الأعلى للأسفل.

- ولا أحلى من هكذا.

- أنت تضحك علّي.

- لا وا . ما عاش الذي يضحك عليك.

- حسناً. سأجلب لك صورة.

صرخ بأعلى صوته رافعاً راحتيه : صورة مـاذا.؟.. بلع ريقه وهو يسترسل أمام نظراتها المتعجبـة : يـا بنـت الحلال، شخصي أحلى.

- كيف سيرسمني ؟. وأين.؟... قالت بنبـرة يشـوبها امتعاض وتأنيب وقد تسللت إليها الريبة.

- سيرسمك بالألوان. وفي التسوية. إنه يرسم هناك في العادة... أضاف بسرعة وكأنه فطن أمـراً : مـا رأيـك أن تحضري صاحبة لك تعرفينها عليه.؟.

تسلل إليها الهدوء. هذا كل ما في الأمر : أليس لـديك صاحبة تحب الفنانين.؟.

- انا لا أثق بصاحباتي.

- وأنا أيضاً لا أثق بأصحابي.

-وخير.؟.

- قلت لك خير مسكين. انطوائي، دينه ومعبوده الرسم.

جاء الموعد في ظروفٍ مواتية. أوعز المدير بتعطيـل الدوام ظهر اليوم من أجل التدرب النهائي علـى العـروض الرياضية والتنظيم والانتظام في المسيرة والإشراف عليهـا تجنباً لأي خلل في اليوم التالي الذي سيكون عطلة رسـمية. تغيب حسن مؤثراً البقاء في البيت طالمـا أن هـاني ونجـم منشغلان بالتدريب، وكان السبب الرئيس نفوره مـن يحيـى بسبب ما حصل ذلك اليوم.

ناسب هذا خير أيضاً وإلا اضطر للهروب من المدرسة بعد الظهر. أوصى فؤاد أن يكتم أمر تعطيل الدوام ظهـراً. وحتى يبدو كل شيء حقيقياً، اقتطع بعـض رسـوماته مـن مجلات حائط قديمة جلبها في كيس وضع فيه أيضاً رزمـة أقلام تخطيط وريشاً وبعض أنابيب الألوان. ركنهـا خـلال رواحه وراء حجرٍ من الدبش في مدخل التسوية. بعد تناولـه الغداء غادر المنزل كالمعتاد مستعدا للتبرير وبإصـرار إن اكتشف أمره. العطلة الرسمية غداً، أما اليوم فقد حذر المدير من الغياب. ليس التوقف عن الدراسـة للاسـتراحة وانمـا للتهيوء والاستعداد للغد.

تجاوز الدكان حاملاً حقيبته بثقة. لم يلتفت له أبوه ولـم يبد اكتراثاً به. فواصل بخطوات وئيدة متجاوزاً التقاطع . ما أن أخفاه المنحدر حتى ركض نزولاً. انحرف بعد ذلك إلـى طريق التفافي وصل به إلى أعلى الجرف. عبر ممشى ضيقاً محاذياً لبيت العفيف أوصله إلى أرضٍ صخرية فيها عدد من الأزقة تؤدي كلها إلى مبناهم. اختار أكثرهـا التفافـاً كأنـه يراوغ، لينتهى إلى فسحة ترابية تخللتها نتوءات صـخرية.

تجاوزها دون أدنى التفات وتقدم عبر مدخل التسوية بثقة أهل الدار.

وضع حقيبته جانبـاً وراح يشـد العارضـة الخشـبية فتخلخلت مساميرها بيسر وسهولة وكـأن الجـدار رملـي. اقتلعها من جانبيها على التوالي وما يزال لوح الزينكو مثبتـاً فيها. أزاحها جانباً محاذراً من الطقطقة وولج بحقيبته. أعـاد من الداخل وضعية الزينكو إلى ما كان عليه. فرك راحتـه غبطة. غافلته قشعريرة فارتجف جسده واصطكت أسنانه.

احتار ماذا يفعل وهو ينظر في الأرجاء العابقة برائحـة الرطوبة.كانت الجدران إسمنتية خشنة، وتدلت مـن السـقف خيوط شعشبون داكنة بالغبار. أما النافذة الوحيدة المطلة على الفسحة الترابية فقد سدت بألواحٍ من خشب الطوبار مسمرت في الجدار، من تحتها ستفة كبيرة من طوب البناء، وتوزعت أكوام من خشب الطوبار الناتئة بالمسامير الصدئة في أكثـر من موقع، نسجت فيها العناكب بيوتاً عديدة. في إحدى الزوايا برميل مليء بعددٍ ولوازم بناء وبجانبه صوبة حطب صـدئة متشققة رزمت بجانبها بواري صدئة حزمت معاً بسلك رفيع. ابتعد عنها متوجساً من العقارب والحيات. تنقل محاوصاً هنا

وهناك طابعاً آثار قدميه على الأرضية الترابية اللدنة التـي تراكم فوقها غبار ناعم وتبعثرت فيهـا الأحجـار وأسـياخ الحديد. أهذا مكان يلتقي فيه مع فتاة.؟.وللمـرة الأولـى.؟. حتى لو أجبرها يحيى على الدخول فلن توافق. ولو وافقـت، فأين سيجلسون.؟. على الأخشاب.!. انه نفسه متوجس مـن العناكب والعقارب.

احتار في طريقة تنظيف المكان. لم يجد أمامـه سـوى خشب الطوبار. حتى هذه بحاجـة لتنظيـف. طـرق لوحـاً بالجدار فعبق غباره دون أن يسقط عنه الأسمنت الملتصق به كالغراء. أبعده عنه وهو يسعل. لعن أباه. اسـتغرقه البحـث عن لوحين نظيفين أكثر مما استغرقه صـنع أريكـة فـوق ستفتين من الطوب. جلس عليها وهو يحس بمتعة الإنجـاز. ضرب قبضته في راحة الأخرى. سـكنت حركتـه وثبتـت نظراته إلى الأمام : يا أ ... أسرع نحو الباب وأزاح لـوح الزينكو بهدوء وخرج إلى المدخل متلصصاً. جلـب الكـيس ووزع محتوياته على طرف الأريكة. أعاد ترتيبها أكثر من مرة وتوتره في تصاعد. لماذا تأخرا.؟. لن تذهب للمدرسـة ظهراً كما قال الفصيح. ولا يستطيع البقاء هنا فترة طويلـة.

انقضت أكثر من ساعة . يا ويلك إن كنت تضحك علي يـا ابن العفيف. لو أخذ منه ساعته. أعوذ با . ستكون النهاية لو ضبطها أبوه. أمعقول انه مـا يـزال ينتظرهـا أم تـأخرت صديقتها.؟. ربما تكون قصة صديقتها مختلقة كقصتها.

تناهى له صوت خفيف كالهمس : خيـر خيـر. أنـت هنا... وطقطق لوح الزينكو.

أسرع ملهوفاً إلى فتحة الباب : أنا يحيى... دفع اللـوح قليلاً وساعده خير، فولجت نجلاء بسـرعة تاركـة إياهمـا يعيدان تغطية الفتحة بلوح الزينكو.

قال خير بصوت خفيض كالهمس وأسنانه تصـطك : تأخرت.

- منذ متى أنت هنا.؟.. سأل يحيى بثقة مصطنعة.

- من الظهر... قال خير بارتباك متجنباً النظـر إلـى نجلاء التي أعطتهما ظهرها.

هم يحيى بالتقدم فاستوقفه خير وهو يستفسر منـه عـن صديقتها بتحريك شفتيه دونما صوت مع حركة مـن يديـه وعينيه.

نفض يحيى أصابع راحتيه للأمام ونتر رأسه نفياً للوراء مع تكشيرة سريعة...مشى باتجاه نجلاء التي كانـت تضـم كتبها إلى صدرها وتخفي ارتباكها بإدارة نظرها في أرجـاء المكان وفي وجهها علامات امتعاض.

وقف بجانبها وقال مشيراً برأسه نحو خير : حضـرته الفنان.

- أنت.؟.. قالت وهي تتمعنه.

ابتسم خير بارتباك فقالت بتعالٍ : شوفني.

أسرع إلى حيث الأريكة فوضع يحيى يده على ظهرهـا وهما يحملقان به.

رفس حقيبته وتناول رسوماته من فوق الأريكة ومـدها من مكانه فتقدمت نجلاء نحوه باختيال وتناولتها بثقة وظـل يحيى واقفاً في مكانه.

وضعت كتبها على الأريكة وجلست معطيـة ظهرهـا ليحيى. قلّبت بضع رسومات ثم انحرفـت بجسـدها أكثـر وراحت توزع الرسومات على الأريكة بجانب بعضها. مالت نحوها مستندة بإحدى يديها على طرف اللوح الخشبي. بينما يحيى متصلب في مكانه وكأن قدميه تلتصـقان بـالأرض.

تعالت أنفاس خير وهو يحملق بها مطرقـة منتظـراً منهـا التعليق. نظر إلى يحيى وهو يبلع ريقه. سأله بإشارة من كلتا يديه عما سيفعلا. لاحظته بطرف عينها. انحرفت بظهرهـا أكثر بينما أجاب يحيى بتساؤلٍ من راحتيه وشفتيه وعينيـه. مالت إلى الأمام مرخية رأسها أكثر، فسقط شـعرها علـى طرف وجهها. نترت رأسها للخاف وأزاحت بيدها شـعرها وراء أذنها لكنه عاود الانبساط. نقل خير نظره بينها وبـين يحيى الذي عض على شفته السفلى وثبت ذراعه حتى الكوع إلى جنبه وهو يدفع راحته للجانب حاثاً خير علـى الإقـدام. أشار خير بإصبعيه إلى صدره ثم إلى يحيى وفتـل راحتـه، فأشار يحيى بإصبعه إليه ثم إلى نجلاء منهياً دورة يده إلـى صدره. قالت وهي تتأمل إحدى الرسومات : مـاذا تقصـد بهذه.؟.

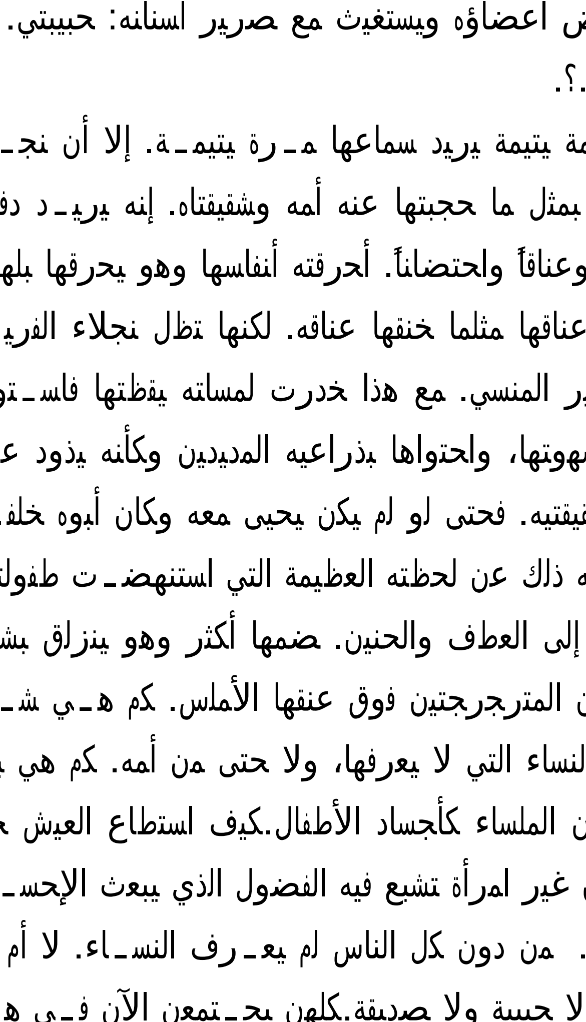
- أيها.؟. وتقدم إلى جانبها من الوراء. مـال بجذعـه نحوها فعبقت في أنفاسه رائحتها الأنثوية. ارتخى إلى الأسفل وهو يحاول جاهداً الثبات. لهثت أنفاسه وكأنه يحمل الأثقال : هذه رسمتها في عيد الأم... بلع ريقه وهو يضع يـده علـى

كتفها. لقد حثه الإجهاد على الإقدام بالاسترخاء. علقت دونما اكتراث بيده : حلوة كثير.

جلس بجانبها ملتصقاً بها وحرك يده بنعومة من كتفهـا إلى ظهرها : أعجبتك.؟.

همهمت بخفة زادت من تجرؤه. قرب رأسه من رأسها وداعب بذقنه خصلات شعرها وهو مغمض العينين. صـدر عنه أنين عميق وقد تهيأت له في تكورها وتقـوس ظهرهـا واختفاء وجهها وانسدال شعرها فوق وجههـا أشـبه بأمـه المتهالكة أرضاً المرنحة بالضربات. أن مرة أخرى وأغـرق وجهه بالكامل في خصلات شعرها. استوت بجذعها وأزاحت وجهه بظاهر راحتها وحاوصت قائلة : خاص... فتح عينيه على نظراتها الدافئة فانتابته رغبة جامحة في التكـور بـين ذراعيها كالجنين. تلمس ذقنها بنعومة بالغة وقطرت عينـاه الساحرتان بالشوق والحنين.لم يدر أي منهما إن كان يتقـدم للآخر أم يدعوه للتقدم : هيا يا خير.

لكن خير كان أبعد من أن يسمع يحي، وكانـت نجـلاء أكثر اقتراباً من صوت خير : حبيبتي...قالها كأنه يسـمعها منها. ألقى برأسه على كتفها وضمها من كتفيها بكلا ذراعيه

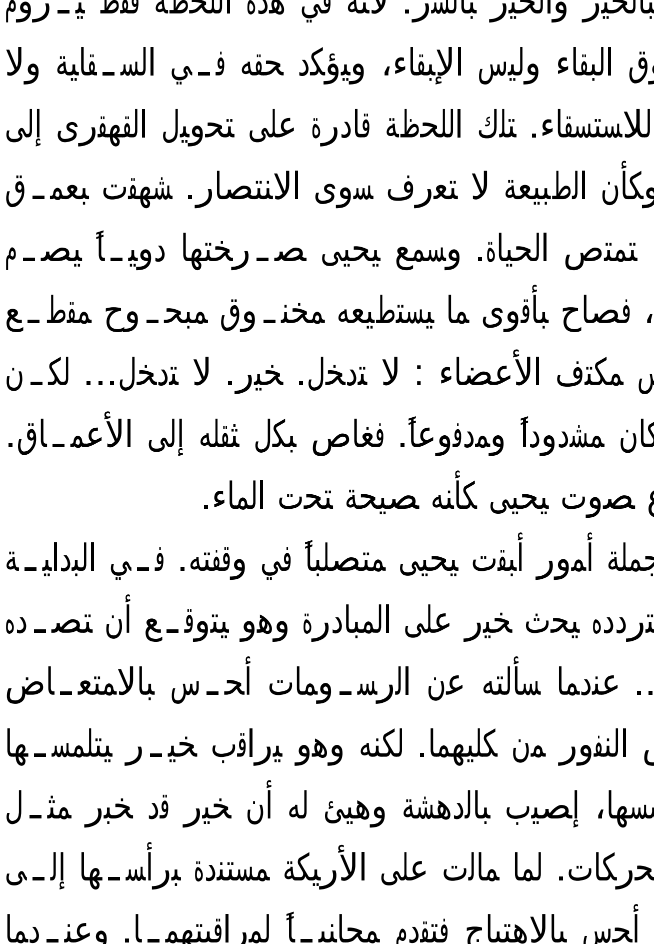


وهو يئن كالموجوع ويرتعد كالمحموم وترتجف عظامه بمثل ما تنتفض اعضاؤه ويستغيث مع صرير أسنانه: حبيبتي. هل تحبينني.؟.

كلمة يتيمة يريد سماعها مـرة يتيمـة. إلا أن نجـلاء حجبتها بمثل ما حجبتها عنه أمه وشقيقتاه. إنه يريـد دفئـاً وجنساً وعناقاً واحتضاناً. أحرقته أنفاسها وهو يحرقها بلهاثه، وأسره عناقها مثلما خنقها عناقه. لكنها تظل نجلاء الفريـدة وهو خير المنسي. مع هذا خدرت لمساته يقظتها فاسـتولت عليها شهوتها، واحتواها بذراعيه المديدين وكأنه يذود عـن أمه وشقيقتيه. فحتى لو لم يكن يحيى معه وكان أبوه خلفـه، فلن يثنيه ذلك عن لحظته العظيمة التي استنهضـت طفولتـه الجائعة إلى العطف والحنين. ضمها أكثر وهو ينزلق بشفتيه الناشفتين المترجرجتين فوق عنقها الأملس. كم هـي شـهية رائحة النساء التي لا يعرفها، ولا حتى من أمه. كم هي بهية أجسادهن الملساء كأجساد الأطفال.كيف استطاع العيش حتى الآن من غير امرأة تشبع فيه الفضول الذي يبعث الإحسـاس بالجمال. من دون كل الناس لم يعـرف النسـاء. لا أم ولا شقيقة ولا حبيبة ولا صديقة.كلهن يجـتمعن الآن فـي هـذه

اللمسات.كل نساء الدنيا يصبحن في هذه اللحظـة الرائعـة، امرأة واحدة، بما فيهن أمه وشقيقتاه. هذه اللحظة فقط يحـس بأن الدنيا كلها أمهات وكلها شقيقات وحبيبات وصديقات. هذه اللحظة فقط يستطيع أن يذود وأن يقول بأنه محارب. هـذه اللحظة يتحقق في ذاته كيانه. فهو لم يكن يبحث عن المـرأة وإنما كان ينتظرها. إنه لا يريد دفئها بمقدار ما يريد حماها. فلو سمع من أمه يوماً كلمة حبيبي لصـال وجـال ومـزق الكرباج ومحق الطغيان. لكنها حجبتها عنه فأسقطه الهـوان. في لحظته هذه وصل جموحه إلى ذروة الرغبة فـي البقـاء والتعلق بالحياة، فشعر بسطوة الإقدام وكأنـه جـلاد يرفعـه إسقاط الفأس ويسـقطه خـلاص الضـحية : لا تخـافي. لا تخافي.. إنه يخشى خوفها أكثر مما تخيفه مخاوفه. فالنجـاة في الهزيمة أصعب بكثير من الموت في القتال. أنه يخشـى تردده كما يخشى اهتزاز سلاحه. تماماً كـالجلاد فـي أول إعدام. آه.من هو الجلاد.؟.من هو الشجاع ومن هو الجبان.؟. من البكر ومن الأرض الموات.؟. سطر ممحي فـي كتـابٍ ممنوع صفحاته مطوية. خطيئة الإنسان معرفته وجريمته في القراءة وفجيعته في الأمومة والأبوة والقرابة : لا تخافي...

رددها دون أن تبدي خوفاً او ممانعة. كأنه يقولها لنفسـه او يريدها أن تخاف.. استعجله يحيى من الوراء : هيا يا خير... وهل يستجيب الخير للاستعجال. إنه يحـاول أن يتـذكر إن كانت أمه أرضعته وهو يغرق كل وجهه بين ثديي نجـلاء. ماذا تساوي الأم من غير ثدييها.؟. بل ماذا يساوي ابنهـا إذا حرم ثدييها. الآن فقط يعرف لماذا كان أبوه يعاقبه على إبقاء لسانه خارج شفتيه. لا يمد الفم المملوء لسانه. إنه يملأه الآن بالماضي والحاضر والأحلام والأمال والأمنيات. فـي هـذه اللحظة فقط يعبر عن هيامه ويستحق كيانه ويمارس حريتـه غريزياً ويتلمس اللذة غيبياً. إنه يستطعم الحلاوة التي تـأتي بها المرارة. إنه يحس بالسطوة والقوة والطغيان. أنها لحظته العظيمة التي تفيض فيها روحه عن جسده فترشده إلى مرامه وكأنها القائد والتابع والدليل فتتأجج صهارتها وهـي تـذوب وتذيب. وسواء أكانت نجلاء شـهلاء ام كانـت حمقـاء أم رعناء، وسواء أكانت ثيباً أم عذراء. وسواء أكانت ضحية أم جلاداً، فإنها استسلمت للحظة طاغية بدأت وانتهت فـي آن. ليغدو قاعها قمة وعماءها استبصاراً. ففي اللحظة العظيمـة التي يغمر المرء فيها شعور فياض بتحقيق الذات، يتسـاوى



الشر بالخير والخير بالشر. لأنه في هذه اللحظة فقط يروم المخلوق البقاء وليس الإبقاء، ويؤكد حقه في السقاية ولا ينزع للاستسقاء. تلك اللحظة قادرة على تحويل القهقرى إلى أقدام وكأن الطبيعة لا تعرف سوى الانتصار. شهقت بعمق وكأنها تمتص الحياة. وسمع يحيى صرختها دوياً يصم الآذان، فصاح بأقوى ما يستطيعه مخنوق مبحوح مقطع الأنفاس مكتف الأعضاء : لا تدخل. خير. لا تدخل... لكن خير كان مشدوداً ومدفوعاً. فغاص بكل ثقله إلى الأعماق. وضاع صوت يحيى كأنه صيحة تحت الماء.

جملة أمور أبقت يحيى متصلباً في وقفته. في البداية جعله تردده يحث خير على المبادرة وهو يتوقع أن تصده نجلاء.. عندما سألته عن الرسومات أحس بالامتعاض وبعض النفور من كليهما. لكنه وهو يراقب خير يتلمسها ويتحسسها، إصيب بالدهشة وهيئ له أن خير قد خبر مثل هذه الحركات. لما مالت على الأريكة مستندة برأسها إلى كتبها، أحس بالاهتياج فتقدم مجانباً لمراقبتهما. وعندما استسلمت لخير ولم تقاوم محاولته لوضع ساقها في الناحية الأخرى من الأريكة، ركض مذعوراً باتجاه لوح الزينكو

وعاد منه مذعوراً أيضاً. نادى على خير للاستعجال. ولمـا كادت الطبخة تحترق، حسب ما روى بعد ذلك، حذر خيـر لكن الأوان قد فات. لما انكشفت لـه دمـاء نجـلاء احـس بالارتباك والارتخاء والهلع، فقال لخير : انا مـا دخلنـي... لكن خير الذي وصل ذروة النشوة كان ما يزال يعيش بهجة القوة، فأبدى تماسكاً وثباتاً ويقظة. لم يكن قد أحس بجنـين الورطة التي يحسها يحيى، فعين المتفرج أكثر اتسـاعاً مـن عيون اللاعبين. دفعه بقوة جعلته يسـتجيب خوفـاً ورهبـة كالطفل الصغير :دورك..؟.أسقطه فوقها وما تزال مترنحـة من أثر السقطة شبه مغشية، تلهث تعباً وألماً وانتشاء، فتمنى يحيى لو تصده لكنها لم تفعل، فولجها مذعناً ومن غير رغبة وقد غدا التماص اندحاراً. وسواء أنتهى معها أم لـم ينتـه، وسواء أكانت مشاركته خارجية أم داخلية، فـإن أم نجـلاء رفضت الترتيب الذي اعترفت به ابنتهـا بعـدما فضـحتها دماؤها. واستبعدت خير من بداية الحكاية حتى يتحقق الخير في النهاية : افهمت أم لم تفهمي يا بنت المدارس.؟.لا أريـد أن أسمع اسم خير.

١١

تسلّح أبو نجلاء بتوصيات زوجته ونصـائحها واتجـه إلى بيت العفيف بعد المغرب بقليل. ظنته الخادمـة متسـولاً وهو يسأل عن البيك، فأوشكت أن توصد الباب. لكنه أخبرها بسرعة أنه جارهم أبو نجلاء المكنوز. والأمر هام وخطير.

أبدى أبو يحيى استغراباً عندما نقلت له الخادمة اسـم الرجل ووصفه وهيأتـه الغريبـة الغاضـبة. طلـب منهـا باستخفاف أن تسأله عن الأمر الهام. لكن أبا نجلاء أصـر على أن يبلغه إياه شخصياً. قال للخادمة انها قضية حيـاة او موت. خرج إليه أبو يحيى وسأله في الباب عما يريد، فقدم نفسه ثانية معتذراً عن ازعاجه، إلا أن القضية خطيرة لا تحتمل التأخير.

سأله أبو يحيى بضيق وتذمر : أحكي يا بني آدم. مـاذا هناك.؟.

- يا بيك. ابنك ارتكب جريمة.
- أي جريمة.؟.
- الأفضل أن تسمعها في الداخل.

تفرس به أبو يحيى قبل أن ينزاح عن البـاب قـائلاً : ادخل...

تقدمه نحو الصالة الفاخرة لكنه عدل عن ذلك واتجه به إلى غرفة المكتب. أحس أبو نجلاء بالخجل والحـرج مـن نظافة الغرفة وترتيبها وأناقة أثاثها فظل واقفاً ولـم يعـرض عليه أبو يحيى الجلوس وإنما بـادره بعبـوس : مـا هـي الجريمة التي تتكلم عنها.؟.

أبدى أبو نجلاء حنقاً وتصنع الرجفة في يديه وهو يقول بصوت عالٍ : الجريمة أن ابنك خرب البنت.

- أي بنت.؟.. سأل أبو يحيى باستخفاف ومكر.

- كيف أي بنت.؟!.. تساءل أبو نجلاء بصوت متهـدج بطيء الإيقاع، وأضاف بصوت عالٍ : بنتنا.

- ماذا تقول... صرخ به أبو يحيى. انقبض أبو نجـلاء للحظة، لكن توصية زوجته بعدم الخوف والرد على كل كلمة واقفة بأكبر منها، جعله يدافع بحدة ولم يهاجم بعد: لا تغلط.

- إخرس. هيا. أخرج من هنا.

- أهكذا.؟.. قال أبو نجلاء مهدداً.

- ابني أشرف من أن يفعل أموراً كهذه... شاب قولـه بعض الارتباك.

هز أبو نجلاء رأسه وهو يعقـب بنبـرة فيهـا تهديـد واضح : ماشي... وأضاف وهو ينتر سـبابته للأعلـى : لا تخلينا نروح للمحكمة.

- روح لجهنم أيضاً...

هم أبو نجلاء بالاستدارة نحو الباب، وأبو يحيـى نحـو طاولة المكتب : وماذا ستفعل لك المحكمة.؟.

عاد أبو نجلاء إلى وضعه. قال وهو يـنفض راحتيـه أفقياً :تأخذ لي حقي.

- أي حق.

- إسمع يا بيك. نحن لا نريد فضائح. نريد حقنا فقط.

استرخى ابو يحيى فوق كرسي مكتبه وقال باسـتخفاف وازدراء وهو يتراوح يميناً ويساراً : وكم تريد لقاء حقك.؟.

- ماذا تقصد.؟.

- أقصد، كم هو المبلغ الذي في ذهنك.؟.. قالها مرخياً أجفانه كأنه يستنطقه.

انتاب ابو نجلاء إحساس بالهوان : أرجوك يا بيـك... ورفع إصبعه محذراً : أنا لم آت من أجل النقود...

سادت لحظة صمت بينما أبو يحيى يتراوح في كرسـيه ويتفرس به بثبات.

- ابنك... تلعثم وهو يستطرد : لازم يكتب كتابه علـى بنتي.

- أظنك لم تسمعني... قالها بهدوء وثقة بالغين، وقبـل ان يزداد التساؤل في وجه أبي نجلاء، أضاف بحـدة وهـو ينهض واقفاً : أنا قلت إلى الخارج. هيا. إلى الخارج... نادى الخادمة بأعلى صوته، فجاءت مهرولة : ارمـه خارجـاً... غادر أبو نجلاء وهو يغلي غضباً. بينما تعالت أنفـاس أبـي يحيى للحظات، ثم صرخ :يحيى.

ظهرت أمه أولاً ثم ظهرت الخادمة من خلفهـا، ومـع النداء الثاني ظهر يحيى والارتباك واضح في وجهه.

أشار له بيده وأسرع إلى الصـالة مغلقـاً البـاب مـن خلفهما.

قال خاطفاً يده إلى الجانب : هل تعرف الرجـل الـذي كان هنا.؟.

- أي رجل.؟... سأل يحيى بخوف.

- المكنـوز. المحمصـاني.؟.. انهالـت أطنـان مـن المحمصات فوق يحيى فلم تعد ساقاه تحتملان ثقله.

شمخ أبوه بقامته المديدة. فهيئ ليحيى أنـه سيفترسـه. ولما رفع رأسه وأطرق أجفانه وقال من بين أسنانه : يقـول أنك مخرب بنته...

أحس يحيى بحوضه يذوب وتذوب معه آلة التخريـب. ترجرجت شفتاه وقفقف حنكاه ولم يقو إلا على اللهاث، بينما أبوه يفترسه بنظرات قاسية زادته اضطراباً : لست أنا.؟.

- من إذن.؟.

- لا أعرف.

رنحته صفعة قوية كادت توقعـه. لكنـه وازن جسـده بالتلوح وابتعد خطوة وهو يحمي وجهه بذراعه. انتبه أبـوه إلى البلل في ثيابه. فصرخ به : من كان معك.؟.

- خير. خير الجليلي.

نثر خير التراب على بقع الدماء التي تلطخت بها ألواح الخشب وأخفاها داخل الكومة. كما أعاد الطوب إلى مكانـه أسفل النافذة ومحى بقدميه آثار الأقدام وثبت لـوح الزينكـو

بالجدار. وغادر متلكئاً حتى يصل البيت مع وقت الانصراف المعتاد. كان أبوه يجلس داخل الدكان. ما يزال هناك وقـت على انصراف البنات. حياه وهو يرفـع راحتـه : السـلام عليكم... لم يرد أبوه، فواصل متوجساً.

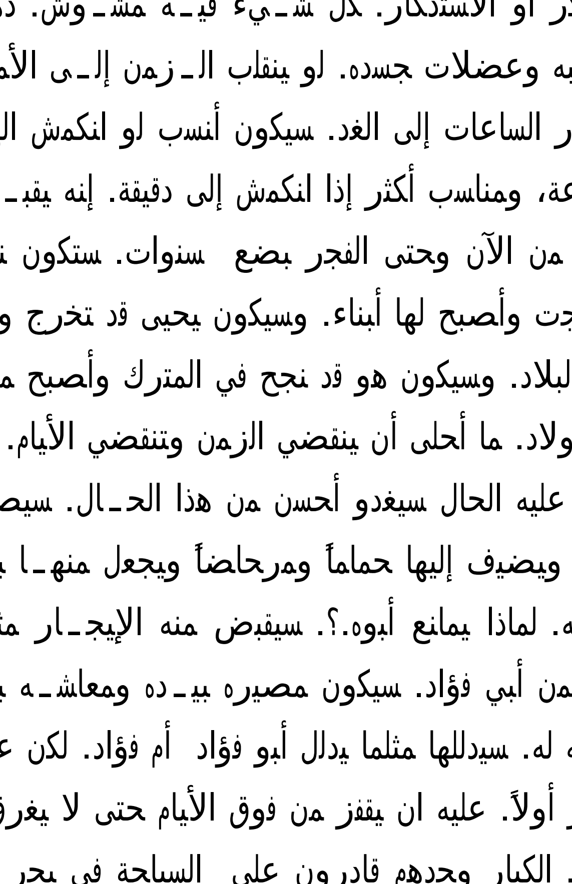
قبل أن يرتقي الدرج فوجىء بفؤاد وأبيه يهبطانه وهما في كامل الهندمة والأناقة. ابتسم لهما وانتظرهما في مكانـه. خاطبه أبو فؤاد ببشاشة : شايفك حامل حقيبتك.؟.

- كنت في المدرسة.؟... ونظر إلى فؤاد، كما نظر إليه أبوه : قلت أنكم معطلين.؟.

- لا لا. أنا مشارك في الاستعراض. أليس كـذلك يـا فؤاد.؟. هز فؤاد رأسه.

- ا يوفقك... قال أبو فؤاد وهو يبارح الباب واشار له فؤاد مودعاً. تابعهم بنظراته ثم مد رأسه متلصصـاً وقلبـه يخفق هلعاً. تجاوزا الدكان مشيرين لأبيه وهما يبتعدان. تنفس بارتياح وأطبق الباب.

أفرغ حقيبته في الصندوق وأخذ فـي تحضـير كتـب ودفاتر اليوم التالي متطلعاً بلهفة إلى الظلام. انقضى الوقـت بطيئاً وهو يقتعد أرضية غرفة الضيوف، ينتقل من دفتر إلى



دفتر ومن كتاب إلى كتاب دونما تركيز أو قدرة على التفكير أو التذكر او الاستذكار. كل شـيء فيـه مشـوش. ذهنـه وأعصابه وعضلات جسده. لو ينقلب الـزمن إلـى الأمـس وتختصر الساعات إلى الغد. سيكون أنسب لو انكمش اليـوم إلى ساعة، ومناسب أكثر إذا انكمش إلى دقيقة. إنه يقبـل أن تنقضي من الآن وحتى الفجر بضع سنوات. ستكون نجلاء قد تزوجت وأصبح لها أبناء. وسيكون يحيى قد تخرج وسافر خارج البلاد. وسيكون هو قد نجح في المترك وأصبح مدرساً يعلم الأولاد. ما أحلى أن ينقضي الزمن وتنقضي الأيام. مهما سيكون عليه الحال سيغدو أحسن من هذا الحـال. سيصـلح التسوية ويضيف إليها حماماً ومرحاضاً ويجعل منهـا بيتـه ومرسمه. لماذا يمانع أبوه.؟. سيقبض منه الإيجـار مثلمـا يقبضه من أبي فؤاد. سيكون مصيره بيـده ومعاشـه بيـده وزوجته له. سيدللها مثلما يدلل أبو فؤاد أم فؤاد. لكن عليـه أن يكبر أولاً. عليه ان يقفز من فوق الأيام حتى لا يغرق في أوحالها. الكبار وحدهم قادرون على السباحة في بحر الدنيا وتنظيف أنفسهم من الأوساخ والتدخين والتحشيش والسـكر والبطش بأبنائهم وضرب زوجاتهم ومعاقبة أبنائهم ومغازلـة

جاراتهم وهجر التسوية وإغلاق التسوية وتفسـير الشـريعة وفرض الإله الذي يريدون. آه. أين هو من عالم الكبار.

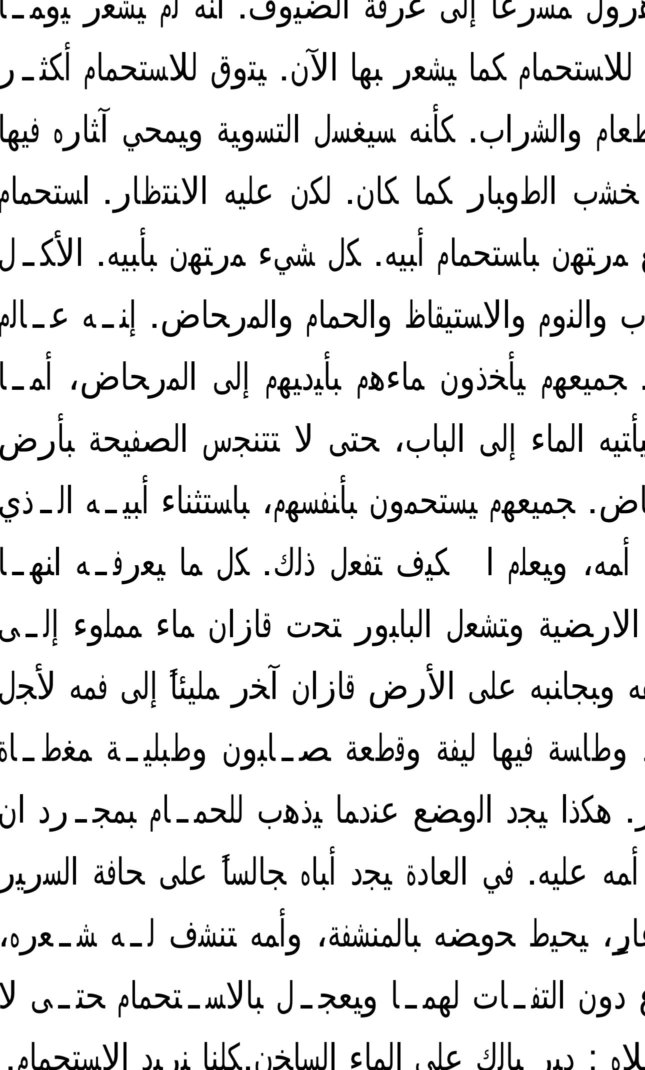
خرج طالباً المرحاض فوجده مشغولاً بأبيـه. اسـتدار متقهقراً فاصطدم بأمه وهي تخرج من المطبخ حاملة صفيحة اسطوانية صفراء مطبوع عليها صورة كنز وعبارة "سـمنة الكنز" : فتّح عينيك... حملق مأخوذاً بالصفيحة وقد قرأ الكنز مكنوزاً.

انزاح وهو يتلفت بخشية نحو المرحاض. قال أبوه مـن الداخل وهو يتنحنح ويشد على نفسه : ماذا هناك.؟.. بسرعة قالت أمه : لا شيء. جلبت لك ماء إذا خلّصت.

- تخاص روحك. انتظري قليلاً... امتصت أمه الشتيمة وقذفتها بلهجة آمرة غاضبة في وجه خير : حضـر حالـك للحمام... سأل بصوت خفيض : متى.؟...

- متى يعني.؟!.. تساءلت موبخة وأضـافت : بعـدما يستحم أبوك.

هز رأسه وقد غمره شعور بالفرح.كل الأمور مناسبة له هذا اليوم... امتدت يد أبيه من شق الباب فناولته الكنز بكلتـا يديها.



هرول مسرعاً إلى غرفة الضيوف. انه لم يشعر يومـاً بحاجة للاستحمام كما يشعر بها الآن. يتوق للاستحمام أكثـر من الطعام والشراب. كأنه سيغسل التسوية ويمحي آثاره فيها ويعيد خشب الطوبار كما كان. لكن عليه الانتظار. استحمام الجميع مرتهن باستحمام أبيه. كل شيء مرتهن بأبيه. الأكـل والشرب والنوم والاستيقاظ والحمام والمرحاض. إنـه عـالم الكبار. جميعهم يأخذون ماءهم بأيديهم إلى المرحاض، أمـا أبوه فيأتيه الماء إلى الباب، حتى لا تتنجس الصفيحة بأرض المرحاض. جميعهم يستحمون بأنفسهم، باستثناء أبيـه الـذي تحممه أمه، ويعلم ا كيف تفعل ذلك. كل ما يعرفـه انهـا تغسل الارضية وتشعل البابور تحت قازان ماء مملوء إلـى منتصفه وبجانبه على الأرض قازان آخر مليئاً إلى فمه لأجل التبريد وطاسة فيها ليفة وقطعة صـابون وطبليـة مغطـاة ببشكير. هكذا يجد الوضع عندما يذهب للحمـام بمجـرد ان تنادي أمه عليه. في العادة يجد أباه جالساً على حافة السرير شبه عارٍ، يحيط حوضه بالمنشفة، وأمه تنشف لـه شـعره، فيسرع دون التفـات لهمـا ويعجـل بالاسـتحمام حتـى لا يستعجلاه : دير بالك على الماء الساخن.كلنا نريد الاستحمام.

بعدما ينتهي يقوم بتنظيف الحمام وتهيئته أفضـل ممـا كان. فتستحم أمه من بعده وتقوم بدورها بتنظيفـه قبـل أن تختتم ابنتاها نوبة الاستحمام التي غالباً ما تتم بين المغـرب والعشاء. بعد الحمام عليه أن يرتدي ثيابه كاملة ويظل متهيئاً في غرفة الضيوف إلى ما بعد آذان العشاء خشية أن يفاجئهم ضيوف. بعد أن يقيم الصلاة يحمل فرشـته وغطـاءه إلـى الركن الذي تتوازن فيه نفسه ويمارس فيه حريته. فأبوه مـذ عهده ينام باكراً ويوقظه السعال باكراً فيحجز المرحاض إلى أن يستقيء بلغمه ثم يأتي دور الآخرين.

نادت عليه أمه فأسرع إلى الحمام عبر مخـدع أبويـه. وجد أباه كالعادة نصف عارٍ وقد لف وسطه بالمنشفة بينمـا أمه تنشف له بأخرى شعر رأسه وأذنيه. قـال لـه دون أن يتوقف او يلتفت : نعيماً... لم يجبه أيهما ولم ينتظر ذلـك او يتوقعه. عادة اعتادها واعتاد ردة فعلهما تجاهها.

في الحمام، لم يتخيل النساء هذه المرة ولا خطر ببالـه الاستمناء. وإنما أحس برغبة جامحة للنظافة. أغـدق علـى جسده بالصابون ودعك نفسه بالليفة كما لم يفعل من قبل. لما

انتهى نظف الحمام وارتدى ثيابه كاملة وغادر عبر مخـدع أبويه إلى غرفة الضيوف.

لم تنقض الليلة بالرتابـة المعهـودة. قـرع الجـرس الخارجي فقفز قلب خير إلى رقبتـه وراح ينـتفض فيهـا. تصلب في أرضية غرفة الضيوف عاجزاً عن الأتيان بـأي حركة. جاءت شقيقته مسرعة وقالت من الباب بنبرة آمـرة حادة : إنزل شوف مين...

تململ وهو يجمع كتبه فقرع الجـرس ثانيـة. قذفتـه صرخة أبيه إلى الخارج : افتح الباب يا أطرش...

أسرع يهبط الدرج وأزاح المزلاج الـذي اعتـاد أبـوه وصاده في المبيت. ما أن فتح الباب حتى تراخت عضـلاته ونفخ نفساً خفيفاً وهو يقول : إنت.؟!.. أضـاف بارتيـاح : أهلاً خالي أهلاً... وانزاح جانباً.

قبل الآن كان خاله واشياً ثرثاراً حسوداً منافقاً دجـالاً. أما الآن فإنه يتقدم على القديس درجات.

وضع يده على كتفه وهما يرتقيان الدرج : زمان عنـك خال... وتقدمه إلى باب غرفة الضيوف : تفضل. تفضل.

أبدى أبوه امتعاضاً عندما نقل إليه الخبر. جاء ببيجامته إلى غرفة الضيوف عابساً متجهماً ومن خلفه خير مرتبكـاً، رد على تحية نذير وهو يتثاءب، فـأدرك نـذير أن عليـه توضيح الأمر دون تلكؤ. قال بانفعال بينما أبو الخير يتثاءب من جديد : أنا قادم فقط لأسأل إن كان خير سيشارك غداً في استعراض المدرسة.

يا ملعون أبوك. وتعلقت أنظاره بظهر أبيه الذي توقـف التثاؤب في فمه : أي استعراض.؟.

- أبي، المدرسة منظمة غداً استعراضاً رياضياً.

- وما دخلنا نحن.؟.

- لا شيء. لست مشاركاً معهم.

قال نذير : هذا الذي كنت أريد معرفته يا أبـا الخيـر، لأني سمعت أن الاستعراض برعاية كلوب...

- ماذا.؟... صرخ أبو الخير باندهاش، والتفت حانقـاً إلى خير.

- أنا لست مشتركاً فيه... قال بخوف. اضاف : أصـلاً انا باقٍ غداً في المنزل.

- إياك يا خير. إياك... قال نذير محذراً. أضاف : كل شيء ولا يقولوا عنك من جماعة كلوب..

أبدى أبو الخير سأماً واضحاً وهو يغطي بيـده مثاءبـة عميقة ويفرك حوضه باليد الثانية : أهذا كل شيء.؟.

- قلت أطل عليكم أيضاً خمس دقائق. يبدو أنك نعسان يا صهري.!.

- مستوي. كنت على وشك، لولا انك شرفت.

- وأم الخير.؟.

- صارت الدنيا عندها نصف الليل. هل أوقظها لك.؟!.

- لا لا. ليس هناك داعٍ. جئت فقط أحـذر خيـر مـن الاستعراض...

فيك خير يا خالي.

انسحب نذير ومن خلفه أبو الخير ودلـف خيـر إلـى الغرفة فقرع الجرس، قال نذير بسرعة : سـأفتح البـاب، طالما أنا نازل.

نزل كالمطرود وصعد كالمأخوذ. نادى بانفعال وارتباك بمجرد وصوله المصطبة : أبو الخير. صهري. يا خير ايـن

أبوك.؟. نادي عليه. بسرعة خالي بسرعة. أبو يحيى العفيف قادم لزيارتكم.

١٢

نقل خير كتبه ودفاتره على عجل بينما نـذير يرحـب بالضيف الكبير ريثما يرتدي أبو الخير ثيابه. فـي الأثنـاء كانت أم الخير تطارد من مكان لمكان تساعدها ابنتاها فـي لملمة الأغراض وتوضيب الفراش وإخفاء الأوساخ وتحويـل الفوضى إلى ترتيب، وكأنهن يتعرضن للتفتيش.

اضطرب البيت وكأنه يتزلزل بمن فيـه. وكـل مـنهم يخالجه شعور خفي تجاه هذه الزيارة. فهيئ للتوأمين انهمـا مخطوبتان. واتخذ أبو الخير أمره على رفض بيع البيت بالغاً ما بلغ عرض أبي يحيى. ووجد نذير في هذه الزيارة تشريفاً له سيتمحور حوله الحديث في المصبغة لأيام وأشهرٍ وإربما سنين. أبو يحيى لا يزور بل يزار. فقط أم الخيـر انتابهـا إحساس غريزي بأن كارثة توشك على الوقوع. لـم يغـب طيف خير عن خيالها وهو يتربع على الأرض في مخـدعها ضاماً قبضتيه إلى صدره ووجهه مغمور بالكآبة والخشـوع والخضوع. تتعالى أنفاسه مع دعائه كالمكروب : يا رب. يا رب... وفجأة دوى آذان العشاء. انه على وضوء. إنه علـى وضوء. لقد استحم للتو. مـاذا يريـد ا أكثـر مـن هـذه

النظافة.؟. ماذا يريد ا أكثر من هذه الطهارة.؟. ماذا يريـد ا أكثر من هذه البراءة.؟. إنه عفيف أكثر من ابن العفيف. ويحتاج الحماية أكثر من الطفل الرضيع. إنه تائب. وا إنه تائب. سأتوب. سأتوب عن كـل شـيء يـارب. أكرمنـي بالخلاص هذه المرة وسأخلص اك كل مـرة. يـا رب لـم أحتجك من قبل كما أحتاجك الآن. يا رب، لمن ألجأ إن لـم ألجأ إليك.؟. يا رب إني بين يديك. إني صنع يديك. خلصني وسأخلص العمر إليك. أنت خلقتني وخلقته فاعدل بيني وبينه. خذني منه ولا تعطني إليه : وعامل حالك قاعد تصـلي.؟...
قال نذير بصوتٍ عالٍ بينما وقفت شقيقته بجانبه مذعورة.

لن يسمعه حتى لو خاطبه بمكبر الصـوت. ظـل فـي ركعته التي لم يقم سواها. استغرقه الدعاء فصـلى لحظتهـا على هواه متوحداً متواجداً صادق الاستغفار. كان بحاجـة أكثر من حاجته للمال والجاه والسلطان والفن والنسـاء. لـو قدمت له حواري الجنة لما لفتن انتباهه.لم يكن يريـد شـيئاً حينها إلا ا . شيئاً قلـيلاً مـن معجزاتـه تجعلـه يحـدث المعجزات. لفتة صغيرة منه حتى يتقرب إليه كثيراً ويعبـده طويلاً. مشيئة منه تمحي لحظة واحدة من عمرٍ كله شـقاء،

وليبق الشقاء وليبق العذاب وليبق الطغيان. فقط هذه اللحظـة يا رب التي لم أخلقها وإنما خلقت بها. هـذه اللحظـة التـي قيدتني الطبيعة بها وجرني الحرمان لها. هذه اللحظة الخائنة الفاجرة العاهرة التي تخضع الأحياء لها وتستمر الخطايا بها وتتمحور الحاجات حولها. إني أصلي صادقاً يا رب. أصلي تائباً يا رب : وتصلي أيضاً.؟..

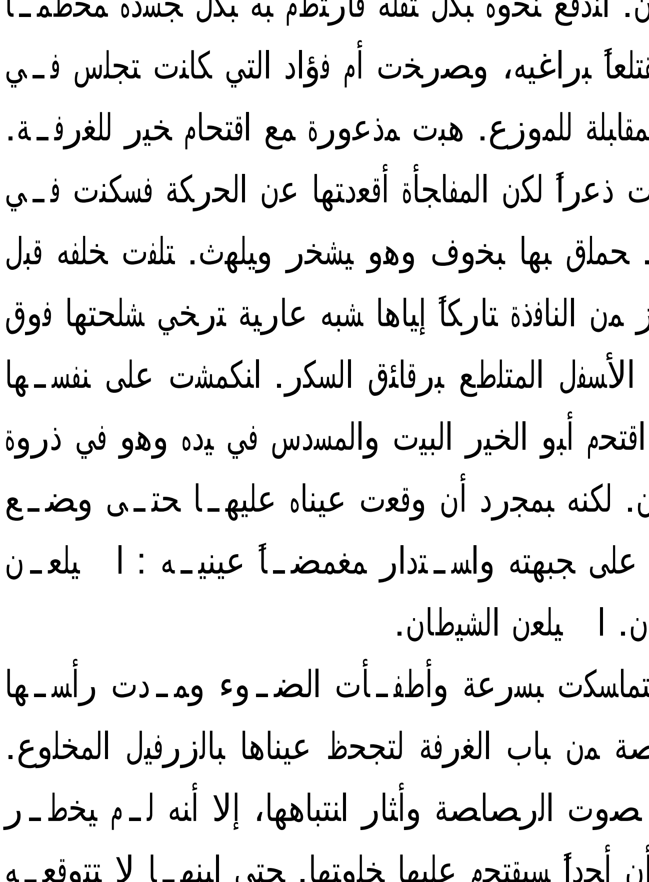
هذه المرة لم يكن صوت نذير حتـى يتغاضـى عنـه ويهمله وينساه. بل لم يكن صوتاً على الإطلاق. كان الرعب بعينه، فجحيم ا نار تعذب الأجساد أما استبداد الطغاة فإنـه يفرخ في النفس عذاباً من عذاب.

لم يتحرك من موقعه ولا تخلى عن ركعته وقد استسـلم لمشيئة أبيه. لكنه بمجرد أن ركله في كتفه حتى أفـاق مـن غيبوبة العبادة دون أن يقنط من بلوغ الرحمة : مـن شـأن ربك. من شأن ربك .أ يخليك يا ياأبي. ا يخليك. يا أمي، يا أمي.

حمله من كتفيه وضرب جبهته بجبهتـه فغـاب وعيـه لحظات وهو يرميه كالدمية. ركله في بطنه وجثا فوق صدره وهو يضربه حتى يصرعه، بينما خير يصيح ويولول ويـئن

ويخن ويذود بيديه وساقيه ويتلقى الضرب على ظهره وكتفيه بينما أمه وشقيقها ملتصقان بالجدار. ما أن ظهر أبو يحيـى بالباب، محاولاً التدخل حتى ثار أبو الخير أكثر. لم ينتظـر حتى يخاص خير منه، بل انزاح عنه الى الخزانـة كـالثور الهائج. عبث فيها باضطراب، وما ان تناول منهـا مسدسـه حتى رفع أبو يحيى راحته : لا لا. أبو الخير.

كان أبو الخير أسرع من كلامه وهو يهيء الطلقة فـي بيت النار، فقفز خير لا إرادياً باتجاه الباب، والتصـق أبـو يحيى لا شعورياً بنذير الذي التصق بأخته محتمياً بها. لمـا دوت الطلقة قرفصوا ثلاثتهم مغطـين رؤوسـهم بأيـديهم، وصرخت التوأمان من مخدعهما، وتدحرج خير في الموزع فشهقت أمه. لكنه انتفض واقفاً كمن به صرع، يقفز ويـتفحج ويقرفص وينط ويغطي براحته جدار رأسه وقد ذاب اللحـم في وجهه وانكمش فيه الجلد وتلون بالاصفرار وغارت عيناه واخشوشب أنفه، كأنه يهرب بجمجمة مقدسة، معاركاً نفسـه للوصول إلى الباب عراك غريق يحاول الإمساك بـالهواء. ودوت الطلقة الثانية فاندفع كالقذيفة عبر الباب وفي قفـزتين كان على المصطبة وأبوه يركض خلفه. هـبط الـدرج فـي



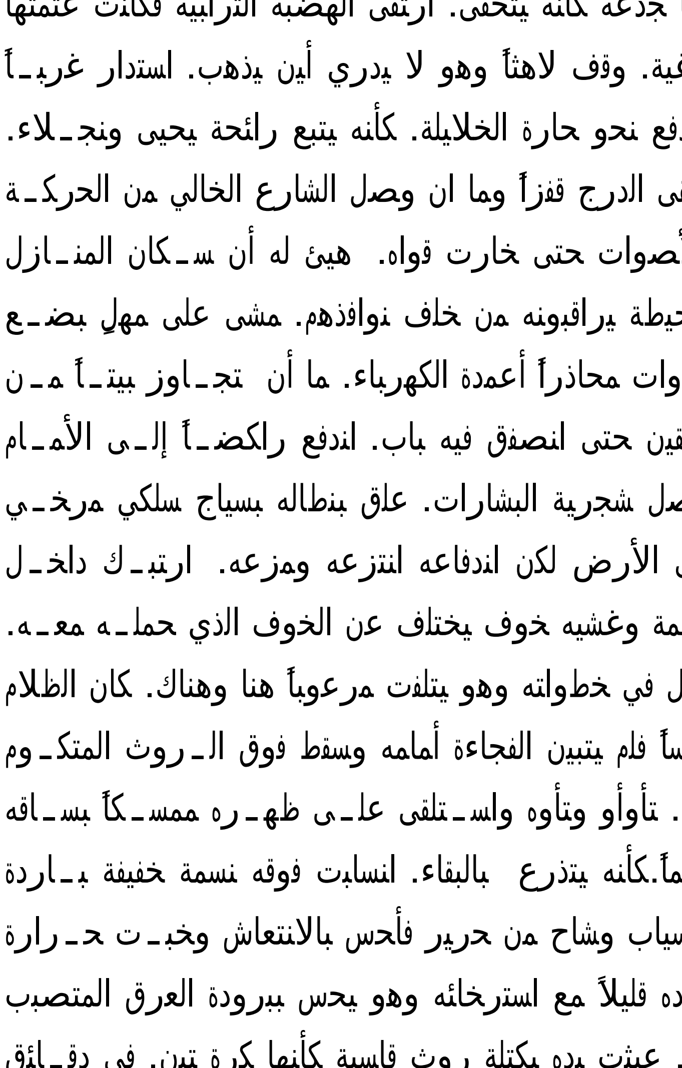
قفزات طويلة، وما أن وصل الطابق الثاني حتى سدد أبـوه نحوه رصاصة ثالثة جعلته يهرب عن المصطبة باتجاه بـاب الجيران. اندفع نحوه بكل ثقله فارتطم به بكل جسده محطمـاً قفله مقتلعاً براغيه، وصرخت أم فؤاد التي كانت تجلس فـي غرفة مقابلة للموزع. هبت مذعورة مع اقتحام خير للغرفـة. صرخت ذعراً لكن المفاجأة أقعدتها عن الحركة فسكنت فـي مكانها. حملق بها بخوف وهو يشخر ويلهث. تلفت خلفه قبل أن يقفز من النافذة تاركاً إياها شبه عارية ترخي شلحتها فوق نصفها الأسفل المتلطع برقائق السكر. انكمشت على نفسـها عندما اقتحم أبو الخير البيت والمسدس في يده وهو في ذروة الهيجان. لكنه بمجرد أن وقعت عيناه عليهـا حتـى وضـع ذراعه على جبهته واسـتدار مغمضـاً عينيـه : ا يلعـن الشيطان. ا يلعن الشيطان.

تماسكت بسرعة وأطفـأت الضـوء ومـدت رأسـها متلصصة من باب الغرفة لتجحظ عيناها بالزرفيل المخلوع. أجفلها صوت الرصاصة وأثار انتباهها، إلا أنه لـم يخطـر ببالها أن أحداً سيقتحم عليها خلوتها. حتى ابنهـا لا تتوقعـه

بعدما أسرت لزوجها بما ستفعله، فرتّب أن يصحبه لعـرض سينمائي ليلي.

همت بالخروج من الغرفة لكن فضـولها دفعهـا إلـى النافذة. نظرت إلى الأسفل مستترة بالعتمـة، فكـان مـدخل التسوية موحش مظلم : كيف نط من هنا.؟.

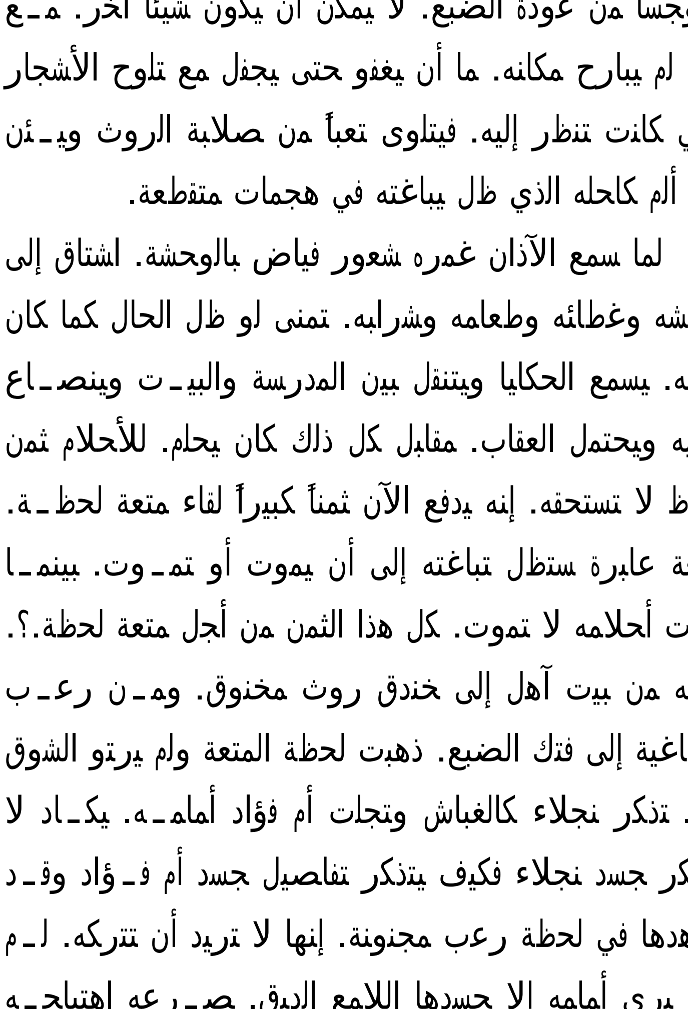
قفز خير واقفاً وارتطمت قدماه بالأرض مقرفصاً. فنجا جسده من الأذى ولم ينج كاحله من الالتواء. نهـض متألمـاً وهو ينظر للأعلى. نسي وقعته وخبا ألمه بمجرد مبارحتـه المدخل متلصصاً. ركض مرعوباً عبر الفسحة الترابية نحـو الزقاق. تجاوزه في دقيقة ووصل إلىالطريق المحاذي لبيـت العفيف. ظل مندفعاً إلى الجرف فوصل الحافة في لحظـات. انحدر السفح من جانبه وهو لا يلوي علـى شـيء. عبـر المنبسط الذي تتعرج أزقة مساكنه تعرج متاهة، فوصل إلـى الشارع العام بعد لأي. تسارعت أنفاسه وهـو يقـف علـى طرف الشارع الذي تنتصب فيه أعمدة الكهرباء بأضـوائها الشاحبة. تلفت يميناً ويساراً وهو يلهث ويرتعد فلمح عن بعد أضواء سيارة قادمة وفي الطرف الآخر صبية يلعبون الكرة. كان هناك بعض الدكاكين المضاءة. قطع الشـارع راكضـاً



ثانياً جذعه كأنه يتخفى. ارتقى الهضبة الترابية فكانت عتمتها طاغية. وقف لاهثاً وهو لا يدري أين يذهب. استدار غربـاً واندفع نحو حارة الخلايلة. كأنه يتبع رائحة يحيى ونجـلاء. ارتقى الدرج قفزاً وما ان وصل الشارع الخالي من الحركـة والأصوات حتى خارت قواه. هيئ له أن سـكان المنـازل المحيطة يراقبونه من خلف نوافذهم. مشى على مهلٍ بضـع خطوات محاذراً أعمدة الكهرباء. ما أن تجـاوز بيتـاً مـن طابقين حتى انصفق فيه باب. اندفع راكضـاً إلـى الأمـام فوصل شجرية البشارات. علق بنطاله بسياج سلكي مرخـي على الأرض لكن اندفاعه انتزعه ومزعه. ارتبـك داخـل الأكمة وغشيه خوف يختلف عن الخوف الذي حملـه معـه. تمهل في خطواته وهو يتلفت مرعوباً هنا وهناك. كان الظلام دامساً فلم يتبين الفجاءة أمامه وسقط فوق الـروث المتكـوم فيها. تأوأو وتأوه واسـتلقى علـى ظهـره ممسـكاً بسـاقه متألماً.كأنه يتذرع بالبقاء. انسابت فوقه نسمة خفيفة بـاردة كانسياب وشاح من حرير فأحس بالانتعاش وخبـت حـرارة جسده قليلاً مع استرخائه وهو يحس ببرودة العرق المتصبب منه. عبثت يده بكتلة روثٍ قاسية كأنها كرة تبن. في دقـائق

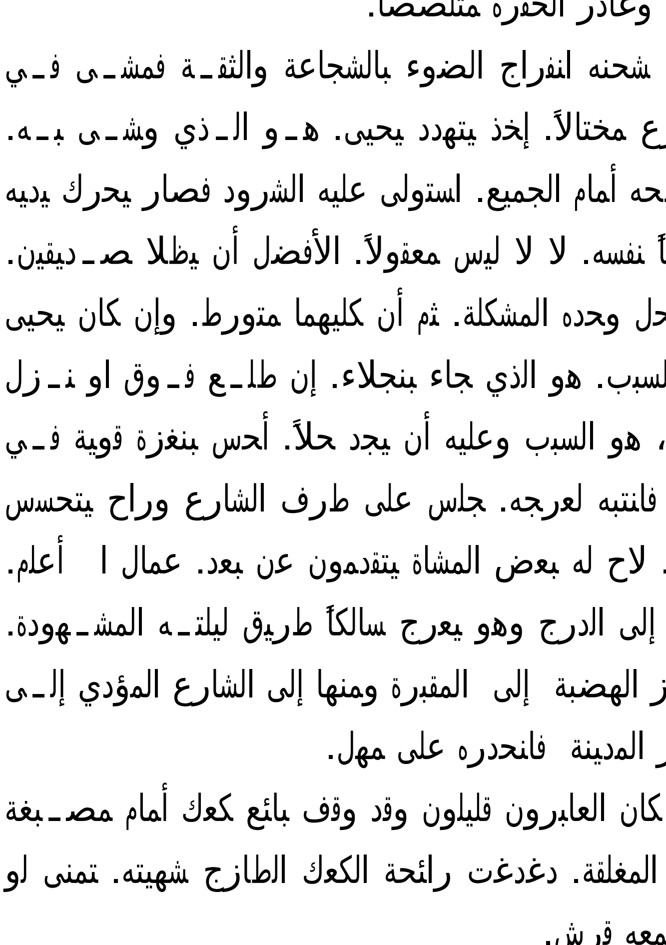
هدأت أنفاسه وارتخت عضلاته وسكن الألـم فـي مفاصـله واعتاد أنفه رائحة الروث. شبك راحتيه خلف رأسـه وراح يحملق بالأشجار المتلوحة من فوقه مثل أشباح داكنة.

مع تقدم الوقت، صار للهواء صوت وتنامت البرودة في الجو. ومن حين لحين يتحرك في ظهره تيار برودة سـريع يصيبه بالقشعريرة. انكمش على نفسه متكوراً لوقت طويـل دون ان يحلق خياله أو يشعر بالنعاس. ظـل يسـتعيد فـي مخيلته ما جرى في ليلته مرة إثر مرة وكأنه لم يخبـر فـي الحياة سواها. تذكر كل شيء إلا دعاءه. انقلب على ظهـره مبتسماً وهو يتذكر جسد أم فؤاد. لكـن ابتسـامته تلاشـت وانكمشت أعضاؤه وأحس بالبرودة تشل حركته وهو ينظـر إلى عينين متقدتين فوق الحفرة وقد مد الحيوان رقبتـه إلـى أقصى امتداد وانفرج فكاه المزبدان كأنه يبتسم. فقد إرادتـه تماماً فلم يتحرك ولا هم بالهرب او خطر بباله المقاومـة. تمكن الرعب منه فانقضى وقت لا يمكن احتسـابه قبـل أن يتحرك الحيوان بكسلٍ ويبتعد عن الحفرة. لم يكن كلبـاً ولا ذئباً. كان ضبعاً بالتأكيد، مع أنه لم يشاهد ضـبعاً ولا فـي الصور.كان الوقت المتبقي أكثر طولاً، فحتى الصباح ظـل



متوجساً من عودة الضبع. لا يمكن أن يكون شيئاً آخر. مع هذا لم يبارح مكانه. ما أن يغفو حتى يجفل مع تلوح الأشجار التي كانت تنظر إليه. فيتلوى تعباً من صلابة الروث ويئن من ألم كاحله الذي ظل يباغته في هجمات متقطعة.

لما سمع الآذان غمره شعور فياض بالوحشة. اشتاق إلى فراشه وغطائه وطعامه وشرابه. تمنى لو ظل الحال كما كان عليه. يسمع الحكايا ويتنقل بين المدرسة والبيت وينصاع لأبيه ويحتمل العقاب. مقابل كل ذلك كان يحلم. للأحلام ثمن باهظ لا تستحقه. إنه يدفع الآن ثمناً كبيراً لقاء متعة لحظة. متعة عابرة ستظل تباغته إلى أن يموت أو تموت. بينما كانت أحلامه لا تموت. كل هذا الثمن من أجل متعة لحظة.؟. نقلته من بيت آهل إلى خندق روث مخنوق. ومن رعب الطاغية إلى فتك الضبع. ذهبت لحظة المتعة ولم يرتو الشوق لها. تذكر نجلاء كالغباش وتجلت أم فؤاد أمامه. يكاد لا يتذكر جسد نجلاء فكيف يتذكر تفاصيل جسد أم فؤاد وقد شاهدها في لحظة رعب مجنونة. إنها لا تريد أن تتركه. لم يعد يرى أمامه إلا جسدها اللامع الدبق. صرعه اهتياجه



غصباً عنه مع تخلل غشاوة الضوء ستارة العتمة، فاشتهى أم فؤاد وغادر الحفرة متلصصاً.

شحنه انفراج الضوء بالشجاعة والثقـة فمشـى فـي الشارع مختالاً. إخذ يتهدد يحيى. هـو الـذي وشـى بـه. سيبطحه أمام الجميع. استولى عليه الشرود فصار يحرك يديه محدثاً نفسه. لا لا ليس معقولاً. الأفضل أن يظلا صـديقين. لن يحل وحده المشكلة. ثم أن كليهما متورط. وإن كان يحيى هو السبب. هو الذي جاء بنجلاء. إن طلـع فـوق او نـزل تحت، هو السبب وعليه أن يجد حلاً. أحس بنغزة قوية فـي قدمه فانتبه لعرجه. جلس على طرف الشارع وراح يتحسس قدمه. لاح له بعض المشاة يتقدمون عن بعد. عمال ا أعلم. ابتعد إلى الدرج وهو يعرج سالكاً طريق ليلتـه المشـهودة. تجاوز الهضبة إلى المقبرة ومنها إلى الشارع المؤدي إلـى مركز المدينة فانحدره على مهل.

كان العابرون قليلون وقد وقف بائع كعك أمام مصـبغة خاله المغلقة. دغدغت رائحة الكعك الطازج شهيته. تمنى لو كان معه قرش.

أطل خاله من كوة في البـاب الحديـدي وعلامـات الكرى في وجهه المنتفخ.كأنه يتقنع بالشمع. تقزز منه. تعمق قرفه عندما جحظت عينا خاله دهشة وعبق وجهه بالسـخط وهو يصرخ به : ماذا تفعل هنا.؟.

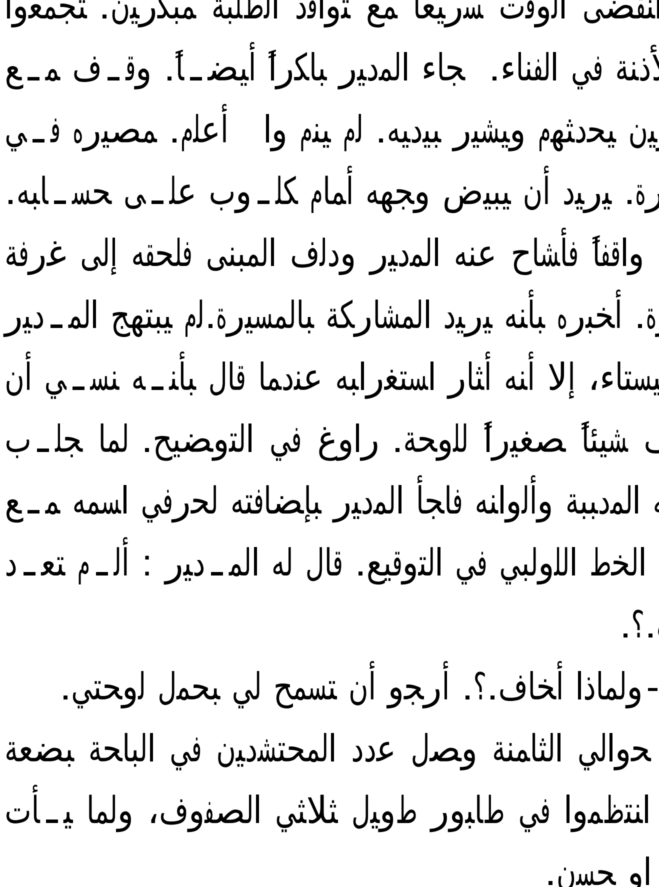
- صباح الخير بالأول.

- ا لا يصبحك ولا يمسيك. انقلع من هنـا قبـل أن أطلب لك الشرطة.

- خليني أغسل بالأول... وخجل من نفسه.

- إن لم تنقلع يا ويلك. أو أقول لك انتظـر. انتظـر... قالها وهو يرميه بنظرات ماكرة لئيمة واغلق الكوة. تقهقـر بضع خطوات قبل أن يستدير راكضاً بأقصى سرعته ناسـياً عرجه ومحتملاً ألم قدمه. صعد الشارع الذي هبطه بلا طائل واتجه إلى المدرسة.

كان باب المبنى مفتوحاً والأذنة يدخنون في الفناء.كأنهم المشرفين على المدرسة. لا يعيش الكبار من غير صـغار، فلماذا يبطشون بهم. اشتهى سحبة سيجارة فراود نفسه علـى الانضمام إليهم إلا أنه اتجه نحو السور واقتعد الأرض.كـان الجوع يقرصه فضغط أمعائه بيديه.



انقضى الوقت سريعاً مع توافد الطلبة مبكرين. تجمعوا مع الأذنة في الفناء. جاء المدير باكراً أيضـاً. وقـف مـع الآخرين يحدثهم ويشير بيديه. لم ينم وا أعلم. مصيره فـي المسيرة. يريد أن يبيض وجهه أمام كلـوب علـى حسـابه. نهض واقفاً فأشاح عنه المدير ودلف المبنى فلحقه إلى غرفة الإدارة. أخبره بأنه يريد المشاركة بالمسيرة.لم يبتهج المـدير ولم يستاء، إلا أنه أثار استغرابه عندما قال بأنـه نسـي أن يضيف شيئاً صغيراً للوحة. راوغ في التوضيح. لما جلـب ريشته المدببة وألوانه فاجأ المدير بإضافته لحرفي اسمه مـع امتداد الخط اللولبي في التوقيع. قال له المـدير : ألـم تعـد تخاف.؟.

-ولماذا أخاف.؟. أرجو أن تسمح لي بحمل لوحتي.

حوالي الثامنة وصل عدد المحتشدين في الباحة بضعة مئات انتظموا في طابور طويل ثلاثي الصفوف، ولما يـأت يحيى او حسن.

تحرك الطابور حوالي الثامنة والنصف، يتقدمه المدير وعدد من الأساتذة ومن خلفهم أحـد الطلبـة يحمـل طـبلاً موصولاً بحزام حول عنقه وبجانبه خير وطالب آخر يحملان

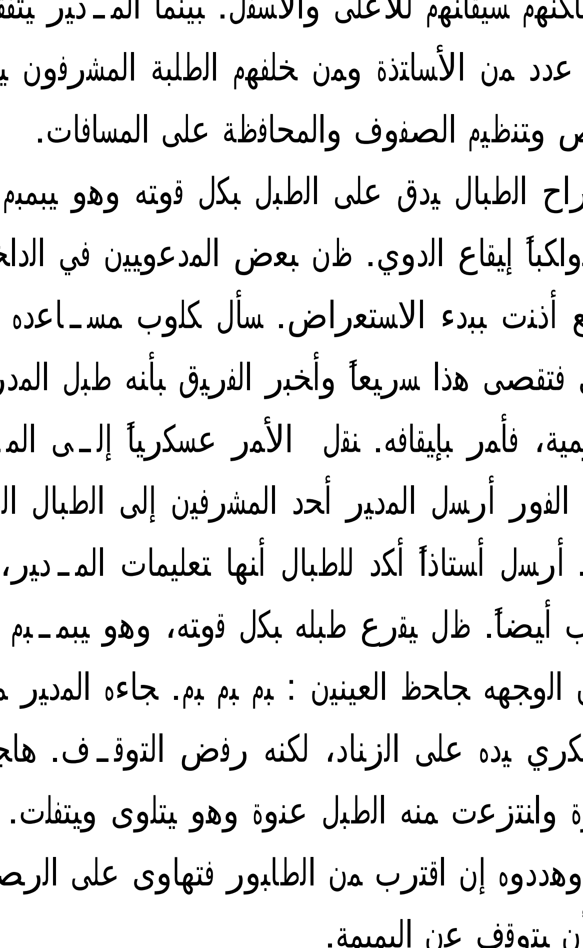
اللوحة مغطاة بورق التجليد. يتبعهم أعضاء الفرق الرياضية يحمل بعضهم الأعلام وآخرون يحملون اللافتات ملفوفة على عصيها. بينهم هاني ونجم.

بمجرد وصولهم إلى منبسط شـارع الهاشـمي أوعـز المدير بفرد اللافتات ، وانتزع خير ورفيقه ورق التجليد عن اللوحة ورفعاها إلى مستوى أكتافهما، وابتدأ حامـل الطبـل يقرع عليه بقوة فيدوي صوته كالانفجار. قـال لـه خيـر : طرشتنا. خفف يدك... قال الطبال دون أن يتوقف : المـدير يريد مارش انجليزي...

كانت السيارت تتوقف أثناء مرورهم وتشـخص بهـم أعين العابرين، وعلى الأسطح زغردت بعض النسـوة دون أن تعرفن الأسباب.

عندما اقتربوا من حي الضباط، صخب دوي الطبـل، فخرج الكثير من الأولاد والنسـوة إلـى شـرفات المنـازل وأسطحها وتعالت منها الزغاريد.

ما ان وصلوا إلى بوابة المعسكر التي ارتفع فوقها آرمة معدنية كتب فيها " معسكر الفتح "، حتـى اسـتدار المـدير نحوهم وصرخ : خطوة تنظيم... وقف السائرون يحركـون



في أماكنهم سيقانهم للأعلى والأسفل. بينما المـدير يتفقـدهم برفقة عدد من الأساتذة ومن خلفهم الطلبة المشرفون يدعون للتراص وتنظيم الصفوف والمحافظة على المسافات.

راح الطبال يدق على الطبل بكل قوته وهو يبمبم مـن فمه مواكباً إيقاع الدوي. ظن بعض المدعويين في الداخل أن المدافع أذنت ببدء الاستعراض. سأل كلوب مسـاعده عمـا يجري فتقصى هذا سريعاً وأخبر الفريق بأنه طبل المدرسـة الحكومية، فأمر بإيقافه. نقل الأمر عسكرياً إلـى المـدير، وعلى الفور أرسل المدير أحد المشرفين إلى الطبال الذي لم يمتثل. أرسل أستاذاً أكد للطبال أنها تعليمات المـدير، فلـم يستجب أيضاً. ظل يقرع طبله بكل قوته، وهو يبمـبم معـه محتقن الوجهه جاحظ العينين : بم بم بم. جاءه المدير مغتاظاً والعسكري يده على الزناد، لكنه رفض التوقـف. هاجمتـه جمهرة وانتزعت منه الطبل عنوة وهو يتلوى ويتفلت. جروه بعيداً وهددوه إن اقترب من الطابور فتهاوى على الرصـيف دون أن يتوقف عن البمبمة.

حل الهتاف محل الطبل فـرددت الحنـاجر مـن وراء هتّافين مكلفين من قبل المدير، بالتهليل والتعيـيش والتأييـد

لكلوب. راح بعض آخر يصفقون ويسحجون أيديهم وينشدون دونما تكليف او تحضير. استهواهم الطرب بمثل ما استهوت البمبمة الطبال.

لما أذن الحرس للمسيرة بالدخول، تقدموا فـي مشـية عسكرية، كابر خلالها خير أن لايظهر عرجه مـتحملاً فـي ذلك الألم والعناء. دخلوا المعسكر الذي كان أشبه بغابة بهية خضراء، وكانت العديد من مدارس الجيش ومدرسة حكومية أخرى قد وصلت قبلهم واتخذوا مواقعهم في الساحة الكبيـرة المحاطة بأشجار باسقة.

بمجرد عبور فريق الجوفة الرياضي أشار المشـرفون على بقية الطابور بالانحراف إلى طـرف الباحـة المواجـه للمنصة حيث يقف المتفرجون والمشـجعون. حـاول خيـر الاستئثار باللوحة، إلا أن رفيقه رفـض، فتنازعاهـا حتـى تخلخل بروازها. صرخ رفيقه بأعلى صوته : أستاذ أستاذ...

جاء المدير مهرولاً وهو يضرب على فمـه بـأطراف أصابعه. بادره خير بصرامة وحدة : لوحتي وأريـد حملهـا وحدي.

- حسناً. حسناً. من غير فضائح ا يستر عليكم. يكفينا الطبال.

لفتت اللوحة انتباه الفرق الرياضية والواقفين في المنصة من مدنيين وعسكريين، وبخاصة شقيق المدير، الـذي كـان ينقل نظره بين وجه الفريق بجانبه ووجهه في اللوحة.

تقدم المدير نحو المنصة في مشية عسكرية مدروسـة حير أداؤها وتناسق حركاتها العسكريين قبل المدنيين. همس شقيقه في أذن الفريق شيئاً، جعله يشرق ببهجة فاستقبل المدير بترحاب وصافحه بحـرارة ، كـذلك فعـل مـع الأسـاتذة المرافقين، وتقدم خير الآخرين مكـابراً علـى قدمـه التـي ازدادت إيلاماً.

رفع اللوحة أمام كلوب، بينما المدير ينقل نظـره بـين اللوحة والفريق وهو يبتسم مغتبطاً، لكن ابتسـامته تلاشـت بعدما أجفل على الصيحة التي أطلقها خير معيشـاً الفريـق. ردد الجميع من ورائه بمن فيهم هاني ونجم : يعيش كلـوب باشا... رددها مراتٍ ثلاث وهو يدور باللوحة يميناً ويساراً قبل أن يقدمها للفريق، الذي تسلمها والغبطة تملأ وجهه.

قال المدير معرفاً : الرسام... وود لو يصـفعه علـى وجهه بسبب الفقرة الدخيلة التي لم تكن بالحسبان. ماذا سيظن به الفريق إذا لاحظه يجفل من الصرخة وهـو الـذي تقـدم بمشية عسكرية تربك جحافلاً من الأعداء.

- ما اسمك.؟... سأل الفريق برطانة بدوية لذيذة، بينما مساعدوه يتناولون اللوحة.

- خير الجليلي... قالها وهويقف متهيئاً.

- هل تريد أن تصبح من جنودي.؟.

- طول عمري من جنودك سيدي.

نظر إلى المدير وقال : أريده عندي في الإعدادية...

بمجرد أن صافحه حتى همس شيئاً في أذن شقيق المدير الذي هز رأسه موافقاً وهمس بدوره إلى رجل مـدني يقـف خلفه، فأشار هذا إلى عسكري لحق بخير الذي ابتعـد فـي خطوات عسكرية يتبعه أعضاء فريق الجوفة الرياضي بعـد مصافحتهم للفريق بالتعاقب.

أخبره العسكري أن يأتي لمقابلة مدير مدرسة الفتح بعد الانتهاء من الاستعراض. استغرب الأمر، وهيـئ لـه أنـه سيعرض عليه الانتقال إلى مدرسته. اتخذ أمـره أن يوافـق

فوراً. أحس بالنشوة والدفء وهوينضم إلى المحتشدين بينمـا توزعت الفرق الرياضية في الباحة حسب تصنيفاتها.

لما انتهت الاستعدادت، حمل مدير مدرسة الفتح مكبـراً للصوت وتقدم خطوات أمام المنصة حيث اسـتراح الفريـق ومرافقوه فوق مقاعدهم الوثيرة. ابتدأ المدير خطبته بالقول : هذا يوم الفتح.

أحس خير بأنه المقصود. زاغت عيناه وتلفت حواليـه ونظر للأعلى وهو يحس بالتسوية تهـوي فوقـه. فتلقاهـا بصرخة استنجاد مدوية : يعيش كلوب... ردد الطلبـة مـن ورائه فأعاد الهتاف مرات ثلاث أعادت له أنفاسـه وخنقـت أنفاس مدير الفتح الذي لم يبدأ خطبته بعد.

وصل يحيى بعد انقضاء نحو سـاعتين علـى ابتـداء الألعاب. تلقاه خير كمن يتلقى منقذه وغريمه. أمسـكه مـن قميصه وصرخ به : أين للآن.؟.

تفلت من قبضته وهو يقول بارتباك : كيف، أين للآن.؟. مليح أني جئت.

- أعرفت ماذا جرى معي.؟.

هز رأسه وبلل شفتيه : حكى لي أبي.

بلع خير ريقه وارتخت أجفانه وشفتاه كأنه موشك على البكاء : أطلق علي ثلاث رصاصات.

- المهم. ماذا ستفعل الآن .؟.

- وماذا سأفعل..؟!.لا بيت ولا عائلة. ويعلم ا مـاذا سيفعل بي أهل صاحبتك.

-انها ليست صاحبتي.

صرخ به خير : انت الذي أحضرتها.

صرخ يحيى بالمقابل : وأنت الذي فتحها.

تلفتا حواليهما وقد جذبا الانتباه أكثر من الاستعراض.

- دعنا نذهب إلى مكان آخر... قال خير وهو يمسـكه من ذراعه ويمشي معه بعرجٍ واضح : ماذا حصل لرجلك.؟.

- خلّيها لربك.

انزويا بعيداً بين الأشجار. راح خير يروي مـا جـرى معه ويحيى يصغى له بشغفٍ وانتباه. كأنه لم يسمع القصـة من أبيه. لما جاء دوره أفاض في وصف مشـاعره عنـدما سمع بقدوم أبي نجلاء لكنه ظل متماسكاً ولم يعترف بحـرف واحدٍ، حتى بعدما صفعه أبوه للمرة الأولى في حياته. صعق خير وتحولت نقمته على أبيه إلى نقمة على أبـي يحيـى :

ثلاث طلقات غير الرفش واللاطم وكاد الضبع يأكلني، وأنـت صفعة واحدة يا ابن الحمار...

تلاسنا وتماسكا وعلا صراخهما مع مرور عسكري في الجوار فقبض عليهما واقتادهما، قابضاً علـى ثيابهمـا مـن الوراء، إلى داخل مبنى مظاهره عسكرية وأمرهما بالانتظار قرب غرفة المدير محذراً إياهما من المغادرة.

كان خير قد نسي تماماً دعوته لمقابلة المدير، فذكره بها بمجرد عودته من الاسـتعراض، مبـدياً إعجابـه باللوحـة واستغرابه من عراكه مع يحيى، الأمر الذي يستحقان عليـه العقاب. إلا أن اللوحة تشفع له، لاسيما وأن الباشـا أمـر أن يصرف له عشرة دنانير، ناوله إياها عداً ونقداً بينهـا ثلاثـة دنانير قطعاً معدنية. وضعها خير في جيب ساقه الموجوعـة وقد نسي كل شقائه وآلامه. غـادر المبنـى متأبطـاً ذراع يحيى : ربي يحبني يا صاحبي.

١٣

دخنا سجائر خصوصي وأكلا مشـاوياً وتحليـا كنافـةً وارتويا تمراً هندياً. لعبا الطاولة في المقهى وحضـرا فـي السادسة عرضاً سينمائياً. في كل مكان حلّوا فيه كان خيـر يروم إراحة قدمه التي يشتد ألمها مع الوقت. حتـى أصـبح غير محتملاً بعد العرض السـينمائي لاسـيما وأنـه صـار مصحوباً بالقشعريرة.

عرجا على فندقٍ طاب صاحبه هوية شخصية. عرجـا على آخر وآخر دون جدوى. الهوية قبل الأجـرة. لا تحـل النقود كل المشاكل. اقترح يحيى أن يذهبا لأبي هـاني إلا أن خير رفض بإصرار : أتريدني أن أصبح قصـة. أيـاك أن تخبر أحداً بما صار، حتى ولا الشلة.

- لماذا.؟... تساءل يحيى باستغراب، وأضاف : وماذا فعلت يا أخي.؟...

رمقه خير بحنق فاستدرك بسرعة : قصـدي نصـف الطلاب متمشكلين مع أهاليهم.

- المهم أين سأنام.؟.لم أعد أستطيع المشي.

استند خير على طرف جدار وحاوص يحيى متلفتاً هنـا وهناك. اقترح بعد لحظات أن يذهبا إلى شارع العرصـات، فأمسكه خير من قبة قميصه وهزه بوهن : وهل بقـي فـي شيء يقوم.؟.أريد أن أقعد يا بني لآدم...

- لنذهب إلى مقهى أبي شعبان...

- ماشي... قال خير، فتراجع يحيى بسـرعة : إنسـى إنسى. فورنا دمه آخر مرة...

أخيراً استقلا سيارة إلى جبل الجوفة قاصدين الصخرة. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة. أثار يحيى خلال الطريق مخاوف خير. ماذا سيقولون للشلة لو وجدوهم هناك. وطلب من السائق التوجه بهم إلى حيث دكان سعود.

كانت السدة على ضيقها واختناقها بالدخان، آمنة مريحة أكثر من الأماكن الأخرى التي ارتاداها. ساعدت صـواريخ الحشيشة بتخفيف الألم في قدم خير، كما أنعشه الخدر وأبهجه وأجاعه، فاقترح يحيى أن يذهبا إلى فوالٍ قرب تقاطع الجوفة والإشرفية. تناولا فيه سندويشات فلافل معرمة بالشطّة فالتهبا من الأعلى والأسفل. عرض على خير أن يذهبا إلى النـور

فتجاهله خير أولاً، ثم صرخ به : يا بني آدم، شايفني قـادر أمشي.؟.

تردد يحي وهما يغادران المطعم فـي الكشـف عـن المواخير التي يعرفها ويعتبر نفسه متميزاً بها. لكن النقود في جيب خير كانت تثقل بالرنين في أذنيه : أنا الذي سيدبر لك منامة. حتى تعرف من هو يحيى...

اتجه به إلى زقاق قريب من التقاطع تتجـاور البيـوت على جانبيه وفي نهايته بناية تطل بطوابقها الثلاثة على جبل الجوفة. قرع يحيى باباً في الطابق الأرضي، وأدار مقبضـه فانفتح عن غرفة كالموزع. فيها أربعة أبواب غير المـدخل. تحتوي سريرين مفردين أمام جدارين متقابلين وعـدد مـن الكراسي الخشبية المتصدعة. كان زاهر يتمدد علـى سـرير متكئاً برأسه على ذراعه وبجانبه منفضـة معدنيـة مـلأى بالأعقاب وعلبة سجائر متجعدة وكبريتة. بجانبه على حافـة الفراش جلست زوجته شهيرة مرتدية روب حمـام متهـدلاً جمعته حول جسدها بشريط قماشي أحمر. وجلست شـقيقتها نصيرة بجلابيتها البنية على حافة السـرير الآخـر بجانـب زوجها شقيق زاهر.

ابتسموا بإشراق عندما قدم لهم يحيـى صـديقه خيـر، وبمجرد أن استقرا على كرسيين قال زاهر ليحيى : ما هـو دخانك اليوم.؟..

لكن يحيى خيـر، فأعطـاه بارتبـاك وانفعـال علبـة الخصوصي. رماها من مكانه فتلقفها زاهر وزوجتـه معـاً. تناول منها سيجارة ورمى واحدة لشقيقه وحشر العلبة تحـت المخدة.

- وصاحبك هذا معك في المدرسة.؟... سـأل زاهـر وزوجته تشعل له السيجارة.

- معه... أجاب خير.

لم يكن زاهر يشبه شـقيقه إلا فـي بدانتـه. كمـا أن الشقيقتين لا تشبهان بعضهما إلا ببيـاض البشـرة وقصـر القامة. مضت لحظة صمت دخّن خلالها زاهر بشهية بينمـا زوجته تدلك له وركه وتبتسم له طيلة الوقت. تأملهـا خيـر بشرود وقد عاوده خدر الحشيشة بعدما قيضه الأكل والمشي. كانت جميلة غضة ممتلئة.

أجفل وكأنـه اسـتيقظ عنـدما سـأله زاهـر : ايـن وصلت.؟...

اختطف نظرة إليه ولم يحر جواباً، فقال يحيى مازحاً : عند شهيرة.

- ليتفضل. شهيرة جاهزة ونصيرة جاهزة.

- ما رأيك.؟... سأله يحيى.

- ماشي. شهيرة شهيرة.

ابتسمت بإشراق ومالت على زوجهـا وقبلتـه بغبطـة ورضى.

- وأنت.؟.. سأل زاهر يحيى، بينما تلمظـت شـقيقتها شفتيها بارتباك ونظر إليه زوجها من أسفل عينيه.

قالت شهيرة على الفور : مع نصيرة.

- ربما يريدك أنت أيضاً.

- الاثنين معي.؟.. قالت باستهجان... أضـافت بغـنج ودلالٍ : حرام عليك.

حسم يحيى الأمر وهو يسأل خير : قلت بأنـك تريـد واحدة للصبح.؟...فنظروا إلى خير مندهشين.

- لا يوجد عندنا للصبح... قال زاهر بغطرسة.

-لماذا.؟. كل شيء بسعره.

- افترض جاءنا ضيوف غيركما.؟...

- ها هي نصيرة.؟.

- يعني، انـت لا تريـدها.؟... سـأل زوج نصـيرة بامتعاض.

- طبعاً أريدها لكن مرة واحدة وأغادر.

انقد خير زاهر أجرة الاثنين بما في ذلـك مبيتـه مـع شهيرة ولحق بها عبر الباب المجاور لسرير زاهر إلى مخدع فيه سرير مزدوج متقعر الفراش متلبد الغطاء سميك الوسادة. على الجدار مسامير عديدة علقت في بعضها ثيـاب نسـائية ورجالية. وغطيت النافذة ببطانية مهترئة ثبتت من طرفيهـا بمسمارين بارزين.

أقفلت شهيرة الباب بالمفتاح بمجرد ولوجـه، وجلسـت على الفراش متوسدة ساقيها من فوق الروب، بينمـا أخفـى خير قلقه بالتوجه إلى النافذة. رفع طرف البطانية قليلاً كمـن يستكشف وحملق في مساكن الجوفة من تحته وقلبه يخفق.

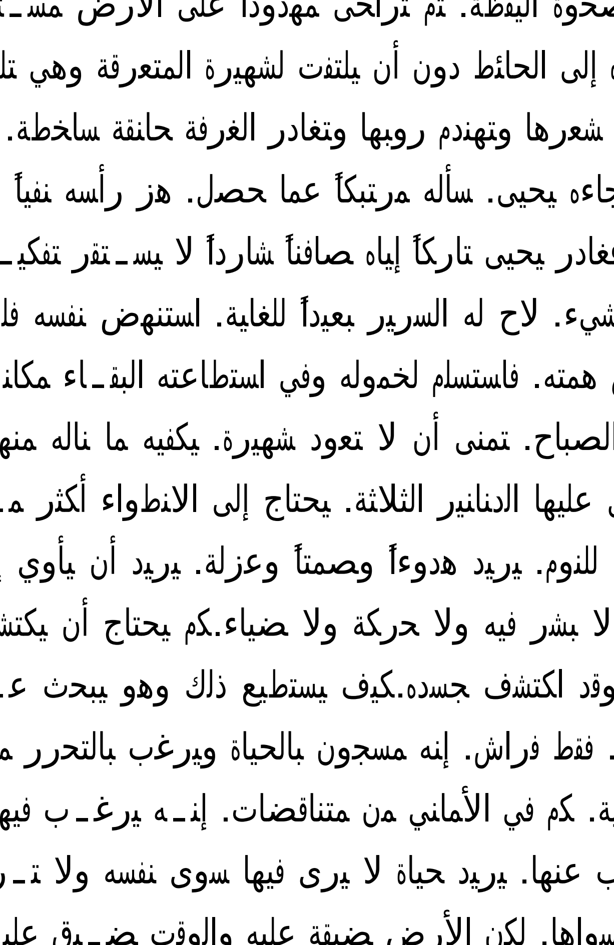
- أعجبك المنظر.؟. سألت باستخفاف.

همهم ولم يقل شيئاً، فاستلقت على جانبها متكئة برأسها على ذراعها : إيه. معك الليل بطوله.

في لحظات جمح فيه تحدٍ مجنون. تماماً مثلما حصـل معه وهو يعيش كلوب، فنـزع السـتارة بعنـف وعصـبية وداخليته تصرخ بأبيه : تعال شوف. أسرعت شهيرة نحوه : ماذا فعلت يا مهستر.؟.. دفعها بمرفقه فترنحت وكادت تقـع لولا أنها استندت على حافة النافذة، وقبـل أن تـتمكن مـن الوقوف أو الانزلاق او الانزياح تمكن منها قابضـاً علـى وسطها بإحدى ذراعيه ورافعاً روبهـا بـالأخرى لينكشـف جسدها العاري من تحته وهي تقاوم وتتفلت وتصرخ دون أن يوقفه القرع على الباب او يحد منه نداء زاهـر واستفسـار يحيى او استجداء شهيرة.

خبا القرع مع خبو صراخها وهي تسـتكين متصـنعة البكاء، بينما غاب خير عن نفسه وعيناه شاخصتان بالظلمـة من تحته وكأنه في عتمة نفسه يفتض عذارى الجوفة واحـدة إثر أخرى وعلى مرأى من الأعين الصغيرة الضـيقة التـي تومض خلف النوافذ المسكونة بالطغاة المستبدين. أحس مـع ازدياد غلمته برفعة مكانته وسطوة أرادته ومنعة جوانبه كما أحس بقوة أطرافه وصلابة عضلاته ومتانة أعضائه، وسمع استعجال شهيرة استجداء وبكاءها استرحاماً، وتهيأ له أبـوه

عبداً عنده مثلما عاش العمر مستعبداً له. فهو يشـكّله كمـا يشكّل شهيرة، فيلويـه ويرفعـه ويسـقطه. يقسـو عليهـا فيسترحمه، يقبض عليها فيتفلت منه. وفي ذروة نشوته يزهو بالانتصار وأبوه مهزوم مندحر ملطخ بالعار. انسحاق شهيرة من تحته انسحاق للجوفة بكل ما فيها من اسـتبداد وطغيـان واستعمار، وقد امتزجت في غيبوبته شـهوة الانتقـام بلـذة التعذيب وعزة الطغيان. حتى تطغى أصـوات الآلام علـى لعلعة الرصاص ويطلب النجاة في شهيرة كما طلبهـا فـي الأكمة الحرجية ويستكين في فائجتها لاهثاً متعرقاً غير مبالٍ بعيون الضباع التي تومض في المساكن العالية علو الأشجار في أكمة البشارات. تلك اللحظـة اسـتولدت لذتـه العاتيـة صرخته الخارقة، فغدا الصوت مقياساً للفحولة وسلاحاً للبقاء وارتقاء بالطفولة. في لحظتها تمكنت منه الطبيعة لتصبح كل ذرة فيه قضية وكل مساماته سبلاً للحرية، فتوحدت كينونتـه في جموحٍ مطلقٍ انتفى فيه الشعور بالخطيئة والفضيلة، فـإذا بشدة متعته لا مدتها تجلياً لوجوده بغض النظر عـن امتـداد زمانه او حدود مكانه. تلك اللحظة كانت تجسيداً للذة حركية، باطنها كوني وظاهرها جمالي ودافعها غريزي، امتصت منه



انفعاله وخلصته في ذروتها من عذابه وآلامه، فاجتاحه في القمة سكون مريح أدنى بقليل من غيبوبة النشوة وأبعد بقليل عن صحوة اليقظة. ثم تراخى مهدوداً على الأرض مستنداً بظهره إلى الحائط دون أن يلتفت لشهيرة المتعرقة وهي تلعن وتضم شعرها وتهندم روبها وتغادر الغرفة حانقة ساخطة.

جاءه يحيى. سأله مرتبكاً عما حصل. هز رأسه نفياً ولم يزد، فغادر يحيى تاركاً إياه صافناً شارداً لا يستقر تفكيره على شيء. لاح له السرير بعيداً للغاية. استنهض نفسه فلم تنهض همته. فاستسلم لخموله وفي استطاعته البقاء مكانه حتى الصباح. تمنى أن لا تعود شهيرة. يكفيه ما ناله منها وحلال عليها الدنانير الثلاثة. يحتاج إلى الانطواء أكثر من حاجته للنوم. يريد هدوءاً وصمتاً وعزلة. يريد أن يأوي إلى جحرٍ لا بشر فيه ولا حركة ولا ضياء.كم يحتاج أن يكتشف نفسه وقد اكتشف جسده.كيف يستطيع ذلك وهو يبحث عن فراش. فقط فراش. إنه مسجون بالحياة ويرغب بالتحرر منها بالحرية. كم في الأماني من متناقضات. إنه يرغب فيها وراغب عنها. يريد حياة لا يرى فيها سوى نفسه ولا ترى نفسه سواها. لكن الأرض ضيقة عليه والوقت ضيق عليه

ونفسه تضيق على كليهما. لو يستطيع الهروب إلى لا مكـان ولا زمان. وهل يعقل أن يعيش المرء دون مكان ومن غيـر زمان.؟. يلعن أبو الحشيشة الأولاني.

تناهى لسمعه صوت حديث صاخب. ا أعلم منذ متـى يتشاحنون..؟. أصاخ السمع فلم يستوعب إلا إيقـاع صـوت يحيى. أذناه تدويان بالطنين. تهيأ له وجه زاهـر المكتنـز يعبق الدخان من فمه وأنفه. أكيد قضى علـى البكيـت. لـو يرسل له سيجارة. أجفل على اقتحام شهيرة الباب بعصبية.

- خلعت الباب.

- وا ... تساءلت باستخفاف. مضـت إلـى السـرير وانسابت تحت الغطاء معطية ظهرها لناحيته.

حملق بها لبعض الوقت. أمعقول يا ناس أنه سينام مـع امرأة في فراش واحد. أحس بالفرح والبهجة، فسألها بنزق : ألا تريدين أن أنام معك.؟.

- من يمنعك.؟!. السرير يتسع لأربعة.

تخيل نفسه في السرير مع أربعة آخرين. حفرة الروث أهون. نهض بتثاقل فأحس بساقيه الخدرتين تغوصـان فـي الأرض. استند على الجدار ولم يجرؤ علـى النظـر إلـى

النافذة. لو لم ينتزع الستارة. عرج بقدمه وهـو يتجـه إلـى السرير. انساب بهدوء تحت الغطاء معطياً ظهره لشـهيرة. تسأسات بانزعاج.

أرخى أعضاءه وأجفانه علّه ينام، فلم يسـتطع. تحـرك الألم في قدمه وأصابه تراجع الخدر بالضيق. تقلب أكثر من مرة. قالت دون أن تتحرك : وبعدين.

- لا أقوى على النوم.

- وما ذنبي. أريد أن أنام. هيا، نم وخلصني.

سكن لبعض الوقت وهو يحس بالغطـاء يطبـق علـى أنفاسه، ورائحة الفراش كريهة مقرفة أكثر من حفرة الروث. كم يشتاق لفراشه. لا يجد المرء استقلالية إلا في فراشه. هذا إذا كان ينام وحده. فكيف به إذا كانـت شـريكته عـاهرة. العاهرة للافتراش وليست رفيقة فراش. النسـاء جمـيعهن هكذا.؟. وإلا لماذا ينام أبو يحيى وأمه كلٌ في جناح مسـتقل كما يدعي يحي.؟. وينام أبوه وأمه في سرير واحد، حتى بعد أن يضربها. كيف ترضى.؟. إنـه لا يرضـى : لا يمكـن أرضى... قال محتداً وهو يهب قاعداً ويشد الغطـاء إليـه،

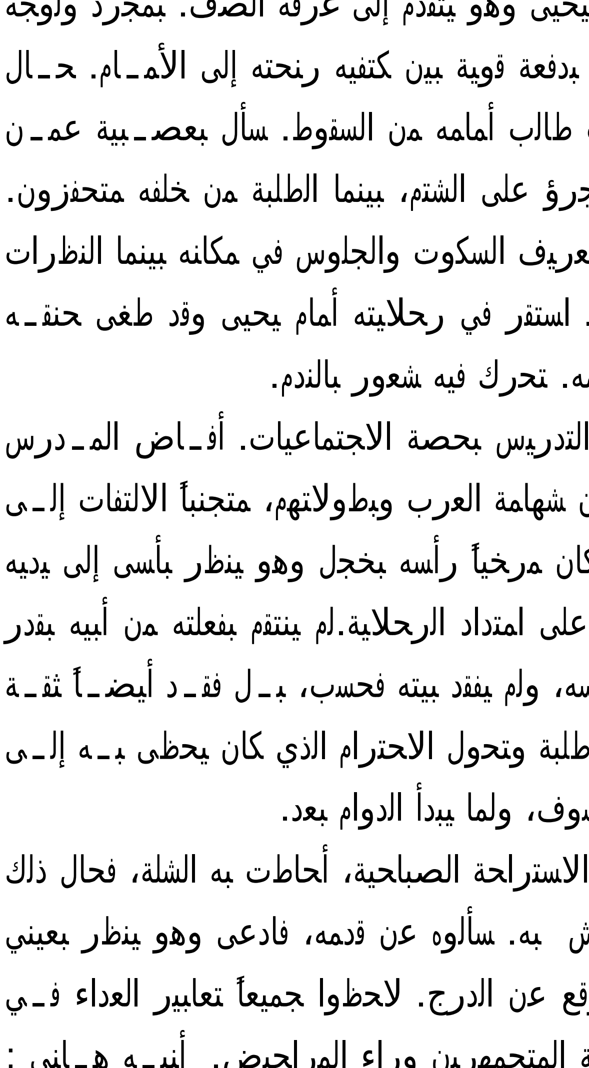
فاستدارت رافعة جسدها قليلاً. مـدت إصـبعها محـذرة :
مستحيل مرة أخرى ولو دفعت عشر ليرات.

ترجل عن السرير ساحباً الغطاء معه. فرشه أمام الجدار وتمدد على نصفه مغطياً جسده حتى الرأس بالنصف الثـاني وهو يرتعد من القشعريرة.

١٤

عاد يحيى إلى البيت متسللاً وانتهى إلى فراشه دون أن يفتقده أحد خلال غيابه او يتفقده بعد عودته. في الصباح لـم ينضم لمائدة الإفطار ولا دعي إليها. أعدت له أمه سندويشات متنوعة جاءته بها الخادمة فحملها معه إلى المدرسة. وجـد خير يقف في عزلة مستنداً إلى السور والارتباك واضح فـي وجهه. سأله عما به فأشار برأسه إلى جمهرة مـن الطلبـة المعروفين بحزبيتهم يتمشورون في الجوار ويرمقونه بسخط وحقد، فيطرفش أنظاره عنهم بارتباك. حتى فؤاد لم يقتـرب منه ولم يحيه ولو من بعد. ربما سمع بتعييشـه لكلـوب ولا يريد أن يتورط معه او أن أمه أخبرته كيف كـان وضـعها عندما اقتحم عليها الباب. قال ليحيـى بقلـق أن الحـزبيين يكيدون له وقد يتحرشون به وهو بالكاد يستطيع الوقوف على قدمه. تهددهم يحيى وطمأنه. سيأتي هاني وحسن ونجم بعـد قليل. لكنهم جاؤوا مع قرع الجرس.

عرج متألماً إلى الطابور فلم يعفه الأستاذ المناوب مـن الوقوف بالطابور. بل زجره عندما تلكأ في مواكبـة الطلبـة وهم يتقدمون إلى غرف التدريس. في الممشى الداخلي اتكـأ



على ذراع يحيى وهو يتقدم إلى غرفة الصف. بمجرد ولوجه الباب أحس بدفعة قوية بين كتفيه رنحته إلى الأمـام. حـال تشبثه بثياب طالب أمامه من السقوط. سأل بعصـبية عمـن دفعه ولم يجرؤ على الشتم، بينما الطلبة من خلفه متحفزون. طلب منه العريف السكوت والجلوس في مكانه بينما النظرات تكاد تلتهمه. استقر في رحلايته أمام يحيى وقد طغى حنقـه على ألم قدمه. تحرك فيه شعور بالندم.

ابتدأ التدريس بحصة الاجتماعيات. أفـاض المـدرس بالحديث عن شهامة العرب وبطولاتهم، متجنباً الالتفات إلـى خير الذي كان مرخياً رأسه بخجل وهو ينظر بأسى إلى يديه المشابكتين على امتداد الرحلاية.لم ينتقم بفعلته من أبيه بقدر ما أساء لنفسه، ولم يفقد بيته فحسب، بـل فقـد أيضـاً ثقـة الأساتذة والطلبة وتحول الاحترام الذي كان يحظى بـه إلـى ازدراء مكشوف، ولما يبدأ الدوام بعد.

خلال الاستراحة الصباحية، أحاطت به الشلة، فحال ذلك دون التحرش به. سألوه عن قدمه، فادعى وهو ينظر بعيني يحيى أنه وقع عن الدرج. لاحظوا جميعاً تعابير العداء فـي وجوه الطلبة المتجمهرين وراء المراحيض. أنبـه هـاني :

اللوحة واللافتات أهون ألف مرة من تعييش كلوب...كأنـه يبرر مشاركته في الاستعراض. أثنى نجـم علـى ذلـك : لخمتني لما رحت تصيح، يعيش يعيش..

ظل خير يبرر اضطراره للتعييش وهو متوجس أن يزل لسان يحيى ويفضح قصتهما مع نجلاء. أطربه رنين الجرس معلناً انقضاء الاستراحة. قال ليحيى وهو يتعكز على ذراعه باتجاه الطابور : أنت رجل حقيقي... أحس يحيى بالغبطـة، فأضاف خير بمرحٍ : لا يوجد أحسن منك وأنت ساكت.

- وعندما أتكلم.؟... سأل يحيى بجدية وصرامة.

- بدون زعل.؟.

- بدون زعل.

- أنا شخصياً، أحس وأنت تتكلم كأنك تشخّ.

نتر يحيى ذراعه بعصبية وغضب : هكذا إذن..

- قلنا بدون زعل.

رمقه بنظرات غاضبة واستدار عنه، فسـأله متحببـاً : أتتركني وحدي.؟... لم يجبه وابتعد عنه.

اتجه متأنياً إلى الطابور واتجه يحيـى مهـرولاً إلـى المراحيض. تبول وهو ينقل نظره بين الكتابات الفاحشة على

الجدران. أضاف إليها بحروف كبيرة مزدوجة ملفتة للنظر " ابن العفيف فتح بنت المكنوز" عاد إلى الطـابور منشـرحاً وأسند بذراعه خير وهما يتجهان إلى غرفة التدريس.

في الحصة، ابتعد مدرس الدين عن الموضوع مركـزاً الحديث على الطاغوث ومحذراً مـن أعوانـه. علّـق أحـد الطلبة : مثل خير الجليلي..

بلل خير شفتيه ولازم الصمت. كان يدرك ان المـدرس يبيت له العقاب أكثر من الطلبة. تدخل يحيى محاولاً تغييـر الموضوع : أستاذ. ما هو عقاب الزنى فـي الإسـلام.؟... ونغز خير بإصبعه فغمره شعور بالارتياح لتدخله الذكي.

تقبل الأستاذ هذه النقلة بسرور. كـذلك الطلبـة الـذين يمتّعهم سماع هذه الأحاديث، ما دار منها عن المحرمـات او المحللات. لكن تدخلاً آخر من يحيى قضى على هذه المتعة. فما أن جاء الأستاذ على ذكر الآية " الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين ا " حتى أحس خير بنغزة شديدة في ظهره. التفت وتبادل ويحيى الابتسامة : خير تعال هنا... قال الأسـتاذ بنبـرة حازمـة صارمة غاضبة.

باغته بصفعه بمجرد اقترابه منه ، وقبل أن يستيقظ من صدمتها باغتته ثانية : وهل في القرآن ما يضحك.؟.. قـف هناك... مشيراً إلى زاوية الجدار. وإلى يحيى : اذهب إلـى المدير، اجلب الفلقة... متوخياً معاقبته نفسياً قبل أن يعاقبـه جسدياً.

لم يبال المدير عندما أخبره يحيى بالأمر وسلّمه الفلقـة بطيب خاطر. ارتبك يحيى وهو يتسلمها وفـي اعتقـاده أن المدير سيمنعها عنه وينجد خير. لكن المدير لم يكـن يجـد غضاضة في أن يصب المعارضون جام غضبهم على خيـر طالما انتهى الاستعراض.

أحس خير وهو يقف منبوذاً في الزاوية قرب اللوح أنه يستحق العقاب ويحتاجه. فامتثل للأسـتاذ دونمـا تـردد أو احتجاج عندما طلب منه نزع حذائه ووضع قدميه في الفلقة. طلب من يحيى وأحد الطلبة المتـدينين أن يرفعاهـا مـن طرفيها بعد حزم قدمي خير بحبلها المجدول، وانهال الاستاذ عليها بعصا طويلة غليظة. جاهد خير لحماية قدمه المتألمـة بقدمه المعافاة دون أن يتأخأخ او يئن او يسترحم مما أغـاظ المدرس فواصل ضربه بعنف وشراسة. أثارت قسوته شـفقة

البعض رغم النقمة التي يحسون بها، ووصل القهر في نفس يحيى أقصاه، فاحتج محتداً : يكفي أستاذ... وأفلـت طـرف الفلقة. قال متحدياً : أنا الذي أضحكته وضحكت معه أيضاً... تصنع المدرس عدم سماعه وهو يتولى لاهثاً عن خير دونما تعليق.

أثناء الانصراف مشى خير متكئاً على ذراع يحيـى، قال له مؤنباً : كله منك... فقال يحيى : المهم. كم بقي معك من النقود.؟.

أنفق كل ما بحوزته، مطمئناً إلى تعهد يحيى بأن يـدفع عنه أجرة مبيته عند زاهر. تركه حوالي السابعة طالباً منـه انتظاره على الهضبة ريثما يتدبر المبلغ من أمه.

انتظره نحو الساعتين. ولما فقد الأمل من عودته اتخـذ أمره على التصرف وحده. ذهب إلى بيـت زاهـر فقابلـه باستياء بسبب مضايقته لشهيرة بالأمس. لكنه لم يبد ممانعـة في مبيته معها لقاء سبعة دنانير. سأله خير عن أجرة المبيت وحده. حملق به زاهـر مندهشـاً ثـم قـال لـه بسـخرية واستخفاف : روح عمي. روح. شوف لك محل ثـاني تنـام فيه.

غادر ناقماً على يحيى الذي ورطه وعلى نفسـه لأنـه صرف كل ما بحوزته. لم يكن أمامه سوى التوجه لشـجرية البشارات.

لم يجرؤ على دخولها فواصل إلى شارع الجيلاني ومن هناك تراءى له الجامع الكبير. انتابه التـوتر وهـو يهـبط المنحدر بسرعة غير مبالٍ بعرجه. دخل الجامع لاهثاً فأثـار التساؤل في وجوه المأتوين الذين توزعوا في أركانٍ عديدة.

اتخذ له ركناً قصياً واضعاً حذاءه بين ظهره والجـدار شابكاً ذراعيه حول ركبتيه وهو يحملق برقش السجاد. ظـل ساكناً متوجساً في موقعه إلى أن انطفأت الأضواء باسـتثناء لمبتين في جدارين متقابلين. تمدد على جانبـه، فبـدت لـه رحاب المسجد واسعة موحشة مرعبة، وانبعثت فيـه خشـية أخذت بالتنامي مع الوقت. هيئ له أن الملائكة سيأتونه بـين لحظة وأخرى لمحاسبته على فواحشه وتدنيسه المسجد الذي أوى فيه دون تطهر ووضوء. استولى عليه الشعوره بالذنب والخطيئة فلم تواته الأحلام. أجفل على صوت صارخ بجانبه فهب مذعوراً وتلفت في الرحاب الموحشـة حولـه. كـان السكون شاملاً. ظل يجفل وهو بين اليقظة والنـوم، ويهـب

كالملسوع إذا تناهى لسمعه صوت أو أحس بحركة. فيتهيأ له حيناً أن المأتوين يزحفون نحوه وأحياناً يقفون فوقه متحفزين. غافلته غفوة خاطفة، أجفلته بقوة وقد هيئ له أن ضربة جبارة أسقطت السقف عليه فهب مذعوراً وعزف عـن الاسـتلقاء مؤثراً النوم جالساً. أخذ يحملق بتطـاريز السـجاد وتـداخل ألونها الفاقعة وكأنها شرايين انفجرت بالدماء. أحس بغليـان في دمائه وتذكر يحيى. لماذا يكلف نفسه ويعود إليـه وقـد جعله يستنفد نقوده.؟. هذا هو ابن الأغنياء. تصاعدت نقمتـه مع مجانبة النوم له وصار يتطلع بشغف لانقضـاء الوقـت ومجيء الصباح. ستكون النهاية بينه وبين يحيى. لن يسمح له باستغلاله وقطيعته حتى ينام في الجامع كالمشردين.

جاء يحيى متأخراً وقد ابتدأت الحصـة، فسـأله أثنـاء الخروج إلى استراحة الصباح لماذا لم يعد إليـه بـالأمس... قال يحيى متأسياً : أسكت. وجدت عندنا أهل نجلاء... زالت نقمته واستيقظت مخاوفه وانعقد لسانه وهو يسـرع متشـبثاً بذراع يحيى إلى ركن منزوٍ، لكنه قبل أن يسـمع منـه مـا جرى، جاء نجم راكضاً وبادر يحيى بلهفة : هل رأيـت مـا كتب عنك في المرحاض.؟.

ارتبك يحيى وخاوص بعينيه وارتجـف فمـه قبـل أن يصرخ بعصبية مفتعلة وهو يحاوص في مكانه متحفزاً : ماذا كتب عني أولاد الكلب.؟.

١٥

في الليلة التالية لإطلاق النار، استجوب أبو يحيى ابنـه ثانية. ألح عليه أن يعترف إن كان هناك أحد آخر غير خير. توعده إن كان يكذب او أنه أخفى عنه أمراً. شدد عليـه أن يلصق التهمة بخير مهما كان ادعاء نجلاء.

في اليوم التالي، استشـار محاميـه وقابـل المحـافظ واستأنس برأي أحد القضاة. نصحوه جميعاً بحـل المشـكلة ودياً.

عندما وصل يحيى في المساء، وبخـه علـى تـأخره وتوعده إن غادر البيت طالباً منه أن يظل متهيئاً. يتوقـع أن يعود إليه إبي نجلاء في أي وقت، فجاءه بصـحبة زوجتـه. وبينما قادتهما الخادمة إلى الصالة، اتجه أبـو يحيـى إلـى غرفة ابنه وتوعده من جديد إن كان يخفي عنه شيئاً. ثم نادى على زوجته طالباً منها مرافقته، فتبعته مرتبكة وهو يتقدم إلى الصالة بثقة واعتداد.

بعد نحو ساعة من المراوغـة، طلـب مـن الخادمـة استدعاء يحيى، فجاءه متردداً مرتجفاً. لكن بشاشة أبيه منحته بعض الثقة : تعال يحي. أقعد...

امتثل على الفور بينما أم نجلاء تحدجه بشراسة ويرمقه زوجها بحقدٍ ومرارة وقد جلست أم يحيى مطرقة : أحكي لنا كل شيء ومثلما حصل بالضبط. ولا تغضـبني وتخفـي أي شيء... واسترخى في مقعده واضعاً ساقاً فوق الأخرى.

- ماذا أحكي.؟... سأل يحيى متلعثماً.

- الجماعة يقولون بأنك...

قاطعته أم نجلاء : لسنا نحن الذين نقول. ابنتنا نجـلاء هي التي تقول.

بسرعة قال يحيى : لا دخل لي. خير هو هو... انعقد لسانه وهو ينظر لأبيه بخوف.

- يعني أنت مسكين،لم تفعل شيئاً.؟. قالـت أم نجـلاء بتكشيرة.

تدخل أبو يحيى : اسمعي جارتنا. الولد لا يكذب.

- إذن ابنتنا تكذب.

- لم أقل ذلك جارتنا. لكن... قاطعته بسـرعة : لكـن ماذا.؟... أضافت بحدة : ابنك اعتدى على شرف ابنتنا.

بسرعة قال يحيى : لا وا يا أبي. إنه خيـر... قالهـا متصنعاً تعابير البكاء.

سألته أم نجلاء بحزن : لو كـان لـديك أخـت، فهـل يرضيك أن يعتدي أحد عليها.؟.

تلعثم يحيى بالرد، فقال له أبوه بحنان : اذهب يا ابنـي إلى غرفتك. ولا تخرج الليلة. أريدك لأمرٍ غير هذا.

بسرعة غادر يحيى وظل يتلصـص خـارج البـاب : اسمعي جارتنا. إذا افترضنا افتراضاً ان ابني يكـذب وأنـه وخير هما الفاعلان... قاطعته بسرعة : هو وحده الفاعل.

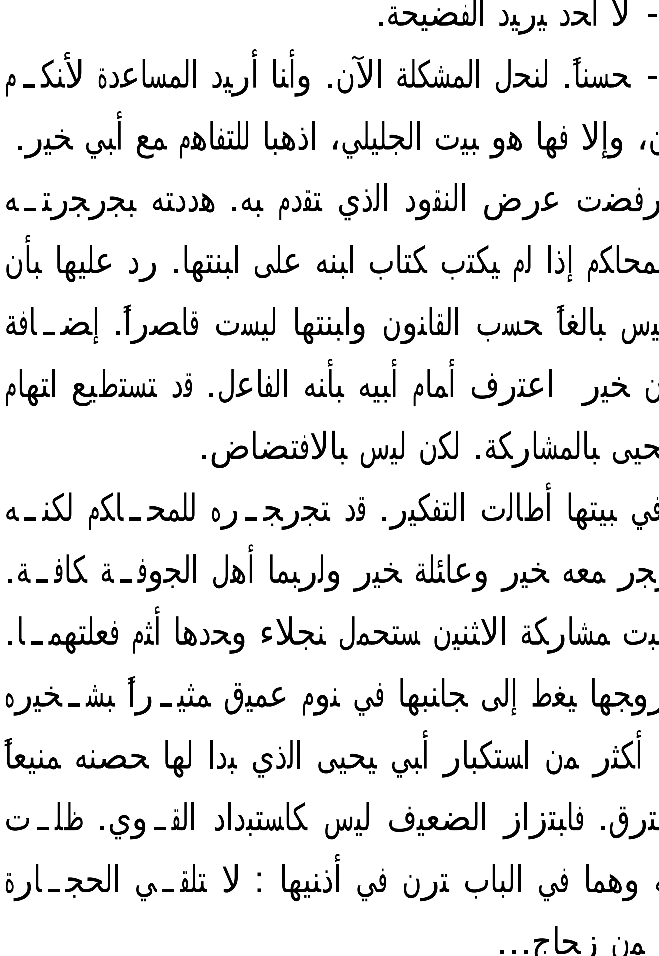
- كيف تستطيعين اثبات ذلك طالما أن خيـر الجليلـي اعترف بفعلته.

انكمشت أم نجلاء وازداد اصفرار وجههـا وشـحوبه، بينما أطرق زوجها وراح فمه ينتفض، وظلت أم يحيى جامدة كالكنبة : يا جارتنا، أنا أحاول أن احذرك. انت تعـرفين أن خير هو الفاعل وتريدين إقحام ابني...

- أنا لا أقحمه. ابنتي اعترفت أنه الفاعل.

- ولم تعترف عن خير الجليلي... عقّب ساخراً.

ارتبكت ونظرت إلى زوجهـا الـذي ازداد إطراقـاً... فأضاف ابو يحيى بهدوء : اسمعي جارتنـا. هـل تريـدين السترة أم الفضيحة.؟.

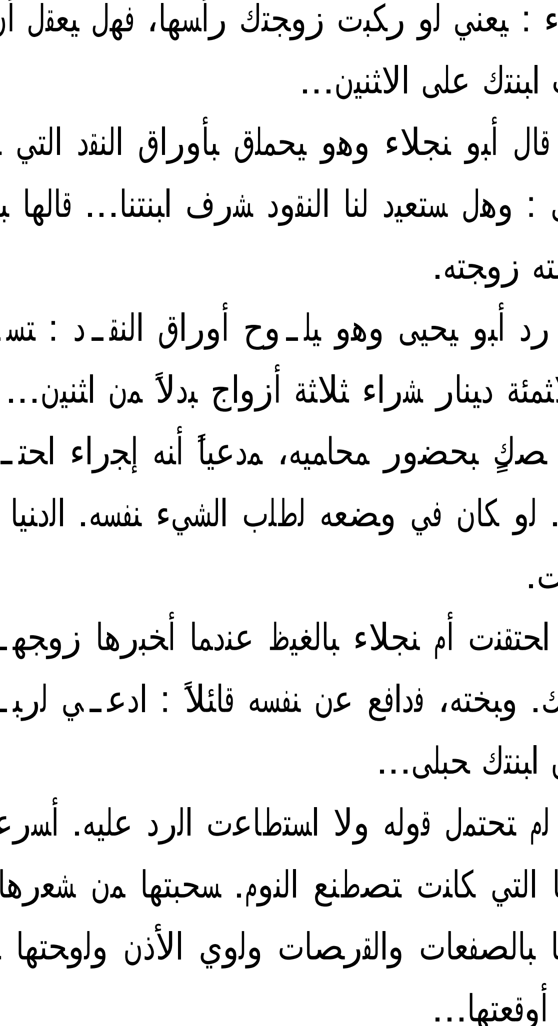


- لا أحد يريد الفضيحة.

- حسناً. لنحل المشكلة الآن. وأنا أريد المساعدة لأنكـم جيران، وإلا فها هو بيت الجليلي، اذهبا للتفاهم مع أبي خير.

رفضت عرض النقود الذي تقدم به. هددته بجرجرتـه إلى المحاكم إذا لم يكتب كتاب ابنه على ابنتها. رد عليها بأن ابنه ليس بالغاً حسب القانون وابنتها ليست قاصراً. إضـافة إلى أن خير اعترف أمام أبيه بأنه الفاعل. قد تستطيع اتهام ابنه يحيى بالمشاركة. لكن ليس بالافتضاض.

في بيتها أطالت التفكير. قد تجرجـره للمحـاكم لكنـه سيجرجر معه خير وعائلة خير وربما أهل الجوفـة كافـة. وإن ثبت مشاركة الاثنين ستحمل نجلاء وحدها أثم فعلتهمـا. كان زوجها يغط إلى جانبها في نوم عميق مثيـراً بشـخيره نقمتها أكثر من استكبار أبي يحيى الذي بدا لها حصنه منيعاً لا يخترق. فابتزاز الضعيف ليس كاستبداد القـوي. ظلـت كلماته وهما في الباب ترن في أذنيها : لا تلقـي الحجـارة وبيتك من زجاج...



في اليوم التالي حسم أبو يحيى الأمر نهائياً مـع أبـي نجلاء : يعني لو ركبت زوجتك رأسها، فهل يعقل أن يكتـب كتاب ابنتك على الاثنين...

قال أبو نجلاء وهو يحملق بأوراق النقد التي يعدها أبو يحيى : وهل ستعيد لنا النقود شرف ابنتنا... قالها بحرفية ما أوصته زوجته.

رد أبو يحيى وهو يلـوح أوراق النقـد : تسـتطيعون بالثلاثمئة دينار شراء ثلاثة أزواج بدلاً من اثنين... أبصـمه على صكٍ بحضور محاميه، مدعياً أنه إجراء احتـرازي لا أكثر. لو كان في وضعه لطالب الشيء نفسه. الدنيا فيها حياة وموت.

احتقنت أم نجلاء بالغيظ عندما أخبرها زوجهـا بـأمر الصك. وبخته، فدافع عن نفسه قائلاً : ادعـي لربـك أن لا تكون ابنتك حبلى...

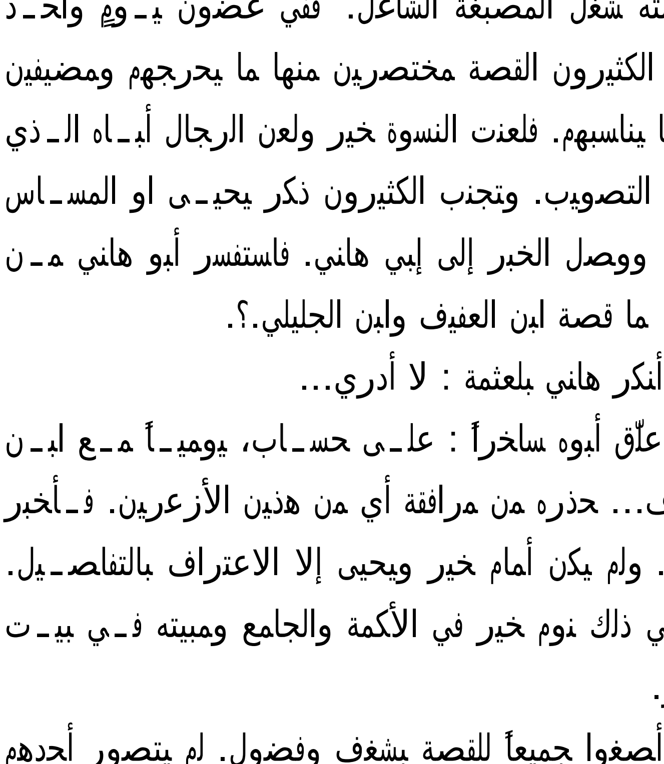
لم تحتمل قوله ولا استطاعت الرد عليه. أسرعت إلـى ابنتها التي كانت تصطنع النوم. سحبتها من شعرها وانهالت عليها بالصفعات والقرصات ولوي الأذن ولوحتها من ثيابها حتى أوقعتها...

لم تعد نجلاء إلى مدرستها منذ تلك الحادثة. كما لم تعد تظهر في الطرقات او تجلس في النافذة وإن ظلـت تتأمـل مفاتنها بالمرآة وتخاطب نفسها بدلال لا يخلو من العتاب.

١٦

لم يكن تأثير طلبة المدرسة كتأثير زبـائن المصـبغة. فبينما اقتصر تناول الطلبـة للموضـوع علـى مـا كتـب بالمرحاض، تدفقت التفاصيل الدقيقة لما جرى علـى لسـان نذير وجلسائه إلى البيوت والـدكاكين والزبـائن وعـابري الطريق. لاسيما وأن عناد روج للقصة بين الصبيان. فعرفوا منه التفاصيل التي كان يسمعها من أمه وزوجهـا أو زبـائن المصبغة الذين لا يملّون الرواية ولا التكرار. وكـان نـذير يروي القصة بتفاصيل مثيرة، معدلاً فيها تارة ومضيفاً لها ما يتفتق عن مخيلته حيناً آخر. فيسمع له الآخرون باهتمام دون ان يخالجهم الشك بمصداقيته باعتباره شاهد العيان. فـنجلاء هبلة معتوهة وإلا كيف تستسلم لولد مقرف مثل خير. وأحياناً يقسم أنها كانت ثيب واستدرجت خير للإيقاع به لأنه غشـيم وساقط، ففعل بها وهو يظن أنه الذي افتضها. ويؤكد أنه لولا تدخله وتقييده حركة أبي الخير لما نجا خير من القتل : يظل ابن أختي يا جماعة.

عندما عرف عن اللوحة التي رسمها خيـر وتعييشـه لكلوب ازداد كرهاً له وحنقاً عليه وغـدا عهـره وعقوقـه



وخيانته شغل المصبغة الشاغل. ففي غضون يومٍ واحد تناقل الكثيرون القصة مختصرين منها ما يحرجهم ومضيفين لها ما يناسبهم. فلعنت النسوة خير ولعن الرجال أباه الذي أخفق التصويب. وتجنب الكثيرون ذكر يحيى او المساس بأبيه، ووصل الخبر إلى إبي هاني. فاستفسر أبو هاني من ابنه : ما قصة ابن العفيف وابن الجليلي.؟.

أنكر هاني بلعثمة : لا أدري...

علّق أبوه ساخراً : على حساب، يومياً مع ابن العفيف... حذره من مرافقة أي من هذين الأزعرين. فأخبر الشلة. ولم يكن أمام خير ويحيى إلا الاعتراف بالتفاصيل. بما في ذلك نوم خير في الأكمة والجامع ومبيته في بيت زاهر.

أصغوا جميعاً للقصة بشغف وفضول. لم يتصور أحدهم أن يقدم يحيى، رغم ادعاءاته وتبجحه وتباهيه، على افتضاض عذراء. فكيف بخير الذي لم يكن بنظرهم يجرؤ على الاستمناء. ظل يحيى يتبجح بصلابته وعدم اعترافه بالجرم أمام أبيه، ويكرر ويعيد أن أباه دفع لأبي نجلاء ألف دينار كما يدفع هو نصف دينار. رغم أن عائلة المكنوز لن

تحصد سوى الفضيحة لو لجأوا إلى المحاكم. كان خير يحثه على الحديث، تارة بسؤال وتارة بتعليقٍ او تعقيب، وهو يزهو معه في عنجهيته ويحس بودٍ كبير تجاهه، حتـى أنـه ظـل ساكتاً عندما ادعى يحيى أنه نال نجلاء قبل أن يأتي بها إلى التسوية. تعلقه بالخلاص على يدي أبي يحيى جعله يقبل كل شيء يقوله يحيى وينسى عداه، بما في ذلك ما ترتـب ومـا يمكن أن يترتب على تعييشه لكلوب، لاسيما وأن قصة نجلاء كانت أبعد أثراً وأكثر إثارة. فخبت نقمة الطلبـة القـوميين وارتفعت وتيرة المتدينين : هذه حال الفنانين يا جماعة. ماذا افعل.؟!.

رفض هاني بإصرار أن يذهبوا إلى الصخرة. ماذا لـو شوهد يرافقهم.؟. اتفقوا على الابتعاد عـن الجوفـة كليـاً، واتجهوا إلى مقهى في مركز المدينة. انشغل نجـم وحسـن بلعب الطاولة، وهاني بالتفرج عليهما، بينما ظل خير ويحيى يتحدثان بالموضوع دون أن يغيب أمر المبيت عن ذهن خير طيلة الوقت.

تغيرت تعابير وجه هاني عندما سأله خير إمكانية النوم في أحد فنادقهم. ماذا سيقول لأبيه الذي عرف بالقصة مـن

أولها لآخرها. قال يحيى مستسلماً : أيه. نـام فـي الجـامع وأمرك .

صاح خير بأعلى صوته : لا يمكن. كنت سأجن هناك. ضباع البشارات أهون.

علّق حسن ساخراً : لم يبق ضباع في عمان...

تحولوا عنه وراحوا يتابعون النرد وأحجـار الطاولـة. كأنهم غير معنيين بالأمر. وهو يردد من حين لحـين : يـا جماعة. أين سأنام.؟.

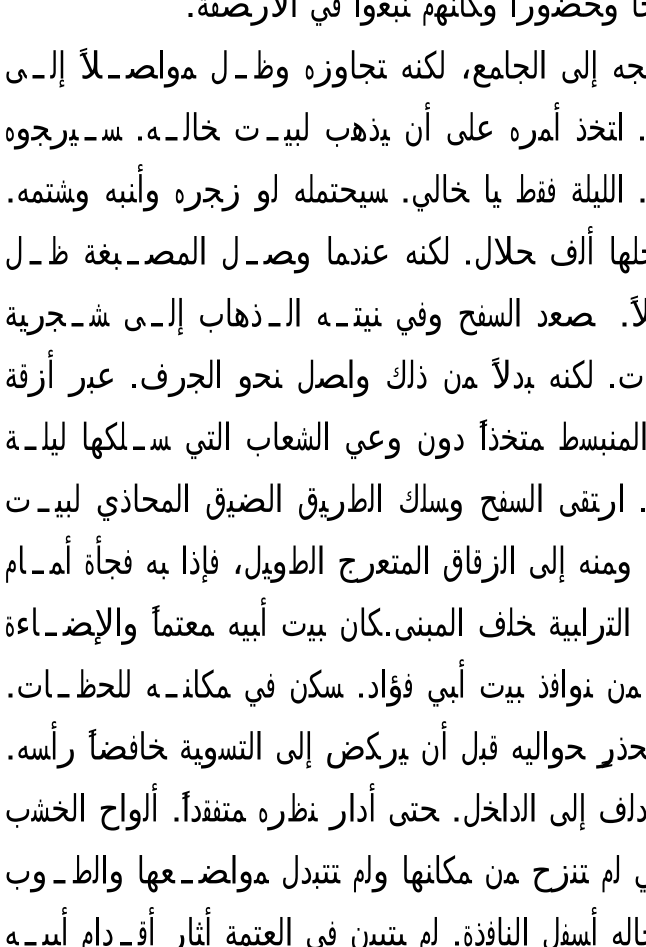
فجأة صرخ يحيى فأجفلوا جميعاً : اسـمع... وأضـاف بانفعال : لم لا تنام في التسوية.؟.

علّق حسن : يمكن أحسن محل.

- وإذا ضبطني أبي.

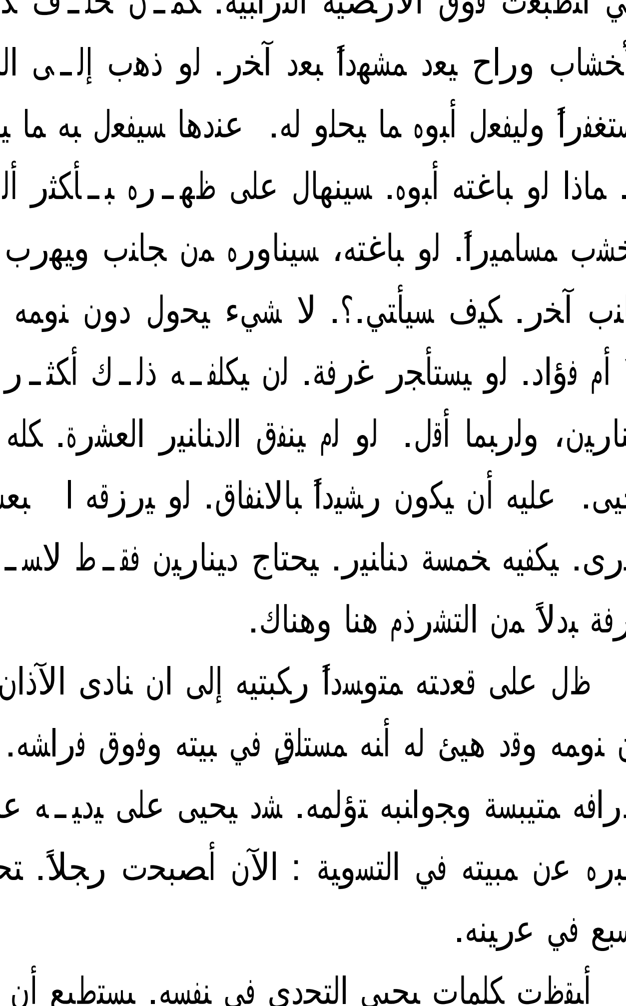
- صدقني أنه آخر محل يتوقع أن تأوي فيه.

تفرقوا فرادى بعد أن تذرع كل منهم بحجة للـرواح مبكراً، وكان يحيى أول المنسحبين. فهام خير على وجهـه في طرقات المدينة وهو متردد في الذهاب إلى التسـوية أو المبيت في الجامع.



ظل يتسكع إلى أن هدأت حركة الأسواق وأغلقت معظم المحلات وانكمش الازدحام وصار رجـال الشـرطة أكثـر وضوحاً وحضوراً وكأنهم نبعوا في الأرصفة.

اتجه إلى الجامع، لكنه تجاوزه وظـل مواصـلاً إلـى الجوفة. اتخذ أمره على أن يذهب لبيـت خالـه. سـيرجوه المبيت. الليلة فقط يا خالي. سيحتمله لو زجره وأنبه وشتمه. غداً يحلها ألف حلال. لكنه عندما وصـل المصـبغة ظـل مواصلاً. صعد السفح وفي نيتـه الـذهاب إلـى شـجرية البشارات. لكنه بدلاً من ذلك واصل نحو الجرف. عبر أزقة بيوت المنبسط متخذاً دون وعي الشعاب التي سـلكها ليلـة هروبه. ارتقى السفح وسلك الطريق الضيق المحاذي لبيـت العفيف ومنه إلى الزقاق المتعرج الطويل، فإذا به فجأة أمـام الفسحة الترابية خلف المبنى.كان بيت أبيه معتماً والإضـاءة تنبعث من نوافذ بيت أبي فؤاد. سكن في مكانـه للحظـات. تلفت بحذرٍ حواليه قبل أن يركض إلى التسوية خافضاً رأسه. ما أن دلف إلى الداخل. حتى أدار نظره متفقداً. ألواح الخشب كما هي لم تنزح من مكانها ولم تتبدل مواضـعها والطـوب على حاله أسفل النافذة. لم يتبين في العتمة أثار أقـدام أبيـه



التي انطبعت فوق الأرضية الترابية. كمن خلف كومة الأخشاب وراح يعد مشهداً بعد آخر. لو ذهب إلى البيت مستغفراً وليفعل أبوه ما يحلو له. عندها سيفعل به ما يحلو له. ماذا لو باغته أبوه. سينهال على ظهره بأكثر ألواح الخشب مساميراً. لو باغته، سيناوره من جانب ويهرب من جانب آخر. كيف سيأتي.؟. لا شيء يحول دون نومه الباكر إلا أم فؤاد. لو يستأجر غرفة. لن يكلفه ذلك أكثر من دينارين، ولربما أقل. لو لم ينفق الدنانير العشرة. كله من يحيى. عليه أن يكون رشيداً بالانفاق. لو يرزقه ا بعشرةٍ أخرى. يكفيه خمسة دنانير. يحتاج دينارين فقط لاستئجار غرفة بدلاً من التشرزم هنا وهناك.

ظل على قعدته متوسداً ركبتيه إلى ان نادى الآذان فهب من نومه وقد هيئ له أنه مستلقٍ في بيته وفوق فراشه. كانت أطرافه متيبسة وجوانبه تؤلمه. شد يحيى على يديه عندما أخبره عن مبيته في التسوية : الآن أصبحت رجلاً. تحدى السبع في عرينه.

أيقظت كلمات يحيى التحدي في نفسه. يستطيع أن يقيم في التسوية أو ينام في الجامع او الأكمة وإذا حصل على

عملٍ يستطيع أن ينفق على نفسه. إنه لا يحتاج المدرسة، بل إنه يكرهها. ولن ينجو بحريته إلا بعيداً عنها وعـن البيـت. أسر لأصحابه أنه سيترك المدرسة طالما أن عودتـه للبيـت غدت مستحيلة، لكنهم عارضوه جميعاً.

كانوا يدركون أنه يشكو لا أكثر فجاملوه تباعاً. أخافـه نجم عندما سأله ماذا سيفعل به أبوه لو عـرف أنـه تـرك المدرسة.؟. وقال هاني أن أباه بالتأكيد نسي المشـكلة وهـو نادم على مافعله. فسأله خير : وهل أبوك نسـي الأمـر... تلعثم هاني وهو يقول : أبي شيء آخر...

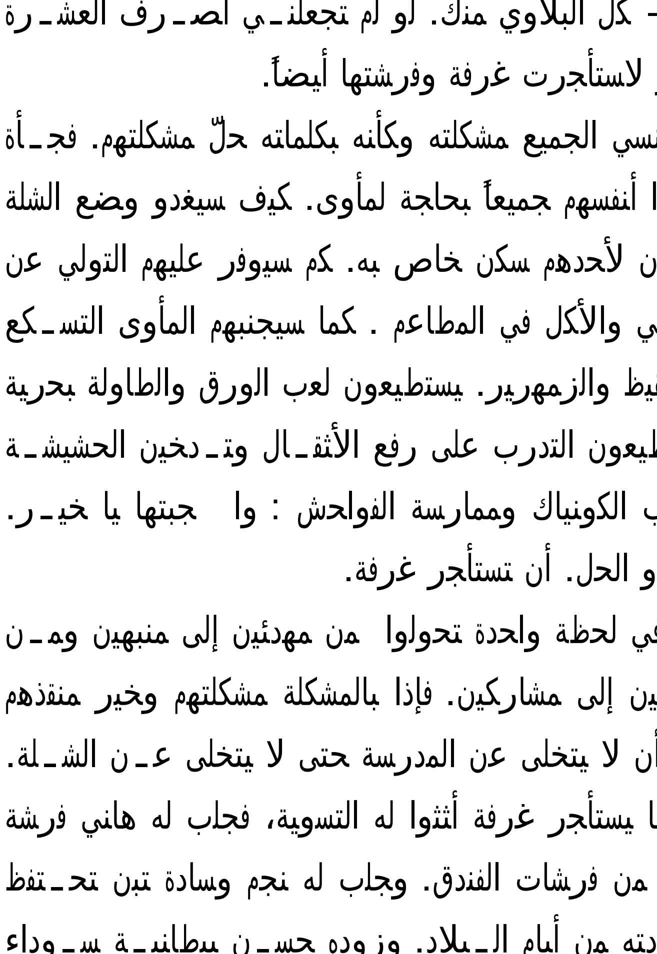
- غلطتك أنك تركت البيت. كان يجب أن تظـل فيـه مهما فعل بك أبوك... قال حسن.

- حتى لو قتلني.؟... سأل خير.

- لو قصد، لقتلك من الرصاصة الأولى. انتظـر لـك شهر شهرين إلى أن ينسى المشكلة كما قال هاني وتعود إلى البيت.

- ومن أين آكل وأشرب في الشهرين.؟.

قال يحيى بسرعة : محسوبك.



- كل البلاوي منك. لو لم تجعلني أصرف العشرة دنانير لاستأجرت غرفة وفرشتها أيضاً.

نسي الجميع مشكلته وكأنه بكلماته حلّ مشكلتهم. فجأة وجدوا أنفسهم جميعاً بحاجة لمأوى. كيف سيغدو وضع الشلة إذا كان لأحدهم سكن خاص به. كم سيوفر عليهم التولي عن المقاهي والأكل في المطاعم . كما سيجنبهم المأوى التسكع في القيظ والزمهرير. يستطيعون لعب الورق والطاولة بحرية ويستطيعون التدرب على رفع الأثقال وتدخين الحشيشة وشرب الكونياك وممارسة الفواحش : وا جبتها يا خير. هذا هو الحل. أن تستأجر غرفة.

في لحظة واحدة تحولوا من مهدئين إلى منبهين ومن مجاملين إلى مشاركين. فإذا بالمشكلة مشكلتهم وخير منقذهم على أن لا يتخلى عن المدرسة حتى لا يتخلى عن الشلة. وريثما يستأجر غرفة أثثوا له التسوية، فجلب له هاني فرشة عتيقة من فرشات الفندق. وجلب له نجم وسادة تبن تحتفظ بها جدته من أيام البلاد. وزوده حسن ببطانية سوداء استخدمها جده علم حداد يوم انسحاب الأتراك، واختلس له

يحيى من قبو المنزل أواني معدنية منها جريكن مع كيلة من مخلفات اللنبي.

حمل الأثاث على دفعات في عمق الظلام إلى التسوية : أبوك ليس عنده عفش كهـذا. إذا طفـرت تسـتطيع بيعـه أنتيكة... وضجوا ضاحكين، يهدىء منهم خير : يا جماعـة. هل نسيتم أن أبي نائم فوق.؟.

- ا لا يقيمه... قال حسن وهو يخرج قنينة نبيذ مـن جيب جاكيته وباليد الأخرى تناول شبريته.

- وإذا نزل لنا.؟..تساءل خير بارتباك.

- خليه ينزل وعمره ما راح يطلع... رد حسن وهـو ينتزع السدادة بالشبرية...

قعدوا فوق الفرشة يتناوبون القنينة باستثناء خير الـذي ظل يحاوص واقفاً. يتلفت حواليـه ويفـرك راحتيـه بقلـق واضح : المهم الآن أن أجد عملاً.

- على حساب. غضضنا النظر عن ترك المدرسة... قال نجم معاتباً.

- لن أترك المدرسة.سأجد عملاً بعد الظهر.

اعتذر هاني بأدب : لن يرضى أحد أن يشغلك نصـف نهار.؟..

- أنا سأشغله.. قال يحيى بعنجهية.

١٧

اقترن تباهي يحيى بالجدية. إنه يريد مساعدة خير. هذا أمر لا يتشكك به أحد. لكنه يطمع أيضاً بمستقرٍ يلوذ فيه مع أصحابه بعيداً عن القيظ والبرد. كما يمكن أن يرتكـب فيـه المعاصي دونما خشية او قلق. لن يضطر للذهاب إلى النور، واربما ستأتي النوريات وسواهن إليه. ولن يضطر للاختناق في دكان سعود. كما يستطيع الشرب على راحته وليس بعدما تطفئ الأضواء في السينما. ألف حاجـة تلبيهـا اسـتطاعة واحدة. أن يكون خير جاداً. ولن تكـون الغرفـة مشـكلة. تستطيع الشلة أن تتكفل بالإيجار.

استغرب موفق القصة. أنه يعرف أبا الخيـر لكنـه لا يعرف خير، فلماذا يريد أبوه إرغامه على ترك المدرسة في هذه المرحلة. عزا يحيى الأمر لقسوة أبي الخير فلم يستغرب موفق. ذلك أمر تعرفه الجوفة كلها. حمس تجاوبـه يحيـى فراح يكيل الشتائم لأبي الخير. إنه لا يتخلى عن ابنه فحسب بل يريده أن يساهم في الإنفاق على العائلة أيضاً، ولم يبـق على تخرجه سوى سنة واحدة. أغدق بالثنـاء علـى خيـر والتغني بموهبته الفنية، إضافة إلى أدبه وحسن تربيته، فهـو

نادراً ما يخرج من المنزل، وإذا عمل لدى موفق فإنه لن يتزحزح من المكان الذي يخصصه له ولن يتحول عن المهمة التي يوكلها إليه، حتى لو كانت كناسة الأرضية ومسح الغبار. ناهيك عن مهارته في إعداد القهوة والشاي.

أربك انفعاله وحماسه موفق، فلم يجد أمامه من وسيلة للتملص إلا أن يطلب الالتقاء بخير، وإذا لم يناسبه في المكتبة سيساعده في إيجاد عملٍ في مكان آخر. لاسيما وان لديه صبياً يتولى توزيع الكتب والجرائد والكناسة والتنظيف وإعداد القهوة والشاي. ما أن أنتهى من اعتذاره الطويل، حتى فوجىء بيحيى يشير من وراء الواجهة إلى الشارع فدخلت الشلة بأسرها إلى الدكان.

صار الوضع حرجاً لكلٍ من المعلم وطالب العمل والوسيط الذي يدعي أن جميع محلات المركز مملوكة لأبيه وأن العاملين فيها عمال لديه : ها هو فناننا يا أستاذ موفق.

صافحوه جميعاً وهو حائر لا يدري ما يقول، بينما يحيى يفرك يديه بارتياح وسرور وهو يسأل خير : ارتحت الآن.؟.. وكان موفق يتفرس به كالمأخوذ.

- يعني.

- ا أكبر. بعد فيها يعني.

طرفش موفق بنظره بعيداً عنهم وسادت لحظة صمت مربكة للجميع، ثم قال موفق ليحيى بنبرة امتعاض : ليأت يوم السبت، لكن أبكر من هذا الوقت. وسوف نرى.

عصر السبت، هرول خير إلى المكتبة بمجرد انصرافه من المدرسة، تاركاً الشلة وناسياً المبيت والأكل والمدرسة. فوجئ به موفق بعدما هيئ له أن جلافته ذلك اليوم حسمت الأمر برمته. طلب منه الانتظار على كرسي واطئ أمام الحاجز الذي يجلس خلفه. سكن خير فوقه وظل صامتاً بينما موفق مطرق الرأس يحملق بأوراقٍ فوق ركبتيه وكأنه يختلس قراءتها.

جامله خير قائلاً : الجاحظ قتلته كتبه.

رد موفق دون أن ينظر إليه : الكتب لا تقتل. سقوطها الذي يقتل.

كان يعي ارتباك خير وحرجه. لكن بماذا سيكلفه وكم سيكلفه. تورط إكراماً لابن العفيف. تردد بين الاعتذار والتأجيل. أخيراً طوى الأوراق ووضعها في جيب جاكيته

الداخلي. نظر ببشاشة إلى خير وقال : وا لا أدري بمـاذا أشغلك.؟.

قبل أن يرد خير، أضاف موفق وهو ينهض واقفاً : قـم أشوف... وتقدمه إلى السدة.

كانت السدة معرمة بأكوام من الكتب بأحجام متنوعـة، إضافة إلى الرفوف التي تكدست فيها الكتب من غير ترتيب او تنسيق. بينها الجديد والقديم. المجلّد فنياً والمنزوعة جلدته الأصلية. بعض الأكداس ستفت بعنايـة وأخـرى انسـحقت الكتب أسفلها وتجعد العديد خلالهـا. طلـب منـه أن يقـوم بترتيبها وتستيفها دون تغيير مواضعها. حذره من إزاحتها او خلط مجموعاتها او تغيير مكانهـا. عليـه فقـط توضـيبها ولملمتها وتسوية الناشز منها فحسب.

خلال انهماكه في العمل، كان موفق يأتي من حين لآخر ويتجه من فوره إلى الكتاب الذي يريد، دون بحث او مشـقة ودون أدنى تمحيص او تفتيش. جامله خير : تعرف مكان كل كتاب.

أجابه موفق بجفاء : شغلتي.

أدرك خير أن موفق لا يحتاجه للعمل. كما أنـه لـيس عملاً أن يلملم الكتب. يستطيع أي صبي أن يفعل ذلك.ومـاذا بعد ان ينهي مهمته التي لو قصد لأتمها في ساعات.؟. قرر عدم العودة في اليوم التالي.

وبخه يحيى : هل تريده أن يجلسك مكانـه.؟.. عـاد عصراً. لكن موفق لم يطلب منه الصعود إلى السـدة، بـل بادره بمجرد وصوله : أخبرني يحيى أنك خطاط.؟.

- طبعاً... رد بلهفة، وأضاف : جربني.

أعطاه مخطوطة، سأله أن يكتب منها صفحة واحدة وأن يتخذ من الكتب في السدة متكئاً، فأنجز المهمة فـي بضـعة دقائق. لما سلّمه النسخة، أذهله بجمال خطه ورتابته. تأمـل موفق كتابته وكأنه يتأمل لوحة فنية. نظر إليه بولـه وقـال بعتاب يقصد فيه الإطراء : لماذا لم تقل أن لديك مثـل هـذا الخط.؟.. تناول من جيبه الأوراق التي كان يقرأها بـالأمس وناوله واحدة : أريدها أن تبدو وكأنها مطبوعة طباعة.

جاءه بها بعد دقائق مكتوبة بالخط الكوفي الذي يتجلـى به. سحرت كتابته موفق وأعطاه الأوراق المتبقية، فنسـخها في وقت قصير واختلس لنفسه ابياتاً أعجبته. قرأهـا علـى

أصحابه في اليوم التالي عندما التأم جمعهم فـي اسـتراحة الصباح :

أيهـا النـ ـبع الـذي يمطـر مـ ـاس	وحشـ ـ ـ ـ ـ ـيشاً ونعـ ـ ـ ـ ـاس
أيـها الـ ـرخـامـ ـي المعـلـ ـقْ	أيهــا الشــ ـيء الــذي لا يصــدقْ
دمـت لـلشـ ـ ـرق لنـ ـا عنـ ـقود	للملاين التي قد عطلت فيها الحـواس
مـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـاس	

ابهجه أن يوكل له موفق مهمة النسخ. كان يقوم بـذلك للطلبة، وبخاصة يحيى. كانت أجرته عينية، لكنه اكتشف أن موفق يبيع المنسوخات. قصائد كانت أم مقالات أم كتـب أم مجلدات. أوكل له نسخ مخطوطة انتزعت مقدمتها وليس فيها إشارة لصاحبها، لكنها لم تخف عليه. فمنذ الابتدائية وأساتذة العربية يأتون على ذكرها ويستشهدون بهـا، معارضـة او تأييداً. سأل أصحابه قاصداً الإجابة : أتعرفوت سبب الضجة التي أقامت الدنيا على طه حسين.؟... وعندما أوكله موفـق بنسختين من كتاب نشوء الأمم ، أتم نسخها في يومين قـال للشلة :كأنني أعيش في عصر المأمون.

أعجب موفق به وسحره خطه الذي جعـل منسـوخاته أبهى من الطباعة. كما أعجبت المهمة خير ولاءمتـه وهـو يمارس التخطيط علناً بعدما كان يختلسه.

تجاوز الأمر حدود الإعجاب بالنسبة لموفق. فغبطته من تفرغ ناسخ خاص به وفي داخل مكتبتـه جعلـه يستحضـر مخاطر النسخ عند الآخرين. فالناسخون الذين يتعامل معهـم لديهم في الغالب أعمال أخرى تشـغل نهـارهم ويقومـون بالمهمة في منازلهم. يعملون على راحـتهم ولا يسـتعجلهم شيء سوى استعجالهم لقبض أجورهم. وإلا فـإنهم ينشـفون الريق، كما كان يسر للزبائن المنتظرين. في تعاملـه معهـم كان يتوخى الحذر ويخشى العاقبـة عنـدما يكـون النسـخ المطلوب خطيراً يتجـاوز المصـادرة وإيقـاف الرخصـة والغرامة إلى توقيف وتحقيق وفلقة ونـزع أظـافر وربمـا يتحول إلى القضاء وينال ما ينال من الجزاء. ناهيـك عـن محاذير فقدان الكتب والادعاء بفقدانها، كما حصل مـراراً. فإذا الهوجس التي كانت تراوده فرادى يتخلص منها جميعها مرة واحدة فوق السدة.

أفرغ له مكاناً جهزه بطاولة وكرسي مريح، وأوصى أن تلبى حاجته من الأدوات الكتابية، محذراً إياه مـن ان يطلـع أحداً على ما ينسخ او يحدث به بشراً كائناً من كان. لم تكـن الشلة في تقدير خير بشراً. جاءه بكتيب صغير لا غلاف لـه

ولا عنوان، طالباً منه عدم الرواح قبـل الانتهـاء وتسـليمه الأصل والنسخة، وسيبقي المكتبة مفتوحـة وينتظـره ولـو لمنتصف الليل. انكب عليه بهمة عالية، وانتهى من نسخه في غضون ثلاث ساعات، كتب الفقرة الأخيرة منه في سـطرين مستقلين وكأنه يلخص بها مأسـاته ورددهـا علـى مسـمع أصحابه :

ليس لدى الطبقة العاملة ما تخسره سوى قيودها، ولكن أمامها عالماً لتكسبه.

يا عمال العالم اتحدوا..

١٨

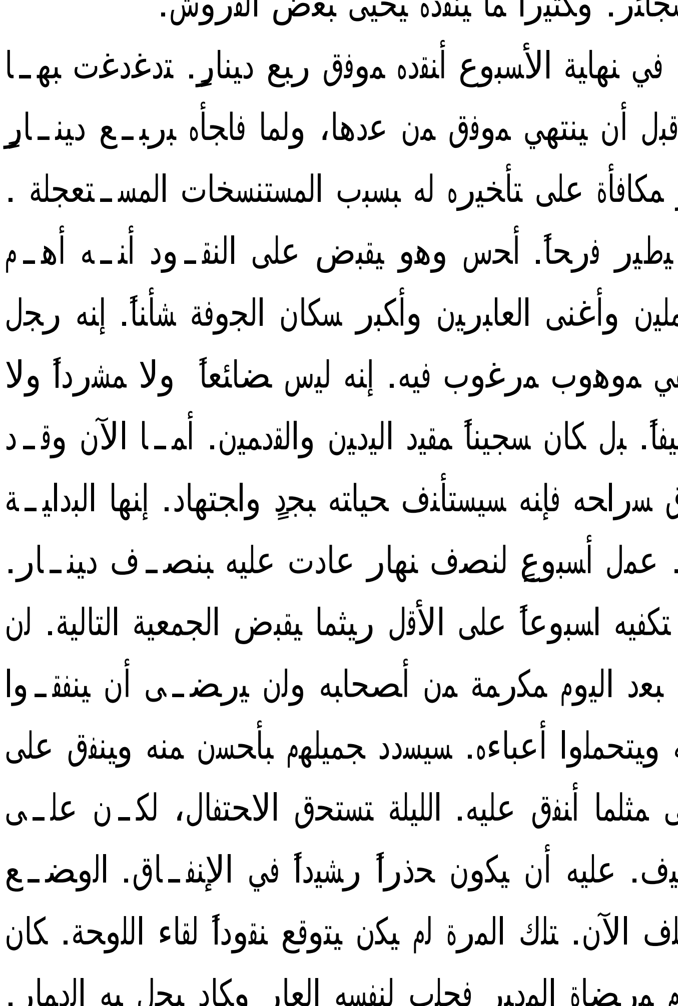
صار فؤاد يتجنب خير في المدرسة وإن ظلا يتبـادلان التحية عن بعد. ومنذ ابتدأ خير العمل لم يعد يلتقي بالشلّة إلا خلال فترة الاستراحة الصباحية. يدخن معهم بشهية ويأكـل بنهم ويستمع بإصغاء إلى مغامرات يحيى، الذي خبـت مـن رأسه ورؤوس الباقين بالتدريج فكرة استئجار غرفة بعـدما قوبلوا بالنظرات المستهجنة والأسئلة المرتابة من أصـحاب البيوت والبقالات الذين داروا عليهم مـن حـارة لحـارة . أحاطت بهم الشبهة ولما يستأجروا الغرفة بعد. في جلساتهم توجسوا من تورطهم إذا ما ارتكب خير فعلة أخرى نكـراء. فليبحث بنفسه عن غرفـة وسـوف يسـاعدونه بالإيجـار والأثاث .

عادوا إلى سيرتهم الأولى، طواف وتسكع في شـوارع الجوفة ولعب الشدة في مقاهيها. يـدخنون عنـد الصـخرة ويحششون ويغنون إلى أن يبدأ يحيى أطرشياته. يحتملونـه قليلاً قبل أن يتذرع كل منهم بسبب للانسحاب تباعاً إلى بيت هاني. غالباً ما يتفكهون على ما يأتيهم به خير مـن أشـعار وأقوال. صار بعد عملته فيلسوفاً. كأن خير لم يربك أوقاتهم

ولا خلخل أيامهم ولا أشغل حيزاً بينهم. اعتادوا انقطاعه ولم يعتادو انضمامه.

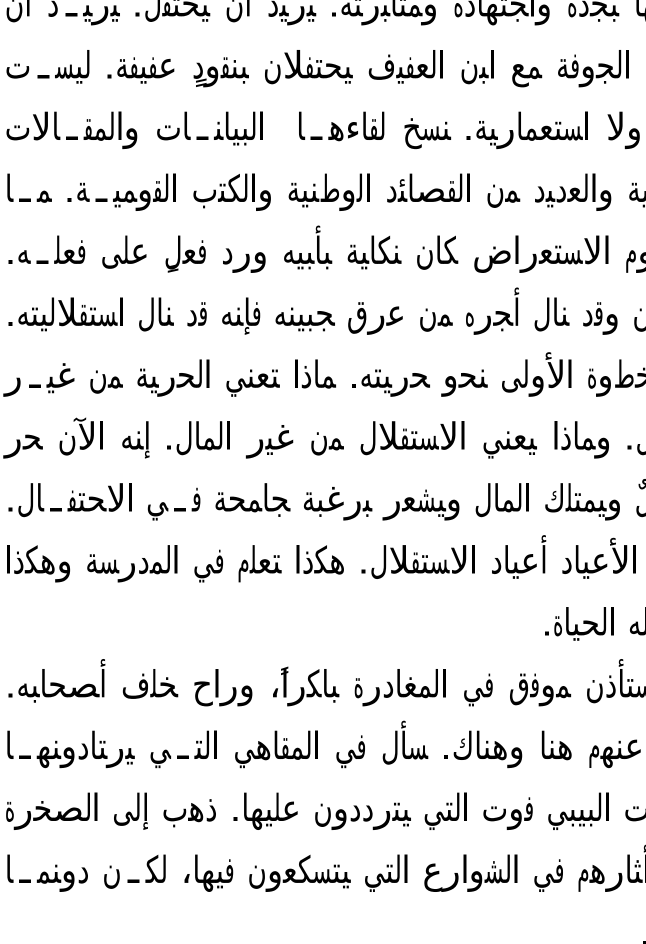
بمجرد انصرافه من المدرسة يسرع إلى موفق لينهمك في النسخ حتى إقفال المكتبة الذي يعتمد على مـزاج موفـق وانسجامه مع أصحابه او استغراقه في القراءة. أحياناً يغادر قبل الإقفال إذا لم يكن لديه ما ينسخه. فيتسكع في الشـوارع إلى أن تهدأ حركتها ثم يتجه إلى الجوفة متخذاً طريقه إلـى التسوية عن طريق الجرف وأزقته المظلمة الموحشة. يتسلل إليها إذا أمن انطفاء الأضواء في بيت أبيه. يستخرج برويـة من بين خشب الطوبار فراشه وغطاءه وينساب فيهما كأنـه يختبىء. يظل ساكناً ساعات قبل أن يواتيه النعاس. إذا ثقلت أمعاؤه يقاومها ويعتصرها، وإن لم يقو عليها يغـادر بحـذرٍ إلى الجرف فيقضي حاجته في الهواء الطلق ويعود متلصصاً للتسوية ليغادرها متلصصاً مع آذان الفجر بعد إخفائه الفراش بين الأخشاب.

ما أن يبتعد عن المبنى حتى تستيقظ ثقته بنفسه وعندما تلوح له المدرسـة يشـعر بالاطمئنـان. فيسـترخي وراء



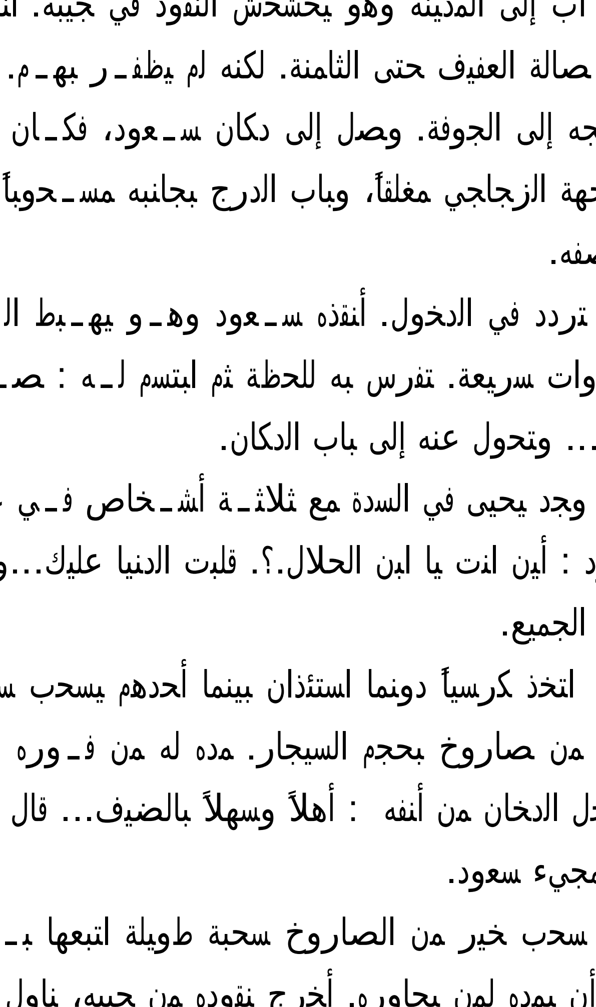
المراحيض منتظراً أصحابه الذين غالباً ما يأتونـه بالطعـام والسجائر. وكثيراً ما ينقده يحيى بعض القروش.

في نهاية الأسبوع أنقده موفق ربع دينارٍ. تدغدغت بهـا يده قبل أن ينتهي موفق من عدها، ولما فاجأه بربـع دينـارٍ آخر مكافأة على تأخيره له بسبب المستنسخات المسـتعجلة . كاد يطير فرحاً. أحس وهو يقبض على النقـود أنـه أهـم العاملين وأغنى العابرين وأكبر سكان الجوفة شأناً. إنه رجل حقيقي موهوب مرغوب فيه. إنه ليس ضائعاً ولا مشرداً ولا ضعيفاً. بل كان سجيناً مقيد اليدين والقدمين. أمـا الآن وقـد أطلق سراحه فإنه سيستأنف حياته بجدٍ واجتهاد. إنها البدايـة فقط. عمل أسبوعٍ لنصف نهار عادت عليه بنصـف دينـار. انها تكفيه اسبوعاً على الأقل ريثما يقبض الجمعية التالية. لن يقبل بعد اليوم مكرمة من أصحابه ولن يرضـى أن ينفقـوا عليه ويتحملوا أعباءه. سيسدد جميلهم بأحسن منه وينفق على يحيى مثلما أنفق عليه. الليلة تستحق الاحتفال، لكـن علـى الخفيف. عليه أن يكون حذراً رشيداً في الإنفـاق. الوضـع مختلف الآن. تلك المرة لم يكن يتوقع نقوداً لقاء اللوحة. كان يروم مرضاة المدير فجلب لنفسه العار وكاد يحل به الدمار.



أما الآن فإنه تعب وشقي وسهر الليالي من أجل أجرته التي استحقها بجده واجتهاده ومثابرته. يريد أن يحتفل. يريد أن تشاهده الجوفة مع ابن العفيف يحتفلان بنقودٍ عفيفة. ليست عميلة ولا استعمارية. نسخ لقاءها البيانات والمقالات السياسية والعديد من القصائد الوطنية والكتب القومية. ما فعله يوم الاستعراض كان نكاية بأبيه ورد فعلٍ على فعله. أما الآن وقد نال أجره من عرق جبينه فإنه قد نال استقلاليته. انها الخطوة الأولى نحو حريته. ماذا تعني الحرية من غير استقلال. وماذا يعني الاستقلال من غير المال. إنه الآن حر ومستقلٌ ويمتلك المال ويشعر برغبة جامحة في الاحتفال. فأجمل الأعياد أعياد الاستقلال. هكذا تعلم في المدرسة وهكذا أثبتت له الحياة.

استأذن موفق في المغادرة باكراً، وراح خلف أصحابه. يبحث عنهم هنا وهناك. سأل في المقاهي التي يرتادونها ومحلات البيبي فوت التي يترددون عليها. ذهب إلى الصخرة وتتبع أثارهم في الشوارع التي يتسكعون فيها، لكن دونما جدوى.


آب إلى المدينة وهو يخشخش النقود في جيبه. انتظـر أمام صالة العفيف حتى الثامنة. لكنه لم يظفـر بهـم. عـاد أدراجه إلى الجوفة. وصل إلى دكان سـعود، فكـان بـاب الواجهة الزجاجي مغلقاً، وباب الدرج بجانبه مسـحوباً إلـى منتصفه.

تردد في الدخول. أنقذه سـعود وهـو يهـبط الـدرج بخطوات سريعة. تفرس به للحظة ثم ابتسم لـه : صـاحبك فوق... وتحول عنه إلى باب الدكان.

وجد يحيى في السدة مع ثلاثـة أشـخاص فـي عمـر سعود : أين انت يا ابن الحلال.؟. قلبت الدنيا عليك...وسـلّم على الجميع.

اتخذ كرسياً دونما استئذان بينما أحدهم يسحب سـحبة قوية من صاروخ بحجم السيجار. مده له من فـوره وهـو يساحل الدخان من أنفه : أهلاً وسهلاً بالضيف... قال أحدهم مع مجيء سعود.

سحب خير من الصاروخ سحبة طويلة اتبعها بـأخرى قبل أن يمده لمن يجاوره. أخرج نقوده من جيبه، ناول سعود

عشرة قروش وهو يقول باستعلاء : اف للشباب وصب لنـا شاي.

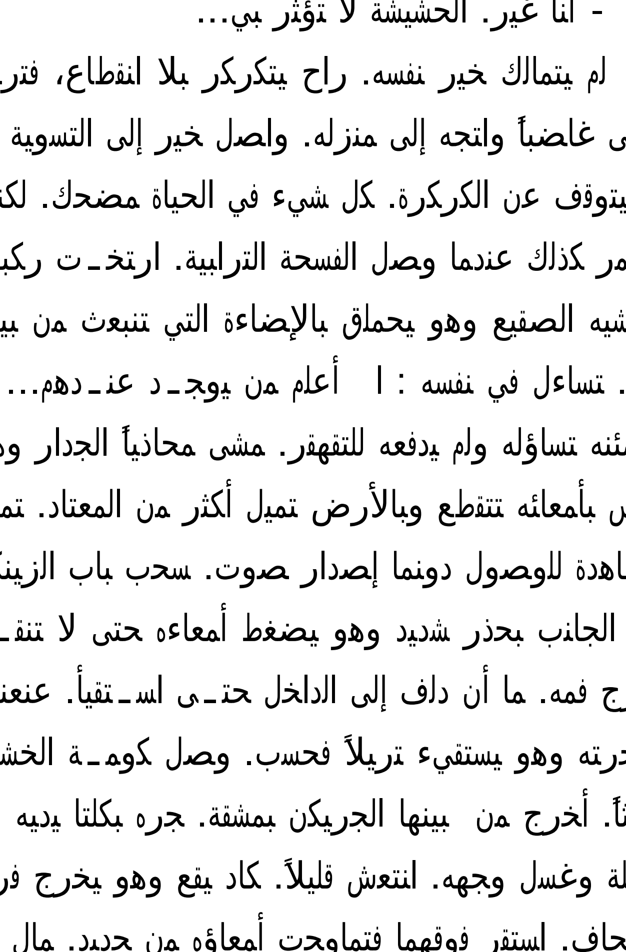
سأل عن الشلة فلعنهم يحيى. ذهبوا إلى بيت هاني وآثر هو البقاء على الصخرة. لما تأخروا جاء وحده. لم يذكر شيئاً عن التطريش.

دخنوا ضعف عددهم من الصواريخ، وكان خير يحـس بأن الدنيا بأسرها تضحك له ويضحكه كل شيء فيها. ظـل يتكركر لأي قولٍ او تعليق حتى لوكان جـاداً، ممـا أثـار امتعاض الآخرين. أبدى سعود استياءه صراحة : وبعدين مع صاحبك. إياه أن يظن أننا مضحكة...

آثر يحيى الانسحاب. لم يتخذا طريق الجرف المعتاد. بل واكب خير، من غير وعي، خطـوات يحيـى مـرتقين الشارع العام المنار بأضواء الكهرباء. كـان هنـاك بعـض الأولاد يجلسون في فسحة بيت قريب تحت شـجرةٍ وارفـة. حملقوا بخير ويحيى وهما يدخنان ويتكركران.

قبل أن يفترقا قال خير بأنه يشعر بالدوخة، فقال يحيى : إنها الحشيشة.

- أنت حششت مثلي .



- أنا غير. الحشيشة لا تؤثر بي...

لم يتمالك خير نفسه. راح يتكركر بلا انقطاع، فتركـه يحيى غاضباً واتجه إلى منزله. واصل خير إلى التسوية دون أن يتوقف عن الكركرة. كل شيء في الحياة مضحك. لكنه لم يستمر كذلك عندما وصل الفسحة الترابية. ارتخـت ركبتـاه وغشيه الصقيع وهو يحملق بالإضاءة التي تنبعث من بيـت أبيه. تساءل في نفسه : ا أعلم من يوجـد عنـدهم... لـم يطمئنه تساؤله ولم يدفعه للتقهقر. مشى محاذياً الجدار وهـو يحس بأمعائه تتقطع وبالأرض تميل أكثر من المعتاد. تماسك بمجاهدة للوصول دونما إصدار صوت. سحب باب الزينكـو إلى الجانب بحذر شديد وهو يضغط أمعاءه حتى لا تنقـذف خارج فمه. ما أن دلف إلى الداخل حتـى اسـتقيأ. عنعنـت حنجرته وهو يستقيء تريلاً فحسب. وصل كومـة الخشـب لاهثاً. أخرج من بينها الجريكن بمشقة. جره بكلتا يديه وملأ الكيلة وغسل وجهه. انتعش قليلاً. كاد يقع وهو يخرج فرشته واللحاف. استقر فوقهما فتماوجت أمعاؤه من جديد. مال على جانبه وتجشأ بتواصل حتى أحس بالاختناق دونما قدرة على

التقيؤ. شعر بالارتياح قليلاً فاستلقى على ظهره لاهثاً يمسـح يديه بالغطاء.

لا يدري إن كان نائماً أم يقظاً او أن الذي يراه حقيقة أم كابوساً، ولا يتذكر كم من الوقت انقضى قبل أن يجفل ويهب مرعوباً ملصقاً ظهره بالجدار متمنياً لو يغوص في ثناياه او يتلاشى من الوجود ولا يظل في هذا المكـان، بينمـا أبـوه ينتصب أمامه مثل فران الجحيم ومعـه أبـو فـؤاد ونـذير ووراءهم على بعد أمتار يقف عناد .

١٩

تحتل عائلة نذير الطابق الثالث من مبناها الواقع علـى كوربة تصل الجوفة بمركز المدينة. ومن تحتهمـا شـقتان مؤجرتان، لكل منها شرفة ضيقة تطل على الشارع. يتـألف الطابق الأرضي من أربعة مخـازن، الأول بقالـة والثـاني مستودع مواد بناء يفصلهما بيت الدرج عن المصبغة التـي تحتل المخزنين المتبقيين. خصص نذير أحدها للكي وتعليـق الملابس الجاهزة في الواجهة الزجاجية العريضة، والثـاني مخصص لغسل الثيـاب وتنظيفهـا وتجفيفهـا وصـباغتها، وللراحة أيضاً، مرتبط مع محل الكي بباب داخلي ولا ينفـتح بابه الصاج الخارجي على الإطلاق

اشترت أم عناد المبنى بعد قبضها الميـراث الـذي آل إليها من زوجها الراحل، وارتحلت إليه بعيداً عـن أقربـاء زوجها الذين ناصبوها العداء مذ كان على قيد الحياة.

كان تاجر أغنام قوي البنية شديد البأس، يخشاه رجالـه أكثر مما يخشون حرس الحدود الذين يتربصون بهـم أثنـاء تهريبهم الأغنام عبر الأردن إلى سوريا والعراق والحجـاز. كانت أعماله تصل الذروة في الفترة ما بين رمضـان وذي

الحجة. فيمتد غيابه عن البيت أسابيع يقضيها بـين أغنامـه. يقودها عبر الفيافي والبوادي. يرعاها خلال رحلتها ويسمنها قبل أن يبيعها ويأتي بسواها. كان يعشق كـل شـيء فيهـا. رائحتها ولحمها ولبنها وفرائها، ولم تكن زوجته أقل عشـقاً منه، فالأغنام موفورة في مراح البيـت، يحلبهـا الراعـي ويذبحها ويسلخها ويقطعها. وأحياناً تتكفل عائلته بطبخها لأم عناد. كان زوجها يعد الأغنام على الراعي، لكنه لا يسـائل زوجته مهما استهلكت من ذبائح.

استعصت مواصفاته على أهله عندما رغب في الزواج. كان يريد زوجة ناصعة بضة، ملظلظة غضة، مدرارة شبقة. لم تتوافر الصفات مجتمعة إلا بجبلية هربها الرعيـان مـن الجولان، وفي غضون يومين غدت مواطنة صالحة كاملـة الحقوق حسب ما كتب في عقد النكاح. تبسمل قبـل الأكـل وتتوضأ قبل الجماع. وفي كلا الحالين تنتهي وفـي نفسـها حاجة للحج. فلا تحس بالشبع وإن أتخمت، ولا ترتـوي وإن فاضت. كانت لخناء نتنة الرائحـة. عـذيوط تثرثـر فـي المضاجعة، لا يتوقف لسانها عن السؤال ولا يهدئ منهـا أي جواب، فيمتص عراكها طاقتها وطاقة زوجها لأيام طويلـة

ولا تعاودهما الرغبة مهما طال غيابه. وعندما يرجـع مـن سفرته تستيقظ في كل منهما الحاجات، فتسارع إلى تجهيـز المائدة وبسط الفراش من الجدار إلى الجدار، بينمـا راعـي القطيع يذبح خروفاً ويقطعه ويطهوه ويحمله بكل ما فيه إلـى بيت الغنّام الذي يقبل على دهنه قبل لحمه، وتقبـل زوجتـه على رأسه وتمتص عظمـه، فيـأكلان بشـهية ويتعاركـان بوحشية دون أن تصده زناختها او ينفرها غنميته.

انجبت له بعد خمس سنوات من الزواج صـبياً أبـيض كبياضها. أشقر الشعر كشقارها، مكتنزاً مثلها. استعصى على الداية لحظة الوضع، حتى كاد يودي بها فاختارت لـه اسـم عناد، وودعت بمجيئه الإنجاب. إذ توقف حيضـها وجـف رحمها ، وكان اثناء رضاعته لا يتوقف عن البكاء ولما نمـا تأخر نطقه أكثر من المعتاد. ساعد غياب أبيه الدائم وكسـل أمه في أن ينشأ بلا حسيب او رقيب. يقضي جلّ وقته خارج البيت يتلصص على البيوت ويؤذي المواشي ويقتل الطيور. عندما يعاود أبوه من تهريبة، يشارك في الوليمـة بشـقيها، فيتخمه الأكل وتهيجه الأصوات وهو يكمـن تحـت النافـذة متنصتاً، يعارك أعضاءه مع عراك والديـه ويتـأجج مـع

انفعالهما وتفاعلهما. كانت زناخته تنفر الصبية منه فلا يجـد ما يقربه منهم سوى رواية مشاهداته وهو يتلصـص علـى الجيران، ولبعض من يحبهم كان يحكي تفاصيل عراك أبويه في الفراش.

بعد سبع سنوات من ولادته تحركت الرغبة فـي نفـس أبيه لمزيد من الأولاد. لاسيما وأن أقرباءه كانوا يحثونه على الزواج. دب الخلاف بينه وبين زوجته بعدما صار يجـاهر برغبته، ولم تكن تملك من سلاح سوى الدعاء. تمنت لأقاربه الوباء ودعت عليه بالبلاء، فباغت الذئب أغنامه، وقبـل أن يتناول مسدسه تناوله الذئب فهب رجاله لنجدته وقتلوا الذئب الذي تمكن من بعض يده. ضمدوا جراحه بكوفيته وأعـادوه إلى بيته مع الأغنام. وقيل أنه في اليوم التالي أخذ بالعواء.

جيء بالشيخ ثم الكاوي والحاوي والتمرجي والحـلاق، فلم ينجحوا بإسكاته وإيقاف عوائه، وإن أجمعوا علـى أنـه مأخوذ وليس مكلوباً، ويحتاج وقتاً حتى يهدأ ويفيق. لكنه هدأ ولم يفق. واعتبرت زوجته ما أصابه عقاباً له وإنقـاذاً لهـا. ثأرت من أقاربه بأن باعت بيته وأغنامه واشترت بما آل لها مبنى في الجوفة واحتجزت دار الأيتام ما آل لعناد.

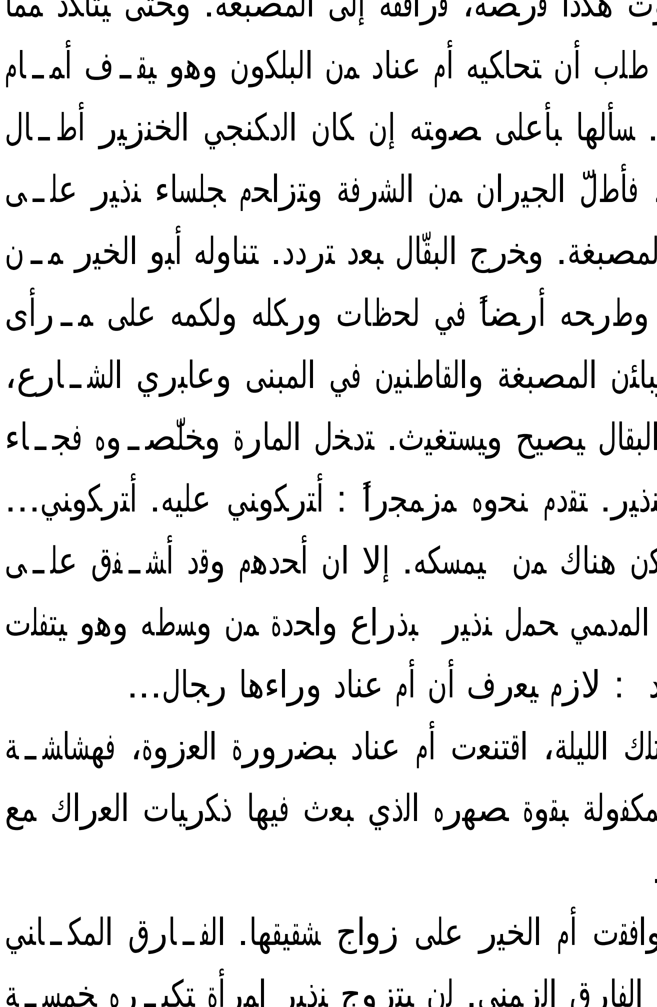
وفر السكن الجديد لعناد زخماً من الأخبار والمشاهدات، فبيوت الجوفة مزدحمة متلاصقة متباينـة الأحجـام. صـار يتلصص عليها في الليل ويروي في النهار مشاهداته للأولاد. وعندما تذهب أمه لزيارة الجيران يصر على مرافقتها، وإذا جئن لزيارتها يظل جالساً معها. فلم يكـن يسـتهويه شـيء كجلسات النساء، وبخاصة عندما يتحـدثن عـن علاقـتهن الزوجية، وإذا وصل الحديث إلى نقطة حرجة لا تنفع معهـا التلميحات، يتغامزن فترسله أمه لجلب كوب ماء ـ مثلاً ـ . لكنه بخبرته الطويلة يستوعب الأمر ويدرك الحيلة، فيربض خلف الباب إلى أن يسمع الحديث الخاص الذي يصبح عامـاً بمجرد خروجه إلى الشارع والتقائه بالأولاد.

أثار شراء أم عناد للمبنى طمع الكثيرين، فهي تقـبض إيجار شقتين وأربعة مخازن على البارد المسـتريح. وفـي العادة ترسل ابنها عناد لطلب الإيجار. بينمـا نـذير يشـقى الشهر بأكمله، يغسل ويصبغ ويكـوي ويلملـم إيجـار يـده بالقروش، كي يدفع الإيجار بالدنانير. لم يكن يؤرقه الأمـر قبل مجيئها، لكنها بعدما استقرت فوقه صار يشقيه الصـعود درجات ويضنيه النزول دركات. وكانت من بين الجميع تلفظ

اسمه صحيحاً، بينما الآخرون يلفظونه "نزير ". لما صـارت تشكوه أمر المستأجرين الذين يماطلون بالدفع ويتهربون مـن الإيجار ويستقوون على عناد، أخبرها بأنهم لم يكونوا كـذلك مع المالك القديم. إنها بحاجة لرجل، فتهـرب مـن تلميحـه بالقول : إيه. آخرتها سيغدو عناد رجلاً... فـيفهم تلميحهـا رفضاً ويزداد غيظاً من عناد، فيتمنى في قرارة نفسـه لـو يدحل باص الجوفة وهو ممتلىء بالركاب فوق جسد عناد.

كان على عداء مع جاره البقّال الذي يغـدق السـكاكر والمكسرات على الصغار. فيتهمه أمام جلسائه باللواط ويحذّر أم عناد من أن ترسل له عناد، فصارت تراجعه بنفسها بشأن الإيجار. حصل يوماً أن تناوشت معه أمـام بـاب الـدكان، فتدخل نذير لصالحها على مرأى من أصـحابه والجيـران. زجره البقّال واتهمه بأنه ينصب عندها. عقدت التهمة لسـان أم عناد وأثارت عصبية نذير الذي رد عليه بحدة : صـحيح إنك لا تستحي.

- أنا لا أستحي.؟... قال البقّال واضعاً راحتـه علـى صدره قبل أن يدفع ظاهرها إلى وجه نذير، وأتبعها بعددٍ من اللكمات لم يتمكن نذير من إحصائها لصهره أبي الخير الذي



لا يفوت هكذا فرصة، فرافقه إلى المصبغة. وحتى يتأكد مما جرى طلب أن تحاكيه أم عناد من البلكون وهو يقـف أمـام البقالة. سألها بأعلى صوته إن كان الدكنجي الخنزير أطـال لسانه، فأطلّ الجيران من الشرفة وتزاحم جلساء نذير علـى باب المصبغة. وخرج البقّال بعد تردد. تناوله أبو الخير مـن الباب وطرحه أرضاً في لحظات وركله ولكمه على مـرأى من زبائن المصبغة والقاطنين في المبنى وعابري الشـارع، بينما البقال يصيح ويستغيث. تدخل المارة وخلّصـوه فجـاء دور نذير. تقدم نحوه مزمجراً : أتركوني عليه. أتركوني... ولم يكن هناك من يمسكه. إلا ان أحدهم وقد أشـفق علـى البقّال المدمي حمل نذير بذراع واحدة من وسطه وهو يتفلت ويتهدد : لازم يعرف أن أم عناد وراءها رجال...

تلك الليلة، اقتنعت أم عناد بضرورة العزوة، فهشاشـة نذير مكفولة بقوة صهره الذي بعث فيها ذكريات العراك مع الغنّام.

وافقت أم الخير على زواج شقيقها. الفـارق المكـاني يغطي الفارق الزمني. لن يتزوج نذير امرأة تكبـره خمسـة عشر عاماً وإنما سيأويه بيت لن يحظى بالسكن فيه لو عاش

مائة وخمسين عاماً. والأهم من المـأوى، الإيجـارت التـي ستؤول إليه من صاحبة المبنى.

كانت بيضاء البشرة واسعة العينين متغضنة الأجفـان طويلة القامة سمينة رضراضة. شـغوفة بـالمخيض قرمـة باللحم. متعرقة تعبق رائحتها على أشدها في المضاجعة. تبدأ بإحجام بكرٍ وخشية قاصر وخضوع سبية تتطلع ان تصـير محظّية. ترمي له على دفعات نظرات مرتابـة خائفـة. ثـم تراوغ بالحديث وهي تسأله برعونة وتلكزه بخشونة، فـيحس بالارتباك وتترنح في فمه الكلمات. تحط يدها على قبة رأسه وتدللـه بهزه وفي مخيلتها رأس خروف مشبعٍ بالثريد. تسأله أن يسألها. فإن فعل اقتضبت بالجواب وألحت أن يسألها ثانية دون أن تمنحه فرصة إكمال السؤال أو تسمعه كامل الجواب. فيستاء ويتضايق وينكمش قـدر الإمكـان. تثيـره الآهـات وتستثيرها الكلمات. وتواصل السؤال وراء سؤال حتى تغدو أسئلتها هلوسات وهي تعتليه على مراحـل كأنهـا ترتقـي الدرجات، وتزداد لهاثاً وتعرقاً وهي تتجاوز الطابق الثـاني، وتشتد احتكاكاً وهي تصل إلى مصـطبة الطـابق الثالـث، وتتسارع ارتهازاً بمجرد أن ترتقي إلى السطح. يرشح منهـا

العرق عندها دفعة واحدة فتبدو مثل بقرة مسلوخة مغمـورة بالدهن، وهي تقبض أعضاءها وتـدفعها وتـرتج أطرافهـا وتصطك أسنانها وكأنها موصولة بالكهرباء. ثم تحتويه بكلها وينسحق تحتها غير قادر على الهروب ولو بالانزلاق. يدفعها من كتفيها وهو يطرح سؤالاً وراء سؤال، ويأتيـه الجـواب سريعاً : نعم. غيره.لا. غيره. مسـتحيل. غيـره. كـذب. غيره... ويظل يسأل وتظل تَغير وتطلـب غيـره. إلـى أن تقبض عليه بأسنانها كلبوءة وحشية وهو يتمنـى لـو تأكلـه وتخلصه من ثقلها ودبقها وهو يتأفأف لاهثاً : لم تجيبينـي . فتقول وهي على وشك الغياب : ماذا سـألت.؟... وترتخـي فوقه كتلة واحدة، وترتخي معها مثانتها، فتطغى الصنّة على الزنخ. فيكشر قرفاً ويتذكر كيف يبخ الماء من فمـه علـى الثياب : إياكِ أن تنامي... ويطبطب على كتفهـا، فـتهمهم وتظل ساكنة فوقه متشبثة به : إذن قومي... فـتهمهم مـن جديد. فينبهها : سوف تنامين. أعرف ذلك... فتئن بعمق قبل أن تؤنبه بدلال : اتعبتني يا نذير... وتضيف مازحة : مـاذا تظنني.؟. فستان وقاعد حضرتك تكويه... يعض على شـفته

السفلى ويهز رأسه متوعداً وهو يتمنى لو يكويها بمكواة من جهنم.

كان يجفل جلساءه عندما يبخ فجأة الماء من فمه علـى الثياب. ويشعر بالسعادة والفتوة عندما يرتد من يجلس قريباً منه مذعوراً إلى الوراء، وهو يناقل مكاويه بخفة ومهارة بين البريموس والطاولة لتنزلق نحو الحافة وكأنهـا تسـبح فـي الهواء. يتأهأه باستعلاء ويقول باستخفاف : وحاسـب حالـك رجلاً.؟...

- يا أخي كان أصابتني...

- هذا إذا كان الكوى غير نذير... يقول متحذلقاً وهـو يخطف المكواة بحركة سريعة مباغتة ممرراً إياها أمام وجه الرجل الذي يهب واقفاً وهو في ذروة الانزعاج : وبعدين يا نذير.؟.

- إه إه إه. أقعد. تلحس...

عندما يستغرقه الحديث تغدو حركاته آلية مـن تناقـل المكاوِ وتبديلها وتحسس حرارتها بتقريبها من وجهه وتبريدها في سطل الماء، فتنسيه الأحاديث الاستعراض بالحركات ولا ينساها جلساؤه، فيظلون منتبهين ليديه متوجسين من انفعالـه

متوقعين بين لحظة وأخرى أن يدفعه التوتر إلى قذف المكواة، فهي توترهم حتى ولو أنها لم تتجاوز الحافة أبداً.

كانت مصبغته ملتقى للعديدين الذين لا يجدون محلاً آخر يثرثرون فيه بحرية ويقرأون بالمجان الجريدة التي يشتريها نذير كل صباح، فيعلقون على الأخبار ويحللون المقالات ويختلفون حول الزعماء ويستغيبون الوجهاء ويضخون حسب مزاجهم الإشاعات. في أحاديثهم عن أنفسهم كانوا حذرين حريصين وفي الاستماع منتبهين دقيقين، فلم يكن أي منهم يأمن للآخر، وإن كانت أصواتهم تتعالى عندما تتقاطع مناقشاتهم وتتداخل مواضيعهم. كان عناد يجالسهم رغماً عنهم فيحد أحياناً من حريتهم ولا يجد نذير أمامه إلا أن يدعوه للذهاب إلى الحارة واللعب مع الأولاد، فإن رفض يعطيه تعريفة لشراء ما يريد من الدكان محذراً إياه من تجاذب الحديث مع البقّال. فيستجيب عناد للإغراء ويسرع في الذهاب والإياب. وكثيراً ما كان ينزوي خارج الباب مرخياً أذنيه مصيخ السمع، وفي البيت ينقل لأمه تفاصيل حوارات نذير وصحبه. وينقل للأولاد ما وصل إليه من أخبار وما شاهده من وراء النوافذ والأبواب. فكان صبية

الجوفة من أوائل العارفين بقصة نجلاء وأوائل رواتها وناقلي التعديلات التي يضيفها نذير كلما تأججت عواطفه المكبوتـة. في قرارة نفسه كان يتمنى لو فعل هو ما حظي خير بفعلـه، او لو خاض معه ذلك الفتح العظيم. زواجه من أم عناد فـاقم من شـعوره بالحرمـان وأجـج رغبتـه تجـاه العـذارى والغضيضات القاصرات. كان زواجه حاجة غدت غلاطة ثـم صارت عقاباً. كان يظن بأنه سيحظى من خلالها بالمال الذي سيوفر له راحة البال فيتفرغ دونما قلق للصبيات الفاتنـات. كان يتمنى في يفاعته أن يتزوج من امرأتين. الأولى هيفـاء غيداء ملطاء، لا تلد ولا تحيض ولا تبيض ولا تجـوع ولا تشبع. يتأنى في معاشرتها كما يتـأنى فـي كـي الشـفوف والكشاكش والسوابر، وينزلق فوقها مثل انزلاق مكواته فوق الخز والحرير. أما الثانية فيريدها حسـناء منجابـاً مـذكاراً يواقعها في السنة مرة وتضع له ذكراً كـل مـرة. فتحققـت أمانيه بالمعكوس. لهذا كانت تحرقه حكايا المجربين وتلهبـه طرائف الفحش ويثير غيظـه غـرام العاشـقين. فيتبـاهى بغرامياته وكثرة معشوقاته أمام جلسـائه المتبـاهين. ومـع المتزمتين البلهاء، يدعو في عظاته لإقامة الحد علـى مـن

يقترب من تجاوز الحد . في داخله يتمنى لو تتحول غرفـة غسيل الثياب إلى حمام نساء حتى يغسل فيها كل مـا علـق بالتاريخ من محرمات تحريمها حرام. فينتصب وهو يفـرز الثياب النسائية ويتحسسها كأنها أجساد آدمية. وفي القيظ يقفل على نفسه باب الواجهة ويكوم الثياب النسـائية فـي غرفـة الغسيل ويستلقي فوقها عارياً، فيحلم بأجساد صاحباتها تنساب منها وتتخاطفه. وإذا نقل عناد لأمه أن عمه أقفل على نفسـه الدكان، لا تبالي طالما يختنق بداخلها وحده، وكـان هـو لا يبالي لو يظل فيها العمر وحده ولا ينام مع أم عنـاد. لكـن المصبغة والإيجارات والمبنى كانت تجعلـه دائمـاً يتـوخى رضاها. وأمام أصحابه كان يمـارس الجبـروت بمكواتـه وادعاءاته بحكاياته، فقد افتض عشرات العذارى قبل زواجه من أم عناد : هنا. هنا. بجانبكم. غرفة الغسـيل تشـهد كـم واحدة غسلت فيها دماءها... كانت ادعاءاته تزيد من نقمتـه على خير، فلو أنه جاء بنجلاء إلى المصبغة لمـا حصـلت فضيحة على الإطلاق. لديه ماء كافٍ لشطف دماء الحـروب وجلب الوئام والسلام.

لهذا جن جنونه وهويسمع من أبي يحيى عما فعله خير، وفي اليوم التالي تلصص إلى التسوية وتهيـأت لـه مئـات الأوضاع وهو يبحث فيها عن أية آثار. لكنه لم يكتشف مـا اكتشفه عناد الذي وصل إلى الألواح المبقعة داخـل كومـة الأخشاب. وعندما عرف من زوجته عما اكتشفه عناد كـاد يطيش صوابه. حتى الصبية يعرفون بهذه الأمور خيراً منه. لكنه تجاوز قصوره بتعديل الحكاية والتأكيد من جديد علـى مكارم الأخلاق والعفة والطهارة وصون عرض المجيـدات الحصيفات. ولشدة لهفته على الافتضاض الذي حرم تجربته، كان يتمنى أن يحظى بافتضاض تجرف دماؤه الدكان. ومـع الوقت صار يتمنى لو تملأ دماء خير سـيل عمـان. كـان يتحدث بالموضوع نفسه عندما جـاء عنـاد ملهوفـاً وقـال بانفعال : عمي. عمي. رأيت خير يدخل إلى التسوية.

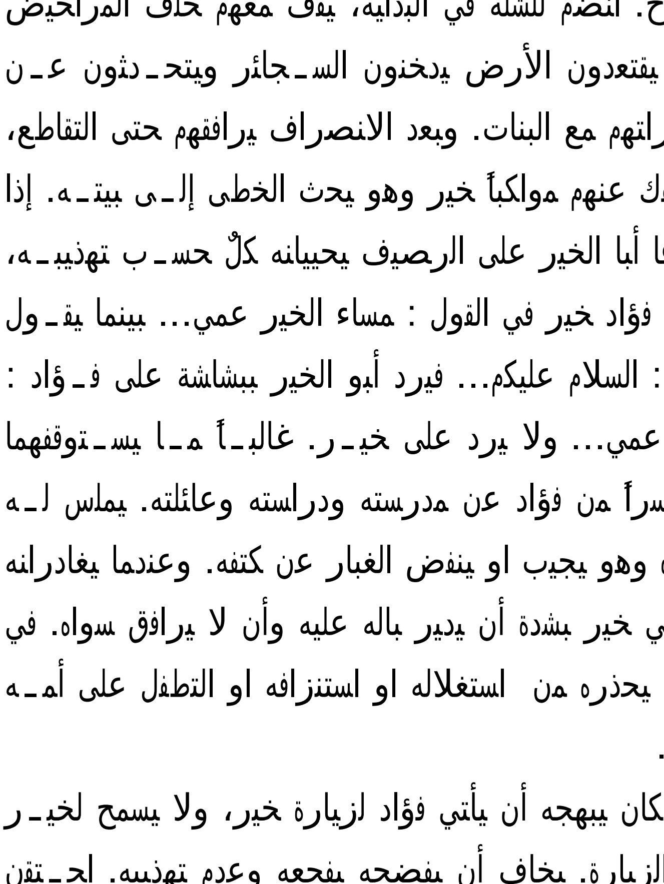
- ماذا.؟... صرخ نذير بأعلى صوته.

- وا   العظيم. تبعته ويحيى إلى فوق. شـفته بعينـي يدخل التسوية.

- علي الحرام غير يسيل دمه الليلة... قال نذير وهـو يغادر وعناد مهرولين، تاركين الجالسين متحفـزين لسـماع حكاية تسليهم في مهاجعهم المشبعة بالمحرمات.

٢٠

احتج فؤاد على فكرة انتقاله إلى ثانوية الجوفـة التـي اقترحتها أمه ووافق عليها أبوه. ومـع إصـرارهما وافـق متوجساً. لما ابتدأ الدوام اقتنع بهـا. إذ لـم يعـد مضـطراً للاستيقاظ باكراً والاستعجال من أجل الباص الـذي يـزعج زاموره الجوفة بأكملها ولا ينتظره أكثر من دقيقة. كما أنـه خلاص من ضجر الرحلة ومللها ورجرجتها وطـول مـدتها، فبدلاً من قضاء ساعة على الأقل داخل الباص وهو ينتقل به من بيت إلى بيت، يستطيع الوصول إلى ثانوية الجوفة فـي أقل من ربع ساعة. كذلك الأمر في الرواح. والأهم من ذلك كله، أنه لم تكن هندمته تجلب انتباه طلبة المدرسة الخاصـة الذين في معظمهم أثرياء، بل وعظيمو الثراء. أما في ثانوية الجوفة فهو لم يجلب الانتباه فحسب، بل تألق وغـدا محـط الأنظار. لاسيما أنه يجيد الإنجليزية العصية على الطلاب.



رافق خير منذ اليوم الأول، في الذهاب أحياناً ودائماً في الرواح. انضم للشلة في البداية، يقف معهم خلف المراحيض بينما يقتعدون الأرض يدخنون السجائر ويتحدثون عن مغامراتهم مع البنات. وبعد الانصراف يرافقهم حتى التقاطع، ثم ينفك عنهم مواكباً خير وهو يحث الخطى إلى بيته. إذا صادفا أبا الخير على الرصيف يحييانه كلٌ حسب تهذيبه، يسبق فؤاد خير في القول : مساء الخير عمي... بينما يقول خير : السلام عليكم... فيرد أبو الخير ببشاشة على فؤاد : أهلاً عمي... ولا يرد على خير. غالباً ما يستوقفهما مستفسراً من فؤاد عن مدرسته ودراسته وعائلته. يملس له شعره وهو يجيب او ينفض الغبار عن كتفه. وعندما يغادرانه يوصي خير بشدة أن يدير باله عليه وأن لا يرافق سواه. في البيت يحذره من استغلاله او استنزافه او التطفل على أمه وأبيه.

كان يبهجه أن يأتي فؤاد لزيارة خير، ولا يسمح لخير برد الزيارة. يخاف أن يفضحه بفجعه وعدم تهذيبه. احتقن وجهه عندما استأذنه فؤاد مرة أن يسمح لخير بالمجيء معه

إلى محل أبيه.كادت أعصابه تفلت منه، فسأله بجفاء : وماذا سيفعل في محل أبيك.؟.

قال فؤاد : لا شيء سأتسلى وأياه ثم نعود معاً.

رفض بشدة. خير لا يستطيع التأخر ولديـه واجبـات مدرسية. قال فؤاد بأنهما سيدرسان هناك كما أن غداً الجمعة. أصر أبو الخير على موقفه. أنه يحتاج خيـر هـذا المسـاء وسيسمح له مرة أخرى، وكان أكثر ما استحوذ عليه لحظتها ذكرى زيارته لمحل أبي فؤاد وشعوره يومها بالصغار أمـام زبائنه المهندمين، فكيف سيغدو حالـه إذا عرفـوا أن هـذا الرثيث ابن صاحب البناء : خاص عمي. مرة ثانية... عاتبه فؤاد بأدب : كنت أظن أنك ستوافق.

- قلت لك. أنا موافق. لكن مرة ثانية.

- لكن يا عمي، أخبرت أمي أن خير ذاهب معي اليوم إلى المحل.

انقشعت الغشاوة عن الجنة وتلألات نجومها في وضـح النهار وتفتحت أرضها كالتويج فإذا صهارتها طلـع عـابق بالرحيق والحريق : طيب يا عمي، كان إحكي لي إنك حكيت لأمك. على شرط ان لا تتأخرا... في البيت بـرر موافقتـه

لخير قائلاً : على ا يعطيك دفعة من الأيجـار المسـتحق عليه.

كاد خير يطير فرحاً، كانت لهفته للتجول في الشوارع تزيد عن لهفة أبيه في انتظار المعلمات.

لكنه في محل أبي فؤاد لم يحس مثل أبيه بالصغار وإنما بالاستياء. كأن كل شيء في المحل قد خيط بالدرزة. الزبائن وملابسهم ووضعية جلوسهم وأحاديثهم وضحكاتهم. جاملـه أبو فؤاد في البداية، فسأله عن عائلته ومدرسته، ثم أشاح عنه كزبائنه الذين استقبلوه بازدراء وأنبوا فؤاد بـالنظرات. لمـا جيء بالشاي، تجرعه برشـفات متتابعـة سـريعة، بينمـا الجالسون يرشفونه بحذر وتمهل حريصين علـى أفـواههم وملابسهم والثبات في مواضعهم بأقل الحركات.

استغل مرور لحظة صمت عابرة، وهب واقفاً : عمـي لازم أمشي. وعدت أبي أن أعود باكراً...

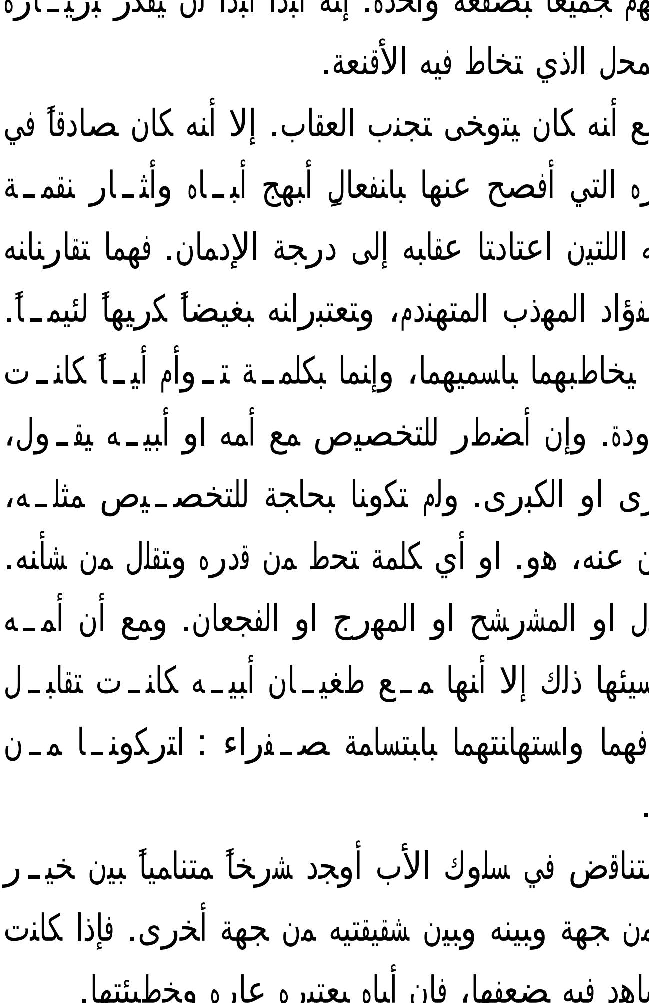
رحب الجالسون بعزمه وحثوه على الإسراع بإبداء عدم الاكتراث، فقابلهم بالمثل، وتقدم إلى أبـي فـؤاد وصـافحه بحرارة. قال لفؤاد : رافقني للشارع...وبسرعة إلى أبيـه :

صحيح. كدت أنسى. أبي يسلّم عليك ويسأل إذا كنت ستدفع لنا دفعة من الإيجار.

ابتسم أبو فؤاد وقال ببشاشة : قل لأبيك بأني لست ناسياً.. لم يبال الآخرون بهذه المداخلة التي أخرته ولم تقدمه.

تسكع في شوارع المدينة بسرورٍ وحبورٍ وفضول، وهو يحس بالهواء الملوث عطراً صافياً يثير رغبات جسده ووجدانه.

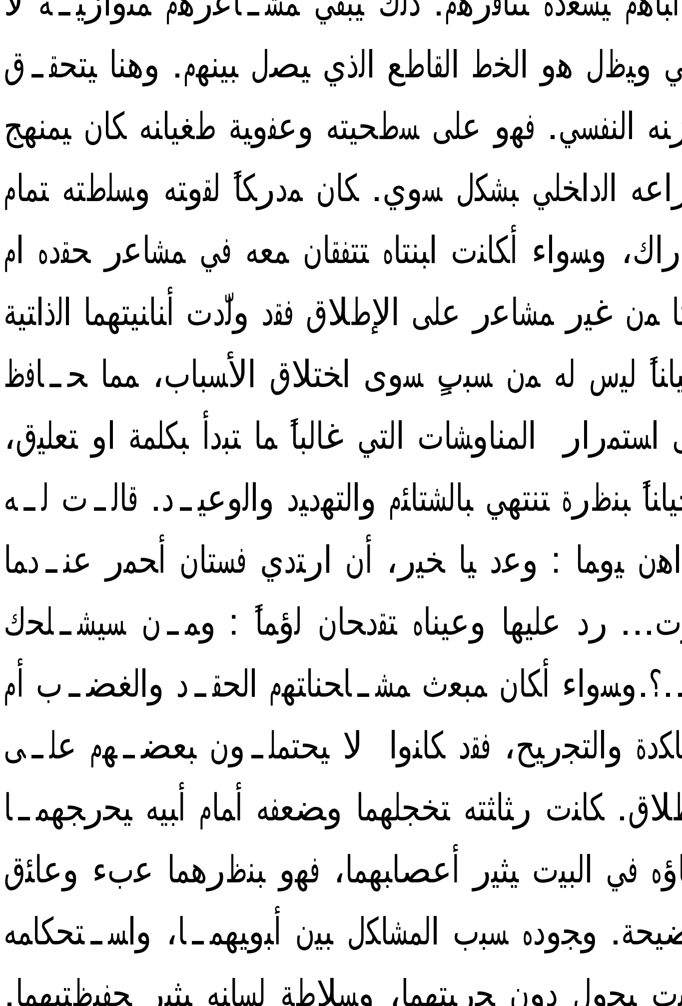
لما وصل البيت، كان أبوه عابساً متجهماً وأمه منكمشة مضطربة مصفرة الوجه وشقيقتاه التوأمان تغليان غيظاً. أولاً ذهب برفقة فؤاد الذي ترغبان كلتاهما في رفقته، وستدفع أمه ضريبة مصيعته، وكانت قد دفعت شيئاً منها شتائم وإهانات. توقع الجميع أن يبطش به أبوه الذي ظل منذ ذهابه يتهدده ويتوعده لأنه احتال عليه وأحرجه مع ابن الجيران. لكن خير أنقذ نفسه، عندما بادر بإبداء ندمه من هذه الزيارة التي التقى فيها بأناس مترهلين متصنعين لا يثبت رجولتهم إلا الثياب المحشورين فيها حشراً، ولو وقفوا صفاً واحداً فإن أباه



سيوقعهم جميعاً بصفعة واحدة. إنه أبداً أبداً لن يفكر بزيـارة ذلك المحل الذي تخاط فيه الأقنعة.

مع أنه كان يتوخى تجنب العقاب. إلا أنه كان صادقاً في مشاعره التي أفصح عنها بانفعالٍ أبهج أبـاه وأثـار نقمـة شقيقتيه اللتين اعتادتا عقابه إلى درجة الإدمان. فهما تقارنانه دائماً بفؤاد المهذب المتهندم، وتعتبرانه بغيضاً كريهاً لئيمـاً. فهو لا يخاطبهما باسميهما، وإنما بكلمـة تـوأم أيـاً كانـت المقصودة. وإن أضطر للتخصيص مع أمه او أبيـه يقـول، الصغرى او الكبرى. ولم تكونا بحاجة للتخصـيص مثلـه، فتقولان عنه، هو. او أي كلمة تحط من قدره وتقلل من شأنه. المهرقل او المشرشح او المهرج او الفجعان. ومع أن أمـه كان يسيئها ذلك إلا أنها مـع طغيـان أبيـه كانـت تقابـل استخفافهما واستهانتهما بابتسامة صـفراء : اتركونـا مـن سيرته.

التناقض في سلوك الأب أوجد شرخاً متنامياً بين خيـر وأمه من جهة وبينه وبين شقيقتيه من جهة أخرى. فإذا كانت أمه تشاهد فيه ضعفها، فإن أباه يعتبره عاره وخطيئتها.



لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً للتقريب بين أبنائها طالما أن أباهم يسعده تنافرهم. ذلك يبقي مشـاعرهم متوازيـة لا تلتقي ويظل هو الخط القاطع الذي يصل بينهم. وهنا يتحقـق توازنه النفسي. فهو على سطحيته وعفوية طغيانه كان يمنهج صراعه الداخلي بشكل سوي. كان مدركاً لقوته وسلطته تمام الإدراك، وسواء أكانت ابنتاه تتفقان معه في مشاعر حقده ام كانتا من غير مشاعر على الإطلاق فقد ولّدت أنانيتهما الذاتية طغياناً ليس له من سببٍ سوى اختلاق الأسباب، مما حـافظ على استمرار المناوشات التي غالباً ما تبدأ بكلمة او تعليق، وأحياناً بنظرة تنتهي بالشتائم والتهديد والوعيـد. قالـت لـه إحداهن يوما : وعد يا خير، أن ارتدي فستان أحمر عنـدما تموت... رد عليها وعيناه تقدحان لؤماً : ومـن سيشـلحك إياه..؟.وسواء أكان مبعث مشـاحناتهم الحقـد والغضـب أم المناكدة والتجريح، فقد كانوا لا يحتملـون بعضـهم علـى الإطلاق. كانت رثاثته تخجلهما وضعفه أمام أبيه يحرجهمـا وبقاؤه في البيت يثير أعصابهما، فهو بنظرهما عبء وعائق وفضيحة. وجوده سبب المشاكل بين أبويهمـا، واسـتحكامه بالبيت يحول دون حريتهما، وسلاطة لسانه يثير حفيظتيهما.

كانتا تمرحان في الشرخ القائم بينه وبين أبيه، فيستمع أبوهما لشكواهما حتى لو كانت افتراء. ويزجره إن شـكا، وأحيانـاً يعاقبه. فغدتا بالنسبة له سارقتين اغتصبتا طفولته وصباه. لا يتورع في كثير من الأحيان عن معاملتهما كساقطتين. يبتسم بمكرٍ وخبثٍ وهما تحدجان فؤاد بوله او تحدثانه بغنجٍ ودلال. من ناحيتهما لم تكونا تبالبين به او تكترثين لأمـره إذا كـان فؤاد في زيارته، فتقتحمان عليهما الغرفة وتسألان فـؤاد أن يساعدهما في دراستهما، ولا تتورعان عـن دعوتـه إلـى مخدعهما، طالما أن أباهما شغوف بتحسين صـورته أمـام المعلمات والجارات، ولن يمانع بأن تساهما في تحسينها أمام ابن الجيران. كانتا ماهرتين باستغلال ضعف أبيهمـا الـذي ينفجر في وجه خير بمنتهى القسوة. فصارتا تتلاذذان بعقابـه وتستمتعان بعذابه. كانتا تنتقمان من حرمانهما بحرمانه. فلـم تشعرا يوماً بالإشفاق عليه، اللهم إلا عندما أطلق عليه أبـوه النار. فهما في قرارة نفسيهما لا تتطلعان لموتـه بقـدر مـا تتوقان لشقائه. حتى في تلك اللحظة فإن خوفهمـا مـن دوي الرصاص كانت له الفاعلية الأكبر، وعندما عرفتا في ليلتهـا السبب، صار لطغيانهما مبرر ولّد فيهما أعمق الأحقاد، فلـم

تعودا ترومان العقاب له بل الخلاص منه، ولا تتمنيان قتلـه بل بتر عضوه الذي انتهك فيه الحرام فـي بيـتهم الحـرام. فالخيط الرفيع الذي يفصل بين الرغبة في الشيء والخـوف عليه جعلهما تحسان بالخشية منـه، فـدفع التنـاقض بـين دوافعهما الغريزية وقيودهما الاجتماعية بالنقمة إلى ذروتها. تماماً مثل خالهما نذير، الذي كان مدفوعاً إلى الاتجاه نفسـه وإن اختلفت مظاهر طبيعته عن طبيعتهما. إذ كيـف يحـول دونهما ومحادثة فؤاد او الاختلاء به بينمـا يفـتض بكـارة عذراء في وضح النهار. تساءلت كلتاهما في دواخلهما، ترى هل كان أبوهما سيطلق النار عليهما لو اقترفتا فعلته النكراء دون أن تتساءلا إن كانتا ستصفانها حينها بالنكراء.؟. حتى لو لم يطلق عليهما أبوهما النار سيكون بأسه شديداً وبطشه أشد. من حيث لا تدريان كانتا تتفقان مع خير في نظرته للحيـاة، فهذا العالم عالم للكبار تحكمه شرائعهم وتسـوده سـلطتهم. الفرق بينه وبينهما ان لديه حلماً للخلاص قد يتحـول لإرادة في أي لحظة، بينما كانتا تؤثران النجـاة بالخضـوع. لهـذا فإنهما كانتا تحسان بالتمرد يستهدفهما أكثر ممـا يسـتهدف السلطة التي تخضعهما. فكان حقدهما على خير بسبب فعلته

يفوق حقد أبيهما بالنسبة للفعلة نفسها، ونقمتهما على نجـلاء أشد من نقمة ذويها . فالحكم على الحادثة بالنسـبة لهمـا لا يتوخى العدل بقدر ما يتوخى الانتقام، ولا ينبعث من الحكمة بقدر ما ينبعث من الأحقاد. فلو كان الافتضـاض اغتصـاباً لترك الأمر للقضاء، أما كونـه استسـلاماً فإنـه مسـؤولية المجتمع الذي يرفض أن يمارس الحق فيه من غير اسـتئذانٍ وعقودٍ وتواقيع كهان. لهذا كان توقهمـا الغريـزي للحريـة مستحيل عليهما، فعبور بستان الطبيعة المسـيج بالقضـبان خطيئة، والانعتاق من قيـود المجتمـع جريمـة. وهمسـتا لبعضهما ليلاً انه ربما لم يكن أخوهما، وحتى لا يحذوا حذو أبيهما قالت الصغرى بأنه لقيط وأيدتها الكبرى. لو لم يكـن لقيطاً لما عامله أبوهما هكذا. كانتا تحرصان في تبرئهما منه بهذه الطريقة على براءة أمهما. وتناقلـت بنـات المدرسـة أقوالهما التي كانتا تردان بها على المتسائلات والفضـوليات بعدما سرى الخبر في المدرسة وبين المعلمات والطالبـات. لكنهما لم تنقلا لأبيهما شيئاً من ذلك. فقد أحستا بالخطر لـو تلوثت صورته التي يجاهد لتلميعها وتألقهـا، لاسـيما وأنـه ضاعف من مراقبته لهما والتشديد عليهما وتحـذيرهما مـن

الوقوف في النوافذ أو التلكؤ في الطرقات او الالتقاء بالشبان لأي سبب كان. تدللت عليه إحداهما : نحن أصلاً لا نتحـدث إلا مع فؤاد... وردت الأخرى : ليت لنا أخاً مثـل فـؤاد... وهما تتمنيانه عشيقاً في انسجام تخاطري هائل مـع أبيهمـا الذي يكون لحظتها يفكر بأم فؤاد. كان بين ثلاثـتهم تـوارد أفكار عجيب وكأن أبا الخير توأمهمـا الثالـث : زوجـوني وسوف يكون لكم أخوة أحسن من فؤاد.

تتوارد خواطرهمـا عنـدما تـرد إحـداهما : لمـاذا تتزوج.؟... وتتقاطع كلماتهما معاً وهما تضـيفان : سـلامة أمي... تقولان ذلك وكأنهما شخص واحد.

تند عنه شبه آهة : إيه... ويضيف متأسـياً : سـلامتها على كل حال... وتتغير تعابيره بينما تؤنبهما أمهما بنظـرة عتاب وهي تعض على شفتها، وتكـون خواطرهمـا دائمـاً جاهزة : ماذا قالت لك اليوم معلمة الرياضة عـن أبـي.؟.. تسأل الصغرى الكبرى.

- الآن يكبر رأسه... وتتكركران خجلاً. فتنقلب تعابيره رأساً على عقب وهو يحس بالـدفء والنشـوة والعظمـة : رأسي كبير من يومي...

كانتا بحسهما الأنثوي المضاعف تدركان تماماً مقـدار الضعف الذي يخفيه تواضعه المصطنع، وما سوف يترتـب على قلقه إن لم يسمع الإطـراء، فتعالجـان الأمـر بمكـر شيطان : ا   يديم لك عافيتك أبانا، وا   همتك أقوى من همة عشرة شبان... وتنظر لشقيقتها، التي تعقّب : طبعـاً. وهـذا رأي المعلمات كافة.

- ومعلمة الرياضة أيضاً.؟.

- كلهن أبي. والأهم انهن إضافة لإعجـابهن بقوتـك، فحنانك على البنات يعجبهن أكثر.

- أصلاً الحنان خاق بالبنات ولأجل البنات... يقول ذلك وقد ابتعد خياله عن المدرسة واقترب من بيت الجيران.

بعد مباغتته لأم فؤاد أثناء مطاردته خير، تقعرت بنظره المرآة التي تنعكس فيها صورته أمامها وصغر حجمـه وإن ألهب ذلك المشهد رؤوس الشعر في بدنه وتخلل الحريق إلى أعماق مساماته. صار يشعر بالخجل منهـا وبـالحرج مـن زوجها، حتى أنه لم يقم بإصلاح الباب المخلوع بنفسـه بـل أحضر نجاراً لهذه الغاية.

ومع أن فؤاد لم يعرف ماذا كانت تفعل أمه عندما اقتلع خير الباب، إلا أنه توجس منه. فإذا كان بمثـل هـذه القـوة ليقتلع الباب وبمثل هذه الجرأة ليفتض بكراً، فإنـه لا يـأمن على أمه في مثل هذا البيت. وكان أبوه الذي عرف كل شيء بالتفصيل قد اتخذ الموقف نفسه، فخير الـذي كـاد يمـوت بسبب الاغتصاب، هل يمكن أن ينسى لـذة الاغتصـاب.؟. وأبوه الذي لم يكبح جماح نفسه وهو يطلق النار على ابنـه، هل يستطيع أن يكبح جماحه إذا كان الدافع أقوى. وكان قـد تحدث مع زبائنه من محامين وعارفين عن تفاصيل الحادثـة دون أن يأتي على ذكر اقتحام خير لبيته. وكانت ردود فعـل جلسائه معاكسة تماماً لجلساء نذير. لـم يسـتغربوا قضـية الافتضاض، فهو يحصل كل يوم. اغتصـاباً او استسـلاماً. الغريب بنظرهم كان إطلاق النار من أب على ابنه : ثـلاث طلقات. هذا يعني أنه قصد قتله... بنظرهم، كان خير جانحاً وكان أبوه جانياً، وأن القانون الذي لا يعاقب الأب على قتـل ابنه ويعاقب الابن على قتل أبيه هو قـانون جـائر. أقنعتـه أقوالهم. للشباب مرحلة طيش على الآباء احتمالها طالما أنهم

بإنجابهم لهم تسببوا بها او فليتوقفوا عن الإنجـاب. تلاشـى توجسه من خير وازداد توجساً من أبيه.

علّق وهو يروي لزوجته بعض ما سـمعه مـن آراء : مسكين خير.

ردت بحدة : يستاهل... ظن زوجها أنها تتعاطف مـع بنات جنسها مع إدراكه لعمق تأثرها من تلك المباغتة. لكنها في الواقع انما كانت تعبر عن غيظها المقيـت لأنهـا بـدت كباقي النساء بينما تجاهد حتى تبدو متألقة مكتملة لا تكبر ولا تصغر ولا تنثني ولا تتجعد ولا تتسخ ولا تتنظـف. كانـت تحس أنها معبودة لا تتنازل ولا تتلاطف. فكيف تغفـر وقـد شوهدت في شلحتها المكشوفة، ملطخة بالدبق شبه منتوفـة : حتى لو استلزمك الأمر بيع المحل لليهود والـرقص علـى الدف والعود، ستنقلني من هذا البيت.

- وإذا طالبنا بالمبالغ المستحقة.؟.

- قل له، هذا إيجار الشهر، والباقي لما يفرجها ربنا..

لم يبد زوجها أي معارضة، وأبدى ابنها كامل الموافقة. قد يكون ما حصل فرصة للتخاص مـن المبـالغ المسـتحقة عليهم. واتفقوا على ان يجعلوا من اقتلاع البـاب، حجـتهم

الأساسية للرحيل حتى لا يتذكر أبو الخير مسدسه إذا اشترط التسديد قبل الرحيل.

أوشك أن يضرب بأي شـيء أمامـه. حـاص ولاص وغاص في مقعده وضرب كفيه وفركها وتلمظ وتبلعم وكـاد يدق على صدره، بعدما ألقى أبو فؤاد القنبلة.

أشعل سيجارة وكانت أخرى مشتعلة في المنفضة. لهثت أنفاسه وضاق صدره كأنه موشك على الاختناق. لـم يحـر سؤالاً ولا جواباً ولا تعليقاً وعبرت نظراتـه عـن منتهـى الشقاء. انتفضت ركبتاه وكأن الحياة عاودته بعد أن غادرتـه للحظات : لماذا.؟...صرخ برعبٍ وضعفٍ واستجداء وكأنه استفاق من ثقل كابوس... قالها وهو يتصور أم فؤاد بثيـابٍ وبدون ثياب. في بيتها وفي بيته. كما يحلم بها وكمـا يحلـو لها. إنه لا يريد منها شيئاً، سوى أن تظـل جارتـه. جـارة رضية مرضية لا تشترى بالمال وتبذل في سبيلها الأموال : إذا كان الموضوع يتعلق بالإيجار فلا تقلق.

- إيجار وغيره...

- غيره.؟... قال أبو الخير بارتباك واضح عبرت عنه بدقة شفتاه المرتجفتان المنكمشتان الناشفتين. فتردد أبو فـؤاد

في أن يفصح عن السبب. قال بتلعثم : الحقيقة... قاطعه أبو الخير بسرعة : أنا فاهم عليك...

كل شيء إلا الحقيقة. الحقيقة لا تنطـق ولا تقـرأ ولا تكتب. الحقيقة يجب أن تظل في القلوب وإلا تحولـت إلـى كلماتٍ عن الحقيقة وهذا يميت الحقيقة.

غدرت بأبي فؤاد أعصابه فلم يستطع إخفـاء ارتباكـه. راوحت عيناه يميناً ويساراً كأنها ميزان ماء. ذوى التسـاؤل في داخل نفسه. كيف فاهم عليه.؟. هل يقصد انه فهم حجتـه الواهية ولم يقلها بعد : أعرف أن الإيجار مرتفع...

ما هذا.؟. لم يستوعب أبو فؤاد الأمر مثلما لم يستوعبه أبو الخير : وكنت أنوي. صدقني مثلما أقول لك. كنت أنوي تخفيضه. ومنتظر لما تجيء تدفع أبلغك، تقوم يا أبـا فـؤاد، تفاجئني بأنك سترحل... تسأسا مشيحاً بوجهه مقلباً يده كمن يتسائل ويعاتب ويستغرب في الوقت نفسه.

تلك اللحظة ثبتت الواقعية أقدامهما بالأرض. هذه هـي الحقيقة. ليست الحقيقة فيما حصل ولا فيما يحصل وإنما فيما سيحصل. لهذا فإن المتاح هو رحيق الحقيقة ومن لا يستنشقه

أثناء مروره يستنشقه سواه : كان لازم يا أبا الخير تخفضـه لنا منذ زمن.

هنا استعاد أبو الخير الزمام، فاستبعاد الحوادث الأليمـة يقصر طرق النجاة : يا سيدي، نحن أولاد اليوم. وأنا يهمني جيرتك بالدرجة الأولى... وكانت الفرصة مواتية للاعتذار : إياك أن تكون أم فؤاد زعلانة من خلع الباب عليهـا. وا ، وما لك علي يمين، أني لم أكن أرى شيئاً أمامي عندذاك، ولا أذكر إن كان أحد في المنزل أم لا. ا لا يحطك محلي تلـك الليلة. مليح ما جاطني المغضوب.

- ا يعينك... قال أبو فـؤاد، وقالـت زوجتـه : ا يعينه... أضافت : المهم، دينارين ليس كفاية. لازم يخفـض لنا أربعة دنانير على الأقل. وثمانية كثيرة على هذه السكنة.

- لكني وافقت معه.

- أنت وافقت وأنا لم أوافق. لبكرة يفرجها ا ...

قبلت أم فؤاد اعتذار أبي الخير طالما عبر عنـه ماليـاً وأرسلت لأم الخير تسأل إن كان لديها مـا يشـغلها مسـاء الخميس.

انبعثت البهجة في بيت أبي الخير بعدما سـاد أجـواءه يأس يتنامى وغضب يتجدد وشتم وضرب وتهديد. انتهى كل ذلك بمبادرة أم فؤاد التي اخترقت حصاراً كان يميـت أبـا الخير. أما وقد عادت الأمور إلى مجاريها بعد أن فقد الأمل فيها، فإنه على استعداد للتجاوب مع أم فـؤاد طالمـا أنهـا غمرته بهذا الكرم الأصيل : مرحبا بك يا أم فؤاد. لكن لنقل ثلاثة. وا أربعة كثير.

- لا. ليس كثيراً. إذا كنت تريد شراء جيرتنا كما قلـت بلسانك.

- يا ستي النبي أوصى على سابع جار. تكرمي.

- كلك كرم وذوق يا أبا الخير.

- ماذا تظنينني يا أم فؤاد.؟. يهودي.!. ا يسامحك. انا مسلم، وعندي الجيران أهم من الأقرباء والأنسـباء... تلـك اللحظة خطر بباله نذير، وسمع صوته من خلفه أيضاً : أبـا الخير. أبا الخير..

التفت إليه بجفاء وشراسة وهو يود التهامه. ليته ذكـر الشيطان ولا تفوه بكلمة الأنسباء : ما الذي أتى بك.؟... قالها

بقرف، كأنه يبصق. فقال نذير بانفعال إضافي : أريد أن أحكي لك شيئاً هاماً.

تبادلت أم فؤاد وزوجها النظرات، بينما نقلت أم الخير نظرها بين زوجها وأخيها وقلبها يخفق باندفاع كأنه سيمزق صدرها ويخترق فستانها وقد أحست بأن شيئاً جرى لخير : احكي. ماذا عندك.؟.. قال أبوالخير باستخفاف، وأشار بيده إلى جاريه وهو يضيف : الجماعة أهل لا أخفي عليهما أمراً.

نتر نذير يده للأسفل منبسطة مشدودة الأصابع وقال بنبرة حازمة : إحزر من يوجد بالتسوية يا ابا الخير.؟.

- من.؟... سأل أبو الخير وقد تنبهت حواسه وضاقت عيناه على ضيقها.

- المحروس خير... قال نذير وهو يراقص حاجبيه ويهز رأسه.

- ماذا.؟... صرخ أبو الخير وأردف وهو يهب واقفاً : من قال لك.؟.

- الآن عرفت. وقلت آتي لأخبرك.

لم ينتظر أبو الخير سماع المزيد بل اندفع كالمجنون، يلحق به أبو فؤاد وهو يهدىء منه ويشده من ذراعه حيناً

ويتقدمه حاجباً عنه الطريق حيناً آخر، ومن ورائهما نـذير، وبمجرد عبورهم مدخل التسوية تبعهم عناد .

- أزح من قدامي ا يخليك يا أبا فؤاد.

- خليه يربيه... عقب نذير بينما أبـو الخيـر ينـاور للإفلات والانقضاض على خير بنفاد صـبر محـاذراً عـدم مساس أبي فؤاد أو إيذائه بيديه المتشنجتين المتصلبتين. وكان أبو فؤاد يتحرك أمامه مواكباً حركته.

- ا يخليك يا أبي... قال خيـر وقـد اصـفر لونـه وازرقت شفتاه وراح كل شيء يندفع فيه إلى الوراء ويلصقه بالجدار وهو يحس بقلبه يكاد يتوقف.

- لا تتدخل بين الأب وابنه يا أبا فؤاد... قال نذير.

- كيف ما أتدخل. يا أخي الولد ميت من الخوف.

- وأنا سأميته بيدي... قال أبو الخبر، ونـاور مجـدداً فتصدى له أبو فؤاد بحزم : إذا قربت عليه، لن أدخل بيتـك في حياتي.

بسرعة قال نذير : كيف ما يقـرب عليـه.؟. والـذي فعله.؟.

- هذا بدلاً من أن تذود عن ابن أختك.؟... قال أبو فؤاد بعد أن رمقه بنظرة خاطفة، ثم إلى أبي الخير : صلي علـى النبي يا جار. انظر إليـه. حـرام عليـك، إلا إذا أردت أن يموت بيديك.

- ا لا يرده... قال نذير.

تفرس أبو الخير بوجه أبي فؤاد وقال وشفتاه تترجرجان بعصبية : فقط إكراماً لك يا أبا فؤاد... وإلى خير وهو يرفع إصبعه مهدداً : أسمعتني... هز خير رأسه هـزات سـريعة مرتجفة : إكراماً لأبي فؤاد سأتركك الليلة... وصرخ بـه : والآن إطلع من هنا قبل أن أذبحك... وأزاح وجهه عن أبـي فؤاد وتفّ دون بصاق.

- حاضر... قال خير وهو يتلفت حواليه. أي مخـرج سيقبله باستثناء المرور من الأمام.

- وأين سيذهب.؟. سال أبو فؤاد معاتبـاً فتعلقـت بـه أنظار خير.

- إلى جهنم.

- حسنا... ونظر إلى خير : تعال نام مع فؤاد الليلة.

هز خير رأسه موافقاً.كان مستعداً للموافقة علـى كـل شيء، حتى ما يريده نذير، شريطة أن لا يقترب منـه أبـوه الذي أحس تلك اللحظة بأن الجوفة بأسرها تستحق الـذبح : كيف ينام مع فؤاد... قالها وهو في حيرة أرخت له أعصابه وخنقت حنقه في توتره. فرغم بأسه وسطوته فإنه، شأن خير، لديه شيء يخاف منه ويخاف عليه : يا أبا فؤاد أنـا حـالف على أمه يمين إذا دخل بيت الدرج. هل تريدها ان تتطلق.؟.

- إذن أتركه ينام هنا.

تفرس به أبو الخير. فقط لو كان الواقف أمامه غير أبي فؤاد. قال نذير : كيف ينام هنا.؟. مكانه السجن وليس هنا.

قال أبو الخير دون أن ينظر إليه : إخرس أنت... قالها بنبرة آمرة، وبنفس النبرة لأبي فؤاد موحياً بعدم تراجعـه او تخاذله : فقط للصبح. وأنت المسؤول ... قـال بحـدة وقـد تراخت أعصابه قليلاً .

في طريق العودة، تبعهما نذير عن بعد. قـال بصـوت خفيض كأنه يخاطب نفسه : علي الحرام أنه مستعد لإعطائه البناية إكراماً لأم فؤاد... تلقفها عناد وأطلقها.

تلك الليلة لم تتدخل أم فؤاد إلا في نهاية الجلسـة وقـد شعرت بالملل والضجر من مواصلة أبي الخيـر الشـكوى والتذمر مثل طفل واتته الفرصة للدلال، ومواصلة زوجها في تهدئته وحثه على السماح لخير بالبقاء في التسوية. إنه ولـد وإذا تشرد سينحرف بالتأكيد وربما سيجرف بانحرافه كـل عائلته. وكانت أم الخير ساهمة حزينة مطرقة، فأشفقت عليها أم فؤاد. تدخلت قائلة : خليه ينام في التسوية. ماذا يضيرك يا أبا الخير.؟.

- والذي فعله.؟.

- سينساه الناس... كأنها رسالة مشفرة لا يعرف فـك رموزها سواهما : لينم أينما يريد. لكنه لن يدخل هذا البيت.

قال أبو فؤاد : ألا تزعل إن أرسلنا له فراشـاً... نظـر إليه أبو الخير باستغراب وقال ساخراً : ما هو خزاة العـين جايب فراش...

- أتسمي هذا فراشاً. ا يسامحك... وإلـى زوجتـه : مسكين. وجهه أصفر مثل الليمون. أكيد قاعد يبرد... راحت أم الخير تبكي. فنهرها زوجها : ناقص علي بكائك. قـومي خذي له فرشة وغطاء قديمين..

مضت الأيام دونما خلل يذكر حتى نهايـة الفصـل، وتقدم الجميع للامتحانات النهائية ونجحوا فيها، باستثناء حسن الذي رسب وأعاد الصف، أما باقي الشلة فقد ترفعوا للخامس الثانوي. ونجحت وعد في المتـرك ضـمن مجموعـة ب. وحصلت تغريد على ترتيب أ، فبكت بمرارة وقـد أحسـت بخذلان شديد. كانت قد هيأت نفسها للحظة العظيمـة التـي يشير لها الجميع لتفوقها بين الأوائل العشرة. انهار حلمها في الحصول على بعثة جامعية ولم يكن أمامها سـوى العمـل، فتقدمت ووعد بطلبي توظيف إلى البنك العربي. قبلتا علـى الفور بسبب تمكنهما من الإنجليزية، ووقعتا بضـمانة ولـي أمرهما استقالة مسبقة تتنازل فيها كل منهما عن حقوقها كافة في حال الزواج. ألحقت تغريد بالدائرة الإدارية في الطـابق الثاني، وعينت وعد في قسم الودائع في الطابق الأرضـي، وكان هذا يناسبها تماماً إذ كانت تستقبل موفق جهاراً ودونما حرج أثناء تردده على البنك، لاسيما وأنه كان يحظى باهتمام المسؤولين بسبب ضخامة المبالغ التي يقبضها من المركـز التجاري ويودعها في حساب أبي يحيى.

تعززت العلاقة بين موفق وخير الـذي انكـب طيلـة العطلة الصيفية على عمله، منذ الصباح الباكر وحتى إغلاق المكتبة ولو تطلب الأمر بقاءه إلى ساعاتٍ متأخرة من الليل، بعد أن زوده موفق بمفتاح إضافي طالما أنه يأتي قبل الجميع ويغادر بعدهم.

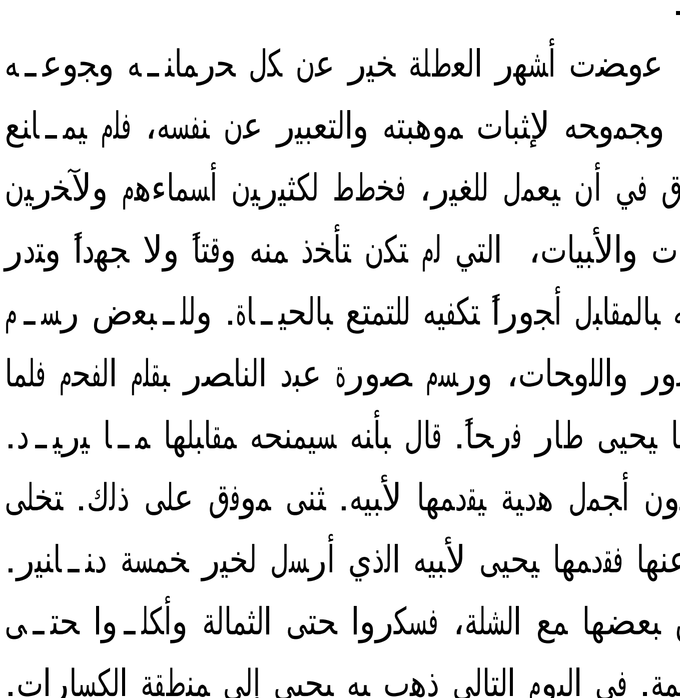
غدت التسوية بالنسبة إليه مكانه الأليف الذي يجـد بـه وحدته وهدوءه ويحلم بتحويله إلى محترف للرسم في يومٍ من الأيام، ولم يعد يستثقل ملء الجرنك والشرب منه والاغتسال، وصنع كرسياً ثبت قوائمه العريضة في أحدى الزويا ووضع تحت مقعده المثقوب تنكة فصار لديه مرحاض. ومن حـين لحين يذهب إلى الحمام الشامي في المهاجرين.

ومع أن عمله قد تضاعف عما كان عليه أثناء المدرسة وتضاعف معه الأجر والمكافأة، إلا أنه تعلم خلال تلك الفترة أكثر مما عمل وأنفق أكثر مما قبض، دون أن يشتري بنطالاً او قميصاً او حذاء. باستثناء حفاية الزنوبـا التـي اشـتراها مضطراً بعدما هرب النعل والكعب من حذائه. لكنه لم يكـن يتوانى عن شراء مستلزمات الرسم وكتب الفن وكان يبـذخ في الصرف على الرغبات.

أقبل على القراءة بنهمٍ مستغلاً فترات استراحته او ضجره من العمل او عندما لا يجد موفق ما يكلفه به. كما صار يحمل إلى التسوية كتاباً بعد آخر يقرأه على ضوء الشموع بنهم وفضول. فاستهواه التاريخ أكثر من الأدب وهو يقرأ لبرستد وتوينبي، وعمقت أفكاره فلسفة برغسون ونيتشة، وأثرت به سيرة الحلاج أكثر مما أثرت به أشعاره، واحتار إن كان ابن العربي أشعرياً أم شاعرياً، وأعجبته جرأة أبي نواس وثورية السياب، وكره شبح هملت، وأخافته كتابات روسو عن قدسية الأب والأبناء الذين لا يولدون أحراراً. وصار يعيد قراءة الكتب الفنية القليلة في المكتبة ويوصي موفق في سفراته إلى دمشق وبيروت أن يجلب له ما يجده عن الفنون، فأثرى موفق مكتبته بنوعية كتب لم يكن يهتم بها من قبل، وبخاصة المنشورات المصورة الصادرة عن المكتبة الصغيرة اللندنية والباريسية، إضافة إلى ترجمات لفونغر وساسيه وبيكاسو، فتأثر خير بمؤلف كاندانكس عن روحانية الفن أكثر من الآخرين. قرأه للمرة الأولى في سدة المكتبة ومرة ثانية في التسوية مستنيراً بضوء الشموع. أحس بعدها بسخافة الصور التي رسمها في مجلات الحائط المدرسية، إذ

اكتشف وهو يحذو حذو كاندانكس أن للون قوة تأثيرية هائلة، فراح في رسوماته السريعة يعبر عن نفسـه لونيـاً ولـيس صورياً. وقد شجع إعجاب موفق به على تعزيز موجـودات مكتبته من أقلام التخطيط فجاب من دمشق أطقمـاً للكـوفي والثاث والثلثين والديباج والطومار. ومن بيروت جلب أدوات وعِدداً كاملة لاحتياجات الرسامين، فإذا بخير يساهم دونمـا قصدٍ في تطوير المكتبة ويساهم موفق دونما قصدٍ في تطوير خير الذي وفرت له المكتبة معيناً لا ينضب من المعلومـات والأفكار، فثقف نفسه بمطالعة الكثير مـن كتـب الفلسـفة والتاريخ ، وعمقت أفكاره مستنسـخاته للكتابـات اليسـارية الممنوعة. أثرت به كثيراً مقولة بـابويف " فلتتـوار كافـة الفروقات المنفرة بين الأغنياء والفقراء، الكبـار والصـغار، السادة والخدم، الحاكمين والمحكومين ". كانت الكلمات على سطحيتها تعبر عن كينونته أدق تعبير وكأنها صدرت عنـه. فصار يناقش أصحابه بما يستلهمه من أفكار تتصـارع فـي نفسه، فهو حيناً يدعو للإباحية وحيناً ينادي بالفوضـوية دون أن يعي أي هذه وتلك من الشيوعية. بالنسبة له، فـإن زوال الشرائع والهيئات والمؤسسات هو زوال للاستبداد. فبينما كان

طلبة المدرسة يسيرون على خطى آبائهم ويرثون عقائـدهم وأفكارهم، فإن خير كان يتطلع لهدم ماضيه بإباحة محرمات أبيه.



عوضت أشهر العطلة خير عن كل حرمانـه وجوعـه للفن وجموحه لإثبات موهبته والتعبير عن نفسه، فلم يمـانع موفق في أن يعمل للغير، فخطط لكثيرين أسماءهم ولآخرين الآيات والأبيات، التي لم تكن تأخذ منه وقتاً ولا جهداً وتدر عليه بالمقابل أجوراً تكفيه للتمتع بالحيـاة. ولابعض رسـم الصور واللوحات، ورسم صورة عبد الناصر بقلم الفحم فلما رآها يحيى طار فرحاً. قال بأنه سيمنحه مقابلها مـا يريـد. ستكون أجمل هدية يقدمها لأبيه. ثنى موفق على ذلك. تخلى له عنها فقدمها يحيى لأبيه الذي أرسل لخير خمسة دنـانير. أنفق بعضها مع الشلة، فسكروا حتى الثمالة وأكلـوا حتـى التخمة. في اليوم التالي ذهب به يحيى إلى منطقة الكسارات. انتظرا حوالي الساعة قبل أن تأتي سـيارة بـك أب وعلـى ظهرها فرشة وغطاء تختفي تحته امرأة مجلببـة معصـوبة الرأس، مالت على جانبها بمجرد انسيابهما تحـت الغطـاء فالتصقا بها كلٌ من معبر، وكفاهما البك أب عناء الهزهـزة

وهو يترجرج بهم في الشوارع المحيطة بعمان كأنهم شـاطر ومشطور بينهما كامخ. قال ليحيـى بعـدما تـرجلا وسـط السوق : ركوب الخطر ألذ من ركـوب امـرأة، فكيـف إذا ركبت الاثنين معاً.

مع نهاية كل أسبوع كان يصر على أن يقبض أجـوره ومكافأته قطعاً معدنية، يملأ بها جيبه ويظل يخشـخش بهـا وهو يتجه إلى دكان سعود ليجد يحيـى والشـلة ينتظرونـه هناك، فيدخن معهم الحشيشة وأحياناً يمضغ الأفيـون. وإذا كان عمله قد در عليه الكثير يدعوهم للبغاء. مـع أن يحيـى صار يبدي استعداده لاصطحابهم إلى المواخير التي يعرفها. إلا أن خير كان يصر على الذهاب إلى بيـت زاهـر الـذي انضم إليه أخ وأخت جديدين، فيقوم بالمهمة قرب النافذة وهو يتفرس بجوع ووحشية في المسـاكن المعتمـة التـي تلمـع نوافذها بالضوء كما تلمع في الظلام أعين الضباع.

عندما يأوي ليلاً، يتفقد حالة التسوية إن كان أبـوه قـد اغار عليها، فإذا وجدها مضطربة الحال يتفقد مخابئه، فيجـد على الغالب بعضاً من أوراقه ممزقة وعدداً من أقلامه مفقوداً

وشموعه مكسرة وأوانيه مبعثرة. لكن أباه لم يضبطه يومـاً فيها.

ظل على عادته، يغادر مع الفجر إلى المكتبـة، يفـتح أبوابها ويرتب أغراضها ويقرأ او يرسم إلى أن يأتي موفق. ويبقى في السدة إلى ساعات متأخرة في الليل، يقضيها فـي القراءة والتخطيط والرسم، ثم يعود إلى التسوية متلصصاً بعد أن يأمن استغراق أبيه في النوم وانطفاء الأضواء في بيتـه. فيدخن بحرية وهو يقرأ على ضوء الشـموع او يخطـط او يرسم، متخذاً من ألوح الخشب مجلساً وحاملاً وملونـة. وإن كان لديه قطعة حشيشة او مضغة أفيـون فإنـه يتعاطاهـا مستسلماً لأحلام زاهيةٍ براقةٍ لا قتامة فيهـا ولا جـوع ولا حرمان. ويحلم باليوم الذي ستغدو فيه التسوية مرسماً يؤمـه عظماء الفنانين ليقول لهم : من هنا ابتدأت حكايتي.

الفصل الثاني

١

منذ حرك زوجها مخاوفها، وهي توكل لابنتهـا أشـغالاً مضنية، لم تغنها عن استجوابها صباح مسـاء . ولـم تكـن تكتفي بأجوبتها، بل تحرص على تفقدها رغم تـذمر نجـلاء وضيقها وحرجها وهي تحلف باكية أنها ستخبرها بمجرد أن تحيض : إذا جاءتك في منتصف الليـل عليـك إيقـاظي... وتصرخ بها : فاهمة.؟.. فتهز نجلاء رأسها بذلة وانصـياع. أحياناً تشدها من شعرها وهي تكرر: فاهمـة. سـامعتيني... فتجهش نجلاء وهي تخاص نفسها : فاهمة. فاهمة. إن شـاء ا أموت حتى ترتاحي.

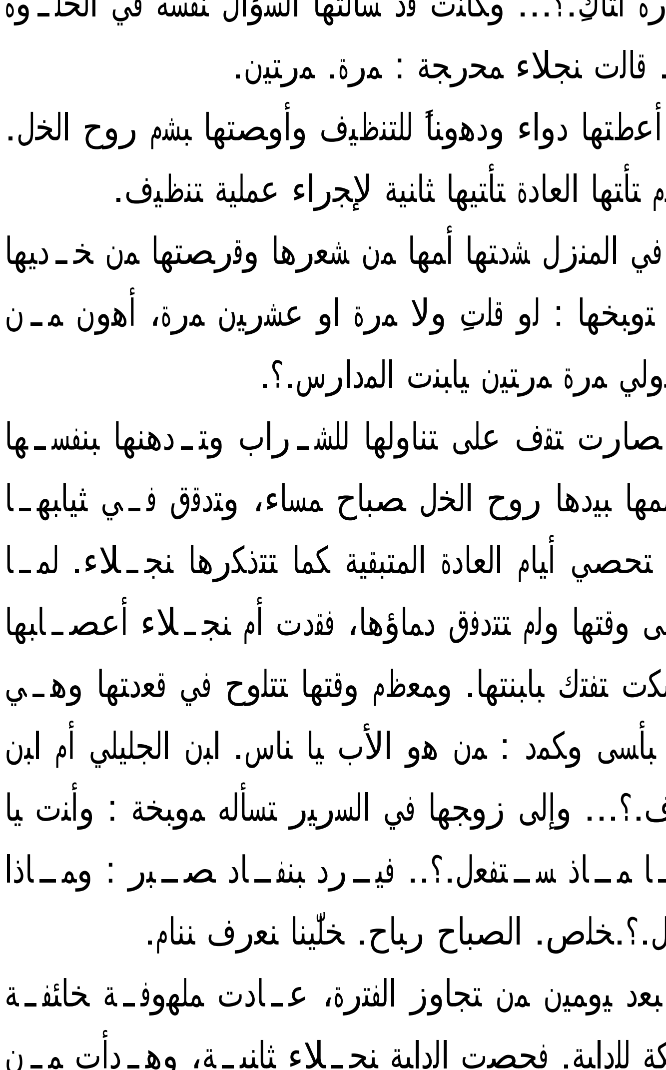
- يا ريت متِ. وياريتني لم أنجب ولا بنت.

تأخر العادة عن موعدها أطلـق وسـاوس أم نجـلاء فراحت تصب جام غضبها تارة على ابنتيها وتـارة أخـرى على زوجها الذي استعجل التسوية مع أبي يحيى. أمـا وقـد قبض المبلغ وبصم بغبائه على الصك فقد ألقى بالمسـؤولية كاملة على كاهلها. زوجها أصـلاً غائـب طوشـة. ولـولا توصياتها له لربما أنهى الأمر بمبلغٍ أقل أو بلا مبلـغ علـى

الإطلاق. أما وقد تأخرت العادة فعليهـا أن لا تتـأخر عـن التدبير.

ذهبت إلى داية موصوفة في منطقة المهاجرين، عـرف عنها القدرة والحكمة والتجريب. أوصت ابنتها قبل وصولهما بلزوم الصمت، وإن اضطرت فلتجـب باقتضـاب. يريـدها زوجها خادمة لأبناء مطلقته، فغـادرت بيتـه بعـد دخلتهـا بأسبوع، وهو لا يمانع الآن بطلاقها إذا أعيد له ما تكبده في سبيل الزواج : ا يجازي أولاد الحـرام. خسـرت البنـت بكارتها... جلّ ما تخشاه أن تكون ابنتهـا حامـل فتضـطر لإعادتها إلى زوجها او الابتلاء بتربية طفله. رجـت الدايـة أن تفحصها وتقوم بما يلزم..

اختلت بها الداية في غرفة مستقلة وفحصتها بدقة طبيب واستجوبتها بحنكة محقق، تارة عن أعضائها وطـوراً عـن أعراضها. ومن هنا وهناك سؤال عـن زوجهـا وعائلتهـا، فعرفت عن أمها وأبيها وشقيقتها وأدركت حقيقـة قصـتها، لكنها لم تتيقن من حملها. قالت لأمها بعد انتهائها : بطن بنتك أهيف ورحمها كأنه لم يمس... نظرت إلى نجلاء وسـألتها :



كم مرة أتاكِ.؟... وكانت قد سألتها السؤال نفسه في الخلـوة معها. قالت نجلاء محرجة : مرة. مرتين.

أعطتها دواء ودهوناً للتنظيف وأوصتها بشم روح الخل. فإن لم تأتها العادة تأتيها ثانية لإجراء عملية تنظيف.

في المنزل شدتها أمها من شعرها وقرصتها من خـديها وهي توبخها : لو قلتِ ولا مرة او عشرين مرة، أهون مـن أن تقولي مرة مرتين يابنت المدارس.؟.

صارت تقف على تناولها للشـراب وتـدهنها بنفسـها وتشممها بيدها روح الخل صباح مساء، وتدقق فـي ثيابهـا وهي تحصي أيام العادة المتبقية كما تتذكرها نجـلاء. لمـا انقضى وقتها ولم تتدفق دماؤها، فقدت أم نجـلاء أعصـابها وأوشكت تفتك بابنتها. ومعظم وقتها تتلوح في قعدتها وهـي تردد بأسى وكمد : من هو الأب يا ناس. ابن الجليلي أم ابن العفيف.؟... وإلى زوجها في السرير تسأله موبخة : وأنت يا أباهـا مـاذ سـتفعل.؟.. فيـرد بنفـاد صـبر : ومـاذا سأفعل.؟.خاص. الصباح رباح. خلّينا نعرف ننام.

بعد يومين من تجاوز الفترة، عـادت ملهوفـة خائفـة مرتبكة للداية. فحصت الداية نجـلاء ثانيـة، وهـدأت مـن

مخاوف أمها. إذا لم تأتها العادة لأسبوعٍ آخر فسوف تعمـل لها العملية. اما الآن فلا تستطيع ان تقوم بذلك. إنها حـائض وعندما تحيض لا تولّد ولا تجهض. ذلك مكروه في جميـع المذاهب وفي أخرى حرام . لما ظهر عدم الرضا في وجـه أم نجلاء قالت : لن يحصل شيء من هنا لأسـبوع. ثـم، يمكن أن يأتيها النصيب ويرزقها ا بعريس اليوم قبل بكرة.

- من سيتزوجها إذا عرف.؟..تلكـأت قلـيلاً قبـل أن تضيف : انها مطلقة ويمكن أن تكون حامل..؟.

- يا سلام. ألم تسمعي بامرأة مطلقة تزوجت، ووراءها عر أولاد أيضاً.كثيرون يقبلون على المرأة لجمالها ولا يهمهم ثيباً كانت أم عذراء.... وتلمست وجه نجلاء المطرقة : ألف واحد يتمنى هذا القمر.

رددت نجلاء في نفسها كلمة قمر بسخرية هـذه المـرة وهي تدرك تماماً ما تحاول أمها والدايـة الوصـول إليـه. حديثهما الودي كان يمهد لإبرام صفقة تنتظر كل منهمـا أن تبادر الأخرى بالإفصاح عنها. لكن ذلك أخذ أكثر من فنجان قهوة بينما الداية تواصل التهوين وأمها تواصـل التهويـل.

أخيراً قالت أم نجلاء : ما لك علي يمين، سـأحلّيك عشـرة دنانير إذا ربنا رزق هذه الغلبانة بعريس مثل الناس...

شعت تعابير عدم الرضا في وجه الداية. فاستدركت أم نجلاء سريعاً : حلوان يا حكيمة. لا تفهميني غلط، وإذا إنت جبت العريس، لك فوقهم عشرين أخرى.

- على عريس مثل الناس.؟.. تساءلت الداية مستهجنة.

- الثلاثون ليسوا قليل.

- وعريس مثل الناس ليس قليلاً أيضاً... تساومتا على المكشوف دون أن تلمح أي منهما لحقيقة وضع نجلاء التـي شعرت بالراحة والسرور عندما رسى الاتفاق على أربعـين ديناراً. لاسيما وأن الداية راحت تتبجح بأنها حريصة علـى خبايا البيوت، فهي تعرف أعداد الأسر وأعمارهم وألـوانهم وأعمالهم كما تعرف نقاط ضعفهم ومصادر قوتهم، لكن ذلك محفوظ في بئر عميقة. ادعت كل ذلك دون أن تلمح بالحقيقة التي تحرص أم نجلاء على إخفائها. فلم تناقشـها بـالطلاق على الإطلاق، ولا أتت أي منهما على ذكر الإبراء الشرعي وانتهاء العدة. فالتحذلق في أمورٍ مفهومة ضمناً قد يزيـدها تعقيداً.

لما أبدت أم نجلاء رغبتها بالرحيل عن الجوفـة إلـى مكان لا يستهدي عليه زوج نجلاء ، عرضت عليها الداية أن تؤجرها شقة شاغرة في البناية التي تمتلكها. سيهون هـذا عليهما الأمر معاً ويسهل على العرسان من معارفها الالتقاء بنجلاء : عندما يشوف الناس مـا لـديك سيتسـابقون فـي استعراض ما لديهم.

- لا نريد إلا السـترة. عـريس آدمـي لا يظلـم ولا يتحامق. يكون على البركة أحسن من ما يكون معقّد. خلوق وغشيم أحسن من ما يكون واعي وفاجر. حياته فـي بيتـه وامرأته. وأهم شيء أن لا يكون متزوجاً. فاهمة علـي يـا حكيمة.؟. لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين.

عقبت نجلاء : اريده أشقر.

-أسكتي إنتِ... قالت أمها زاجرة، فأنـّبتها الدايـة : حقّها يا بنت الحلال. لازم يكون لها رأي.

بعد يومين من زيارة الداية تدفقت دماء العادة بغزارة لم تعهدها نجلاء من قبل، فكادت أمها تزغرد فرحاً. ذهبت من يومها إلى الداية تبشرها بالأمر وهي في واقع الحال عازمـة على إعادة النظر بالمبلغ، فقد وافقت على الأربعين لإمكانيـة

وجود حمل، أما وقد أثبتت العادة نظافة العروس فـالعريس سيتزوج بكراً ناقصة غشاوة رقيقة صغيرة يأنف الكلاب أكلها. لكن بمجرد أن تلقت الداية البشارة حتى فاجأت أم نجلاء بأنها تستطيع تزويج نجلاء بكراً.

ذهلت أم نجلاء وسألت : كيـف.؟... فقالـت : لكـل حادث حديث... أسقط في يد أم نجلاء، وبـدلاً مـن تنزيـل المبلغ وافقت على رفعه إلى خمسين دينـار إن اسـتطاعت ترتيب ذلك، كما دفعت لها عربون الشقة، وفـي أقـل مـن أسبوعين انتقلت العائلة إلى سكنها الجديد. أضافوا للعفـش عفشاً جديداً مبقين من المبلغ الذي قبضوه من أبي يحيى مئة دينار احتياطاً لزواج نجلاء.

بمجرد أن عرف سكان المنطقة عن الجيـران الجـدد للداية المباركة، حتى توافدوا برفقتها، عائلـة بعـد أخـرى، للسلام بدافع الفضول. ورغم أنهم جميعاً أعجبوا برتابة البيت وعفشه الجديد، إلا أن نجلاء وشقيقتها أثارتا الإعجاب أكثر. لا سيما وأنهما كانتا تجالسان الضيوف وهما في قمة التـأنق والبشاشة وحسن الأخلاق، وكلما قامت إحداهما بالتضـييف،

تدق الداية على الخشب : صلاة النبي حوالـك وحواليـك...

فتجاملها أخرى : خزاة العين على هيك تربابة يا حكيمة...

لكن هذه المجاملات لم تقنع أم نجلاء، لاسـيما وأنهـا غدت كلفة من غير مردود، فصارت تلح على الداية بالسؤال عما فعلت بشأن العريس، فتطاب منها الداية التريث : مـن يعرض بضاعته، يبيعها رخيصة يـا أم نجـلاء. صـدقيني لأزوج لك الاثنتين.

- يا حكيمة أنا مستعجلة فقط على المطلقة.

- حيرتيني يا أم نجلاء. هل تريدين تزويجها مطلقة أم بكراً.؟.

- طبعاً بكراً. زلة لسان يا حكيمة.

تمعنت بها الداية وهي تـرد عليهـا بصـوتٍ بطـيء الإيقاع : معناه لا تستعجلي.

انتابت الوساوس أم نجلاء وأحست بالخطأ في مجـاورة الداية . لقد أوقعت نفسها في قبضتها. لكن الداية التي كانـت تحس أنها مختارة أكثر منها ولادة، وطبيبة أكثر منها دايـة، وبائعة أكثر منها سمسارة، كان يهمها تعويض المبلغ الـذي كانت ستقبضه لو أجهضت نجلاء. سواء أكان ذلك بتـزويج

نجلاء أم لمياء. فاستقبلتها أم نجلاء بالترحاب عندما جـاءت وبرفقتها طلاّبة : أهلاً وسهلاً حكيمة...

عرفت الحكيمة على رفيقتها قائلة : حبيبة قلبي أم قسام. زوجتُها وولّدتها وسأزوج ابنهـا، ومـن يـدري قـد أُولّـد حفيدها...

لما قدمت نجلاء القهوة وجلست معهن، فوجئت وأمهـا بالطلاّبة تسأل عن لمياء.

٢

كانت أم قسام تحيك المطرزات، فتحصل لقاء ذلك على إيرادٍ ساعد في تحسن أحوال العائلة المعيشية، وكان زوجها مدرساً للغة العربية، فنشأ قسام شغوفاً بمهنة أبيه وفن أمـه. لون الخزف في صغره وزخرفه بالخرز والأشرطة والـورد الجاف، الأمر الذي ساعده على استخدام يسراه بمهارة كانت تمكنه من التلوين بها وبدرجة أقل كان يستطيع الكتابة بهـا، فنشأ أعسر يسر يعمل بكلتا يديه. وهو ما اعتبره أبواه موهبة فنية صارا يشجعانه عليها حتى يتسلى في البيت الذي يجنبـه تحرشات الأولاد الذين استقووا عليه بسبب ضـآلة حجمـه وقصر قامته وضعف بنيته. فانطوى على نفسه ولم يعـرف أبعد من حدود بيته ومدرسته.

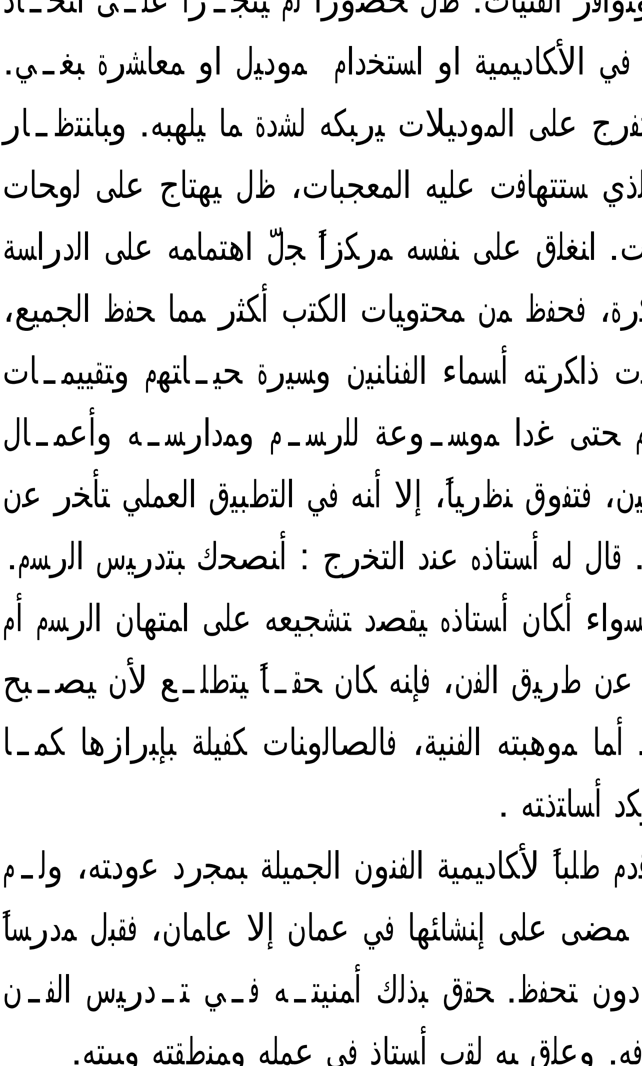
كان أكثر ما يغيظه، تعيير الأولاد لـه بسـبب رقبتـه العريضة المتاولبة، فتعزيه أمه قائلة أنهم يغارون منه بسبب اشقرار شعره واخضرار عينيه، وكان تبريرها يهدأه وينمـي طفولته النرجسية فتألقت في نفسه صورته الجمالية التي لـم يكن ينقصها سوى ريشة فنية.

شجعه أبواه للتوجه نحو الرسم باعتباره لا يأخذ حيـزاً مثل الفخار المزخرف الذي ملأ البيت وسقيفته. ولم يخطـر ببالهما أن هذا التوجه سوف يحدد مصير ابنهما الذي أصـر بعد نجاحه بالمترك على دراسة الفن.

التحق بأكاديمية البندقية في إيطاليـا. اعتبـره طـلاب الأكاديمية متميزاً لأنه لم يدخن يومـاً سـيجارة ولا تجـرع رشفة خمر. بينما كان يميز نفسه بتفرده في استخدام كلتـا يديه طالما أن الشقار واخضرار العينين على قفا من يشـيل كما كان يكتب في رسائله لذويه وأقاربه ومعارفه.

رسم خلال دراسته عشرات الرقـع بيمنـاه وأخـرى بسراه، كما رسم بالاثنتين معاً. أثار إعجاب البعض بقدرته، إلا أن ذلك لم يميزه على أقرانه ولم يجلب انتباههم إلا رقبته، فرسموه صوراً أغاظته وبعضها أعجبته فحملها إلى عمـان مع لوحاته والعديد من اللوحات المنسوخة عـن رسـومات عالمية لفنانين كبار، معظمها لعاريات.

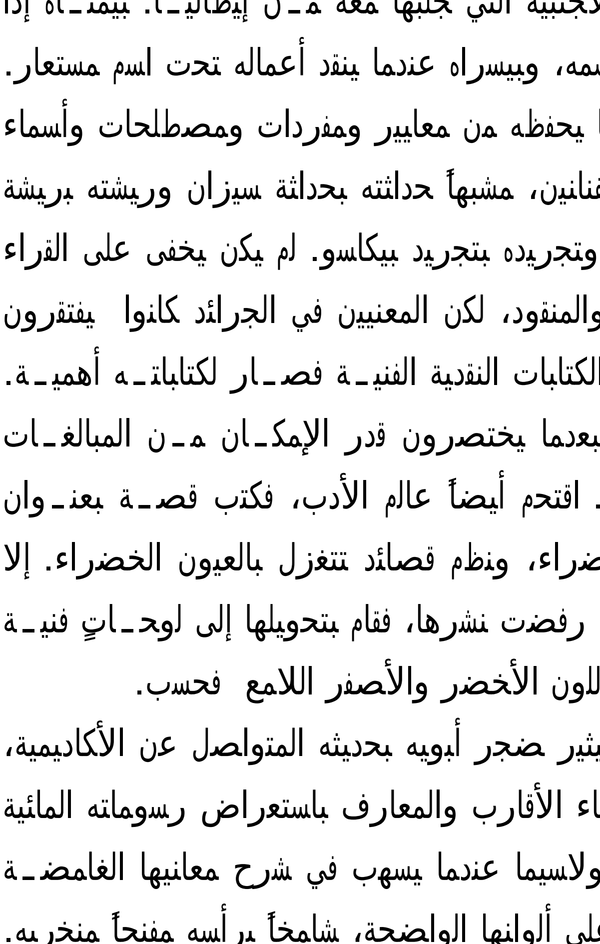
وجد في البندقية فنانين حقيقين بدا بينهم قزماً صـغيراً، فعانى الوحدة والانطواء. فلم تتلمس يداه الموهوبتـان جسـد امرأة طيلة فترة دراسته. رغم جو الانفتاح وعبثيـة الحيـاة



الفنية وتوافر الفتيات. ظل حصوراً لم يتجـرأ علـى اتخـاذ صديقة في الأكاديمية او استخدام موديل او معاشرة بغـي. كان التفرج على الموديلات يربكه لشدة ما يلهبه. وبانتظـار اليوم الذي ستتهافت عليه المعجبات، ظل يهتاج على لوحات العاريات. انغلق على نفسه مركزاً جلّ اهتمامه على الدراسة والمذاكرة، فحفظ من محتويات الكتب أكثر مما حفظ الجميع، واختزنت ذاكرته أسماء الفنانين وسيرة حيـاتهم وتقييمـات أعمالهم حتى غدا موسـوعة للرسـم ومدارسـه وأعمـال الرسامين، فتفوق نظرياً، إلا أنه في التطبيق العملي تأخر عن الجميع. قال له أستاذه عند التخرج : أنصحك بتدريس الرسم.

وسواء أكان أستاذه يقصد تشجيعه على امتهان الرسم أم تحويله عن طريق الفن، فإنه كان حقـاً يتطلـع لأن يصـبح مدرساً. أما موهبته الفنية، فالصالونات كفيلة بإبرازها كمـا كان يؤكد أساتذته .

قدم طلباً لأكاديمية الفنون الجميلة بمجرد عودته، ولـم يكن قد مضى على إنشائها في عمان إلا عامان، فقبل مدرساً للرسم دون تحفظ. حقق بذلك أمنيتـه فـي تـدريس الفـن واحترافه. وعلق به لقب أستاذ في عمله ومنطقته وبيته.



صار يكتب للجرائد مقالات نقدية ينقلها نصاً وروحاً من الكتابات الأجنبية التي جلبها معه مـن إيطاليـا. بيمنـاه إذا أرسلها باسمه، وبيسراه عندما ينقد أعماله تحت اسم مستعار. يضمنها ما يحفظه من معايير ومفردات ومصطلحات وأسماء مشاهير الفنانين، مشبهاً حداثته بحداثة سيزان وريشته بريشة فان غوغ وتجريده بتجريد بيكاسو. لم يكن يخفى على القراء أنه الناقد والمنقود، لكن المعنيين في الجرائد كانوا يفتقرون دائماً إلى الكتابات النقدية الفنيـة فصـار لكتاباتـه أهميـة. ينشرونها بعدما يختصرون قدر الإمكـان مـن المبالغـات المتشاوفية. اقتحم أيضاً عالم الأدب، فكتب قصـة بعنـوان جنتي الخضراء، ونظم قصائد تتغزل بالعيون الخضراء. إلا أن الجرائد رفضت نشرها، فقام بتحويلها إلى لوحـاتٍ فنيـة مستخدماً اللون الأخضر والأصفر اللامع فحسب.

كان يثير ضجر أبويه بحديثه المتواصل عن الأكاديمية، ويثير استياء الأقارب والمعارف باستعراض رسوماته المائية والزيتية، ولاسيما عندما يسهب في شرح معانيها الغامضـة والتعليق على ألوانها الواضحة، شامخاً برأسه مفنجاً منخريه. ويثير ضحكات أولاد الحارة وهو يتلفت يميناً وشمالاً متفقـداً

كتفيه. أورثه أبوه فجاجته التي اعتادها مع التلاميـذ فغـدت سلوكاً ميزه عن المدرسين الآخرين في الأكاديمية.

في حصص التدريس يحقق ذاته فينتهي الوقت سـريعاً خفيفاً عليه، بطيئاً ثقيلاً على الطلبة الـذين كـانوا يرضـون غروره بإصغائهم وتدوين أقواله ، فـيحس بالمجـد وهـو يحاضر. ويستحوذه في لحظته العظيمة تلك جنـون الفنـان. فيشاهد في أعينهم كاميرات تصوير وفي آذانهم آلات تسجيل وهو يتحدث بلا توقف مبدياً الجدية والصرامة والفوقيـة. إذا قاطعه طالب بسؤال أو مداخلة فإنه غالباً ما يستمع مشـيحاً بوجهه وهو ينفض بأطراف أصابعه على كتفه كمن يدفع عنه حشرة. كان يربك الطلبة بامتحاناتـه النظريـة ويحـرجهم بامتحاناته العملية. كانت معرفته لمعايير الرسم هائلة. غالبـاً ما يتخذ من لوحاته أمثلة لعرض موضوعاته. وكـان هـذا يضجر الطلبة الذين لم يكن أداؤه يرضيهم ولا يحقق تشوافه عليهم طموحهم وإن كان يبذل جهده في استعراض معلوماته.

اشتكاه البعض لرئيس الأكاديمية الـذي تقصـى عنـه وتحرى قبل ان ينبهه بعدم شخصنة المادة والخـروج علـى الموضوع. فنشأت بينهما حساسية تحولت مع الوقـت إلـى

بغيضة ترتفع وتيرتها او تنخفض حسب مزاج الرئيس وأداء قسام.

في خلواته كان يتأمل نفسه أكثر مما يتأمـل لوحاتـه، وفي الأكاديمة يعامل الطلاب بجفوة وصرامة. كان أكثر مـا يضنيه أنه منذ التحاقه بالتدريس في الأكاديمية لم تلتحق بهـا أي صبية، وهو الذي أعد نفسه ليكون أستاذاً للفتيـات قبـل الفتيان وأن يشار له بالبنان ويرسم العاريات. ولما لم يتحقق له شيء من ذلك، رغم رسوماته التي تجاوزت المئات، نزل عند رغبة أهله ووافقهم على الزواج حتى لا يتجاوز قطـاره الثلاثين التي انقضت.

كانت أمه في بحثها عن قرينة له، تتوخى قبل كل شيء أن تكون أقصر منه قامة او في مستوى قصره إن اضطرت بسبب عقدته من الطوال، فكل طويلٍ بنظره لا يخلـو مـن الهبل. بينما في أعماقه كان شغوفاً بالطويلات، وكلما رافـق أمه لمعاينة البضاعة، يضجر الجالسين بصمته ويثير تعاليـه غيظ العارضين فتخذل المحظية مواهبها التي تناسب أمه إذا كانت معدلة ومحتشمة وقصيرة وفيها مسحة جمال. بينما كان قسام يتوق لامرأة كاملة القوام زاهية الألوان كاللوحات الفنية

الناطقة بالحياة. أضنى أمه لكثرة مـا يكتشـف مـن علـلٍ بالمعروضات، وكأنه يقيسها بنموذج فني مرسوم بالمسـطرة والبيكار. احتارت أمه بذوقه. أحياناً تظنه يتهرب من الزواج وأحياناً يهرب من النساء، إلى أن رأى نجلاء.

عندما أخبرت الحكيمة أمه عنها، استفاضت في الحديث ، ولما وجدتها غير مكترثة أخبرتها عـن لميـاء، فانتبهـت حواس أم قسام عندما قالت الحكيمة : وطولها صلاة النبـي مثل طول قسام.

خلال الزيارة أفاضت أم قسام بالأسئلة على لمياء وكأنها تستدرجها عمن عرفت من الشبان قبل مجيئهم للمهـاجرين، مما أربك لمياء وأغضب أمها وكاد يثير عصبيتها لولا تدخل الحكيمة التي قالت أن هذا مشروع قبل الزواج، وأن التقصي من صاحب الأمر خير من التقصي من الجيـران، فشـربوا قهوة الختام بانشراح.

في الزيارة الثانية رافق قسام أمه. فقدمت لمياء القهـوة وهي في أبهى حلة وأعطر رائحة وأزهى غنـدرة، فـأدهش جمالها قسام. لكن عندما جاءت نجلاء للسلام من غير هندمة وغندرة، صعقته فتنتها فخشعت نفسه وهو يردد اسم ا فـي

نفسه، وارتبط لسانه طيلة الجلسة إلى ما بعد المغادرة. ظنت أمه أن ذوقها لم يعجبه كالعادة، إلا أنه في منتصف الطريـق طلب منها العودة إلى الحكيمة بمفردها وأن تحجز له نجلاء. ترددت أمه وطلبت منه الانتظار يوماً على الأقل وهي تتخيله مع نجلاء تجره من يده كما يجر الصبيان. لكنه أصر عليها. كان أيضاً يتخيل يده ممسكة يد نجلاء، لكن من يضـمن أن يخطفها منه في الغد عملاق.

كادت أم نجلاء تطير فرحاً عندما قرأت الفاتحـة مـع الحكيمة وأم قسام، قبل أن يقرأها الرجال. لكنها في المخـدع والفرحة تغمرها، سألها زوجها : كيف ستدبرين.؟... وهـز أصابعه متلاصقة للأعلى كمن يستنهضها.

- أدبر ماذا.؟.

- تعرفين... وهز أصابع يده ثانية.

ليلتها لم تعرف أم نجلاء النوم وتمنت لو أن قسام عقـد أمره على لمياء. كان عليها أن تعرف كيف ستحل الحكيمـة المشكلة قبل أن تعطي وعداً لأم قسام.كما أحست بالندم لأنها وافقت الحكيمة وادعت البكورة لابنتها. ماذا كان يضير لـو ظلت على ادعائها بأن نجلاء مطلقة. الحكيمة بنفسها قالت أن

الكثيرون لا يهمهم من المرأة سوى جمالها، ثيبـاً كانـت أم عذراء. لقد استعجلت. وصارت تستعجل الصـباح لإنهـاء الأمر مع الحكيمة، فوجدتها منتهية منه : ألم أقل لـك لكـل حادث حديث.

أصرت نجلاء، حسب ما أوصتها أمها، على السكن في بيتٍ مستقل. رفضت أم قسام، إلا أن انحياز قسـام لـنجلاء أرغمها على الموافقة. طيلة عمره وهو يتطلع لأن يكون لـه بيته المستقل ومرسمه الخاص، وكان وهو يدافع عن موقفـه للاستقلال عن أبويه، يتخيل نفسه ونجلاء عاريين في الفراش وبين اللوحات. استأجر بيتاً في حـي المصـاروة محاذيـاً للشارع العام وينخفض عنه بحوالي ثلاثة أمتار ويشتمل على غرفتين ترتبطان معاً بباب داخلي. يتم الوصول إليهما عبـر موزع صغير في الأمام يفضي إلى مطبخ صغير وحمام فيه سيفون أرضي. في الخارج حوش غير مسور فيه درج يصل إلى غرفة فوق السطح ملحقة بالبيت، قـرر قسـام اتخاذهـا مرسماً ولم تعارضه نجلاء، كما لم يعارضها في تخصـيص الغرفة الداخلية للنوم والأخرى للقعدة والاستقبال.

تمت المراسم دون صخبٍ أو ضجيج، تولت أم نجـلاء بالأثناء إفهام ابنتها وتدريبها دونما تدخلٍ من الحكيمة، التـي رفعت يدها بمجرد تسليمها الدواء. إنها غير مسـؤولة عـن سوء استعماله.

كان الحل أصغر بكثير من المشكلة التي ظنت أم نجلاء أنها أصعب من أن تحل، فانكمشت المعضلة بحجم حبتي لوز مع أنه يمكن الاكتفاء بواحدة كما قالت الحكيمة. ومع إقبـالٍ وإدبارٍ وتمنعٍ وإغواءٍ وإرشادٍ وتتويه، صرخت نجلاء متألمة دون أن يدري قسام إن كان نالها أم نالته، فارتد مذعوراً في الفراش، بينما انكمشت نجلاء كالجنين، معطية أياه ظهرهـا وهي تختلس النظر إلى حوضها. هالها عدم وجـود دمـاء، فأسرعت إلى الحمام تستر أعضاءها بيديها وفجرت الكبسولة قبل أن يصل إليها قسام الذي هاله تلطخها بالدماء : أهكذا يا قسام. إخص عليك. وأنا الذي كنت أظن أنك ستكون حنونـاً معي...

تلعثم مرتبكاً : مـ مـ ماذا أحضر لك.؟.

عاد إلى المخدع واستلقى فوق السرير متكئاً برأسه على ذراعه وهو في قمة النشوة لهذا العبور الذي حوله من غشيمٍ

إلى خبير. بينما نجلاء في الحمام تغمرها السعادة أكثر مـن الماء. استجاب لها تلك الليلة فلم يقربهـا بسـبب النزيـف، واصطنعت التعب والألم وهي تفجر الكبسولة الأخرى فـي الفراش.

في الصباح جاءت أم قسام فزغـردت مـن داخـل المخدع بعدما تأكدت لها فحولة ابنها وعذرية عروسه. طوت الشرشف للذكرى وانطوت معه صفحة العار، فكبسولة دموية صغيرة كانت أقدر على السمو بالشرف من كل سـلاح. لـم تكن أم قسام معنية بالعبور، وإنما بالنزيف الذي يجلب العار او الفخار.؟.

٣

كان أبو يحيى يغتاظ من تعليق صور اللواء نجيب بلباسه العسكري في محلات المركز التجاري ويغتاظ أكثر من بيعها على الرصيف أمامه، فلا يتمالك عن دفع موفق لتولي الأمر مع المستأجرين وطرد البائعين عن الرصيف. كان يجاهر بعدائه للتنظيمات التي ترتدي لبوس الإسلام وتستغل المسلمين، مع تأكيده المستمر على إسلاميته وصدق إيمانه. لم يكن يملك ذريعة أخرى لتبرير حقده الموروث الذي زادته الأعمال مع الأيام اتقاداً. فحتى لو لم يكن نجيب منتظماً مع الإسلاميين إلا أنه كان محسوباً عليهم، لهذا فإن اندحاره غدا بالنسبة لأبي يحيى انتصاراً، فانتقل من معارض للثورة إلى مؤيدٍ ثم مناصرٍ ليصبح من كبار المؤمنين بها بعد تصفية تنظيم الإسلاميين وإلقاء القبض على الآلاف منهم وإعدام ستة من قادتهم.

جلب من مصر شحنة كبيرة من صور عبد الناصر، تولى موفق توزيعها مجاناً على المحلات التجارية، وأهدى لبعض المتنفذين عدداً منها مبروزا بالخشب المذهب. وكلما تقدم عبد الناصر خطوة في الامسك بزمام الأمور تقدم أبو

يحيى بحماسه وتأييده خطوات، فأنتج فيلماً سينمائياً لا تختلف فكرته عن الأفلام الموجهة التي تنتصر لقـانون الإصـلاح الزراعي الذي وضعته الثورة في باكورة أيامهـا، وتولـت جوهرة شخصية رئيسة، فمثلت دور فلاحة يغتصبها الباشـا صاحب الأرض فتثأر منه بالثورة عليه، ووجهت الدعوة إلى كبار المسؤولين لحضور الافتتاح. بعد العرض دعت جوهرة لحفلة أقامتها في بيتها على شرف أبي يحيى، حضرها العديد من العسكريين وعلى رأسهم مدير مكتب وزيـر الحربيـة. رجاه بحميمية أن ينقل تحياته للواء عمار وإعجابه بشـخص الرئيس عبد الناصر. كانت حفلة لا تنسى قاربت كثيراً بـين أبي يحيى ومدير مكتب الوزير الذي أدرج اسمه في قائمـة المدعويين الكبار، وصارت ترسل له الدعوات إلى عمـان. أحياناً عن طريق السفارة وأحياناً مباشرة بواسـطة شـركة الطيران. فتنامت العزة في نفسه وازدادت شهوة السلطة لديه وهو يلتقي بالضباط الأحرار والوزراء وكبـار المسـؤولين المصريين، فقرر أن يزيد استثماراته في مصر، ليس رغبـة بالمال هذه المرة، وإنما دعماً للثورة التي دفعت طموحه نحو المجد.

أرسل تبرعاً لأسر الجنود المصريين الذين قتلوا أثنـاء الغارة التي قامت بها إسرائيل في الآخر مـن شـباط علـى معسكرٍ للجيش المصري في غزة مما ترك أطيب الأثر فـي نفوس العديد من العسكريين والمدنيين. أوصى بعد ذلك على طباعة صورٍ نصفية لعبد الناصر بثيابه العسكرية، شـحنت كميات كبيرة منها إلى عمان ليتولى موفق توزيعها بالمجان. ومع أن حماسه قد ابتدأ بدافع ذاتي إلا أن جوهرة لعبت دوراً كبيراً في تأجيجه وهي تجمعـه فـي حفلاتهـا مـع كبـار المسؤولين والضباط. توجتها بحفلة في عز الصـيف علـى شرف اللواء عمار. رقصت جوهرة ليلتها حتـى الصـباح، وراقصها أبو يحيى للمرة الأولى أمام المدعوين بعد أن سبقه عمار إلى ذلك. خلال الحفلة أسر عمار لـه عـن اسـتياء الضباط الأحرار من تولي كلوب لقيادة الجـيش الأردنـي، وأنهم يؤيدون التعريب. ما أن عاد إلى عمـان حتـى فاجـأ أقاربه وأصدقاءه ومعارفه وعملاءه وهـو يطالـب جهـارة بتنحية كلوب وتعريب الجيش، فإذا به بين ليلـة وضـحاها محسوب على المعارضة فقبلوه واحداً منهم دون أن يـدركوا الأسباب او يسألوه عنها. بالنسبة لهم، كانت تنحيـة كلـوب

مطلباً جماهيرياً وليس عقائدياً والوقوف أمام هـذا المطلـب يعتبر خيانة وطنية.

فتح بيته للحزبيين والمناوئين للإنجليز. وعندما أخـذت أجهزة الأعلام المصرية والسورية والسعودية، تهاجم حلـف بغداد وتزيد من لهيب الشارع الأردني المتّقد بدماء الشهداء، كان أبو يحيى يشارك رموز الحركة الوطنية في اجتماعاتهم وقيادتهم للمظاهرات الدامية التي أسقطت الـوزارة الشـتائية ولم يتجاوز عمرها الأسبوع. أحس حينها بأنه يمتلك السطوة في مجريات الأحداث ولديه القدرة على تولي السلطة وتغيير النظام، فبذخ في الإنفاق على أسر الشـهداء وقـام بتشـغيل العشرات الذين طـردوا مـن أعمـالهم لاشـتراكهم فـي المظاهرات، متحدياً كلوب علانية. فـأمر كلـوب بإيقـاف التعامل مع عائلة العفيف، باعتبار أبي يحيى لـيس مناوئـاً لحلف بغداد فحسب وإنما عميلاً لعبد الناصر الـذي أججـت إذاعاته المظاهرات وباركت نتائجها. حاولت العائلة تهدئـة حماسه والحد مـن اندفاعـه. لـيس بالضـرورة أن تتخـذ المعارضة موقف المواجهة او يتخذ التأييد موقف المناصرة، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالمصلحة. قوة كلوب لا تحتاج

تأييدهم ولا يضعفها معارضتهم. لهذا عليهم تجنب مواجهتـه حرصاً على مصلحتهم. لكنهم لم يفلحوا في إقناعه والتخفيف من عناده. ولما شمل إيقاف التعامل معهم مؤسسات الدولـة الأخرى، ثارت ثائرة العائلة باستثناء يحيى الذي انحاز لأبيه ونقم على عميه عندما اتهما أباه بالطيش وارتكاب الحماقات. لكن مظاهر السلطة كانت قد نالت منه واستحوذت عليه. ففي اللحظة العظيمة التي التقى فيها بعبد الناصر للمـرة الآولـى أحس أنه يجالس صلاح الدين. وفـي اسـتماعه لأحاديـث العسكريين بعد ذلك نالت منه العظمـة وكأنـه يعـد العـدة لحطين، لاسيما وأنه صار يستشار في أمر عمـان ويبـدي الرأي في مستقبل الشام وبيروت وبغداد. تكلل المجد بالغـار في آواخر الربيع، فأقام الموائد ووزع الحلوى وبذل الهبات، ودعا لمزاد على الطريقة الأمريكية فـي سـينما العفيـف حضره لفيف من الأثرياء ورجال الأعمال الذين زاودوا على بندقية تبرع بها الملك، وبلغت حصيلة المزاد نحو ثلاثين ألف دينار قدمت مع البندقية هدية للجيش الذي تخلص من كلوب وتولته قيادة عربية.

رقص أبو يحيى فرحاً، شأن كل الناس، الذين أسكرتهم نشوة الخلاص وأغرقوا الشوارع أياماً بالمظاهرات. ولما هدأت العواطف ونامت الانفعالات، ظل جموح السلطة متأججاً في صدره. فتولى عن أعماله في عمان وأهمل استثماراته في بيروت والشام وهو يوجه أمواله إلى مصر مواكباً عبد النصر الذي يزداد شعبية يوماً بعد يوم، فيظهر معه في الاحتفالات والمؤتمرات ويرافق أركانه في الاستعراضات والمناورات. فتنشيه حشود الجماهير ويثمله هتافاتها وهو يبني في داخل نفسه نموذجاً لعبد الناصر. من غير وعي منه او إرادة، ومن غير توكيل أو إنابة، صار يعتبر نفسه ممثلاً لعبد الناصر في الشمال. وصنّف من قبل أركان السطة في عمان ضمن قائمة المعارضين الساعين لاستبدال النظام، لاسيما وأن علاقته توطدت مع عددٍ من ضباط الجيش أطلقوا على تجمعهم اسم " الضباط الأحرار ".

٤

مع بداية العام الدراسي توقف خير عن تعاطي الحشيشة ومضغ الأفيون بعدما صار الخدر المتواصل في أسنانه يفقده القدرة على التركيز، لاسيما وأنه عقد العزم علـى تجـاوز المترك بنجاح تحت كل الظروف وقد بيتت فيه الأحلام نيـة للسفر صارت تتنامى يوماً بعد يوم. عليه أن يصقل موهبتـه بدراسة الفن في أوروبا والالتقاء هناك مع عظماء الفنـانين والاطلاع على روائع الفنون. فإذا لم تساعده الشـهادة فـي تحصيل بعثة فإنها ستساعده في العمل والادخار والسفر على حسابه الخاص. كانت أحلامه تكبر أحياناً فتفيض عن أوروبا لتصل أمريكا بشطريها وروسيا والهند والصـين. وأحيانـاً تنكمش بأضيق الحدود في ركنه البارد داخل التسـوية وقـد تلفّح بالغطاء على الطريقـة المكسـيكية وتخـدرت قـدماه الحافيتان من شدة البرد وهو بالكاد يستطيع إمساك الريشـة بيده المنكمشة المتثلجة او تبين الألوان على ضوء الشـموع. لكنه عندما يبدأ الرسم ينسى أحاسيسه وتتحول شرايينه إلـى غدران دافقة بالألوان وأعصابه إلى ريـشٍ وأقـلام. قـال

لموفق : تستحوذني أحياناً طاقـة لا أدري كيـف تـواتيني فأحس بأني قادر على الرسم في عمق الظلام.

واظب على الدوام بهمة ونشاط وجدٍ واجتهـاد وهـو مقتنع ويقنع نفسه معظم الأحيان أن الشـهادة سـتغير حالـه ولربما ستحقق أحلامه، فتطأ قدماه الدنيا التي وطأها بخياله، وكان تعلقه بالتسوية يزداد شغفاً بعد أن غدت بؤرة أحلامـه ومصدر إلهامه ، فيراها محجاً للفنانين. تماماً مثلما حصـل لفان غوغ الذي صار نموذجه وهو يعبر عن انفعالاته برسومٍ أقرب إلى الكاريكاتير. كانت فاتحة بالنسبة إليه، إذ سـاعده موفق على نشر بعض منها في جريدة الأردن. بالمجان فـي البداية ثم صار يقبض نصف دينار عن كل رسـمة يرسـلها لهم.لم يبد موفق انزعاجاً او ضيقاً من عمله هذا، طالما أنـه ما يزال يعمل لديه ويجده كلما احتاج إليه. كان حريصاً على أن لا يفقده. غدا بالنسبة له كما هو الحال بالنسـبة لزبائنـه وأصحابه معلماً مهماً في المكتبة.

ومع أنه كان يبذل في الدراسة جهداً لم يبذله في سبيلها من قبل، ويعطيها وقتاً أكثر مما يعطيه لرسوماته، إلا أنه لم يكن ينجز منها ما تنجزه موهبته في وقت قصير، ولاسـيما

عندما تستدعيه الألوان. رسم وهو يصرصـر بـرداً لوحـة أسماها " الوهم "، أنجزها في بضعة أيام. تصـور الخضـر يقتل ضبعاً. سأله موفق أيهما الوهم.؟.

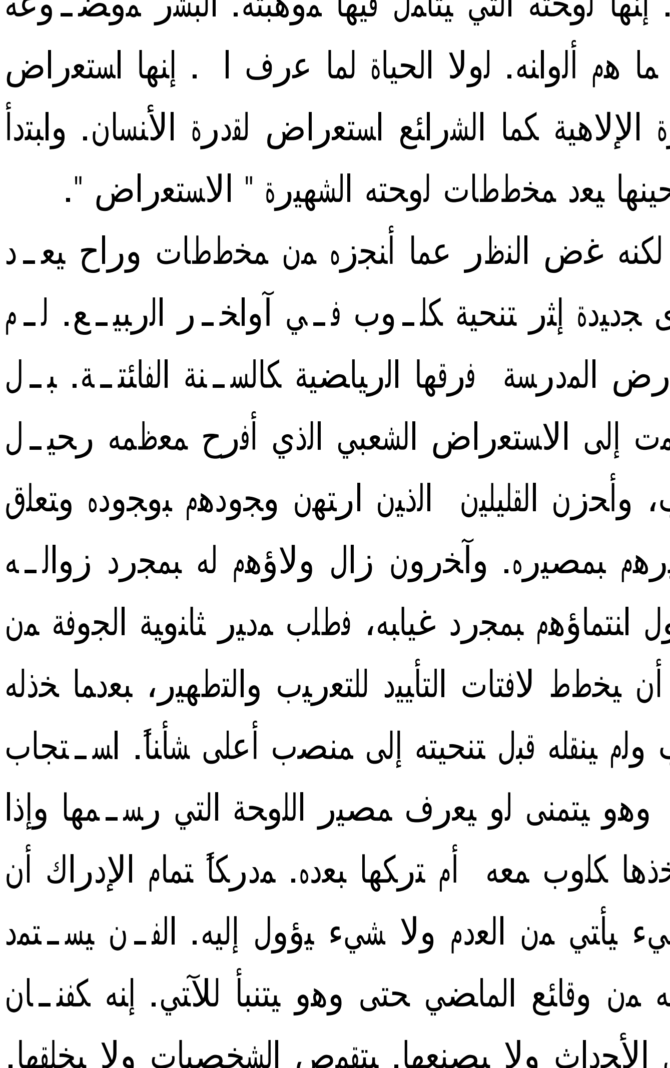
لاذ بالصمت وأصيب بالحيرة، فالضـبع كـان ملهمـه وهاجسه قبل الشروع برسم اللوحة ولازمه إلـى مـا بعـد إنجازها. اما الآن وبعدما سأله موفق، بدت له كل نقطة فيها وهماً .

عندما اندلعت المظاهرات مع نهاية العام منددة بكلـوب وحلف بغداد، احتار إلى أين يذهب او ماذا يفعل. لـم يكـن بمقدوره البقاء نهاراً في التسوية حتى لا يباغتـه أبـوه، ولا القراءة او الرسم او الاستنساخ في المكتبة التي أغلقها موفق بسبب الأحداث. أما الشلة فقد اختفوا كلية عنه ولم يكن لديـه نقود أيضاً. هام على وجهه فـي طرقـات عمـان. متتبعـاً المظاهرات دونما نية في الانضمام إليها او المشاركة معها.

في مساء صاخب دموي سقط فيه العديـد مـن القتلـى والجرحى، عاد إلى ركنه البارد وقد غمرته كآبة من فوضى الحركات وعبث الأشياء. تراءى له وهو مستلقٍ على فراشه الرطب أن قوانين الفيزياء أقل صرامة من شرائع الإنسـان.

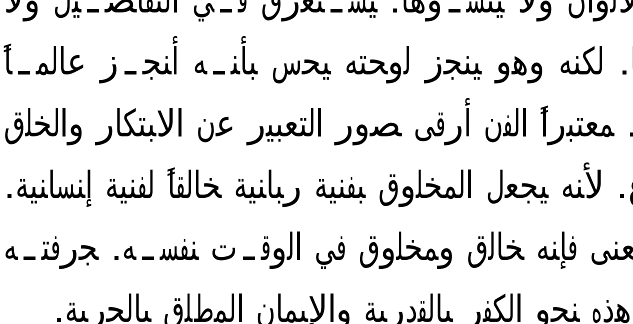
وأن ا   ليس عتياً ، وإنما فنان تتجلى قدرتـه فـي خلقـه. فالاستحواذ على الوجود أصعب من صـنعه. لا يمكـن أن يفسر ا   خاصية الخالق، وليس مطلوباً منه ذلك، مـع انهـا صنعه وتجلٍ لموهبته. لكنها لم تصنع بعقلانية وإنما بـروح فنية. فإذا كان ا   فناناً، فإن الفن من روح ا ، وعليه تكون الموهبة خيراً مطلقاً.

في تلك الليالي الحالكة بالسواد المغمورة بالصقيع، بينما الرصاص يلعلع في شوارع عمان والثكالى يندبن أكبـادهن والمصير قاتم مجهول، لم يعان خير في عزلته جوعه وبرده ووحشة سكنه، ولا فكر بأهله او جيرانه او أصحابه ، بـل تأمل حياته ومعناها ومغزاها. تهيأ له أن كل شيء قائم على الاستعراض وليس نزوعاً للبقاء، طالما أنه ليس من ديمومـة على الإطلاق. الحياة استعراض فني مهما نصعت او قتمـت ألوانها، ومهما شقي او سعد ابناؤها. بشاعتها تعكس جمالهـا ومرارتها تكشف حلاوتها وظلمها معيار عدالتها. الحياة لوحة فنية، جميع ألوانها ضرورية. من كان سيسمع بالمبيدات لـو لم يرسم ا   الذباب.؟. الحيـاة ليسـت مصـنوعة، وإنمـا موضوعة. إنها شيء من ا   وليست غريبة عنه او خارجـة



عليه. إنها لوحته التي يتأمل فيها موهبته. البشر موضـوعه بمثل ما هم ألوانه. لولا الحياة لما عرف ا . إنها استعراض للقدرة الإلاهية كما الشرائع استعراض لقدرة الأنسان. وابتدأ من حينها يعد مخططات لوحته الشهيرة " الاستعراض ".

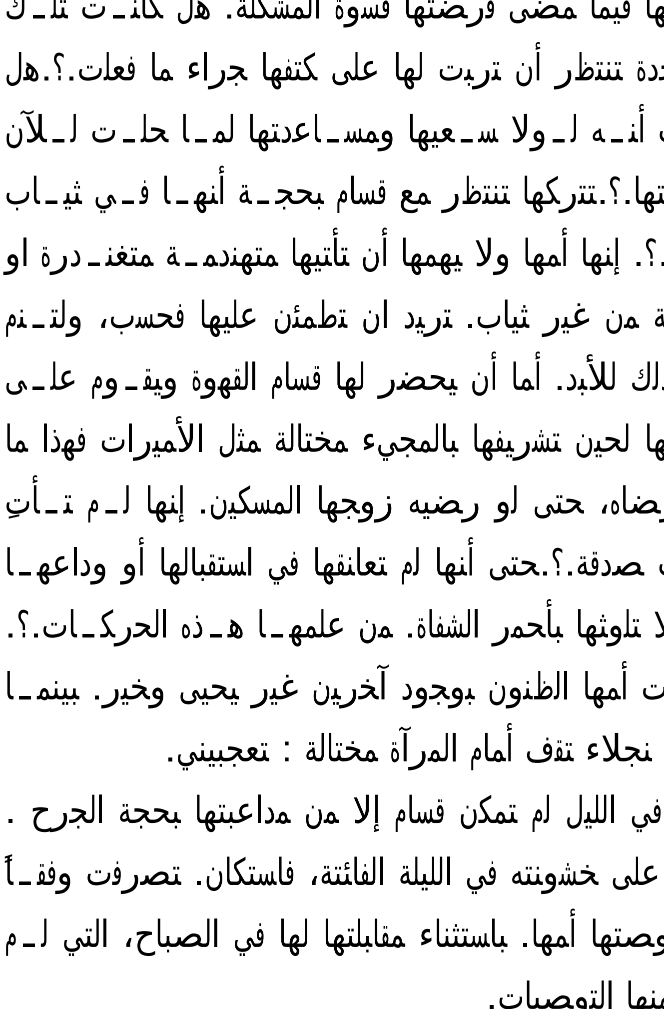
لكنه غض النظر عما أنجزه من مخططات وراح يعـد أخرى جديدة إثر تنحية كلـوب فـي آواخـر الربيـع. لـم تستعرض المدرسة فرقها الرياضية كالسـنة الفائتـة. بـل انضمت إلى الاستعراض الشعبي الذي أفرح معظمه رحيـل كلوب، وأحزن القليلين الذين ارتهن وجودهم بوجوده وتعلق مصيرهم بمصيره. وآخرون زال ولاؤهم له بمجرد زوالـه وتحول انتماؤهم بمجرد غيابه، فطلب مدير ثانوية الجوفة من خير أن يخطط لافتات التأييد للتعريب والتطهير، بعدما خذله كلوب ولم ينقله قبل تنحيته إلى منصب أعلى شأناً. اسـتجاب خير وهو يتمنى لو يعرف مصير اللوحة التي رسـمها وإذا ما أخذها كلوب معه أم تركها بعده. مدركاً تمام الإدراك أن لا شيء يأتي من العدم ولا شيء يؤول إليه. الفـن يسـتمد روحه من وقائع الماضي حتى وهو يتنبأ للآتي. إنه كفنـان يتمثل الأحداث ولا يصنعها. يتقمص الشخصيات ولا يخلقها.



يمزج الألوان ولا ينشـؤها. يسـتغرق فـي التفاصـيل ولا يفرضها. لكنه وهو ينجز لوحته يحس بأنـه أنجـز عالمـاً متكاملاً. معتبراً الفن أرقى صور التعبير عن الابتكار والخلق والإبداع. لأنه يجعل المخلوق بفنية ربانية خالقاً لفنية إنسانية. بهذا المعنى فإنه خالق ومخلوق في الوقـت نفسـه. جرفتـه قناعاته هذه نحو الكفر بالقدرية والإيمان المطلق بالحرية.

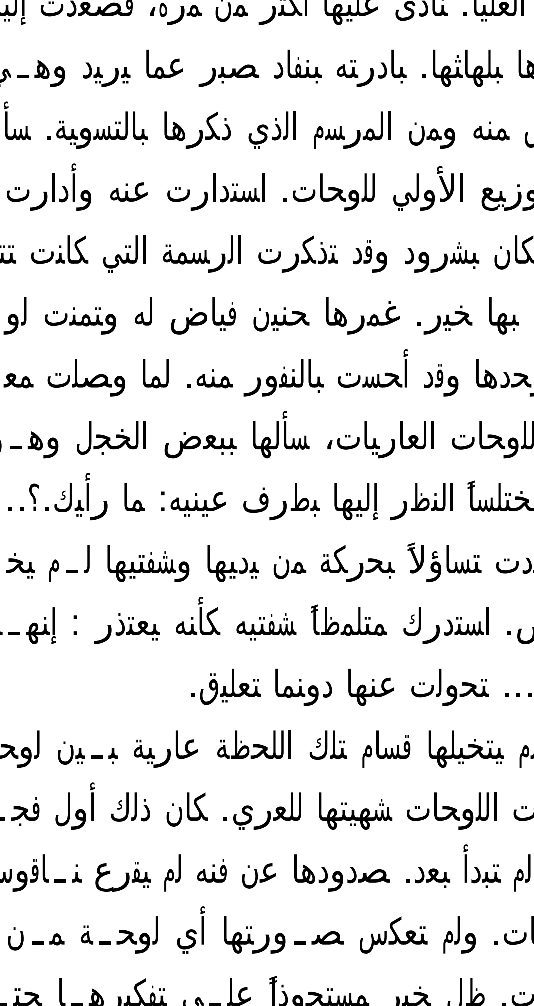
٥

زهو قسام ليلة الدخلة انتهى في الليلة نفسها. تمكنه من نجلاء ، بغض النظر عن صحة المواقعة او زيفها، لم يكـن ظفراً وإنما تنازل من نجلاء فرضته حالتها الراهنة. بمجـرد زوال هذه الحالة، استعادت نجلاء نفسها وغدت منذ صـباح اليوم التالي سيدة الدار لا تشاهد في المرآة سوى صـورتها التي يتطلع إليها جموع الشغوفين الملهوفين. لم تبال بحماتها التي كانت أيضاً لا تبالي بها بمقدار ما تبالي بشرشفها، ومـا أن غادرت حماتها حتى جاءت أمها تسـتعلم. كـان يهمهـا الشرشف أيضاً وإن تذرعت لقسام بالقلق على ابنتها. تركتها نجلاء تنتظر نصف ساعة قبل أن تأتيها مختالة فـي كامـل زينتها. لقد ظلت مهانة مستصغرة تخشى العقاب إلى أن نطق السائل الدموي بحكم البراءة فاستعادت ثقتها وكبرياءها وغدا الاتهام بكل عناصره إجحافاً وبطلاناً لا يستحق منها سـوى الازدراء.لم تمنحها فرصة للسؤال او الاستفسار. فبيتها شأنها هي وما يحصل به يحصل بأمرها. هكذا قالت لقسـام الـذي عاتبها بسبب جفوتها التي ردت أمها مخذولة، تؤنب نفسـها وتؤاخذها على قلقها الذي قوبل بالإهمال وعـدم الاكتـراث.



قسوتها فيما مضى فرضتها قسوة المشكلة. هل كانـت تلـك الجاحدة تنتظر أن تربت لها على كتفها جراء ما فعلت.؟.هل نسيت أنـه لـولا سـعيها ومسـاعدتها لمـا حلـت لـلآن مشكلتها.؟.تتركها تنتظر مع قسام بحجـة أنهـا فـي ثيـاب النوم.؟. إنها أمها ولا يهمها أن تأتيها متهندمـة متغنـدرة او عارية من غير ثياب. تريد ان تطمئن عليها فحسب، ولتـنم بعد ذلك للأبد. أما أن يحضر لها قسام القهوة ويقـوم علـى تسليتها لحين تشريفها بالمجيء مختالة مثل الأميرات فهذا ما لا ترضاه، حتى لو رضيه زوجها المسكين. إنها لـم تـأتِ تطلب صدقة.؟.حتى أنها لم تعانقها في استقبالها أو وداعهـا كي لا تلوثها بأحمر الشفاة. من علمهـا هـذه الحركـات.؟. راودت أمها الظنون بوجود آخرين غير يحيى وخير. بينمـا كانت نجلاء تقف أمام المرآة مختالة : تعجبيني.

في الليل لم تمكن قسام إلا من مداعبتها بحجة الجرح . أنبته على خشونته في الليلة الفائتة، فاستكان. تصرفت وفقـاً لما أوصتها أمها. باستثناء مقابلتها لها في الصباح، التي لـم تتضمنها التوصيات.



في اليوم التالي راح قسام يوضب لوحاته ويوزعها في الغرفة العليا. نادى عليها أكثر من مرة، فصعدت إليه تخفي استياءها بلهاثها. بادرته بنفاد صبر عما يريد وهي تحس بالضيق منه ومن المرسم الذي ذكرها بالتسوية. سألها الرأي في التوزيع الأولي للوحات. استدارت عنه وأدارت نظرها في المكان بشرود وقد تذكرت الرسمة التي كانت تتأملها يوم التصق بها خير. غمرها حنين فياض له وتمنت لو يتركها قسام وحدها وقد أحست بالنفور منه. لما وصلت معه إلى ركن اللوحات العاريات، سألها ببعض الخجل وهو يشيح عنها مختلساً النظر إليها بطرف عينيه: ما رأيك.؟..

أبدت تساؤلاً بحركة من يديها وشفتيها لم يخل من امتعاض. استدرك متلمظاً شفتيه كأنه يعتذر : إنها ليست رسمي... تحولت عنها دونما تعليق.

لم يتخيلها قسام تلك اللحظة عارية بين لوحاته ولا استثارت اللوحات شهيتها للعري. كان ذلك أول فجوة في علاقة لم تبدأ بعد. صدودها عن فنه لم يقرع ناقوس لهفته للمعجبات. ولم تعكس صورتها أي لوحة من لوحاته العاريات. ظل خير مستحوذاً على تفكيرها حتى بعد

مغادرتها المرسم. عندما وقفت أمام المـرآة تخيلتـه يقـف وراءها فقالت لـه بنبـرة لا تخلـو مـن دلال وعتـاب : أكرهك... تنهدت وهي تضيف : إيه. خلصنا...

عند العصر، افتعلت ضيق النفس، وفقاً لما أوصتها به أمها كلما ضايقها قسام. تأججت عيناها بالاحمرار لكثرة مـا شدت على نفسها. لهثت أنفاسها وهي تشد فستانها من عنـد الرقبة كأنها تختنق. ساعدها ذلك على التعرق. أصيب قسـام بالهلع. راح يجلب لها تارة كيلة ماء وتارة حبة دواء، وهـي تجاهد وتحتقن كأن بها صـرعاً. بعـدما تعبـت وأتعبتـه، استسمحته. فهذه الحالة تصيبها عادة عنـد العصـر وكلمـا غضبت او تضايقت. فظل يلاطفها ويطمئن عليهـا إلـى أن نامت.

كررت فعلتها بضعة أيام. ومع أنها كانت تفتعل التـأزم عصراً إلا أن أثره يمتد مع قسام حتى الليل. ولما استشعرت ملله وضيقه توقفت الأزمة : بالتأكيد كان السبب عدم تعودي على البيت. ليس سهلاً على البنت الانتقال من بيت أبيها إلى بيت زوجها... وافقها من غير تحفظ، على أن لا تعود لهـا الأزمة : وليس سهلاً على الرجل أيضاً.

أضاف وهو يبلل شفتيه ويبلع ريقه : يعني تعودت علي الآن.؟... نظرت إليه بدلال فخاوص بعينيه.

- يا حبيبي.أنا زوجتك للأبد .

تمتم متلعثماً : أنت حبيبتي للأبد.

لم تطق مواصلة النظر إليه، فغمرت رأسها بالوسـادة واستكان جسدها.

لم يدر ماذا يفعل سوى تلمس جانب المخـدة. رفعـت ذراعها وأحاطتها بعنقه وهي على حالهـا وجذبتـه نحوهـا فهوى وجهه على الوسادة دونما مقاومة. أخذت تتلمس خـده بأطراف أصابعها بينما ثقل ذراعها يضغط وجهه في الوسادة مستنشقاً منها ما تبقى من هواء إلى أن أحست بحركة ساقيه تتلوحان في الهواء وقد أوشك على الاختناق. أزاحت ذراعها فرفع رأسه وتنفس بارتياح. لم تتضمن الوصايا المئة التـي قيلت له قبل الدخلة أي إشارة لهذه الحركة، فآثر التأجيل.

ما أن اختطفته سنة سريعة حتى أجفل علـى حركتهـا تقترب منه وتلتصق به. كانت رغبتها متأججة، لكن الخشـية التي انبعثت فيها بعد الحادثة ظلت تلجمهـا. مـا أن قـارب احتكاكهما على التلاحم حتى أحست بخير يلتحم بها. دفعتـه

بعنف ونفخت بعصبية : لا أستطيع. لا أسـتطيع الليلـة...
ودفنت نفسها تحت الغطاء. أحس بالذنب واتخذ أمره على أن
لا يقترب منها إلا إذا طلبت منـه. لـم العجلـة إذا تجـاوز
أصعب مرحلة في الزواج.

في الصباح استيقظت متكدرة ضيقة الصدر حتى أنها لم
تطق الوقوف أمام المرآة. ناداها من الغرفـة العليـا، فلـم
تستجب. لما كرر نداءه، سألته بضيق من أمام الباب عمـا
يريد. قال بأنه يريد أن يأخذ رأيها في توزيعه الجديـد. ردت
بحدة : هل تريدني أن أظل طالعة نازلة. افعل ما تريد. أنا لا
افهم بهذه الأمور... لم يناد عليها ثانية وهي تتنقل بضيق في
البيت الضيق. في الفراش حاول تحسسها، فنهرته : استحي.

في اليوم التالي بدا الوجوم واضحاً في وجهـه وهمـا
يتناولان الإفطار. سألته عند الغداء إن كان قد انتهـى مـن
توزيع اللوحات وترتيبها. هز رأسه بالإيجاب. ظل الوضـع
متوتراً حتى المساء، فاقترحت عليه الذهاب إلى السينما، لكنه
رفض وأشغل نفسه بالرسم حتـى الليـل. حـرك إحجامـه
مخاوفها. أنبت نفسها على سلوكها. أوصـتها أمهـا أن لا
تقطع الشعرة مهما حصل. صعدت إليه تدعوه للعشاء فقـال

بأنه مشغول. ظل في المرسم حتى وقت متأخر. عندما هـبط إلى البيت اتجه مباشرة إلى الحمام. اغتسل مصدراً اصـواتاً عالية. ذهب إلى المخدع مبلل الوجه واليدين بحثاً عن منشفة، فوجد نجلاء في السرير تغطـي باللحـاف جسـدها حتـى الصدر : تأخرت.

- الآن انتهيت.

- إن شاء ا ستظل تتركني لنصف الليل.؟.

ما أن انقضى الأسبوع حتى كانـت إرادة نجـلاء قـد هيمنت على إرادة قسام. أثارت دهشـة نفسـها أكثـر ممـا أدهشت أمها وهي تخبرها عن قدرتها على توجيـه الأمـور بالكيفية التي تريد. لم يخطر ببالها المعلّم الأول : المرآة.

لم تمكن قسام منها إلا تحت الغطاء. حتـى فـي تلـك اللحظات المتوترة لم تكن تمنحه الفرصة ليتأمل مفاتنها وهو ينجرف مهتاجاً معها. عندما ينتهي تكون رغبته في رؤيتهـا عارية قد انتهت أيضاً.

مع الوقت اعتادها مثل لوحاته التي تسـتحوذه دون أن يستحوذها وهي تمنع عنه عريها ولا تمنحه كاملاً ولا حتـى للمرآة التي تعكس لها مفاتنها وهي تراقص جسـدها وتهتـز

وتتمايل وتبتسم بغنجٍ وتشير بدلالٍ وتكشف وتخفـي وتـدير وتستدير وكأنها في استعراض. في الفراش تغلب الفتنة قسام ويغلبها الاستعجال فينتهيان في صدود انعكس على تعاملهما اليومي ولقاءتهما الاجتماعية. فإذا سألته أمه عـن أحوالـه، يتنهد وهو يقول : أيه. ماشي الحال... وتقول نجلاء لأمها : مشي حاله... ولم تكن أي منهما تأتي ولو بتلميح بسيط عـن الماضي الذي يحاولان نسـيانه بالتناسـي. عنـدما جـاءت الحكيمة تبارك لها، سألتها بخبث إن كانت الأمـور بخيـر، فذكرتها بخير. جافتها ولم ترد لها الزيارة وإذا ما التقتها في بيت أبيها تنسحب من الجلسة لتتسلى مع لمياء.

لم تقصد الحكيمة الإساءة. بالنسبة لهـا غـدا الأمـر مقضياً. أنها لا تشكل تهديداً في قضية متورطة فيها. كما أنها لا تخشى التهديد في أمرٍ قصدت منه خيراً. لهذا لم تكتـرث بجفاء نجلاء ولم تعاتب أمها بالأمر، بل تفرغـت للمشـكلة الأصغر وجاءت بعريس للمياء قبلته الأم دون مناقشة رغـم احتجاجات لمياء. فهو أحمر أصلع وسمين قصير. قالت لهـا أمها : يا أحمر حمارة. نجلاء أطول منك وزوجهـا أقصـر منك... فقالت لمياء بأنه حوراني لا رقبة له

- ما حاجتك للرقبة يا مجنونة إذا كان في بطـن هـذا الحوراني كل تجار المهاجرين...

تنهدت لمياء وتساءلت : ماذا عن عينيه. إنه لا يشـوف من غير نظارة.؟.

- هذا الذي لا يشوف اكتشف كنزاً وهو ينضح جورة. وتقولين بعد هذا، لا يشوف.!؟.عمى يعميـكِ. سـتتزوجينه وتملئي له كل يومٍ جورة.

٦

كانت الدورة اختيارية للفتيات وتتطلب موافقة ولي الأمر. لم يمانع موفق شريطة أن لا تكون البنت الوحيدة بين المبعوثين. لكنه في اليوم التالي غض النظر عن اشتراطه وأعطاها موافقته الخطية. أخبرها بأنه قرر مرافقتها. لديه عمل في بيروت كان يزمع قضاءه في الصيف. أما وقد جاءت لتغريد فرصة لا تعوض، ولم تمض أشهرٍ على التحاقها بالبنك، فإنه يستطيع تقديم موعد سفره، مع أن ثلاثة أسابيع طويلة عليه. شجعته تغريد قائلة بأنه سيتوافر له وقتاً أطول من سفراته السابقة للسياحة إضافة إلى التجوال والتسوق وشراء ما يلزمه من كتب وأدوات. خجل أن يسألها إن كانت وعد ستلتحق بالدورة كما خجل أن يسأل وعد عندما قابلها في البنك فأخبرته بنفسها. ستلتحق بالدورة رغم أن أباها لم يوافق للآن لكن ذهاب تغريد سيساعدها في إقناعه، كما أن أخاها هاني يقف إلى جانبها.

كانت تتكركر وهي تخبر تغريد عن الأسئلة التي لا يمل أبوها تكرارها.فأين ستنام وماذا ستأكل، وأين يقع فرع البنك، وكيف ستتدبر أمرها في المواصلات. ما يزال يعتبرها طفلة.

مع هذا كتب لها موافقته بتشجيع من هاني رغم احتجاجـات أمه.

لم يكن بين الموفدين من الفتيات سوى وعـد وتغريـد، لكنهما في بيروت وجدتا عدداً من العراقيـات والشـاميات، تشاركن في السكن المخصص، بينما نزل موفق فـي فنـدق قريب.

في الأسبوع الأول، ظل يتنقل نهاراً بـين دور النشـر ومحلات البيع المكتبية يسأل ويستفسر ويساوم دون أن يتفق على صفقة او يبرم عقداً طالما أن لديه وقتاً للاستطلاع، لـم يتوافر له من قبل .

في المساء يذهب مع وعد وتغريد في أنحاء بيـروت، ويختمون جولتهم على الشاطئ، يراقبون البحر ويصـغون لصخب الموج، ويلقي لهم غالباً قصائداً يحفظها وتعجبه. ثـم يرافقهما إلى السكن فتنهمكان في مطالعة النشرات البنكيـة، وينكب هو في فندقه على قراءة الكتب والجرائد والمجلات.

في الأمسيات التي يكون البنك قد أعد للمتدربين برامج ترويحية من دعوات وجولات، ينضم إليهما أو ينتظرهما أمام السكن حتى تعودان. دعاهما لعشاء في الفندق يوماً. ورغـم

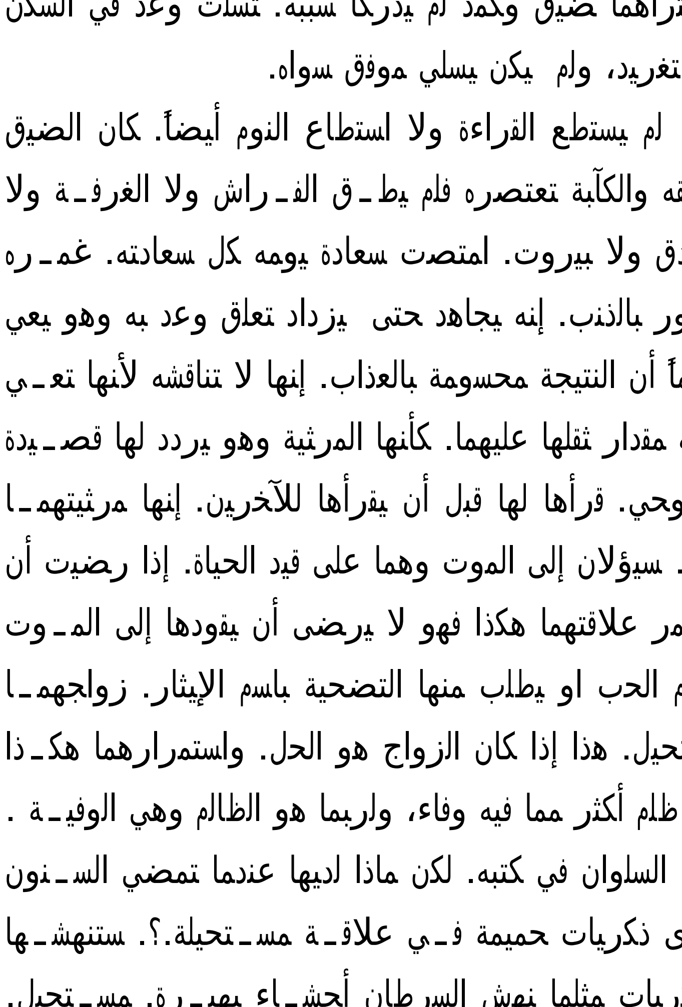
علم الجميع أنه شقيق تغريد ألا أن مرافقته لهما خارج البنك معظم الوقت أثارت التساؤلات.

في عطلة نهاية الأسبوع اصطحبهما إلى الشمال ففتـنهم شموخ صنين وخلب لبهم اخضرار إهدن واستنشقوا رائحـة الجنة من زهور بشري وأحسوا بلذة الحياة تشع من كل نبتة وتنبعث من كل وردة بينما يردد أبياتاً من الكواكـب، وفـي متحف جبران تأبطته كل واحدة من جانب فأحس بأنه يطيـر عبر التاريخ. في قاديشا منحه البرد فرصة الالتصاق بوعد دونما تساؤلات وهمسات. فأحسا بسعادة فياضة بعثها الحرج والألفة والمسرة. أدفأت العواطف جسديهما وانسابت الكلمات عبر أنفاسهما إلى فؤاديهما فغمرهما وجد مسكر تمنيا عـدم الصحوة من ثمالته وليظلا يتهاديان إلى ما لا نهايـة. إنهمـا يستطيعان البقاء في هذه المكان إلى أبد الأبد، فهذه المغـارة على ضيقها أرحب بكثير من فضاء العالم. انهما الآن، وفي غفلة عن شرائع الإنسان، يحققان انسجاماً بين قوى الطبيعـة الظاهرة والخفية، ويجسدان إرادتها التـي تصـل الماضـي بالآتي فيرعيانها كأنها النواة وترعاهما كأنهما المجرة. تلـك اللحظة الخيرة من الوجدانية كانت بالنسبة لهمـا أنبـل مـن

العبادة وأقدر على الإشفاء من الدواء، فالقيود مهمـا كانـت خفيفة يحسها المخلوق ثقيلة بغيضة، ما عدا قيود الحب فإنها لدى كل المخلوقات تشعرهم بالانعتاق. فـي الحـب وحـده يستشعر الإنسان لذة الحرية. فلماذا العـودة إلـى الفضـاء المفتوح على الأغلال والأصفاد والتعاويذ القهرية. هنـاك لا تنساب العواطف من طبيعة الإنسان بل تخضع إرادته لمشيئة الطغيان وهو يحصي أيامه بالنقود ويستعرض قوته بـالقيود متناسياً أن الوجود بكل ما فيه أصغر عند العاشقين من لحظة حبٍ حميمية.

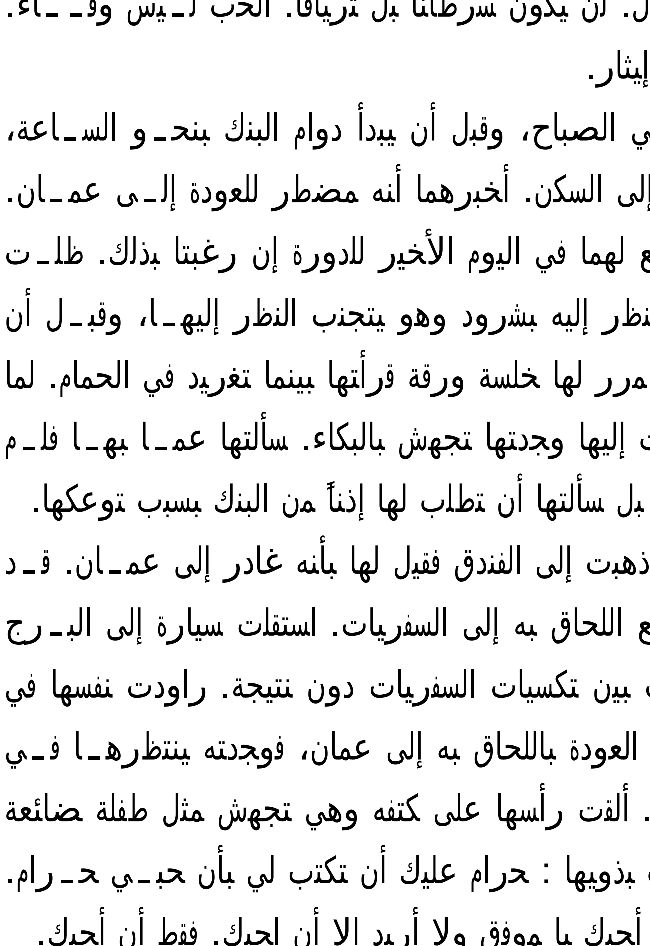
قريباً من العصر، تناولوا الغداء في الأرز. وكـان مـا يزال بقية من ثلج والسائحون قليلين. استذكرت وعد مرثيـة بهيرة. سألته إن كان يحفظ ما كتبه الملـوحي عـن إهـدن، وتعلقت أنظارها بالشجرات المعمرة وهـو يلقـي القصـيدة بصوته الرخيم كأنه يتعبد للتاريخ حتى يشـهد علـى عهـده ويبارك وعده.

في بيروت أحس كل منهما بالفضاء ستاراً مـن حديـد والهواء ثقيل كالرصاص والبحر وحـش مفتـرس مسـتبد،



فاعتراهما ضيق وكمد لم يدركا سببه. تسلت وعد في السكن مع تغريد، ولم يكن يسلي موفق سواه.

لم يستطع القراءة ولا استطاع النوم أيضاً. كان الضيق يخنقه والكآبة تعتصره فلم يطـق الفـراش ولا الغرفـة ولا الفندق ولا بيروت. امتصت سعادة يومه كل سعادته. غمـره شعور بالذنب. إنه يجاهد حتى يزداد تعلق وعد به وهو يعي تماماً أن النتيجة محسومة بالعذاب. إنها لا تناقشه لأنها تعـي مثله مقدار ثقلها عليهما. كأنها المرثية وهو يردد لها قصـيدة الملوحي. قرأها لها قبل أن يقرأها للآخرين. إنها مرثيتهمـا معاً. سيؤلان إلى الموت وهما على قيد الحياة. إذا رضيت أن تستمر علاقتهما هكذا فهو لا يرضى أن يقودها إلى المـوت باسم الحب او يطلب منها التضحية باسم الإيثار. زواجهمـا مستحيل. هذا إذا كان الزواج هو الحل. واستمرارهما هكـذا فيه ظلم أكثر مما فيه وفاء، ولربما هو الظالم وهي الوفيـة . لديه السلوان في كتبه. لكن ماذا لديها عندما تمضي السـنون سوى ذكريات حميمة فـي علاقـة مسـتحيلة.؟. ستنهشـها الذكريات مثلما نهش السرطان أحشـاء بهيـرة. مسـتحيل.



مستحيل. لن يكون سرطاناً بل ترياقاً. الحب ليس وفاء. الحب إيثار.

في الصباح، وقبل أن يبدأ دوام البنك بنحو الساعة، ذهب إلى السكن. أخبرهما أنه مضطر للعودة إلى عمان. سيرجع لهما في اليوم الأخير للدورة إن رغبتا بذلك. ظلت وعد تنظر إليه بشرود وهو يتجنب النظر إليها، وقبل أن يغادر مرر لها خلسة ورقة قرأتها بينما تغريد في الحمام. لما خرجت إليها وجدتها تجهش بالبكاء. سألتها عما بها فلم تجب، بل سألتها أن تطلب لها إذناً من البنك بسبب توعكها.

ذهبت إلى الفندق فقيل لها بأنه غادر إلى عمان. قد تستطيع اللحاق به إلى السفريات. استقلت سيارة إلى البرج وتنقلت بين تكسيات السفريات دون نتيجة. راودت نفسها في طريق العودة باللحاق به إلى عمان، فوجدته ينتظرها في السكن. ألقت رأسها على كتفه وهي تجهش مثل طفلة ضائعة ظفرت بذويها : حرام عليك أن تكتب لي بأن حبي حرام. سأظل أحبك يا موفق ولا أريد إلا أن احبك. فقط أن أحبك.

٧

تدفقت مواكب المهنئـين، وكـان أقـارب قسـام أول الوافدين. وصلوا مع أبويه حاملين النقوط من هدايا ونقـود. وكانت نجلاء قد قضت وقتاً طويلاً أمام المرآة محتارة فـي اختيار ما ترتديه. كل فستان يحتاج إلى تسريحة خاصة، وكل تسريحة تحتاج غندرة خاصة. غيرت من شـكل تسـريحتها مراراً وهي تبدل ثيابها قبل ان تثبت على قرار. بعدما انتهت عصراً أوصت قسام حتى يدير باله على الضـيوف ويقـوم بالواجب نيابة عنها حتى لا يتهدل فستانها وتختل زينتهـا. لا يرضيه أن تبدو مهرقلة أمام أهله : أعـوذ بـا . طبعـاً لا أرضى. أريدك أن تظهري أمامهم مثل الأميرات. أنت زوجة قسام.

أعجبه قوله أكثر من حماسه، فقبلته من وجنتـه قبلـة ناعمة خفيفة زلزلت التيارات النائمة في أعماقه. عض على شفته وهز رأسه مداعباً : فقط لولا أني أخشى على زينتك.

بسرعة قالت بدلع ودلال أعجبه : لا لا. لـيس الآن... ربتت بأطراف أصابعها على خده وهي ترجـرج حاجبيهـا وتضيف بنزق : وقته في الليل.

رجرج حاجبيه على طريقتها وأضاف تلويحة من رأسه وهو يرد بمجعصة : أنا أبو الليل.؟.

- هذه أبصم لك فيها... وبصمت بالعشرة على منضدة المرآة... استدركت بسرعة : هيا حبيبـي. اذهـب أكمـل التجهيز قبل حضور الضيوف.

استقلبت حمييها بترحاب وبشاشة وظلت تفيض عليهمـا بابتسامتها المشرقة طيلة الجلسـة، متجنبـة الالتفـات إلـى الأقارب الآخرين ومقتضبة في الرد على أسـئلتهم، وهـي تحس بنظرات الجميع تنساب فوقها وتخترق ثيابها وتمتص غندرتها. بينما قسام لا يسمح لها بالحركة او المناولة. لـيس عملاً بوصيتها فحسب، بل لأنه في انشغاله وإشغال نفسه كان يخفي حرجه الناتج عن وضعه الجديد ويهرب من خجله أمام نظرات أقاربه المتفقدة المتفحصة المرتابة. على عكس نجلاء التي كانت منتبهة في مقعدها للأحاديث متيقظـة للنظـرات، دون أن تلتفت لأصحابها.

سأل أحدهم قساما مداعباً : كيف شايف الزيجة.؟.

تلعثم قسام وارتبك . تدخلت أمه : أولها دائماً سـكر... ضحك الجميع، بمن فيهم قسام الذي هرب من حرجـه إلـى

المطبخ. بينما ابتسمت نجلاء دون أن تقوى على إخفاء معالم الغيظ في وجهها.

قدم الحلوى والقهوة واسـتعاد الفنـاجين والصـحون، وعندما كشف الضيوف عن هداياهم اختطفها من أصـحابها وقدمها إلى نجلاء حتى لا تتقدم إليها.

بعد مغادرة الجميع لملم البقايا ونفض المقاعـد وجلـى الأواني. توجه بعد انتهائه إلى المخدع فوجـد نجـلاء أمـام المرآة لم تنته بعد من نزع ثيابها وخلع زينتها. كان وجههـا عابساً وتقاسيمها منكمشة تقبض بأسنانها على بكلة صغيرة..

- يعطيك العافية...قال وهو يرخي كميه عن كوعيه.

- يعافيك... قالت من حنجرتها دون أن تحرك أسنانها او شفتيها.

- هل تريدين مساعدة.؟... سأل بقلق.

- انتهيت... قالت بجفاء. أضافت بنبرة آمـرة : روح للقعدة. لاحقتك بعد قليل.

صبت جام غضبها على قريبه الذي سأله عن الزيجة. إنه لا يستحي. ماذا يقصد بسؤاله.؟. لمـاذا سـكت لـه.؟. الحقير : يسأل أمام الجميع كيف تزوجتني.؟.

ارتبك قسام وكان قد نسي السؤال الذي اعتبره مجاملة لا أكثر، فإذا به ملغوم بسوء النية. لم يدافع قسام ولم يبـرر ولم يستوقفها او يهدىء منها وهي تتحدث بانفعـال وتـوتر لأكثر من ساعة. وافقها في النهاية على أن السؤال ليس . بينه وبين نفسه، اعتبره تلميحاً للمساس به.

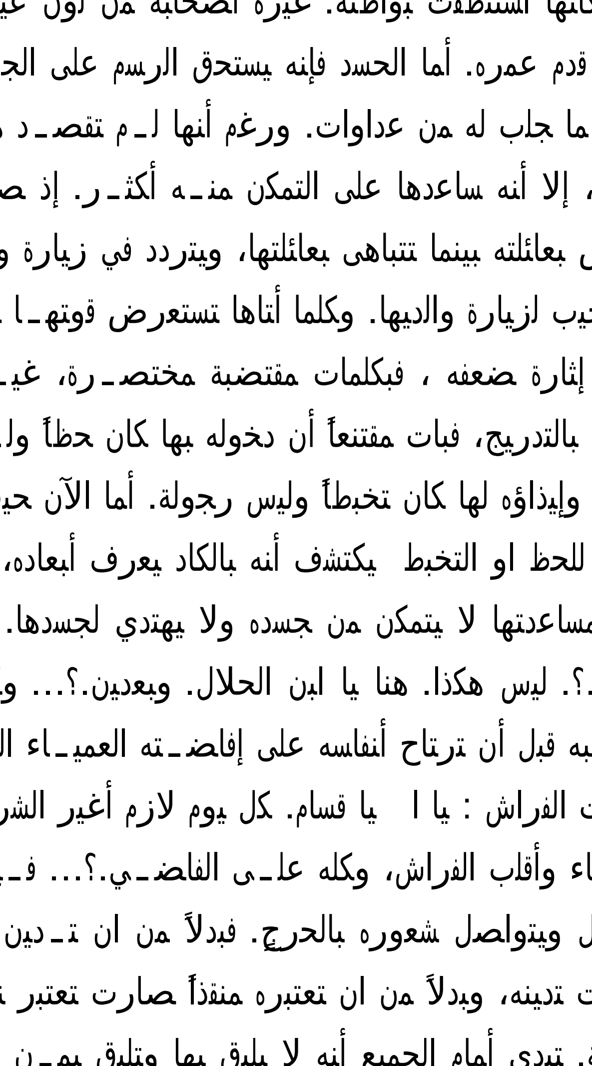
انسابا في الفراش والكمد واضح في وجهيهما. بعد أقـل من نصف ساعة تأزمت حالتها وضاق نفسها وكادت تختنـق أنفاسها، فأربكته حالتها وراح يركض بين المطبخ والمخـدع جالباً الأسبرو والإسبرين وكيلة ماء وطاسة لبن وماء زهـر وشقفة ليمون وكل ما يقول له جربني.

ما أن استقرت حالتها حتى قالت : ا يموته، موتني.

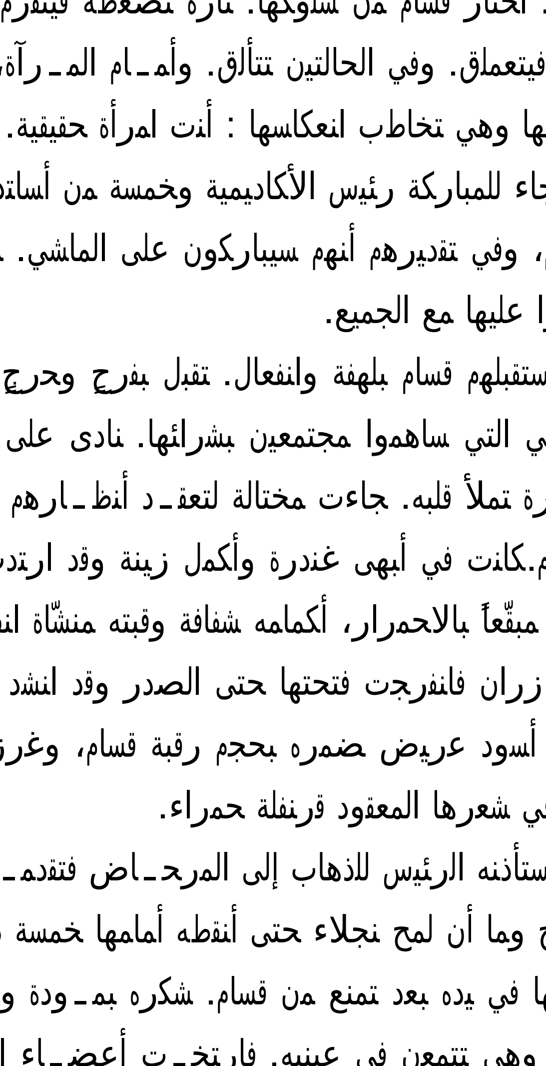
قال بذلة : علي الحرام، لن أدعه يدخل بيتي ثانية.

- ما الفائدة.؟. كان يجب أن ترد عليه وهو في وسـط بيتي.

أطرق فرفعت بأطراف أصابعها ذقنه مضـيفة بـدلال ووجه متعب : تسلم لـي عينـاك الخضـراوان... خالجـه الاستحياء وتورد خداه فنقلت يـدها إلـى وجهـه وتلمسـته بنعومة : أنا أعرف أنه يحسدك ويغار منك.



كأنها استنطقت بواطنه. غيرة أصحابه من لون عينيه قديمة قدم عمره. أما الحسد فإنه يستحق الرسم على الجدران لكثرة ما جلب له من عداوات. ورغم أنها لم تقصد هذا بقولها، إلا أنه ساعدها على التمكن منه أكثر. إذ صار يعرض بعائلته بينما تتباهى بعائلتها، ويتردد في زيارة والديه ويستجيب لزيارة والديها. وكلما أتاها تستعرض قوتها من خلال إثارة ضعفه ، فبكلمات مقتضبة مختصرة، غيرت قناعته بالتدريج، فبات مقتنعاً أن دخوله بها كان حظاً وليس فحولة وإيذاؤه لها كان تخبطاً وليس رجولة. أما الآن حيث لا مجال للحظ او التخبط يكتشف أنه بالكاد يعرف أبعاده، فمن غير مساعدتها لا يتمكن من جسده ولا يهتدي لجسدها. أين رحتْ.؟. ليس هكذا. هنا يا ابن الحلال. وبعدين.؟... وكثيراً ما تؤنبه قبل أن ترتاح أنفاسه على إفاضته العمياء التي أغرقت الفراش : يا ا يا قسام. كل يوم لازم أغير الشرشف والغطاء وأقلب الفراش، وكله على الفاضي.؟... فيحس بالخجل ويتواصل شعوره بالحرج. فبدلاً من ان تدين له صارت تدينه، وبدلاً من ان تعتبره منقذاً صارت تعتبر نفسها ضحية. تبدي أمام الجميع أنه لا يليق بها وتليق بمن هو



أحسن. احتار قسام من سلوكها. تارة تضغطه فيتقزم وتارة تمطّه فيتعملق. وفي الحالتين تتألق. وأمام المرآة، تشير بأصبعها وهي تخاطب انعكاسها : أنت امرأة حقيقية.

جاء للمباركة رئيس الأكاديمية وخمسة من أساتذتها دون نسائهم، وفي تقديرهم أنهم سيباركون على الماشي. مجاملة اعتادوا عليها مع الجميع.

استقبلهم قسام بلهفة وانفعال. تقبل بفرحٍ وحرجٍ دزينة القاشاني التي ساهموا مجتمعين بشرائها. نادى على نجلاء والمسرة تملأ قلبه. جاءت مختالة لتعقد أنظارهم وتربط ألسنتهم.كانت في أبهى غندرة وأكمل زينة وقد ارتدت فستاناً أبيض مبقّعاً بالاحمرار، أكمامه شفافة وقبته منشّاة انفك من تحتها زران فانفرجت فتحتها حتى الصدر وقد انشد خصرها بحزام أسود عريض ضمره بحجم رقبة قسام، وغرزت فوق أذنها في شعرها المعقود قرنفلة حمراء.

استأذنه الرئيس للذهاب إلى المرحاض فتقدمه عبر المطبخ وما أن لمح نجلاء حتى أنقطه أمامها خمسة دنانير، وضعها في يده بعد تمنع من قسام. شكره بمودة وشكرته نجلاء وهي تتمعن في عينيه. فارتخت أعضاء الرئيس

وتهاوت أعصابه وكاد يكشفه اهتياجه لولا أنه نظر من غير إرادة إلى قسام. تحولت المباركة من زيارة على الماشي إلى سهرة على القاعد. استأذن خلالها الرئيس قسام ثلاث مـرات للذهاب إلى الحمام، متوقعاً أن يصادف نجلاء في طريقه ولو لمرة واحدة.

اختلف سلوكها في هذه المباركة، فعندما أخبرها قسـام عن الزيارة لم توصه بتولي الضيافة عنها، ولم تبـد اسـتياء لأنهم جاؤوا من غير نسائهم، فهي وإن لـم تجالسـهم إلا أن حضورها لم يغب عن مخيلتهم وظل عطرهـا يعبـق فـي أنفاسهم منذ سلّمت عليهم إلى أن سـلّموا عليهـا. فـأربكتهم واستولت على أفئدتهم بمثل ما استولت عليها نظراتهم.

تولت بنفسها الضيافة ولم تسمح لقسام بالتحرك. فكلمـا جاءت من المطبخ تحمل صينية يهم قسام بمساعدتها، فتقول له بحنان مفرط : خلّيك مرتاح حبيبي... وإذا حـاول جمـع الصحون معها او مناولتها الفناجين، تطلب منه بمـودة أن يهتم بأصحابه ويسلّيهم. تأتي من حين لحين تسأله والبهجـة تغمر وجهها إن كان يحتاج شيئاً وتبتسم ببشاشة للضيوف : أهلاً وسهلاً... وتضيف ببراءة : لا تؤآخذوني. قسام أخبرني

فقط هذا اليوم عن زيارتكم، وإلا كنت أعددت نفسي بشـكلٍ أحسن... فيردون بفخامة : أحسن من هذا.؟!..

دعاهم قسام بعد ذلك إلى مرسمه، فرافقوه على مضض، لكن مجيء نجلاء بالقهوة إلى العلّية حولها من زوجـة إلـى ملهمة، وهم يسألونها الرأي ويناقشونها بالفن، وكـل مـنهم يتخيلها في لوحة على هواه ، باستثناء قسام : الأيام قادمة يا قسام... قال الرئيس مجاملاً عندما حاول قسام إبقاءهم فتـرة أطول بعد مغادرة نجلاء.

عند الباب، قال قسام : هذه الزيارة ليست محسوبة...

ثنى الرئيس على قوله : طبعاً ليست محسوبة. لكن لازم تتفضل عندنا أنت والعروس أولاً.

عقّب آخر : وعندي بعدك سعادة الرئيس.

وتعاقبت الدعوات. أنا بعده. أنا بعده. أنا بعده...

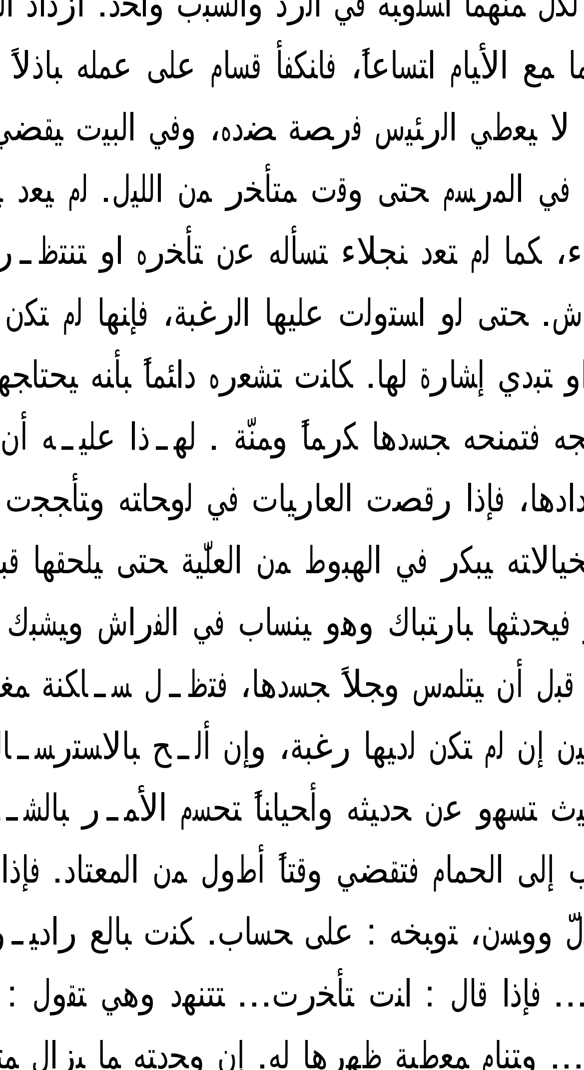
لما ابتعدوا عن المنزل، قال الرئيس : وا قسام يستاهل كل خير.

رددوا معاً : إي با ... تساءل أحدهم كأنه يخاطـب نفسه : من أين جاء بها.؟...

عقّب آخر : ربك يطعم الذي ليس له أسنان.

رفضت دعوات زملاء قسـام وقبلـت دعـوة رئيسـه للعشاء. كانت تقصده باستعراضها قبل غيره يوم المباركـة وإن كان ينشيها إغواء الآخرين. أغدقت عليـه بابتسـاماتها خلال العشاء وتصرفت بتعالٍ مع زوجته التي ردت عليهـا بإيلاء قسام الاهتمام. انتبه قسام للنظرات المتبادلة بين نجلاء والرئيس فعلاه الوجوم بمجرد مغادرتهما. قابلته بالمثل. فـي المنزل اتهمته بأن زوجة الرئيس كانت تغازله طيلة الجلسة. نفى ذلك بإصرار. بينه وبين نفسه صدق ادعاءهـا وكـذب ظنونه، فهو لم يتجاوز الثلاثين بينما اقتـرب رئيسـه مـن الستين. ليس معقولاً أن يجذب عجوز مثله صبية مثل نجلاء، فهي تجامل رئاسته فحسب، لكن المعقـول أن يطيـر عقـل رئيسه بها ويطير عقل زوجته الكهلة به.

من حينها اتخذ موقفه بعدم تبادل الزيارات مع الـرئيس وصار يحاول ما أمكن تجنب مقابلته او الالتقاء به، وإن قابله يجافيه. لا ينقصه سوى عجوز متصابي. رد رئيسه بالمثـل، فصار يستثنيه ما أمكن من الاجتماعات ويتقصى باسـتمرار عنه ويوبخه على تقصيره ويسائله إذا وردته شـكوى عـن سلوكه داخل القاعة او خروجه عن موضوعات التـدريس.



كان لكل منهما اسلوبه في الرد والسبب واحد. ازداد الشرخ بينهما مع الأيام اتساعاً، فانكفأ قسام على عمله باذلاً جهده حتى لا يعطي الرئيس فرصة ضده، وفي البيت يقضي جلّ وقته في المرسم حتى وقت متأخر من الليل. لم يعد ينادي نجلاء، كما لم تعد نجلاء تسأله عن تأخره او تنتظره في الفراش. حتى لو استولت عليها الرغبة، فإنها لم تكن تلمح بها او تبدي إشارة لها. كانت تشعره دائماً بأنه يحتاجها ولا تحتاجه فتمنحه جسدها كرماً ومنّة . لهذا عليه أن يقبل استبدادها، فإذا رقصت العاريات في لوحاته وتأججت الرغبة في خيالاته يبكر في الهبوط من العلّية حتى يلحقها قبل ان تغفو فيحدثها بارتباك وهو ينساب في الفراش ويشبك يده في يدها قبل أن يتلمس وجلاً جسدها، فتظل ساكنة مغمضة العينين إن لم تكن لديها رغبة، وإن ألح بالاسترسال في الحديث تسهو عن حديثه وأحياناً تحسم الأمر بالشخير او تذهب إلى الحمام فتقضي وقتاً أطول من المعتاد. فإذا وجدته قد ملّ ووسن، توبخه : على حساب. كنت بالع راديو قبل قليل... فإذا قال : انت تأخرت... تتنهد وهي تقول : مثلما تريد... وتنام معطية ظهرها له. إن وجدته ما يزال متحفزاً

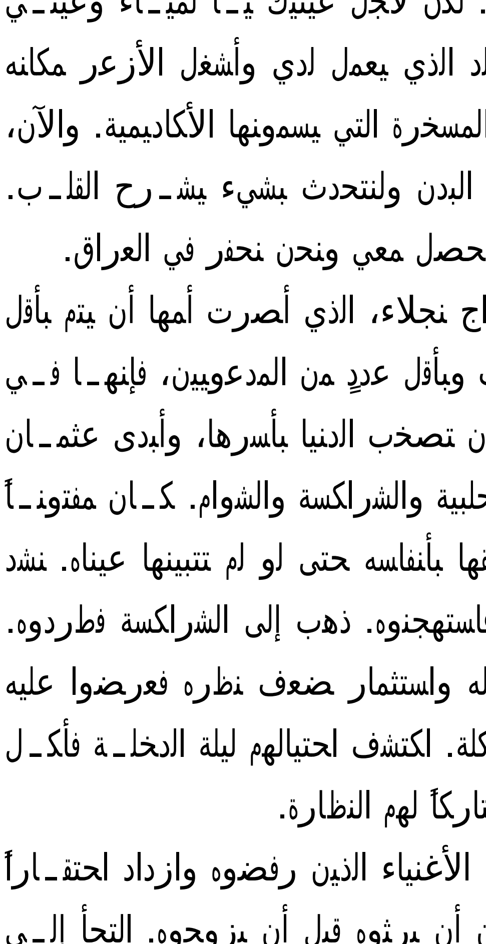
تتحفز وهي تمنحه فيصلان المتعة في مجاهدة سريعة ومـع هذا كان الاجتياح يمتّعها. أما إذا جاءها ورغبتهـا متأججـة فإنها توبخه حتى لو كانت أصغر مساماتها تستدعيه : ابـق صائماً أحسن الك... وتنسى نفورها منه وصدودها عنه كمـا تنسى خير، وهي تغيب معه في ذروة النشوة.

في معاشرتهما اليومية كانت تبدي استياء من طريقتـه بالأكل : على مهلك. الأكل لن يطيـر... وعنـدما يسـتخدم المغسلة توبخه على البصاق فيها، وتظل أياماً محجمة عـن استخدامها قرفاً منه. فعود نفسه على سـكب المـاء بعـدما يبصق في المرحاض حيث تضع حفاظها في وعاء مسـتقل بجانب السيفون إلى أن تواتيها الهمـة للغسـيل. قـال لهـا باستحياء أنه سيجلب وعاء له غطاء. سـألته عـن السـبب فأخبرها بتلعثم وهـو يشـير للـوراء : لأجـل الخـرق... تخصورت وهي ترد مستنكرة : صرت تقـرف مـن بنـت المكنوز يا فنطوز.؟!.. فلم يعد للموضـوع ثانيـة. شـجعها إذعانه على التمادي، فصارت تفرد حفاظهـا فـي الوعـاء متعمدة الكشف عن البقع المتلطخة بالدماء.

منذ وانتهاها الأعراض في شباط خاص قسام مـن قـرف الحفاظات كما لم تعاودها الأزمة بتاتاً. قال لها بأن ذلك فـأل خيرٍ فتذكرت خير مما أصابها بشرودٍ ظلـت معـه واجمـة لبعض الوقت. ظن أنه نحسها، فأسرع يجلـب مسـتلزمات الأزمة قبل التأزم، وظل يلاطفها ويدللها واستمر بذلك طيلـة حملها الذي جعلها تستأثر بجلّ اهتمام العائلتين ورعايتهمـا ، حتى أن شقيقتها لمياء كانت تأتي أحياناً لخدمتها وتوضـيب بيتها رغم انشغالها بخطيبها عثمان والاستعداد للزفاف بعـد شهر.

أبدى قسام تقززه من عثمان عندما التقاه للمرة الأولـى. تساءل عن الحكمة من خلق إنسان أحمر بلا رقبـة. عينـاه بصقتان وجسده زير فوقه طاسة مقلوبة : يكفي يا نجلاء أن ثروته تفوح منها رائحة الوسخ... وكان أكثر ما يغيظه تفخيم انسبائه له ومخاطبته باسم عصمان.

أما عثمان فقد شبه رقبة قسـام بـالبوري المضـغوط وعينيه بعيني الضفدع ولقبه بالأزعر. وكان يغيظـه تنعـيم أنسبائه له وهم يخاطبونه باسم أسام. قـال للميـاء : شـقفة موظف. سيفترش الأرض إذا قال له رئيسه بـع، ويمـوت



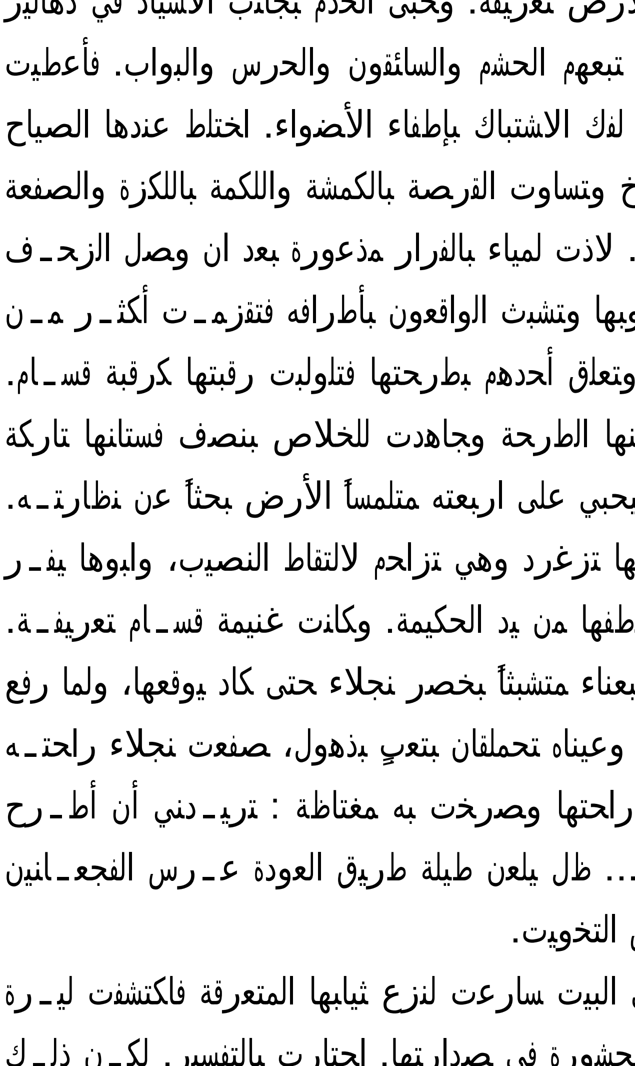
جوعاً إذا قال له بح. لكن لأجل عينيك يـا لميـاء وعينـي شقيقتك، سأطرد الولد الذي يعمل لدي وأشغل الأزعر مكانه إذا طردوه من هذه المسخرة التي يسمونها الأكاديمية. والآن، اتركينا من سـمـة البدن ولنتحدث بشيء يشـرح القلـب. اسمعي يا ستي ماذا حصل معي ونحن نحفر في العراق.

على عكس زواج نجلاء، الذي أصرت أمها أن يتم بأقل ما يمكن من الصخب وبأقل عددٍ من المدعويين، فإنهـا فـي زواج لمياء أرادت أن تصخب الدنيا بأسرها، وأبدى عثمـان الاستعداد لإغاظة الحلبية والشراكسة والشوام. كـان مفتونـاً بالقشطة التي يستنشقها بأنفاسه حتى لو لم تتبينها عيناه. نشد حاجته عند الحلبية فاستهجنوه. ذهب إلى الشراكسة فطردوه. حاول الشوام استغفاله واستثمار ضعف نظره فعرضوا عليه خرعبة وزوجوه حنكلة. اكتشف احتيالهم ليلة الدخلـة فأكـل الطعم وغنم البكارة تاركاً لهم النظارة.

تفاقم حقده على الأغنياء الذين رفضوه وازداد احتقـاراً للفقراء الذين يريدون أن يرثوه قبل أن يزوجوه. التجأ إلـى الداية الحكيمة التي وعدته أن يتذوق في لقمة واحـدة طعـم القشطة الحلبية واللبنة الشامية والجبنة الشركسـية، فاشـتهى

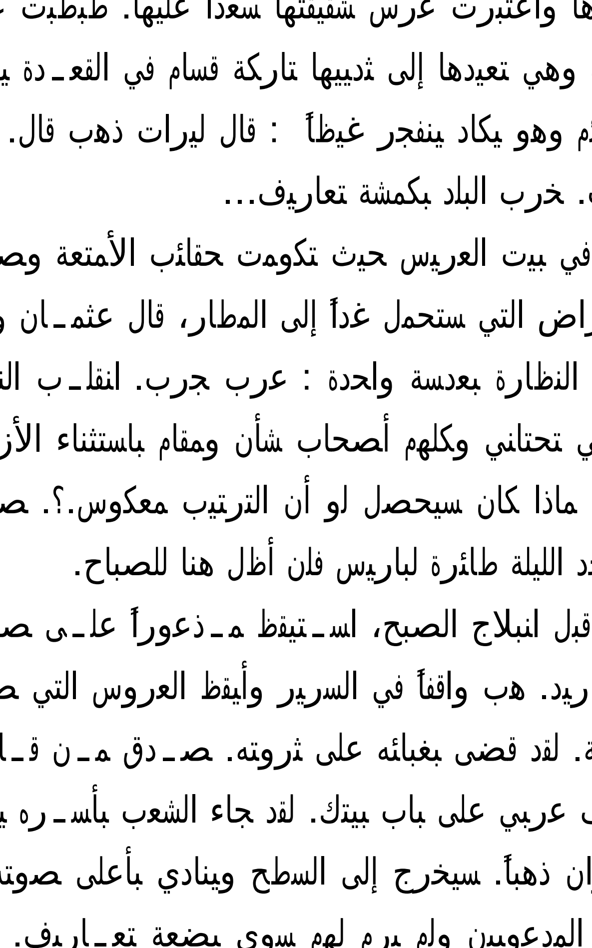
لمياء قبل ان يراها. لما رآها أقسم أن يقـاهر بهـا الـذين رفضوه، ويغيظ الذين استغلّوه، فأقام حفلة زفافه فـي نـادي الضباط، دعى إليها عدداً كبيراً من الضباط والتجار ورجال المال والأغنياء. وقاطعهـا الحلبيـة والشراكسـة والشـوام والحوارنة. كما قاطعتها عائلة عثمان التي كانـت تأمـل أن يستر على أرملة أخيه وأبنائها السبعة، وكان يتطير من رقـم سبعة.

غنى المغنون في حفلته ورقصت الراقصات وتنـاول المدعوون الأطاييـب مـن اللحـوم والمقـبلات والفواكـه والحلويات ودخنوا السجائر الإنجليزيـة وشـربوا الكحـول الاسكتلندية ووزعت عليهم مطبقيات البورسلان المذهبـة. وعندما تزاحموا للخروج وراء العروسـين رميـت فـوقهم الليرات الذهبية مخلوط بها تعاريف نحاسية على عادة أغنياء حوران، فلم يبالوا بفشخ رؤوسهم وهم يتلقفونها ويتخاطفونها ويتنازعون عليها، بعد أن طغى رنين المعدن علـى طنـين الآذان. نشب العراك ودب النزاع واختلط الـدفع بالانـدفاع وهوت الأذرع نحو الأقدام وانسحقت الأحذيـة وتكسـرت الأكعاب واختنق الجو كأنما الهواء فقاعة وضـاقت الرقعـة



كأنما الأرض تعريفة. وحبى الخدم بجانب الأسياد في دهاليز المنجم، تبعهم الحشم والسائقون والحرس والبواب. فأعطيت الأوامر لفك الاشتباك بإطفاء الأضواء. اختلط عندها الصياح بالصراخ وتساوت القرصة بالكمشة واللكمة باللكزة والصفعة بالطبزة. لاذت لمياء بالفرار مذعورة بعد ان وصل الزحـف داخل ثوبها وتشبث الواقعون بأطرافه فتقزمـت أكثـر مـن عثمان وتعلق أحدهم بطرحتها فتلولبت رقبتها كرقبة قسـام. ألقت عنها الطرحة وجاهدت للخلاص بنصف فستانها تاركة عثمان يحبي على اربعته متلمساً الأرض بحثاً عن نظارتـه. بينما أمها تزغرد وهي تزاحم لالتقاط النصيب، وابوها يفـر بليرة خطفها من يد الحكيمة. وكانت غنيمة قسـام تعريفـة. تناولها بعناء متشبثاً بخصر نجلاء حتى كاد يوقعها، ولما رفع إصبعيه وعيناه تحملقان بتعبٍ بذهول، صفعت نجلاء راحتـه بظاهر راحتها وصرخت به مغتاظة : تريـدني أن أطـرح بتعريفة... ظل يلعن طيلة طريق العودة عـرس الفجعـانين وعريس التخويت.

في البيت سارعت لنزع ثيابها المتعرقة فاكتشفت ليـرة ذهبية محشورة في صدارتها. احتارت بالتفسير. لكـن ذلـك


أسعدها واعتبرت عرس شقيقتها سعداً عليها. طبطبت علـى الليرة وهي تعيدها إلى ثدييها تاركة قسام في القعـدة يكيـل الشتائم وهو يكاد ينفجر غيظاً : قال ليرات ذهب قال. ابـن الكلب. خرب البلد بكمشة تعاريف...

في بيت العريس حيث تكومت حقائب الأمتعة وصناديق الأغراض التي ستحمل غداً إلى المطار، قال عثمـان وهـو يضع النظارة بعدسة واحدة : عرب جرب. انقلـب النـاس فوقاني تحتاني وكلهم أصحاب شأن ومقام باستثناء الأزعـر قسام. ماذا كان سيحصل لو أن الترتيب معكوس.؟. صدقيني لو أجد الليلة طائرة لباريس فلن أظل هنا للصباح.

قبل انبلاج الصبح، اسـتيقظ مـذعوراً علـى صـوت الزغاريد. هب واقفاً في السرير وأيقظ العروس التي صارت زوجة. لقد قضى بغبائه على ثروته. صـدق مـن قـال، لا تعرف عربي على باب بيتك. لقد جاء الشعب بأسـره يريـد الحلوان ذهباً. سيخرج إلى السطح وينادي بأعلى صوته، أنه خدع المدعويين ولم يرم لهم سوى بضعة تعـاريف. لكـن الأصوات لم تقتصر على الزغاريد، إذ سرعان ما جاوبتهـا

الهتافات، فأطل برأسه متلصصاً من النافذة ومن فوق رأسـه أطلات لمياء.

كانت الدبكات تتشكل في الطرقات والنـاس يتجمعـون أمام الحوانيت وفي الأزقة والمـداخل والطرقـات، وعلـى الأدراج والأسطحة وفي النوافذ والشرفات.كان عرسـاً لـم تشتره التعاريف ولا ليرات الذهب ولا الموائد ولا السـجائر ولا الخمور. لم تكن القامات تنحني بل تسـتقيم. لـم تكـن الأجساد تتساقط بل تتقـافز. لـم يكـن النـاس يتزاحمـون ويتدافعون، بل يحتشدون ويتماسكون.لم يكونوا يتصـارخون ويتشاتمون، بل يتنادون ويحيون. كان دوي الهتافات يصـل إلى داخل البيوت، بينما الألحان العسكرية تنطلق عبر الهواء لتجيش فياضة في الصدور حماساً للتعريب وانتصاراً لرحيل كلوب. كان أزهى عرس عرفته عمان في تاريخها الحديث، وبالأصح ابتدأ منه هذا التاريخ.

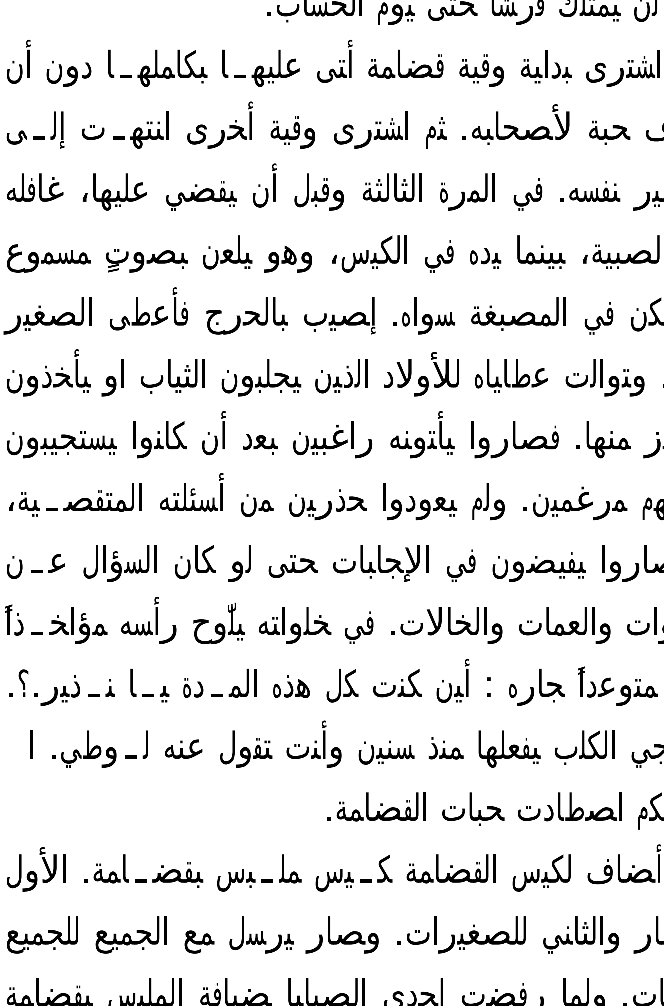
٨

بعد رحيل عائلة المكنوز خبا الحـديث تـدريجياً عـن نجلاء وإن كان يذكرها البعض كلما أتى أحدهم علـى ذكـر خير الذي لعنته الجوفة أكثر مما لعن أهلها الشيطان.

اختلفت المشاعر بعد الذي حلّ به. لكن الاتفاق علـى تجريمه كان عاماً، حتى أولئك الذين تعاطفوا معـه وهـالهم محاولة أبيه قتله. صاروا يحذرون بنـاتهم منـه ويوصـون أبناءهم بعدم مرافقته. كان يجمعهم قاسم مشترك مبعثه رادع نفسي قبل أن يكون اجتماعياً أو دينيـاً. كثيـرون غيـرتهم الحادثة جذرياً مع أنهم ليسوا طرفاً فيها. فتحول الرادع فـي أنفسهم إلى دافع. وكان نذير مـن أكثـر هـؤلاء شـعوراً بالخذلان. فلم ينقم على خير قدر نقمته على نفسه ولم يشـفه ما جرى له لشدة ما يعاني مما يجري له. انه يحلم بالصـبايا مذ كان صبياً، ولربما قبل ذلك، وظل يحلم بهن بعدما غـدا فتياً وامتلك مصبغته الخاصة. لديه دخل فائض ومكان آمـن وأحلام فتية. ولا يحظى إلا بامرأة منتنة تكبره بعمر عروس. ظن بأنها ستكتفي منه رجلاً يشد أزرها ويقف إلى جانبهـا، ويكتفي منها بمبناها وإيرادها، متفرغاً للعبث في مصبغته مع

الصغيرات كما يعبث الدكنجي مع الصغار. لكنه لـم يحـظ بأيهن. تفاقمت رغبته مع تفاقم ملله ونفوره مـن أم عنـاد، فصار يتمنى أن يحظى بالجارات والعـاهرات والنوريـات. وكان هذا صعب المنال طالما أن عنـاد يطـب عليـه فـي المصبغة دونما استئذان او يستحكم متلصصاً بجانب البـاب. ثم يأتي هذا الخير لخير. خير يا نـاس.!؟.كيـف ارتضـت الذهاب للتسوية.؟.كيف رضيت به ورائحته مقرفة.

لم يكن ينقضي يوم دون أن يأتي علـى ذكـره ولعنـه وشتمه. ولا تنقضي ليلة دون أن يحس فيها بالاختنـاق مـن رائحة أم عناد وهو يغلي من الغيظ والخذلان. فمهما كانـت صعوبة ظروفه إلا أن ظروف خير أصعب. ومهمـا كانـت غلاظة قيوده فقيود خير أغلظ. أنه لم يكن يخرج مـن بـاب البيت، فكيف غافل الجميع وفعلها في تسوية البيت.؟. كيـف دخلـوا وخرجـوا دون أن يلحظهـم أحـد مـن بـاب او شباك.؟.على خشب الطوبار يا ناس وهو الذي يسـتطيع أن يفرش أرض المصبغة بثياب الحرير والفراء. ويسـتطيع أن يتحمم ويحمم ويظل فيها عارياً لو أراد. كما يستطيع أن يدفع



ويهدي ويصرف حصيلة يومه بلا حساب وليس شأن خيـر الذي لن يمتلك قرشاً حتى يوم الحساب.

اشترى بداية وقية قضامة أتى عليهـا بكاملهـا دون أن يضيف حبة لأصحابه. ثم اشترى وقية أخرى انتهـت إلـى المصير نفسه. في المرة الثالثة وقبل أن يقضي عليها، غافله أحد الصبية، بينما يده في الكيس، وهو يلعن بصوتٍ مسموع ولم يكن في المصبغة سواه. إصيب بالحرج فأعطى الصغير حفنة. وتوالت عطاياه للأولاد الذين يجلبون الثياب او يأخذون الجاهز منها. فصاروا يأتونه راغبين بعد أن كانوا يستجيبون لذويهم مرغمين. ولم يعودوا حذرين من أسئلته المتقصـية، بل صاروا يفيضون في الإجابات حتى لو كان السؤال عـن الأخوات والعمات والخالات. في خلواته يلّوح رأسه مؤاخـذاً نفسه متوعداً جاره : أين كنت كل هذه المـدة يـا نـذير.؟. الدكنجي الكلب يفعلها منذ سنين وأنت تقول عنه لـوطي. ا أعلم كم اصطادت حبات القضامة.

أضاف لكيس القضامة كـيس ملـبس بقضـامة. الأول للصغار والثاني للصغيرات. وصار يرسل مع الجميع للجميع سلامات. ولما رفضت إحدى الصبايا ضيافة الملبس بقضامة

جاب نصف وقية ملبس بلوز. مدها بورقتها لصبية في المرة الأولى، فتناولت حبة. في المرة الثانية مد منها حفنـة بيـدٍ مرتجفة. ثم صار يتعمد أن تتلامس يـده بيـد الزبونـات. قاصرات أم مدركات أم عانسات. متزوجات أم مطلقـات أم مرملات.

صار يحدث زبوناته دون أن يثنيه سكوت بعضـهن او إحجامهن، فيسألهن عن عوائلهن دونما اكتراث بالجالسين في مصبغته الذين طالما أحرجه وجودهم. من غير تخطـيط او نية مبيتة امتنع عن إحضار الجريدة وعـاد للحـديث عـن مغامراته أيام صباه وكم اصطاد من النساء قبـل أن يتـوب ويستقر في بيت الزواج. وإذا أبدى أحدهم مللاً، يجافيه. وإذا غير آخر الحديث ينهره : أتركنا من هذه السيرة. نريـد أن نأكل خبزاً يا أخي. أليس عندك سوى القال والقيـل... لـم يتورع عن زجر عناد ونهره كلما جاء إلى المصبغة : روح العب مع الأولاد... وصار يصـرخ بـه عنـدما يضـبطه مستحكماً بجانب الباب : انقلع من هنا. أم تريد أن تنقل لأمك ما تسمعه.؟!.. اشتكى عناد لأمه فانبعثـت فيهـا مخـاوف تجربتها مع الغنّام. آثرت عدم تصعيب الأمور، فقالت لعنـاد

على مسمع من نذير : ما يطلبه منك عمك تفعله دون سؤال او جواب.

كان من غير وعي منه يعيد ترتيب حياته التي انقضت من غير معنى. وكان ينحو باللائمة على جبنه. فلـو كـان جريئاً مثل خير لما أضاع نصف عمره من غير متعة. قدمه ذلك خطوة نحو النساء اللواتي كن عصيات عليه إلا فـي الأحلام. لكنه لم يستطع أن يتقدم أكثر، رغم انفضاض عـدد من زواره وتوقفهم عن المجىء إلى المصبغة بسبب جفوتـه وعبوسه. فالخطوة التالية كانت أصعب بكثير واربما مستحيلة بعدما انقضت أشهر على هذا الحال. يسخو بـالملبس لقـاء لمسة يد وأحياناً لمسة إصبع. إنه يريـد الانتقـال للخطـوة التالية. لكنه لا يعرف كيف ولا متى. ستنقضي سـنون دون أن تضرس أسنانه بالطعم الذي تضرس به الزبونـات وهـو يقدم لهن السكاكر والبزورات. اديه كل التسهيلات، من مكان ومال وفراش وحمام. إلا أنه ما يزال في وقفته خلف الطاولة وهن يقفن دائماً امامها. من يزيل هـذا الحـاجز.؟. هـو أم هن.؟.. فليرشده أحدهم إلى ما يجـب أن يفعلـه. إذا كـان

الشيطان وراء هذه الغواية، فأين أنت بربك أيها الشيطان.؟.
وذهب إلى التسوية في عمق الظلام مباركاً لخير بالنجاح.

٩

أربكت نتائج المترك الشلة، وسببت خللاً في العلاقـات بينهم. كانوا يتمنون أن ينجحوا جميعاً، وإن كـان يسـاورهم الشك بنجاح يحيى. فظهر اسمه في القائمة الأولـى ضـمن مجموعة أ، ونجح خير بترتيب ب، ولم يظهر اسـم هـاني ونجم . ذهبا إلى الوزارة وراجعا القوائم أكثـر مـن مـرة واحتجا للمعنيين. لم يصدقا أن يرسبا وقد درسـا واجتهـدا وسهرا الليالي، بينما ينجح يحيى بترتيب أ وهو لـم يـدرس شيئاً. آبا في النهاية مخذولين وهما يقسـمان بـأن الأسـئلة سربت ليحيى قبل الامتحان.

جاء يحيى لزيارتهما كلٌ في منزله فاستقبلاه بجفاء ولم يقويا على النظر إليه. دعاهما للاحتفال الذي سـيقيمه أبـوه على مدار الأسبوع، فأثـار غيظهمـا أكثـر مـن نجاحـه ورسوبهما. أحسا لحظتها أنه يتشفى بهما، فكرهاه.كرهه فؤاد أيضاً، الذي كان صخب الحفلات يصل إلى منزلـه ويقـض مضجعه ويسبب الألم لوالديه اللذين عرفا النتيجة قبل إعلانها بأسبوع، وكان قد عرف أبوه نتيجة خير أيضاً، لكن رسـوب ابنه أخجله من تهنئة خير او إعلام أبيه الذي لم يبد تأثراً يوم

وصله الخبر ولا تأثرت لأجله شقيقتاه اللتان أحزنهما رسوب فؤاد وكانت أصوات الفرح فـي بيـت أبـي يحيـى تقلـق مضجعهما وتثير حنقهما. أما أمهما فقد خالجها فرح لم تجرؤ على إظهاره. وكانت في عتمة الليل تتساءل عما يفعله خيـر ومن يحتفل به بينما يصل مسامعها صخب الغنـاء ويجفلهـا دوي الرصاص وزوجها بجانبها يغط في نومٍ عميق.

لزم هاني غرفته لبضعة أيام، ولولا وعد لرفض مقابلة يحيى الذي جاء يدعوه للحفلة فأضاف لاكتئابه حنقاً وغيظـاً. حاول أبوه تهوين الأمر عليه. مصير شـهادة المتـرك فـي برواز. قال هاني بأنه كان يريد الالتحاق بالجامعة، فقال أبوه بأن مصير الشهادتين هو البرواز. أولاً على آخر سينضم إليه في إدارة سلسلته الفندقية. يحتاجه الآن أكثر مـن أي وقـت آخر للاشراف على المشروع الفندقي الكبيـر الـذي يقـوم بإنشائه. سيكتسب من فنادق السلسلة الخبـرة الضـرورية لإدارة فندق عالي بالاس الذي سيطل من موقعه على جبـال عمان. لكن ذلك لم يواسه. جاءته وعد مهونة فوجدته يجلس على حافة السرير وقد أغرق وجهه براحتيه. جلست بجواره وملّست على شعره وقالت له : ستنجح السنة القادمة... نخر

وهو يكاد يبكي، فأضافت : لست أول واحـد ولـن تكـون الأخير. نسبة النجاح خمسين بالمئة، يعني نصف الطلاب لم ينجحوا يا هاني... قال متأسياً : أكثر ما يقهرني أن أصحابي نجحوا وأنا لم أنجح...كان كل منهما يحس بمـرارة إيقـاع كلمتي الرسوب والسقوط.

- صاحبك نجم لم ينجح... قالتها وهي تدرك أن نجاحها من قبله يسبب له حزناً أكبر.

- وماذا يهمني نجم.؟. المهـم أنـا... أحاطـت كتفـه بذراعها، فلم يتمالك وهو ينتر قبضتيه : المهم أنـا رسـبت. رسبت... وفجرت الكلمة بكاءه وهو يسترسل : وأنت البنت نجحت. كيف سأنظر في وجه أبي بعد الآن... رمى وجهـه على كتفها كأنه يختبىء فيه بينما راحت تملـس لـه شـعره وتربت على كتفه : إبكي. إبكي حبيبـي. إن لـم تبـك لـن ترتاح... وراحت تبكي معه وهي تتذكر بكاءها على كتـف موفق.

كان الوضع مغايراً بالنسبة لنجم، فعائلته كانت تنتظـر نجاحه حتى يعمل ويساهم بالإنفاق عليهم وتحسين أوضاعهم، لهذا ساد الوجوم بيته. حيناً يوبخونه بالكلمات ومعظم الأحيان

يؤنبونه بالنظرات. كان الوضع خارج البيت يثقل عليه أكثر. ظل يشحن نفسه بالغيظ والسخط على يحيى الذي جاءه إلى وسط بيته متشفياً ودعاه بوقاحة لحفلة نجاحه. سخط على خير لعدم مواساته له. كان نجاح الاثنين يعذبه، وكان الحرج يحول دون ذهابه إلى شريك الرسوب. لكنه عند العصر تجرأ وفعلها فقيل له بأن هاني نائم. لم يبق لديه سوى حسن الذي باعد رسوبه في المدرسة بينه وبين الشلة منذ العام الفائت. أما الآن، فهما في الهوى سواء، كما قال له. لكن حسن رفض ذلك، فالرسوب في المدرسة أهون ألف مرة من الرسوب في المترك مرة واحدة. وافقه نجم بقناعة تامة هذه المرة وليس رهبة من الشبرية. لما جاء الحديث على سهرات بيت العفيف، قال نجم بتشنج : صدقني لو يطلع بيدي أن أخرب سهراته فلن أقصر.

- هذه بسيطة.

شربا نصية عرق في طريق القلعة المشجر. ثم ذهبا لتهنئة خير في المكتبة. وجداه يجلس قرب الحاجز واضعاً ساقاً فوق أخرى. يدخن بحيوية ويتحدث مع موفق بفخامة.

بادره حسن قبل أن يصل إليه : أين الحلوان يا نذل.؟... قالها متجهماً متحفزاً للعراك.

ارتبك خير وفك ساقيه. وقف جانباً ظهره بينما موفـق ينقل نظره بينهم وقد عبقت رائحة العرق مع تقدمهما وكأنها تشع من ثيابهما : أهلاً أبو علي.

- بلا أبو علي، بلا أم علي. يعنـي خلـص. نجحـت ونسيت أصحابك.

- معقول يا أبا علي.؟!... فتح ذراعيه متهيئاً للعنـاق، فالتفت حسن إلى نجم : ما رأيك أبا نمور.؟. نسلّم عليـه أم نبصق.؟... وتلهى موفق بالقراءة متجهماً.

- بعدين يا أبا علي... وأرخى ذراعيه : هذا بدلاً مـن أن تقول لي مبروك.

- على ماذا.؟... ووقفا متقاربين بجانب الحاجز. أبدى موفق تقززاً من رائحة العرق.

- على النجاح يا ابن الحلال.

- أصلاً لولا خطك، عمرك ما حلمـت تـنجح. لكـن، ماشي الحال... وتعانقا. وكان عناق نجم باهتاً. ثـم توجـه

حسن إلى موفق وسأله بازدراء : صحيح أنت أجير عند أبي يحيى.؟.

تغيرت تعابير موفق وانكمشت عضلات وجهه : مـن قال لك.؟.

- يحيى... وإلى خير : صحيح أم لأ.؟.

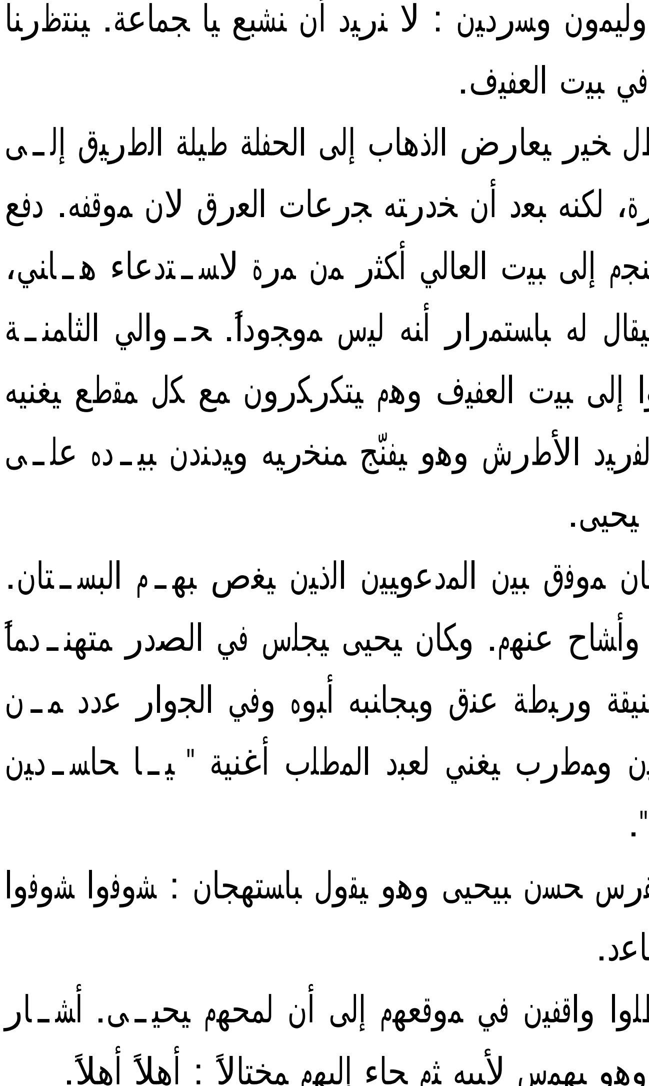
تلعثم خير فنهره حسن : أحكي الصحيح، ألم يقل بـأن المكتبة لأبيه وان معلمك موفق أجير عنده.

شده من ذراعه : تعال خارجاً. أريـد أن أقـول لـك شيئاً... استوقفه موفق : هـذا صـحيح... تسـاءلت أعـين الجميع، فأضاف بهدوء : أنا أجير عند أبي يحيى.

بسرعة قال خير : إنه لا يقصد... وجـر حسـن إلـى الخارج يتبعهما نجم مترنحاً : لماذا يا حسن.؟. الرجـل لـم يسئ لك.

- وأنا لم اسئ. قلت بالضبط ما سمعناه كلنا مـن ابـن العفيف. والآن، هل تحمل نقوداً أم لا.؟.

انصاع لهما بعد أن كاد إلحاههما يتحول إلـى فضـيحة وطلب من موفق نصف دينار. اشتروا بـه زجاجـة عـرق



وخبز وليمون وسردين : لا نريد أن نشبع يا جماعة. ينتظرنا عشاء في بيت العفيف.

ظل خير يعارض الذهاب إلى الحفلة طيلة الطريق إلـى الصخرة، لكنه بعد أن خدرته جرعات العرق لان موقفه. دفع حسن نجم إلى بيت العالي أكثر من مرة لاسـتدعاء هـاني، وكان يقال له باستمرار أنه ليس موجوداً. حـوالي الثامنـة تحركوا إلى بيت العفيف وهم يتكركرون مع كل مقطع يغنيه حسن لفريد الأطرش وهو يفنّج منخريه ويدندن بيـده علـى طريقة يحيى.

كان موفق بين المدعويين الذين يغص بهـم البسـتان. لمحهم وأشاح عنهم. وكان يحيى يجلس في الصدر متهنـدماً ببدلة أنيقة وربطة عنق وبجانبه أبوه وفي الجوار عدد مـن العازفين ومطرب يغني لعبد المطلب أغنية " يـا حاسـدين الناس ".

تفرس حسن بيحيى وهو يقول باستهجان : شوفوا شوفوا كيف قاعد.

ظلوا واقفين في موقعهم إلى أن لمحهم يحيـى. أشـار عليهم وهو يهمس لأبيه ثم جاء إليهم مختالاً : أهلاً أهلاً.

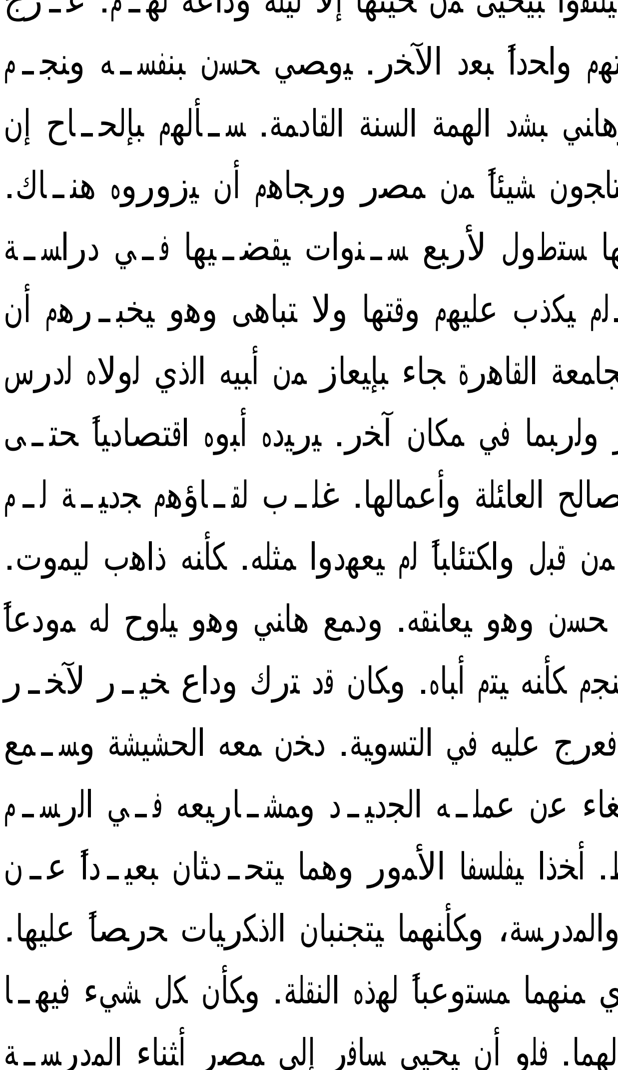
كان عناق خير حاراً وعانقه نجم ببرود وتجشأ حسـن في وجهه. أبدى تقززاً من رائحـة العـرق : أيـن كنـتم صائعين.؟.. سأل متودداً، فقال حسن بصوتٍ عـالٍ : فـي الخمارة... وجلجل مقهقهاً فتجاوب معه خير ونجم. كان أبو يحيى يراقبهم وهو يدير نظره حواليه. بينما يلتفت إليه يحيى خطفاً بن الفينة والفينة : ماذا تنوون.؟... سألهم بريبة.

رد حسن وهو يعد على أصـابعه : نأكـل. نشـرب. ونسمعك تغني لفريد الأطرش... وانفجروا ضاحكين.

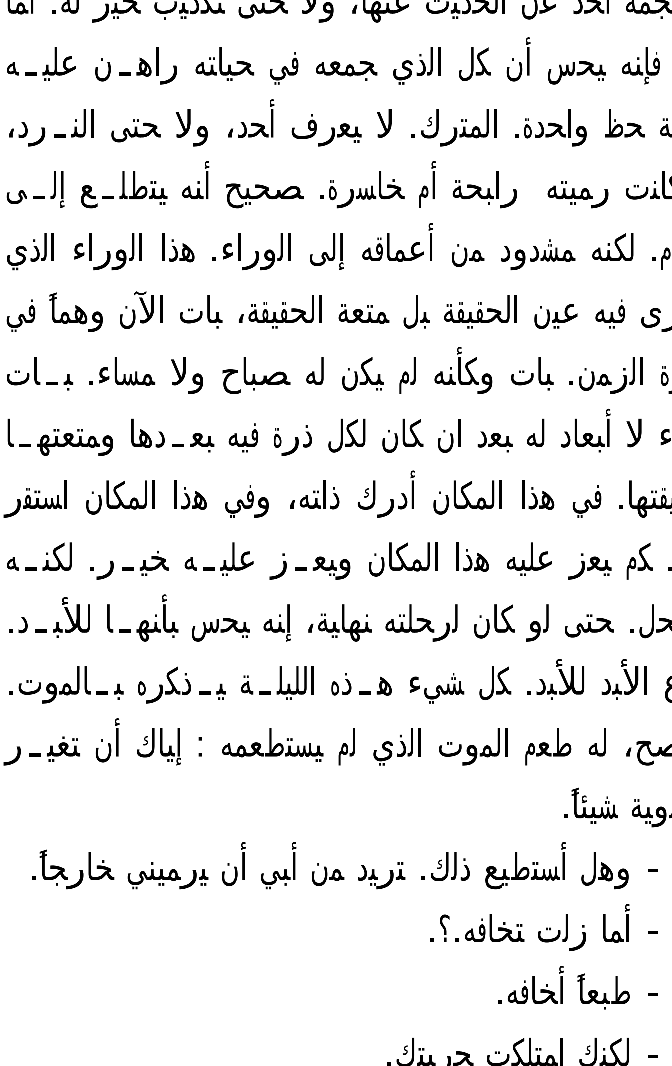
- اسمعوا. روحوا لأي محل تريدونه.كلوا واشربوا فيه على حسابي... مد يده داخل جيب جاكيته، فاستوقفه حسن : وإذا أردنا أن نزني.؟.

توجه يحيى إلى خير : خير. انـت عاقـل... وناولـه دينارين : أنا أخوك. بلا من الفضيحة الليلة.

صرخ به حسن محتداً : يعني نحن فضيحة.؟... لكـن حدته خبت سريعاً، وأجفل نجم وانكمش جسـد خيـر وهـو يغطي رأسه براحتيه عندما دوى الرصـاص فـي الجـو، وتعلقت أنظارهم بأبي يحيى الذي راح يطلق الرصاص فـي الهواء. اكتفوا بالدينارين وانسلّوا مبتعدين.



لم يلتقوا بيحيى من حينها إلا ليلة وداعه لهم. عرج على بيوتهم واحداً بعد الآخر. يوصي حسن بنفسه ونجم بعائلته وهاني بشد الهمة السنة القادمة. سألهم بإلحاح إن كانوا يحتاجون شيئاً من مصر ورجاهم أن يزوروه هناك. إقامته فيها ستطول لأربع سنوات يقضيها في دراسة الاقتصاد.لم يكذب عليهم وقتها ولا تباهى وهو يخبرهم أن التحاقه بجامعة القاهرة جاء بإيعاز من أبيه الذي لولاه لدرس شيئاً آخر ولربما في مكان آخر. يريده أبوه اقتصادياً حتى يرعى مصالح العائلة وأعمالها. غلب لقاؤهم جدية لم يعرفوها من قبل واكتئاباً لم يعهدوا مثله. كأنه ذاهب ليموت. تشبث به حسن وهو يعانقه. ودمع هاني وهو يلوح له مودعاً وأجهش نجم كأنه يتم أباه. وكان قد ترك وداع خير لآخر المشوار فعرج عليه في التسوية. دخن معه الحشيشة وسمع إليه بإصغاء عن عمله الجديد ومشاريعه في الرسم والتخطيط. أخذا يفلسفا الأمور وهما يتحدثان بعيداً عن الدراسة والمدرسة، وكأنهما يتجنبان الذكريات حرصاً عليها. لم يكن أي منهما مستوعباً لهذه النقلة. وكأن كل شيء فيها مفاجىء لهما. فلو أن يحيى سافر إلى مصر أثناء المدرسة



لما لجمه أحد عن الحديث عنها، ولا حتى تكذيب خير له. أما الآن فإنه يحس أن كل الذي جمعه في حياته راهـن عليـه برمية حظ واحدة. المترك. لا يعرف أحد، ولا حتى النـرد، إن كانت رميته رابحة أم خاسرة. صحيح أنه يتطلـع إلـى الأمام. لكنه مشدود من أعماقه إلى الوراء. هذا الوراء الذي تتوارى فيه عين الحقيقة بل متعة الحقيقة، بات الآن وهماً في ذاكرة الزمن. بات وكأنه لم يكن له صباح ولا مساء. بـات فضاء لا أبعاد له بعد ان كان لكل ذرة فيه بعـدها ومتعتهـا وحقيقتها. في هذا المكان أدرك ذاته، وفي هذا المكان استقر خير. كم يعز عليه هذا المكان ويعـز عليـه خيـر. لكنـه سيرحل. حتى لو كان لرحلته نهاية، إنه يحس بأنهـا للأبـد. ضاع الأبد للأبد. كل شيء هـذه الليلـة يـذكره بـالموت. بالأصح، له طعم الموت الذي لم يستطعمه : إياك أن تغيـر بالتسوية شيئاً.

- وهل أستطيع ذلك. تريد من أبي أن يرميني خارجاً.
- أما زلت تخافه.؟.
- طبعاً أخافه.
- لكنك امتلكت حريتك.

- امتلكت نصفها، ولن امتلك النصف الثاني إلا بعـدما يموت.

حملق به يحيى للحظة ولم يدر ما يقول ثم أدار نظـره في خشب الطوبار التي بدت ألواحه وكأنها استخرجت مـن مدافن عتيقة. سأله متصـنعاً البشاشـة : هـل تحـب هـذا المكان.؟...

- لقد اعتدت عليه.

قال يحيى بسرعة وكأنه فطن أمراً : خير. لم لا تـأت معي إلى مصر. ستغدو هناك فناناً عظيماً.

- إنني فنان عظيم.

- ليس هنا. ليس هنا ياخير. مجالك ليس هنـا... أدار راحته بالمكان وهو يسترسل : في هذا القبر. ما قولك. دعنا نذهب معاً.

ذهبا إلى دكان سعود. دخّنا الصواريخ وشربا الشـاي. في طريق العودة حدثه يحيى عن بطرونـة تـدعى فاتنـة. بغاياها نهاريات. تلميذات وربات بيوت. اقترح خير بحماس أن يذهبا إليها. لكن يحيى مانع. زبوناتها يأتين إليها فقط فـي النهار.

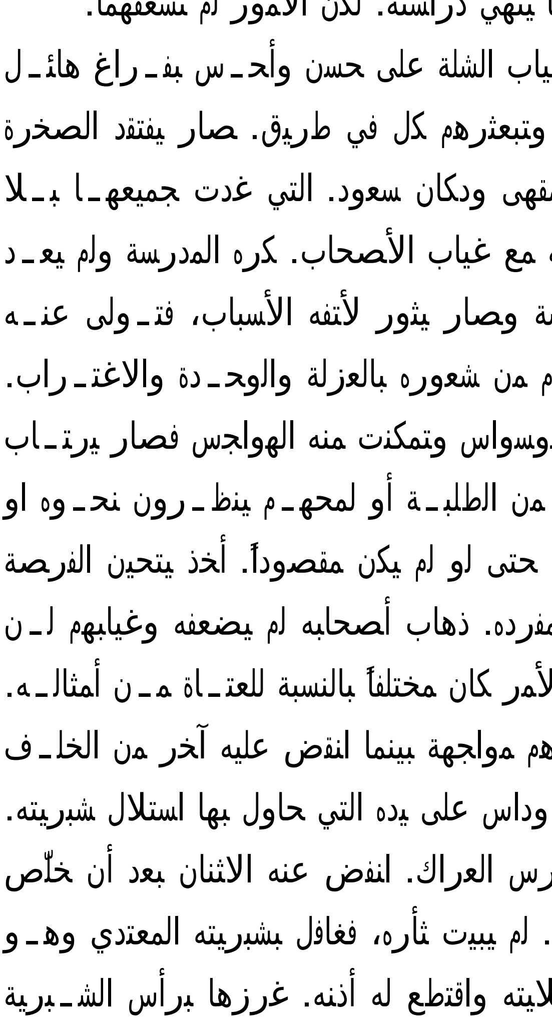
- وفي الليل. ماذا تفعل.؟. تتعبد.؟. وانفجـر ضـاحكاً بينما يحيى يرمقه باستياء : تظنني أكذب.؟.

- طبعاً تكذب. معقول تكون بطرونة وما يكون عنـدها ولا واحدة فالتة.؟.

كانت في الستين من عمرها. بيضاء سمينة فيها إثارة. لم يجدا عندها زبوناً ولا زبونة. فاكتفيـا بهـا وضـاجعاها بالتعاقب.

في طريق العودة أصر يحيى على إيصال خيـر إلـى التسوية، وهناك أصر خير على إيصاله. لـم يتـذكرا فـي الصباح عدد المرات التي أوصل كل منهما الآخر، بينما باقي الشلة يتكركرون بعد أن التأم شملهم مـن غيـر موعـد او تخطيط في مطار عمان. ظلوا يشيرون للطائرة حتى بعد أن توارت في الفضاء.

تواسط هاني مع أبيه حتى يشغّل نجم عنده، فاسـتخدمه مسؤولاً عن الكفتريا في أحد فنادق السلسلة التي صار هاني يشارك أباه في إدارتها. وتحولت مع الوقت علاقة هاني بنجم إلى علاقة رئيسٍ بمرؤوس. كان على هاني أن يؤكدها وعلى نجم أن يقبلها. فقبلها، لكنه لم يرضها. شكى أمره لحسن في



المرات القليلة التي التقيا فيها، فوعده حسن أن يتشارك معه في مقهى بعدما ينهي دراسته. لكن الأمور لم تسعفهما.

فقد أثر غياب الشلة على حسن وأحس بفراغ هائل لابتعادهم عنه وتبعثرهم كل في طريق. صار يفتقد الصخرة والشوارع والمقهى ودكان سعود. التي غدت جميعها بلا معنى ولا متعة مع غياب الأصحاب. كره المدرسة ولم يعد يستطيع الدراسة وصار يثور لأتفه الأسباب، فتولى عنه الجميع مما فاقم من شعوره بالعزلة والوحدة والاغتراب. استولى عليه الوسواس وتمكنت منه الهواجس فصار يرتاب إذا سمع همساً من الطلبة أو لمحهم ينظرون نحوه او يشيرون لجهته حتى لو لم يكن مقصوداً. أخذ يتحين الفرصة لإثبات عتيه بمفرده. ذهاب أصحابه لم يضعفه وغيابهم لن يقوضه، لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للعتاة من أمثاله. تحرش به أحدهم مواجهة بينما انقض عليه آخر من الخلف فطرحه أرضاً وداس على يده التي حاول بها استلال شبريته. أنهى قرع الجرس العراك. انفض عنه الاثنان بعد أن خلّص الآخرون بينهم. لم يبيت ثأره، فغافل بشبريته المعتدي وهو يجلس في رحلايته واقتطع له أذنه. غرزها برأس الشبرية

على اللوح الأسود أمام ذهول الطلبة وهم يحملقون به فزعين مرعوبين بينما المصاب يتضرج بدمائه ويصرخ ويصـيح. فيصل صوته إلى حسن هتافاً وتهليلاً وتعييشاً. أحس حينهـا بسعادة اللحظة العظيمة التي جعلته أرهب مما كان. فلم يقاوم الشرطة ولم يهرب منهم عندما جاؤوا إلى منزله لـيلاً. بـل انقاد معهم مزهواً شامخ الرأس راضياً كل الرضى عما فعله في لحظته تلك، التي سيظل الطلبة يتناقلونها جيلاً بعد جيل.

حكم عليه بعد شهرٍ بالسجن ثلاث سنوات أمضى منهـا شهرين في الإصلاحية بما في ذلك فترة التوقيف ثم حول إلى سجن المحطة لبلوغه الثامنة عشرة.

اتخذ فؤاد أمره بعدم الدراسة ثانية للمترك بعدما نجحت مساعي أبيه في توظيفه رئيساً للقلم في ديـوان المـوظفين. صار العمل يستهويه لكثرة تهافـت النـاس علـى مكتبـه واستفسارهم الذي يصل أحياناً إلى الاستجداء. صار ينتشـي لمخاطبة بعضهم له بلقب بيك. كما أن دخله الـذي تجـاوز المعاش مع الأيام جعله يكبر على المدرسة والكتاب، فكفـى أباه المصروف وتحمل عبئاً كبيراً عنه بتوليه شؤون الإنفاق على الكثير من احتياجات البيت. أما أبوه فقد استحوذت عليه

فكرة بيع المحل والتحول عن الخياطة إلى التجارة مثيراً بذلك احتجاج زوجته. من أين سيصرفون إذا ساءت به الأمور.؟. فيسألها بالمقابل إلى متى سيظلون يستدينون.؟. صفقة واحدة قد تغنيه عن خياطة سنين. وكان فؤاد يشجعه مبدياً استعداده لتحمل عبء العائلة كاملاً إن لزم الأمر، مدافعاً بـذلك عـن إخفاقه في المدرسة وهو يحفز أباه على اسـتغلال علاقاتـه بالانطلاق في السوق بدلاً مـن قضـاء جـلّ الوقـت فـي المجاملات.

زاره خير في مكتبه في بداية تعيينه. وأهـداه كرتونـة خطط فيها اسمه بحروف كوفية جميلة. تقبلها فؤاد بسـرور. سأله إن كان يستطيع تخطيط آية " ادفع بالتي هي أحسـن ". يريدها منهجاً لتعامله مع الناس، فاستجاب له خير بسـرور، وجاءه باللوحة في اليوم التالي. سأله محرجاً خلال اللقاء أن يساعده في الحصول على وظيفة. اعتذر فؤاد بدماثـة. إنـه نفسه تحت التجربة الآن. وعده أن يبذل جهده في أول فرصة تسنح له. سوف يسأل أباه المساعدة أيضاً. راجعه خير بعـد ذلك مراراً وكان فؤاد يعتذر بدماثة. في المرة الأخيرة كادت عصبيته تنفجر وأوشك أن يطلب منه الآيـة التـي علقـت

مبروزة على الجدار. لكن تهذيب فؤاد واطافته جعلته ينسحب بهدوء ولم يعد له ثانية.

قدم أوراقه لمؤسسات عديدة، دون أن يفلح في تحصيل وظيفة تكفيه أوده وتوفر له مدخرات تساعده بالسفر ودراسة الفن كما كان يطمح. لاسيما وأن استمراره مع موفـق غـدا مستحيلاً. فلا الدخل يكفيه ولا مهنة النسخ تستهويه. لقد كبر مع النجاح. يحتاج الآن مهنة تليق برجلٍ وعملاً يليق بفنان.

جاءته الفرصة إلى داخل المكتبة، وفي السدة المنحجبـة المعزولة. عندما زاره الخطاط الأرمني ديكران واطلع على تخطيطه ورسوماته فدعاه من فوره لزيارته في المشغل .

في الليل وبعدما استلقى للنوم أجفل على صـوت لـوح الزينكو. هب واقفا وسأل بذعر : من.؟... هيء له أنه أبـاه. فأجابه نذير بصوتٍ خفيض : أنت هنا خالي.؟.

خطا خير خطوتين للأمام مع تقدم نـذير بحـذر : لا تخف. أنا وحدي... وظل خير يحملق بفتحة الباب

عانقه نذير بحرارة وظل خير ساكناً دونمـا حـراك : مبروك خالي. مبروك.

تراجع خير إلى فرشته وتراخى فوقها مطرقاً برأسـه. فجلس نذير بجانبه محرجاً : معك حق تزعل. لكن ماذا نفعل مع أبيك.

قال خير وهو يحملق بثبات أمامه : إذن مكاني السـجن وليس هنا.؟.

- وماذا تريدني أن أقول أمام أبيك.؟. مع هذا لم تخاص أختي من شره.

هز خير رأسه ولم يقل شيئاً : يا ابن الحلال، لو لجـأت لي من البداية...

قاطعه خير بسرعة : في عزها طردتني من بيتك.

- هذا بعدما توحلت الأمور. أقصد لو جئت قبل ذلـك لحللت لك المشكلة هكذا...وطقطق إبهامه والوسطى، فانتبهت عينا خير : عندي صاحب دكتور، يجري يوميـاً عمليـات تخييط... اتسعت عينا خير أكثر : لكن مـا الفائـدة الآن... وبنبرة موبخة لا تخلوا من تعاطف وحنـان : كـان أخـذنا المستورة عنده وخيطها ورجعت بكر مثل مـا كانـت. ولا عرفوا أهلها ولا عرف أبوك...

هز خير رأسه وعلّق باستخفاف : خيرها بغيرها.

بلل نذير شفتيه وبلع ريقه : المهم. هل ينقصك شـيء. أمك قلقة عليك.

- بكير.

- يا خالي. هل نسيت ما هو أبـوك.؟. كـان ا فـي عونها. صدقني، إنها تكاد تطير فرحاً لنجاحك. لكن يجب أن تعذرها. أبوك حالف عليها يميناً..

قاطعه خير بسرعة : خلصني. صار حالف عليها ألـف يمين.؟... لاذ بالصمت بعدها، وواصل نـذير التـودد لـه عارضاً عليه تارة أن يأتي للاستحمام في المصبغة، وطـوراً أن ينشده إذا احتاج نقوداً او مساعدة. فهم خير الأمر علـى نقيض ما يرومه نذير. فلما استعد نذير للمغادرة قال له خير باستعلاء : أخبر الذين أرسلوك أني توظفت عند أكبر خطاط في البلد.

فاجأ الخبر موفق. ارتبك وأبدى انزعاجاً. ثـم حـاول إغراء خير بمعاشٍ شهري مجزٍ. لكن خير أصر على ترك العمل. إنه يريد أن يعمل بمهنة يحبها وليس بمهنة يحتاجها. سيتعلم كثيراً من عمله مع ديكران. ولم يكن أمام موفـق إلا التسليم بالأمر.

قال له بعد أن أنقده حسابه : لا تنسى أن لـي فضـلاً عليك.

- لا فضل لأحدٍ علي، لقد قدمت للجميع أكثر مما أخذت منهم، ولم يعلمني أحد بل علمت نفسي...

استاء موفق من ردة فعله المتغطرسة لكنه لم يعلق. ولم يمانع في أن يحتفظ له برسوماته لحين اسـتقرار أوضـاعه، فأودعها خزانة في السدة وأقفل بابها. نسيها كل منهما بسبب الحملة الانتخابية وما ترتب عليها من أشغال لم تترك لهمـا حتى الخريف وقتاً لالتقاط الأنفاس.

في أيلول فوجئت الجوفة باللافتات في الشوارع وعلـى الجدران، إضافة إلى صورٍ بأشكالٍ وألـوان ملصـقة علـى الأعمدة وواجهات المحلات. كذلك كان الحال فـي الأحيـاء الأخرى. وكان أكثرها مجلبة للانتباه صـورة أبـي يحيـى مرسومة فوق رقعة قماشية كبيرة علقت على جدار مركـز العفيف التجاري ومعها عبـارة تـدعو لانتخـاب مرشـح الأحرار. في أسفل الرسمة من اليسار خطط بحروف بـارزة اسم " ديكران ".

١٠

جاء نجاح أبي يحيى كاسحاً، مع أنه ترشح بشكل فردي ولم ينضم لأي قائمة انتخابية. أنفق الكثير على حملته التـي أدارها بنفسه متخذاً من مبناه التجاري مركزاً لهـا. سـاعده موفق من خلال المكتبـة كمـا سـاعده مـديرو شـركاته وموظفوها. ساهم خير أيضاً بالحملة. فإضافة إلى الرسومات وتخطيط اللافتات التي تولى معظمها في محل ديكران، أغدق على أبي يحيى بالرسوم الكاريكاترية التي تناصـر موقفـه المعلن من عبد الناصر، فطغـت حملتـه الإعلاميـة التـي ارتبطت باسم عبد الناصر على إعلام القوميين وأثرت سـلباً على إعلام الإسلاميين والشيوعين، فحظي القوميون بأكثرية المقاعد النيابية وحصل أبو يحيى على أعلى أصوات الناخبين في قضاء عمان.

وجهت الدعوة للدول العربية لحضـور حفـل افتتـاح المجلس الجديد، فوصل اللواء عمار من مصر وكـان أبـو يحيى في طليعة مستقبليه. أقام على شرفه حفلاً كبيراً ذبحت فيه الذبائح أعلى الجرف وكأنها قرابين وأهدر الأرز كالرمال وفاض الجميد كالماء وتشـبعت بالسـمن البلـدي الأوعيـة

والأرضية ونسمات الهواء. كادت التخمـة تجلـط نصـف الآكلين المتوكلين، بينما في الخارج مئات المعوزين يهتفـون تارة للرئيس الذي سيحرر فلسطين وطوراً لأبي يحيى نائـب الأكثرية الجماهرية التي تنتظر من القائد الكفاف وستكفيه ما يشاء من الهتاف. لما أخرجت لهم الفضلات بالأكياس هللـوا وكبروا وهم يتهافتون وشكروا وبسملوا وهم يتخاطفون الأرز ويتنازعون اللحم ويدلقون المرق. كانت ليلة من ليالي الجوفة المجيدة كما قال أبو يحيى لمريديه.

اعتبر زيارة اللواء له في بيته بداية الطريـق وليسـت نهاية المطاف، لكنه وهو يشارك في مداولات الكتل النيابيـة أحس بأنه أخطأ في الحسابات. أراد أن يثبت من تفرده فـي الحملة الانتخابية أنه أقوى شخصية جماهيرية، وبعد نجاحـه الكاسح تطلع إلى أن يحمل أهم حقيبة وزارية، لا سـيما وأن موفد الرئيس عبد الناصر شرفه بزيارة خاصة إلى بيته. لكن الحسابات داخل المجلس جاءت مختلفة، فالقاعدة الجماهيرية الواسعة التي جنّدها أوصلته للمجلس، لكنها قد لا توصله إلى أقل الوزارات شأناً إذا لم يكن لديه قاعدة نيابية يستند إليهـا. فاستثناه الحزبيون من معظم مداولاتهم. ولمـا عهـد إلـيهم

بتشكيل الوزارة، جاملوه بحقيبة وزارية طمعاً بانضمامه لهم والعمل تحت مظلتهم طالما اكتسح بتفرده الانتخابي القـوائم الحزبية، إضافة إلى كونه رجل أعمال ومتحمساً للناصـرية. قبل على مضض تعيينه وزير دولة للشؤون الاقتصادية، مع أنه كان يؤثر الخارجية التي احتفظ بها رئيس الوزراء لنفسه. أدرك أنه ترك قوته في الشارع فعقد العـزم علـى تأسـيس حزب خاص به بمجرد استقراره في كرسي وزارته. وكأنـه يتهيأ لتنظـيم معارضـة داخـل الحكومـة التـي صـبغت بالمعارضة. لكن اندلاع حرب السويس فـي اليـوم التـالي لتشكيل الوزارة جعله ينسى الأمر تمامـاً ويطالـب باتخـاذ التدابير الفورية لنصرة مصر والانضمام إليها في مواجهـة فرنسا وبريطانيا وإسرائيل.

طلب الملك من الحكومة اتخاذ قرارٍ بشأن الحرب إلـى جانب مصر واستنفر القوات البرية والجوية، إلا أن رئـيس الوزراء ارتأى استشارة عبد الناصر أولاً، فشارك أبو يحيى في الوفد الذي عرض الأمر على عبد الناصر، فطلب مـنهم التمهل وأخبرهم أن مصر قادرة وحدها على صد العـدوان، بينما كانت القوات المعتدية قد اكتسحت سيناء ونزل مظليوها

في السويس وبور سعيد. واقتصر التجاوب الشعبي في عمان على متابعة أخبار الحرب عبر المذياع وتنييـل المصـابيح وتزريق الزجاج وحمايته بورق اللزيق خشية الغارات.

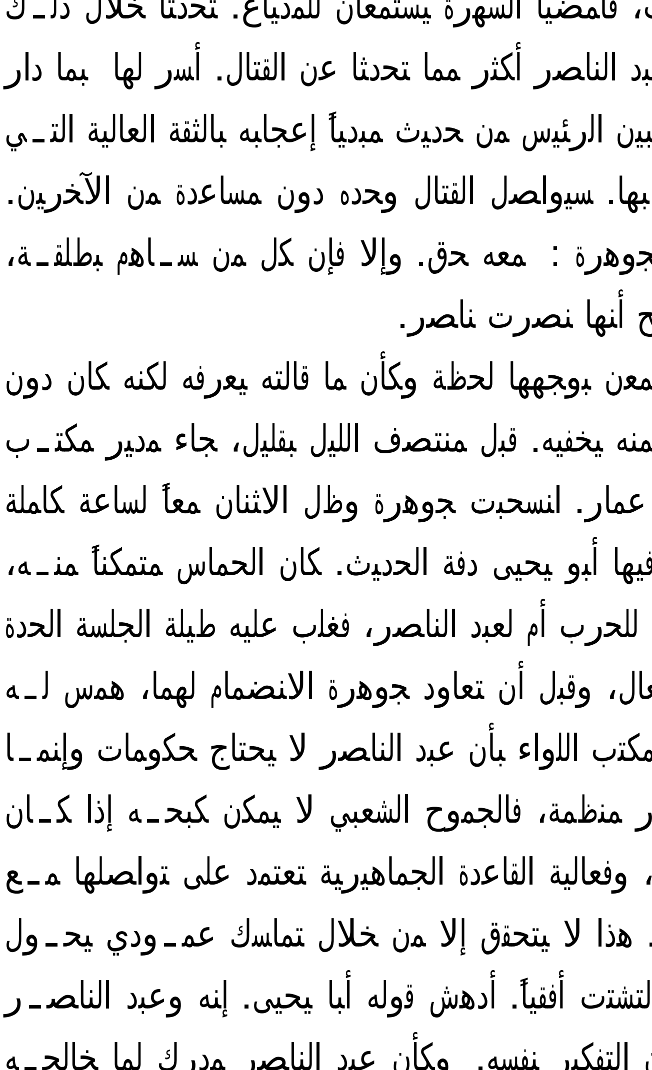
كان حماس أبي يحيى للمشاركة في الحرب حماساً لعبد الناصر أكثر منه حماساً لمصر، لهذا فإنه نزل عند رغبتـه واقتنع برأيه، ولما قال لهم عبد الناصـر : لـن يسـتطيعوا هزيمة شعبٍ بأسره يقف معي... تذكر أبـو يحيـى حملتـه الانتخابية. فقال : ونحن معك أيضاً.؟...

قال عبد الناصر : أعرف ذلك، وهذا ما قصدت عنـدما قلت الشعب بأسره. شعبي في مصر وفـي سـوريا ولبنـان والأردن والعراق.

قال أبو يحيى والعزة تفيض من وجدانه : وفي فلسطين أيضاً يا سيادة الرئيس.

- بالتأكيد بالتأكيد... قال عبد الناصر وهو مطرق. ثـم نظر إليهم مبتسماً : المهم طمئنوا جلالة الملـك أن أمورنـا بخير. وإذا احتجنا مساعدة لن نتوانى عن طلبها.

لم يكن لدى أبي يحيى وقتاً للالتقاء بابنه، لكن جـوهرة التي عرفت بمقدمه، أصرت على الاحتفاء به رغم ظـروف



الحرب، فأمضيا السهرة يستمعان للمذياع. تحدثا خلال ذلك عن عبد الناصر أكثر مما تحدثا عن القتال. أسر لها بما دار بينه وبين الرئيس من حديث مبدياً إعجابه بالثقة العالية التي يتمتع بها. سيواصل القتال وحده دون مساعدة من الآخرين. قالت جوهرة : معه حق. وإلا فإن كل من ساهم بطلقة، سيتبجح أنها نصرت ناصر.

تمعن بوجهها لحظة وكأن ما قالته يعرفه لكنه كان دون إرادة منه يخفيه. قبل منتصف الليل بقليل، جاء مدير مكتب اللواء عمار. انسحبت جوهرة وظل الاثنان معاً لساعة كاملة تولى فيها أبو يحيى دفة الحديث. كان الحماس متمكناً منه، سواء للحرب أم لعبد الناصر، فغاب عليه طيلة الجلسة الحدة والانفعال، وقبل أن تعاود جوهرة الانضمام لهما، همس له مدير مكتب اللواء بأن عبد الناصر لا يحتاج حكومات وإنما جماهير منظمة، فالجموح الشعبي لا يمكن كبحه إذا كان منظماً، وفعالية القاعدة الجماهيرية تعتمد على تواصلها مع القيادة. هذا لا يتحقق إلا من خلال تماسك عمودي يحول دون التشتت أفقياً. أدهش قوله أبا يحيى. إنه وعبد الناصر يفكران التفكير نفسه. وكأن عبد الناصر مدرك لما خالجه

بعد نجاحه النيابي. اعتبر تخاطرهما تماهياً فتألقت في داخله صورة نفسه بالقدر الذي كانت تزداد فيه تألقاً صـورة عبـد الناصر. عليه قبل أن ينشىء حزبه أن يتـألق فـي أذهـان الجماهير. مثلما يفعل عبد الناصر الآن. ولما نصحه مـدير المكتب باستشارة الملحق العسكري في السفارة المصرية في عمان، كلما احتاج توجيهاً او نصيحة، فهـم أبـو يحيـى أن السهرة مرتبة.

بمجرد مباشرته العمل في وزارته أنشأ مكتباً للشـكاوى وديواناً للمظالم، وأوعز بأنه سيبت شخصياً بالقضايا المعلقة وفتح الباب على مصراعيه للمراجعين وصار يستقبل في بيته أرباب العمل ويزور مواقع العـاملين. يتبعـه جنـود مـن الإعلاميين الذين يتحدثون عنه أكثر مما يتحدثون عن رئيس الوزراء ويصورونه قبل أن يصوروا المشـاريع ويهتمـون بأقواله أكثر من اهتمامهم بإنجازاته، ومن خلفه لفيـف مـن المثقفين، وصل إليهم بمساعدة موفق، يختارون له العبارات، وشعراء يصيغون له الخطابات. صـار يستشـهد بعظمـاء المفكرين ويردد الحكم والأمثال، فأثار غيظ وزير الاقتصـاد الذي وجد نفسه قزماً بجانب امبراطور في المال وعمدة فـي

الاقتصاد وساحر في البيان، فاشتكى أمره لرئيس الـوزراء الذي أسقط في يده عندما دافع أبو يحيى عن موقفـه، إلا إذا كان سيأخذ عليه شعبيته، فهو لم يتخذ قراراً يخص سواه ولا تدخل في أمرٍ لا يعنيه. وهو لا يحول دون الوزير المغتـاظ او غيره من الوزراء في أن يحذوا حذوه وينتشروا إعلاميـاً مثله. همس للرئيس بأن تقرب الناصـريين مـن الجمـاهير يقربها من عبد الناصر. وافقه وشد على يده. فصارت ترتب له الندوات والمـؤتمرات، ليظهـر فيهـا مشـاركاً كبـاقي المشاركين بينما في الواقع يقف وراءهـا ويتكبـد نفقاتهـا، فيأسر الحضور بكثرة معلوماته وعمق إدراكه وسحر بيانـه، ويطغى حضوره على المشاركين معه والمسـتمعين إليـه، وينال من التصفيق ما لم ينله سابقوه ولا لاحقوه. كان يسـير على هدي عبد الناصر، مقلداً له حيناً ومتماهياً بـه معظـم الأحيان. فاستحوذ في فترة قياسية على إعجاب أرباب العمل واستأثر بحب العمال وصار صـديقاً للنقـابيين والحـرفيين والمعلمين والطلاب والعساكر والضباط. واستحوذت عليـه تماماً شخصية عبد الناصر الذي خرج من مـأزق السـويس قائداً عظيماً انفتحت له ساحات الأرض العربية من المحـيط

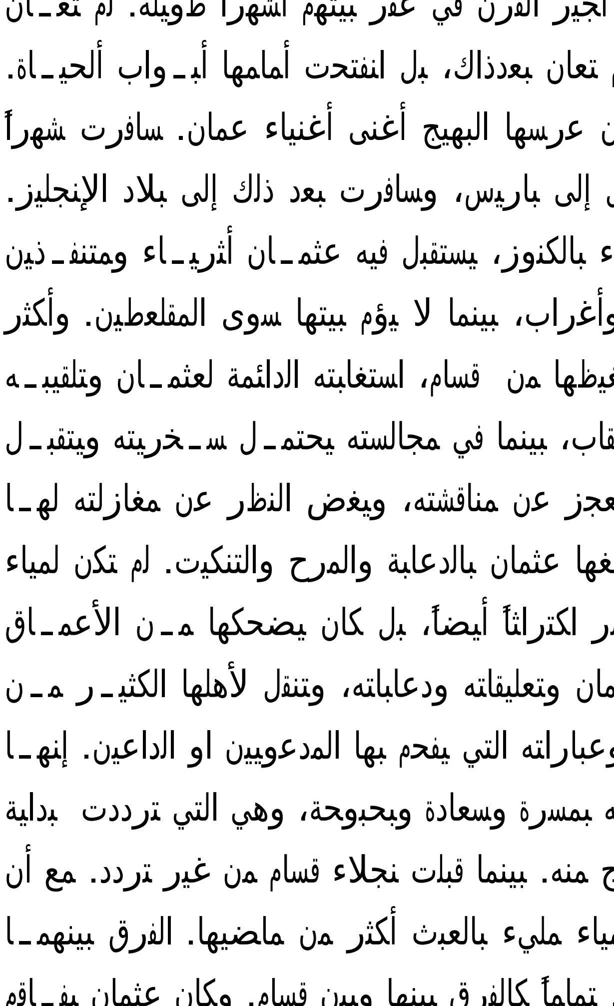
إلى الخليج. وصارت الشوارع تخلو من المارة عندما يتحدث الرئيس عبر المذياع وتتوقف الأعمال وتهدأ الأصوات. وكان ابو يحيى وهو يستمع إليه يتخيل نفسه يقف أعلى الجرف في الجوفة، ومن تحته جماهير عمان تملؤ المنبسـط بحشـودها وهي تهتف له وتحمل صوره بالثيـاب المدنيـة والبـزات العسكرية وحولها اللافتات أشرعة تختـرق سـفنها الـزمن والرايات ألوية تبايع العفيـف سـلطته وسـلطانه، فتخـتلط الأصوات في أذنيه وهو يستمع بتشنج للهتافات التي تـدوي عبر المذياع : ناصر. عفيف. ناصر. عفيف. بينما تـنكمش المصالح التجارية للعفيف وينفخ ناصر الهواء في الرغيف.

١١

أنجبت نجلاء طفلة بيضاء البشرة خضراء العينين. تدفق معها حليبها حتى أنه كان يغرق ثيابها. ومع هذا لـم تكـن الطفلة تقبل الرضاعة منها إلا قليلاً مما كان يغـيظ نجـلاء، فتضطر لتحلية ثدييها على الدوام بالسكر المذاب. كانت فترة الحمل قاسية عليها وعلى قسام، فقد ازداد حجمها وثقل وزنها وتباطأت حركتها، وصارت عصبية المـزاج تثـور لأقـل الأسباب. وكان قسام يحتمل نرفزتها التي انعكست عليه فـي البيت والمرسم والأكاديمية. إذ كانت تناديه كلمـا احتاجتـه، حتى لو كان في الحمام، فيهرول إليها حتى لا تثور ثائرتهـا لتطلب منه إغلاق النافذة او خفض المذياع او غسل يديه قبل أن يجلب لها شربة ماء. وكانت تحذره من توسيخ البيت، فإذا جاء لزيارته طلاب يبغون مرضـاته او فنـانون يطمعـون بعشائه او زملاء يجاملونه من أجل خدماتـه، تحـذره مـن دخول البيت. لينم معهم في المرسم إذا ما شاء، أمـا البيـت فمحظور إلا على العائلات. حتى هؤلاء، عليه أن يسـتأذنها ويأخذ رأيها. فصار يستقبل زواره في المرسم. يقودهم عبر الحوش إلى الدرج متوجساً كأنه يتلصص. يقضـي الوقـت

معهم يستعرض لوحاته ويحدثهم بآرائه حول نسخ اللوحات العالمية التي حملها من أيطاليا وعلّق عارياتها فـي زاويـة خاصة يتوسطها تلميذ فان غوغ. إذا وجبت الضيافة ينزل من العلية ويعد الشاي بنفسه ويحمله إليهم وبعدما يغادرون يجلي الأقداح ويعتذر من نجلاء لأنه انشغل عنها بزواره. فتجاهر صراحة باحتقارهم : المهم أن لا تدخل هذه الأشكال المقلعطة إلى بيتي... وإذا كان وحده في المرسم فإنه يطل عليها من حينٍ لآخر يسألها إن كانت تحتاج شيئاً، فتهز رأسها سلباً او تطلب ما تريد بجفاء ونبرة آمرة. أحياناً توبخه لأن المرسـم يعنيه أكثر من بيته فيعتذر بذلة وهي تحمله مسؤولية ما ألـم بها من اكتناز شوه تناسقها وانتقص من جمالها.

لعبت شقيقتها دوراً كبيراً في تحويل تشاوفها إلى فوقية متأزمة دفعت بازدرائها لقسام إلى قمة الاحتقار. فتنامت لديها غيرة شديدة من لمياء التي لا تني تتحـدث عـن سـعادتها بزوجها ومفاخرتها بثرائه وتعلقها بحفرياته التي تعود عليـه بالكنوز. بينما قسام لا هم له سوى التلاطخ بالألوان وتبجحـه أنه فنان. إنه سوء حظها وهي أبهى حظوظه. كانـت قمـر الجوفة المعبود التي تستحق القرابين والعطايا والكنوز. مرة



واحدة تلهت بها فاستحقت بسببها كل هذا العناء، بينما تلهت لمياء مع أجير الفرن في عقر بيتهم أشهراً طويلة. لم تعان آنذاك ولم تعان بعدذاك، بل انفتحت أمامها أبواب الحياة. تحدث عن عرسها البهيج أغنى أغنياء عمان. سافرت شهراً من العسل إلى باريس، وسافرت بعد ذلك إلى بلاد الإنجليز. بيتها مليء بالكنوز، يستقبل فيه عثمان أثرياء ومتنفذين وأجانب وأغراب، بينما لا يؤم بيتها سوى المقلعطين. وأكثر ما كان يغيظها من قسام، استغابته الدائمة لعثمان وتلقيبه بأحط الألقاب، بينما في مجالسته يحتمل سخريته ويتقبل أهانته ويعجز عن مناقشته، ويغض النظر عن مغازلته لها التي يصبغها عثمان بالدعابة والمرح والتنكيت. لم تكن لمياء تولي الأمر اكتراثاً أيضاً، بل كان يضحكها من الأعماق مزاح عثمان وتعليقاته ودعاباته، وتنقل لأهلها الكثير من قصصه وعباراته التي يفحم بها المدعويين او الداعين. إنها تعيش معه بمسرة وسعادة وبحبوحة، وهي التي ترددت بداية في الزواج منه. بينما قبلت نجلاء قسام من غير تردد. مع أن ماضي لمياء مليء بالعبث أكثر من ماضيها. الفرق بينهما هو الحظ. تماماً كالفرق بينها وبين قسام. وكان عثمان يفاقم

من مشاعر الاحتقار لديها عندما تنقل لهـا لميـاء تعليقاتـه الساخرة : صمتِ طويلاً وأفطرتِ على بصلة...ظنـأ مـن لمياء أنها بتبشيع صورة قسام تفاخر بما حازت عليـه مـن عثمان. بينما كانت دون إدراك، تجمل صورة عثمان وتقرب بينه وبين نجلاء : حظها يا لمياء. لو أنها ليست متزوجـة لجئتها بعريس أغنى من منكو وأرقى من طوقان... وتضيف لمياء على قوله، موبخة مستنكرة : أهذا بيت يليق بـك يـا نجلاء. حتى لو كان يليق بقسام.؟.

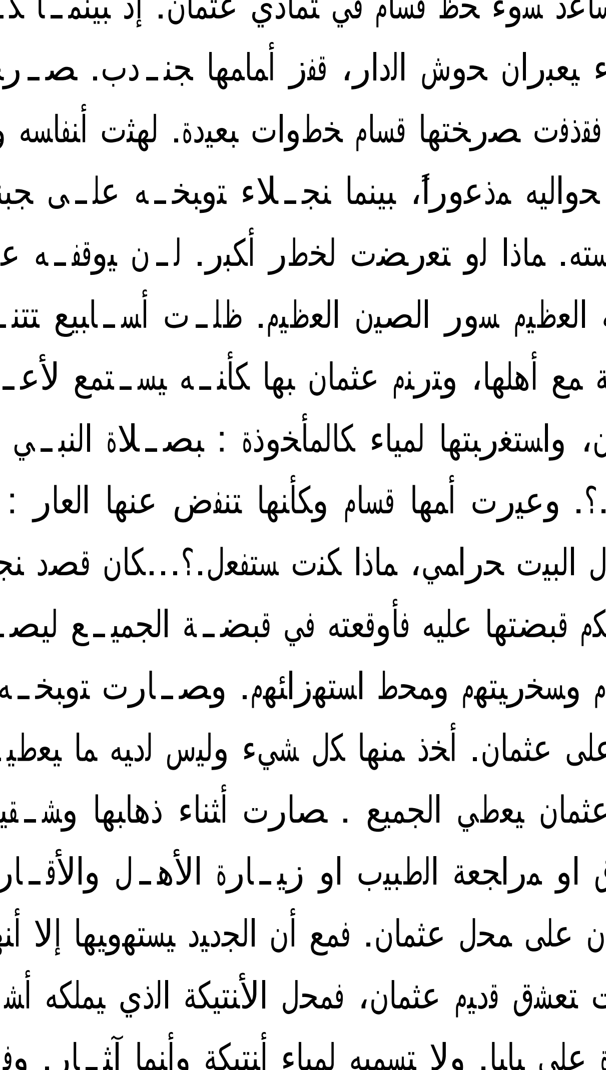
فعل ذلك فعله في نفس نجلاء، فصارت تضج بالضحك أكثر من الجميع عندما يسخر عثمان مـن الفـن والفنـانين، قاصداً قسام بكل كلمة. وكان قسام في داخله يضـع اللائمـة على نفسه. ندم أشد الندم لأنه أصر على عثمان في زيارتـه الأولى أن يريه المرسم، فجعل عثمان من اللوحـات مـادة للتنكيت والمسخرة، وبخاصة العاريات منها : يا خوفي أنـك تفعلها هنا كلما صدتك نجلاء... ويتمادى معه أمام الجميع : كل مشلّحاتك في اللوحات لا يساوين ظفر نجلاء... فتتجاوب معه مزدرية وهي تنفض أصابع راحتها بقرف : إيـه. هـو ومشلّحاته...وتشيح عنه او ترميه بنظرات مستخفّة متعاليـة

تربكه وتفاقم من شعوره بالدونية، بينما يتهدد في مرسمه أن يرسم لمياء وعثمان من غير ثياب. وإذا لم يحتمل الجلسة ولم يقو على التصدي لعثمان، فإنه ينسحب غاضباً وهـو يقسـم بعدم زيارته او استقباله، فتنهره نجلاء في الجلسة وتوبخـه خلال الطريق وتؤنبه في السرير : ستظل صغيراً فـي كـل شيء...فيشعر بالضعة والهوان، ولا يجرؤ على الممانعة إذا طلبت منه مصالحة عثمان.

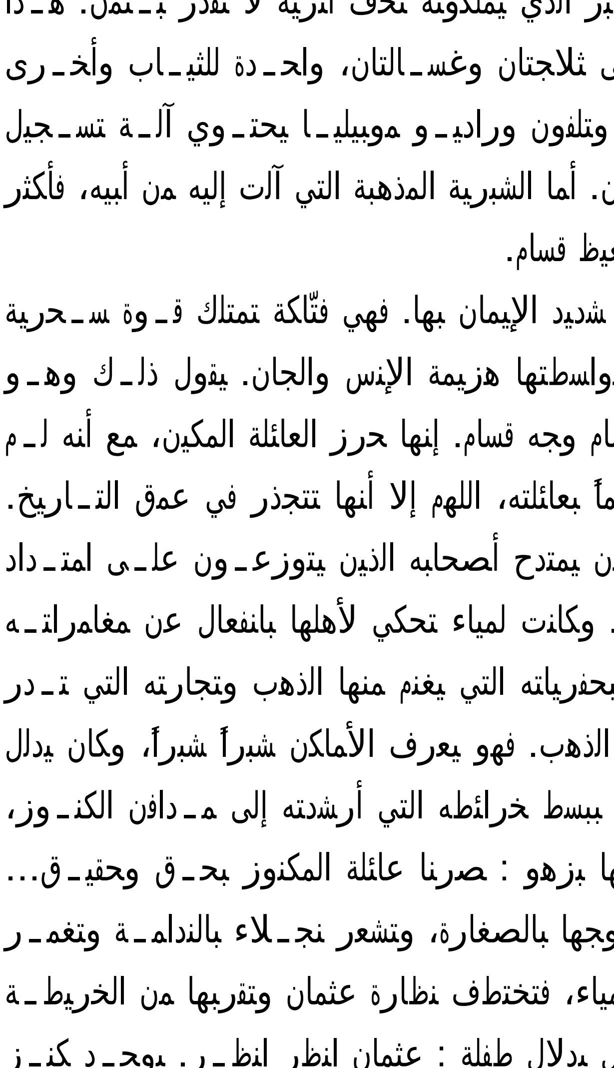
إذا التأم شمل العوائل الثلاث، يسـتولي عثمـان علـى الجلسة وهو يحكي بلا توقف عن ثرائه ومغامرات التنقيـب التي يقوم بها بحثاً عن الكنوز والآثار التي لا تقـل عنهـا. وسواء أكانت الجلسة في بيته أم في بيت نسيبه ام عديله، فإنه يغرقها دائماً بكرمه . فتفزع لمياء الجيران وهي تقرع علـى الباب بقوة وتستعجل بأعلى صوتها : هيا يا جماعة... بينمـا عثمان يلهث بجانبها متعبطاً سفط بقلاوة او سدر كنافـة او صينية معرمة بالدجاج المثوم الذي يطرد الريح الخبيثة، على رأيه. وإذا ضاق البيت بنجلاء وفاجأت شـقيقتها بالزيـارة. يصر عثمان على جلب عشاء جاهز ويرافقه قسام مرغماً بعد أن تنهره نجلاء، فيجلس بجانبه في السيارة وهـو يضـغط

رموشه قدر المستطاع بينما قلبه يدوي أكثر مـن الزامـور وعثمان يكيل الشتائم للقرقعات التي يسمونها سيارات والمشاة الذين ينبعون في الأرض مثل الصراصير. وبعدما يضـعان الأطعمة في السيارة ويستقران في مقعديهما، يبـدأ عثمـان بإعادة حساب ما دفعه موصياً قسـام بالانتبـاه، فأصـحاب المطاعم حرامية بالفطرة. يخرج من جيبه رزمة كبيرة مـن أوراق النقد الخضراء. يعدها ويعد بعدها رزمة حمراء ثـم رزمة زرقاء، بينما قسام يمتلئ قهراً وغيظاً : الأكل برد يـا عصمان...وتبدأ رحلة الرعب من جديد بينما السيارة تجفـل من الخارج وتغص من الداخل وتزكزك دواليبهـا وتتفتـف عوادمها. عند الوصول يقف في أي مكان يناسـبه، ويبسـط راحته نحو الباب قائلا لقسام : تفضل... ويضيف موبخاً : لم أرى أجبن منك... ويبادر نجلاء بمجرد ولـوجهم البـاب : وبعدين مع زوجك. متى سيصبح رجلاً.؟.

تسأله لمياء برعونة : ماذا فعل هذه المرة.؟... يجيـب متذمراً : إذا الزامور يجفله، فكيف أذا وقعـت الحـرب... ويلوذ قسام بالصمت وهو يضع منهوكاً الرزم المشتراة.



ساعد سوء حظ قسام في تمادي عثمان. إذ بينما كان ونجلاء يعبران حوش الدار، قفز أمامها جندب. صرخت فزعة فقذفت صرختها قسام خطوات بعيدة. لهثت أنفاسه وهو يتلفت حواليه مذعوراً، بينما نجلاء توبخه على جبنه وخساسته. ماذا لو تعرضت لخطر أكبر. لن يوقفه عن هروبه العظيم سور الصين العظيم. ظلت أسابيع تتندر بالقصة مع أهلها، وترنم عثمان بها كأنه يستمتع لأعذب الألحان، واستغربتها لمياء كالمأخوذة : بصلاة النبي يا نجلاء.؟. وعيرت أمها قسام وكأنها تنفض عنها العار : هذا لو دخل البيت حرامي، ماذا كنت ستفعل.؟...كان قصد نجلاء أن تحكم قبضتها عليه فأوقعته في قبضة الجميع ليصبح تسليتهم وسخريتهم ومحط استهزائهم. وصارت توبخه إذا علّق على عثمان. أخذ منها كل شيء وليس لديه ما يعطيه، بينما عثمان يعطي الجميع . صارت أثناء ذهابها وشقيقتها للتسوق او مراجعة الطبيب او زيارة الأهل والأقارب، تعرجان على محل عثمان. فمع أن الجديد يستهويها إلا أنها صارت تعشق قديم عثمان، فمحل الأنتيكة الذي يملكه أشبه بمغارة علي بابا. ولا تسميه لمياء أنتيكة وأنما آثار. وفي



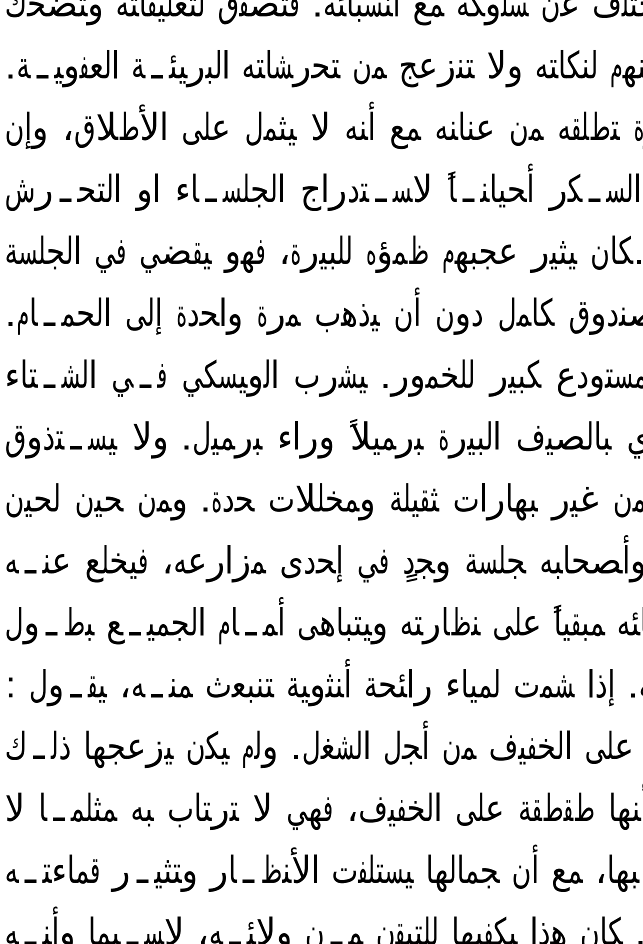
بيت الأكابر الذي يملكونه تحف أثرية لا تقدر بثمن. هذا إضافة إلى ثلاجتان وغسالتان، واحدة للثياب وأخرى للغيارات وتلفون وراديو وموبيليا يحتوي آلة تسجيل وغرامفون. أما الشبرية المذهبة التي آلت إليه من أبيه، فأكثر ما كان يغيظ قسام.

كان شديد الإيمان بها. فهي فتّاكة تمتلك قوة سحرية يستطيع بواسطتها هزيمة الإنس والجان. يقول ذلك وهو يلوحها أمام وجه قسام. إنها حرز العائلة المكين، مع أنه لم يفاخر يوماً بعائلته، اللهم إلا أنها تتجذر في عمق التاريخ. كما لم يكن يمتدح أصحابه الذين يتوزعون على امتداد الجغرافيا. وكانت لمياء تحكي لأهلها بانفعال عن مغامراته وتتباهى بحفرياته التي يغنم منها الذهب وتجارته التي تدر أكثر من الذهب. فهو يعرف الأماكن شبراً شبراً، وكان يدلل على ذلك ببسط خرائطه التي أرشدته إلى مدافن الكنوز، فتعلّق أمها بزهو : صرنا عائلة المكنوز بحق وحقيق... فيشعر زوجها بالصغارة، وتشعر نجلاء بالندامة وتغمر المسرة لمياء، فتختطف نظارة عثمان وتقربها من الخريطة وهي تقول بدلال طفلة : عثمان انظر انظر. يوجد كنز

هنا... يضجون بالضحك متجنبين النظر إلى عثمـان الـذي يأخذ بتحسس كل الاتجاهات بحثاً عن النظارة. اسـتحي يـا صهري أنا مثل أمك. شوفي أين وضع زوجك يده يا لميـاء. آخ، قلت لك ألف مرة لا تمزح معي.

كان من غير نظارته يبدو لقسام وكأنه مخطـط أولـي لمخلوق رسم على عجل. وبالنسبة للمياء ارتبط شكله بشـكل الجورة. وكان يذكّر نجلاء بدرس الأميبيا في الأحياء ويذكّر أباها بتحميصة احترقت قبل الاستواء. فقـط عنـدما يخلـع نظارته يتأمله قسام. وعندما يوصلهم إلى البيـت يتنـازعون الركوب في المقعد الخلفي. ويلح قسام على أسبقية الوصول. لكن عثمان قلما يستجيب لأحدٍ. كان صلفاً عنيداً تخافه كـل براغي سيارته ، أذ يتشبث بالمقود كأنه جـزء مـن يديـه وتتصلب قدمه فوق الدواسة حتى لا ترتد إليه. ومـع أنهـم جميعاً يرتعشون من قيادته ويتعوذون من سواقته، إلا أنهـم ينظرون بأطراف عيونهم إلى قسام عندما يقول له عثمان : على خوفك هذا، لازم تتمدد تحت... ويدير رأسه للخلـف : أركبي عليه يا نجلاء... ويضج بالضـحك بينمـا الجميـع يصرخون به حتى يلتفت للأمام.

كان وقح النكتة ثرثاراً سليط اللسان. شرهاً في الأكـل عطشاً للخمر، ثقيلاً في المضاجعة، مغناجاً في المرض عياراً بالعلل . مهووساً بالحفريات مسكوناً بالذهب والآثـار. فهـو رغم العقارت التي يمتلكها ولا يعرف حصرها، والذهب الذي يقتنيه ولا يعرف مقداره، كان لا يتردد في ارتقـاء الجبـال الوعرة وقطع الصحارى الجرداء والغـوص فـي أعمـاق المحيطات بحثاً عن قطعة ذهب واحدة، مع أنه يمتلك منهـا صناديق وتنكات، كما تدعي لمياء. وهو في سـبيل الأكـل والشراب والتمظهر والادعاء، ينفق بلا حساب. فيغدق علـى أنسبائه إغداقه على الأعمال، حتى يصغوا لحديثه ويضحكوا لنكاته ويفاخروا بوقاحته باعتبارها نباهة وضرباً من الذكاء. كان يمتلك موهبة كبيرة في استيعاب اللهجات ونطقها بطلاقة أهلها. كما كان يحفظ الكثير من الكلمات البذيئة في اللغـات الأجنبيـة، وبخاصـة الشركسـية والشيشـانية والكرديـة والإنجليزية والفرنسية. فيكتشف بسهولة إن كانوا يشـتمونه فيما بينهم أو يسخرون منه، مبدياً دائماً الجهـل التـام فيمـا يقولون.



كانت لمياء تتقبل ببساطة سلوكه مع جلسائه الـذي لـم يكن يختلف عن سلوكه مع أنسبائه. فتصفق لتعليقاته وتضحك أكثر منهم لنكاته ولا تنزعج من تحرشاته البريئـة العفويـة. فالخمرة تطلقه من عنانه مع أنه لا يثمل على الأطلاق، وإن تصنع السـكر أحيانـاً لاسـتدراج الجلسـاء او التحـرش بالنساء.كان يثير عجبهم ظمؤه للبيرة، فهو يقضي في الجلسة على صندوق كامل دون أن يذهب مرة واحدة إلى الحمـام. ولديه مستودع كبير للخمور. يشرب الويسكي فـي الشـتاء ويشتري بالصيف البيرة برميلاً وراء برميل. ولا يسـتذوق الأكل من غير بهارات ثقيلة ومخللات حدة. ومن حين لحين يرتب وأصحابه جلسة وجدٍ في إحدى مزارعه، فيخلع عنـه كل حيائه مبقياً على نظارته ويتباهى أمـام الجميـع بطـول عمارته. إذا شمت لمياء رائحة أنثوية تنبعث منـه، يقـول : طقطقة على الخفيف من أجل الشغل. ولم يكن يزعجها ذلـك طالما أنها طقطقة على الخفيف، فهي لا ترتاب به مثلمـا لا يرتاب بها، مع أن جمالها يستلفت الأنظـار وتثيـر قماءتـه الغثيان. كان هذا يكفيها للتيقن مـن ولائـه، لاسـيما وأنـه

يرضيها ولا يتدخل بشؤونها ويغدق على أبويهـا وشـقيقتها مثلما يغدق في سبيل أعماله.

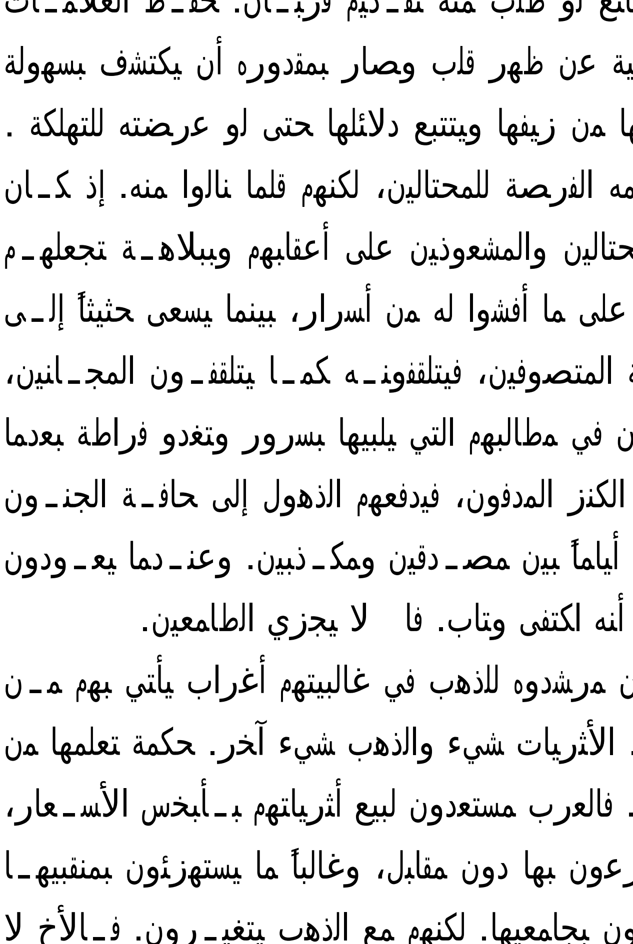
ساعده اتقانه للهجة البدو على تفاهمه معهـم، وقربتـه منهم معرفته لعاداتهم وظروف عشائرهم ومواقيت تجمعهـم وتباعدهم، فكسب ودهم وأغدق على أدلائهم الذين أرشـدوه للكثير من المواقع الأثريـة الصـحراوية، وكـان يشـتري معروضاتهم بلا تدقيق او مساومة، حتى لو لم تكن أثريـة، مثلما فعل عندما اشترى منهم جملة مصاحف قديمة مهترئـة ادعوا أنهم وجدوها في أطلال جامع أثري، وهو يعـرف أن عراءهم وشمسهم سبب تشققها واصفرارها وقدمها. فصاروا يعرضون عليه الأثريات التي يكتشفونها قبل عرضها علـى الآخرين الذين يبخسون مكتشفاتهم ويرهقونهم بالمسـاومات، واثقين من جهله وهبله ومستغلين طيبته الظاهرة وطـامعين بسخائه. بينما هو في داخليته حذر متربص يقتنص قبل غيره معروضاتهم التي لا يقدرون قيمتها ويبيعها بأسعار خياليـة، كما حصل عند شرائه العديد مـن المخطوطـات القمرانيـة النحاسية والجلدية والكتانية إضافة إلى جـذاذات الفخـار.. فشعر مدير الآثار هاردنج ورئيس كنيسة انطاكيا المطـران

صموئيل بخطره، بعد أن كان بيع الآثار حكراً عليهما. فكادا له مع السلطات وحرضا البدو ضده، إلا ان سخاءه حال دونهما، فهدد بإفشاء أمر بيعهما عشرات اللفائف والرقع من مخطوطات البحر الميت. ولم يكن من سبيل إلا التعاون معه، فأوصى هاردنج باستقطابه إلى المحفل الأكبر وعرفه على رجل يخاطبونه باسم "الجنرال "، يتعامل بالممنوعات أياً كان مصدرها او وجهتها ويلبي حاجات زبائنه حتى لو استحال تنفيذها على الآخرين، وكانت رتبة الجنرال في المحفل متقدمة، فسهل عن طريق شبكة علاقاته القوية خروج عثمان بعشرات المخطوطات يوم سفره في شهر العسل مع لمياء. بينما البلاد تحتفل بالتعريب والاستقلال. وقد أدى استبدال المدير الإنجليزي للآثار بآخر عربي إلى إرباكٍ في سوق الأثريات، فقد تشدد المدير الجديد في قضية المخطوطات وأصر على استملاك الدولة لكل المكتشفات الأثرية، فحاول عثمان تخفيف تشدده بانتخائه جهوياً باعتباره حورانياً مثله فلم يوفق. اضطر بعدها لتجميد تجارته في المخطوطات وتركيزها على الذهب والمجوهرات. فتحول من زبون للبدو إلى منافس لهم، وكان مثلهم يتطير من رقم سبعة فيثير

مخاوفهم به وهو يستثنيه من أرقامه ويجبره فـي حسـاباته وينيب غيره إذا تخال مواعيده، وكان البدو يجلّون هذا التشدد الذي تفوق فيه على أشدهم استغراقاً في البداوة. كان يعتبـر أن سعده وحظه نابع من هذا التزمت الذي كان يستغله أيضاً لبعث آمال البدو او تغيير اتجاه أطماعهم، مواظباً على تعامله معهم بالحفريات ومسترشداً في بحثه عن الذهب بالمغاربـة والخرائط وأدق الأدوات.

لم يكن يثق بالبدو في بحثه عن الذهب ولا يسـتخدمهم أدلاء ومرشدين، بل غالباً ما يعتمد علـى الخـرائط التـي يشتريها، فأضاع طريقه مرات عديدة كاد يقضي فيها جوعـاً وعطشاً، كما تعرض للتشليح مراراً من قبل بدو عـابرين او مهربين. لكنه مع استمراره في البحث وتتبع الخرائط، حتـى الشفهية منها، ازدادت خبرته بالطرق والمسالك. فيتباهى أمام لمياء بأنه يشم رائحة الذهب كما تشم الدابة الماء. ويضـيف ساخراً : هل يشم قسام الماء.؟.

كان هوسه بالذهب يجعله يصدق كل الحكايات، فيقـدم النذور ويلجأ للعارفين بالغيب والمكشـوفة عـنهم الحجـب والأسرار والقادرين على استحضار الأرواح والجان. ولـم



يكن ليمانع لو طلب منه تقديم قربان. حفظ العلامات الإرشادية عن ظهر قلب وصار بمقدوره أن يكتشف بسهولة صحيحها من زيفها ويتتبع دلائلها حتى لو عرضته للتهلكة . أتاح نهمه الفرصة للمحتالين، لكنهم قلما نالوا منه. إذ كان يرد المحتالين والمشعوذين على أعقابهم وببلاهة تجعلهم يندمون على ما أفشوا له من أسرار، بينما يسعى حثيثاً إلى المغاربة المتصوفين، فيتلقفونه كما يتلقفون المجانين، ويتمادون في مطالبهم التي يلبيها بسرور وتغدو فراطة بعدما يكتشف الكنز المدفون، فيدفعهم الذهول إلى حافة الجنون ويظلون أياماً بين مصدقين ومكذبين. وعندما يعودون يخبرهم أنه اكتفى وتاب. فا لا يجزي الطامعين.

كان مرشدوه للذهب في غالبيتهم أغراب يأتي بهم من الخارج. الأثريات شيء والذهب شيء آخر. حكمة تعلمها من هاردنج. فالعرب مستعدون لبيع أثرياتهم بأبخس الأسعار، وقد يتبرعون بها دون مقابل، وغالباً ما يستهزئون بمنقبيها ويستخفون بجامعيها. لكنهم مع الذهب يتغيرون. فالأخ لا يتردد في قتل أخاه طمعاً بقطعة ذهب واحدة، حتى لو كان

يمتلك منها أطناناً. وآمن عثمان بحكمة هاردنج، فهو إضـافة إلى كونه أستاذاً في المهنة، أستاذ أعظم في المحفل.

دفعته هذه القناعة لاستبعاد البدو من تنقيبات الذهب، أما المتحضرون فلا يستخدم مرشداً منهم إلا لمرة واحـدة، وإن أحس بطمعهم خلال الطريق يغير مساره حتـى لـو ضـاع وأضاعوه. فقصر استخدامه على المرشدين الشراكسة الـذين كان يجتذبهم بحجة أنه مفوض من محفلٍ سريٍ يهدف إلـى بعث الأمجاد التركية باسـتعادة كنوزهـا المخفيـة. وكـان يختارهم بما يتوافق وسجيته المصطنعة من بساطة وعفويـة وهبلٍ تجعلهم يعتبرونه أكثر الناس طيبة وبراءة في العـالم. فيصدقونه ولا يناقشونه ويأمنون جانبـه ولا يغـدرون بـه ويوالون له أكثر من ولائهم للحكومة، فيسـلمونه كـل مـا يعثرون عليه ويتعثرون به أيماناً بتركيـا العظيمـة ووفـاء لذكرى جمالها السفاح وسليله عثمان. كان يسعي لاسـتجلاب الأدلاء الموهوبين، روحانياً ومعرفياً، من أقاصـي الأرض. فيتصرف أمامهم بهبلٍ ويغدق عليهم بلا حساب إلى أن تتضح النتيجة، فإذا ظفر بالكنز كافأهم بالفتات، وإلا يحاسبهم بكـل قرش أنفقه عليهم قبل أن يعيد لهم جوازات سـفرهم. التـي

يحجزها في بداية المشوار إن كان المرشدون محليون، ومن نقطة العبور إن كانوا أجانب.

سافر مراراً إلى متصوفين ذائعي الصيت، واستضـاف منهم العديدين في عمان، وكان يحمل معه دائماً رزماً نقديـة يحملق بها مضيفه وهي ترتج في يديه، فيشفق عليه. ولإنه لا يعرف الحساب ويخطىء دائماً بالعد ولا يساعده نظره علـى تمييز الألوان، يرأف به ذائع الصيت ويرافقه وهو مغمـض العينين.

يمتلك العديد من البيوت والبنايات في شارع المهاجرين. أبقى الكثير منها شاغراً على أمل حصول نكبة جديدة تـدفع بالمهاجرين إلى عمان فيؤجرها على علاّتها بأعلى الأسعار. وكان يخبىء أثرياته القيمة في دهاليز بيته وأنفاق بستانه التي شيد فيها العديد من المراحيض. أمـا مشـترياته الأخـرى فيستودعها بيوته الشاغرة، التي يستضيف فيها أيضـاً أدلاءه الأغراب من المغاربة والمكشوف عنهم الحجـاب. محتفظـاً بجواز السفر معه وقافلاً على الضيف باب السكن بالمفتـاح، حتى لا ينزعج في خلوته الصوفية وهو يعد الحجب ويقـرأ الآيات وينشد لعكا، موطن الأولياء ومزار الاتقيـاء. بينمـا

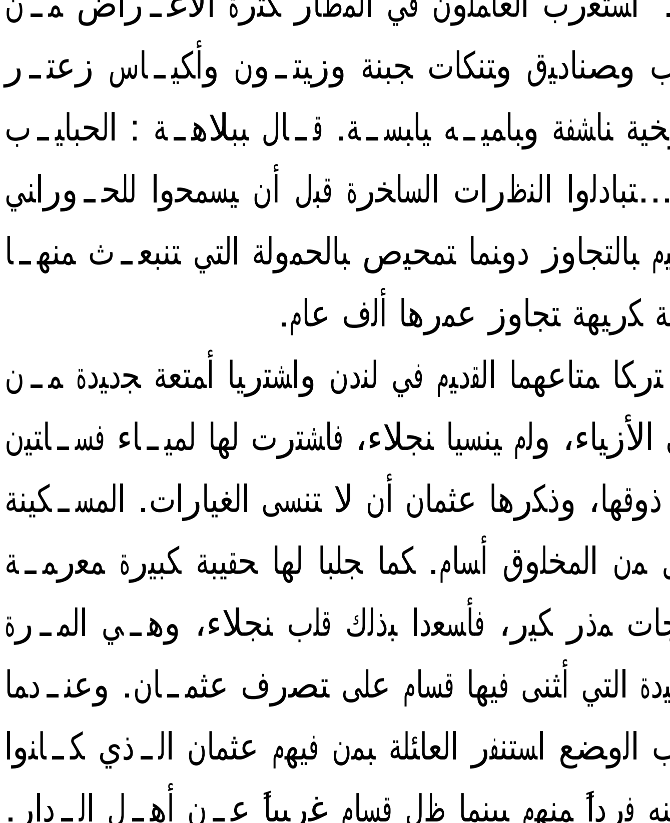
عثمان يسعد قلب لمياء بهداياه ويتلمس الهدايا التي خص بها نجلاء.

أغدق الكثير عليها أثناء حملها، وكان يسارع لتلبية ما تتوحم عليه حتى لو اضطر للتوصية على ما تشتهيه من خارج البلاد، لاسيما وأن ناقلي الآثار يعملون على مدار الساعة. وإذا ذهبت لمياء للتسوق فإنه يوصيها باصطحاب نجلاء، كما كان يصر، بعدما ثقلت حركتها أن تأتي بالثياب والبياضات لغسلها في الغسالة، فاستجابت بحرج ولم تحمل معها يوماً ثياب قسام. أخبرتها لمياء أن عثمان على استعداداً لشراء غسالة لها ويستطيع قسام تسديده المبلغ عندما يتوفر له نقوداً، إلا أن قسام رفض هذا العرض بإصرار. سيشتري لها غسالة مع عصارة اوتوماتيك عندما يجد حاجة لذلك. أما الآن فلديهم في الجوار عشرات الحورانيات اللواتي يغسلن من الصبح للمساء مقابل بضعة قروش. لم يقنع هذا نجلاء التي ظلت تلح عليه من حين لحين بجلب غسالة، لاسيما وأنها تعاني من قرف حفاظات حباب. فعرض عليها عثمان، في جلسة جمعت العائلات الثلاث، أن يجلب لها إحدى الغسالتين من بيته ريثما يشتري لها قسام غسالة. كان يقصد

التودد لها فحسب، وفهم قسام الأمر على أنه تعريض به فرد عليه بحدة : يا أخي لا نريد غسالتك. عندنا عشرون حورانية تغسل لنا... لم يجد عثمان لحظتها ما يرد به. فجاءت لمياء في اليوم التالي ومنذ الصباح الباكر محتجة لدى شقيقتها على تعليق قسام. تنهدت نجلاء متأسية : هكذا خلقه ا . ماذا أفعل به...لكن لمياء لم تكتف بهذا الرد الذي لن يكتفي به عثمان، فظلت تعابيرها مغتاظة إلى أن أخذت نجلاء تستدرجها عـن علاقتها الجنسية بعثمان. من يراهما بهذه السعادة يتساءل عن مقدار سعادتهما في الفراش : يا ويلي. وأنا التي كنت أتساءل أين رقبته هذا الخنزير... فتغتنم نجلاء الفرصـة لإرضـاء عثمان والتعريض بقسام : خنزير بلا رقبة أحسن من تـيس بلا أصبع.

- على حساب، فنان.!.

- بلا فنان بلا بطيخ. قولي لعثمان، هذا واحد تـيس لا يعتب عليه... فيضحك عثمان من الأعماق : قول لهـا، أنـا عند كلمتي. خليه يترك مسخرة الرسم ويشـتغل عنـدي... ويضيف متوعداً : وعد يا لمياء غير أطلّع في رأسه قرون وأخليه يضل ينطح قرون.



عندما حظي بشراء مخطوطات الكهف الرابع من كهوف قمران، قرر اصطحاب لمياء معه وقضاء الصيف في لندن. استغرب العاملون في المطار كثرة الأغراض من حقائب وصناديق وتنكات جبنة وزيتون وأكياس زعتر وملوخية ناشفة وبامية يابسة. قال ببلاهة : الحبايب كثار...تبادلوا النظرات الساخرة قبل أن يسمحوا للحوراني الغشيم بالتجاوز دونما تمحيص بالحمولة التي تنبعث منها رائحة كريهة تجاوز عمرها ألف عام.

تركا متاعهما القديم في لندن واشتريا أمتعة جديدة من أرقى الأزياء، ولم ينسيا نجلاء، فاشترت لها لمياء فساتين على ذوقها، وذكرها عثمان أن لا تنسى الغيارات. المسكينة حامل من المخلوق أسام. كما جلبا لها حقيبة كبيرة معرمة بمنتجات مذر كير، فأسعدا بذلك قلب نجلاء، وهي المرة الوحيدة التي أثنى فيها قسام على تصرف عثمان. وعندما اقترب الوضع استنفر العائلة بمن فيهم عثمان الذي كانوا يعدونه فرداً منهم بينما ظل قسام غريباً عن أهل الدار. وعندما ولّدت الحكيمة نجلاء أنقدها عثمان عشرين ديناراً حلواناً ووضع في كوفلية ابنتها خمس ليرات ذهبية وجلبت

لمياء للطفلة مهداً مبطناً ذي ناموسية وعجلات. كما أهـدت شقيقتها مبرومة ذهبية، قدمتها لها بينمـا العائلـة مجتمعـة حولها، فأحست نجلاء وهي تتسورها بأنها تتعرى لعثمـان. نظرت إليه شبقة وهو يقول مازحاً جاداً : يا جماعة. نسـينا أن نجلب هدية لقسام... تمنى قسام لحظتها لو يهوي بقبضته فوق رأسه فيسقطه داخل جوفه. وقال عنـه بعـدما ذهـب الجميع : عوضه ا عن رقبته بطول لسانه. وكانت نجـلاء قد اختارت لابنتها اسم "حباب"، تيمناً بعثمان.

بارك الزملاء والطلاب لقسام بابنته التي ولـدت مـع بداية السنة الدراسية للأكاديمية. لكنهم بدلاً من مخاطبته بأبي حباب، صاروا فيما بينهم يسمونه" أبو نبيلة".

متوسطة القامة مكتنزة، حمراء الشعر منمشـة الوجـه بيضاء البشرة عسراء. تعابيرها مثيـرة وثيابهـا قصـيرة. مندفعة عجولة جريئة.

فوجئ قسام بالتحاقها لدراسة الفن كمـا فـوجئ بهـا الطلبة والاساتذة وكان الرئيس قد سبق في ذلك الجميع. إنها المرة الأولى التي تلتحق فتاة بالأكاديميـة منـذ تأسيسـها. فأضفت على قاعة التدريس رونقاً لم يعهده أحد مـن طـاقم

الأكاديمية. ولاسيما قسام، الذي كان يتلهف على اسـتعراض علمه وفنّه وموهبته أمام فاتنة غاوية أكثر مـن النـوم فـي الفراش مع عارية. وهو الأمر الذي لم يستطع الوصول إليه مع نجلاء. بل أنها حالت دونه، فصار يحس بالبيت كابوسـاً يثقل عليه ولا يستطيع درءاً له او الخـلاص منـه. وفـاقم ازدراء نجلاء وعائلتها له وشعوره بالخذلان أمام عثمان من رغبته في استهواء النساء وغوايتهن بجاذبيته قبل فنه، وبفنه قبل علمه، وبعلمه قبل ثرائه الذي لا يعول عليه أحـد، كمـا كانت تتأسى نجلاء. ثم تأتي هذه النبيلة التـي تقطـر منهـا الشهوة وكأنها جبلت بها وتنبع منها. ومـا أن عـرف أنهـا تعشق الفنان على طبيعته من غير رتوش وتزويـق، حتـى أسرع إلى البالة . اشترى ثياباً غريبة مهلهلة وصار يحلـق ذقنه فقط عندما يستحم يوم الجمعة، ويمشط شعره مرة فـي الأسبوع ويمسح وجهه صباحاً بيديه الـرطبتين ولا يغسـله على الأطلاق. محاولاً إضفاء هيأة الرسامين علـى شـكله. ادعى أمام نجلاء أن لديه ورشة رسم تطبيقية، استغربت لكن لم تبد اكتراثاً، ولم يوضح أكثر.

عبقت رائحة الفن في أنفاس نبيلة وصارت تستوقفه في الممر فيذوب من اللوعة وهو لا يكاد يصدق نفسه فيعجز عن الكلام والإصغاء ويكاد الارتباك يرخيه ويسـقطه. ويحـس بتحرشات التلاميذ ومقاطعتهم له إنقاذاً فيخاطبهم أكثـر ممـا يخاطب نبيلة ويتمعن فيهم مصغياً لأسئلتهم وهو يفكر بنبيلـة التي كانت تنظر للجميع وتبتسم للجميع. لكنهم جميعهم تلاميذ والأستاذ واحد في القاعة ، قبل أن يأخذ الرئيس بالمشـاركة بالتدريس.

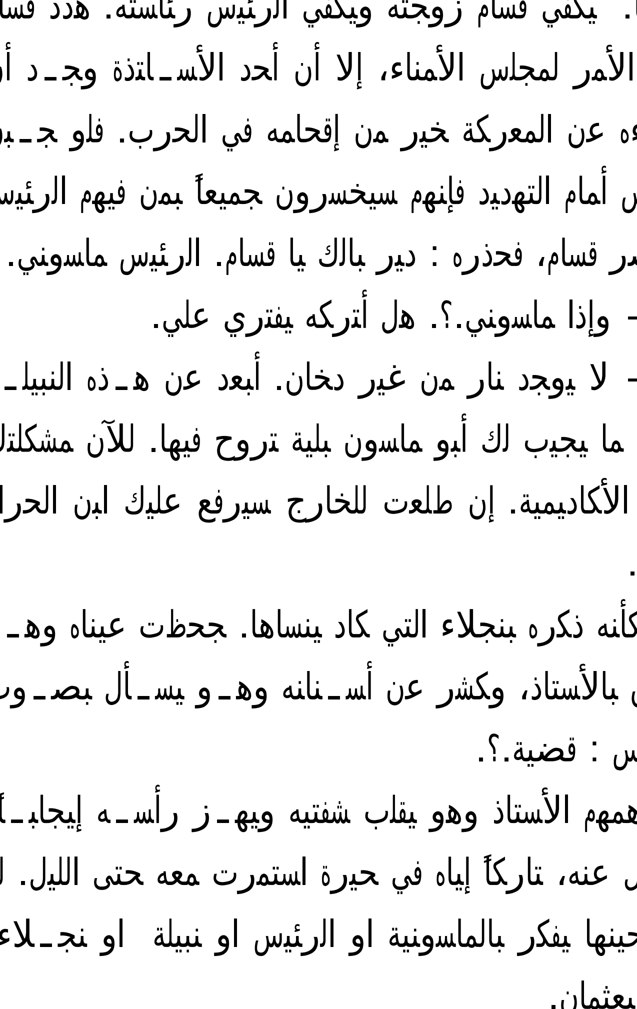
كانت مهووسة بالرسم شغوفة بالرسامين. عارضت أمها سفرها إلى أوروبا لدراسة الفن. هل يهون عليها أن تتركهـا وحدها. على افتراض أنها تعرضت لمكـروه أو مـرض او أزمة، فمن سيرعاها ويقف إلى جانبها. لو ظل أبوها على قيد الحياة لما مانعت. فقالت نبيلة بأن أباها كان ميتاً وهو علـى قيد الحياة. عاش سكيراً ومات سكراناً. ردت الأم بأنه كـان رجلاً وكانت نبيلة معهما. أما أن يموت الأب وتسافر الابنـة فهذا ما لا تحتمله. لما أصرت على السفر، لجأت أمها إلـى شقيقها. وكانت نبيلة معجبة جداً بشخصية خالهـا وتعتبـره خزنة نصائح ينقصها أن تدون في مجلدات. لديه حـل لكـل

معضلة وجواب لكل سؤال وقيم أخلاقية تصلح لكـل زمـان ومكان. اقترح عليها أن تدرس فـي الأكاديميـة. الموهبـة أساس الفن، والدراسة تصقلها ولا تخلقها. لهـذا لا تختلـف الدراسة في عمان عن الدراسة في أي مكان. أقنعهـا رأيـه وذهب معها لمقابلة رئيس الأكاديمية الذي استقبلهما بحفـاوة وترحاب شديد، مؤكداً أن سياسة الأكاديميـة فـي الأسـاس تشجيع الفن والحث عليه وتنقية صورته التي ارتبطت بأذهان الناس بالحرام والعيب والمسخرة. هذا لا يتحقق فقط بإقبـال الشباب على الدراسة، وإنما بالتحاق الفتيـات أيضـاً، شـأن الدراسة في الجامعات. كان الرئيس يتوقع أن يتم الاختـراق في البداية من قبل الفتيات المسترجلات اللواتي تتردد الريش في رسمهن وتشعر الألوان بالضعة من احتـوائهن. أمـا ان تأتي هذه النبيلة ليحاضر بها قسام، فإن ذلك يشـطر القلـب ويمزق الفؤاد. لو لم يكن هذا المعتوه يجـذب النسـاء لمـا ارتضته زوجته الفاتنة. ولو لم يكن ابن حرام مع النساء لمـا نزع جلده وأطلق شعره وارتدى البالات. صار يطب عليـه في قاعة التدريس او قاعـة الرسـم وأحيانـاً يلحقـه إلـى المرحاض وهو ينتفض ظناً منه أنه يلتقي بنبيلة هناك.

جن جنون قسام. لم لا يفعل الرئيس مثل هذه الأمور مع غيره من الأساتذة، وسأله عن ذلك مباشرة. أنكر الرئيس أن يكون الأمر شخصياً ، فالشكاوى تصله باستمرار عن سلوك قسام المشين. إنه يستعرض نفسه أمام نبيلة قاصداً إغواءها. ولو تسرب شيء من هذا القبيل إلى الخارج لكانت النهايـة : هل تريدهم أن يقولوا عن الأكاديمية كرخانة.؟.

ذهل قسام. إنه حتى يخجل من النظر لنبيلة. وهو منـذ التحق بالأكاديمية لا يمشط شعره ولا يرتدي ثياباً مكويـة. قال له الرئيس بخبث : أنا فاهم عليك يا قسام. لا تظن أننـي غشيم. أنا قالع أسناني قبل ما تولد... وحرك ضـبة أسـنانه خارج فمه، فارتعب قسام أكثر مما قرف : إياك يا قسام. هذه بنت عالم وناس. ونحن نحصل على أموالنـا بالقطـارة. لا تجيب خبرنا، أحسن وا ... وسكت.

شكى قسام أمره لزملائه المسحورين بنبيلـة. فهمـوا الأمر على ما هو عليه. إنهم يعانون معاناتـه مـن تـدخل الرئيس بشؤونهم ومباغتته لهم في القاعة. لكنه لم يجرؤ على ملاحقة أحد إلى المرحاض. لو فعلها لأغرقوه في السـيفون. كانوا يريدون دفع قسام لمواجهته. سيخلصون عنـدها مـن



كليهما. يكفي قسام زوجته ويكفي الرئيس رئاسته. هدد قسام برفع الأمر لمجلس الأمناء، إلا أن أحد الأسـاتذة وجـد أن إقصاءه عن المعركة خير من إقحامه في الحرب. فلو جـبن الرئيس أمام التهديد فإنهم سيخسرون جميعاً بمن فيهم الرئيس وينتصر قسام، فحذره : دير بالك يا قسام. الرئيس ماسوني.

- وإذا ماسوني.؟. هل أتركه يفتري علي.

- لا يوجد نار من غير دخان. أبعد عن هـذه النبيلـة أحسن ما يجيب لك أبو ماسون بلية تروح فيها. للآن مشكلتك داخل الأكاديمية. إن طلعت للخارج سيرفع عليك ابن الحرام قضية.

كأنه ذكره بنجلاء التي كاد ينساها. جحظت عيناه وهـو يحملق بالأستاذ، وكشر عن أسـنانه وهـو يسـأل بصـوتٍ كالهمس : قضية.؟.

همهم الأستاذ وهو يقلب شفتيه ويهـز رأسـه إيجابـاً، وتحول عنه، تاركاً إياه في حيرة استمرت معه حتى الليل. لم يكن حينها يفكر بالماسونية او الرئيس او نبيلة او نجـلاء، وإنما بعثمان.

لم ينتظر حتى الصباح، بل ترك نجـلاء غافيـة فـي السرير وذهب إلى الحمام. غسل وجهه وحلق ذقنه وصـوبن أسنانه، ثم ارتدى ملابسه القديمة فبدت قياساً بثيـاب البالـة جديدة حديثة وكأنها كويت وهو فيها. تولى عن نبيلة في قاعة التدريس وصار لا يسمح لها بالمشاركة ولا يمنحها الفرصة للسؤال، وإن غافلته بتدخلها ومقاطعتها يهمل أمرها ويتحول إلى غيرها، فتقطب طيلة الحصة بينما تعابير الرئيس تشرق بالرضى وهو يقف مستنداً بظهره إلى الجـدار يراقـب أداء الأستاذ في وجوه التلاميذ.

١٢

أدهش هاني أباه بقدرته وجديتـه. كـان يظنـه عابثـاً فوضوياً يلزمه أن يخـدم عسـكرياً حتـى يـتعلم النظـام والانضباط، فإذا به يقبض على السلسلة كالسجان ويتولاهـا كراعي القطيع. يخشى على الزبائن خشيته على المصـلحة فيطورها ويطور العاملين. كل شيء يعنيه ويترك للآخـرين ما يعنيهم. كأنه يترجم علاقته بالشلة واقعاً ملموسـاً. اتخـذ الأمانة معياراً والنظافة سلوكاً معتاداً، وقبل السلوك الذي لـم يكن يقبله أبوه، فسمح بتناول المشـروب داخـل الغـرف. الفنادق المصنفة كلها تسمح بذلك. وسمح باسـتقبال الزبـون لضيوفه في غرفته، حتى لو كن نسـاء. يجـب أن يعامـل الزبون كأنه في بيته. وعندما يقول له أبوه : هناك حـدود... يرد هاني : طبعاً هناك حدود... ويشير إلى باب غرفة مغلق وهو يضيف : لنا ولهم...لكل واحد في الدنيا باب. يفتحه إن أراد ويغلقه إن أراد. هذه هي الأخلاق.

كان يبكر في الحضور ويتأخر في الرواح ويبيت دائماً في المنزل ولا يعلن عن قدومه لأي فندق في السلسـلة ولا يكشف أمر استدعائه للعاملين ولا يفضح أمراً لزبون حتى لو

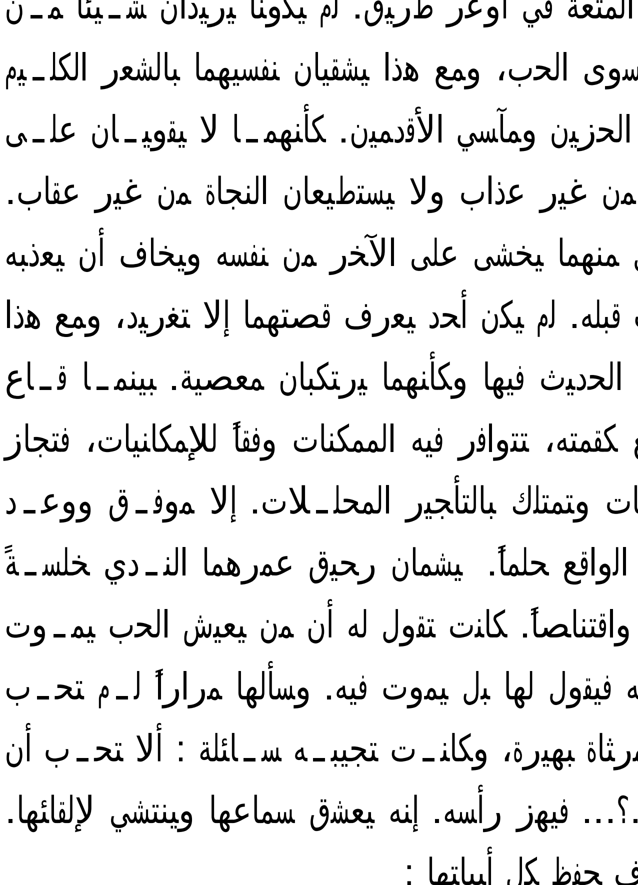
كان محتالاً او متملصاً من الحساب. ويدون كل شـيء فـي السجلات. النقود والوعود والنفـوس والأنفـاس والحركـة والسكون. غدا توليه لمسؤلية السلسلة تحـدياً لإخفاقـه فـي المترك، فاكتشف فيه أبوه قدرة إدارية تفوق قدرته وهو الذي كان يتغنى بعصاميته وصناعته السلسلية. كان يريده مساعداً لإدارة الفندق الجديد الذي لم ينته فيه العمل بعد، فوجد نفسه مقيداً بالسلسلة التي يمسك بها هاني وهو يتابع كـل كبيـرة وصغيرة ويلاحق كـل شـاردة وواردة، فصـار العـاملون يلجأوون عفوياً إليه والزبائن يسألونه قبل أبيه فيلبي هـؤلاء ويسرع لأولئك، فانشدت حلقات السلسلة. ولما نضبت سيولة أبي هاني ووجد نفسه مضطراً للجوء إلـى البنـك حتـى لا يتوقف مشروع عالي بالاس، اقترح هاني، عوضاً عن ذلك، بيع مبناهم في الجوفة. ليس لهم حاجـة الآن بمنـزل كبيـر وبستان، سيما وأن وعد تشتغل وهما غائبان عن البيت معظم الأوقات. استصوب أبوه الفكرة وعارضتها أمه وأخته. لكـن اتفاقهما قوى شكيمتهما، فواجها الاعتراضات بعناد. سيبيعون المبنى ويوفرون السيولة ويسكنون بالإيجار ريثمـا ينتهـي العمل في عالي بالاس الذي سيلحقون به على الرووف سكناً

خاصاً بهم. أقنع هاني أباه أن يكون بحجم شقة صغيرة متواضعة لا بذخ فيها ولا إسراف، فمن يدري. قد يضطرون لهدمها وإضافة طابق جديد أن تحسن الشغل ورغبوا في التوسع.

بيع البيت بحلول الربيع، وانتقلت العائلة إلى سكنٍ مؤقتٍ ريثما ينتهي العمل بالفندق الجديد. وكان انتقالهم مخيباً لآمال وعد. فصارت المسافة لبيت تغريد طويلة ولم يعد بإمكانها التذرع للعروج عليها او التوقف معها في المكتبة. فطريق كل منهما غدت في اتجاه معاكس. وكان عليها أن تجد وموفق طريقة أخرى للقاء دونما شبهة ولفت أنظار. جاءه الحل من أبي يحيى، الذي خوله أثناء حملته الانتخابية بمنح تصاريح مجانية لدخول دور السينما التي يمتلكها. ولم يكن الأمر يتطلب من موفق سوى ورقة صغيرة حتى يصرف شباك التذاكر لحاملها بطاقة دخول للموقع المحدد فيها، فصار موفق ووعد يلتقيان بعد انطفاء الأضواء في المقصورة المخصصة لأبي يحيى، فيتعرف عليه العاملون ولا يتعرفون عليها. أفشى مدير الصالة الأمر لأبي يحيى، فوبخه بجفاء : لو طلب منكم حجز الصالة كلها له فامتثلوا. موفق وكيل

عني، حاضراً كنت أم غائباً... فصار المدير يبقـي سـتارة المقصورة منسدلة لا يزيحها المراقب إلا بإيعازٍ من موفـق، مما سمح له بعناق وعد بعد أن كانا لا يجرؤان إلا على شبك يديهما، وقبل انتهاء العرض تنسل وحدها ويتـأخر بعـدها. اعتاد شغيلا المكتبة وزبائنها مغادرته المبكرة كل أربعـاء. واعتاد مراقبو السينما حضورهما على التعاقب في هذا اليوم بعد دقائق من عرض السادسة مساء . كما اعتـادت وعـد التزين والتهندم بأحسن مما لديها دون أن تثيـر تسـاؤلاً او استفساراً لدى عائلتها التي قبلت عادتها فـي الـذهاب مـع صديقاتها إلى السينما مساء كل أربعاء. استمرا علـى هـذا النحو،حتى بعد رحيل أبي يحيى. وإن قصرا لقاءهما بعـدها على سينما العفيف فقط التي كانت مقصورتها الأرقـى فـي صالات عمان.

لم تكن السينما تكفيهما. كانا يتوقان للتحدث. ويرغـب موفق بإلقاء الشعر مثلما ترغب وعد في سماعه. كانا يعبدان الحرف ويجدان فيه أبلغ تعبير عن حبهما الذي مـا يـزال مبحراً بهدوء. لم يكن يخيفهما الضباب طالما لم يرتفع الموج بعد ولم ينبثق الماء عن صخور الأعماق. كانـا سـعيدين.



يطلبان المتعة في أوعر طريق. لم يكونا يريدان شيئاً من حبهما سوى الحب، ومع هذا يشقيان نفسيهما بالشعر الكليم واللحن الحزين ومآسي الأقدمين. كأنهما لا يقويان على البهجة من غير عذاب ولا يستطيعان النجاة من غير عقاب. كان كل منهما يخشى على الآخر من نفسه ويخاف أن يعذبه إن مات قبله. لم يكن أحد يعرف قصتهما إلا تغريد، ومع هذا يشقيهما الحديث فيها وكأنهما يرتكبان معصية. بينما قاع المجتمع كقمته، تتوافر فيه الممكنات وفقاً للإمكانيات، فتجاز المحرمات وتمتلك بالتأجير المحلات. إلا موفق ووعد يعيشان الواقع حلماً. يشمان رحيق عمرهما الندي خلسةً وخشيةً واقتناصاً. كانت تقول له أن من يعيش الحب يموت من أجله فيقول لها بل يموت فيه. وسألها مراراً لم تحب سماع مرثاة بهيرة، وكانت تجيبه سائلة : ألا تحب أن تسمعها.؟... فيهز رأسه. إنه يعشق سماعها وينتشي لإلقائها. وإلا كيف حفظ كل أبياتها :

أسقيكِ من قلبي دماً وجعاتُ دمعكِ

لي شرابا

وأرى عذابي في رعايتكِ

السعـ ـ ـ ـ ـ ـ ـادةَ لا الـ ـ ـ ـ ـ ـ ـعذابا

كم قلتِ لي : صبراً فسوفَ تعيشُ مسـ ـروراً

سـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـعيدا

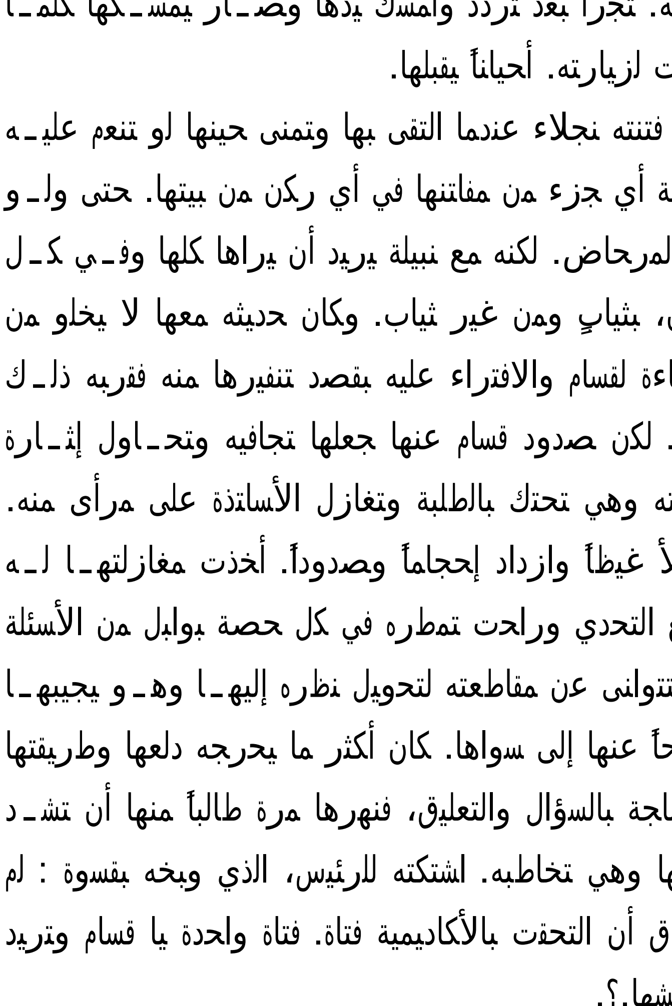
وأغـ ـض أجـ ـفـ ـانـ ـي لـ ـيـ ـبصر قـ ـ ـلبي

الأمـ ـ ـ ـ ـ ـ ـلَ الشـ ـ ـريـ ـ ـ ـ ـ ـ ـدا

١٣

كانت نبيلة تتعمد إثارة الأسـاتذة والطلبـة والـرئيس. تستوقف هذا وتشير لذاك. تتحدث بدلع وتصغي بذوبان. ترد على الابتسامات بدلال وتقابل النظرات بفتنـة وغوايـة. إذا وقفت مع أحدهم تتعمد أن يحتك صدرها بذراعه او تلتصـق ساقها بساقه. حتى ظن كل من في الأكاديمية أنها تهواه، بمن فيهم الأذنة وعامل البوفيه وحارس البناء. وعنـدما يتجـرأ أحدهم على إمساك يدها او تحسس خدها او عصـر ثـديها، فإنها لم تكن تبدي استياء او معارضة او ممانعة. لكنهـا لـم توافق أحداً على اللقاء خارج الأكاديمية او الإنـزواء وإيـاه بعيداً عن الأنظار. صار بعضهم يتبجحون بما ينالون منهـا وآخرون يتراهنون على مداعبتها، وهم يظنون أنهـم بـذلك يتمكنون منها وقد تمكنت منهم جميعاً.

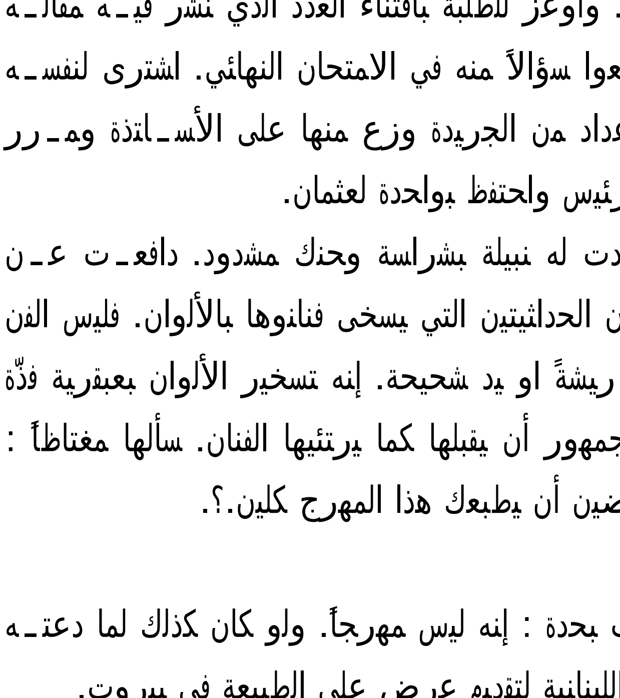
كان الرئيس يسأل عنها باستمرار، ويدعوها إلى مكتبـه لشرب القهوة والشاي. تجلس واضعة ساقاً فوق أخرى. تشير بيدها وهي تتحدث قبل أن تبسـطها علـى امتـدادها فـوق الطاولة، ومع هذا لم يتجرأ الرئيس في الاسـتجابة إلا بعـد وقت ومحاولات، ابتدأت بوضع يده قريباً من يدها ثم لامس



بطرف اصبعه اصبعها وأخيراً ضرب على يدها وهو يؤكد حديثه. تجرأ بعد تردد وأمسك يدها وصار يمسكها كلما جاءت لزيارته. أحياناً يقبلها.

فتنته نجلاء عندما التقى بها وتمنى حينها لو تنعم عليه برؤية أي جزء من مفاتنها في أي ركن من بيتها. حتى ولو في المرحاض. لكنه مع نبيلة يريد أن يراها كلها وفي كل مكان، بثيابٍ ومن غير ثياب. وكان حديثه معها لا يخلو من الإساءة لقسام والافتراء عليه بقصد تنفيرها منه فقربه ذلك منها. لكن صدود قسام عنها جعلها تجافيه وتحاول إثارة غيرته وهي تحتك بالطلبة وتغازل الأساتذة على مرأى منه. فامتلأ غيظاً وازداد إحجاماً وصدوداً. أخذت مغازلتها له طابع التحدي وراحت تمطره في كل حصة بوابل من الأسئلة ولا تتوانى عن مقاطعته لتحويل نظره إليها وهو يجيبها مشيحاً عنها إلى سواها. كان أكثر ما يحرجه دلعها وطريقتها المغناجة بالسؤال والتعليق، فنهرها مرة طالباً منها أن تشد حنكها وهي تخاطبه. اشتكته للرئيس، الذي وبخه بقسوة : لم نصدق أن التحقت بالأكاديمية فتاة. فتاة واحدة يا قسام وتريد تطفيشها.؟.

على أثر تناقل الجرائد العمانية خبراً عن مهاجمة الصحافة البيروتية للجامعة اللبنانية بسبب استضافتها للفنانة الفرنسية نيكي ديزان والفنان الأميركي إيف كلين في الربيع



القادم، كتب قسام مقالاً هاجم فيه مدرسة الحركة والعمل ومدرسة البصم والطبع، معتبراً الأولى تهريجاً والثانية ابتذالاً ومسخرة. وأوعز للطلبة باقتناء العدد الذي نشر فيه مقاله وأن يتوقعوا سؤالاً منه في الامتحان النهائي. اشترى لنفسه بضعة أعداد من الجريدة وزع منها على الأساتذة ومرر واحدة للرئيس واحتفظ بواحدة لعثمان.

تصدت له نبيلة بشراسة وحنك مشدود. دافعت عن المدرستين الحداثيتين التي يسخى فنانوها بالألوان. فليس الفن رقعةً او ريشةً او يد شحيحة. إنه تسخير الألوان بعبقرية فذّة وعلى الجمهور أن يقبلها كما يرتئيها الفنان. سألها مغتاظاً : وهل ترضين أن يطبعك هذا المهرج كلين.؟.

قالت بحدة : إنه ليس مهرجاً. ولو كان كذلك لما دعته الجامعة اللبنانية لتقديم عرض على الطبيعة في بيروت.

أعاد سؤاله محتداً وهو يكـز أسـنانه : سـألتك، هـل ترضين أن تكوني...

قاطعته بسرعة : طبعاً أرضى، طالما أني أدرس الفـن إيماناً به.

أعادت قولها أمام الرئيس وهي تروي له مـا جـرى، فشتم قسام أولاً ثم سألها وقد شعت نظراته بمكرٍ واضح : هل كنت جادة في قولك.؟.

- ماذا.؟... استدركت بسرعة : أن أكـون مـوديلاً.؟. طبعاً جادة. من يرفض أن يتحول للوحة فنية.

أرسل الرئيس رسالة إلى الجامعة اللبنانية يبـدي فيهـا رغبة الأكاديمية في استضافة الفنانين بعد تقديم عرضـيهما في بيروت، كما زودتـه السـفارة الأمريكيـة والفرنسـية بعنوانيهما، فأرسل دعوتين لهما لتقديم عروض على الطبيعة في عمان. لم يدر أحد بالأمر إلا بعد وصول الفنـانين إلـى بيروت واستنفار الرئيس لطاقم الأكاديمية من أجـل تجهيـز قاعة العرض وتأمين وصول الدعوات لعلية القوم ومحبـي الفن. لم يراجع نبيلة بالأمر، وتوقفت هي عن زيارتـه فـي

مكتبه وصارت تتجنبه، إلا أنه ظل يأمل أن يقيم حفلة طبع خاصة جداً.

سرب قسام الخبر للجرائد في مقال كتبه بيسراه وذيله باسم عثمان الزير. تعرضت الأكاديمية بسببه لهجوم عنيف من قبل المتحفظين والإسلاميين تحديداً، لكن الرئيس الذي تورط بالدعوة صرح للجرائد أن الطبع سيتم على صبي صغير ودون أن يتعرى من ثيابه، والدعوة مفتوحة للجميع. مع هذا كان عدد كبير من الجمهور يتمنى أن يكون تصريح الرئيس خدعة وأن يتم العرض حسب ما كان مقرراً ومثلما وصفته الجرائد اللبنانية وهي تهاجم العرض ومن كان وراءه من رسميين وفنانين.

احتشد في القاعة الكبرى للأكاديمية حوالي مئتي متفرج. جاء معظمهم من غير دعوات، وكانت النساء أكثر عدداً من الرجال. أغدقت الكثيرات على أنفسهن بالثياب الفاخرة السافرة رغم أن الجو يتخلله نسمات باردة، وعبقت منهن العطور الباريسية وتنوعت تسريحاتهن وكأنهن في استعراض. جلسن في القاعة مستكبرات وتصرفن بتعالٍ ارستقراطي مع المشرفين وكن يرمقن الحضور بنظرات

مزدرية محتقرة. لم يجد خير مكاناً يجلس فيه، فظل واقفاً في المؤخرة مستنداً بظهره إلى الجدار قرب الباب وهـو ينفـث باستعلاء دخان سيجارته دوائر صغيرة تتمدد فـوق رؤوس الجالسين أمامه كالإطارات مما كان يغيظهم فيتهامسون عليه ويزدرونه بأعينهم.

احتل الطلبة نصف الكراسي، بنـاء علـى توجيهـات الرئيس. على أن يتم أخلاؤها بإيعاز من المشرفين لإجـلاس الضيوف المتأخرين. جلس المهمون في الصف الأمامي كما جلس معهم الرئيس ونبيلة والصبي الذي سيتم طبعه. بينمـا طاقم الأكاديمية يستقبلون الضيوف ويرشدونهم إلى مقاعدهم ويحافظون على النظام. أوكل لقسـام مسـؤولية الترحيـب والاستقبال عند المدخل لإرشاد القادمين وحذره الرئيس مـن دخول القاعة فاستكان قرب الباب. وتفرغ اثنان من الأساتذة لمرافقة الضيفين، أحدهما يجيد الإنكليزية والآخـر يعـرف الفرنسية. كما كلف اثنان آخران لمعاونة الفنانين والإشـراف على المساحة المخصصة للعرض التي وضع فيهـا منصـة عليها أسطل فيها ريش متعددة المقاسات وملونـات وعلـب ألوان كبيرة وتقابلت أمام جدارين متقابلين حاملتان خشـبيتان

عليهما رقعتان لإضفاء دوكرة فنية علـى القاعـة. بجانـب إحداهما لوح خشبي بعرض مترين مربعين مسـتند سـطحه على الحائط. بجانبه عارضتان في شـكل مثلـث عـريض الرأس. في الجهة المقابلة تدلى من السقف ستارة كبيـرة بيضاء أخفت ما وراءها.

توقف الدخان في صدر خير وهو ينظر بـذهول إلـى امرأة ترتدي ثياباً جلدية سوداء ضيقة كأنها ملتصقة بجسدها، وتضع طاقية من نوعه ولونه أشبه بطاقية السباحة وفي يدها بندقية. في الوقت نفسه فرد استاذان كرتونة كبيـرة بيضـاء تحت الستارة المعلقة في السقف. تعلقت بهما الأنظار قليلاً ثم تعالت الهمسات والتفتت الوجوه إلى المرأة التـي اخترقـت الممر الضيق بين الكراسي باتجاه مكـان العـرض يتبعهـا مرافقها. بينما الأستاذان يسحبان برويـة وحـذر السـتارة البيضاء لتنكشف بالونات مملوءة بألوان مذابة معلقة بكلابة الثريا. ما أن وصلت ديزان إلى الصـف الأمـامي يتبعهـا المترجم حتى سددت بندقيتها وأطلقت طلقة فـانفجر بـالون أحمر وهوت كتلة هلامية صفعت الكرتونة صفعة قوية بينما السائل يتفتت إلى بقع وشظايا تناثرت أمتاراً وكأنهـا دمـاء

طرطشتها قذيفة. ندا عن البعض تهليل لم يعـرف إن كـان سببه الطلقة أم الدماء أم الإعجاب : يا ا .

تقدمت نحو الكرتونة وتأملتها للحظة ثم مدت بنـدقيتها للجانب فتناولها المترجم. اتجهت إلى المنصة فجلبت ريشـة عريضة عملت بها فوق الكرتونة بسرعة وفوضـى مشـكلة خطوطاً لولبية حمراء تخللها فراغات بيضـاء مـن سـطح الكرتونة. سكنت بعد ذلك متخصورة باليد التي تحمل الريشة وظلت على حالها نحو عشر دقائق ثم خطفت رأسـها بغتـة ونظرت إلى البالونات. تأملتها دقائق راحـت بعـدها تنقـل نظرها بين البالونات والرقعة ومدت يدها إلى الجانـب دون أن يتغير حالها فأسرع المترجم نحوهـا بالبندقيـة وتنـاول الفرشاة. تراجعت بخطوات سريعة وهي تسددها للأعلى ففر المترجم أبعد ما يستطيع قبل أن يهوي السائل الأخضر مـن بالون آخر، وظلت تعيد حركتها إلى أن أتت على البالونـات كافة وهي تعمل فيها فرشاتها فـي أشـكال اختلطـت فيهـا المربعات بالدوائر بالمكعبات ثم قامت بنفض ريشـة لـون أزرق وكأنها تمنخل اللوحة وتملؤها بالثقوب. وكان الـرئيس

شارداً يبحث عن طريقة يقنع فيها نبيلة حتى توافق علـى أن يطبعها كلين في الفندق.

بعد نحو الساعة والنصـف دوى التصـفيق بمشـاركة النسوة الأكابر وهن يربتن أطراف أصابع يـدٍ فـي راحـة الأخرى فأضفين إجلالاً على مشاركتهن الفنية. أفاق الرئيس من شروده فأسرع نحو نيكي وهي تمسح يـديها. صـافحها ودعاها لمقعدها وهو يعتذر من خـلال المتـرجم قبـل أن ينسحب بكياسة دون أن يلفت الأنظار المشدودة نحو اللوحـة يثبتها الأستاذان على إحدى الحاملتين. فاجأ الـرئيس قسـام وهو يضحك مع خير فزجره بنظرة قلصت تعـابيره. بينمـا الهمسات تتعالى والإشارات تتنوع والنسوة الأكابر يهـززن رؤوسهن بفخامة ويقلبن شفاههن المبتسمة بغطرسة انتصاراً للمرأة ثم إعجاباً بالفن الحركي. وفي المدخل يغلـي قسـام غيظاً، وبجانبه خير يتمنى لو كانـت الشـلة برفقتـه وهـم سكارى.

كان التلهف على أشده انتظاراً لكلين، وتعلقت الأنظار بالأستاذين ينقلان اللوح الخشبي إلى المنتصـف ويبسـطانه على الأرض جاعلين سطحه للأعلى، فنصـع بياضـه فـي

عيون الشاخصين وتخيل كثير من الطلبة نيكي عارية فوقه وهم عراة فوقها. كان الحال معكوساً لبعض النسوة اللاواتي تخيلن كلين يطبعهن باخضرار الخصوبة، بينما ينقل الأستاذان عاب لونٍ أخضر وسطلاً يعج بالريش.

ما أن ظهر كلين في المدخل يحاذيه الرئيس ومن خلفهما المترجم، حتى راح البعض يصفق، فاندفع الجميع على أثرهم تصفيقاً وتصفيراً وتلويحاً، بينما تحركت بعض الحرارة في تربيتات النسوة الأكابر واستبدلن هز الرؤوس صعوداً وهبوطاً بتحريكها للجانبين. أثارت حرارة الاستقبال غيظ نيكي التي أفزعت بندقيتها الحضور فقال استعراضها من استقبالها وقررت من حينها أن تتجه بفنها من مدرسة الحركة والعمل إلى مدرسة الطبع والبصم.

تقدم كلين بين المؤمنين وكأنه الخضر الخفي مالئاً بحضوره الجليل كل أركان القاعة حيث وقف الجميع يصفقون ويصفرون وينظرون بلهفة إلى الشعر الأشعث كصوف المعزاة والذقن الكثة التي تشبه مكانس الفقراء والثياب الرثة المرقّعة التي تأباها البالات.

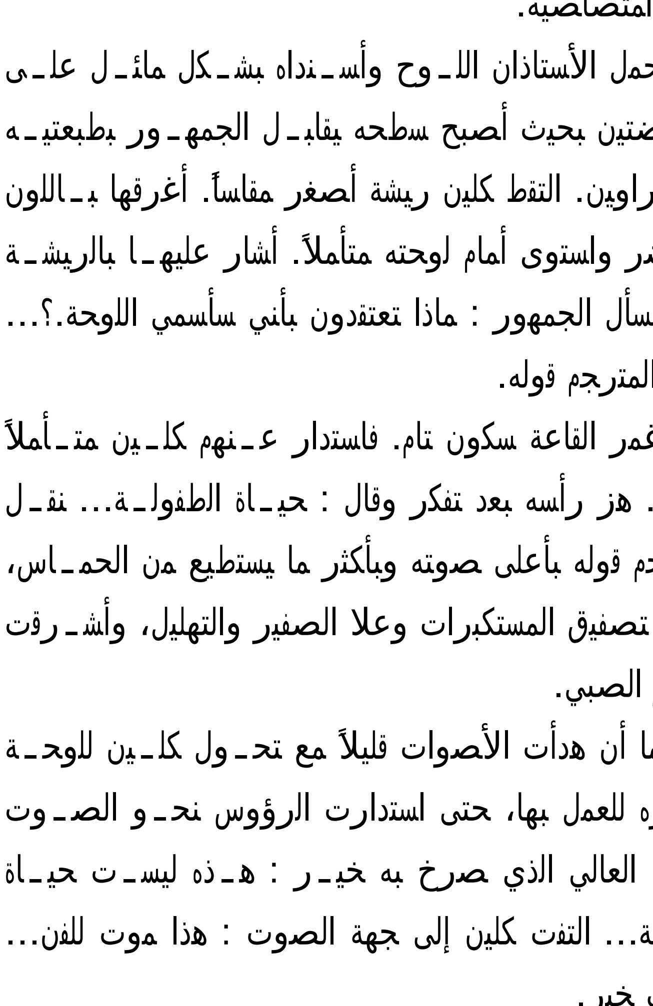
قدمه الرئيس في فسحة العرض بعد مقاطعات حماسـية عديدة. ثم تحدث للجمهور والمترجم يردد من خلفه بالعربيـة وهو في قمة السعادة والخشوع : أرجو أن تعذروني لأننـي سأقوم بعرضٍ لم يخطر ببالي أني سأقدمه في يومٍ من الأيام. طريقتي الفنية تعتمد على طبع أجساد النساء. لـيس بهـدف الإثارة طبعاً، ولكن لأن المرأة بالنسبة لي رمز للخصوبة... دوت القاعة بالتصفيق، فأحست النسوة الأكابر أنهن يحضـن بالألوان : لكن لظروف خاصة بكم انتم الشرقيون، حسب ما أفهمني صديقي... وأشار إلى الرئيس بجانبه : فإني سـأتخذ من صبي موديلاً هذه المرة... ندا عن البعض أفأفات وآهات وتنهدات : وسأترك لكم اللوحة هدية مني للأكاديمية، راجيـاً اعتبارها نموذجاً من فني ولكن ليس تعبيراً عنه... لم يصفق أحد عندها، وساد القاعة سكون كأنها بيت عـزاء، وغمـر الوجوه شحوب كأن أصحابه مثكلون.

أشار الرئيس لنبيلة فتقدمت مع الصبي الذي بدا عليـه التوجس والتردد. تأمل كلين نبيلة وهو يهز رأسـه ويقلـب شفتيه على طريقة النسوة الأكابر. أشار للصـبي بإصـبعه وتحول إلى علب الدهان. تساعد الرئيس ونبيلة فـي تجريـد

الصبي من ثيابه، لكنه تشبث بالكلسون ورفض نزعه. رغـم محاولات نبيلة إقناعه بينما الأصوات تنهـره مـن القاعـة يتخللها ضحكات وهمهمات. إشلح يا ولد. على ماذا تخاف.؟. انزعوه عنه غصباً عنه.. تساءل قسام بصوت مسموع : ماذا لو كان المطبوع امرأة.؟.. علّق خير : ولماذا تظـن جـاء الرجال.؟.. أعاد التعليق البهجة لوجه قسام.

حاول الرئيس نزع الكلسون بالقوة فتفلت الصبي وصار يتلوى. تدخل كلين الذي حمل ريشة عريضة مشبعة بـاللون الأخضر. هز يده طالبا من الجميع الابتعاد، فتقهقر الـرئيس ونبيلة إلى مقعديهما وظل الصبي والمترجم بجانب كلين.

أخذ يلونه من الأمام، ولما أغرقه باللون مـن صـدره حتى ركبتيه، متأففاً من الكلسون، طلب منه الانبطاح علـى بطنه فوق اللوح. أعاد ريشته للسطل وضغط بكلتا يديه فوق ظهر الصبي ثم ضغط على عجيزته وحركها يميناً ويسـاراً، فتنهدت معظم النساء. طلب منه الوقوف ولون ظهـره مـن الكتفين حتى خلف الركبة وطلب منه الاستلقاء على ظهـره بجانب الطبعة الأولى. شد على صدره وحركه قليلاً ثم على حوضه وفخذيه معلناً انتهاء الحاجة للموديل، فابتعد الصـبي



إلى جانب الجدار وهو غارق بالاخضرار وكأنه انتشل من حفرة امتصاصية.

حمل الأستاذان اللوح وأسنداه بشكل مائل على العارضتين بحيث أصبح سطحه يقابل الجمهور بطبعتيه الخضراوين. التقط كلين ريشة أصغر مقاساً. أغرقها باللون الأخضر واستوى أمام لوحته متأملاً. أشار عليها بالريشة وهو يسأل الجمهور : ماذا تعتقدون بأني سأسمي اللوحة.؟... ونقل المترجم قوله.

غمر القاعة سكون تام. فاستدار عنهم كلين متأملاً لوحته. هز رأسه بعد تفكر وقال : حياة الطفولة... نقل المترجم قوله بأعلى صوته وبأكثر ما يستطيع من الحماس، فدوى تصفيق المستكبرات وعلا الصفير والتهليل، وأشرقت تعابير الصبي.

ما أن هدأت الأصوات قليلاً مع تحول كلين للوحة وتحفزه للعمل بها، حتى استدارت الرؤوس نحو الصوت المحتد العالي الذي صرخ به خير : هذه ليست حياة الطفولة... التفت كلين إلى جهة الصوت : هذا موت للفن... أضاف خير.

استدارت الرؤوس نحو وجهتها الأولى ثم نحو خير ثـم نحو كلين، الذي سأل المترجم : ماذا قال.؟.

نقل المترجم نظره بين الرئيس وكلين وتلعـثم برمـاً، فكرر كلين سؤاله بغضب وهو يحرك شفتيه دوائر ويشد على أسنانه : ماذا قال.؟. تمتم له المترجم حرفية ما سمع.

ظهر الارتياح والبهجة واضحين في وجه نيكي، بينمـا انقبضت تعابير وجه كلين وهو يحدق بالوراء فاتحـاً عينيـه على اتساعهما. حرك أطراف أصابعه إلى داخل راحته وهو يقول لخير : تعال تعال.

تردد خير، لكن قسام حفّزه : روح له. لا تخاف.

تقدم خير عبر صفوف الجالسين الذين أبـدى بعضـهم امتعاضاً منه وقرفاً. لما وصل فسـحة العـرض ولاحظـت النسوة الأكابر الزنوبة في قدميه شـعرن بـالخزي والعـار وترحمت إحداهن على جلادي الحلاّج.

- إذن، هذا موت للفن.؟... ونقل المترجم ذلك لخير.

لم يجبه خير بل ظل يتفرس في وجهه كأنه متحفز لرد أي هجوم مباغت، وكانت دواخلـه مرتبكـة : أرنـا الفـن الحي.؟.

وقف الرئيس يريد التدخل. لجمه كلين برفـع راحتـه. فحط الرئيس في مقعده مخذولاً وكانت نبيلة تتمعن بخير.

أشار كلين للأستاذين فهرولا إليـه : قـدموا لـه مـا يحتاج... ونقل المترجم أوامره.

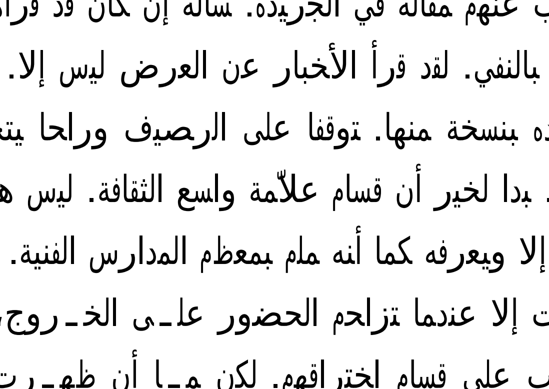
بسرعة جلبا حاملة برقعتها وضعاها أمام خيـر. أتـوه بعلب ألوان متنوعة وقربا منه سطل الريش. ابتسم الـبعض بسخرية وحملت وجوه آخرين شماتة ملحوظـة، وهمسـت أخريات متشفّيات. يستاهل. من يقرع الباب يسمع الجـواب. خلّيه يعرف يتطاول.

تذكر خير مسابقة الخط. لو فعلها الآن ورسـم دائـرة لخنقوه بها. تأمل الرقعة البيضاء للحظة وبدا متـردداً. ازداد ارتباكه وهو يتأمل الريش واختار واحدة قياس ٣. غمرهـا باللون الأخضر وهم بالرسم في اللوحة. لكنه أحجم فتعالـت الهمهمات بينما وقف كلين جانباً مكتفاً ذراعيه.

هم بتبديل الريشة عندما وقعت عيناه على الصبي فـي أقصى القاعة. تأمله للحظة، ونظرت إليه وجـوه الحضـور أيضاً. عاد بسرعة للوحة ورسم مخطط جسد. راحـت يـده تبدل الريش وتعبث بالألوان نحو نصف ساعة بينما الحضور

مشدودون إليه وهو ينتهي من رسم طفلٍ متمددٍ يذود بيـدين مذعورتين ريشة مدببة يسددها رجل إليه. كانـت الرسـمة أولية. لكنها معبرة. ولما انتهى منها، قال للمترجم : قل لـه، أن اسم اللوحة " قاتل الفنان ". نقل المترجم قوله لكلين الـذي لم يبد تأثراً. بل التفت للجمهور، وقال ساخراً وهـو يشـير للوحة : هذا ليس موتاً للفن. أنه جريمـة فنيـة... تعالـت الضحكات وصفق له الحضور. حتى الذين تعاطفوا مع خير لم يستطيعوا إلا المشاركة، بينما النسوة الأكابر يتفرسن بـه مثل قطط متوحشة جائعة. صرخ أحدهم : إطلع خلي الأستاذ يكمل... بينما كلين ينفض أصابعه قرفاً باتجـاه اللوحـة : خذوها من هنا...

استجاب الأستاذان على الفور وتحول كلين إلى لوحتـه بينما انسحب خير والنظرات تسحقه بسخريتها واسـتخفافها. ظل مواصلاً إلى الخارج، فتبعه قسام : هكذا جمهور يلزمه هكذا فنان... مشيراً بيده إلى الوراء. ظـل يشـتم الأجانـب وفنهم بينما غلب على خير الصمت. قدم له نفسه وأخبره أنه يعمل في الأكاديمية التي يديرها رئيس يظنها مزرعته. توقفا في الشارع، فأخبره قسام أنه فضح هؤلاء المـدعين بـالفن



وكتب عنهم مقالة في الجريدة. سأله إن كان قد قرأها، فأجاب خير بالنفي. لقد قرأ الأخبار عن العرض ليس إلا. وعـد أن يزوده بنسخة منها. توقفا على الرصيف وراحا يتحدثان عن الفن. بدا لخير أن قسام علاّمة واسع الثقافة. ليس هناك اسـم فني إلا ويعرفه كما أنه ملم بمعظم المدارس الفنية. لم يفطنـا للوقت إلا عندما تزاحم الحضور علـى الخـروج، وصـار صعب على قسام اختراقهم. لكن مـا أن ظهـرت النسـوة السافرات، حتى انشقت الأرض عن عدد من الشبان أذهلـوا خير وقسام بظهورهم المفاجىء وأرعبوهما وهـم يسـددون مسدسات زجاجية باتجاه النسـوة السـافرات ويمطـرونهن بالأسيد الذي أذاب ثيابهن وأحرق لحمهن فدب الذعر وتعالى الصراخ ودوى العويل والنحيب وتدافع الرجال هاربين غير مبالين بالنساء اللواتي كن سافرات فغدون شـبه عاريـات، وتحولن في لحظات قليلة من قطط متوحشـة سـافرة إلـى أرنبات مسلوخة هاربة، دون أن يأبه أحد لصراخهن او يعير انتباهاً لعريهن او يشفق على حروقهن ، بينما خيـر وقسـام وقد أدركا الموقف وابتعدا يراقبان بحبور ومسـرة المصـير الذي آل إليه الاستعراض. قال قسام وهو يراقـب المشـهد

مبتسماً : على رأي أرسطو فإن رؤية الأشياء المؤلمة فيهـا لذة نظرية مع أنها ليست تجربة جمالية... حماق بـه خيـر مأخوذاً، وقد هيئ له لحظتها أن قسام لـيس خبيـراً بـالفن فحسب وإنما فيلسوف أيضاً.

في اليوم التالي هاجمت الجرائد المعتدين على الأجسـاد الناعمة ووصفتهم بالمتزمتين الجهلة. كان الأولى أن يكـون الرد حضارياً كما فعل الشاب الموهوب الذي أثبـت أن فـي الأردن فنانين كباراً. لكن دائماً الافرنجي برنجـي. وأنحـت الجرائد باللائمة على رئيس الأكاديمية الذي نظم عرضاً كهذا يتعارض مع التقاليد العربية والقيم الإسلامية.

ارتبك مجلس الأمناء وشعر بالقلق المتحمسون للفنـون المنحطة وأصيب الرئيس بالهلع فلم يعد يباغت الأساتذة فـي القاعات او يغادر غرفة مكتبه إلا فـي أصـعب الحـالات، وصار ودوداً مع طاقم الكلية وحمد ربه أن نبيلة تخلت عـن زيارته وصارت تتجنب الالتقـاء بـه، وأدرك الأسـاتذة أن ملاطفته سببها الرعب من بطش المحـافظين والإسـلاميين فقويت شوكتهم عليه وصاروا يهاجمونـه ويعرضـون بـه، وجاهر قسام بمهاجمة الماسونية وشـتم الماسـونيين أمـام

الطلاب ومع نجلاء وعلى مسمع من عثمان الذي كان يتلقى كلامه بابتسامة صفراء ودونما تعليق. لم يتردد خلال زيارته لخير في محل ديكران عن التنديد أمـام العـاملين بـرئيس الأكاديمية المرتبط بالماسونية الكتومة كتمان جثث النعـوش والتي تضر بالمجتمع الذي تعتاش منه كما يضر السـرطان بالجسد الذي يحيا فيه. كما أغدق في قاعة التدريس بالمـديح على الولد الذي تصدى لهذه المسخرة مع التنويه أنه هو الذي شجع الولد على التقدم وتحدي كلين رغم احتجاج الجمهـور كافة، وبلا استثناء، ملمحاً بالاتهام لطاقم الكليـة وطلبتهـا. وكانت نبيلة تسمع له بانتباه ودون مقاطعة بعد أن فعل الأسيد فعله في نفسها، بالقدر الذي استحوذ عليها خيـر باحتجاجـه والإشارة إليه في الجرائد، وجرأته وهو يتقدم برثاثته وثقتـه بفرشاته ثقة المحترفين. تمنت لو تلتقي به بعدما أخذت بسحر عينيه أكثر مما أخذها رسم يديه. تقصت عنه من قسام الذي أنكر معرفته به او بعنوانه : وما أدراني. ولد من مجمـوع الأولاد الذين كانوا هناك.كل الشوشرة التي حصلت سببها أبو ماسون ا لا يجبره على هكذا فضيحة.

حتى يبرىء الرئيس نفسه من الاتهام ويعيد للأكاديميـة حشمتها بعدما اتهمت بخلع رداء الحياء، أقنع مجلس الأمناء، الذين هالهم ردة الفعل الرجعية، بالموافقة على اجراء مسابقة من أجل تصميم شعار تراثي للأكاديمية يعتمـد الزخـارف الإسلامية. نشر الإعلان بحجم كبير في الصفحات الأولـى من الجرائد كافة فتحول الهجوم إلى تأييـد واللعنـات إلـى مباركات. فأجريت مع الرئيس مقابلات عديدة صـرح فيهـا بأن الاشتراك في المسابقة يقتصر فقط على الأردنيين دعمـاً لفنهم الصاعد، وأن لجنة محايدة تمثـل المؤسسـات الفنيـة والثقافية ستقوم بالتحكيم، وسيمنح الفائز مئة دينـار ومنحـة دراسية في الأكاديمية، ويقدم لباقي المتسابقين هدايا مجزيـة وشهادات فخرية.

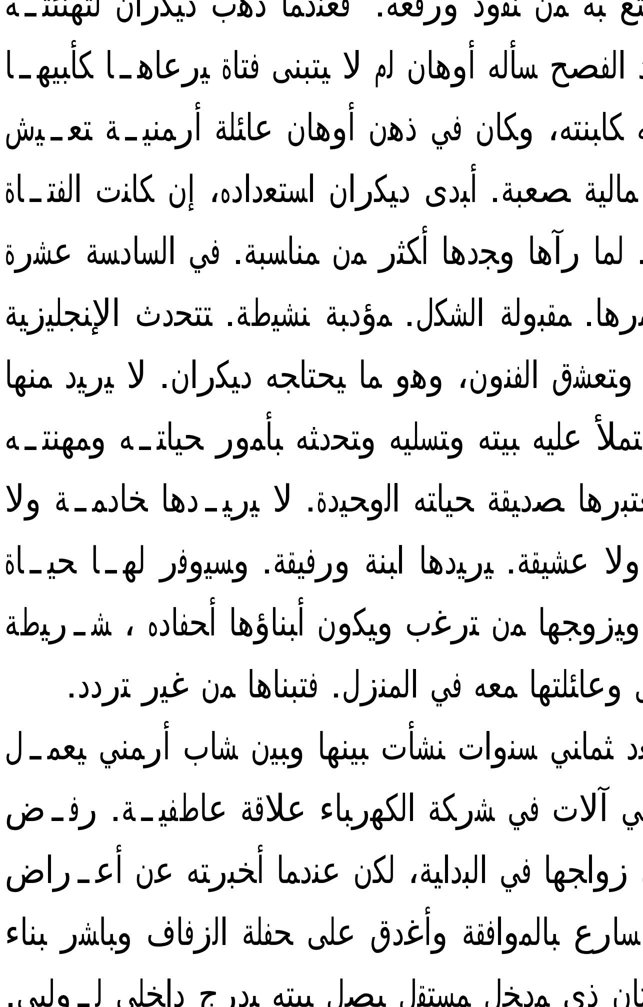
١٤

ترك ديكران المدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره. عمل في صناعة الكلاشيهات مع إحدى مطابع القدس. استغل معلمه موهبته الخطّية فصار يكلفه بتخطيط نماذج الكليشهات مما كان يزيده تمرساً ودراية إضافة إلى الدخل الإضافي الذي صار يحققه خارج المطبعة. بعد زواجه استقل بعمله الخاص في هذا المجال. تساعده زوجته الأرمنية التي لم يحالفها الحظ بالإنجاب، مما وفر لكليهما الوقت والجهد للاهتمام بأنفسهما وعملهما وتمضية وقت فراغهما بالقراءة والمطالعة والسياحة. زارا العديد من الدول الأجنبية وكانا مفتونين بالأعمال الفنية فمكنتهما إجادتهما للإنجليزية من الاطلاع على موسوعاتها الخاصة بفن الرسم والتخطيط واقتنيا الكثير من المؤلفات المصورة بهذا الشأن. كما اشتركا في العديد من المجلات المهنية والفنية التي كانت تأتيهما دورياً. اتخذا أمرهما على تبني طفلة بعد أن فقدا الأمل بتجاوزهما الأربعين. لكن قبل أن يبدءا سعيهما حملت زوجته، فكادا يطيران فرحاً، وظلا على اتفاقهما بتبني طفلة إن جاء المولود ذكراً. ضاعفا جهدهما المنزلي في التخطيط

وصنع الكليشهات لزيادة إيراداتهما من أجل الطفل المنتظر. أدى الإفراط في التعامل مع الدهان والرصاص إلى تسمم الزوجة وأسقطت وهي في الشهر الثالث. أصيبت بحالة اكتئاب شديدة تحولت سريعاً إلى يأس تام وحاولت الانتحار مراراً. لم تنفع معها المسكنات والمهدئات بل تفاقم وضعها يوماً بعد يوم وصارت تعامل زوجها بشراسة ولا تتوانى عن قذفه بأي أداة او ضرب رأسها بالجدار والتهديد بأن تذبحه وتذبح نفسها. جاب لها أكثر من خادمة لمراقبتها فحسب، وكن جميعاً يهربن من شراستها ومحاولتها الانتحار حيناً وقتلهن أحياناً. لم يكن أمامه إلا الذهاب بها إلى بيروت ووضعها في مصحٍ عقلي. خلال زياراته لها كان يتوقف في عمان. أعجبته المدينة الناشئة فاتخذ أمره على الانتقال إليها والبدء فيها بعملٍ خاص به.

كان الحصول على محل صغير في مركز المدينة يتطلب فروغاً لا يقل عن مئة دينار، فآثر استئجار محلٍ واسعٍ في منطقة العبدلي النائية، وكان عليه أن يصل إلى محله بركوب باص اللويبدة وعبور أرض وعرة تفصل بين موقع المحل وموقف الباص.

عانى شح الزبائن في البداية، لكن دعم الجالية الأرمنية، سواء بالتخطيط عنده او التوصية به او إرسال الزبائن إليـه، جعل محله من أبرز معالم العبدلي. بل عنواناً بريدياً للكثيـر من بيوت المنطقة. راجت أعماله واشتهر اسـمه وتحسـنت أحواله المعيشية، وكان من حين لحين يـزور زوجتـه فـي بيروت مطمئناً عليها ومتمنياً الخلاص له ولها. كان يشـعر بالحاجة للزواج المحظور عليه دينياً طالما زوجته على قيـد الحياة. فيطفىء حاجته في بيوت البغـاء، ومـع العشـيقات اللواتي صرن يطمعن بماله بعد أن كان يوقع بهـن شـبابه. ورغم أنه كان يغدق على هندمته وأناقته حتى يظـل بهيـاً نضراً، ويشغل نفسه حتى الإنهاك كي لا يحس بثقل الوقـت. إلا أنه لم يستطع أن يهزم الأيام التي توالت انتصاراتها فـي خبو همته وتغضن وجهه ومشيب شـعره، فصـار يحـس بالوحدة تحت وطأة السنين والحاجة إلى رفيق يؤنسه ويسلّيه. لمعت في رأسه يوماً الفكرة التي راودتـه وزوجتـه يومـاً، فاستولى عليه هاجس التبني. لكنه قبل أن يفصح عن رغبتـه للمقربين منه، جاءه العرض من الوجيه أوهان الـذي كـان يرعى شؤون الأرمن ويساعدهم في أعمالهم وتسهيل مهماتهم



لما يتمتع به من نفوذ ورفعة. فعندما ذهب ديكران لتهنئته في عيد الفصح سأله أوهان لم لا يتبنى فتاة يرعاها كأبيها وتخدمه كابنته، وكان في ذهن أوهان عائلة أرمنية تعيش أحوالاً مالية صعبة. أبدى ديكران استعداده، إن كانت الفتاة مناسبة. لما رآها وجدها أكثر من مناسبة. في السادسة عشرة من عمرها. مقبولة الشكل. مؤدبة نشيطة. تتحدث الإنجليزية بطلاقة وتعشق الفنون، وهو ما يحتاجه ديكران. لا يريد منها إلا أن تملأ عليه بيته وتسليه وتحدثه بأمور حياته ومهنته التي يعتبرها صديقة حياته الوحيدة. لا يريدها خادمة ولا زوجة ولا عشيقة. يريدها ابنة ورفيقة. وسيوفر لها حياة رغيدة ويزوجها من ترغب ويكون أبناؤها أحفاده ، شريطة أن تظل وعائلتها معه في المنزل. فتبناها من غير تردد.

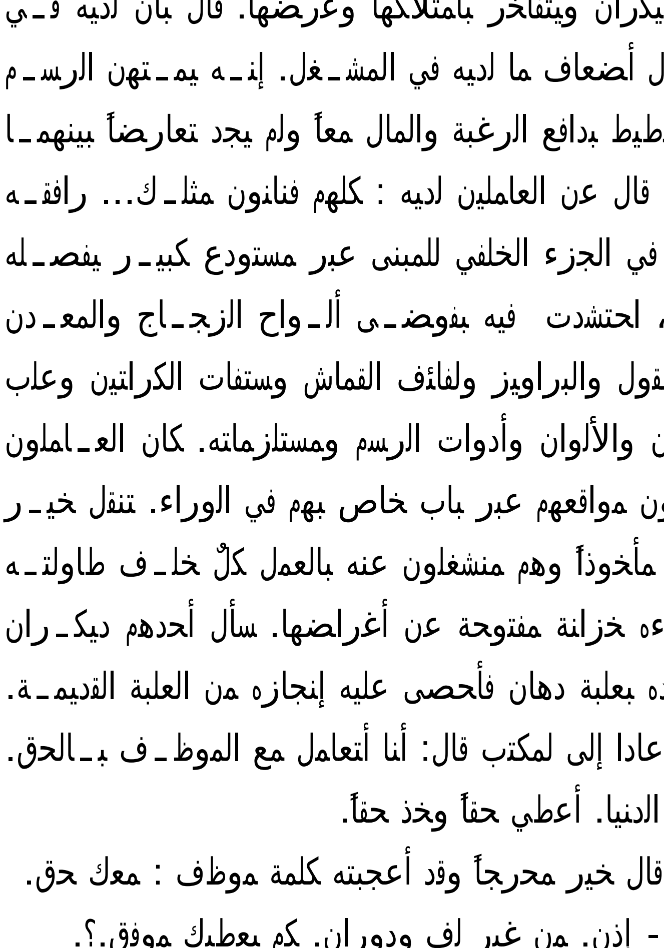
بعد ثماني سنوات نشأت بينها وبين شاب أرمني يعمل ميكانيكي آلات في شركة الكهرباء علاقة عاطفية. رفض ديكران زواجها في البداية، لكن عندما أخبرته عن أعراض الحمل سارع بالموافقة وأغدق على حفلة الزفاف وباشر بناء طابق ثان ذي مدخل مستقل يصل بيته بدرج داخلي لولبي. قبل ولادتها بأسبوع انتقلت وزوجها إليه ووضعت فيه

مولودها البكر جاكوب وفي السنة التاليـة وضـعت ابنتهـا نرمين. أولاهما ديكران محبته ورعايتـه وكأنهمـا طفـلاه، وأغدق عليهما منذ ولادتهما وحتى التحاقهما بمدرسة خاصة تستوفي أعلى رسومٍ مدرسية في البلاد وتتيح لتلاميذها أجواء اجتماعية لا مثيل لها إلا في المدارس الأوروبية. ومع أنـه على أبواب الستين إلا أنه كـان يتـأنق كالفتيـان ويتهنـدم كالشباب. يغير كل يومٍ ثيابه ويأتي إلى المشغل حالق الـذقن مسرح الشعر يعبق منه عبير العطور الفاخرة التي لا يطغى عليها إلا رائحة السيجار الذي يدخنه باستمتاع واستكبار.

لم يكن يأنف أي عمل يتعلق بمهنته ولا يرد زبوناً ، إلا عندما يتعلق الأمر بالأجر. فهـو لا يـبخس ولا يغـالي ولا يساوم على أجره. ولما كان يعمل بالممنوعات، شأن موفق، فقد صارا يتعاونان. هذا يرسل له الراغبين بتخطيط اللافتات والشعارات المحظورة. وذاك يرسل لـه الـراغبين بنسـخ الكتب الممنوعة. وكان الشيوعيون أهم زبائنهمـا فـي هـذا المجال.

لما ابتدأ خير تخطيط الآرمات الصغيرة، المعدنية منهـا والزجاجية، لحساب موفق أولاً ولحسابه الخاص بعد ذلـك،

لم يكترث ديكران في البداية. لكن عندما أخذ زبائنه يلحـون في مساومته وهم يقارنون أتعابه بالأجر الذهيد الذي يطلبـه موفق، أحس بالتهديد. قد تنمو الرقع الصغيرة وتكبـر مـع الأيام، فذهب إلى موفق ليحسم الأمر. لا يريد منـه زبـائن لافتات ولن يرسل له زبائن منسوخات. أخبره موفق أنـه لا يقصد منافسته على الإطلاق، فالتخطيط لم يكن ولن يكـون جزءاً من عمله، لكنه لا يستطيع أن يحـول دون أن يكسـب خير نقوداً إضافية. صعد ديكران إلى السدة بدافع الفضـول ليعقد الذهول لسانه. ليس كمثله أحد يفهم بالتخطيط ويعـرف بالألوان. تأمل اصابع خير المتمكنة من القلم تمكـن جـراح ماهر دقيق. لم تحمله ساقاه وهـو يسـتعرض الرسـومات والخطيات، فتهاوى فوق أقرب ستفة كتب، وقال لخير : مـا الذي يجعلك تقعد هنا... دعاه لزيارته في المحل، فذهب إليه خير مشياً على الأقدام. هاله اتساع المحل واشـتماله علـى أدوات الرسم والتخطيط من مختلف الأحجام والأنواع. قـال في نفسه، في داخل ديكران يعيش فنان. مكتبه فـي واجهـة المحـل يعـج بـالمجلات الأجنبيـة والكتـب والمجلـدات والمصورات وخرائط ورسومات تخطيطية ولوحات، يعتـز



بها ديكران ويتفاخر بامتلاكها وعرضها. قال بأن لديه فـي المنزل أضعاف ما لديه في المشـغل. إنـه يمـتهن الرسـم والتخطيط بدافع الرغبة والمال معاً ولم يجد تعارضاً بينهمـا للآن. قال عن العاملين لديه : كلهم فنانون مثلـك... رافقـه إليهم في الجزء الخلفي للمبنى عبر مستودع كبيـر يفصـله عنهم، احتشدت فيه بفوضـى ألـواح الزجـاج والمعـدن المصقول والبراويز ولفائف القماش وستفات الكراتين وعلب الدهان والألوان وأدوات الرسم ومستلزماته. كان العـاملون يصلون مواقعهم عبر باب خاص بهم في الوراء. تنقل خيـر بينهم مأخوذاً وهم منشغلون عنه بالعمل كلٌ خلـف طاولتـه ووراءه خزانة مفتوحة عن أغراضها. سأل أحدهم ديكـران تزويده بعلبة دهان فأحصى عليه إنجازه من العلبة القديمـة. ولما عادا إلى لمكتب قال: أنا أتعامل مع الموظـف بـالحق. هكذا الدنيا. أعطي حقاً وخذ حقاً.

قال خير محرجاً وقد أعجبته كلمة موظف : معك حق.

- إذن. من غير لفٍ ودوران. كم يعطيك موفق.؟.

اتفق معه على ثمانية عشردينار في الشـهر علـى أن يعمل من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساء، وان يتأخر اذا

اضطره العمل لذلك. ومنذ اليـوم الأول جهـز لـه طاولـة عريضة وخزانة لأغراضه. لم يكن بحاجة إلى تدريب علـى طبيعة العمل ولا إلى تمرس على استخدام الـدهان الـذي لا يحتاج حرصاً ودراية كالألوان الزيتية، كمـا كانـت علـب الدهان في المستودع تشتمل على معظم الألوان. كان ديكران إضافة إلى مهنته الرئيسة في التخطيط، تاجر دهانات أيضاً.

كان العمل في المحل مضنياً، فالطلبات كثيرة والزبـائن مستعجلون دائماً، ولم يكن ديكران يعمـل بيـده إلا لزبـائن معينين يحب أن يوليهم عنايته، او عندما تتطلب المهمة دقـة في رسم الصور والشعارات.

بعد التحاق خير بالعمل، تولى عنه هذه المهمة فأثبـت جدارته وتفوقه عليه، وكانت مكافأة ديكـران، تزويـده بمـا يتوافر لديه من مجلات وكتب عن الفن والرسم والتخطـيط، استعارها خير بالتعاقب مقبلاً على قراءتها بنهم وفضول دون أن يثنيه ذلك عن مواصلة القراءة للمواضيع الأخـرى فـي التاريخ والأدب والفلسفة، بعد أن تحول من عاملٍ عند موفق إلى زبون لديه، يطل عليه من حين لحين. ينضم إلى جلسائه في الحديث عن الأدب والفن والسياسة، ويستمع له وهو يقرأ

الشعر بصوته الرخيم. في التسـوية يرسـم او يخطـط إن استطاع، وإلا فيقرأ على ضوء الشموع إلـى أن تسـتدعيه الأحلام.

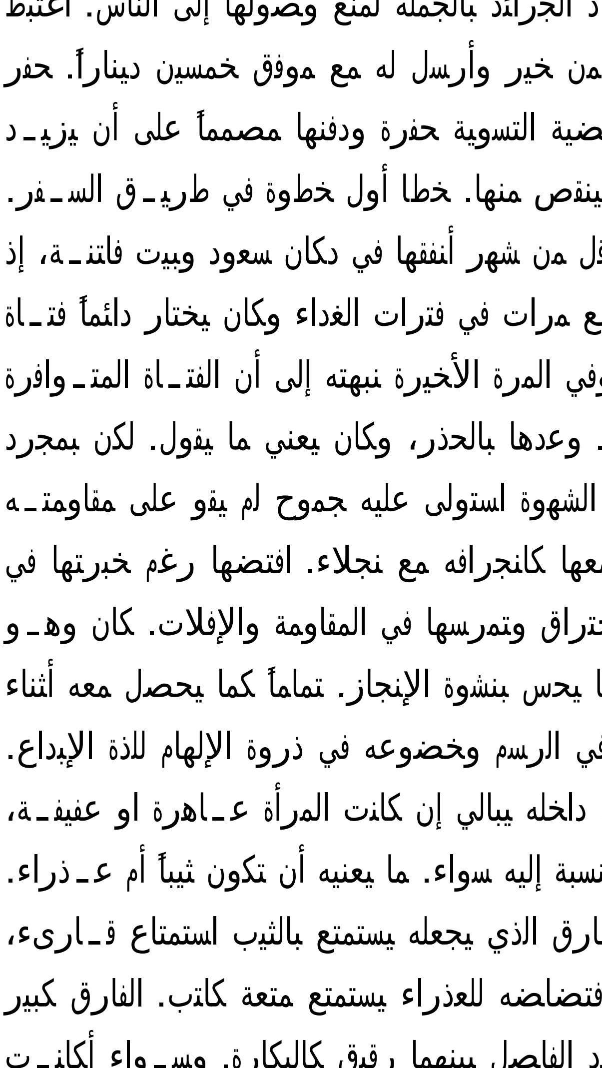
مذ نجح في المترك تراجع خوفه من أبيه فلم يعد يغادر التسوية خلسة كالسابق وإن ظل يأتيها متأخراً في الليل. كما أنه لم يعد يغادرها يوم الجمعة، فيقضي عطلته الأسبوعية في الرسم والتلوين. وكان أبوه يحس في دواخله بـالحرج كلمـا بارك له أحد بنجاح خير فيرد بجفاء واقتضاب. دفعه حرجه إلى تجنب الإغارة على التسوية قدر ما تسمح له أعصـابه. وإن ظل يتوعد أمام نذير إن عرف أن أحداً زار التسوية او استخدمها خير لغير المبيت. وكان خير يعي ذلـك، فيظـل متوجساً كلما كان يزوره رفاق الشلة خلسة.

لما جاءه نجم يخبره عن اعتقال حسن، قضى ليلة مثقلة بالكوابيس. وفي اليوم التالي زاره في الإصلاحية، وواظـب على زيارته مع نجم صباح كل جمعة. بعد نقل حسـن إلـى سجن المحطة، زاره مرتين. ثم حذا حذو هاني مكتفياً بإرسال نقودٍ وأغراضٍ له مع نجم الذي جاءه يوماً برسالة شفهية من حسن : يقول لك أن تذهب عنده. هناك أريح لك من التسوية.

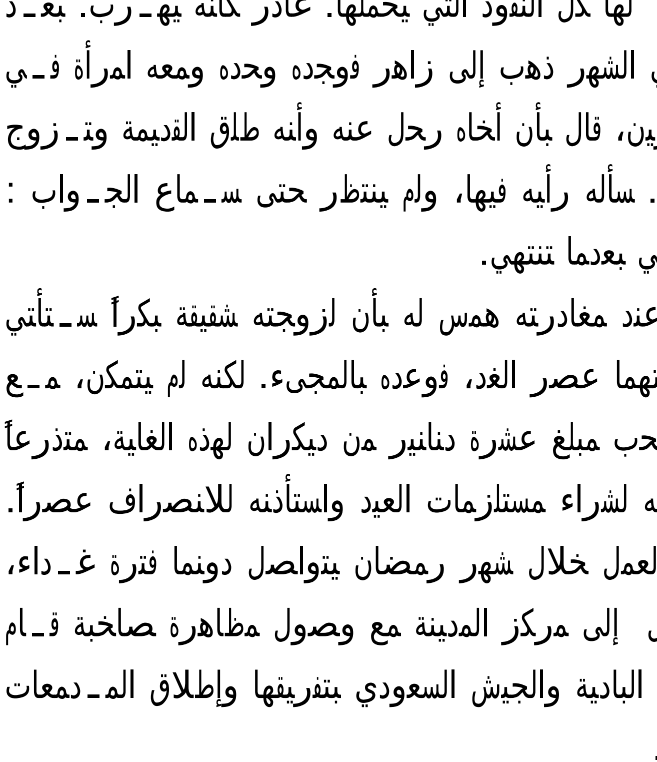
رد خير بسخرية : لينتظر ريثما أنتهي من لوحة الأذن المقطوعة...حركت سخريته مخيلته، فرسم في التسوية وجهاً بلا أذنين يشبه في تقاسيمه وجه أبيه.

غمره شعور فياض بالمسرة ، عندما جاء موفـق إلـى المشغل . لكنه عندما تولى عنه وانفرد بديكران، انتابه شعور بالإحباط. وبعدما غادر دون أن يودعه أحس تجاهه بنفـور أقرب إلى الكره. لاحظ ديكران امتعاضه وهو يخبـره عـن الجدارية الكبيرة التي أوكله موفق برسـمها. تولياهـا معـاً وتولى الآخرون تخطيط اللافتات المؤيدة لحملة أبـي يحيـى الانتخابية.

قبل أن يتم إنجاز الرسمة جاء موفـق بزيـارة ثانيـة للاطلاع على سير العمل وأسر لخير بأنه ينتظره في المكتبة مساء. عندما جاءه، طلب منه وضع تصاميم إعلانية ورسوم كاريكاترية تعزيزاً للحملة الانتخابيـة، وإن يضـمنها قـدر استطاعته تعريضاً بمنافسي أبـي يحيـى مـن الشـيوعيين والإسلاميين، لكن بشكل غير مباشـر. أعطـت رسـوماته مفعولها في الصحف والمجلات، إذ رد المنافسون برسومات مضادة أثارت الاستخفاف والسخرية، ولم يكـن أمـامهم إلا



شراء أعداد الجرائد بالجملة لمنع وصولها إلى الناس. اغتبط أبو يحيى من خير وأرسل له مع موفق خمسين ديناراً. حفر لها في أرضية التسوية حفرة ودفنها مصمماً على أن يزيـد عليها ولا ينقص منها. خطا أول خطوة في طريـق السـفر. لكنه قبل أقل من شهر أنفقها في دكان سعود وبيت فاتنـة، إذ زارها بضع مرات في فترات الغداء وكان يختار دائماً فتـاة صغيرة، وفي المرة الأخيرة نبهته إلى أن الفتـاة المتـوافرة لديها بكراً. وعدها بالحذر، وكان يعني ما يقول. لكن بمجرد أن جرفته الشهوة استولى عليه جموح لم يقو على مقاومتـه فانجرف معها كانجرافه مع نجلاء. افتضها رغم خبرتها في تجنب الاختراق وتمرسها في المقاومة والإفلات. كان وهـو يتمكن منها يحس بنشوة الإنجاز. تماماً كما يحصل معه أثناء استغراقه في الرسم وخضوعه في ذروة الإلهام للذة الإبداع. لم يكن في داخله يبالي إن كانت المرأة عـاهرة او عفيفـة، فالنساء بالنسبة إليه سواء. ما يعنيه أن تكون ثيباً أم عـذراء. هذا هو الفارق الذي يجعله يستمتع بالثيب استمتاع قـارىء، بينما في افتضاضه للعذراء يستمتع متعة كاتب. الفارق كبير مع ان الحد الفاصل بينهما رقيق كالبكارة. وسـواء أكانـت



الفتاة صادقة أم محتالة، وسواء أكان انجرافه بسبب اهتياجه أم استدراجها، فإنه لم يرد على تأنيب فاتنة وتوبيخها وهو يرمي لها كل النقود التي يحملها. غادر كأنه يهرب. بعد حوالي الشهر ذهب إلى زاهر فوجده وحده ومعه امرأة في العشرين، قال بأن أخاه رحل عنه وأنه طلق القديمة وتزوج جديدة. سأله رأيه فيها، ولم ينتظر حتى سماع الجواب : اخبرني بعدما تنتهي.

عند مغادرته همس له بأن لزوجته شقيقة بكراً ستأتي لزيارتهما عصر الغد، فوعده بالمجيء. لكنه لم يتمكن، مع أنه سحب مبلغ عشرة دنانير من ديكران لهذه الغاية، متذرعاً بحاجته لشراء مستلزمات العيد واستأذنه للانصراف عصراً. كان العمل خلال شهر رمضان يتواصل دونما فترة غداء، فوصل إلى مركز المدينة مع وصول مظاهرة صاخبة قام رجال البادية والجيش السعودي بتفريقها وإطلاق المدمعات عليها.

تذكر حسن والأذن المقطوعة، عندما قبض أحد جنود البادية بكل يده على أذنه وسحبه منها بعنف بينما الجنود الآخرون ينهالون على ظهره بالعصي والخيزرانات وهم

يدفعونه إلى اللاندروفر مع المتـورطين والبـريئين. فـي المخفر عجز عن إثبات هويته فأوقف في سـجن المحطـة. التقى بحسن الذي ظل يضحك منه طيلة الليل، بينمـا خيـر يتهمه بأنه فول عليه.

لما أفرج عنه صباح يوم العيد، لم يدر أين يذهب، وكان يرغب في أن يروي لكل الناس ما جرى معه. ذهب لـنجم الذي ظن أنه قادم لمعايدته، فضحك أكثر من حسـن وهـو يستمع لقصة اعتقاله. ثم زار ديكران في بيته وأخبـره عـن سبب تغيبه، فعلّق ديكران قائلاً : من يريد العيش هنا عليه أن يقبل كل شيء هنا... نالت من عواطفه معاملة ديكران لابني متبناته وحنوه عليهما حنوه على رضيعين رغم تجاوزهمـا العاشرة من عمرهما. يخاطبه كلاهما بالانجليزية باسم جدي، ويخاطبهما بالانجليزية، صغيري جاكوب وعزيزتي نرمين، التي على صغر سنّها كانت تخلب الألباب.

حركت الزيارة في نفسه حاجة ملحاحة لعائلة. صـغيرة كبيرة لا يهم. غنية فقيرة لا يهم. إن شاء ا نـوراً. المهـم عائلة. عرج على بعض زملاء المشغل ممن يعرف مساكنهم ليعيد قصته على كلٍ منهم. كان يتمنى أن يجد شخصاً واحداً

افتقده خلال الأيام التي أوقف فيها مثلما تفتقد العوائل ابناءها الغائبين.

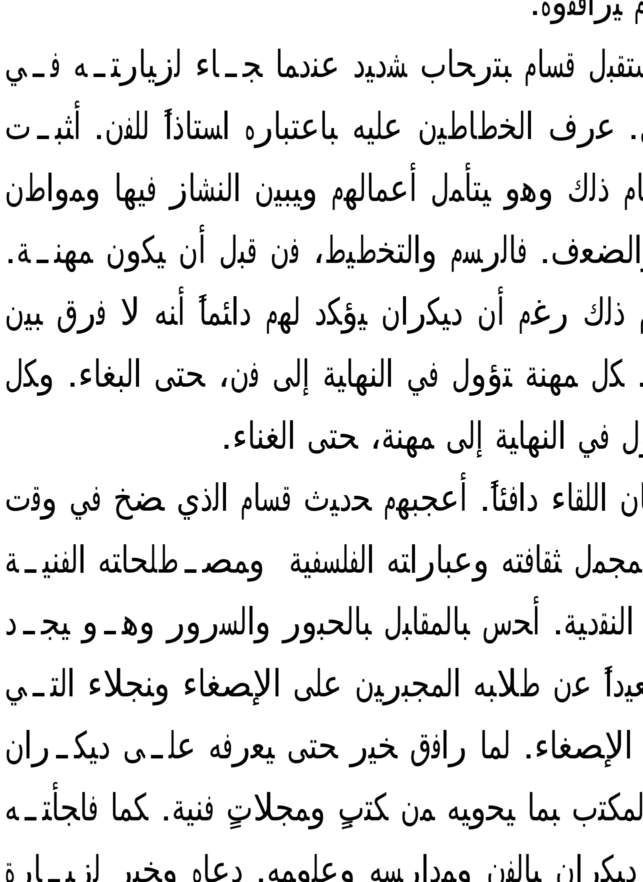
تنقل بين فنادق السلسلة سائلاً عن هاني متوجساً من لقاء أبيه. قيل له بأنه قد يكون في المبنى الجديد، فقرر أن يتـرك له رسالة لولا أنه فوجىء بمجيئه. اخبره عـن عملـه مـع ديكران، ولما أخبره عن اعتقاله، جلجل هاني مقهقهـاً فقـال خير باستياء : لم يبق سوى يحيى لم يضحك... نقل له رسالة من حسن، فبدت الحيرة في وجه هـاني وقـال متشـككاً : سأشوف...لكن خير حثه بحزم : بل سـتخبر أبـاك الليلـة. اعتبرها خدمة لي ولحسن وللشلة.

في طريق عودته إلى الجوفة قادته قدماه دون وعي إلى بيت موفق. فتحت له تغريد الباب. نظرت إليه بريبـة وقـد ظنته متسولاً. لم تكن قد التقت به خلال عملـه فـي سـدة المكتبة. سأل عن موفق فنقلت نظرها بين شـعره الأشـعث وزنوبته البالية. زيارته فاجأت موفق فاستقبله بفـرح غـامر وعانقه بحرارة فتحولت ريبة تغريد إلى استغراب. أخبرهـا موفق أنه الخطاط الذي كان يعمل معه. لم يحسن ذلك مـن صورته أمامها. كان الأمر مختلفاً بالنسبة لأمها التي لم تبال

برثاثته بل بإصغائه وهو يستمع لها بانتباه عن أيام زمـان. نسي قصة توقيفه بعدما ملأت قلبه بالدفء وهي تقول له من حين لحين : سامع يا ابني... لما سألته عن عائلته، قال إنهـا بخير. فنظر إليه موفق بإيثار وغير مجرى الحديث. لكن ذلك لم ينسه مرارته. آب إلى التسوية وهو يتمنى أن تطل عليـه أمه من النافذة او يطل عليه الجيران. لا يريدهم أن يعايـدوه فهو لم يحس يوماً ببهجة العيد، بل يرغب في أن يسألوه أين كان قبل العيد.

في الأيام التالية نسي أمر المعايدات والعائلة والتوقيف وأمضى الوقت بالنوم نهاراً والسهر ليلاً في دكان سعود. لما عاود الدوام في المشغل، اسـتعاد نشـاطه، منتبهـاً لعملـه ومستغلاً عطلة الجمعة الأسبوعية بترجمة الأفكار التي تواتيه إلى ألوان، ورسم الأحلام والخيالات، وكلما راجـع أنموذجـة لوحة الاستعراض للبدء بها يختلق لنفسه عذراً لتأجيلهـا او يعدل فيها او يغيرها او يلغيها. كان يحـس بالرهبـة منهـا والتردد في الإقدام عليها. وكأنه سيدلي باعترافاته.

عندما أخبر ديكران موظفيه عن عرض ديزان وكلين، لم يتشجعوا للذهاب، لكن شيئاً ما دفع خير للعـروج علـى



الأكاديمية في جبل اللويبدة، ولما أخبر فـي اليـوم التـالي زملاءه عما جرى هناك، حمدوا ا أنهم لم يـذهبوا، لكـنهم عندما قرأوا الخبر في الجريدة متضمناً الإشارة لخير نـدموا لأنهم لم يرافقوه.

استقبل قسام بترحاب شديد عندما جـاء لزيارتـه فـي المشغل. عرف الخطاطين عليه باعتباره استاذاً للفن. أثبـت لهم قسام ذلك وهو يتأمل أعمالهم ويبين النشاز فيها ومواطن القوة والضعف. فالرسم والتخطيط، فن قبل أن يكون مهنـة. أعجبهم ذلك رغم أن ديكران يؤكد لهم دائماً أنه لا فرق بين الاثنين. كل مهنة تؤول في النهاية إلى فن، حتى البغاء. وكل فنٍ يؤول في النهاية إلى مهنة، حتى الغناء.

كان اللقاء دافئاً. أعجبهم حديث قسام الذي ضخ في وقت قصير مجمل ثقافته وعباراته الفلسفية ومصـطلحاته الفنيـة وآراءه النقدية. أحس بالمقابل بالحبور والسرور وهـو يجـد نفسه بعيداً عن طلابه المجبرين على الإصغاء ونجلاء التـي ترفض الإصغاء. لما رافق خير حتى يعرفه علـى ديكـران أذهله المكتب بما يحويه من كتبٍ ومجلاتٍ فنية. كما فاجأتـه معرفة ديكران بالفن ومدارسه وعلومه. دعاه وخير لزيـارة

مرسمه فوعده ديكران مجاملة. بينما انتظـر خيـر مجـيء الخميس بفارغ الصبر، حتى ينصرف باكراً ويتجه من فوره لشارع المصاروة.

لم يكن الاستدلال على بيت قسام صعباً. فكل الصـبية يعرفون الأستاذ، وكان وصف قسام دقيقـاً. هـبط النـزول وانحرف في أول دخلة نحو الحوش ثم ارتقى الدرج وولـج الباب المفتوح. تقدم مأخوذاً قبل أن ينتبه لقسام الذي اسـتعد للقائه فارتدى أفرهولاً متلطخاً بالألوان وبإحدى يديه ملونـة وبالأخرى ريشة يعمل بها فوق رقعة قماشـية مثبتـة فـوق حامل خشبي. شعر بالحبور وهـو يراقـب انبهـار خيـر باللوحات المنبسطة على الأرض والمعلقة على الجدران. كان المرسم حقيقياً واللوحات حقيقية وأكثر ما لفت انتباهه نسـخ العاريات تتوسطها لوحة التلميذ لفان غـوغ. فتنتـه لوحـة الزيارة، فوقف أمامها مشدوهاً معقود اللسان.سـأله قسـام : أعجبتك.؟.

أشار لها خير وهو يتمتم متلعثماً : من رسمها.؟..

قال قسام باستعلاء : دلفو. بول دلفو. ألم تسمع به.؟.

انتفض فم خير وومض وجهه بالاستحياء فهـز رأسـه إيجاباً دون أن تتحول عيناه عن اللوحة وهـو يحملـق بهـا مأخوذاً متذكراً لحظة اقتحامه البيت على أم فؤاد.

- لم تر شيئاً بعد. عندي تحت أجمل منها بكثير.

١٥

عند توقيفه طلب حسن من أهله مبلغاً من المال أنقـدوه إياه في اليوم التالي واستمروا في موافاته بكل ما يطلب مـن نقودٍ وأغراض. فتوافر له مع ما يصله من خير وهاني مبالغ محترمة مكنته من الصرف على عدد من الأحداث اجتمعـوا حوله. يأكلون من طعامه ويدخنون من سـجائره ويجنبونـه المواجهة او يتلقونها عنه، فعوضه ذلك عن الشبرية التي من دونها يحس أن عورته مكشوفة. هرب نجم له سكيناً خبأهـا في صحن أرز، إلا أنها ضبطت وصودرت. حثه علـى أن يجد طريقة لإيصال أي قطعة حادة مهما كان حجمهـا لكـن نجم لم يفلح . ظل متوجساً من عتاة السجن الذي سينقل إليـه بعد حين. لن تكفيه أضعاف النقود التي تصله فـي تجنـب الأشرار منهم. زادت القصص التي يرويها له الأحداث مـن توجسه، وفي الوقت نفسه أعطته فكرة عن السجن وضـيقه واكتظاظه وقذارته وعن السجناء وطقوسهم وإذلال السجانين لهم وظلمهم لبعضهم. أطلق شاربيه وشـدد علـى أهلـه أن يوصوا عليه إدارة السجن وإن يلحقوا به حال انتقاله جـالبين قدر استطاعتهم من الأطعمة والسجائر ولو تطلـب الأمـر

الحصول على تصريح بذلك من مكتب النائب العام. سيكون انتقاله يوم عيد ميلاده.

بعد صدور الحكم امتلأ غيظاً وغضباً. لم تهدأ حالته إلا عندما عرض عليه حدث نصل سكين صغيرة اشتراها منه بربع دينار. ظل يبردها يومياً على جدار الحمام حتى غدت قاطعة كسكين الكندرجية. خبأها في نعل حذائه عندما أبلغ بالنقل إلى السجن. ولم يكن تفتيش المنقولين بين السجون والتدقيق على أغراضهم بمثل الصرامة التي يتعرض لها السجناء الجدد، فنجا بقطاعته.

ولج القاووش حاملاً يطأه وأكياسه. التفت إلى الباب ينقفل من خلفه ثم أدار نظره سريعاً بين السجناء الذين توزعوا في مجموعات وأعينهم شاخصة به. حطت نظراته على مجموعة في الصدر تحيط برجلٍ بدين صلب القسمات في وجهه ندبة بينما تحفزت تعابير باقي السجناء. أرخى يطأه وصفيحته وأكياسه واتجه للبدين واثق الخطى بينما النظرات تتابعه وهو يبادره : مرحباً أبا شعبان.؟.

أخذت المبادرة أبا شعبان، فرد بجفاء : أهلاً...أضاف : لماذا أحضروك.؟.

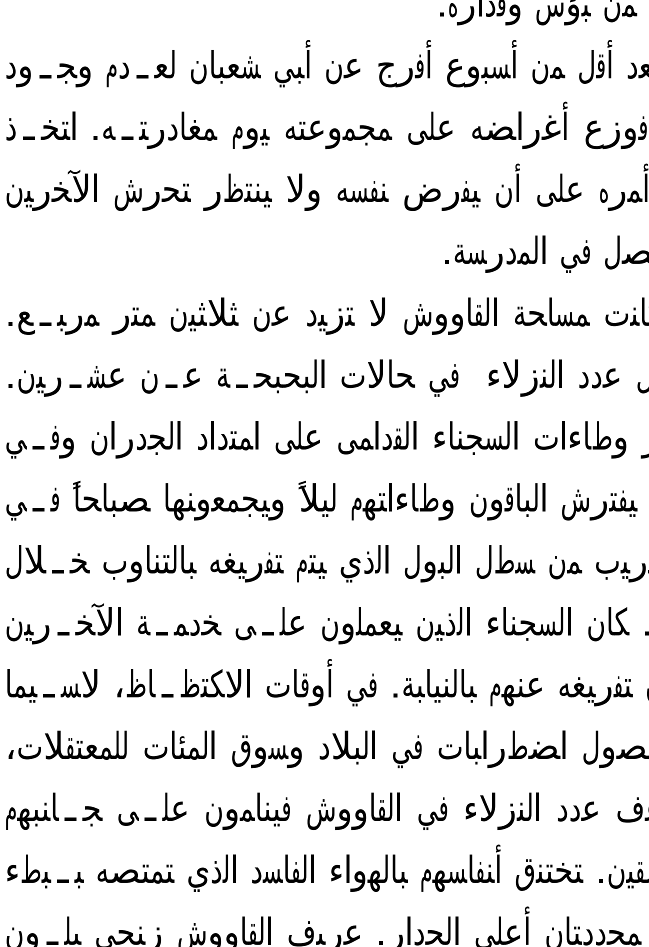
- إيه... قال حسن وأشار بيده لأحد الجالسين فانزاح له وجلس مكانه : ضربة شبرية... أخرج علبة سـجائره ووزع على الجميع. أشعل لنفسه ولم يشعل للآخرين. سحب منهـا سحبتين وهو يدير نظره بالقاووش. هم أبو شعبان أن يسـأله أين التقاه، فانفتح الباب ونودي عليه فتذكره. تـذكر أيضـاً سخريته ورفيقه به، فقرر تطفيشه بمجرد عودته. عدل عـن ذاك عندما جاء سجين يخدم في الخارج حاملاً علـى رأسـه طرحة كبيرة معرمة بالأطعمة يتبعه حسن وهو يشـير إلـى أمام أبي شعبان. وناول السجين عشرة قروش.

أقبلت المجموعة على الأكل بنهم وشراهة، بينما حسـن يأكل بروية، ولما تناول أبو شعبان لقمة كبيرة سأله حسـن : هل أغلقوا لك المحششة نهائياً.؟.

نظرت الأعين نحو أبي شعبان الذي قال وفمه منفـوخ باللقمة : لا أحد يستطيع إغلاقها. سـأعيد فتحهـا بمجـرد الإفراج عني بعد يومين او ثلاث... أضاف بعـد ابتلاعـه اللقمة : التهمة كلها باطلة. لم يضبطوا عندي شيئاً.

في الفسحة الخارجيـة التـي تتـوزع فيهـا أبـواب القوواويش، يبيع سجناء التأبيدة السجائر والقهـوة والشـاي

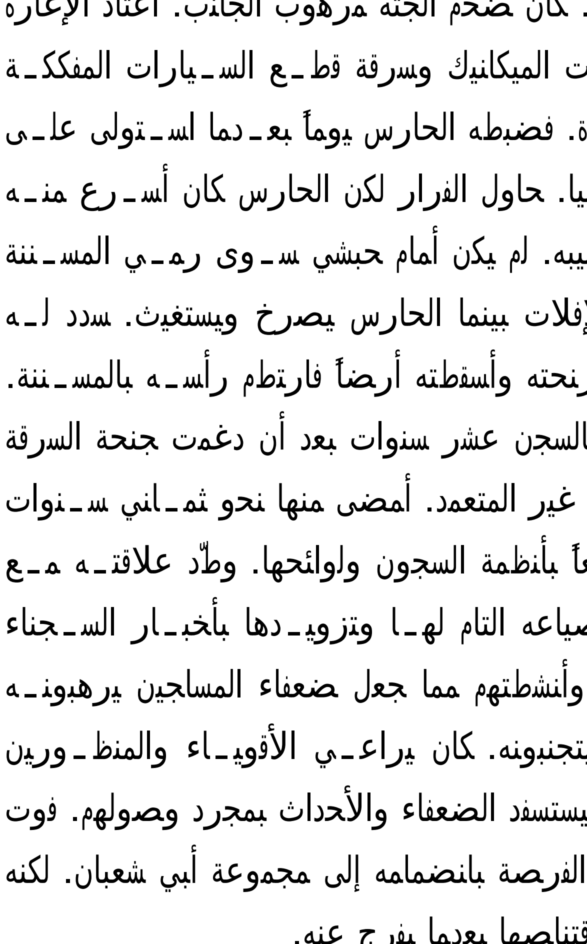
ويحافظون على سقاية نباتات الريحان المزروعة في تنكـات وعلب موزعة أمام الأبواب الحديدية ويساعدون الحراس في توزيع الأكل على المساجين ثلاث مرات يوميـاً فيتهـافتون عليه رغم قرفهم واشمئزازهم من شكله ورائحتـه وطعمـه. مما جعل الكثيرين ينظرون بحسدٍ وغيرة للمحظيـين الـذين يأتيهم الأكل من الخارج أمثال حسن. فغدا مرغوبـاً بـين مجموعة أبي شعبان ومكروهاً من الآخرين الذين لا ينـالون من أطعمته سوى الفتات. فنقم عليه معظمهم وبخاصة عريف القاووش. إلا أن رهبتهم من أبي شعبان ذائع الصيت حالـت دون تحرشهم به وأنقذه من استغفال الآخرين له او اقتناصهم لأغراضه. استخدم، خلال الأيام التـي قضـاها فـي كنفـه وحمايته سجيناً لقاء عشرة قروش يومياً للقيام بخدمته ولملمة الفراش ونفضه من القمل المعشش فيه. والأهم، تفريغ سطل البول كلما جاء الدور عليه. لم يستطع التبـرز كـالآخرين وكشف نفسه أمامهم والتفحيج معهم فوق قنـاة المـاء التـي يتبرزون فيها جماعات أثناء الفورة. رتب له أبو شـعبان أن يستخدم مرحاض المستشفى. جنبه بذلك الحرج من المساجين الذين كانوا يتوقون لرؤية قفاه الأبيض، حتى وإن كان يتبرز.



أكثر ما كان يغيظه، إجبارية الصلاة في مواعيدها على ما هم فيه من بؤس وقذارة.

بعد أقل من أسبوع أفرج عن أبي شعبان لعدم وجود دليل، فوزع أغراضه على مجموعته يوم مغادرته. اتخذ حسن أمره على أن يفرض نفسه ولا ينتظر تحرش الآخرين كما حصل في المدرسة.

كانت مساحة القاووش لا تزيد عن ثلاثين متر مربع. ولا يقل عدد النزلاء في حالات البحبحة عن عشرين. تتجاور وطاءات السجناء القدامى على امتداد الجدران وفي الوسط يفترش الباقون وطاءاتهم ليلاً ويجمعونها صباحاً في ركن قريب من سطل البول الذي يتم تفريغه بالتناوب خلال الفورة. كان السجناء الذين يعملون على خدمة الآخرين يتولون تفريغه عنهم بالنيابة. في أوقات الاكتظاظ، لاسيما عند حصول اضطرابات في البلاد وسوق المئات للمعتقلات، يتضاعف عدد النزلاء في القاووش فينامون على جانبهم متلاصقين. تختنق أنفاسهم بالهواء الفاسد الذي تمتصه ببطء كوتان محددتان أعلى الجدار. عريف القاووش زنجي بلون الكاكاو يدعى حبشي ينظم أمور السجناء من نومٍ وتوزيع



للأكل وفض المنازعات بمعاضدة مجموعة توآزره وتقوم على خدمته. كان ضخم الجثة مرهوب الجانب. اعتاد الإغارة على كراجات الميكانيك وسرقة قطع السيارات المفككة وبيعها خردة. فضبطه الحارس يوماً بعدما استولى على مسننة كرونيا. حاول الفرار لكن الحارس كان أسرع منه فأمسك بتلابيبه. لم يكن أمام حبشي سوى رمي المسننة ومحاولة الإفلات بينما الحارس يصرخ ويستغيث. سدد له لكمة قوية رنحته وأسقطته أرضاً فارتطم رأسه بالمسننة. حكم عليه بالسجن عشر سنوات بعد أن دغمت جنحة السرقة بجناية القتل غير المتعمد. أمضى منها نحو ثماني سنوات جعلته ضليعاً بأنظمة السجون ولوائحها. وطّد علاقته مع الإدارة بانصياعه التام لها وتزويدها بأخبار السجناء وتحركاتهم وأنشطتهم مما جعل ضعفاء المساجين يرهبونه وأقوياءهم يتجنبونه. كان يراعي الأقوياء والمنظورين والأغنياء ويستبد الضعفاء والأحداث بمجرد وصولهم. فوت حسن عليه الفرصة بانضمامه إلى مجموعة أبي شعبان. لكنه ظل يأمل باقتناصها بعدما يفرج عنه.

في الوقت الذي استعد فيه حسن لفرض نفسـه، كـان حبشي يحضر لإخضاعه، وكان معظم النزلاء يستشـعرون ذلك بمن فيهم حسن ومجموعته الذين تجنبوا الالتفـات إلـى الجهة التي يستلقي فيها حبشي مسترخياً فوق يطئه واضـعاً ساقاً فوق الأخرى وهو يتفرس بحسن طيلة الوقت.

ما ان صرخ العسكري في الخـارج طالبـاً الاسـتعداد للفورة، حتى نادى حبشي بأعلى صوته : شيشـاني... لفـت بصوته انتباه الجميع الذين نظروا له وهو يشير إلـى حسـن باصبعه وينتره جهة السطل : اجلب الشخاخ.

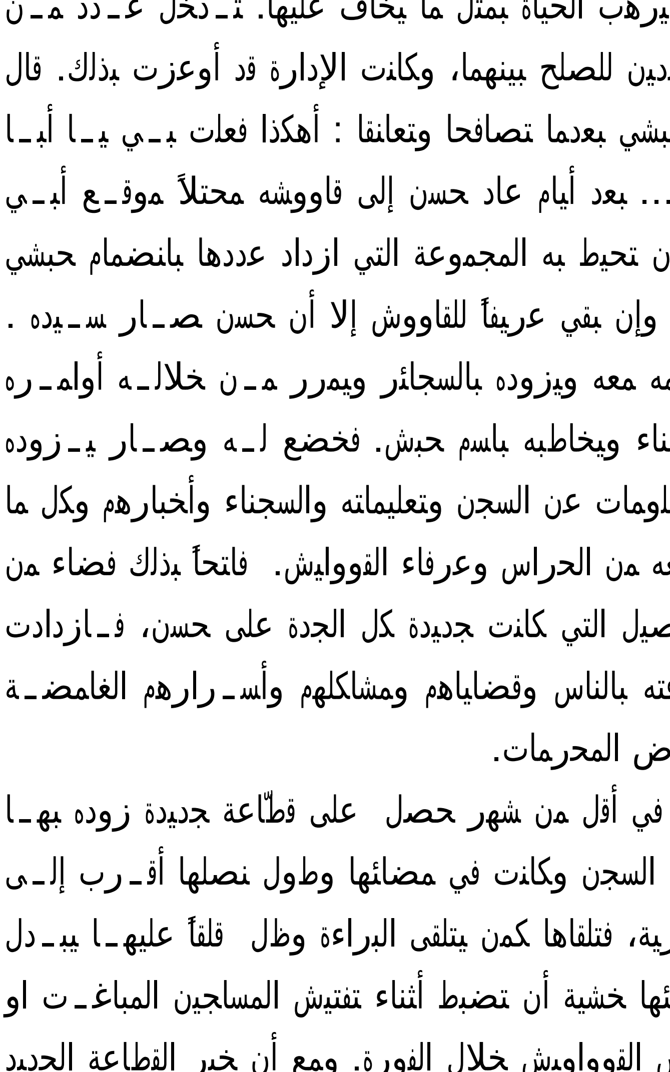
هم السجين الذي يخدم المجموعة على التحرك فاستوقفه حسن : أقعد... نهض بتثاقل بينما الأنظار شاخصة به. اتجه نحو السطل وحمله من مقبضه السلكي ومشى به وهو يهـزه مطرطشاً البول على الأرضية. صرخ به حبشي وقد أصـبح على مقربة منه : أحمله مليح...

قبض حسن باليد الأخرى على أسفل السطل وانحـرف في خطوات سريعة جهة حبشي الذي لم يتمكن إلا من رفـع يديه لاتقاء السطل الذي قذفه حسن نحوه بكل قوته. شتم وقد بلله البول وأعمس عينيه ووصل بعضه إلى داخل فمه. قبـل

أن يستوي واقفاً كان حسن قد استل قطاعته وانقـض عليـه مسدداً له الضربة وراء الأخرى وهو يتقافز كالعفريت الهائج لا تستوقفه صرخات حبشي واستغاثته وهو يذود عن وجهـه الضربات لتتسلخ معها يداه. بينما حسـن يحفـر بقطاعتـه الأخاديد والتجاويف في كل مكان تصله القطاعـة وكـادت ضربة قوية أن تنتزع أرنبة أنف حبشي الذي هـرب نحـو الباب وهو يولول باكياً مستغيثاً من جنون اللحظة العظيمـة التي جعلت حسن يغرز بشبريته أذن غريمـه فـوق اللـوح الأسود على مرأى من الطلبة المـذعورين. تمامـاً مثلمـا يحملق به السجناء الآن وهم مـأخوذين وإن كـان بعضـهم مغتبطاً. وانفتح الباب للفورة مع فوران دماء حبشي.

حلت القضية داخل السجن. صودرت من حسن القطاعة وأودع الزنزانة الانفرادية أسبوعاً. ولما خرج وجـد يطـأه وأغراضه قد نقلت إلى قـاووش آخـر، فاسـتقبله نـزلاؤه بالترحاب وكان قد ذاع ما فعل بحبشي في القوواويش كافة.

صادفه في الباحة وأثر الجروح ما يزال فـي وجهـه. تفرسا ببعضهما وكلٌ منهما محاط بمجموعته. كانت نظرات حبشي قلقة متماوجة فداخل تلك الجثة الضخمة كان يعـيش



عبد يرهب الحياة بمثل ما يخاف عليها. تـدخل عـدد مـن المؤيدين للصلح بينهما، وكانت الإدارة قد أوعزت بذلك. قال له حبشي بعدما تصافحا وتعانقا : أهكذا فعلت بـي يـا أبـا علي... بعد أيام عاد حسن إلى قاووشه محتلاً موقـع أبـي شعبان تحيط به المجموعة التي ازداد عددها بانضمام حبشي الذي وإن بقي عريفاً للقاووش إلا أن حسن صـار سـيده . يطعمه معه ويزوده بالسجائر ويمرر مـن خلالـه أوامـره للسجناء ويخاطبه باسم حبش. فخضع لـه وصـار يـزوده بالمعلومات عن السجن وتعليماته والسجناء وأخبارهم وكل ما يسمعه من الحراس وعرفاء القوواويش. فاتحاً بذلك فضاء من التفاصيل التي كانت جديدة كل الجدة على حسن، فـازدادت معرفته بالناس وقضاياهم ومشاكلهم وأسـرارهم الغامضـة غموض المحرمات.

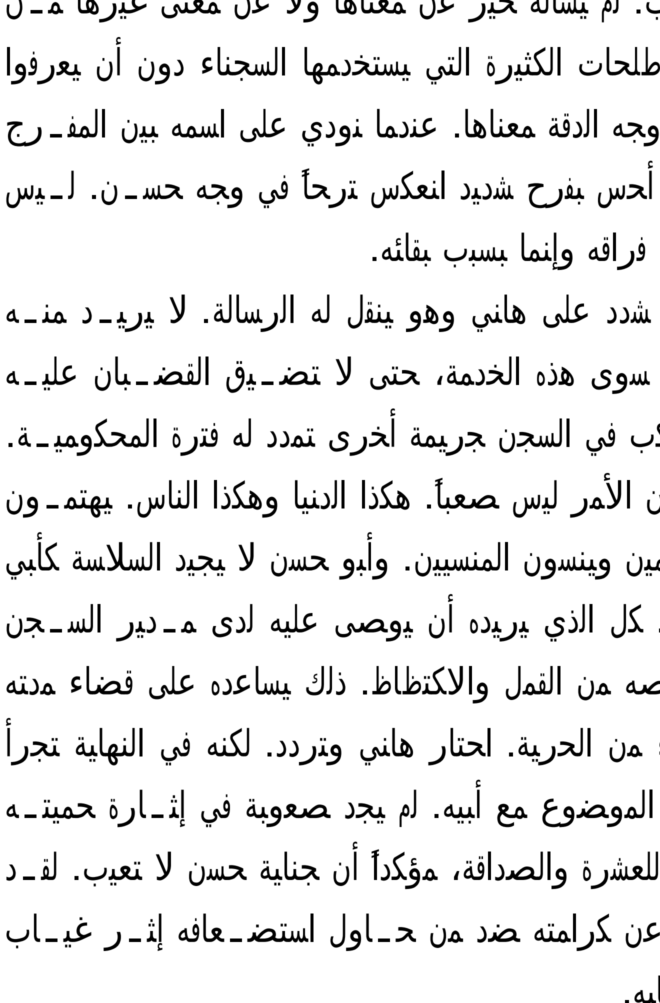
في أقل من شهر حصل على قطّاعة جديدة زوده بهـا كوى السجن وكانت في مضائها وطول نصلها أقـرب إلـى الشبرية، فتلقاها كمن يتلقى البراءة وظل قلقاً عليهـا يبـدل مخابئها خشية أن تضبط أثناء تفتيش المساجين المباغـت او تفتيش القوواويش خلال الفورة. ومع أن خبر القطاعة الجديد

قد ذاع بين سجناء القاووش، إلا أن أحداً لم يبلغ عنه أو يشي به لكثرة ما كان يغدق من أكـلٍ وشـربٍ وسـجائر علـى السجناء، وخشيةً منه بعد تقطيعه الوحش الحبشـي وإذلالـه وإخضاعه، فغدا أكثر سجناء القاووش رهبة وأكبرهم شـأناً وإن كان أصغرهم عمراً.

حمل هذا أهله عبئاً إضافياً إذ ازدادت احتياجاته وكثـر طلبه للنقود، بعد أن صار مضطراً لمجاملة الحراس وتقـديم الهدايا للمناوبين حتى يسمحوا له بالممنوعات ويغضوا النظر عن المخالفات. وصلته الخمرة في البداية محقونة بالبطيخ ثم هربت له في جالونات الزيت بعد أن صار يعامـل معاملـة خاصة من قبل المفتشين، وأرسل له نجم أول الأمر حشيشـة مدكوكةً بلفائف السجائر ثم صار يهربها له فـي كتّافـات الجاكيتات التي يرسلها للغسيل والتنظيف. ولم يظل ناقصـاً عليه سوى النساء فقد كان يأبى أن يستسـفد المنـاكيح كمـا رفض أكل لحم الخنزير الذي أرسله له يوماً هاني. محـذراً نجم من حمله إليه ثانية. فاكتفى هاني بإرسال نقودٍ لـه مـن حين لحين.

عندما ولج خير باب القاووش شخصت به العيون وظل حسن متيبساً في موقعه بالصدارة يحملق به مـأخوذاً وهـو عاجز عن الأتيان بأي حركة. أدار خير نظره في القاعـدين وقد غشيه رعب من أطلت عليه أموات القبور. ما أن لمـح حسن، حتى رمى بطأه وأسرع نحوه يعانقه كأنه يختبئ فيه. استقبله حسن بمودة وأجلسه مكانه، فكانت إشارة للجميـع. إذ سارع سجين لجلب الشاي وآخر نفض أغطية خير ولما لـم تعجبه حالتها ورائحتها بدلها مع سجين آخر لم يجرؤ علـى الاعتراض. روى خير ما جرى معه وأنـه اعتقـل بـالغلط فصخب حسن بالضحك. كذلك مجموعته وكـل مـن سـمع الحديث. ورغم امتعاضه وألم العصي في جسده والنار التـي تحترق في أذنه، كان سعيداً بلقاء حسن، وظل على سـعادته خلال الأيام الأربعة اللاحقة. بعد أن رتب له حسـن حيـزاً معقولاً للنوم قريباً منه وقد وصل الاكتظاظ ذروتـه بسـبب الاعتقالات الناجمة عن الاضطرابات.

طلب منه حسن أن يذهب لهاني ويحثّه على بذل جهـده وإرغامه إن لزم الأمر. ولما سأله خير لم لا يوكل ذلك لنجم، قال حسن : نجم الآن شغيل عنده يا ألابنضه... قالها بفخامة



وتأنيب. لم يسأله خير عن معناها ولا عن معنى غيرها من المصطلحات الكثيرة التي يستخدمها السجناء دون أن يعرفوا على وجه الدقة معناها. عندما نودي على اسمه بين المفرج عنهم أحس بفرح شديد انعكس ترحاً في وجه حسن. ليس بسبب فراقه وإنما بسبب بقائه.

شدد على هاني وهو ينقل له الرسالة. لا يريد منه حسن سوى هذه الخدمة، حتى لا تضيق القضبان عليه ويرتكب في السجن جريمة أخرى تمدد له فترة المحكومية. كما أن الأمر ليس صعباً. هكذا الدنيا وهكذا الناس. يهتمون بالمهمين وينسون المنسيين. وأبو حسن لا يجيد السلاسة كأبي هاني. كل الذي يريده أن يوصى عليه لدى مدير السجن لتخليصه من القمل والاكتظاظ. ذلك يساعده على قضاء مدته بشيء من الحرية. احتار هاني وتردد. لكنه في النهاية تجرأ وفتح الموضوع مع أبيه. لم يجد صعوبة في إثارة حميته وفاء للعشرة والصداقة، مؤكداً أن جناية حسن لا تعيب. لقد دافع عن كرامته ضد من حاول استضعافه إثر غياب أصحابه.

زار أبو هاني مدير السجن. أهداه مسبحة مذهبة ودعاه لسهرةٍ في أحسن فنادق السلسلة. استجاب المدير بعد إلحاحٍ. لما جاء الحديث على حسن، امتدحه المدير معتبراً إياه سجيناً محترماً مرهوباً. توالت لقاءات أبي هاني والمدير بعدما نقل حسن إلى غرفة المستشفى التي تطل من الخلف على غرفـة يحتجز فيها المحكومون بالإعدام وبجانبها غرفة كتب علـى جدارها "المقصلة"، تفصلها عن المستشفى حديقـة ياسـمين، أبهجت قلب حسن اكثر مما أبهجه النوم على السرير. كمـا صار يسمح له بزيارة أي قاووش والخروج إلى الباحة متـى أراد والبقاء فيها لحين التعداد فـي المسـاء، لكنـه ضـجر المستشفى سريعاً، لاسيما وأن النزلاء فيها كـانوا يتمـادون بأنينهم طيلة الليل طمعاً بالبقاء أكثر من الاستشفاء. استدعى لمدير السجن، فوافق على نقلـه إلـى الجنـاح المخصـص للمنظورين الذين ينزلون في غرف صغيرة نظيفة لا يزيـد النزلاء فيها عن خمسةٍ في أوقات الاكتظاظ. بيـنهم زعمـاء سياسيون وتجار كبار وأثرياء وأرسـتقراطيون ومهربـون وعتاة لا تسري عليهم إجراءات التفتيش التي تسـري علـى

السجناء الآخرين فصار حسن يحمل القطاعـة فـي جيبـه باستمرار.

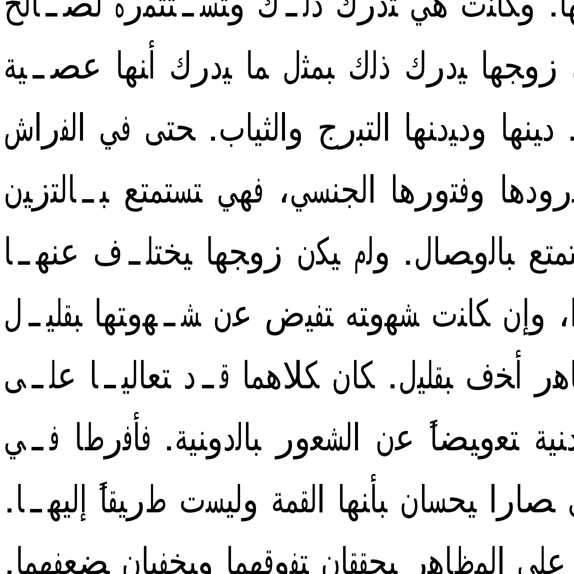
جلب له أهله فرشةً ولحافاً من القطن، وأواني لا يسمح بها في القووايش. انتقل بعدها إلى غرفة منظـورين ثانيـة، وفي الثالثة استقر به الوضع مع أربعة يحسب لهم الحسـاب داخل السجن وخارجه. توطدت علاقته بهم، وأثبت كل منهم أنه جدير بثقة الآخر كما الآخر محط ثقته وهم يتحالفون ضد الآخرين ويتكاتفون فيما بينهم ويتبادلون الأطعمـة والنقـود والكحـول والمخـدرات وعنـاوين المـواخير ومحـلات المسروقات وأسماء الفتوات والمأجورين. كانت أخبار السجن تأتيهم تباعاً، لاسيما عندما يؤتى بنزيل جديد، فيتم التقصـي عنه من الحراس والسجناء كما يستدرجه آخرون، بالترغيب والتهديد، للاعتراف بتفاصيل قضيته ومصادر قوته ومواطن ضعفه والإفصاح عن أسراره وارتباطاته وعلاقاته، وتنتقـل المعلومات عنه أولاً بأول إلى حسن وصحبه، الذين يزدادون بها معرفة بالناس ومشاكلهم وتفاصيل حياتهم فيستغلون مـا يفيدهم منها ويستثمرون وقائعها سـواء أداخـل السـجن أم خارجه. ففي تلك البؤرة الضيقة المنسية.تشكلت من حسـن

ومجموعته عصبة آلت على نفسها تعويض ما فاتها وفرض كيانها في مجتمع تحكمه شريعة القوة وتـتحكم بـه أخـلاق الأقوياء، سواء أقيدته القضبان ام فتحت له الأبواب.

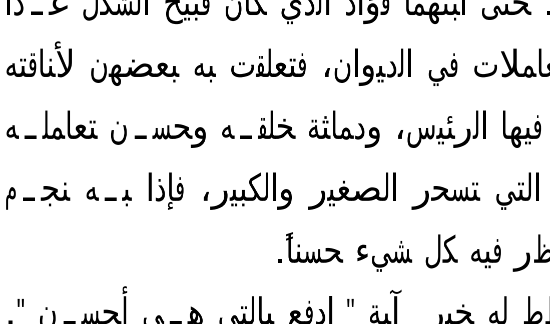
١٦

نجح فؤاد بكسب احترام المـراجعين الـذين صـاروا يلجأون إليه دون سواه للطف معاملتـه ومتابعتـه لشـؤونهم وطمأنته لهم وتعهده ببذل قصارى جهده لمسـاعدتهم. كمـا نجح بدماثته كسب ود زملائه في العمل. واستطاع ولم يمض على تعيينه أشهر قليلة من نيل ثقة الرئيس والاستحواذ على رضاه. في البداية ذهب لزيارته حاملاً شقفة قماش انجليزي هدية، ثم قام الرئيس بزيارة محل أبيـه لتفصـيل الشـقفة، ليغدوا حينها واحداً من الجلساء المهمين الذين يكنون لأبـي فؤاد وداً ومحبةً ومشاعر حميمة. انعكست علاقتهمـا علـى موقع فؤاد في العمل، إذ غدا من أكثـر المقـربين لـرئيس الديوان. يوكل له من الأعمال أهمها وأيسرها ويستقبله فـي أي وقت ويلبيه ما استطاع. مما جعل الوكيل ينقم عليه بعـد أن حلّ هذا الراسب في المتـرك محلـه واسـتولى علـى صلاحياته وسرق منه سلطاته. ناصبه العداء أولاً ثم صـار يداهنه وهو يبيت للإيقاع به. بينما الرئيس يقرب فؤاد منـه ويعتمد عليه ويستشيره بكل صغيرة وكبيرة. لم يكـن فـؤاد ثرثاراً ولا ملحاحاً ولا فضولياً. فلا يطرق باب الـرئيس إلا

عندما تستحثه القضية ويتأكد من إمكانية تحقيقهـا وضـمان الموافقة عليها، لهذا لم يكن يحرج رئيسه الذي قابل تهذيبـه ودماثة خلقه بتجاوبٍ وتقديرٍ واحترام بلغ أوجه عندما دعـاه أبو فؤاد للعشاء عندهم في البيت، فتمنى حينها الـرئيس لـو يبيعه أبو الخير الدكان حتى يظل قريباً من أم فؤاد التي وإن كانت لا تتصرف بإغراء وغواية، إلا أن تألقهـا المحسـوب بالملمتر وعذوبة لسانها المعقود بالسكر وحضورها الوضـاء كمصباح الكهرباء، كان يجعل كل مـن يقابلهـا يتمنـي أن

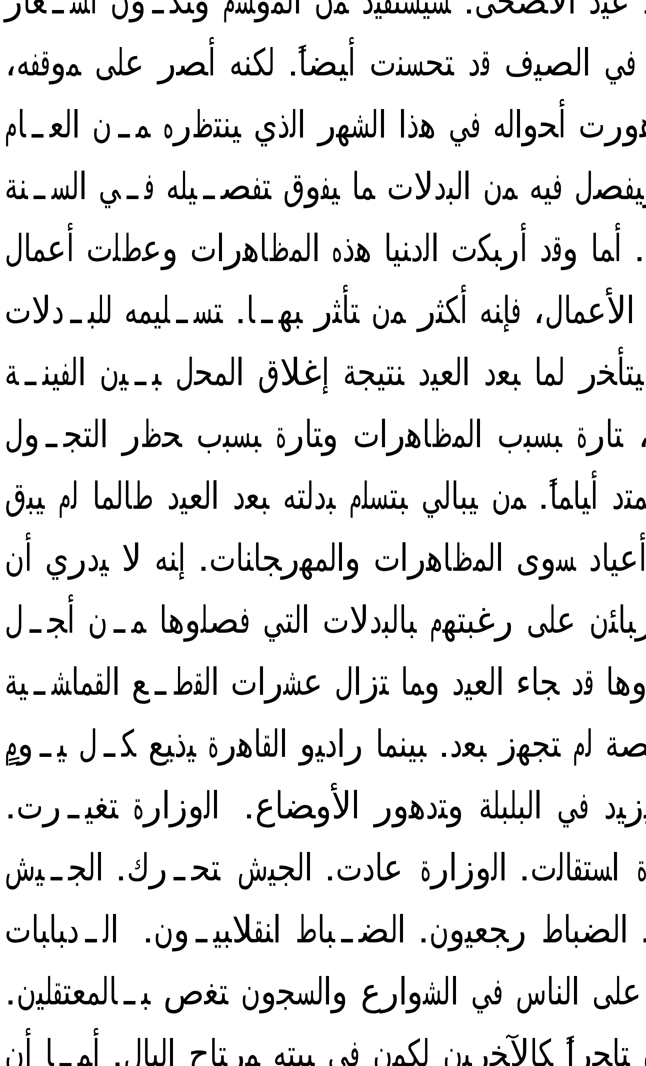


يحظى ببريقها. وكانت هي تدرك ذلـك وتسـتثمره لصـالح عائلتها وكان زوجها يدرك ذلك بمثل ما يدرك أنها عصـية على الرجال. دينها وديدنها التبرج والثياب. حتى في الفراش كان يحس ببرودها وفتورها الجنسي، فهي تستمتع بـالتزين أكثر مما تستمتع بالوصال. ولم يكن زوجها يختلـف عنهـا كثيراً في هذا، وإن كانت شهوته تفيض عن شـهوتها بقليـل وعشقه للمظاهر أخف بقليل. كان كلاهما قـد تعاليـا علـى حاجاتهما البدنية تعويضاً عن الشعور بالدونية. فأفرطا فـي المظاهر التي صارا يحسان بأنها القمة وليست طريقاً إليهـا. ففي الإغداق على المظاهر يحققان تفوقهما ويخفيان ضعفهما.

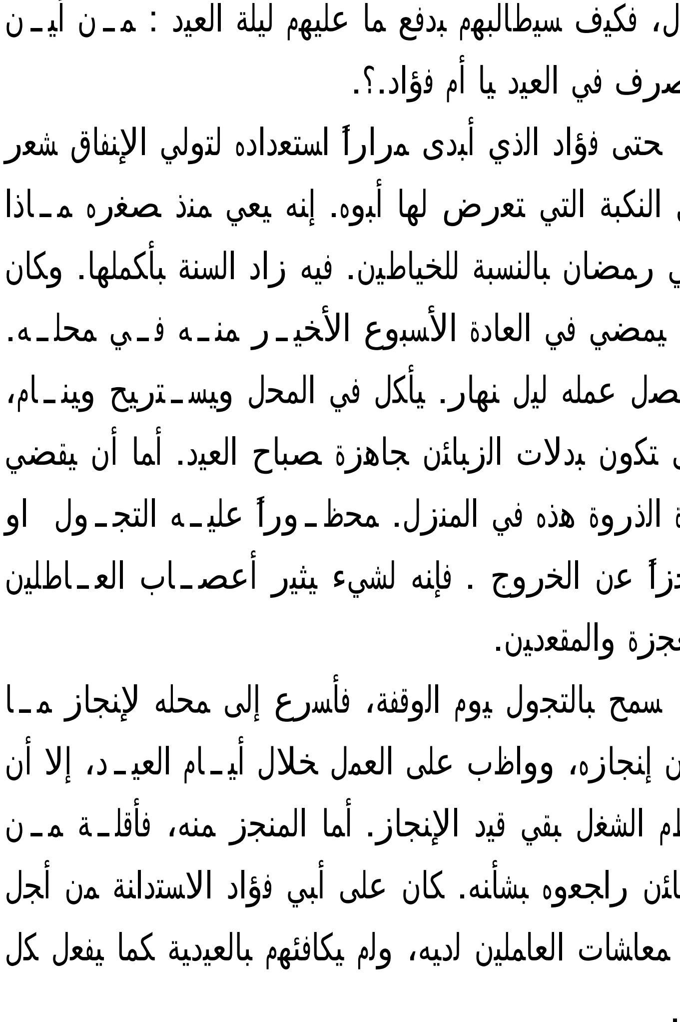


حتى لو كان ذلك بالاستدانة او الاستهانة بما يمكن أن يقـال طالما يدركان إنهما دائماً يأخذان ولا يعطيان سوى الصـورة المشرقة الوضاءة التي تعكسها الثياب والأثاث ولطف المعشر وحلاوة اللسان. حتى ابنهما فؤاد الذي كان قبيح الشكل غـدا محط أنظار العاملات في الديوان، فتعلقت به بعضهن لأناقته التي لا يجاريه فيها الرئيس، ودماثة خلقـه وحسـن تعاملـه ولطف معشره التي تسحر الصغير والكبير، فإذا بـه نجـم متألق يرى الناظر فيه كل شيء حسناً.

عندما خطط له خير آية " ادفع بالتي هـي أحسـن ". علّقها في برواز جميل على الجدار من خلفه قاصـداً فيهـا عرض نهجه الحياتي في معاملة الناس بالحسنى، وهو مـا نشأ عليه وتربى معه وسيظل نبراساً له وشعاراً. لكن تفسير الناس جاء مختلفاً، فانهالت عليه العطايا والهدايا العينية قبـل ان تتحول الى دفعات نقدية. كان يتقبلها ببشاشة تريح مقدميها وتبعث أملهم بالوظيفة التي صار مقتدراً على منحها جـراء علاقته الوطيدة بالرئيس. فصار دخله يفوق دخل أبيه الـذي أصر في رمضان على بيع المحل ولـو بخسـارة ضـارباً عرض الحائط احتجاج زوجته التي رجته أن يرجىء البيـع



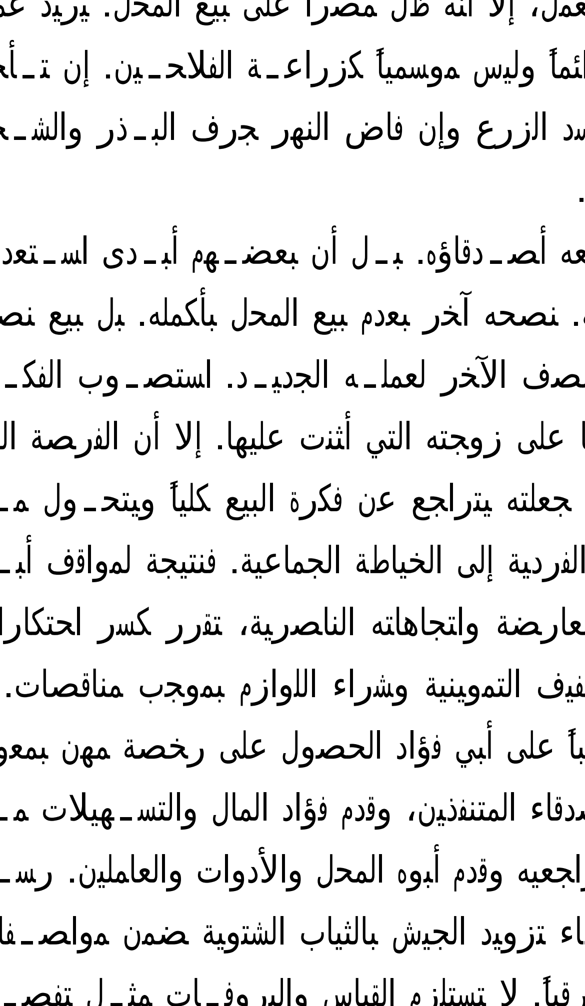
لما بعد عيد الأضحى. سيستفيد من الموسم وتكون أسعار السوق في الصيف قد تحسنت أيضاً. لكنه أصر على موقفه، فقد تدهورت أحواله في هذا الشهر الذي ينتظره من العام للعام ويفصل فيه من البدلات ما يفوق تفصيله في السنة بطولها. أما وقد أربكت الدنيا هذه المظاهرات وعطلت أعمال الشغب الأعمال، فإنه أكثر من تأثر بها. تسليمه للبدلات سوف يتأخر لما بعد العيد نتيجة إغلاق المحل بين الفينة والفينة، تارة بسبب المظاهرات وتارة بسبب حظر التجول الذي يمتد أياماً. من يبالي بتسلم بدلته بعد العيد طالما لم يبق للناس أعياد سوى المظاهرات والمهرجانات. إنه لا يدري أن ظل الزبائن على رغبتهم بالبدلات التي فصلوها من أجل العيد، وها قد جاء العيد وما تزال عشرات القطع القماشية مقصوصة لم تجهز بعد. بينما راديو القاهرة يذيع كل يوم خبراً يزيد في البلبلة وتدهور الأوضاع. الوزارة تغيرت. الوزارة استقالت. الوزارة عادت. الجيش تحرك. الجيش تراجع. الضباط رجعيون. الضباط انقلابيون. الدبابات تدوس على الناس في الشوارع والسجون تغص بالمعتقلين. لو كان تاجراً كالآخرين لكمن في بيته مرتاح البال. أما أن



يمضي رمضان وهو لم ينجز من توصيات الناس إلا القليـل القليل، فكيف سيطالبهم بدفع ما عليهم ليلة العيد : مـن أيـن سنصرف في العيد يا أم فؤاد.؟.

حتى فؤاد الذي أبدى مراراً استعداده لتولي الإنفاق شعر بثقل النكبة التي تعرض لها أبوه. إنه يعي منذ صغره مـاذا يعني رمضان بالنسبة للخياطين. فيه زاد السنة بأكملها. وكان أبوه يمضي في العادة الأسبوع الأخيـر منـه فـي محلـه. يتواصل عمله ليل نهار. يأكل في المحل ويسـتريح وينـام، حتى تكون بدلات الزبائن جاهزة صباح العيد. أما أن يقضي فترة الذروة هذه في المنزل. محظـوراً عليـه التجـول او عاجزاً عن الخروج . فإنه لشيء يثير أعصـاب العـاطلين والعجزة والمقعدين.

سمح بالتجول يوم الوقفة، فأسرع إلى محله لإنجاز مـا يمكن إنجازه، وواظب على العمل خلال أيـام العيـد، إلا أن معظم الشغل بقي قيد الإنجاز. أما المنجز منه، فأقلـة مـن الزبائن راجعوه بشأنه. كان على أبي فؤاد الاستدانة من أجل دفع معاشات العاملين لديه، ولم يكافئهم بالعيدية كما يفعل كل عيد.



ومع أنه استعاد هدوءه وسيطرته على أعصابه منذ عودته للعمل، إلا أنه ظل مصراً على بيع المحل. يريد عملاً تجارياً دائماً وليس موسمياً كزراعة الفلاحين. إن تأخر المطر فسد الزرع وإن فاض النهر جرف البذر والشجر والصخر.

شجعه أصدقاؤه. بل أن بعضهم أبدى استعداده لمشاركته. نصحه آخر بعدم بيع المحل بأكمله. بل بيع نصفه وإبقاء النصف الآخر لعمله الجديد. استصوب الفكرة وعرضها على زوجته التي أثنت عليها. إلا أن الفرصة التي لاحت له جعلته يتراجع عن فكرة البيع كلياً ويتحول من الخياطة الفردية إلى الخياطة الجماعية. فنتيجة لمواقف أبي يحيى المعارضة واتجاهاته الناصرية، تقرر كسر احتكارات عائلة العفيف التموينية وشراء اللوازم بموجب مناقصات. لم يكن صعباً على أبي فؤاد الحصول على رخصة مهن بمعونة أحد الأصدقاء المتنفذين، وقدم فؤاد المال والتسهيلات من خلال مراجعيه وقدم أبوه المحل والأدوات والعاملين. رسى عليه عطاء تزويد الجيش بالثياب الشتوية ضمن مواصفات محددة ورقياً. لا تستلزم القياس والبروفات مثل تفصيل

البدلات. نفض المحل وتزود بماكنات خياطة كبيرة وسريعة. اشتراها بالتقسيط المريح من محل سنجر الذي يمتلكـه أحـد زبائنه المقربين. فتقاعدت إلى الأبد إبرته الرفيعـة وكـراره الصغير ومقياسه القماشي. واستبدلت الآرمة المكتوب فيها " خياط رجالي " بآرمةكبيرة كتب فيها بالخط العريض " أبـو فؤاد"، ومن تحته بخط أصغر "تجارة أقمشة وتعهدات".

١٧

تقدم أبو يحيى مع بداية العام بطلب تـرخيص للحـزب الذي أطلق عليه اسم "حزب النصر". كان خـالي الوفـاض بالشؤون الحزبية.لا يعرف الأسس الأولية البسيطة في إنشاء التنظيم وقيادته وتوجيهه، إضافة إلى فوقيتـه التـي جعلـت المقربين منه يتهامسون عليه ويتهمونه بالتخبيص. فقد غيـر اسم الحزب عشرات المرات قبل أن يستقر على اسم النصر الذي أعجب الملحق العسكري المصري. كان أيضاً يغير في قيادة الحزب حسب مزاجه. فبمجرد أن يتقدم أحد على آخـر بنقطة واحدة في التقرب إليه يقربـه مـن شـؤون الحـزب وقيادته. وكلما سمع عن تجربة في حزبٍ آخر فإنه ينتهجهـا في حزبه دونما تبصرٍ او تمحيص. وإذا أخبروه عن مـأثرة أحدهم يرسل في طلبه بالحال، وكأنه يدير إحـدى مصـالحه التجارية. لم يكن لديه وقت للقـراءة والمطالعـة ولا ثقافـة عقائدية تمكنه من تبين الغث والسمين، فأحاطت به مجموعة من المفوهين القادرين بألسنتهم على قرع الطبـول ورمـي الورود وصنع النعوش. كان بينهم أصحاب تجارب حزبيـة، أغرتهم ثروة أبي يحيى بمثل مـا اسـتهوتهم شـعبية عبـد

الناصر. كانوا يدركون نقطة ضعف أبي يحيى، التي أدركها قبلهم لكنه نسيها وهو ينساق إليهم. فبعد أن اعتبر تخاطره مع عبد الناصر نباهة وقدرة على القيادة، انجرف مع المستفيدين من سطوع نجمه وعلو شأنه، وهم لا يتركون لـه فرصـة لالتقاط أنفاسه. فيشـجعونه علـى أن يسـتقبل فـي مكتبـه المراجعين كافة، بغض النظر عن أهميتهم السياسية وأهميـة قضاياهم الاجتماعية، حتى لو جاؤوه فقط للسـلام. خـارج المكتب تنتظره دائماً الدعوات والمؤتمرات والاستعراضـات الشعبية والرياضية والاجتماعية. وعنـدما يـدعى للقـاءات الأحزاب والجبهات الوطنية، يأتيهم في كثير مـن الأحيـان منهوكاً مشوشاً يوافق على ما يقترحـون وقلمـا يسـأل او يعترض او يحتج. اختلف تماماً في أمور السياسة عما كـان عليه في أمور المال. فبعد أن كان في ذلك المجـال يصـنع النجوم ويطفئها. صار في انخراطه السياسي حريصاً علـى سطوع نجمه فحسب، وكلما أوعز له أحـد المسـتفيدين أن جماهيريته بدأت تخبو، يغدق في سبيل إشراقها ما يسـتطيع. وأكثر ما كان يربكه، توجيهات الملحق العسكري المصـري التي لا يستطيع مناقشتها حتى لو كان يـدرك فـي أعماقـه

حمقها. لقد استولت عليه شخصية عبد الناصر بحيث أصـبح يحس أن كل ما يمثله الزعيم معصوم وانه نفسه معصـوم، فحلت فيه لعنة الزعامة الغوغائية بعـدما كانـت زعامتـه حسابات واستراتيجيته تكتيك.

لم يتورع عن الإدلاء بالتصريح تلو الآخر لوكالة أنباء الشرق الأوسط، منددأ باعتقال العسكريين في الأردن غيـر آبه بالقطيعة بينه وبين النظام، مع أنه وبحسب اتفاقـه مـع أركان الجبهة الوطنية والملحـق العسـكري فـي السـفارة المصرية، لا يرومون تغيير الوضع او الانقلاب عليه. ولمـا طُلب من رئيس الحكومة تقديم استقالته، شن هجومـاً عنيفـاً على القرار تناقلته الصحف المصرية وعلقت عليه أذاعاتها. كانت الفوضى العاطفية التي تحركه عارمة، وخواؤه الفكري جعله ينساق لردود فعلٍ آنية دونما إدراك لما يحـاك لـه او يجري حوله. كانت الكتل الحزبية تجري مداولتها في الخفاء وتقدم التنازلات مقابل تنازلات، بينما أبو يحيى يصرخ بأعلى صوته في مؤتمر مدينة نـابلس مؤيـداً المنـادين بالوحـدة الفدرالية الفورية مع مصر وسوريا وإعادة الأوضاع إلى ما

كانت عليه في أوائل نيسان بالعدول عن اســتقالة الــوزارة والإفراج عن الضباط المعتقلين.

لما اندلعت الاضطرابات في الضفة الغربية وامتدت إلى الشرقية، انضم أبو يحيى إلى المتظاهرين واقتحم معهم مبنى رئاسة الوزراء وألقى خطاباً حماسياً كان وقوده تعييش عبــد الناصر والهتاف له، فاندفعت الجماهير تهــدر باســم عبــد الناصر وتدعوه لتسلم زمام الأمور، فتصدت قــوات الباديــة والجيش السعودي للهيجان الجماهيري وأغدقت علــيهم مــن الرصاص والعصي والمدمعات، واعتقل الشبان بالمئات. ثــم أعلنت الأحكام العرفية وفرض حظــر التجــول واســتدعي للتحقيق عدد من الضباط والوزراء، فالتجأ أبو يحيــى فــي ليلتها إلى الشام. عقد هناك مع الملتجئين الآخــرين مــؤتمراً صحفياً هاجموا فيه الحكم في الأردن محمليــه مســؤولية افتعال الأحداث بغرض تصفية المعارضة. وبعد يومين توجه أبو يحيى إلى القاهرة والتقى بالمشير عمار الذي أكد لــه أن قضايا الشعوب العربية واحدة. علّق أبو يحيــى بحبــور أن القضية المشتركة بينهم هي قضية فلسطين، فقال المشير بأن فلسطين ليست قضية عربية فحسب وإنما قضــية إســلامية.

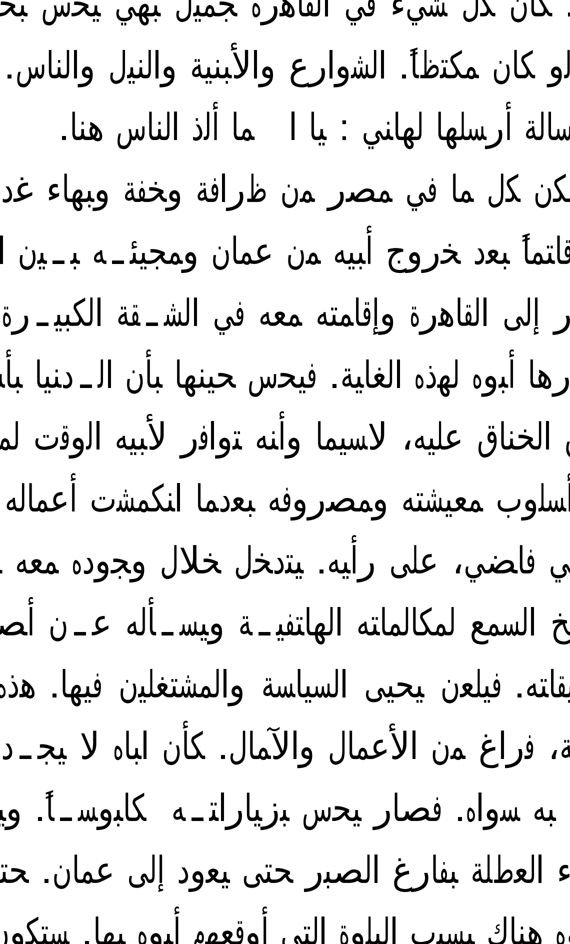
احتار أبو يحيى ليالٍ في ما قاله المشير. هـل كـان يقصـد تحويلها إلى قضية دينية أم بعثرتها عالمياً.؟. خلال إقامته في منفاه المتنقل بين القاهرة ودمشق، اكتشف أبو يحيى أنه أقـل تأثيراً من اللاجئين السياسيين المدعومين بتنظيمات سياسـية وأفكار أيديولوجية تجعلهم أقرب منه إلى النظامين المصري والسوري. حاول التعويض عن ذلك بمد يد العون لهم بعد أن ساءت أوضاع بعضهم المالية. كما أنه صرح للمشير عمـار بأنه مستعد لتمويل حركة انقلابية تطيح بالنظـام الأردنـي. فطلب منه المشير التروي. السياسـة المصـرية، شـأن أي سياسة أخرى، قد تثير القلاقل بهدف خدمة قضاياها ولـيس بهدف الإطاحة بالنظام. فقال لجوهرة أنه كلما التقى بالمشير يتعلم منه شيئاً جديداً. السياسة بحر مهلك وقد كـان يظنهـا جرعة خمرة : راحت السكرة وجاءت الفكرة يا جوهرة.

- وراح الخلخال... علّقت بدلع.

نظر إلى قدمها مبدياً التساؤل. حقاً أين الخلخال. أنها لا تخلعه في العادة. شهقت ضحكة وهي تنتر رأسها للخلـف : عمار ينزعج منه.

ظلت تمنحه الدفء الذي يحتاج كلما جاء إلى مصـر. لكنها لم تعد تثير جنونه كما السابق بعـدما غـدت العشـيقة المفضلة للمشير عمار. كما لم تعد تنتظر وصوله وتستعد له كما كانت تفعل في الفندق بعد أن صار ينـزل فـي الشـقة الكبيرة التي استأجرها ليقيم فيها خـلال زياراتـه الكثيـرة القصيرة.

حاول يحيى منذ وصوله إلى مصر أن يلتقي بجـوهرة. لكنه لم يوفق إلا بعد لأيٍ. واعدته خلال فترة استراحتها من التصوير. فالتقاها وبصحبتها عدد مـن الفنـانين، أحرجـه الموقف فلم يتمكن من تعريف نفسه، ولم تمنحه من اللقاء إلا صورة تذكارية معه أمام استوديو الأهرام. اتصل بهـا بعـد ذلك مراراً دون جدوى، ولما وفق أخيراً هاتفها بغضب. لقد اتصل معها عشرات المرات وفي كل مرة كان يترك اسـمه وتلفونه. زجرته بحدة. وماذا يظنها.؟. تعمل على السـكة : اسمع يا انت. لا ينقصني عيال... من حينها كرههـا وكـره أفلامها. لكنه ظل محتفظاً بصورتها التي سيريها للشلة فـي عطلة الصيف.



استهوته مصر بعد أن كان يظن أن عمان ملأت عليـه حياته. كان كل شيء في القاهرة جميل بهي يحس بخفة ظله حتى لو كان مكتظاً. الشوارع والأبنية والنيل والناس. كتـب في رسالة أرسلها لهاني : يا ا   ما ألذ الناس هنا.

لكن كل ما في مصر من ظرافة وخفة وبهاء غدا سمجاً ثقيلاً قاتماً بعد خروج أبيه من عمان ومجيئـه بـين الحـين والآخر إلى القاهرة وإقامته معه في الشـقة الكبيـرة التـي استأجرها أبوه لهذه الغاية. فيحس حينها بأن الـدنيا بأسـرها تضيق الخناق عليه، لاسيما وأنه تتوافر لأبيه الوقت لمحاسبته على أسلوب معيشته ومصروفه بعدما انكمشت أعماله وصار القاضي فاضي، على رأيه. يتدخل خلال وجوده معه بشؤونه ويصيخ السمع لمكالماته الهاتفيـة ويسـأله عـن أصـدقائه وصديقاته. فيلعن يحيى السياسة والمشتغلين فيها. هذه هـي النتيجة، فراغ من الأعمال والآمال. كأن اباه لا يجـد شـيئاً يتسلى به سواه. فصار يحس بزياراتـه كابوسـاً. ويتطلـع لمجيء العطلة بفارغ الصبر حتى يعود إلى عمان. حتى لـو اعتقلوه هناك بسبب البلوة التي أوقعهم أبوه بها. ستكون أهون عليه من مجيئه بين الحين والآخر ومحاسبته له وتدخله فـي

أمور حياته، فقد طرد يوماً امرأة شر طردة عنـدما باغتـه معها. صرخ به وهدده بقطع المصروف عنه إن وجد امـرأة في الشقة، حتى لوكانت ابنة عبد الناصر . فصار يحيى يلجأ إلى شقق أصحابه، حتى لو كان أبوه في الشام.

ظل أبو يحيى يرواح بين القاهرة والشام التي اسـتأجر فيها شقة أيضاً، وهو يحس بفراغ هائل يقض له مضـجعه. كانت حياته كلها نشاطاً وعملاً دائماً، ولما خاض المعتـرك السياسي لم يعد لديه وقت على الإطلاق. أما الآن وقد تـولى شقيقاه في عمان إدارة مصالحه، باستثناء المركز التجـاري الذي أوصى ببقاء موفق مشرفاً عليه، فإنـه يحـس بكيانـه أصغر من قبضته بعدما كان يحس بأن العالم رهن سـبابته. ومع أنه لم يكن يهدأ على الإطلاق، فهو دائم الحركة والسفر والالتقاء بالسياسيين والمسؤولين، إلا أن ذلك لم يخفف مـن وطأة الفراغ الذي يحس به. كان كل شيء فيما مضى جـدياً وله مذاق. كان يحس بكيانه وهو يصدر الأوامـر ويـتحكم بالمصائر. أما الآن فإنه يتلقى الأوامر ومصيره يمتلكه سواه. فبعدما هدأت الحرب الإذاعية بين الأردن ومصر طلب منـه عدم إصدار بيانات معارضة او عقد لقاءات عامة. وعنـدما

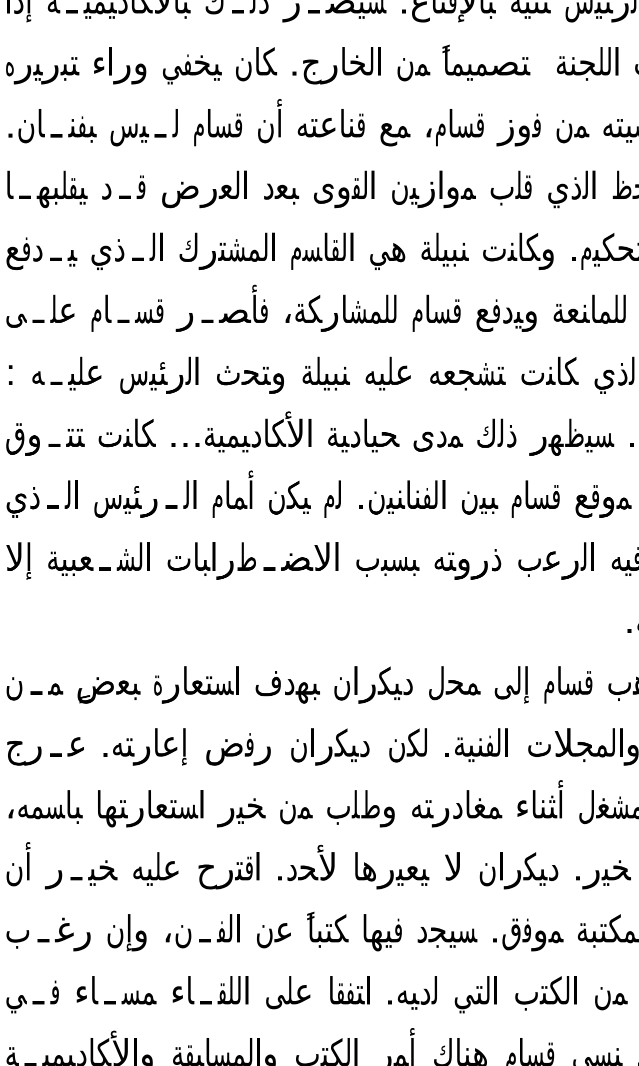
تجددت الملاسنات صارت ترتب لـه وللاجئـين الآخـرين الاجتماعات والندوات والمؤتمرات التي كانـت تزيـد مـن إحساسه بالقهر وتفاقم من شعوره بالوحـدة والفـراغ. كـل نشاطه مقيد يتحكم به الآخرون. مع هذا، ظلت صورة الزعيم حية في وجدانه وبقيت روح التماهي به تتأجج فـي نفسـه ، بحيث كان على استعداد للتضحية بكل ما يملك دفاعـاً عـن عبد الناصر. بالأصح، دفاعاً عن نفسه التي تشـربت عبـد الناصر وأدمنت الناصرية، حتى لو كان إدمانه هذا سـيودي به او يتردى بسببه. وهذا ما كان يعوضه عن افتقـاده لإدارة أعماله وخسارته لنيابته ووزارته.

١٨

طلب ديكران من خطاطيه أن يشـتركوا فـي مسـابقة الأكاديمية. سيكافئ من يقبل تصميمه بعشرة دنـانير سـواء أكان الفوز من نصيبه أم لا. إنـه دعايـة للمحـل ودعايـة للخطاط. يكفي أن تذكر الجرائد اسمه وموقع عمله. إذا فـاز أحدهم فسينال مكافأتين. وكان وهو يحدثهم لا يرفـع عينيـه عن خير.

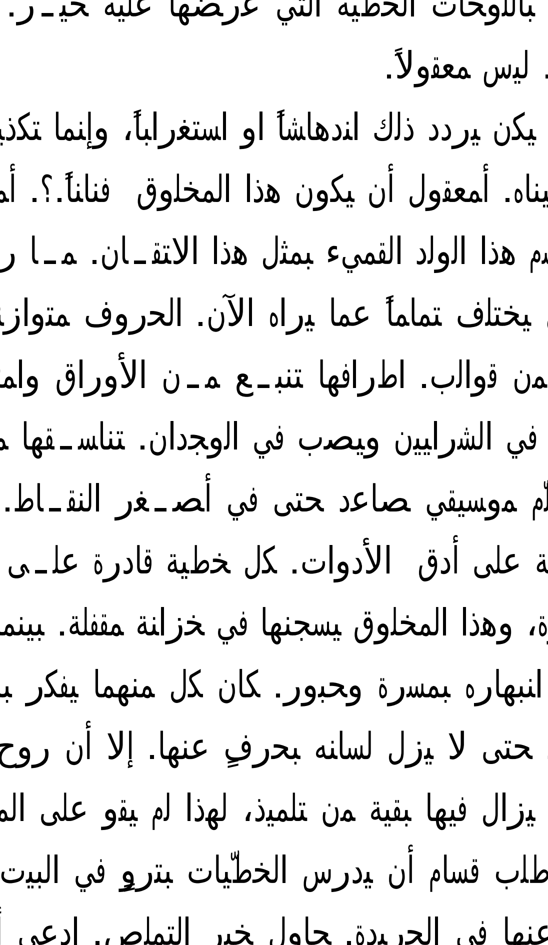
رفض خير بإصرار الذهاب إلى الأكاديمية لتقديم طلب الاشتراك حسب ما هو مطلوب. ذكّر ديكران بما جرى معه في عرض كلين. فجلب ديكران طلبات بعدد خطّاطيه وطلب منهم تعبئتها. علّق خير : صدقني سيكون مصيرها الزبالة... لم يعلق ديكران. ذهب بنفسه إلى الأكاديمية. سـلّم الطلبـات للرئيس شخصياً، الذي استقبله بتهيبٍ وتبجيلٍ بعدما صـافحه ضاغطاً إبهامه بخفةٍ فوق العقدة العليا من السبابة، وجاوبـه الرئيس بالمثل. في المشغل أوصى ديكران الخطاطين بعـدم ذكر شيء عن اشتراكهم بالمسابقة.

أوعز الرئيس لطاقم الكلية وطلبتها بعـدم الاشـتراك. احتج قسام. المسابقة مفتوحة للأردنيين ولم تستثن منهم أحداً.



حاول الرئيس ثنيه بالإقناع. سيضر ذلك بالأكاديمية إذا اختارت اللجنة تصميماً من الخارج. كان يخفي وراء تبريره هذا خشيته من فوز قسام، مع قناعته أن قسام ليس بفنان. لكن الحظ الذي قلب موازين القوى بعد العرض قد يقلبها أثناء التحكيم. وكانت نبيلة هي القاسم المشترك الذي يدفع الرئيس للمانعة ويدفع قسام للمشاركة، فأصر قسام على موقفه الذي كانت تشجعه عليه نبيلة وتحث الرئيس عليه: بالعكس. سيظهر ذلك مدى حيادية الأكاديمية... كانت تتوق لمعرفة موقع قسام بين الفنانين. لم يكن أمام الرئيس الذي وصل فيه الرعب ذروته بسبب الاضطرابات الشعبية إلا الموافقة.

ذهب قسام إلى محل ديكران بهدف استعارة بعض من الكتب والمجلات الفنية. لكن ديكران رفض إعارته. عرج على المشغل أثناء مغادرته وطلب من خير استعارتها باسمه، فاعتذر خير. ديكران لا يعيرها لأحد. اقترح عليه خير أن يذهب لمكتبة موفق. سيجد فيها كتباً عن الفن، وإن رغب سيعيره من الكتب التي لديه. اتفقا على اللقاء مساء في المكتبة. نسي قسام هناك أمر الكتب والمسابقة والأكاديمية



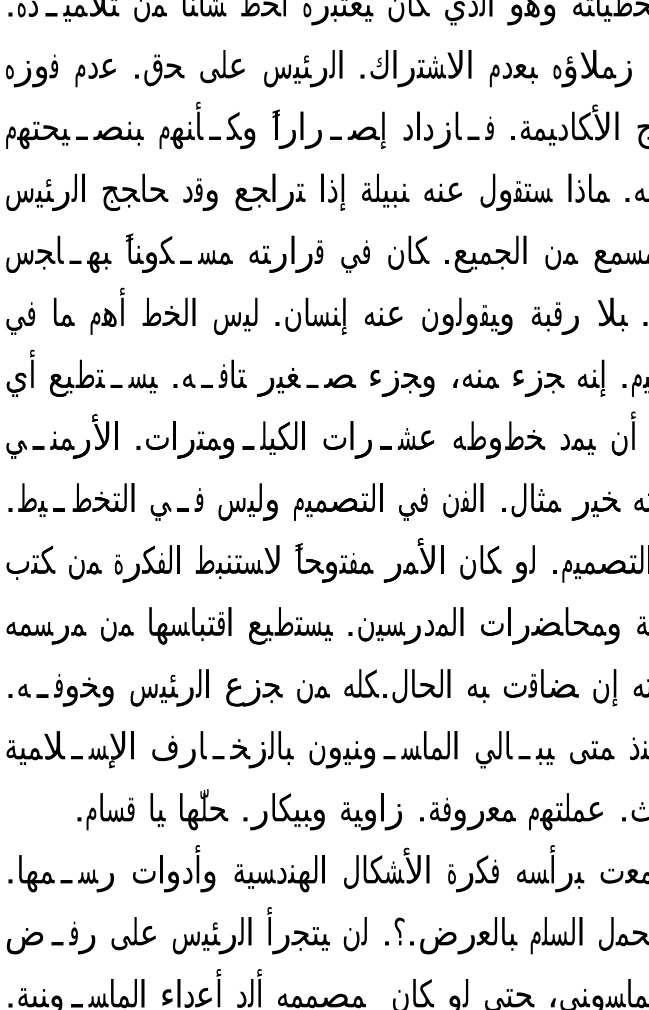
واحس بسقف المكتبة يهوي عليه ويسحق كيانه وهو يحملق مأخوذاً باللوحات الخطّية التي عرضها عليه خير. ليس معقولاً. ليس معقولاً.

لم يكن يردد ذلك اندهاشاً او استغراباً، وإنما تكذيباً لما تراه عيناه. أمعقول أن يكون هذا المخلوق فناناً.؟. أمعقول أن يرسم هذا الولد القميء بمثل هذا الاتقان. ما رآه في المشغل يختلف تماماً عما يراه الآن. الحروف متوازنة كأنها صبت من قوالب. اطرافها تنبع من الأوراق وامتدادها يتحرك في الشرايين ويصب في الوجدان. تناسقها متناغم مثل سلّم موسيقي صاعد حتى في أصغر النقاط. دقتها مستحيلة على أدق الأدوات. كل خطية قادرة على الفوز بالجائزة، وهذا المخلوق يسجنها في خزانة مقفلة. بينما خير يراقب انبهاره بمسرة وحبور. كان كل منهما يفكر بالمسابقة ويجاهد حتى لا يزل لسانه بحرفٍ عنها. إلا أن روح خير كان ما يزال فيها بقية من تلميذ، لهذا لم يقو على الممانعة عندما طلب قسام أن يدرس الخطّيات بتروٍ في البيت حتى يكتب عنها في الجريدة. حاول خير التملص. ادعى أنه قد

يحتاجها في المشغل، إلا أن قسام حسم الأمر : ومن قال بأن
لدي وقتاً لأدرسها كلها.

انتقى أحوجها واعداً بإرجاعها قبل نهاية الأسبوع. وبخ
ديكران خير على فعلته. قال له بأن قسام لـن يعيـدها، وإن
فعل سيعيدها ناقصة. سلّم قسام الخطّيات لموفق بعد انتهـاء
الموعد المحدد لتسلم التصاميم. عندما دققها خيـر وجـدها
تنقص واحدة.

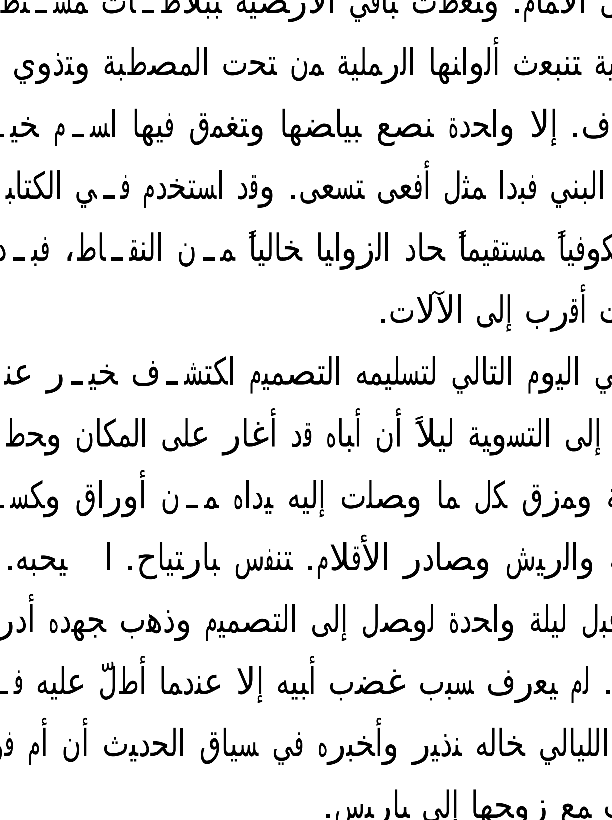
سعى قسام مراراً لمعرفة أسماء المتسابقين. لكنـه لـم
يوفق. شدد الرئيس على عدم الافصاح بالأسماء لحين انتهاء
موعد التسجيل الذي مدد بسبب الاضطرابات الشعبية. حصل
قسام في الأثناء على بعض الكتب المختصـة ومصـورات
خطّية. انهمك بإعداد تصميمٍ وراء تصميم، تارة يقتبس مـن
خطّيات خير وتارة يلجأ للمصورات والمؤلفات. أحياناً يقضي
الليل بطوله ساهماً شارداً في شكل جديد مبتكر، وكان مجرد
تذكره لخير يثقل عليه ويحد من قدرته على التخيل والتفكير.
أعد نفسه، فيما لو اتضح له أن خير مشترك في المسـابقة،
على فضحه وإفشاء أمره لدى الرئيس والمسـؤولين. فلـولا
تدخله المخزي يوم العرض لما قامت الدنيا ولم تقعـد بعـد.


كان متوجساً من مفاجأة ليست بالحسبان، تماماً مثلما فاجـأه خير بخطّياته وهو الذي كان يعتبره أحط شأناً من تلاميـذه. نصحه زملاؤه بعدم الاشتراك. الرئيس على حق. عدم فوزه سيحرج الأكاديمة. فـازداد إصـراراً وكـأنهم بنصـيحتهم يتحدونه. ماذا ستقول عنه نبيلة إذا تراجع وقد حاجج الرئيس على مسمع من الجميع. كان في قرارته مسـكوناً بهـاجس عثمان. بلا رقبة ويقولون عنه إنسان. ليس الخط أهم ما في التصميم. إنه جزء منه، وجزء صـغير تافـه. يسـتطيع أي خطاط أن يمد خطوطه عشـرات الكيلـومترات. الأرمنـي وشغيلته خير مثال. الفن في التصميم وليس فـي التخطـيط. المهم التصميم. لو كان الأمر مفتوحاً لاستنبط الفكرة من كتب الدراسة ومحاضرات المدرسين. يستطيع اقتباسها من مرسمه ولوحاته إن ضاقت به الحال.كله من جزع الرئيس وخوفـه. وإلا منذ متى يبـالي الماسـونيون بالزخـارف الإسـلامية والتراث. عملتهم معروفة. زاوية وبيكار. حلّها يا قسام.

لمعت برأسه فكرة الأشكال الهندسية وأدوات رسـمها. لماذا يحمل السلم بالعرض.؟. لن يتجرأ الرئيس على رفـض شعار ماسوني، حتى لو كان مصممه ألد أعداء الماسـونية.

كما أن الأدوات الهندسـية يسـتخدمها المسـلمون وغيـر المسلمين، أما الأشكال الهندسية فهـي جـوهر الزخـارف الخطية وهي أيضاً لغة التكعيبية. فاعتمد لزخرفة تصـميمه نجمة سداسية، لكنه تذكر أنها نجمة داوود فجعلهـا سـباعية منمنمة على طريقة زفانبرغ الذي حيرت نجمته العقول.

معظم المتسابقين اتجهوا في تصاميمهم نحـو الأشـكال الهندسية. أعد خير أرضية التصميم على شكل مضلّع مؤلف من تتابع كلمة أكاديمية ثماني مرات فبدت كأنها قـاطرات بنية معروضة باتساق تام فوق مصطبة من درجات ثـلاث برزت دوائرها من الأمام والجوانب حسب تفاوت الكثافة في لونها الصخري. في داخل المثمن تكاثرت كلمة الفنون فـي بؤرة حمراء وكأنها عربات تستعد للسباق. بينما ثلّثت كلمـة الجميلة أضلاع الشكل من الخارج وكأنهـا أدراج جمهـور ومقصورات. بدا الشكل مثمناً داخل مربع، دونمـا خطـوط فاصلة سوى اللون وحده. وفوق المثمن قبة مذهبة تستند إلى أعمدة مضلّعة امتدت ظلال أربعة منها بتفاوت إلى الخلـف مما رفع المصطبة إلى الأعلى وفوق القبة سافرت الكلمـات الثلاث لاسم الأكاديمية بتتابع في فضاء الرقعة، فاندفع الشكل



كله إلى الأمام. وتغطت باقي الأرضية ببلاطات مستطيلة صخرية تنبعث ألوانها الرملية من تحت المصطبة وتذوي في الأطراف. إلا واحدة نصع بياضها وتغمق فيها اسم خير باللون البني فبدا مثل أفعى تسعى. وقد استخدم في الكتابة حرفاً كوفياً مستقيماً حاد الزوايا خالياً من النقاط، فبدت الكلمات أقرب إلى الآلات.

في اليوم التالي لتسليمه التصميم اكتشف خير عند عودته إلى التسوية ليلاً أن أباه قد أغار على المكان وحطم الحاملة ومزق كل ما وصلت إليه يداه من أوراق وكسر الملونة والريش وصادر الأقلام. تنفس بارتياح. ا يحبه. لو أغار قبل ليلة واحدة لوصل إلى التصميم وذهب جهده أدراج الرياح. لم يعرف سبب غضب أبيه إلا عندما أطلّ عليه في إحدى الليالي خاله نذير وأخبره في سياق الحديث أن أم فؤاد سافرت مع زوجها إلى باريس.

١٩

فاز بالجائزة الأولى شاب من أصل إيراني صمم الشعار على أرضية أقرب إلى رقش السجاد. وحصل تصميم خيـر على الترتيب الثامن بين التصاميم العشرة التـي اختيـرت لتعلق في صالة المعرض الدائم للأكاديمية. قـال لـديكران باستياء : صدقني أنهم لم يستوعبوا من التصميم سوى عـدد الأضلاع. ورغم حنقه واستيائه حضر حفل التوزيع الذي قدم فيه للعشرة المختارين أطقم ريـشٍ وألـوان. وقـدم لبـاقي المشتركين بمن فيهم قسام ونبيلة أقلام حبرٍ جاف في علـب مخملية.

كان الحفل خطابياً تألق فيه رئيس الأكاديمية ومسؤولوها أكثر مما تألق فيه الفنانون. وبعد الحفل اعتذر الفـائز الأول وعدد من المختارين، لأسباب دينية، عـن دعـوة الـرئيس للعشاء في فندق فيلادلفيا. واستجاب المدعوون الآخرون بمن فيهم نبيلة وبعض مسؤولي الأكاديمية ولم يدع الرئيس قسام، فتبخر ما تبقى لديه من أعصاب وصب جام غضبه تلك الليلة على الرقع والألوان وهو يكاد ينفجر غيظاً.لم يكن يثقل على تفكيره شيء كنبيلة التي بادرت بالتعرف على خيـر بلهفـة

ووله نسيت معه الرئيس والأساتذة والمسـؤولين والفـائزين وجلست بجواره وصفقت له بحرارة عنـدما تسـلّم جائزتـه وكانت تصغي له بانتباه وتضحك معه بحيوية، ويـدري ا ماذا فعلت وإياه أثناء العشاء. المخفي أعظم بعـد العشـاء. ملعون أبو النسوان الأولاني. يفضلون عليه أبشع مخلوقـات الفضاء كعثمان وأكثر سكان الأرض قمـاءة ككخيـر. وهـو الأشقر الأضبط لا يجذبهن ولا يستحوذهن ولا يعريهن كمـا تتعرى له الألوان في اللوحات. تزوج حتى يحظـى بـامرأة تشحذ فتنتها مواهبه، فحظي بزوجة أحكمت عليه الخناق فلا هو قادر على الانعتاق ولا هو قادر على الانغـلاق. رسـم أجساد العاريات بيديه الاثنتين ولم ترسمه أيهن بإظفرها. إذا كانت العلة فيه فأبواه مصدرها وإذا لم تكـن منـه فالنسـاء سببها. من كل ضياء الكون وعتمته ومـن كـل امتداداتـه وأعماقه لا يطلب أن يكون مجرة وإنما نجماً ثابتاً فيها. نجماً يسترشد بضيائه المسافرون والضائعون ويتأملـه العاشـقون والمحبون. هبط إلى البيت وقد قاربت الساعة على العاشرة فوجد نجلاء تغط في نومٍ عميق. لم يبال بها وهو يعبث فـي كتب دراسته الإيطالية مصدراً القرقعة. كان مسكوناً حينهـا

بالحفلة وما تمخض عنها من خير ونبيلة وجوائز وعشـاء . استقر اختياره على كتاب فلاناجان حول الفن الحديث. جلس في القعدة يترجم ويصيغ ويعيد الصياغة إلى أن واتاه الكرى مع إطلالة الفجر فنام في قعدته. استيقظ بعد سـاعتين وهـو يحس بالتعب والإرهاق فضلاً عن الضيق الذي يخنق صدره.

في القاعة طغت عصبيته على تعاليه فتصرف بخشونة مع الطلبة. حاضر فيهم بتشنج كأنه يكره مهنتـه وأصـغى لأسئلتهم بنفاد صبر كـأنهم مفروضـون عليـه واقتضـب بالإجابات كأنه ينهرهم .كانت عيناه تلمعـان وهـو يـتكلم وأنفاسه تتصاعد إذا سكت. كأنه متحفز للعراك. فسر الطلبة والأساتذة توتره بسبب استبعاده من العشرة المختارين. ولـم يعرف سوى نبيلة أن سبب توتره نبيلة.

لاحظت نجلاء وجومه فسألته عما به فهز رأسه نفياً.لم يزد ولم تزد. تغدى وذهب مباشرة إلى الجريـدة. أعطـاهم مقالة بعنوان " حول فنّية التصميم " ركز فيها على التمييـز بين المعنى الأكاديمي للكلمة وبين مفهومها الحـديث الـذي يشتمل على معنى التكوين بالمفهوم الأكاديمي، لكنه يتجاوزها بتحريف الصيغة الطبيعية وليس مجرد النقل منها. فاللمسـة

التصميمية تنفذ إلى كل مكان في الصورة، إلى كل تفصـيل. أنها تمتد لمدى أوسع من عناصر المادة الواقعية للموضوع. معتبراً ان التزمت الأكاديمي بانحيازه الملح نحو الواقعية قيد الفن وهبط به في التكوين إلى حد الوهن. لأن أساس الفن هو التصميم المنعتق من الضوابط التي تحول دون مهارة الفنان وإلهامه. الفن تصميم، ثم تصميم وتعبير.

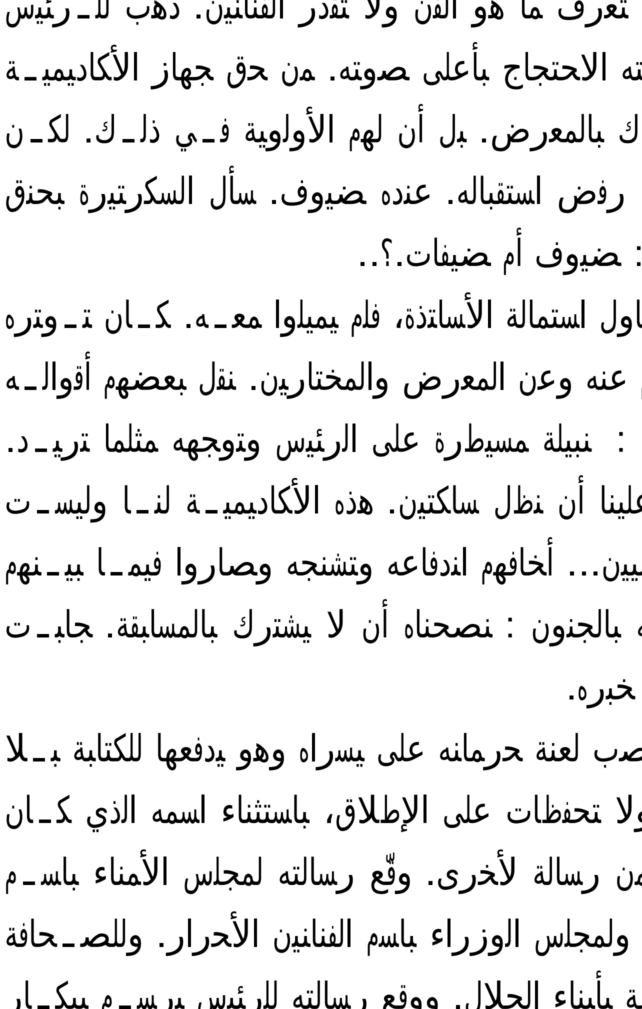
في اليوم التالي جاءهم بمقالة ثانية ينتقد فيها التصـميم الفائز بجائزة الأكاديمية ويعرض بقرارات لجنـة التحكـيم. رفضت الجريدة نشره حتى لا تسوء علاقتها بالأكاديمية التي نشرت نتيجة المسابقة بإعلان عريض في الصفحة الأولى مع صورة للفائز بكوفيته البيضاء وعقاله الأسود الرفيع. تحـرر قسام عندها من التحفظات التي قيدته في المقالة وأعاد كتابتها بيده اليسرى متحرراً من كل شيء فني واجتماعي، باسـتثناء ما يمكن أن يكشف عنه او يدل عليه، فلم يأت علـى ذكـر الماسونية وهو يعرض باللجنة والرئيس الذين ينظرون إلـى الفن من فتحة الكلسون.

ظل أياماً ينتظر علامة تدل على استلام مجلس الأمنـاء للرسالة. لكن شيئاً لم يحصل. أما الذي حصل فلم يخطر على

باله إطلاقاً. لقد شاهد خير بأم عينه يدخل الفناء ويتجه مـن فوره لمكتب الرئيس. مـاذا حصـل للـدنيا.؟. المدرسـون يحتاجون إذناً للدخول إلى الرئيس، فكيف يسمح لهذا الشـحاذ بالدخول. لعن أمه على أبيه. وغلبه الوجوم في غرفة مكتبـه لبعض الوقت، ثم وقف في النافذة كالمخبول علـى أمـل أن يغادر خير قبل أن تبدأ الحصة فيسأله عـن أمـر زيارتـه. سيناديه على الطريقة المصرية : ولد يا خير. مـاذا تفعـل هنا.؟.

في القاعة لم يجد نبيلة. أعطى طلابه واجباً كتابياً وظل يحاوص متوتراً بجانب النافذة. ما أن شاهد خير ترافقه نبيلة يغادران البوابة حتى استشرت به الهـواجس وتمكـن منـه الوسواس. ضبط الفيلم يوم الحفلة وركبت البكـرات أثنـاء العشاء واشتغلت الماكنات من حينها. أدرك لحظتها أن هناك مكيدة يدبرها الرئيس في الخفاء. ومع من.؟. مع هذا الولـد القميء.؟. بنت الحرام. تسـتهويها القمامـة ولا يسـتهويها الأستاذ.؟. في اليوم التالي جاء البلاء الأكبـر. إعـلان فـي الجريدة عن معرض لرسومات المختارين العشرة سـتنظمه الأكاديمية في عطلة الصيف. ألا يكفي النتائج المـزورة يـا

أولاد الحـرام. وتريـدون أن تنظمـوا معرضـاً لهـم.؟. مختارون.؟. حفنة هواة يجب حرقهم بالأسيد الـذي أحـرق كرامة الرئيس. هل يستهدفه الرئيس.؟.هناك عشرات الفنانين داخل الأكاديمية وخارجها يرسمون بأرجلهم أحسن من أيادي المختارين مجتمعين. لماذا لم يعرض الرئيس الأمـر علـى المدرسين.؟. إنه لا يريد إشراكهم حتى يشهر مختاريه.كلـه من تحت رأس نبيلة. إنها أوحت للرئيس بذلك من أجل هـذا الخير القميء. اسم على مسمى. وهل يستطيع الخيـر إلا أن يكون قميئاً.؟!. معرض للمختارين. كيف اختاروا الكلمـة.؟. مختارون.!!.من يسمع الكلمة يظنهـا اصـطلاح فنـي وأن هؤلاء الهواة وحدهم الفنانون. بلد تخويت. لديه لوحات تملأ الشرق الأوسط ويستثنونه من المعرض. قال مختارين قـال. كان الرئيس يريد حرمانه من المشاركة بالمسابقة ولمـا لـم يفلح، حال دونه والجائزة. وها هو يضيع عليه فرصة عرض لوحاته. كله بسبب نبيلة . تتألق الموهبة باللوحـات ويتـألق الفنان بالصالونات. هذا ما درسه في إيطاليا. وهذا ما آمن به وانتظره. ثم يأتي هؤلاء المختارون. إنه الرئيس الذي يريـد أن يسحق موهبته. إنها نبيلة التي تريد الثأر منه. إنها البلـد



التي لا تعرف ما هو الفن ولا تقدر الفنانين. ذهب للرئيس وفي نيته الاحتجاج بأعلى صوته. من حق جهاز الأكاديمية الاشتراك بالمعرض. بل أن لهم الأولوية في ذلك. لكن الرئيس رفض استقباله. عنده ضيوف. سأل السكرتيرة بحنق وغيظ : ضيوف أم ضيفات.؟..

حاول استمالة الأساتذة، فلم يميلوا معه. كان توتره يصدهم عنه وعن المعرض والمختارين. نقل بعضهم أقواله للرئيس : نبيلة مسيطرة على الرئيس وتوجهه مثلما تريد. عيب علينا أن نظل ساكتين. هذه الأكاديمية لنا وليست للماسونيين... أخافهم اندفاعه وتشنجه وصاروا فيما بينهم يتهمونه بالجنون : نصحناه أن لا يشترك بالمسابقة. جابت النتيجة خبره.

صب لعنة حرمانه على يسراه وهو يدفعها للكتابة بلا وعي ولا تحفظات على الإطلاق، باستثناء اسمه الذي كان يتبدل من رسالة لأخرى. وقّع رسالته لمجلس الأمناء باسم حيرام، ولمجلس الوزراء باسم الفنانين الأحرار. وللصحافة والإذاعة بأبناء الحلال. ووقع رسالته للرئيس برسم بيكار وفي رسالته لنبيلة رسم مهباش، وهي الرسالة الوحيدة التي

لم تصل إلى وجهتها. أما رسالته لديكران فقد ابتدأها بعبارة، خيرون خيرون خيرونيه. وأنهاها بعبارة، مع الإحترام.

ظل أياماً يتوقع ردود الفعل وينتظر بفارغ الصـبر أي علامة تدل على وصول رسائله، كأن يلقي الرئيس بنفسه من على سطح البناية. او أن تشـكل لجنـة وزاريـة لمقارنـة الخطـوط او أن يتنصـر المختـارون المسـلمون ويسـلم نصرانيوهم. او أن تتخذ الحكومة الوطنية قـراراً بـإغلاق الأكاديمية او أن يهاجم المتزمتون السفارات الأجنبية. لكـن أحداً لم يبد ردة فعلٍ على تلك الإهانات التي تجلـط الإنـس والجان، فسأل بائع الطوابع : هل ترسلون الرسائل لأصحابها أم تضحكون على الناس وتسرقون الطوابـع ثـم تمزقـون المغلفات... غضب الطوابعجي وصرخ على الشرطي الـذي اعتبر مناداته بهذه الطريقة إهانة، فسأل من مكانه وهو يفتل يده : ماذا هناك.؟. تمكن قسام أثناءها من الذوبان في لجـة الازدحام. لما أمن النجاة استولته نبيلة ثانية.

في المرسم قرر أن يبدأ تنفيذ الخطة ب. يجب أن ينجح الطلبة جميعاً وتسقط نبيلة وحدها في الامتحان.

تنتمي نبيلة لعائلة ثرية تراجع ثراؤها مع الأيام دون أن تتحول عاداتهم الاجتماعية وفق ما يقتضـيه الحـال. ورث الأب بضع عقاراتٍ تدر دخلاً كبيراً، أقعدتـه عـن العمـل، ودفعته للإدمان على الكحول. فباعها واحدة بعد الأخرى ولم يبق لديه إلا البناية التي يسكنون طابقها الثالث وينفقون مـن إيجارات الطوابق الباقية.

تراجع الدخل حوله عن الويسكي إلى العرق، لكنه ظـل مواظباً في التردد على بار السلمون يومياً. يحتل وأصـحابه طاولة ركنية محجوزة لهم على الدوام منذ العصـر وحتـى الإقفال. وكلما هم أحدهم بالرواح يستبقيه بإصرار، وعنـدما يستعد أحدهم لتوصيله يمانع وهو ينساق معه : هل تظن أنني سكران. أنا صاحي أكثر منك...في التكسي يرخـي رأسـه وينام، فيدخله رفيقه إلى البيت مترنحاً بين غائبٍ ونائم. ممـا كان يصيب زوجته بالحرج والخجل. تحرش بهـا بعضـهم مرات عديدة فلم تكن تصد او تشجع. تؤنب في العـادة مـن يتمادى مستغلاً حالة زوجها، فإن لم يرتدع تحذره وتنبهه لأن ابنتها مستيقظة، وتكون كذلك في الغالب. ينتهي الأمر بعـدد من القبلات التي تمنحها بممانعة : يكفيك هذا... وكان أيضاً

يكفيها. عندما يسألها زوجها في اليوم التالي إن كان أيقظهـا عند إيابه، تهز رأسها نفياً وتكرر عليه في ساعات صـحوه القليلة أن يكف عن الذهاب إلى البار ويشرب في البيت، لكنه يمانع بإصرار. لن يشرب خمراً في البيت أبداً : أمعقـول أن أشرب وأصحابي في البيت وابنتي صـبية.؟. كانـت نبيلـة توافقه وإن كانت في أعماقها تحتقره وتحتقر حياته وسلوكه وأقواله. تبرر أمها موقفها بأنها مستعدة لتحملـه وأصـحابه توفيراً في النفقات فالبار يستنفد منهم أكثر مما تستنفده شؤون العائلة واحتياجاتها. كانت تقتـر بالإنفـاق علـى الحاجـات المعيشية حرصاً على إبقاء مظاهر الثراء التـي اعتادوهـا والتمظهر أمام الناس بما يتناسب وأرستقراطية شقيقها الـذي تقاعد بعدما عمل قنصلاً لسنوات عديدة. كانت فخورة جداً به وتعتبره أكثر الناس فهماً وأخلاقاً ورقياً، وأرفع قدراً وأعلـى شأناً وأكثر قدرة من اولئك الذين سهلت لهم الوساطة البغيضة تبوؤ المراكز العالية بمن فيهم منصـب رئـيس الـوزراء. وتعتبر زوجة شقيقها مثلها الأعلى ومستشارتها في شـؤونها كافة، حتى الخاصة جداً، بما في ذلك معاشرتها لزوجها. لما

تخبرها عن سكره، تقول لها : ا لا يقيمه، طالمـا أنـه لا يؤذيك ولا يتدخل بشؤونك...

ساعد سكره في تهميش وضعه فهو لا يعرف إن كانت ابنته في البيت أم غائبة عنه ولا يسأل زوجته إن أبكرت في مغادرة البيت او تأخرت في العودة إليـه طالمـا أن البيـت مجرد فراش يأويه. كان يعاشر زوجته احياناً فـي الحـالات التي يعود إلى البيت وفيه بعض من وعي، تحفـزه زوجتـه غالباً أو تستثيره أثناء فترة الصحوة التـي تسـبق مشـواره المعتاد. عدا ذلك فإنه ليس له في البيت حضور ولا وجـود. فنشأت نبيلة متعلقة بأمها حنونة عليها. محتقرة لأبيها باغضة له. متأثرة بخالها متفاخرة به، تتمنى له الحياة المديدة بمثل ما تتمنى لأبيها الموت القريب. كانت تعتبـر أمهـا مظلومـة بزواجها من هذا السكير الذي أضاع عقله وثروته، وشـهلاء بسبب الاستمرار فيه وستعذرها تماماً لو كان لها عشيق. مع هذا، كانت تغتاظ وتتحفز للانقضاض كلما تناهى لسمعها في عمق الليل الأصوات الخفيضة بين أمها والمتحرشـين مـن أصدقاء أبيها.

عندما توفي أحست بأن ثقلاً كبيراً أزيح عـن كاهلهـا. لكن أمها شعرت بالفراغ لفترة طويلة، وصارت تطلق علـى زوجها الراحل لقب المسكين. لم يكن يثقل عليها او يسـيء معاملتها. علّته في إدمانه. لكن يكفي أنه كان رجلاً بجانبهـا، تحس به وتتسلى معه. وكانت كلما قالت هـذا تـذكر نبيلـة بسكارى الليل.

بعد موته تحسنت أحوالهم المعيشية لبعض الوقت. لكن التمادي في الصرف من أجل الإرتقاء بمستواهما إلى مستوى عائلة شقيقها، أبقى وضع البيت المعيشي كما هو، باسـتثناء اقتناء بعض المستحدثات من حين لحين. فقد استبدلت الثلاجة بأخرى كبيرة واشترت نبيلة غرامافون وتجدد العفش وثريات الكهرباء وكثر الإنفاق على الثياب والـولائم والـدعوات. وكلما جاء الحديث على ذكـر المرحـوم تتـذكر أم نبيلـة التحرشات التي تشتاق لها . فعندما جاء فني الصيانة لتصليح الغسالة انفردت معه في غرفة الغسيل الضيقة. أخذت تشرح حالة العطل بالميل حيناً فوق الغسالة حتـى ينشـد فسـتانها للأعلى وحيناً بالإنثناء للأسفل طابزة قفاها نحوه، فلم يتمالك الفني واحتواها فوق غسالتها. منحتـه مثلمـا كانـت تمـنح

سكارى زوجها. وفي ذروة اهتياجه هدأته : يكفيك. إلى هنـا فقط... كذلك فعلت مع جابي المياه وقارىء عداد الكهربـاء ومع المواسرجي والطريش وعامل التنظيفات. من حينها لـم تعد تطاق على زوجها لقب المسكين ولا تستذكر تسليته لها. فأدركت نبيلة أن أمها واتتها الفرصة. فلم تعد تخـرج لفـتح الباب، ولا تسأل عن الطارق او الزائر إلا إذا أخبرتها أمهـا أنه يخصها. قابلت أمها هذه الثقة بثقة أكبر وانفتـاح تـام. فصارت تستقبل زوار نبيلة الأغراب وترحب بهـم وهـي تتوجه معهم إلى الصالة ثم تتركهم وشأنهم، شـباناً كـانوا أم شابات. وإذا زارهما شقيقها وابنه، فإن نبيلة تدعو ابن خالها لمخدعها، وتجلس أمها مع شقيقها في الصالة، دون أن يسيئا الظن او تراودهما الشكوك او يبديا التحفظات. لم تكن نبيلـة وابن خالها يتحرجان من مجيء أمها إلـى المخـدع حاملـة الشاي او العصير او الكعك او أي شيء كان، فـلا يغيـران وضع تربعهما على الأرض متلاصقين او استلقائهما علـى السرير متجاورين، يطالعان المجـلات او يتفرجـان علـى الصور او يتبادلان الطرائف والنكات. في إحـدى المـرات

ضبطتهما يتعانقان، فانسحبت دون أن يحسا بها، ولـم تـأت على ذكر الموضوع وقلما تذكرته.

كانت تتوق لأن تكون نبيلة من نصيب ابن خالها، على العكس من شقيقها، الذي وإن كان يبدي تعاطفـاً ووداً تجـاه نبيلة إلا أنه كان يعتبرها دون مستوى ولده بكثير. وبخاصـة في نطاق عائلته وزوجته الذين يعتبرون أبـا نبيلـة أسـوأ المخلوقات. قد تصلح نبيلة صديقة مؤقتة، يتسلى ابنه معهـا دونما أي ارتباط. لهذا كان يحذره دائماً من التورط معهـا. فهي في النهاية ابنة ذلك السكير.

تعلمت من أمها أن تمنح في حدود واختلفت عنها فـي الجرأة والمبادرة، فجاءت ردود الفعل عكسية. إذ كان تـردد أمها يزيد من تمنّعها ويحفز المتحرشين بها، بينما كان إقـدام نبيلة يربك الراغبين فيها وتحرج جرأتها المتـوددين إليهـا. وإذا أخفق أحدهم معها تشعره أنه أضاع الفرصة على نفسـه ولم تضع عليها وهي تتولى عنه إلى سواه دونمـا تـردد او حرج. كانت متيقنة أنها قادرة على التحكم بـأهواء الرجـال ومصـائرهم. تطفـئهم إن أرادت او تحـرقهم. تجـذبهم او تبعدهم. فمن لا يذيبه إغراؤها يميته إحجامها. تغيظ مـن لا

يستجيب لإغوائها بإغواء رفيقه او زميله او من يجاوره فـي المقعد. كانت تغتاظ ممن يضيع فرصة إغوائها لكنها لم تكن تعتبر صدوده عنها إهانة إلا أنها تعتبر صده لهـا جريمـة. فهي لا تغفر أبداً لمن يلجمها او يردعها فكينونتها تتألق في جسدها وكرامتها محصورة في أنوثتها. فمن يعيشهما عاشها ومن يميتهما أماتها. ومن لا يعرف سلوك هذين الدربين فإنه سيظل يقرع على بوابتها ولن يستطيع الدخول إلى حـديقتها. عندما كانت أمها تحذرها من الانجراف، كانت تـرد عليهـا بأنها ليست سهلة، بل عصية أكثر مما تتصور. فيطمئن أمها تذكرها لسكارى أبيها. مع أنهما تمنيتا كثيراً لو لـم تضـيعا فرصة وكانتا في دواخلهما تعزيان أنفسهما بأنهما لـلآن لـم تصادفا فرصة حقيقية. حتى في الأكاديمية لم تنجذب نبيلـة إلى الدارسين او المدرسين، مع أنهم شغوفون بها متـوددون لها. كان معظمهم يقتات على الفتات الـذي يخطفونـه مـن أطراف المائدة، وإذا حثت بعضـهم يخجلـه كرمهـا عـن الاستجابة فيشير لمن حوله كي يتفضل، فتتحول لسواه الـذي يغتبط وقد يأكل لقمة يزدردها ببطء وخجل وارتباك، فتظـل مائدتها طازجة عامرة باللحم والدسم والرائحة الشهية بينمـا

يتضور المحيطون بها وكل منهم يشجع الآخر على الإقـدام. تمنت لو أنهم كانوا شحاذين على أن يكونوا ضيوفاً ثقيلين.

أعجبها تحدي خير لكلين وأعجبها تمكنه مـن الفرشـاة وسرعته في الرسم. وأحست في داخلها بالتعاضد معه بينمـا الجمهور يهمهم ساخراً متذمراً.

لحقت به بعد ان ظل مواصلاً إلى الخارج فوجدت قسام برفقته. عادت أدراجها وهي عاقدة العـزم للتعـرف عليـه بمجرد انتهاء العرض، فأنساها الأسيد يومهـا كـل الخيـر. سألت عنه قسام فأبدى امتعاضاً وهو يدعي عدم معرفتـه او معرفة عنوانه. ثم نسيت أمره ولم تنس شكله وهيأته، فلمـا شاهدته يوم توزيع الجوائز بادرت للسلام عليه وذكرته بيوم العرض. تضاحكا معاً وتحدثا عن الأمر مطولاً. لما سـألته عن المسابقة، أخبرها بأنه لم يكن ليشترك لـولا أن معلمـه الأرمني ضغط عليه، فراحت تسأله عن عمله ودراسته ولـم تأت على ذكر أهله على الإطلاق وقابلها بالمثـل. أخبرهـا بعنوان المشغل فوعدت أن تزوره يوماً وأعطته بالمقابل رقم هاتفها. كانت وهي تتحدث إليه او تصغي له تطيل النظر إلى عينيه. لم يحرجه ذلك ولم يربكه ولم يثر نوازعه ولا استثار

غرائزه او أطلق أوهامه. قالت له بأن عينيه جميلتـان فـرد عليها بالمثل : عيناك أجمل... لم يقصد من مغازلتها أكثـر من الحديث والتعبير عن رأي فني. إنه مكتفٍ بما يقدمه لـه زاهر وما يناله عند فاتنة. لن تعاد ثانية قصة نجلاء. أحست به وهما يجلسان متجاورين في القاعة أن احتكاكه بها عفوياً تماماً مثل حديثه. أعجبها اقترابه منها بلا وجل او ذوبـان. لمح قسام يحملق به بوجه متكدر وعينين غائرتين. أشار لـه فأشاح عنه قسام. كذلك فعل فـي كـل مـرة التقـت فيهـا نظراتهما. سأل عنه نبيلة، أثناء المناداة على الأسماء الـذي كان يرافقه تصفيق حاد. فقالت : معقّد.. ولم تـزد. عنـدما نودي على اسمه. دوى التصفيق بينما الأعين تستكشفه. خبا سريعاً مع تقدمه بالزنوبة التي لفتت الانتباه أكثر من جائزته. احتل خلال ذلك رجل متهندم مقعده ضارباً بعرض الحـائط احتجاج نبيلة. تسلم الجائزة باستعلاء وشـمخ أمـام كـاميرا التصوير ولم يبال بالتصفيق الباهت القليل الذي حظي به وقد علا تصفيق نبيلة أكثر من الآخرين. عاد إلى مقعـده واثـق الخطى. خاطب الرجل الذي احتل مقعده بنبرة احتقار : هـذا محلي... فأخلاه دونما اعتراض. قالت له نبيلة : مبروك...

سألها : على ماذا.؟.

- على الجائزة.
- إن لم تكن الأولى فهي ليست جائزة.
- ماذا إذن.؟.
- مجاملة.
- وحضورك مجاملة.؟.
- قلت لك. إنه ديكران.

استأثر بها الرئيس وهم يتقدمون إلى طاولة العشاء فـي فندق فيلادلفيا، فجلست بجانبه. نادت على خير الـذي بـدا محتاراً فاحتل مقعداً بجانبها مما ضايق الرئيس في الجانـب الآخر وضايقها الرئيس وهو يلصق ساقه بساقها طيلة العشاء ويميل بجذعه بين الفينة والفينة ليتحـدث مـع خيـر عـن تصميمه. لما جلبت الفواكه لم يمد خير يداً، فدعته إليها نبيلة. قال بأنه يخاف أن تصيبه بالإسهال. ضحكت من الأعمـاق. كان كل شيء فيه حقيقياً. مزاحه وجديته. رثاثته ووسـامته. حديثه وأصغاؤه. قالت له مازحة : ألا تأكـل الفواكـه فـي البيت.؟.

قال بهدوء : لا بيت لي.

- ألا تسكن مع عائلتك.؟.

- لا عائلة لي.

تساءلت نظراتها، فقال بمودة : قصة طويلة يا نبيلة.

أحست بخدر لذيذ وهو ينطق باسمها وكأنهـا تجرعـت خمراً معتقةً أبهجتها من الأعماق.

لم تتصرف خلال الجلسة برعونة ولم تتحدث بدلع. بل بجدية أثارت استغراب المدعوين من طاقم الكليـة باسـتثناء الرئيس الذي كان يتصنع عدم الاهتمام بها بينما يده تعبث في حجرها. غلب على حديثها مع خير جدية ورصانة يتخللهـا أفأفة من حين لحين، وكلما انحرفت في مقعدها قلـيلاً نحـو خير تجفل وتتسأسأ وهي تعاود الانحراف نحو الرئيس الذي حاول أن يمنح القليل وهو يسعى للمزيد، فمال تجـاه خيـر، حتى أن نبيلة اختفت بينهما. أخذ يسأله عن عمله وإنتاجـه. قال خير بأن لديه العديد من الخطّيات والرسـومات فأبـدى الرئيس استعجاباً. جحظت عينا نبيلـة : خلينـا نشـوف... وكادت نبيلة تصرخ : يمكن أن ننظم لك معرضاً...

- معرض.!. أين.؟. سأل خير بلهفة..

- كيف أين.؟. عندي...وشهقت نبيلة وباعدت براحتيها بينهما : انخنقت يا جماعة.

في اليوم التالي أرسل الرئيس وراء نبيلة. لمـا جاءتـه استقبلها بوقار مدعياً أنه يرغب في سماع تقويمهـا للحفلـة ووليمة العشاء. كان قد نسي فصاحته في الحفل ومذاق لسانه في العشاء وباقي أقواله أثناءهما. لم يكن يتحرك في ذاكرتـه سوى حركات يده. مع هذا لم يلمح لها ولم تأتِ نبيلة علـى ذكرها. لكن عندما حاول التملص من العرض الـذي قدمـه لخير بحجة أنه مجاملة لا أكثر، قالت له نبيلة : هل تريد أن يقول الذين سمعوك، أنك تحكي ولا تفعل...

جحظت عيناه وانكمشت تعابيره ولم يحر جواباً، فتركته في حيرته وغادرت. قبل أن ينتهي الدوام، جاءها المراسـل يستدعيها للرئيس الذي عرض عليها نـص الكتـاب الـذي سيرسله للمختارين العشرة يعلمهم فيها أن الأكاديمية قـررت تنظيم معرض خلال العطلة الصيفية لرسوماتهم علـى أن لا يزيد عدد اللوحات المعروضة لكل منهم عن عشر.

اقترحت عليه أن ترسل الرسائل باليد وتسـلم شخصـياً لأصحابها. هذا يضمن وصولها فـي اليـوم نفسـه وعـدم

ضياعها، والأهم من ذلك أنه أوجب لهم ويدلل على اهتمـام الأكاديمية بهم. لم تكن بحاجة إلى كل هذه التبريرات حتـى يقتنع الرئيس الذي أبدى حماساً للفكرة. عرضـت أن تأخـذ رسالة خير بنفسها، فالمشغل الذي يعمـل بـه قريـب مـن سكناها. لم يعارضها الرئيس وأن أبدى امتعاضاً. في اليـوم التالي وزعت باقي الرسـائل وعلقـت نسـخة فـي لوحـة الأعلانات.

بعد أيام وصلت لمجلس الأمناء رسالة جعلت أعضـاءه يحسون بالصغارة والمهانة والاشمئزاز لكثرة ما احتوته مـن ألفاظ بذيئة بحق الرئيس والأكاديمية والأوساط الفنية. فدفعهم الحياء إلى إخفاء أمرها حالياً والاحتفاظ بها لحـين الحاجـة إليها في المستقبل. لم يعرفوا أن نسخة عنها وصـلت إلـى الرئيس وشبيهات لها أرسلت إلى الجرائـد ورجـال الفـن المعروفين ومجلس الوزراء والنواب. ووصلت واحدة إلـى محل ديكران، فأرسل وراء خير. قال له بانشراح : لم تشتهر بعد وصار لك أعداء... رمى له الرسالة، فكاد خير يمزقهـا وهو يحس بالهوان. قال له ديكران : قد يكون بهـا بعـض الحقائق فاستفد منها... استرخى في كرسيه وهو يضـيف :

تعرضت في عملي إلى مثل هذا. من يرتقي درجـة يسـحبه المقعدون إلى الأسفل دركات...

تساءل خير بغيظٍ عـن صـاحبها. فقـال ديكـران : كثيرون... ولما لم يفهم خير، أوضح : أصـحابها الآن مـن استلموها وقرأوها بغض النظر عمن كتبها او كتبوها.

- لكن من يعرف عنواني.؟.. قالها وقد ومـض فـي مخيلته وجه قسام. أجابه ديكران بسرعة مبرئـاً خطّاطيـه : صندوق البريد مكشوف على الآرمة لكل الناس...

٢٠

كان الامتحان ذا شقّين. نظري يستلزم دراسة ومذاكرةً، وتطبيقي يستلزم موهبة ودقة ومهارة. اقتبس قسام أسئلته النظرية من أسئلة امتحاناته في البندقية. أجاب عنها جميعها وهو يشرحها ويوضحها للممتحنين في القاعة الأولى. في القاعة الثانية زاد تفسيره لها من غموضها، فاحتار الممتحنون بمن فيهم نبيلة بفك طلاسمها. بعد انقضاء نصف الوقت، سلّم بعضهم أوراقهم يائسين من الإجابة وتبعتهم نبيلة. فجاء قسام على الفور وأعاد تفسير الأسئلة بإسهاب أقرب إلى الإجابة منه إلى التوضيح. أما الذين غادروا قبل نبيلة فاعتبرهم ضحاياها.

في الشق التطبيقي، الذي يعتمد أساساً على رأي الأستاذ، كان امتحانه للطلبة أقرب إلى المناقشة وتبادل الرأي، بينما أغرق نبيلة بالنظريات والمصطلحات التي أعدها مسبقاً على ورقة مكتوبة. فتقررت نتيجتها سلفاً. وهي وإن أبدت عدم اكتراث بالأمر إلا أنها أسرت للرئيس بالصعوبة التي واجهتها في الامتحان.

تردد الرئيس في التدخل بسبب الرسالة المهينـة التـي وصلته، فطلب منها مراجعة قسام قبل أن يسلّم النتائج، وكان في نيتها أن تفعل ذلك. فهي حتى ذلك الحين لم تكن تـدرك أنها المستهدفة الوحيدة، وفي ظنها أن صعوبة الأسئلة عامـة على الجميع. لم تتوقع أن يكون قسام قد طفح برغبة الانتقام. هوسه بها لا يختلف عن هوس الآخرين الذين يزدادون رغبة فيها كلما ازداد تمنّعها. غيض منها يعود عليها بفـيضٍ مـن الآخرين.

أربكتها هيأته عندما دخلت غرفة المكتب مغلقة البـاب من خلفها : مساء الخير أستاذ قسام.

نظر إليها بحقدٍ وشراسةٍ غير معهودة. ولم يرد التحية.

تقدمت مرتبكة وهي تتردد بـين التراجـع والتقـدم. فوصلت قريباً من الطاولة التي تغص بالأوراق.

- خير.؟.. قال وهو ينظر إلى أوراقه بغضبٍ.

- إذا مشغول. مرة أخـرى... وهمـت بالاسـتدارة. فاستوقفها بحدة : خلصيني... نظر إليها بقرفٍ وضيق وهـو يضيف : ماذا تريدين.؟..

قالت متلعثمة : كنت أريد أن أتحدث معك بخصوص...

قاطعها بسرعة : الامتحان...

- وا يا أستاذ، كانت الأسئلة صعبة.

هز رأسه وهو يقول موبخاً : ليست صعبة علـى مـن يدرس.

انحرفت إلى جانب الطاولة وهي تقول بمسـكنة : وا إني درست مادتك أكثر من باقي المواد.

استرخى في كرسيه وابتسم باستخفاف: إذا كنـت قـد درست فلم أنت قلقة.؟..وأصبحت بجانبه.

- كل الطلاب قلقون.؟.

- لماذا.؟. جميعهم أجابوا الأسئلة.

تغيرت تعابير وجهها : يعني. أنهيت التصحيح أستاذ.؟.

أراد ان يرد فاسترسلت متلعثمة : كم نتيجتي.؟.

ظل ساكتاً وانشغل بالأوراق : أرجوك أستاذ. قل لـي. ناجحة أم مكملة.؟.

- خاص روحي الآن. بكرة ستعرفين النتيجة.

- ا يخليك يا أستاذ... وأمسكت يده. فتمنى من أعماقه أن تقبلها وتستجديه. لكنها بدلاً مـن ذلـك وضـعتها علـى

صدرها : اسمع دقات قلبي. هل يهون عليك أن أظل قلقة... وحركت يده فوق ثدييها : سامع أم لا.؟.

انتزع يده وهب واقفاً : ماذا تفعلين.؟. هل تظنيني مثل رئيسك المراهق... دفعها بكلتا يديه فترنحت إلـى الخلـف وارتطمت بالجدار : أنا لا أشترى بالحسمسة. فاهمة. إطلعي من هنا.

حملقت به مذعورة مأخوذة وهي تحس كأنـه سـحقها بقدمه. فتعالت أنفاسها أكثر من أنفاسه. أسرعت تغادر وهـو يقول : روحي أعملي هذه الحركات في بيت أهلك... أضاف بصوتٍ عالٍ وصل إلى خارج الغرفة : الأكاديميـة ليسـت كباريه يا محترمة.

إنها المرة الأولى في حياة قسام التي يتصرف فيها بمثل هذه العصبية وهذا الحنق. طيلة عمره يفـرغ غضـبه فـي رسوماته وكتاباته وأحلام يقظته. لهذا لم تهدئ فعلتـه مـن توتره ولم تمتص حنقه بل أطلقت جنونه. فإذا أحست نبيلـة بأنه سحقها بقدمه. فإنه كان يحس بنبيلة حبلاً يخنقه، وهو في صراخه وانفعاله وتلويه إنما يروم الخلاص. كانـت حالتـه أقرب إلى حالة من يقتاد للمشنقة. يشـتم ويلعـن أولاً، ثـم

يصرخ طالباً الشفقة والرحمة وينتهي باكيـاً وهـو يستسـلم لإرادة الجلاد. فلو احتملت نبيلة صراخه وعنفه دقيقة أخرى لربما أخذ بالبكاء.

في البيت وجد بركاناً آخر ينتظره. لم تبال نجلاء بحالته النفسية الواضحة في تشنج تعابيره، ولا اكترثت باتقاد عينيه وسكون أجفانه. ولم تنتظر حتى يتغدى وينـام ويهـدأ. بـل بادرته شاكية أمرها، تلعن حظها وبختها. كل النـاس صـار لديهم غسالات. لمياء لديها اثنتان وهي تشقى كل يومٍ بخرق ابنتها وثيابه وثيابها : اليوم أريد غسالة... وكانت قد انتهـت للتو من بح حفاظات ابنتها.

قال بجفاء : ها انت تغسلي عند لمياء.

-وهل سأحمل الحفاظات إلى لمياء. ألا تسـتحي مـن نفسك.

- إحكي معي باحترام .

- وكيف الاحترام.؟. هل أقول لك سيدي.؟!.

- نجلاء. أنا متخانق مع جميع من في الأكاديميـة. لا تزيديها علي.

- وأنا غير مستعدة أغسل قرف بنتك. أريـد غسـالة. يعني أريد غسالة.

- من أين النقود يا نجلاء.؟.

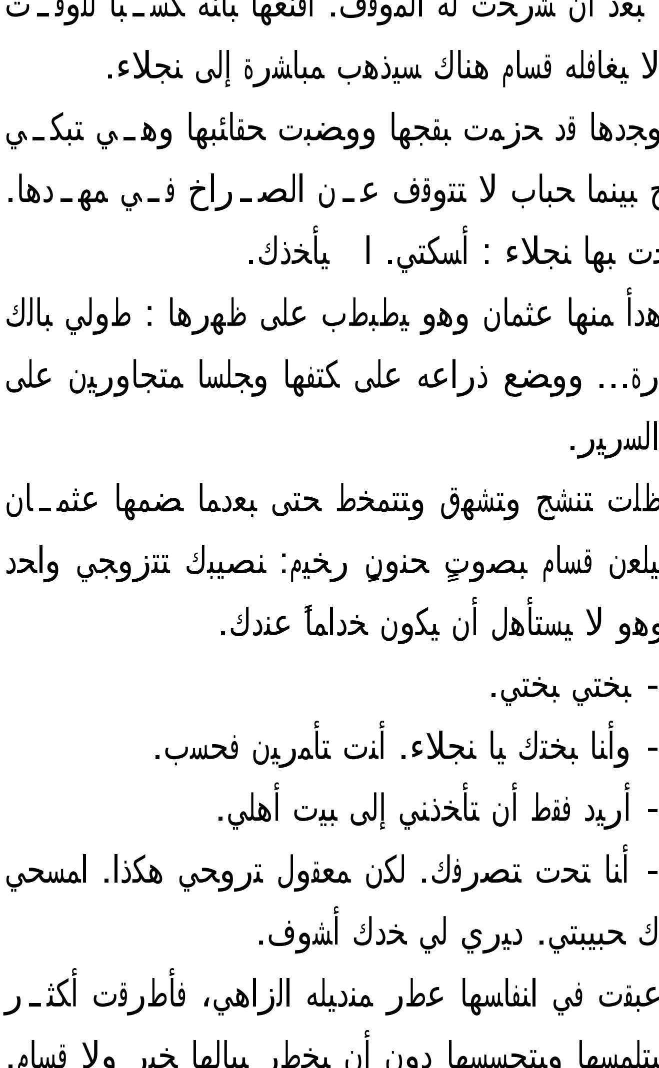
- ألف مرة قال عثمان أنه مسـتعد أن يشـتريها لنـا وتسدده قيمتها على راحتك.

- عثمان. عثمان. عثمان. يلعن أبو عثمان الأولاني.

- تغلط عليه لأنه أحسن منك.

- أنا أحسن منه ومنك ومن كل عائلتك. فاهمة أم لا.؟..

لم تكن نجلاء تفهم حينها أي شيء ولم يكن قسام يفهـم شيئاً أيضاً. في تلك اللحظة الغبية من المواجهة قـرر كـل منهما أمراً غبياً. حمل قسام فرشة ونام في مرسـمه حتـى الصباح ثم ذهب إلى الأكاديمية وأضاف على ورقة امتحـان نبيلة ملاحظات موبخة قاسية، وسلّم الأوراق لـلإدارة. أمـا نجلاء فقد هاتفت لمياء من دكان قريب، وهي تبكي وتنشـج بسبب ما فعله بها قسام، حالفة يميناً وراء آخر أنها لن تبقـى في البيت دقيقة واحدة، ومصرة بإلحاح أن يأتي إليها عثمـان لمساعدتها في نقل أغراضها بسيارته. اتصلت لمياء بمحـل الأنتيكة وطلبت من عثمان أن يأتي لاصطحابها إلـى بيـت



نجلاء بعد أن شرحت له الموقف. أقنعها بأنه كسـباً للوقـت حتى لا يغافله قسام هناك سيذهب مباشرة إلى نجلاء.

وجدها قد حزمت بقجها ووضبت حقائبها وهـي تبكـي وتنشج بينما حباب لا تتوقف عـن الصـراخ فـي مهـدها. صرخت بها نجلاء : أسكتي. ا   يأخذك.

هدأ منها عثمان وهو يطبطب على ظهرها : طولي بالك يا أميرة... ووضع ذراعه على كتفها وجلسا متجاورين على حافة السرير.

ظلت تنشج وتشهق وتتمخط حتى بعدما ضمها عثمـان وهو يلعن قسام بصوتٍ حنونٍ رخيم: نصيبك تتزوجي واحد مثله وهو لا يستأهل أن يكون خداماً عندك.

- بختي بختي.

- وأنا بختك يا نجلاء. أنت تأمرين فحسب.

- أريد فقط أن تأخذني إلى بيت أهلي.

- أنا تحت تصرفك. لكن معقول تروحي هكذا. امسحي دموعك حبيبتي. ديري لي خدك أشوف.

عبقت في انفاسها عطر منديله الزاهي، فأطرقت أكثـر وهو يتلمسها ويتحسسها دون أن يخطر ببالها خير ولا قسام.

نسيا كلاهما في غمرة النشوة حباباً التي خبا صـراخها مـع خبو أنفاسهما. : عملنا غلط يا عثمان.

- بالعكس. أصلاً أنت كنت من نصيبي لولا ظـروف جعلتني أأجل الخطبة.

- وهل كنت تعرفني قبل أن تخطب لمياء.؟.

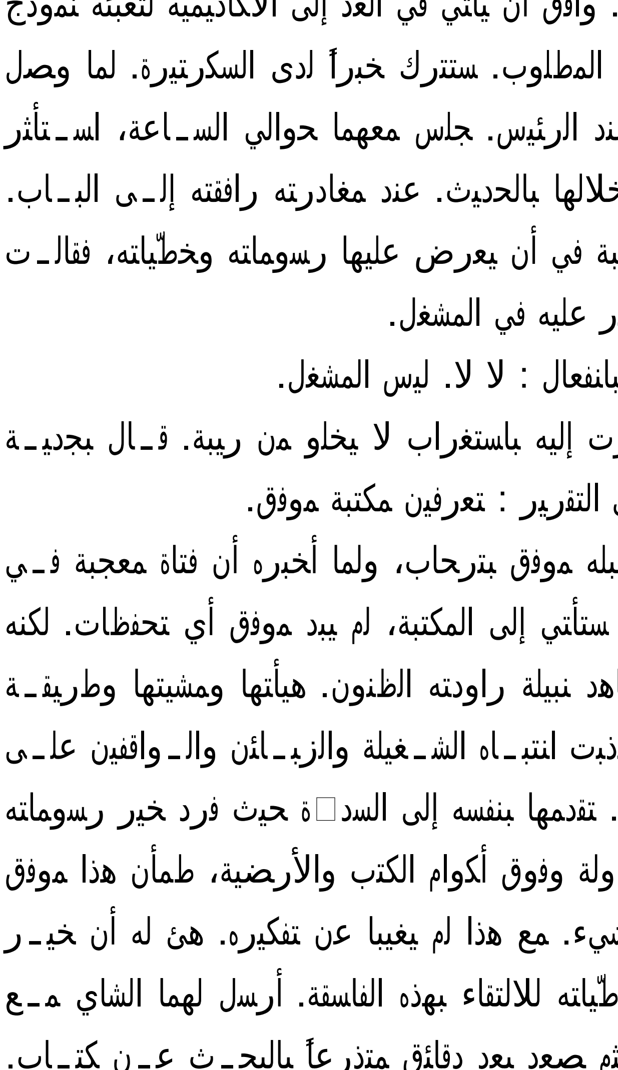
- وهل يخفى القمر يا نجلاء.

٢١

تكفلت نبيلة بإيصال الدعوة لخير، بدافع الفضول لمشاهدة المشغل والالتقاء بالمعلم الذي أسهب خير في الحديث عنه خلال الحفل والعشاء. لكنها لم تجده هناك، وحمد خير ربه على ذلك. فهي لا تدري ما كتب عنها في رسالة خيرون.

جلست معه في المشغل فأربكت زملاءه الخطاطين. تحدثت معهم جميعاً واستفسرت منهم واحداً بعد الآخر عن مهنتهم وهواياتهم ولما سألتهم عن رأيهم الفني بخير. أحس خير بالحرج وأحسوا بالاستياء. أجمعوا على أن خير خطاط جيد ولم يصفه أي منهم بأنه فنان. لم يخفوا طيلة الوقت امتعاضهم منه. حاول أحدهم تحقيره عندما سأله أن يوصي لهم على الشاي. تفرس به غاضباً، فتدخلت نبيلة معتذرة عن شرب الشاي وطلبت من خير أن يرافقها لمكتب ديكران.

سلمته الدعوة وهي تميل عليه وتحتك به وتلامس بصدرها عضده، فأحس بالاهتياج وأوشك أن يحتويها فانسحبت نحو الواجهة واتكأت على الباب. أخذت تتمعنه بنظرات شبقة وكأنها تدعوه. تقهقر إلى الجدار المقابل وتحدثا



متباعدين. وافق أن يأتي في الغد إلى الأكاديمية لتعبئة نموذج الاشتراك المطلوب. ستترك خبراً لدى السكرتيرة. لما وصل وجدها عند الرئيس. جلس معهما حوالي الساعة، استأثر الرئيس خلالها بالحديث. عند مغادرته رافقته إلى الباب. أبدى رغبة في أن يعرض عليها رسوماته وخطّياته، فقالت بأنها ستمر عليه في المشغل.

رد بانفعال : لا لا. ليس المشغل.

نظرت إليه باستغراب لا يخلو من ريبة. قال بجدية أقرب إلى التقرير : تعرفين مكتبة موفق.

استقبله موفق بترحاب، ولما أخبره أن فتاة معجبة في رسوماته ستأتي إلى المكتبة، لم يبد موفق أي تحفظات. لكنه عندما شاهد نبيلة راودته الظنون. هيأتها ومشيتها وطريقة حديثها جذبت انتباه الشغيلة والزبائن والواقفين على الرصيف. تقدمها بنفسه إلى السد□ة حيث فرد خير رسوماته على الطاولة وفوق أكوام الكتب والأرضية، طمأن هذا موفق بعض الشيء. مع هذا لم يغيبا عن تفكيره. هئ له أن خير تذرع بخطّياته للالتقاء بهذه الفاسقة. أرسل لهما الشاي مع الصبي، ثم صعد بعد دقائق متذرعاً بالبحث عن كتاب.

شخص بهما وهما يجلسان متلاصقين يتـأملان الرسـومات وشعت الريبة في وجهه. أدرك خير الموقف، فطلب رأيه في إحدى الخطّيات. قال له موفق : تعرف رأيي من قبل.

قالت نبيلة وهي تنظر لموفق بوله : أنا لا أعرفه.

قال موفق وهو يشيح عنها نحو خير، مشيراً عليه بيده : أحسن خطّاط ورسام مر علي.

ازداد الوله في نظرات نبيلة وهي تنظر لخير.

ساعدت الرسومات في كبح اهتياج خير، لاسـيما وأن نبيلة انسجمت بالرسومات التي أدهشتها واسـتحوذت علـى اهتمامها. غادرت بعد حوالي نصف ساعة، فظل خيـر مـع موفق. تحادثا بعيداً عن الموضوع لبعض الوقت، ثـم سـأله خير إن كان قد تضايق من الزيارة. قال موفـق بأنـه لـم يتضايق، لكن بقاءه في السدة مع فتاة مثل هذه... قاطعه خير محتداً : ماذا تقصد، فتاة مثل هذه.؟... ارتبك موفق وأعجزه الحرج عن الرد، فأضاف خير : إنها طالبة، تدرس الفن في الأكاديمية.

انتاب موفق شعور بالذنب، وأحس بأنه أسـاء الظـن. اعتذر بالقول : تعرف الناس يا خير، وبخاصة الشغيلة. ماذا

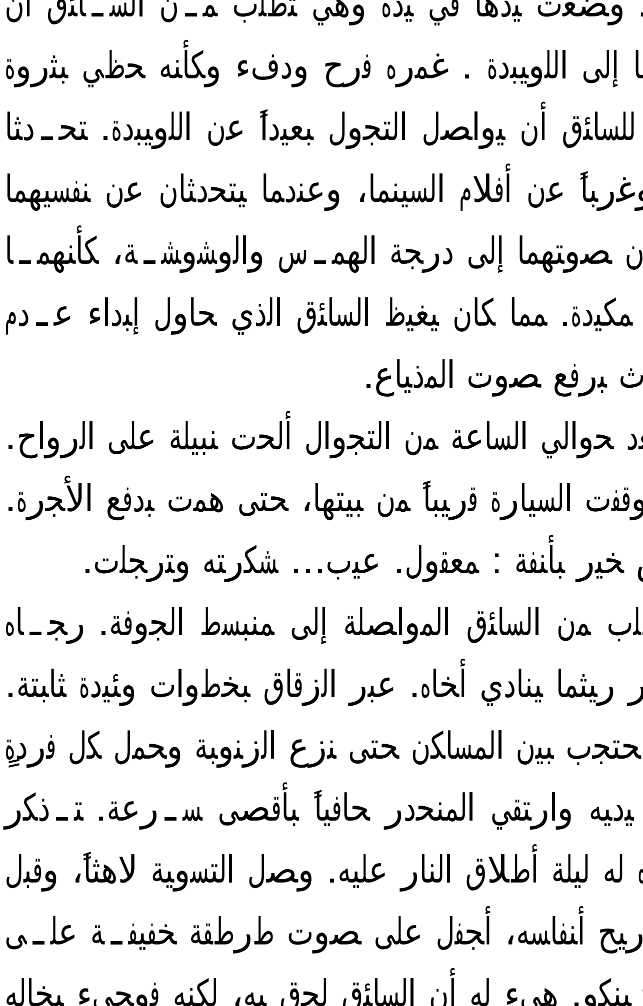
يمكن أن يتقولوا على انفرادك بفتاة فوق السـدة... عـرض عليه استخدام مقصورة أبي يحيى السينمائية فـي أي وقـت يريد.

أسعد ذلك خير. وأسعد نبيلة التي غدا خير بالنسبة لهـا ليس ولداً شحاذاً على رأي قسام، وإنما فنان تمتـد علاقاتـه الفنية إلى خارج المشغل وله معجبون ومريدون.

ذهبا في حفلة الثامنة، فازدرى المراقب خير وهو يتقدم مع نبيلة إلى المقصورة التي أحـاط بجوانبهـا المراقبـون الآخرون طيلة عرض الفيلم. لم يزعج ذلك نبيلة. كان يكفيها الجلوس مزهوة وكأنها سيدة ارستقراطية.

لم يقدما على أي حركة طيلة العرض، باستثناء ميلهمـا نحو بعضهما من حين لحين. يعلقّان على الفيلم او يتضاحكان كالهمس، بينما يلتفت لهما المراقبون باستمرار.

عندما أضيئت الصالة حوالي العاشرة، ظلا ساكنين في مقعديهما يقابلان نظرات الرواد المغادرين بنظـرات ثابتـة، وكأنهما يريدان من كل الناس أن يشاهدا تميزهمـا. اتخـذا طريقهما إلى مركز المدينة وفي تقدير خير أنه سيوصلها إلى بيتها مشياً على الأقدام. ارتبك عندما أشارت لسيارة تكسـي،



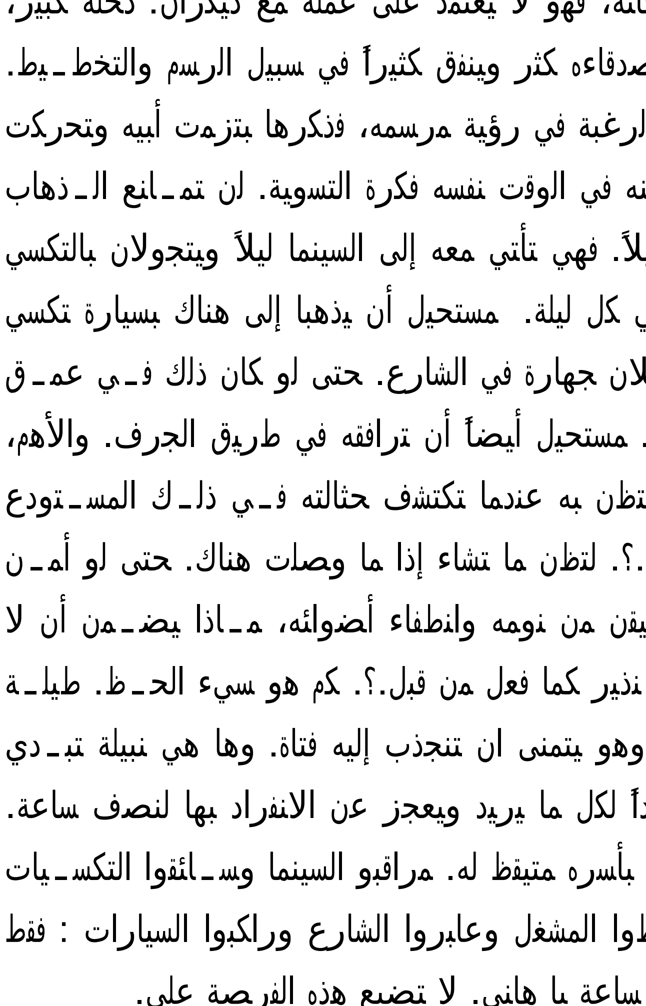
لكنه لم يتردد في الركوب بجانبها والالتصاق بها في المقعـد الخلفي. وضعت يدها في يده وهي تطلب مـن السـائق أن يأخذهما إلى اللويبدة . غمره فرح ودفء وكأنه حظي بثروة فأوعز للسائق أن يواصل التجول بعيداً عن اللويبدة. تحـدثا شرقاً وغرباً عن أفلام السينما، وعندما يتحدثان عن نفسيهما يخفضان صوتهما إلى درجة الهمـس والوشوشـة، كأنهمـا يدبران مكيدة. مما كان يغيظ السائق الذي حاول إبداء عـدم الاكتراث برفع صوت المذياع.

بعد حوالي الساعة من التجوال ألحت نبيلة على الرواح. ما أن وقفت السيارة قريباً من بيتها، حتى همت بدفع الأجرة. عارض خير بأنفة : معقول. عيب... شكرته وترجلت.

طلب من السائق المواصلة إلى منبسط الجوفة. رجـاه الانتظار ريثما ينادي أخاه. عبر الزقاق بخطوات وئيدة ثابتة. ما أن احتجب بين المساكن حتى نزع الزنوبة وحمل كل فردةٍ بإحدى يديه وارتقي المنحدر حافياً بأقصى سـرعة. تـذكر انحداره له ليلة أطلاق النار عليه. وصل التسوية لاهثاً، وقبل أن تستريح أنفاسه، أجفل على صوت طرطقة خفيفـة علـى لوح الزينكو. هيء له أن السائق لحق به، لكنه فوجئ بخاله

نذير، يحمل صحن كنافة : حلوان توظيف أختيك يا خيـر...
قالها نذير بطيبة مفرطة. فلم يتمالـك خيـر نفسـه، وألقـى
الصحن بكل قوته. ظل نذير يهدئ منه ويتودد له. كله مـن
أبيه الذي يمنع الجميع من الالتقاء به. أبدى قبـل أن يخـرج
استعداده لاستقباله في المصبغة إن أراد الاستحمام أو غسـل
الثياب. حتى لو كان معه رفيقة فأهلاً وسهلاً بهما معاً. بعـد
مغادرته هدأت أعصاب خير وسرح خياله مع نبيلـة داخـل
المصبغة، يتعاركان فوق الثياب. تساءل فجأة عن سبب مودة
نذير وكرمه غير المعهود : إذن هكذا يا خالي.؟.. هز رأسه
كأنه يتوعد.

في اليوم التالي ذهب إلى موفـق. أعطـاه تصـريحاً
للمقصورة مرة أخرى، وفي المرة الثالثة أبدى استياء : ألـم
تزهق الفيلم... كما أن نبيلة أحست بـالحرج مـن نظـرات
المراقبين واستحكامهم بجانب المقصورة. لم يكن لخير مكان
آخر يأخذها إليه، اللهم إلا السدة التي حسم موفـق أمرهـا.
كثيراً ما خطر على باله يحيى وهو يغدق من أكاذيبه علـى
نبيلة. أبوه مقاول كبير. أنه مختلف معه بسبب الفن. رجـل
متدين إلى درجة التزمت ويعتبر الرسم حراماً. موفق يسوق



له لوحاته، فهو لا يعتمد على عمله مع ديكران. دخله كبير، لكن أصدقاءه كثر وينفق كثيراً في سبيل الرسم والتخطـيط. أبدت الرغبة في رؤية مرسمه، فذكرها بتزمت أبيه وتحركت في ذهنه في الوقت نفسه فكرة التسوية. لن تمـانع الـذهاب إليها ليلاً. فهي تأتي معه إلى السينما ليلاً ويتجولان بالتكسي المجاني كل ليلة. مستحيل أن يذهبا إلى هناك بسيارة تكسي ويترجلان جهارة في الشارع. حتى لو كان ذلك فـي عمـق الظلام. مستحيل أيضاً أن ترافقه في طريق الجرف. والأهم، ماذا ستظن به عندما تكتشف حثالته فـي ذلـك المسـتودع القميء.؟. لتظن ما تشاء إذا ما وصلت هناك. حتى لو أمـن أباه وتيقن من نومه وانطفاء أضوائه، مـاذا يضـمن أن لا يباغته نذير كما فعل من قبل.؟. كم هو سيء الحـظ. طيلـة عمره وهو يتمنى ان تنجذب إليه فتاة. وها هي نبيلة تبـدي استعداداً لكل ما يريد ويعجز عن الانفراد بها لنصف ساعة. الشعب بأسره متيقظ له. مراقبو السينما وسـائقوا التكسـيات وخطاطوا المشغل وعابروا الشارع وراكبوا السيارات : فقط نصف ساعة يا هاني. لا تضيع هذه الفرصة علي.

لكن هاني رفض بإصرار. بل أنه غضب لمجرد الطلب نفسه : تريد أن تقضي على شغلنا وتشبه أوتيلاتنا يا خير. لم أتوقع منك ذلك.

قال لديكران أنه يريد أن يرسم ليلاً في المشغل وسـألـه ان يترك معه المفتاح، لكن ديكران رفض : لو أضاع أحدهم شيئاً سيحملك المسؤولية. انسى الموضوع... خالجه إحساس أن ديكران فهم اللعبة او أن الخطاطين كادوا له بعد مجـيء نبيلة، فتعامل معهم بجفاء في الأيـام التاليـة وبحـرج مـع ديكران.

طيلة انقطاعها عنه فترة الامتحانات،لم تغب يوماً عـن تفكيره ولا غابت التسوية أيضاً التي كان يهندسها في مخيلته كل ليلة ويعيد ترتيبها وتهيئتها حتى تكون جاهزة لاسـتقبال نبيلة بعد الامتحانات. لم يعد أمامه مكان آخر يفكر به. يريد فقط حلاً سحرياً قادراً على نقل نبيلة إلى التسوية او نقلهمـا معاً بأمن وسلام دونما شبهات.

كانت هذه الإمكانية علـى اسـتحالتها هـي الوحيـدة المتوافرة لديه، بل هي الوحيدة التي منحهـا جـلّ تفكيـره واهتمامه طيلة غياب نبيلة. وكلما خطر بباله طريقة أخـرى

يستبعدها مستسلماً للحل الوحيد الممكن علـى اسـتحالته. لا يوجد سوى التسوية.كأنه في قرارة نفسه وبلا وعي منه يضع حاجزاً بينه وبين نبيلة يدعوه إليهـا ويخيفـه منهـا. تمامـاً كالتسوية التي يزداد تعلقه بها كلما ازدادت خشـيته عليهـا وخوفه من أن يطرد منها. في اليوم الأخيـر للامتحانـات انقلبت موازينه، فغدت التسوية آخر مكان يمكن أن يفكر به، وهو يجلس في صالة بيتها الأنيقـة مـع ثلـة مـن طلبـة الأكاديمية، محتفلين بانتهاء الامتحانات.

مع أنه كان غريباً عن بيئتهم وأجوائهم، إلا أنه أحـس بالحميمية والدفء بينهم، وهم يستذكرون الأسئلة ويتحزرون الأجوبة، وبخاصة امتحان الأسـتاذ قسـام. تعرضـوا فـي أحاديثهم أيضاً إلى الحفلة والتصاميم والجوائز وأفاضوا فـي الأسئلة على خير، الذي منذ انفراط الشلة لم يحظ بالحـديث عن أعماله بهذا الشكل.

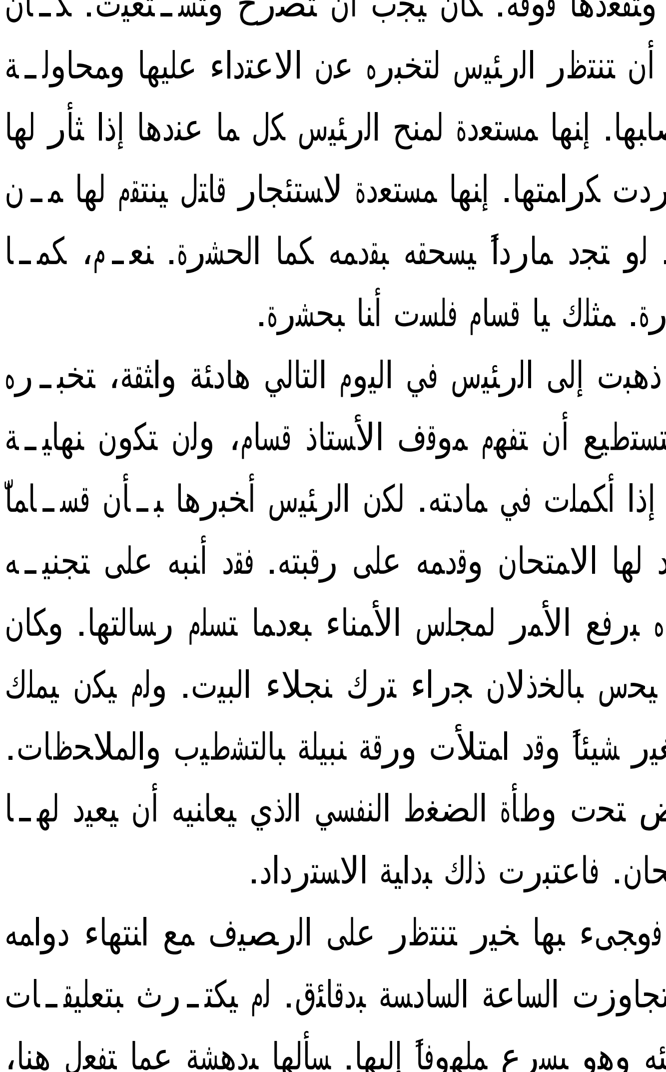
لم تبد ام نبيلة انزعاجاً من هيأته عنـدما فتحـت لـه الباب. أما الطلبة فقد أفرحهم حضـوره واسـتذكروا معـه عرض كلين وحمام الأسيد وهم منشـرحون. أثـار انتبـاه بعضهم اهتمام نبيلة به وتحركت الغيرة عند بعـض آخـر.

جاءت أمها بصينية الشاي فتناولتها منها وقدمت لخير قبـل الجميع.

كانت من أحلى الأمسيات، كما قال لنبيلة فيما بعد. احس فيها بأن لديه عائلة، وأن شلة جديدة تتماسك حوله. فاسـتدفأ قلبه للمرة الأولى في حياته بوميض انحـرف قلـيلاً عـن الشهوة، وبدرجة أقل انحرف نحو الحب. وكان يخالج نبيلـة الإحساس نفسه، إلا أن قسام غير الأمر او أعاده إلى نصابه.

بعد إذلاله لنبيلة واستهتاره بأنوثتها وسـحقه لكرامتهـا وكينونتها، اندفعت كالمجنونة إلى مكتب الرئيس، لكنهـا لـم تجده ولم تنتظر عودته. قالـت للسـكرتيرة وهـي تنـتفض بعصبية : قولي له إذا لم يكن قادراً على تربية قسام فلـديها عائلة تربيه... وكانت تقصد أمراً وفهم الرئيس من رسـالتها أمراً آخر.

أحجمت عن الأكل في البيت وأعتصمت في غرفتهـا. أجهشت بصمتٍ وانتفضت وترجرجت وهي تتمنـى لـو أن قسام اغتصبها على أن يذلّها. وأكثر ما كان يغيظها، سكوتها على اعتدائه كأنها ساقطة وهروبها من أمامه كأنها داعـرة. حتى لو كانت ساقطة وداعرة كان يجب أن تقيم الـدنيا مـن



تحته وتقعدها فوقه. كان يجب أن تصرخ وتستغيث. كان يجب أن تنتظر الرئيس لتخبره عن الاعتداء عليها ومحاولة اغتصابها. إنها مستعدة لمنح الرئيس كل ما عندها إذا ثأر لها واستردت كرامتها. إنها مستعدة لاستئجار قاتل ينتقم لها من قسام. لو تجد مارداً يسحقه بقدمه كما الحشرة. نعم، كما الحشرة. مثلك يا قسام فلست أنا بحشرة.

ذهبت إلى الرئيس في اليوم التالي هادئة واثقة، تخبره أنها تستطيع أن تفهم موقف الأستاذ قسام، ولن تكون نهاية الدنيا إذا أكملت في مادته. لكن الرئيس أخبرها بأن قساماً سيعيد لها الامتحان وقدمه على رقبته. فقد أنبه على تجنيه وهدده برفع الأمر لمجلس الأمناء بعدما تسلم رسالتها. وكان قسام يحس بالخذلان جراء ترك نجلاء البيت. ولم يكن يملك أن يغير شيئاً وقد امتلأت ورقة نبيلة بالتشطيب والملاحظات. فعرض تحت وطأة الضغط النفسي الذي يعانيه أن يعيد لها الامتحان. فاعتبرت ذلك بداية الاسترداد.

فوجىء بها خير تنتظر على الرصيف مع انتهاء دوامه وقد تجاوزت الساعة السادسة بدقائق. لم يكترث بتعليقات زملائه وهو يسرع ملهوفاً إليها. سألها بدهشة عما تفعل هنا،

فقالت بأنها تنتظره. وكان وجهها محتقناً وتعابيرها غاضبة : لنذهب إلى السينما.

- الآن.؟.. قال باستغراب ونظر إلى الخطاطين يبتعدون وأحد الشغيلة ينزل باب الصاج السحاب.

- هل لديك مانع.؟.

- لا. لكن حفلة السادسة ابتدأت... كان بذلك يتملص من الحرج مع موفق.

- ليكن. المهم أن نجلس في مكان مثل الناس.

- أحتاج نصف ساعة للذهاب إلى موفق...

قاطعته بسرعة : لماذا موفق. لنذهب إلى أي سينما يا خير... بدت عليه الحيرة، فأضافت : أنا سأدفع. لا عليك.

أربكته لكثرة تململها وتأففها ونفخها طيلة عرض الفيلم. سألها أثناء خروجهما عما يضايقها فلم تجب. قالت وهما يسيران في عرض الشارع : ألا تعرف مكان هادئ نجلس فيه.

احتار وتساءل بقلب يديه وتقليب شفتيه. فقالت بسرعة : المرسم. دعنا نذهب لمرسمك.

- قلت لك. أبي متزمت.

- ألا نستطيع دخوله خلسة.

اتفقا على أن يتجاوز بمفـرده الفسـحة بـين الزقـاق والمدخل، ثم تتقدم بثقة وكأنها عابرة طريق. تنحرف نحـوه بمجرد أن يشير لها من المدخل.

خلال ارتقائهما السفح نحو الجرف، أحس خير بالنـدم وخالج نبيلة بعض الخشية الممزوجة بإثارة المغامرة. غـاب عن تفكير الاثنين ماذا سيفعلان في التسوية. كانت القضـية الملحة هي الوصول إليها. ما أن أعاد خير لـوح الزينكـو بهدوء إلى ما كان عليه حتى غاب على تصـرفهما الجديـة المشوبة بالحذر ولما استقرا داخل التسوية، أحست نبيلة بـأن كل ما قاما به أشبه بلعب الأطفال. أما خير فقد أحس بالخجل بعدما أضاء شمعتين كبيرتين وراحت نبيلة تنقل نظرها بـين خشب الطوبار وكتل الشمع المذابة فوقها بينما تناثرت فـي الأرجاء علب سردين مفتوحة تلطخ بعضها بالألوان : أهـذا هو المرسم.؟.

- هذا هو المرسم... وأسرع يستخرج من بين الخشـب رسوماته وأدواته كما سحب دونما قصد فرشته فأشاحت عنها نبيلة وكأنها لا تعنيها. لكن خير مسدها وأشعل بجانبها شمعة

ملتصقة بقطعة خشبية صغيرة مغروزة في الجـدار. كـان الارتباك قد استحوذه تماماً وعاد لا يدري ماذا يقـول وهـو ينقل رسوماته لنبيلة واحدة بعد الأخرى فتتأملها على ضـوء شمعة قريبة. ابتعد عنها لاستخراج مجموعة أخرى ولما جاء بها وجد نبيلة تجلس على الفرشة مستندة بظهرها إلى الحائط تتأمل رسمة على ضوء شمعة الجدار.

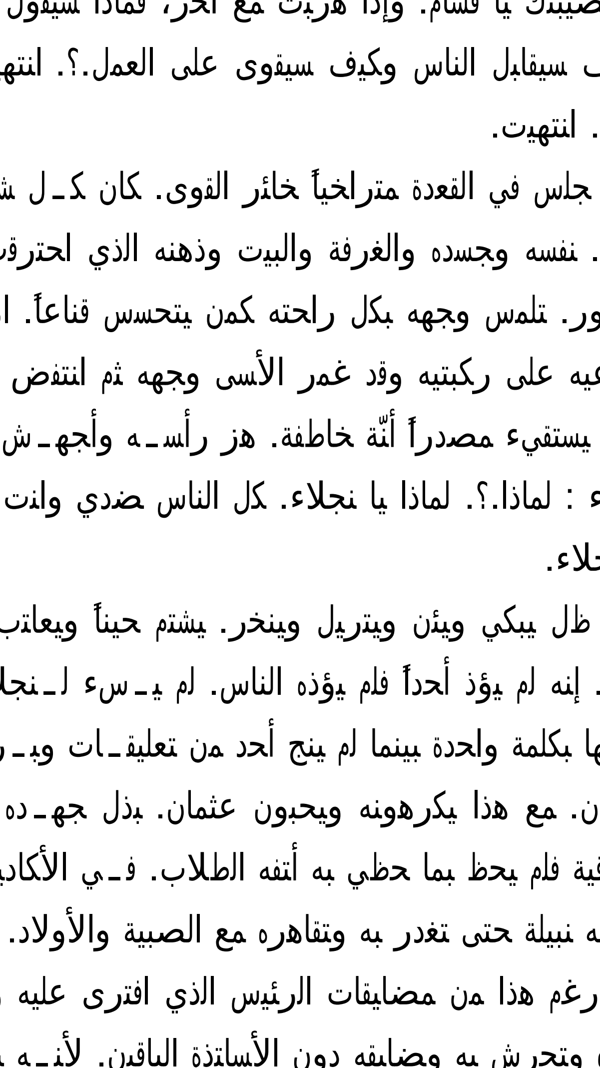
جلس بجانبها والتصق بها. مد لها رسمة فتناولتها دون أن تنظر إليه. تذكر حينها نجلاء وهو يحس بأنفاسها تتسـال عبر مسامات جسده لتخلصه من حرمانه وتوقظ كيانه وتحقق له ذاته. بينما تستعيد نبيلة أنفاسها من أنفاسه وتثأر لكرامتها من ذوبانه وتحقق كيانها في جموحه وانجرافه. فثأر خير من قهره وانتقمت نبيلة من خذلانها.

تم الأمر بسرعة وبأقل الأصوات ودونما ضجيج وقـد نسيا في غمرة النشوة رحلتهما الطويلة وما تكبداه من مشـقة وعناء حتى يتحدا في لحظة عظيمة دونها لحظة الميلاد. لما استراحت أنفاسهما وهدأ توترهما، تهيأت نجلاء لخير وتهيـأ لنبيلة قسام.

٢٢

عاد قسام إلى البيت وفي نيتـه وضـع النقـاط علـى الحروف. لن يحمّله أحد فوق طاقته، بمن فيهم نجلاء. ما له له وما لها لها. لن يسمح لأحدٍ بجره للانسياق وراء عثمـان. ذلك المعوق عوضه ا عن إعاقته بالنقود، فليشتر عشـرات الغسالات والثلاجات والسيارات. ذلك لن يصنع منه إنسـاناً. أما هو فلديه اهتماماته وأولوياته التي يجب أن تقدرها نجلاء. وإلا فهي حرة. هذا بيت أبيها ينتظرها. لكنه أصيب بالذهول بعدما اكتشف أنها سبقته إلى اتخاذ القرار وحملت معها كـل ما استطاعت بما في ذلك الأغطية والمخدات وجميع الهـدايا التي قدمت لها بمناسبة عرسها وولادة ابنتها.

تساءل في البدية عن المكان الذي ذهبت إليه. عند أهلها أم عند عثمان.؟. ولما صار يتفقد أغراض البيت هاله حجـم الأغراض المنقولة. راودته الظنون. تحتاج لشاحنة حتى تنقل ما نقلت.؟. أمعقول.؟. صار يتنقل في البيت كالمأخوذ وهـو لا يدري ماذا يفعل. هل يذهب إلى بيت أهلهـا.؟. وإذا لـم يجدها هناك، ماذا سيقول لهم : امرأتي هربت. يا ا . هـل يذهب إلى بيت عثمان.؟. وماذا سيقول له : أعطني امرأتي.



يا مصيبتك يا قسام. وإذا هربت مع آخر، فماذا سيقول لأهله وكيف سيقابل الناس وكيف سيقوى على العمل.؟. انتهيت يا قسام. انتهيت.

جلس في القعدة متراخياً خائر القوى. كان كـل شـيء قاتماً. نفسه وجسده والغرفة والبيت وذهنه الذي احترقت فيه الصور. تلمس وجهه بكل راحته كمن يتحسس قناعاً. ارتخى بكوعيه على ركبتيه وقد غمر الأسى وجهه ثم انتفض جسده كمن يستقيء مصدراً أنّة خاطفة. هز رأسـه وأجهـش فـي البكاء : لماذا.؟. لماذا يا نجلاء. كل الناس ضدي وانت معهم يا نجلاء.

ظل يبكي ويئن ويتريل وينخر. يشتم حيناً ويعاتب حيناً آخر. إنه لم يؤذ أحداً فلم يؤذه الناس. لم يـسـء لـنجلاء او لأهلها بكلمة واحدة بينما لم ينج أحد من تعليقـات وبـرادات عثمان. مع هذا يكرهونه ويحبون عثمان. بذل جهـده فـي البندقية فلم يحظ بما حظي به أتفه الطلاب. فـي الأكاديميـة أغوته نبيلة حتى تغدر به وتتاهره مع الصبية والأولاد. ولـم ينج رغم هذا من مضايقات الرئيس الذي افترى عليه وعمل ضده وتحرش به وضايقه دون الأساتذة الباقين. لأنـه يفهـم

الفن أغلقت أمامه أبـواب الفنـون. ولأنـه جـاد تعـرض للسخريات ولأنه يحب السترة انكشفت عورته للناس. لماذا.؟. لماذا يا نجلاء.؟.

زاد انفعاله من إرهاقه فمال على الجانب وأرخى رأسه على متكأ المقعد وتكور في قعدته كالجنين. غافلـه الكـرى سريعاً فنام حوالي الساعة. استيقظ بعدها متعباً يحس بـالألم في عضلاته وعظامه وأعصابه. أوجس من وحشة البيـت. كأنه ألقي في الزنزانة بغتة. حاول التحرر من ثقل الوحـدة بالتمطي والتثاؤب بصوتٍ عالٍ. اتجه إلى الحمـام. وقعـت نظراته على الوعاء الفارغ قبل أي شيء آخر : حتى حفاظها الوسخ أخذته معها.. أشفق على نفسه وهو ينظر في المرآة. أشعرته كآبة وجهه بالذل والهوان. بسمل واغتسل واسـتغفر وهو يتنشف. كأنه يبعد عنه هواجسه. التفت خطفاً وأصـاخ السمع، ثم أسرع نحو الباب وفتحه فلم يجد أحـداً. اسـتدار وتنقل من ركن لآخر مستكشفاً متبيناً. تكررت حركته مـرة أخرى فآثر الخروج من هذا القبر الذي تتحرك فيه الأشباح. لم يكن الوضع في المرسم أحسن حالاً. كانت الوحدة تنهشـه من داخله وليس من المكان الذي يتحرك فيه. أحس باللوحات

قماقم تمتلؤ بالجان. للمرة الأولى في حياته يخاف لوحاتـه، ويخاف البيت والمرسم والطريق وكل الناس : نجلاء تركت البيت يا أمي. لا أدري. لا أدري. وا ليس هناك مشـكلة. القصة وما فيها أنها تريد غسالة. اعرف أنها على حق وأنـا مقدر تعبها. لكن طلبت منها أن تنتظر لآخر الشـهر. لا لا. ليس معقولاً أن تظل في بيت أهلها لآخر الشهر.

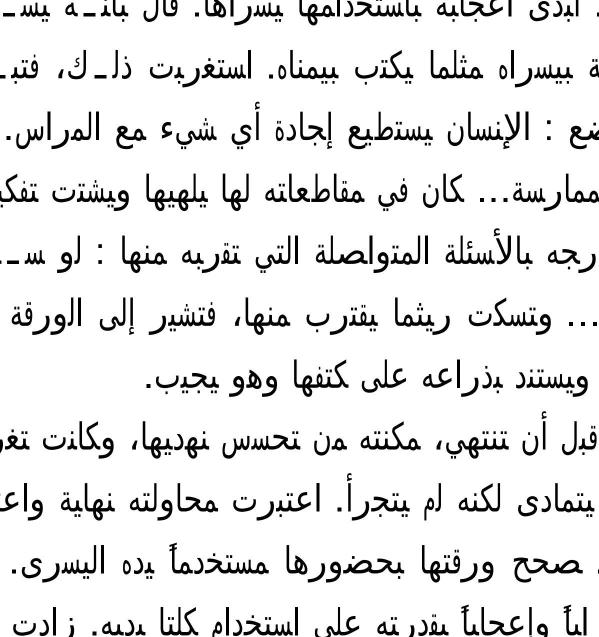
لم تستجب نجلاء لأم قسام ورفضت الرجوع إلى البيت. ليست الغسالة هي السبب وإنما صراخه بهـا وتهديـده لهـا وإذلالها بهجره البيت ونومه في المرسم. كل هذه الأمور لـم تخطر على بال قسام فأذهله ضخامة الموضوع الـذي كـان يظنه بحجم غسالة. تساءل بينه وبين نفسه، ماذا فعلت بي يا نبيلة.؟. لم يتوان عن الذهاب إلى بيت المكنوز طالباً الصفح والمسامحة وواعداً نجلاء بأن يشتري لها غسالة آخر الشهر. لكن نجلاء رفضت. لن ترجع إلا إذا سبقتها الغسالة. تـدخل عثمان للصلح بينهما مبدياً اسـتعداده للتخلـي عـن إحـدى الغسالتين : ماذا نحن وماذا أنتم يا أخي قسـام. كلنـا عيلـة واحدة... وافق قسام على قبول الغسـالة علـى أن يعيـدها بمجرد شرائه واحدة جديدة، ونقل عثمان المـأخوذات فـي

سيارته على ثلاث دفعات قبل أن يأتي في الرابعة بـنجلاء بينما ينتظرها قسام بلهفة واشتياق.

احتواها بمجرد أن غـادر عثمـان، وقبـل توضـيب الأغراض. أغرق وجهه في شعرها مستنشـقاً أنفاسـه مـن عبيرها وهو يترجرج ويتقلص ويتمدد وكأنه لم يأت امـرأة منذ أعوام.كان يحس وكأن روحه عادت إليـه : لـيس لـي سواك يا نجلاء... استسلمت له استسلام بغي. جـاس فيهـا بيسرٍ وانزلاق لم يعتده. لم يثر شكوكه رطوبتها وانفراجهـا أكثر مما اعتاد. غلبت لهفته أي باعث للشكوك او الظنون او الاستغراب. فهو وإن كان يعتقد بوجـود الخيانـة، إلا أنهـا باعتقاده، حصراً على الرجال. حتى لو خانته جميع النسـاء، لا يمكن أن تخونه نجلاء. وكانت هي على يقـين بالمعتقـد نفسه، فلو أحاطت به العاريات ليل نهار، لن يخـتلفن عـن لوحاته الساكنة من غير حياة ولن يخونها مع أخـرى علـى الإطلاق. لم تتذمر هذه المرة من تخبطه ولا شكت من تلويثه الفراش، فتلاشى استغرابه من رطوبتها وسعة انفراجها أمام استغرابه من سلاسة ولوجها. قاده الرضى من نفسـه إلـى تفسير الأمر لصالحه. صار خبيراً في العشـق بارعـاً فـي

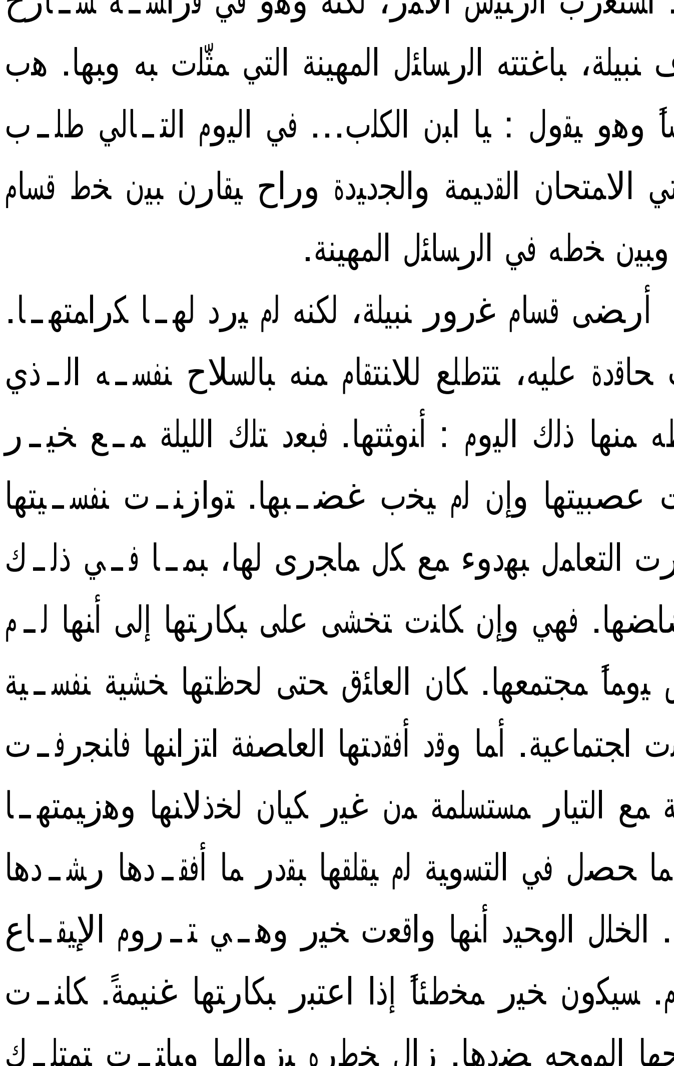
الأداء. أعاد له ذلك توازنه وأنعـش روحـه وهـو يسـترد رجولته بالتعبير عنها فنياً وعملياً. فللمرة الأولـى لا تبـدل نجلاء الأغطية ويطول اغتسالها في الحمام. لم تبعده عنهـا في الفراش وهو يلتصق بها. استراحت بين أحضانه مرضية وهو يحاول أن يتذكر الخطوات التـي أوصـلته إلـى هـذا الاتقان.

في الأكاديمية أرسل الرئيس خبراً لنبيلة عـن موعـد الامتحان الذي سيعيده لها قسام. جاءته ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً خفيفاً مفتوح القبة حتى الصدر. اسـتقبلها بترحـاب وقابلته باستعلاء. ظل يحدثها ملاطفاً، حتى وهي مسـتغرقة في الإجابة على الأسئلة الجديدة في ورقة جديدة مسـتخدمة جانب الطاولة بينما يراوح حولها مقترباً منها تارة بكرسـيه وتارة يتمشى في الغرفة حتى يقف خلفها. تردد كثيـراً فـي الاعتذار عن جلافته وغلاظته ذلك اليوم. لما استفسرت منه عن سؤال وجدها فرصة لوضع يده على كتفها. أعاد الحركة مع استفسار آخر فوضع ذراعه علـى كتفهـا مرخيـاً يـده للأسفل. حركت كتفيها للوراء لـتلامس أطـراف أصـابعه صدرها المكشوف. تعالت أنفاسه وأربكته الحركة أكثر ممـا



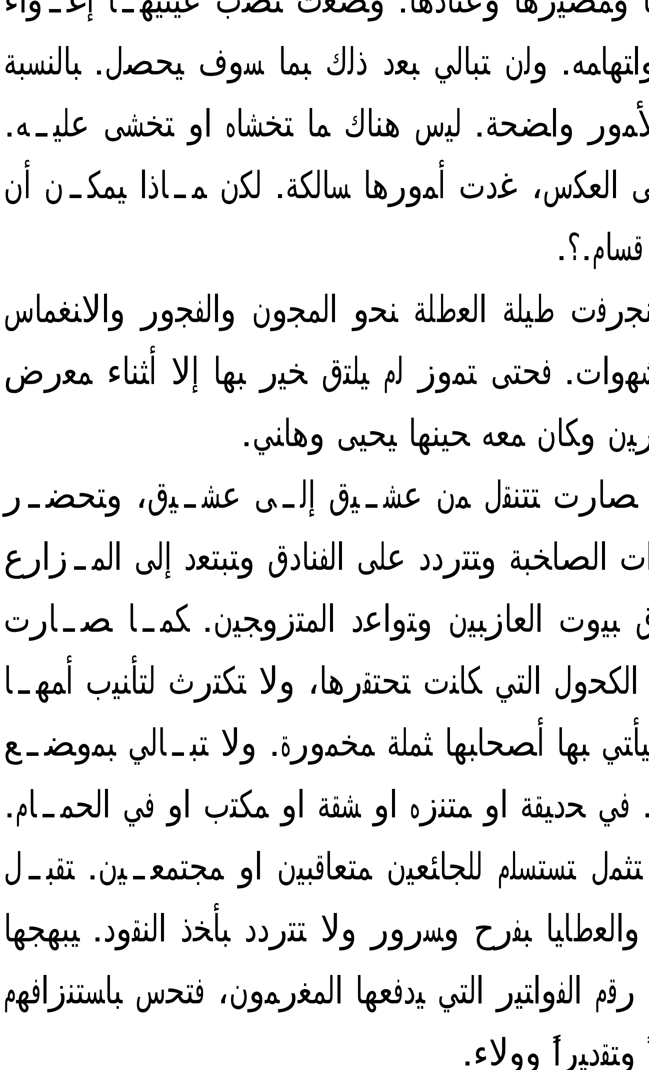
جرأته، فانعقد لسانه وهو يحس بالدفء والإثارة ولم يدر مـا يقول. أبدى اعجابه باستخدامها يسراها. قال بأنـه يسـتطيع الكتابة بيسراه مثلما يكتب بيمناه. استغربت ذلـك، فتبـاهى بتواضع : الإنسان يستطيع إجادة أي شيء مع المراس. حتى الفن ممارسة... كان في مقاطعاته لها يلهيها ويشتت تفكيرها، فتستدرجه بالأسئلة المتواصلة التي تقربه منها : لو سـمحت أستاذ... وتسكت ريثما يقترب منها، فتشير إلى الورقة وهي تسأل ويستند بذراعه على كتفها وهو يجيب.

قبل أن تنتهي، مكنته من تحسس نهديها، وكانت تغريـه حتى يتمادى لكنه لم يتجرأ. اعتبرت محاولته نهاية واعتبرها بداية. صحح ورقتها بحضورها مستخدماً يده اليسرى. أبدت استغراباً وإعجاباً بقدرته على استخدام كلتا يديه. زادت مـن انشغال ذهنه بها وتشتيت تفكيره عن إجاباتها، فمنحها علامة كاملة وأضاف ملاحظات أثنى فيها على نباهتها واجتهادهـا، مما أرضى الرئيس أكثر من نبيلة وهو يتباهى أمامهـا أنـه وراء ذلك. لكنه استغرب من خط قسام في الورقـة وخطـه على ورقة الامتحان السابق. أخبرته بأنـه صـحح الورقـة القديمة بيمناه والجديدة بيسراه. إنه أعسر يسر يستخدم كلتـا



يديه. استغرب الرئيس الأمر، لكنه وهو في فراشـه سـارح بطيف نبيلة، باغتته الرسائل المهينة التي مثّلت به وبها. هب جالساً وهو يقول : يا ابن الكلب... في اليوم التـالي طلـب ورقتي الامتحان القديمة والجديدة وراح يقارن بين خط قسام فيها وبين خطه في الرسائل المهينة.

أرضى قسام غرور نبيلة، لكنه لم يرد لهـا كرامتهـا. ظلت حاقدة عليه، تتطلع للانتقام منه بالسلاح نفسـه الـذي أسقطه منها ذلك اليوم : أنوثتها. فبعد تلك الليلة مـع خيـر هدأت عصبيتها وإن لم يخب غضـبها. توازنـت نفسـيتها وقررت التعامل بهدوء مع كل ماجرى لها، بمـا فـي ذلـك افتضاضها. فهي وإن كانت تخشى على بكارتها إلى أنها لـم تخش يوماً مجتمعها. كان العائق حتى لحظتها خشية نفسـية وليست اجتماعية. أما وقد أفقدتها العاصفة اتزانها فانجرفـت يائسة مع التيار مستسلمة من غير كيان لخذلانها وهزيمتهـا فإن ما حصل في التسوية لم يقلقها بقدر ما أفقـدها رشـدها قسام. الخلل الوحيد أنها واقعت خير وهـي تـروم الإيقـاع بقسام. سيكون خير مخطئاً إذا اعتبر بكارتها غنيمةً. كانـت سلاحها الموجه ضدها. زال خطره بزوالها وباتـت تمتلـك



حريتها ومصيرها وعتادها. وضعت نصب عينيهـا إغـواء قسام واتهامه. ولن تبالي بعد ذلك بما سوف يحصل. بالنسبة لها، الأمور واضحة. ليس هناك ما تخشاه او تخشى عليـه. بل على العكس، غدت أمورها سالكة. لكن مـاذا يمكـن أن يخسر قسام.؟.

انجرفت طيلة العطلة نحو المجون والفجور والانغماس في الشهوات. فحتى تموز لم يلتق خير بها إلا أثناء معرض المختارين وكان معه حينها يحيى وهاني.

صارت تتنقل من عشـيق إلـى عشـيق، وتحضـر السهرات الصاخبة وتتردد على الفنادق وتبتعد إلى المـزارع وتطرق بيوت العازبين وتواعد المتزوجين. كمـا صـارت تتناول الكحول التي كانت تحتقرها، ولا تكترث لتأنيب أمهـا بعدما يأتي بها أصحابها ثملة مخمورة. ولا تبـالي بموضـع الغرام. في حديقة او متنزه او شقة او مكتب او في الحمـام. عندما تثمل تستسلم للجائعين متعاقبين او مجتمعـين. تقبـل الهدايا والعطايا بفرح وسرور ولا تتردد بأخذ النقود. يبهجها ارتفاع رقم الفواتير التي يدفعها المغرمون، فتحس باستنزافهم تكريماً وتقديراً وولاء.

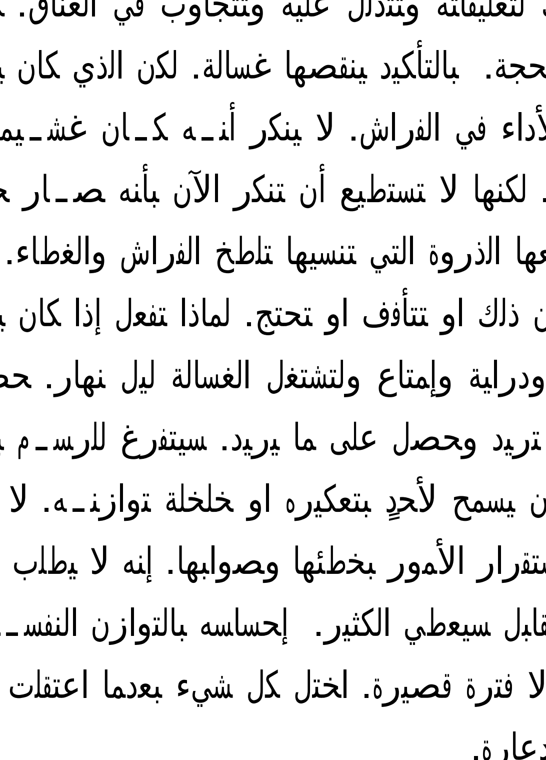
بعدما ابتدأ الدوام، لاحظ طلبة الأكاديمية خبـو بريقهـا وانكماش دلعها وغلبة الجدية على سلوكها وفجاجة الشبق في تعابيرها وتولي لهفة الصبا من عينيها. أجفانها متغضنة مـن قلة النوم وطول السهر، ونظراتها ذابلة من كثـرة الشـرب والتدخين، وشروقها ذاوي مع انطفاء لهيبها. وكأن نضـارة الأنثى في عذريتها . صارت ضحكاتها مصـطنعة فـاجرة وكلماتها فجة عاهرة. أبعدت القريبين منها وجذبت البعيـدين إليها. لم تكن تمكن إلا الذي تريد وبالطريقة التي تريد، فغدت بالنسبة للبعض عصية، ولبعضهم مستحيلة، وبعضهم تـبجح بامتلاكها وأخفق آخرون أمامها. كانت كالسحر. دخان ونار ودماء. فالرئيس ينز وهو يمسك يدها، مع أنها كانـت تبـذل جهدها معه بمثل ما تبذل من جهدٍ مع قسـام الـذي كـان يبهجه غيظ الآخرين منه وهي تتـدلل عليـه فـي القاعـة وتمازحه في الممشى وتزور مكتبه على مرأى من الجميـع. وعندما باغته أحدهم يوماً وهو يتلمس صدرها، لم يحرجـه ذلك ولا أحرجها. ظن الكثيرون أنه نالها، مع أنه لـم يكـن ينزلق أبعد من صدرها. ظلت خشيته تصده رغـم غوايتهـا التي تستدعيه. كما أن الرضى الذي انبعث فيـه بعـد تلـك

الصدمة التي كادت تودي به نفسياً جعله يكتفي من محيطـه بالمستطاع.. الرئيس راضٍ عن أدائه، لا يضايقه ولا يتدخل به. ونبيلة كريمة معه حنونة عليه. مستعدة لمنحه المزيد وهو الذي لا يستزيد. والهدنة انعقدت بينه وبين عثمان، فلم يعـد يعلق عليه او يسخر منه. بل إنه صـار يحترمـه ويجاملـه ويستفسر منه عن مهنته ويصغي بانتباه وهو يحدثه عن فنه. أصبح يحسب له الحساب بعد موقفه الحـازم مـع نجـلاء : عثمان. عثمان. عثمان. يلعن أبو عثمان الأولاني.

- تغلط عليه لأنه أحسن منك.

- أنا أحسن منه ومنك ومن كل عائلتك. فاهمة أم لا.؟..

لو كان حازماً منذ البداية لتجنب سمات البدن التي عانها من ذلك الحوراني المشوه البغيض، ولكسـب روحـه التـي كادت تختنق لكثرة ما ضايقته نجلاء. أما الآن، فإن الأمـور تحسنت، بل عادت إلى نصابها الصحيح. نجلاء تهـتم بـه وتحرص على راحته. تكوي له ثيابه دون أن يطلب منهـا، وتساعده بارتدائها أيضاً. كما ترتب له أوراقه وكتبه وتعد له حقيبته وتسأله ماذا يشتهي من الأكل ويحب من الشـراب. ترافقه مودعة إلى الباب وتسرع إليه مستقبلة. تسمع لحديثـه



وتضحك لتعليقاته وتتدلل عليه وتتجاوب في العناق. كانت الغسالة حجة. بالتأكيد ينقصها غسالة. لكن الذي كان ينقصها أكثر، الأداء في الفراش. لا ينكر أنه كان غشيماً في البدايات. لكنها لا تستطيع أن تنكر الآن بأنه صار خبيراً يصل معها الذروة التي تنسيها تلطخ الفراش والغطاء. لم تعد تشكو من ذلك او تتأفف او تحتج. لماذا تفعل إذا كان يلجها برعاية ودراية وإمتاع ولتشتغل الغسالة ليل نهار. حصلت على ما تريد وحصل على ما يريد. سيتفرغ للرسم بذهن صافٍ لن يسمح لأحدٍ بتعكيره او خلخلة توازنه. لا يريد سوى استقرار الأمور بخطئها وصوابها. إنه لا يطلب الكثير، وفي المقابل سيعطي الكثير. إحساسه بالتوازن النفسي لم يستمر إلا فترة قصيرة. اختل كل شيء بعدما اعتقلت نبيلة بتهمة الدعارة.

٢٣

انبعث السرور في كيان خير وعقدت المفاجأة لسـانه وهو يلمح يحيى يتقدم عبر المشغل.

رمى كل شيء من يده وقفز إليـه كـالمهبول. تعانقـا بحرارة وكلماتهما تتقاطع بالترحيب والاشتياق والاستفسـار. كيف حالك.؟. متى وصلت.؟. مشتاق لك. منذ متـى تعمـل هنا..؟. لماذا لم تكتب لي.؟.أسـئلة كثيـرة كانـت تجيبهـا نظراتهما ويوضح معانيها انفعالهما، قبـل أن يقـوم خيـر بالتعريف : أعز صديق لي... استأذن الخطاطين وهو يضع يده على كتف يحيى ويتوجه معه إلى مكتب ديكران. عرفـه عليه بافتخار : أبوه الذي رسمنا له الجدارية. تذكره طبعاً... غمر الأسى وجه يحيى بينما ديكران يرحب به بحرارة.

- لماذا لم تقل ذلك من الأول... أوضح لخير : سـألني عنك وعلى طول للمشغل... ثم إلى يحيـى : طمئنـي عـن أبيك... تنهد يحيى قائلاً : إيه. عايش... تمعن به خير.

أنقده ديكران عشرة دنانير طلبها على حساب الراتـب وأذن له بإجازة حتى نهاية الأسبوع. لما خرجا إلى الشـارع

فوجىء خير بوقوف السيارة التي يعرفها جيداً. فـتح يحيـى الباب واستقرا فيها : صرت تسوق.؟.

- إيه. هذا ما كسبته من مصر.

- ما الذي يضايقك.؟.

- اتركنا الآن من هذه السيرة. دعنا نلملم باقي الشلة.

عندما أخبره عن حسن، ارتبكت قيادته. ظل يلتفت لخير ملهوفاً مضطرباً وهو يستمع لتفاصيل ماجرى. أصر علـى أن يذهب من فوره للسجن. استهجن خير ذلك. اليوم الثلاثاء والزيارة فقط صباح الجمعة.

ذلل هاني هذه الصعوبة عن طريق مدير السجن، فالتقوا حسن داخل القفص، ومعهم مأكولات من أطعمة الفندق أعدها نجم على عجل وصحبهم إليه.

قبل أن يغادروا، أملى عليهم عنواناً طلـب مـنهم أن يذكروا لأصحابه أنهم من طرف الجنـرال. قالهـا بفخامـة أضحكت خير فحدجه حسن بحنق أربك الجميع.

ظلوا يضحكون وهم يتذكرونه ويذكرونـه ويتنـدرون بقصصه خلال غدائهم في الأوبرج. شـربوا فـي الأثنـاء زجاجة ويسكي. انفرطوا صغاراً واجتمعوا كبـاراً. وكـان

يحيى كما عهدوه وإن لم يعد ذلك المتفاخر المتباهي. غالب على حديثه الجدية والصدق. أخبرهم بحقيقة ما جرى بينه وبين جوهرة. حاول معها لكنها صدته. لم يتحدث عن مغامراته مع نساء مصر بقدر ما استذكر وإياهم مغامراتهم في عمان. ضرب على الطاولة بقبضتيه وهو يتكركر من الأعماق بينما يعيد نجم على مسامعه مغامرة النور. ولما حدثهم خير عن البك أب، لعنه هاني ولعن يحيى. كان نجم أكثرهم حرجاً في الجلسة، فقد غلبت العلاقة المهنية على تعامله مع هاني، رغم محاولات هاني الجاهدة أن يعامله كصديق. ومناداته، دونهما بأبي نمور. لم يؤثر ذلك على الجلسة التي زاد سحر الويسكي من بهجتها. ولم يحاول أحد تكدير صفائها بالحديث عن السياسة والوطن والدين والحقوق والواجبات. حتى في حديثهم عن حسن كانوا يستذكرون طرائفه ولا يتحدثون عن معاناته. لم يأت أحد منهم على ذكر أبي يحيى وما حصل معه رغم أنهم كانوا يتابعون أخباره ويقرأون كل ما يصل إليهم من تصريحات. قال يحيى بأنه يتمنى أن يعيش يوماً واحداً مثل أيام زمان وكرر ذلك مراراً. قالوا بأنهم اشتاقوا لكذباته، فقال بأنه اشتاق لهبلهم. كانت كل

نقود الدنيا لا تكفي جموحه حينها، ولم يكن يحصـل علـى النقود إلا القليل. أما الآن فكل نقود أبيه تحت تصرفه لكـن جموحه قليل. كانوا سعداء، ولربما كان جوهر سعادتهم فـي هذا. لم يكن يقصد من تواضعه التباهي. بل كان صادقاً تماماً فيما يقول. ثنى هاني على قولـه. تعلمـوا مـن حرمـانهم وجوعهم أكثر مما علمتهم القصـص والأفـلام والشـرائع والأديان : أليس كذلك يا خير.

- لكن الحرمان مر...

- وكيف تعرف الحلاوة من غير مرارة يـا فنـان...

أضاف يحيى : صدقني أن أجمل ما في الرحلة هو الطريق.

- بما في ذلك المرأة.؟.. قال نجم متسائلاً.

- أقصد المرأة بقولي.

نظر خير لهاني الذي تلهى بالأكل، فقال خير : أأحكي ماذا فعلت يا ابن العالي.؟.

- وماذا فعلت.؟... قال وهو يمضغ.

أخبرهم خير بالقصة، فعلّق هـاني : تريـدني لأجـل خاطرك يا محترم أن أعمل الأوتيل كرخانة.؟.

علّق يحيى بثمالة : كل العالم كرخانة...ضحكوا جميعاً باستثناء هاني. لاحظ نجم اغتمامه فسكنت تعابيره وانكمـش فمه إلى أضيق الحدود : أظن يكفيك يا نجم. إذا سألك أبـي عني قل له بأني قد لا أعود للفندق.

انسحب نجم محرجاً رافضاً البقاء رغم إصـرار خيـر ويحيى على بقائه وتراجع هاني عن قراره. ما أن غادر حتى أبدى يحيى عدم رضاه وقد أطلقت الخمرة طيبتـه وحركـت حميته فعاتب هاني على قسوته : صحيح أنك لا تسـتحي. هذا صاحبك قبل أن يكون شغيل عندك يا ناقص... شجع هذا خير على الثأر بعد أن أطلقت الخمرة عدوانيتـه : صـرت مدير يا محترم.؟... أضاف بصـوتٍ عـالٍ : العـالم كلـه كرخانة... انتبه لهم بعـض الزبـائن، وصـاحب المطعـم المتصدر طاولته قريباً من البـاب. أخفـض صـوته وهـو يسترسل : حتى أوتيلات أبوك نصف زبائنها شلكّات...

هب هاني واقفاً وقد احتقن بالغضب : أصلاً مـا كـان لازم أسكر معك أنت وإياه...

أمسكه يحيى من ذراعه فنفضها عنه بقـوة : أتركنـي أحسن ما أقلب هذه الكرخانة فوقـاني تحتـاني... انكمـش صاحب المطعم في كرسيه والتفت نحوهم معظم الزبائن.

هدأ منه يحيى : شايف. ها أنت تقول عن هذا المحـل كرخانة.!... هز صاحب المطعم رأسه مستاء.

عقّب خير : وما فيه ولا شلّة... انفجر ضاحكاً وحده. بينما يحيى يقف مسترضياً هاني بتقبيله من وجنتيـه. جلـس هاني وتجرع كأساً ممتلئة دفعة واحدة : ألا تريدون الـذهاب إلى العنوان الذي أخبرنا عنه حسن.؟.

- ألأجل هذا زحلقت نجم يا واطي.؟.

توقفت السيارة بجانب مبنى علقت على جداره آرمـة كتب عليها" مختبر جبل عمان". دلفوا بوابة المبنى المجـاور وصعدوا إلى الطابق الثاني حيث يتقابل بابان علـق بجـوار أحدهما لوحة خشبية كتب فيهـا "كـوي شـعر وصـباغة وتصفيف". قرع يحيى جرس الباب المقابل بينما تنحى خيـر إلى الوراء.

انفتح الباب وأطل رجل متأنق ضـخم الجثـة شـرس القسمات. رد على تحية يحيى بلؤم وهو يتفرس بوجه هـاني

ولما سأل يحيى : هل أم سهير موجودة.؟...سـأله الرجـل بلؤم : من يريدها.؟... قال يحيى بنبرة آمرة : أخبرها أننـا من طرف الجنرال... ارتخت تعابير الرجل وترنحـت فـي وجهه ابتسامة وانزاح عن الباب داعياً أياهما للدخول. لكن ما أن قفز خير أمامه حتى ارتبك وقبل أن ينتبه لنفسه كان قـد تجاوزه وانضم للآخرين. أغلق الباب ولحقهـم إلـى صـالة مفروشة بغير ترتيب ولا أناقة. تقدمهم على مضـض إلـى غرفة منزوية بلا نوافذ تجلس فيها امرأة في الخمسين مـن عمرها. بيضاء سافرة مكشوفة الكتفين تجلس على أريكة بين صبيتين إحداهما سمراء والأخرى حنطية. في السقف مروحة يصدر دورانها تكتكة متواصلة.

بادر يحيى : مساء الخير أم سهير... وإلى الصبيتين : مساء الخير... ردت جميعهن التحية بإشراق ودلال. كـذلك عندما حياهما خير وهاني اللذان بدا عليهما الارتباك. لم تبال النسوة بمظهر خير الذي ظل الرجل الضـخم يحملـق بـه مشدوهاً.

بعد جلوسهم، حياهم يحيى ثانيـة : مسـاء الخيـر... ابتسمن له ورددن التحية. لم تختف تعابير الحيرة من وجـه البدين.

- هل هذا الموجود.؟... قال يحيى بلطف وهو يشـير للصبيتين. بينما تبادل خير وهاني النظرات.

-طلباتكم.؟... قالت أم سهير.

- ماذا عندك.؟... تبادل خير وهاني النظـرات مـرة أخرى. ابن الحرام.

- كل ما تريد.

- أبداً.!.

- أبداً.

- تعجبيني... ضحك بسرور وهو يضع سـاقاً فـوق الأخرى. بينما ابتسم خير وهاني للصبية الحنطية. قالـت أم سهير : لم نتعرف عليكم.؟.

- ولا نحن... قال يحيى وضحك نافضاً رأسه للخلـف. تجاوبت معه النسوة بالابتسامة، بينما غمر الوجـوم وجـوه الآخرين : تكرمي يا أميرة. حضرته هاني العالي... مشـيراً بيده لهاني : صاحب سلسلة فنادق العالي ومديرها العـام...

شد هاني حنكيه. ابن القحبة : وحضرته الأستاذ الفنان خيـر الجليلي... مشيراً بيده لخير : أشهر من نـار علـى علـم. بالتأكيد زرتن مرسمه في الجوفة... جحظ به خير. يا ابـن العرص.

- وحضرتك.؟... سألت أم سهير باستخفاف.

- أنا سعود المصري من جماعة الجنرال... وبسـرعة خاطب الرجل الضخم : أنا متأكد أني رأيتك... أرخى جفنيه وهو يتأمله مستذكراً : أين يا ترى.؟.

أبدى الرجل امتعاضاً وهو يتساءل بيديه وشفتيه : أنـت عشت في النمسا.؟.

هز الرجل رأسه نفياً : غريب... قال يحيى مسـتهجناً، ثم إلى أم سهير : على كلٍ يا ست الحبايب، نريد ثلاث فتيات جميلات مثلك.

- هنا. ام ستأخذونهن معكم.؟.

- إذا عندك محل لطول الليل أحسن وأحسـن... قـال وهو يتناول من جيب جاكيته رزمـة أوراق نقديـة جعلـت النسوة يتبادلن النظرات وجعلت الرجل يقتنع بقصة الجنرال. لكن عندما مد إليه ديناراً : روح هات لـي بكيـت جولـد

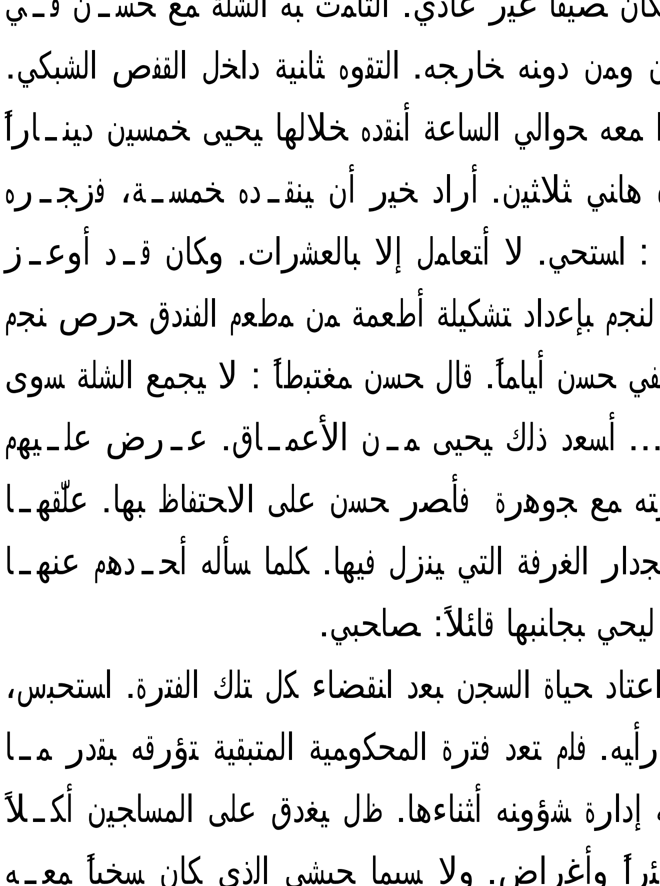
ستار... امتلأ غيظاً بدرجة تقل كثيـراً عـن غـيظ الفنـان والمدير. نهض على مضض وتناول الدينار. قبل أن يبـارح قال له يحيى : أجاب لك بكيت سيد.

أجرت المرأة عدداً من المكالمات الهاتفيـة المقتضـبة بنبرة أقرب إلى الأمر. وعادت إلى الصـالة لتشـارك فـي الحديث الذي كان أقرب إلى الاستجواب بينما يحيى يـرواغ في الإجابة على أصغر سؤال بأكثر ما يمكن من الإسهاب.

جاءت ثلاث فتيات حسب الطلب تماماً. صغيرة العمـر رشيقة القد جديدة على الصنعة بغض النظر عـن لونهـا او حجمها حسب طلب خير. أما هاني فقد طلب حليبية متدفقـة كالشاميات. وطلب يحيى سمراء مثيرة مثل جوهرة.

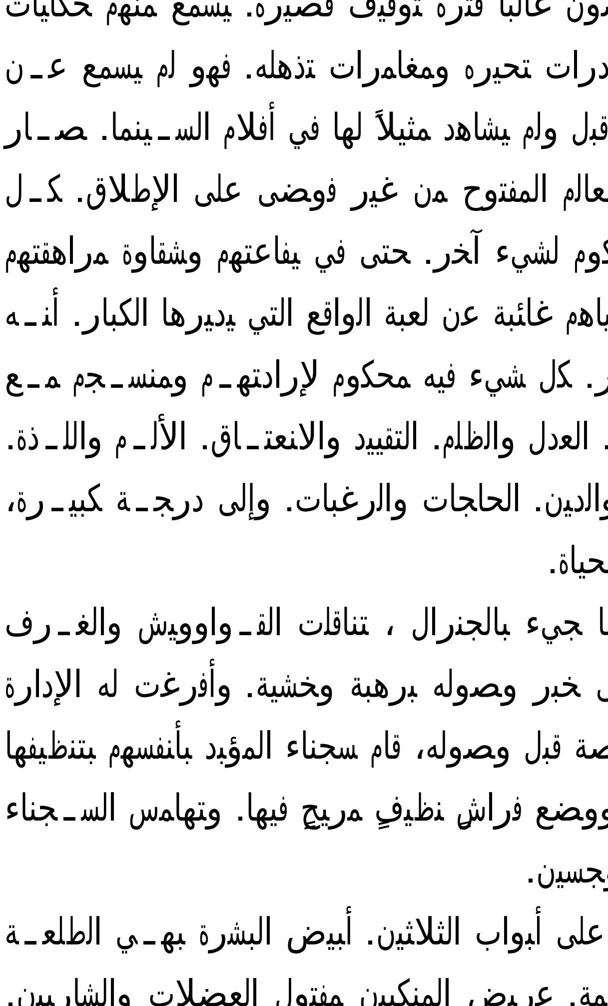
دفع يحيى مقدماً وناولته أم سهير مفتاح شقة في المبنى نفسه، أمضوا فيها ليلة أنس غنى فيها ثلاثتهم ورقصوا معـاً وأرقصوا الفتيات. بثيابهن أولاً وعراة بعد ذلك. وطارحوهن الغرام على الأرض سوية. لما عرفوا من اثنتين أنهما تقيمان في دار الممرضات في الجوفة. ضرب يحيى كفاً بكفٍ : يـا جماعة. كأننا لا نسكن في الجوفة.!.

٢٤



كان صيفاً غير عادي. التأمت به الشلة مع حسن في السجن ومن دونه خارجه. التقوه ثانية داخل القفص الشبكي. تمشوا معه حوالي الساعة أنقده خلالها يحيى خمسين ديناراً وأنقده هاني ثلاثين. أراد خير أن ينقده خمسة، فزجره حسن : استحي. لا أتعامل إلا بالعشرات. وكان قد أوعز هاني لنجم بإعداد تشكيلة أطعمة من مطعم الفندق حرص نجم أن تكفي حسن أياماً. قال حسن مغتبطاً : لا يجمع الشلة سوى يحيى... أسعد ذلك يحيى من الأعماق. عرض عليهم صورته مع جوهرة فأصر حسن على الاحتفاظ بها. علّقها على جدار الغرفة التي ينزل فيها. كلما سأله أحدهم عنها يشير ليحي بجانبها قائلاً: صاحبي.

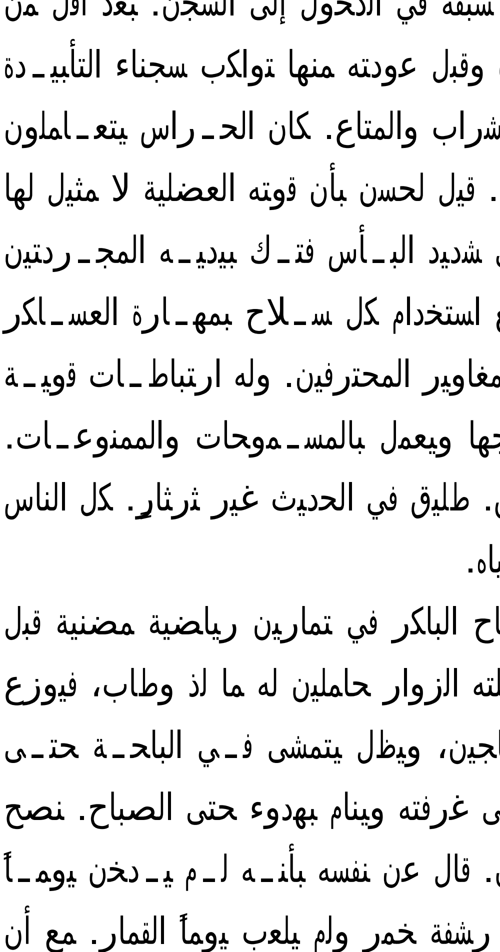
اعتاد حياة السجن بعد انقضاء كل تلك الفترة. استحبس، على رأيه. فلم تعد فترة المحكومية المتبقية تؤرقه بقدر ما يؤرقه إدارة شؤونه أثناءها. ظل يغدق على المساجين أكلاً وسجائراً وأغراض. ولا سيما حبشي الذي كان سخياً معه بالنقود أيضاً مما زاد من إذعانه وتلهفه على إرضائه، كما



وفرت له إقامته مع المنظورين الالتقاء بالوافدين المهمين الذين يقضون غالباً فترة توقيف قصيرة. يسمع منهم حكايات تدهشه وقدرات تحيره ومغامرات تذهله. فهو لم يسمع عن مثلها من قبل ولم يشاهد مثيلاً لها في أفلام السينما. صار يتهيأ له العالم المفتوح من غير فوضى على الإطلاق. كل شيء محكوم لشيء آخر. حتى في يفاعتهم وشقاوة مراهقتهم لم تكن دنياهم غائبة عن لعبة الواقع التي يديرها الكبار. أنه عالم الكبار. كل شيء فيه محكوم لإرادتهم ومنسجم مع مصالحهم. العدل والظلم. التقييد والانعتاق. الألم واللذة. الأخلاق والدين. الحاجات والرغبات. وإلى درجة كبيرة، الموت والحياة.

عندما جيء بالجنرال ، تناقلت القواويش والغرف والمستشفى خبر وصوله برهبة وخشية. وأفرغت له الإدارة غرفة خاصة قبل وصوله، قام سجناء المؤبد بأنفسهم بتنظيفها وتلميعها ووضع فراشٍ نظيفٍ مريحٍ فيها. وتهامس السجناء باسمه متوجسين.

كان على أبواب الثلاثين. أبيض البشرة بهي الطلعة طويل القامة. عريض المنكبين مفتول العضلات والشاربين.



اوصله مدير السجن بنفسه إلى غرفته التي وضع فيها فراش وثير وغطاء جديد سبقه في الدخول إلى السجن. بعد أقل من ساعة طلب للزيارة وقبل عودته منها تواكب سجناء التأبيدة على نقل الأكل والشراب والمتاع. كان الحراس يتعاملون معه بوجل واحترام. قيل لحسن بأن قوته العضلية لا مثيل لها في البلاد وأنه عتي شديد البأس فتك بيديه المجردتين بالعشرات ويستطيع استخدام كل سلاح بمهارة العساكر المجربين وجرأة المغاوير المحترفين. وله ارتباطات قوية داخل البلاد وخارجها ويعمل بالمسموحات والممنوعات. يتصدق ولا يصادق. طليق في الحديث غير ثرثارٍ. كل الناس زبائنه وكلهم ضحاياه.

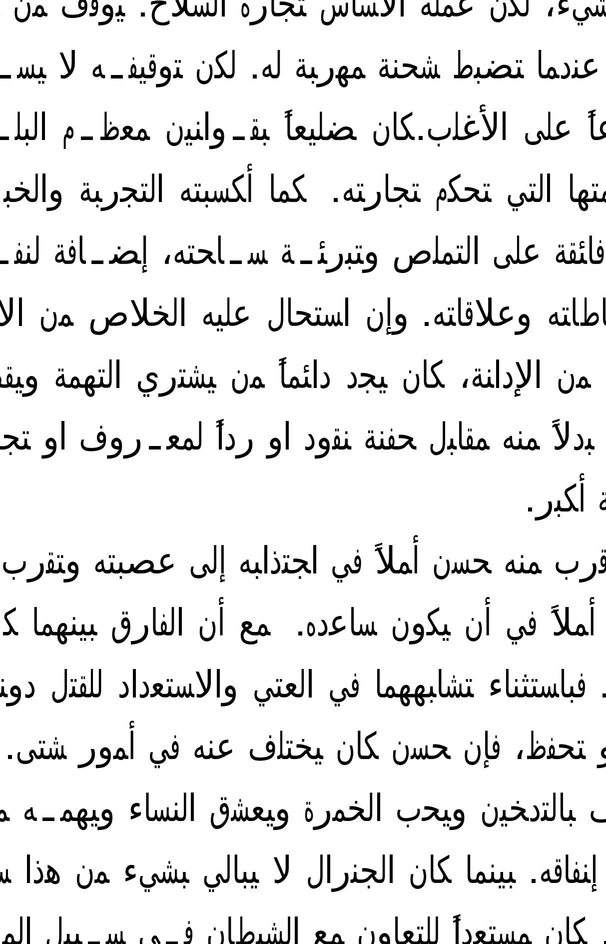
يبدأ منذ الصباح الباكر في تمارين رياضية مضنية قبل أن يتتابع على مقابلته الزوار حاملين له ما لذ وطاب، فيوزع معظمها على المساجين، ويظل يتمشى في الباحة حتى المساء، ثم يأوي إلى غرفته وينام بهدوء حتى الصباح. نصح حسن بترك التدخين. قال عن نفسه بأنه لم يدخن يوماً سيجارة ولا تجرع رشفة خمر ولم يلعب يوماً القمار. مع أن في داخله يعيش مقامر، فقصصه التي يرويها وتلك التي

تروى عنه تتفق على أنه متيقظ حذر شديد الانتبـاه يسـتمتع بركوب المخاطر التي يكسب فيها الكثير بوقت قصير.

أعجب بعتي حسن وثقته بنفسه فصار يتمشى معه حيناً ويدعوه إلى غرفته حيث يحيط به المنظـورون كالأتبـاع. ينصتون له بإصغاء عندما يتكلم ويحدثونه بوجل واحتـرام. ملتزمين بعاداته في الانفضاض باكراً وعدم إزعاجه حينمـا ينام، وعدم التدخين في غرفته مهما طالت الجلسـة. سـأل حسن عما سيفعله بعد الإفراج عنه. قال حسن بأنـه يفكـر بمشروع مقهى مع أحد الأصدقاء. سأله بنبرة لا تخلـو مـن استخفاف : مقهى للقهوة والشاي.؟.

قال حسن : لكل شيء...

أعجبته ثقة حسن بالإجابة أكثر مما أعجبـه الجـواب. ولما سأله حسن عن عنوانه، ابتسم الجنرال باستعلاء وابتسم من حوله باستخفاف. قال له إن كل أهل عمان يعرفون أيـن يجدون الجنرال. ومع هذا أعطاه عنوان نادي السلاح الـذي يمتلكه وهو يقول : إن لم تجدني اتـرك لـي خبـراً، فأنـا أسافركثيراً...



لم يكن يخفي طبيعة عمله المعروفة للجميع، فهو يعمل بكل شيء، لكن عمله الأساس تجارة السلاح. يوقف من حين لحين عندما تضبط شحنة مهربة له. لكن توقيفـه لا يسـتمر أسبوعاً على الأغاب.كان ضليعاً بقـوانين معظـم البلـدان وأنظمتها التي تحكم تجارته. كما أكسبته التجربة والخبـرة قدرة فائقة على التملص وتبرئـة سـاحته، إضـافة لنفـوذه وارتباطاته وعلاقاته. وإن استحال عليه الخلاص من الاتهام وتيقن من الإدانة، كان يجد دائماً من يشتري التهمة ويقضي الحكم بدلاً منه مقابل حفنة نقود او رداً لمعـروف او تجنبـاً لعقوبة أكبر.

قرب منه حسن أملاً في اجتذابه إلى عصبته وتقرب منه حسن أملاً في أن يكون ساعده. مع أن الفارق بينهما كـان كبيراً. فباستثناء تشابههما في العتي والاستعداد للقتل دونمـا ندمٍ او تحفظ، فإن حسن كان يختلف عنه في أمور شتى. فهو شغوف بالتدخين ويحب الخمرة ويعشق النساء ويهمـه مـن المال إنفاقه. بينما كان الجنرال لا يبالي بشيء من هذا سوى المال. كان مستعداً للتعاون مع الشيطان فـي سـبيل المـال والغدر به من أجل المال، وكان عشقه للمغامرة قـد دفعـه

للحصول على المال خارج نطاق التجارة المشروعة، وجعله نهمه للكسب السريع يدير شبكة تعمل بكل الممنوعـات وإن كان وجهها المعروف تجارة السلاح. فغـدا داهيـة حـذراً حريصاً يجري حساباته بدقة ويضرب ضـرباته بسـرعة، فتعود عليه في الغالب بالمال الوفير. لهذا أصبح فـي فتـرة قصيرة مليونيراً يتعامل بمئات الآلاف في الصفقة الواحـدة، ويقتني أفخر السيارات ويقيم في أحسن الفنادق ويحـيط بـه حراس مدججون بالسلاح وتتوارد له المعلومات من أقاصـي الأرض حول أسواق السلاح والذهب والمخـدرات وحركـة الأموال. كما أنه يعرف أبعاد الجغرافيـا وأعمـاق التـاريخ وأسعار الناس. يدعي البعض أن الاستخبارات الإنجليزية هي التي تزوده بالمعلومات التي يستثمرها ويبيعهـا ويعتـاش. آخرون يقولون بأنه إضافة إلى المعلومات، فإن تقدم رتبتـه في الماسونية جعله منيعاً ذا حصانة ونفوذ.

أعطى حسن عنواناً، قال له أنه سيجد فيه ضـالته مـن النساء بعدما يفرج عنه، طالما أنه شغوف بهن إلى هذا القدر. نصحه بعدم الثقة بالنساء او المبالغة بالطيش معهـن. إنهـن كالسيارات. يلتذ الرجل بركوبها ويتباهى بامتلاكها، لكنها قد

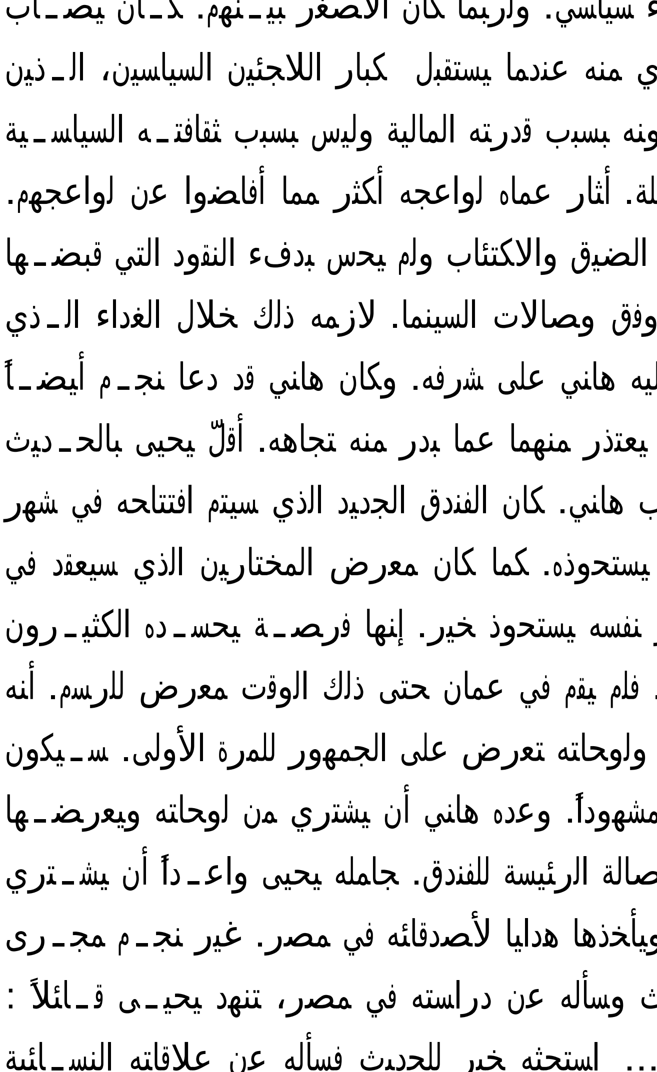
تستنزفه وربما تقتله إلا إذا كان حصيفاً. سأله حسـن عـن معنى حصيف، فقال : أن تدعس على دواسة البنزين بقدمك الحافية مثلما تدعسها منتعلة... تذكر حسن زنوبة خير.

استمر توقيفه أسبوعاً، غادر بعدها بمثـل مـا رافـق حضروره من تبجيل وتكريم واحترام. تاركاً فراشه وموزعاً أغراضه على مقربيه. باستثناء حسن الذي رفض أن يأخـذ منه شيئاً. قيل لحسن بأن أحداً لا يعرف إن كـان الجنـرال اسماً أم لقباً أم رتبة. وسواء ورث الاسم ام استحقه أم اختاره بنفسه، فإن وقع الكلمة كان يضفي عليه أبهةً ورهبةً وجلالا.

٢٥

عندما وصل يحيى إلى عمان، وجد عائلته تنتظر فـي المطار. في اليوم التالي أرسل سيارة أبيه للصيانة وذهب إلى موفق. أخبره أن يوافي أباه في دمشق خلال أيام المعـرض، وأعطاه أرقام الهواتف التي تصله به. كما قبض منه جميـع إيرادات المركز التي لم يكن موفق قد أودعها البنك. عـرف منه عن انتقال خير للعمل مع ديكران، فذهب إليـه بمجـرد استلامه السيارة وقضى يومه حافلاً كأيام زمان.

في اليوم التالي أبلغ مديري صالات السينما أن ينقـدوه الإيراد أولاً بأول، عملاً بوصية ابيه حتى يشتري بقدر مـا يتوافر له من سيولة جنيهات مصرية يحملها معه إلى مصـر حيث سيوافيه هناك. كما طلب من عميه أن يرسـلا لأبيـه أرباحه المتحققة أولاً بأول من خلال أحد الصرافين الـذي سيحولها له جنيهات مصرية. ظل ساكتاً وهما يلومـان أبـاه على انجرافه السياسي، فأعماله في تراجع وإنفاقه يزيد على إيراده. كان يمكن أن يدعم عبد الناصر كرجل أعمال أكثـر بكثير مما يدعمه الآن بالبيانات والتصريحات. كان يحيـى يعي حقيقة وضع أبيه في منفاه، فهو لا يختلف عن أصـغر



لاجئ سياسي. ولربما كان الأصغر بيـنهم. كـان يصـاب بالخزي منه عندما يستقبل كبار اللاجئين السياسين، الـذين يزورونه بسبب قدرته المالية وليس بسبب ثقافتـه السياسـية الضحلة. أثار عماه لواعجه أكثر مما أفاضوا عن لواعجهم. غمره الضيق والاكتئاب ولم يحس بدفء النقود التي قبضـها من موفق وصالات السينما. لازمه ذلك خلال الغداء الـذي دعا إليه هاني على شرفه. وكان هاني قد دعا نجـم أيضـاً وكأنه يعتذر منهما عما بدر منه تجاهه. أقلّ يحيى بالحـديث وأسهب هاني. كان الفندق الجديد الذي سيتم افتتاحه في شهر تموز يستحوذه. كما كان معرض المختارين الذي سيعقد في الشهر نفسه يستحوذ خير. إنها فرصـة يحسـده الكثيـرون عليها. فلم يقم في عمان حتى ذلك الوقت معرض للرسم. أنه الأول ولوحاته تعرض على الجمهور للمرة الأولى. سـيكون يوماً مشهوداً. وعده هاني أن يشتري من لوحاته ويعرضـها في الصالة الرئيسة للفندق. جامله يحيى واعـداً أن يشـتري منها ويأخذها هدايا لأصدقائه في مصر. غير نجـم مجـرى الحديث وسأله عن دراسته في مصر، تنهد يحيـى قـائلاً : عادية... استحثه خير للحديث فسأله عن علاقاته النسـائية

هناك. قال انها عادية أيضاً. ما يزال يقتنص الفرص ويلجـأ إلى بيوت الأصدقاء. أبوه يطب عليه من حين لحين. يباغتـه في الشقة بلا موعد. كما أنه مضطر للبقاء فيهـا لاسـتقبال أصدقاء أبيه ومعارفه وتلقي رسائله وتمريرها إليه. أنه يشعر بأن حياته في عمان على قلة ما كان فيها، كانت أكثر حريـة وحيوية. عندما يأتي أبوه إلى القاهرة لا يستطيع أن يتركـه ولا أبوه يعتقه، فيحس حينها بمصر على اتساعها أضيق من زنزانة. يحاسبه على أمورٍ لم يكن يحاسبه عليها وهو طالب في المدرسة. إنه لا يدري أن كان السياسيون كلهم هكـذا أم أن أباه حاول أن يشتري السياسة بالمال، فأضاع كلتيهما.

نظر إلى خير وسأله فجأة : أما زلـت تتطلـع لمـوت أبيك.؟.

- من قال بأنني أتطلع لموته.؟...رد بارتبـاك وريبـة واضحة. بينما سكنت أنظار هاني ونجم في وجهه.

- ألم تقل بأنك لن تمتلك حريتك إلا بعد أن يموت.

- صحيح. لكني لا أتطلع لموته.

- لا فرق طالما أنك تتطلع للحرية.

- هل تريد القول أنك تتطلع لموت أبيك.؟.

- بالعكس. أتطلع لحياته، لكنه يصر على إماتة نفسـه وإماتة كل عائلته.

- ألأنه يعمل مع عبد الناصر.؟.

- هو حر. ليعمل مع من يريد وليحب من يريد ويكـره من يريد. لكن، كل أنسان يجب أن يعي قدراته ويعرف ذاته. أبي ناجح جداً كرجل أعمال، لكنه أرعـن فـي السياسـة. يستطيع أن يخدم نفسه ويخدم عبد الناصر من موقعه كرجل أعمال. لكنه في معركته السياسية خسـر نفسـه وسيخسـر الجميع معه. عندما قال لي عماي ذلك، عارضـتهما. كنـت أظنهما يغاران منه. أما الآن فقد غدوت مقتنعاً برأيهما. وأنا أضع المسؤولية كاملة على عبد الناصر. فبدلاً من أن يسيس الرأسماليين، كان عليه أن يدعمهم بالقوانين.

قال نجم باستخفاف : ألهذا السبب أنت حانق على عبـد الناصر.

- إني أكثر من حانق عليه، فأنـا أكرهـه... أضـاف متسائلاً : من يحبه سوى فقراء المال والسلطة.

رد نجم بثقة : يكفيه هذا.

- بل سيسقطه هذا. بعدما ينهك أكتافك يا محترم.

استاء الجميع من تعليقه وشع السخط في وجـه نجـم. تدخل خير مناصراً نجم : حتى لو حصل ذلك. سيظل أعظم زعيم عربي جعل العروبة مرهوبة الجانـب يمـلأ دويهـا الآفاق.

- هتلر فعل للألمان بهذا الشأن أكثر ممـا فعلـه عبـد الناصر للعرب.

احتقن وجه نجم وأوشك على الرد فلجمه هاني بإشـارة من يده وشفتيه : اتركونا من هذا الموضوع. هل جئنا نسكر أم نتحدث بالسياسة.؟.

لم يكن أي منهم يحس بنشـوة الخمـر، وكأنهـا فـي حضور يحيى تستمد بهجتها من بهجته. أبـدى ضـيقه مـن المكان واقترح أن يذهبوا إلى دكان سـعود. رفـض نجـم بحزم. انه لا يتعاطى الحشيشة حتى لا يوقع عبد الناصر من فوق كتفيه. أهمل الجميع تعليقه وتـذرع هـاني بالانشـغال فأوصلهما إلى الفندق وواصل مع خير.

استقبلهما سعود بترحاب وبشاشة وأعد على غير عادته نرجيلة على شرف يحيى. وهو أمر لا يفعله إلا لنفسه وفـي خلوته الخاصة. حركت الحشيشة الجوع فيهما رغم كل مـا

أكلاه في الفندق. طلبا من سعود قطعة حشيش محرزة وذهبا إلى شارع المحطة. تعشيا لحوماً مشوية في مطعمٍ للسائقين. لم يكن لأي منهما رغبة في النساء، فقفلا إلى الجوفة وظـل يحيى طيلة الطريق واجماً شارداً. حرك حديث هـاني عـن الفندقة لواعجه وهو يقارن في نفسه بين مـا آل إليـه كـل منهما. يدير هاني الآن شؤون أبيه بالكامل، بينما يضيق عليه أبوه حياته في مصر، وفي عمان يريده جابياً.

لم يع نفسه وهو يوقف السيارة بجانب دكان أبي الخير، ولما لاحظ ارتباك خير قال بغطرسة : إلى متـى سـتظل تخافه.إنزل. إنزل... وأوقف محرك السيارة بعد أن ضـغط ضغطة قوية طويلة على دواسة البنزين.

اقتعدا الفرشة ملصقين ظهريهمـا للجـدار وباسـطين سيقانهما على امتدادها. راحا يدخنان الحشيشـة ويتحـدثان أحاديث متقطعة يتخللها فترات صمت طويلة. ينكمش فيهـا تفكير كل منهما في أمور صغيرة للغاية. ويتحدثان عن كـل شيء باقتضاب ودون اكتراث وكأنهما ليس طرفاً في شـيء مما دار او يدور حولهما : ألم تلتقِ بنجلاء.؟... سأل يحيى وهو يتثاءب.

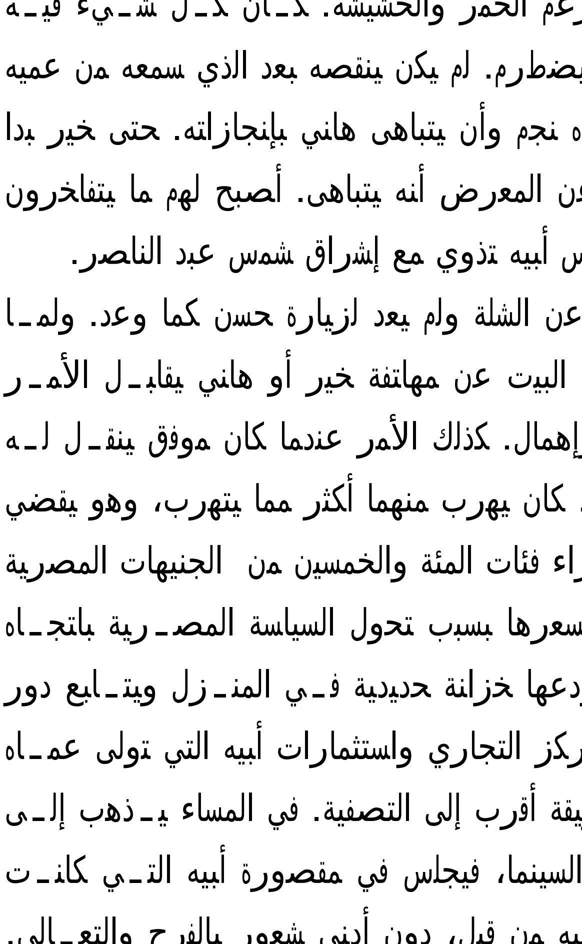
- أين سألتقي بها.؟!... أضاف وهو يتنهد : يمكن تزوجت وصار عندها أولاد.

كانا متضايقين. صدراهما مختنقان بدخان السجائر وذهناهما خامدان وحيويتهما منطفئة. ألقى يحيى باللائمة على سعود : بالتأكيد غشّنا ابن الحرام. هذه ليست حشيشة. كأننا ندخن تراباً... أضاف بضيق : كل شيء صار مغشوشاً.

قال خير بنفاد صبر : هل ستظل تشكو.؟. كفانا مقتاً يا أخي.

- حسناً. إذا كنت أتسبب لك بالمقت، فأنا أعتذر.

حاول خير الاعتذار : يا أخي، قصدت... قاطعه برفع يده : قصدت أم لم تقصد.. بخاطرك... غادر حرناً. بينما خير يتابعه بدهشة واستياء. في دقائق دوى صوت الزامور بتواصل، فأجفل خير مثلما أجفل الكثير من القاطنين في الجوار، ولما دوى صوت تحرك العجلات بحدة، لعنه خير واليوم الذي جاء به. رزح ليلتها تحت وطأة الكوابيس وغادر مع الفجر متلصصاً قبل أن يستيقظ أبوه.



تلك الليلة استولت الهواجس على يحيى أيضاً فلم يقو على النوم رغم الخمر والحشيشة. كان كل شيء فيه يضطرب ويضطرم. لم يكن ينقصه بعد الذي سمعه من عميه إلا ان يتحداه نجم وأن يتباهى هاني بإنجازاته. حتى خير بدا من حديثه عن المعرض أنه يتباهى. أصبح لهم ما يتفاخرون به بينما شمس أبيه تذوي مع إشراق شمس عبد الناصر.

انقطع عن الشلة ولم يعد لزيارة حسن كما وعد. ولما يخبرونه في البيت عن مهاتفة خير أو هاني يقابل الأمر باستخفاف وإهمال. كذلك الأمر عندما كان موفق ينقل له رسائل خير. كان يهرب منهما أكثر مما يتهرب، وهو يقضي يومه في شراء فئات المئة والخمسين من الجنيهات المصرية التي تردى سعرها بسبب تحول السياسة المصرية باتجاه الشرق، ويودعها خزانة حديدية في المنزل ويتابع دور السينما والمركز التجاري واستثمارات أبيه التي تولى عماه إدارتها بطريقة أقرب إلى التصفية. في المساء يذهب إلى إحدى دور السينما، فيجلس في مقصورة أبيه التي كانت محظورة عليه من قبل، دون أدنى شعور بالفرح والتعالي. ولما أخبروه عن تردد موفق على المقصورة وبصحبته فتاة

لم يعاق، وإن ازداد اغتماماً. لم يوص بمنعه، فهو لن يخالف أمراً لأبيه حتى وهو يحتضر.

في الليل يوقف سيارته في شارع بسمان مقابـل فنـدق كونتيننتال فيسرع إليه البواب يفتح له الباب ويتهافـت النـدل على خدمته حول تجويف البار الـذي تتجمـع فـي داخلـه أرتيستات أجنبيات، يتبارى أبناء الأثرياء على كسب ودهـن والإغداق عليهن بالشمبانيا والهدايا والإكراميات. بعدما يغلق البار يساعده البواب على الوصول إلى السيارة فيغدق عليـه أكثر مما أغدق على الأرتيستات. يقود سيارته مخموراً وهو يغني لفريد الأطرش. في البيت يرمي قطع ثيابه فـي كـل الاتجاهات ثم ينام حتى الظهر ليبدأ مشواره المعتاد.

ظل خير يتصل به ويسأل عنه ويترك له خبـراً فـي البيت والمكتبة والمركز. وأكثر من مرة هاتف منزلـه فـي عمق الليل دونما نتيجة. جنب انقطاعه بهذا الشكل خير مـن التفرغ له فتفرغ لتخطيط ورسم لوحات جديـدة التـزم بهـا للمعرض. كذلك الأمر بالنسبة لهاني الذي اعتبر افتتاح عالي بالاس في موعده أكبر إنجازٍ له منذ تسلم زمام الأمور. لـم يراودهما شك بأن لهما ضلعاً في هذا الغياب، بـل أنهمـا

أعذراه عندما تحدثا بالأمر يوم دعا خير هـاني للمعـرض. يحيى على الأرجح منشغل بشؤون أبيه. أخبر خير موفق أنه يهمه حضور شعوب الأرض لمشاهدة لوحاته، لكن سـعادته تظل ناقصة إن لم يأت يحيى.

بمجرد انتهاء مراسم الافتتاح، واستقرار كل فنان في الركن المخصص للوحاته، حتى تلفتت الوجوه إلـى البوابـة يتقدم عبرها رجلان يحملان باقتي ورد كبيـرتين، يتبعهمـا هاني ويحيى. تابعتهما الأنظار وهما يعانقان خير الذي بدت قماءته للبعض أبغض عليهم من قمامة الفقراء.

ذلك اليوم، بل تلك اللحظة استعاد يحيى معظـم نفسـه. يستأهل خير أكثر من ذلك. أنه كبر على معاناته وما يـزال منتعلاً الأرض لا يفصله عن أوساخها سوى زنوبته القـذرة ولا تحول دون موهبته جدران التسوية. إنه لا يخجـل مـن رثاثته، بل أنه لا يبالي بهـا. إنـه يتطلـع للأمـام ولـيس للأسفل.كأن عتمة ماضيه تنير فضاء موهبته : ألم تستطع أن تنتعل حذاء على الأقل.

- هل خجلت مني.؟.

- أبداً...أضاف وهو يشـير للجمهـور المتـأنق فـي الصالة : أقول هذا لأجل هؤلاء... ونظر إليه بحنو بالغ.

قال هاني : كأنك تراه بالزنوبة للمرة الأولى.

- إنها المرة الأولى. تعودت أن أراه في العتمـة. أمـا الآن فإني أراه في النور...

أوشك أن يستطرد وقد أعجبته تعابيره ولم يعجبه تحول خير عنه فنظر إلى حيث اتجهت أنظاره القلقـة المتوجسـة. كانت نبيلة تتجول بين معروضات الفنانين الآخـرين. سـأله عنها، فقلب خير شفتيه وهو يقول باستخفاف : فنانة... ازداد خفقان قلبه مع تقدمها إلى ركنه. بادرته باسـتعلاء : كيـف حالك...

رد عليها بارتباك أثار ريبة هاني ويحيى. تحرش بهـا يحيى وراح يسألها عن اللوحات والفن ملجماً خير كلما حاول التدخل. أخبرها بأنه لو كان مكان أبيه لحولها إلـى أشـهر نجمة سينمائية. سألته عن عمل أبيه فأسهب فـي الإجابـة. تهامس هاني وخير فيما بينهما : لن يتغير أبداً... ثم سـألها عن أجمل رسمة في المعرض. ترددت فـي الإجابـة أمـام امتعاض خير الذي عبر وجهه عن عدم الرضى. غير سؤاله

إلى أحلى لوحات خير. أشارت على واحدة، فسأل خير عـن سعرها. أرتبك خير وقال متلعثماً : من غير نقود للحبايب... فهمت نبيلة أنه يقصدها. إلا أن يحيى رد بمجعصـة : لا لا. ا يخليك يا خير. الحبايب أولى الناس بدعمك. ربمـا آخـذ اثنتين هدايا لأصدقاء في مصـر... التفـت إلـى هـاني : وأنت.؟...

قال هاني وهو يميل برأسه ويقلب شفته : طبعاً. سآخذ لوحة نعلقها في الفندق الجديد... قالها وهو ينظر إلى نبيلـة بطرف عينه. التفت إليها بغرور عندما قال له يحيى : عندك خمسة فنادق وتأخذ اثنتين يا ابن العالي... تورط هاني بشراء لوحة أخرى.

دفعا لخير على مرأى من الحضور وسـأله يحيـى أن ينقلها أحدهم للسيارة. انتبهت نبيلة لكلمة السيارة أكثـر ممـا دار بين يحيى وخير الذي رفض ذلك. التسليم بعـد انتهـاء المعرض، وعلق على اللوحات قصاصـات كتـب عليهـا "مباعة". استقدمت الكلمة الجمهور أكثر من اللوحات نفسها، بينما انسحب يحيى مع نبيلة عارضاً عليها أن يوصلها. لحق به هاني تاركاً المعرض لخير. استقر فـي المقعـد الخلفـي

ونبيلة في الأمامي. سأله يحيى بامتعاضٍ إلـى أي فنـدق سيوصله. قال هاني بغطرسة : اليوم أنا مجاز. أذهـب بـي حيثما تشاء...

لم تعارض نبيلة التجول بالسيارة في شوارع عمان ولا أبدت انزاعجاً او ريبة من ابتعادها بها إلى ناعور. تحسـس خلال الطريق فخذها على مرأى من هـاني الـذي تشـجع وتلمس رقبتها. لما ابتعدا أكثر صارت تمازح يحيى وتداعبه إلى درجة أربكته فكاد يفقد السيطرة على السيارة أكثر مـن مرة. قال لها والبهجة تغمره : انتظري ريثمـا نجـد مكانـاً نتوقف فيه. لكنها لم تنتظر. إذ قفزت من فوق مقعدها إلـى الخلف وظلت تعبث مع هاني إلى أن وصلت السيارة إلـى موقع النور الذي كان خالياً مهجوراً. هناك ضـاجعها كـل منهما مرتين.

في طريق العودة، سألها أيـن سـيلقاها . تسـاءلت : لماذا.؟. ومع أن جوابها أربكه، إلا أنه قال مازحـاً : حتـى أصنع منك نجمة سينمائية.

عندما أخبرا خير بذلك، خالجـه إحسـاس بالارتيـاح والامتعاض معاً. تساءل إن قصدت باجتذاب اصحابه إذلالـه أم إفهامه أن ما حصل كان قرارها وليس قراره.؟.

اعتذر هاني عن دعوة خير ويحيى لحفل افتتاح عـالي بالاس بحجة أن أباه ما يزال متأثراً بقصة نجلاء. سأله خير، كيف سيعلق لوحاته إذن. تلعثم هاني. ثم قال : إبقها لديك إلى أن أطلبها. كان ارتباكه يدل على أنه يخفي أمراً. لكن نبيلة لم تخطر على بال أي منهما.

أثارت بتوحدها وغطرستها انتباه جميع المدعويين، بمن فيهم أبا هاني، ولما سأل عنها، قلب هـاني شـفتيه وقـال باستخفاف : فنانة... بينما كان يحيى يحتفي بخير في فنـدق الكونتيننتال دونما حرجٍ من رثاثته وهو يقدمـه للأرتيسـتات الأجنبيات : فنان مثلكن...طلب لهن من فوره زجاجة شمبانيا ولهما لتر ويسكي أتيا عليه في غضون ثلاث ساعات. تـيقظ ذهن يحيى الفلسفي، فقال بلسان أثقل من لسان كلبٍ عجـوزٍ مستدفئ : أحسدك يا خير... وتجشأ : ليس المهم أن تـدعي امتلاكك لنصف حريتـك... وأرسـل قبلـة فـي الهـواء للأرتيست : بل المهم أن تعيش المتاح منهـا... واستنشـق

بنفس عميق قبلة أرسلتها الأرتيست : حتى لو كان قطـرة...
أراد خير أن يعلّق فقاطعه يحيى ملوحاً اصبعه ذات اليمـين
وذات الشمال : لا يسعدني امتلاك شيء لا أعيشه حتى لـو
كان المال او المرأة او الحرية... نفـض أصـابعه فـأوقع
الكأس أمامه : ا لا يرده... أسرع النادل يمسح الويسـكي
المندلق وما ان انتهى حتى أشار له بشبر يده وقال لخير كأنه
يأسف : آ. ماذا كنت ستقول.؟.

قال خير بجعفصة : كنت قد قرأت في مكتبة موفـق أن
الرأسماليين هم أنبياء الفوضوية. الآن فقط اقتنعت بذلك.

- يعني محسوبك نبي... وطبطب علـى صـدره مـع
إحضار النادل لزجاجة ويسكي ووضعت الأرتيسـت قـدحاً
جديداً : صبي. صبي يا حلوة.. وشربا نخب الأنبياء.

ضحكا بسرور وظلا يتبادلان الأنخاب إلى أن جاءا على
نصف الزجاجة، فطفح سرورهما وقفزا إلى داخل تجويـف
البار وراحا يرقصان معاً تارة ومع الأرتيستات تارة أخرى،
والزبائن يصفقون ويصرخون إلى أن أغلق البار وانسـحبت
الأرتيستات رغم احتجاج الجميع.

توجها بعدها إلى بيت أم سهير. اعتذرت لهمـا بسـبب تأخر الوقت ولما ألحا وأصرا أن تدبرهما كاد الرجل البـدين أن يهم بهما لولا تدخلها. فغادرا مغتـاظين وهمـا يشـتمان ببذاءة.

ذهبا إلى فاتنة فوجداها وحيدة. قالت بأنهـا سـتكفيهما الاثنين، لكنهما أنفا مضاجعتها.

ذهبا إلى بيت زاهر. طرقا بابه المقفل طـويلاً دونمـا نتيجة وكأن أصحابه مرتحلين. أخذ يحيى يستذكر المـواخير التي كان يرتادها متنقلاً بالسيارة من حي إلى حي ومن زقاق لزقاق. يطرقان الأبواب، ويسألان الجيران، فيتلقيان التـوبيخ والشتائم واللعنات فيردان عليها بأفظع منها. شتمهما أحـدهم ببذاءة فأمطراه بالحجارة ولاذا بالفرار. أخيراً قـال يحيـى بأسى : مسكّرة. حظنا زفت... لعن خير أم سهير : القحبـة. معقول ما عندها ولا ممرضة... ارتد جسده للخلف مع تعديل يحيى لغيار السيارة وضغطه بكل قوته على دواسة البنزين : إلى أين.؟... سأل خير. رد يحيى وقد تشـنجت عضـلات وجهه : سترى...

قاد السيارة بسـرعة جنونيـة، وقبـل أن يصـل دار الممرضات بمسافة كبح السيارة بشدة فانزلقت مصدرة صوتاً حاداً أيقظ النائمين. أجفل الحارس وخفق قلبه. ارتد في مكمنه إلى الوراء ثم ركض إلى الشارع، بينما بعض الممرضـات يراقبن من الشرفة.

تنحنحا وهما يتقدمان إلى البوابة بثقـة دونمـا التفـات للحارس الذي اعترضهما متخصوراً : إلى أين علـى بـاب ا .؟.

- إلى فوق... قال خير بعنجهية... وقد عبقت رائحـة خمره أمتاراً : ماذا لك فوق.؟.. قال الحارس وهـو يسـند قبضتيه إلى خاصرتيه .

بسرعة قال يحيى : كيف ماذا له فـوق.؟!. يريـد أن يطمئن على أخته.

- يا سلام... والتفت إلى خيـر فاتحـاً عينيـه علـى اتساعهما وأمال رأسه وهو يقول متصنعاً الدهشة : لك أخت هنا.؟.

رفع خير إصبعيه برقم سبعة : اثنتان... وتجشأ.

- توأم ا وكيلك... قال يحيى وتقهقه قوقازيـاً علـى طريقة حسن : قه قه قه..

- يا جماعة. لو قلتما من الأول لما أخرتكما هكذا.

- لم يحصل شيء... قال يحيى بتعـالٍ، وأدى التحيـة بسلام من أصبعيه : ممتنين... ونفـض أصـبعيه للأمـام : هيا... ما أن تقدم خطوة حتى التقطه الحارس مـن كتفـه : روح من هنا... ودفعه إلى الجانب دفعة قوية رنحته ، فتعثر خطوات إلى الطرف المقابل من الشارع وهو يوازن نفسـه بالمفاجأة وسقط على قفاه. ركض خير نحوه لكنه بدلاً مـن مساعدته على الوقوف التقط حجراً كبيراً قذف به الحـارس بين قدميه. تراجع الحارس واضعاً يده على جراب مسدسـه بينما التقط خير حجراً آخر سدده إليه : أتركه أحسن لـك... قال الحارس محذراً وهو يحرر غطاء الجراب. في اللحظـة نفسها وقف يحيى متعثراً حاملاً بكل يدٍ حجراً : وا لألعـن والدك... تراجع الحارس إلى الوراء وقد قبض على مسدسه.

- نحن لا تخيفنا الفرودة.

- وقَشكَك كله فتّاش.

-ابتعد أنت وإياه من هنا أحسن لكما.

- وإذا لم نبتعد.؟.

ارتج المسدس بيد الحارس، فنتر باليد الأخرى رباطـاً أبيض مجدولاً يتدلى من جيب سترته ومشبوك مـن طرفـه بأحد أزرارها. قفزت إلى فمه صفارة معدنية أذهلـت خيـر ويحيى ورجرجت الأرض تحت أقدامهما وهو ينفخ بها كـل جوفه، فدوت استغاثته في عمق الظلام. احتارا للحظة قبل أن يركضا معاً إلى السيارة والأحجار بأيـديهم. رمـى يحيـى حجريه في حضن خير قبل أن يستقر في المقعـد وأنهـض السيارة كإقلاع طائرة. تزوبع الهواء من خلفها وتصرصـر الشارع من تحتها، فهرب الحارس مذعوراً بعد أن سـقطت من فمه الصفارة، وتماسكت الممرضات ببعضهن ووضـعت إحداهن اللوم على الحارس : حرام عليه..شـتم عـدداً مـن الجيران أولاد جبل عمان. قال يحيى مستهجناً وهـو يبتعـد بأقصى سرعة : ملعون أبوه، حامل معه إس أو إس...

- والآن.؟... سأل خير. وأضاف : الظـاهر مـا لنـا نصيب .

- من قال.؟...التفت إليه متجهماً وهو يضيف بحـزم : ابن العفيف لا ينضحك عليه... صـرخ خيـر مـذعوراً :

أمامك... خطف يحيى رأسه للأمام وانحرف بالسيارة عـن التلة ووازنها سريعاً بطريقة أذهلـت المتفـرجين وأجفلـت الساهرين وأيقظت النائمين . ردد الكثيرون في لحظتها : يـا ساتر. وآخرون : يالطيف. ولما لم يتبع ذلك صوت ارتطام. استكان البعض قائلاً : سليمة. بعضهم قال : خير.

توقفت السيارة مقابل مختبـر جبـل عمـان. تـرجلا مترنحين. صدهما الرجل الضخم بشراسة ودفع يحيى فأوقعه على قفاه. ساعده خير على النهوض وهبط به الدرج وهـو يتفلت ويشتم ببذاءة.

ما أن استقرا في السيارة حتى لاحظ يحيى الحجـارة : ناولني. ناولني... ابتعد عن السيارة تاركـاً البـاب مفتوحـاً وسدد حجراً إلى نافذة بيت أم سهير. جاءه خير بـالحجرين الباقيين، ثم راح يجمع له أحجار الطريق بينما يحيى يقذفها واحداً بعد الآخر فتصيب نوافذ بيـت أم سـهير والجيـران وأعمدة الكهرباء والجدران، وطار أحدها فوقهما فكادا يقعان وهما يتجنباه ويحذران بعضهما منه : دير بالك. دير بالك... ما عليك. رأسي متعود على الفشخ. المهم، بيت القحبة قدامك وليس فوقي... تكركرا للحظة، ثم قذف يحيى حجراً وهـو

يشتم ويتهدد بأعلى صوته : انتِ والجنرال على شيئي قائمـاً ونائماً. قال جنرال قال. أنا يحيى العفيف.

لكزه خير بذراعه : يا مجنون. أنت سعود المصري.

قرفص متكركراً غير قادر على التماسك فتكركر معه خير مترنحاً خطوة للأمام وخطوات للوراء : صحيح. أنستني القحبة اسمي... قذف حجراً آخر : أنـا سـعود المصـري. سامعني يا عكروت أبو كرشين . إنزل أحسـن مـا أصـعد لك... كان البدين يغلي غضباً، فتهدىء أم سهير من روعـه بعدما أجرت اتصالاً سريعاً جعـل صـفارات الإس أو إس تتنادى من المناطق القريبة، وإذا برجال الشرطة يتوافـدون على المنحدر نزولاً وصعوداً. عندها فقط، نزل البدين إلـى الشارع : أنا عكروت يا شُلّك... وهم بالانقضاض عليه لولا الشرطة..

قبل أن يصلوا بهما إلى المخفر استرد يحيـى بعـض رشده وفقده خير كلياً وهو يتهيأ له أبوه في ثياب كل شرطي. استجدى أحدهم بذلة : ا يستر عليك قل لهم ان يتركونا ولن نعيدها...

كان يحيى عملياً أكثر، فطلب في المخفر ان يسمح لـه بمكالمة هاتفية حتى لو تكلفت عشرة دنانير.

كانت الساعة حوالي الثالثة فجراً عندما أجفـل الـرنين عائلة العالي بأسرهم. أسرعوا إلى الصالة، يتبعهم هاني الذي قضى يوماً متعباً تخللته بهجة عارمـة فـي جنـاح فنـدقي مخصص للعرسان دشّنه مع نبيلة في غفلة عـن الآخـرين. اختطف أبو هاني السماعة كأنها خنجر : ألو.

أضاف بعصبية : أمساء أم صباح.؟. من تريد.؟.

قال خير بذلة. وقد استولى عليه تماماً شبح أبيه : هـل هاني موجود.؟.

صرخ به : من يريده.؟. من أنت.؟.

- أنا خير عمي. خير الجليلي... وتثاءب هاني.

- خير.!؟. الذي خرب بنت المكنوز.؟...ظل فم هـاني فاغراً دون أن يقوى على استكمال تثاؤبه او العـدول عنـه. بينما أطبق خير السماعة، وقال ليحيى : انقطع الخط...

اتصل يحيى من جديد، وكان هاني قد وصل إلى الهاتف وأبوه يحملق به غاضباً بينما أمـه وشـقيقته تنظـران لـه مؤنبتين. تناول السماعة بانكسار: آلو.

- دخيل عرضك يا هاني. نحن في المخفـر... نظـر هاني إلى أبيه ولم يرد بكلمة : خلي أبـاك يلحقنـا قبـل أن يفتحوا قضية.

- قضية ماذا.؟.

- لا شيء يذكر. تلفيقة تافهة... وتجشأ : المهم الحقنـا يا صاحبي... غمز خير الذي سأله بلهفة : هل سيجئ.؟.

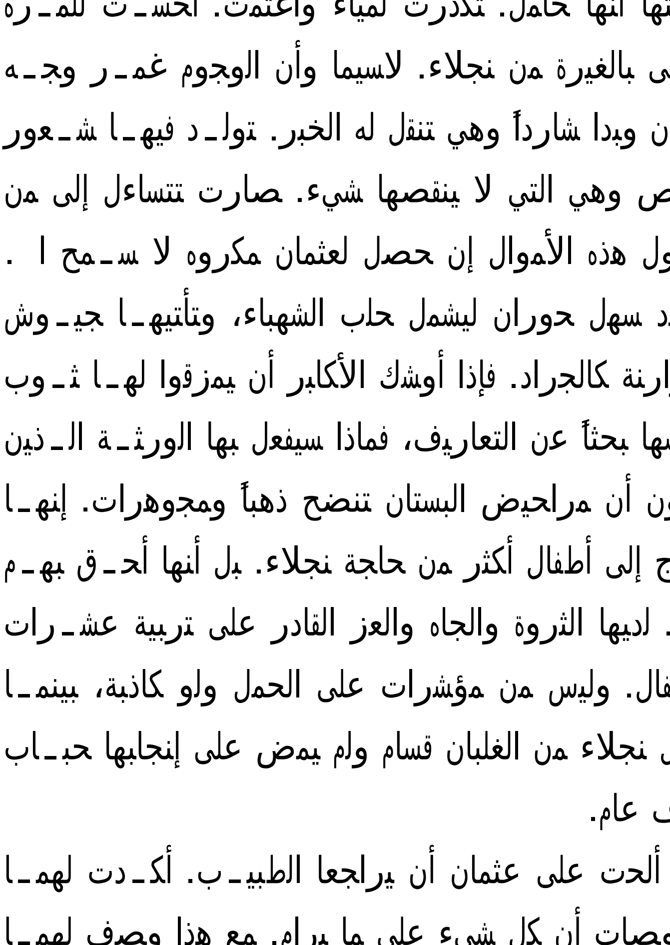
- غصب عمن خلّفوه... وإلى قائد المخفر الذي يحملق بهما غاضباً : بربك شكلنا شكل ضريبة أحجار... التفت قائد المخفر إلى خير، ثم أشاح بنظـره وهـو يقـول لشـرطي بجانبهما : أرمهما في النظارة.

ظل أبو هاني ساكتاً طيلة طريق العودة وهاني بجانبـه في السيارة يتمنى أن تأتيه صفعة على رقبته. دخلا المنزل مع انبلاج الفجر. تلوح أبوه وهو يحدجه بنصف إغماضـة : سكر وعربدة يا هاني. وتقول لا شيء يذكر. تلفيقـة تافهـة وكل أحجار جبل عمان قالت آخ...

هز رأسه متوعداً واتجه إلى خزانة ركنية تعج بـأنواع خمور مختلفة. تقهقر هاني منسلاً إلى غرفته بينما تناول أبوه زجاجة ويسكي وتجرع من فمها جرعة كبيرة : هـذا مـا

كسبناه من المدرسة. بلطجية ومغتصبين وسكيرين ضـريبة أحجار. وأنا الذي كنت أقـول، هـاني عاقـل ولا يسـتأهل الرسوب في المترك... التفت إلى الخلف فلم يجـده. نـادى بأعلى صوته : أين ذهبت.؟... جاء هاني مهرولاً تتبعه أمه وشقيقته : الآن. أكتب لي أسماء أصحابك وماذا يعمـل كـلٌ منهم. أريد أن أوكل محامياً خاصاً بهـم... تجـرع جرعـة أخرى تزيد عن الأولى. وصرخ مزمجراً : سكر وعربدة يا ابن العالي.؟.

٢٦



بعد حوالي الشهر من عودتها إلى البيت اخبرت نجلاء شقيقتها أنها حامل. تكدرت لمياء واغتمت. أحست للمرة الأولى بالغيرة من نجلاء. لاسيما وأن الوجوم غمر وجه عثمان وبدا شارداً وهي تنقل له الخبر. تولد فيها شعور بالنقص وهي التي لا ينقصها شيء. صارت تتساءل إلى من ستؤول هذه الأموال إن حصل لعثمان مكروه لا سمح ا . سيمتد سهل حوران ليشمل حلب الشهباء، وتأتيها جيوش الحوارنة كالجراد. فإذا أوشك الأكابر أن يمزقوا لها ثوب عرسها بحثاً عن التعاريف، فماذا سيفعل بها الورثة الذين يظنون أن مراحيض البستان تنضح ذهباً ومجوهرات. إنها تحتاج إلى أطفال أكثر من حاجة نجلاء. بل أنها أحق بهم منها. لديها الثروة والجاه والعز القادر على تربية عشرات الأطفال. وليس من مؤشرات على الحمل ولو كاذبة، بينما تحمل نجلاء من الغلبان قسام ولم يمض على إنجابها حباب نصف عام.

ألحت على عثمان أن يراجعا الطبيب. أكدت لهما الفحوصات أن كل شيء على ما يرام. مع هذا وصف لهما

مقويات كان لها تأثير عكسي أصاب لمياء بالاكتئاب وأصاب شيء عثمان بالارتخاء والخداج فطاش صوابه وكـاد يفقـد وعيه وهو يسأله الاستقامة فيزداد ذبـولاً واسـتحياء. كـاد يعترف بما لا يرغب في الاعتراف به حتى يثبت أنـه فـي أحسن حال ولا يحتاج طبيباً ولا دواء. رمى الأدويـة فـي السيفون وتبول فوقها. دفع لمياء للـذهاب مـع أمهـا إلـى الحكيمة، فركبت لها علاجاً نباتياً وحـذرتها مـن الأطبـاء وأدوية الصيدليات. لكن ذلك لم يجد ولا أجدى إنهاكها عثمان بالوصال عدة مرات فـي الوقعـة الواحـدة كلمـا أحسـت بالإخصاب. أحياناً تتصل به في المحل تسأله أن يـأتي وإلا ذهبت إليه. ما أن يصل تجره من ذراعه أو ثيابـه بمجـرد ولوجه الباب. أحياناً توقظـه مـن نومـه او تباغتـه فـي المرحاض. طلب الخلاص عند المكشوف عـنهم والعـاملين بالسحر والتنجيم ومسخري الجان. لكن ذلك لم يجد. ولم يلجم لمياء عن طلب الوصال باستمرار بعد أن أقنعتهـا الفكـرة ومتّعها التنفيذ فصارت تحس بالإخصاب يومياً وعلى مـدار الساعة، إلى أن تحيض، فتبدأ في البكاء. هددها عثمـان أن يتزوج عليها إن ظلت على هذا الحال. لديه أعمـال وأنـاس

يهتم بهم غير البيت والزوجة والأولاد، بينما في الواقع كـان تلبيته لها باستمرار يرخيه مع الآخريات.

أحجم عن الاستجابة لها وصار يتفه سـلوكها ويسـخر منها. إنه راغب بالأولاد، لكنه لن يجن بسببهم، ولن يسـمح لها أن تجننه. استكانت ولم تعد تلح وتصر، بل انكمشت على نفسها ولازمتها الكآبة. لم يكن أمامه إلا أن يرسـلها لـذويها ريثما يعود من سفرة سريعة إلى لبنان. فقد وصـلته أخبـار بقاعي يدعى "مدهش"، يقال أنـه مكشـوف عنـه الحجـاب ويعرف الأسرار ويشفي أمراض العظام ويوقـف الأوجـاع وينعش النظر ويزيل الكرب والهم وله صلة وثيقة بحـراس الكنوز. وكان عثمان يحتاج كل هذه الأشياء. سيكتشف فـي الحال إن كان البقاعى صادقاً او محتالاً . وجد منزل مضيفه محتشداً بالمئات ممن يعانون الأمراض والأوجاع والإعاقـة والقصور. كان كل الذين يخرجون من غرفته يدعون له وقد زال كربهم واختفى وجعهم وشفيت أمراضـهم واسـتقامت عظامهم. دفع مبلغاً محترماً لصاحب البيت وهو يحدثه بلهجة لبنانية جبلية مدعياً أن أمه بقاعية مما مكنه من تجـاوز دور غيره . أعطاه الرجل أمام باب داخلي مغلق كوبـاً نحاسـياً

طلب منه أن يسمي قبل أن يشرب محلوله الحامض. استجاب معتبراً ذلك بداية الاحتيال. ما أن ولج الباب حتى طبقه صاحب البيت بقوة أجفلت عثمان.

في الغرفة المعتمة تربع رجل يكاد يضئ لشدة احمرار بشرته المنمشة وكأنه أبو بريص. خالج عثمان خوف سريع، فتلعثم وهو يحييه باللبنانية : مساء الخير سيدي الشيخ... وكان الوقت ضحى.

لم يرد مدهش. ظل ساكناً في متربعه بينما اقترب منه عثمان رويداً رويداً. ما أن أصبح في مواجهته ومال بجذعه نحوه متبيناً حتى صرخ مدهش بصوت أقرب إلى الهلع : عثمان...

ارتاع عثمان وتلوى جسده بارتدادات شتى فاتحاً فمه بذعرٍ وأطرافه ترتجف وكيانه ينتفض وسقطت النظارة. ثنى جذعه متلمساً الأرض أمام المتربع. أحس بأصابع مدهش تحط على عنقه كأنابيب رقيقة. هم برفع رأسه فضغط مدهش يده.

استقر في موضعه وهو يسمع تمتمات غريبة، ثم قبض مدهش على بقية شعره ورفع له رأسه. بدا له وجه مـدهش كوجه السحلية.

تركه وهز راحته مبسوطة للأعلى بهدوء وروية فرفع عثمان رأسه بالهدؤ نفسه. أخرج مدهش من صـدره خيطـاً جلدياً يرتبط به أنبوب زجاجي صغير فيه سائل لزج، أنقـط منه قطرة على إصبعه ومسحها فوق جفني عثمان.

في دقائق شع نظره كالضوء فبدا كل شـيء واضـح لعينيه، بما في ذلك نظارته في حضن مدهش : ضع نظارتك في جيبك واخبرني الآن بمشكلتك مع زوجتك .. أذهل قولـه عثمان ونقل نظره بين النظارة ووجه مدهش. إنـه يشـاهد بوضوح تام ومن غير نظارة. أمعقول.؟. لم يشك لـه شـيئاً فكيف عرف بضعف نظره ويعرف عن مشكلة زوجته أيضاً. أمعقول.؟. ردد في نفسه ثانية، فسأله مدهش : هل تراني.؟.

- طبعاً سيدنا.طبعاً... قالها بالحورانيـة وقـد أنسـاه ارتباكه موهبته، لكنه تماسك على الفور وقد انتبـه لزلتـه، فأضاف بلبنانية جذلى : ومن غير نظارة.

- أنا لا أراك بنظارة... قالها بقرفٍ، فتبـدلت تعـابير عثمان واحتار في قصده. لكن النظرات الثابتة المرعبة فـي عيني مدهشٍ وهو يمد ذراعه جعلته ينكب على يده البرصاء ويقبلها بشغف : أنا ممتن لك يا سيدنا.

- مشكلة زوجتك في الأولاد.

العمى. قال عثمان في نفسه : ومشكلتك فـي المـال... مرة أخرى، العمى : لا تشبع الإنسان كنوز الأرض...ألـف العمى.

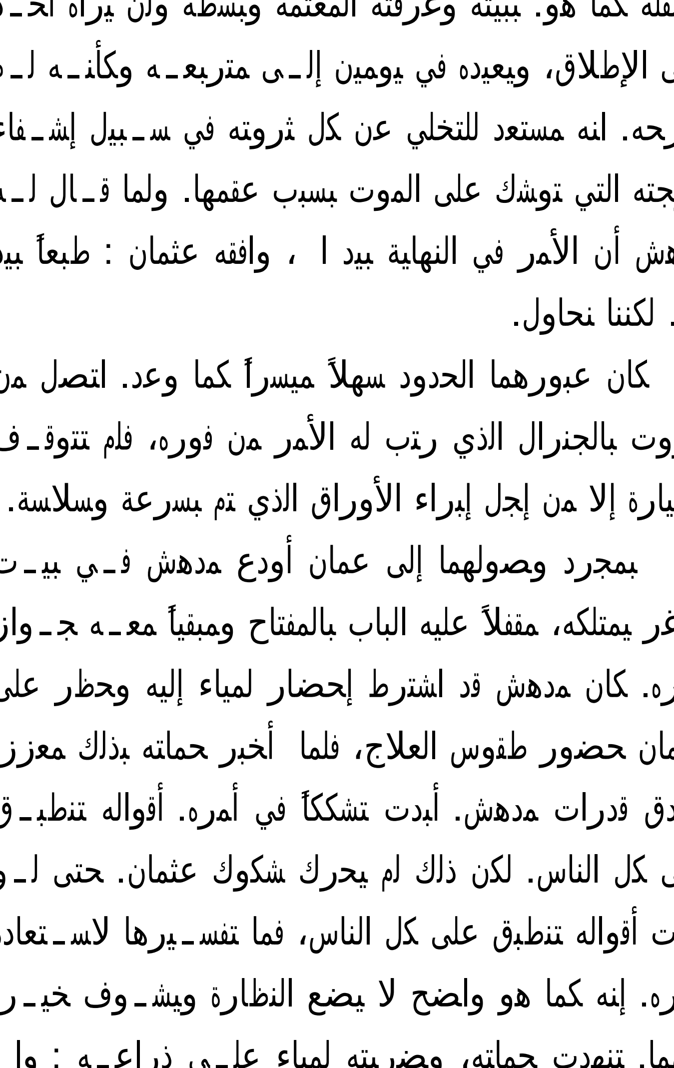
- الآن اسمعني أنت.

- يا سيدنا أنا لا أريد منك سوى هذا الرجاء... قالهـا بذلة ومسكنة وهو يوشك على البكاء : اسمع يا عثمان. اياك أن تبكي او تأكل فلفل بهارات. وإلا ضعف نظرك كالسابق.

- وعد يا سيدنا، أن أُبكي العالم ولا أَبكي. وأن أُفلفـل ولا أَتفلفل.

- والآن ماهو رجاؤك.؟.

بمجرد أن نطق برجائه حتى صـرخ مـدهش بهلـع : عثمان... ارتاع عثمان وضعف نظره لوهلـة. لكنـه ظـل يراوغ ويناور ويحاور إلى أن أقنعه بالمجيء معه إلى عمان.



سينقله كما هو. ببيته وغرفته المعتمة وبسطه ولن يراه أحد على الإطلاق، ويعيده في يومين إلى متربعه وكأنه لم يبارحه. انه مستعد للتخلي عن كل ثروته في سبيل إشفاء زوجته التي توشك على الموت بسبب عقمها. ولما قال له مدهش أن الأمر في النهاية بيد ا ، وافقه عثمان : طبعاً بيد ا . لكننا نحاول.

كان عبورهما الحدود سهلاً ميسراً كما وعد. اتصل من بيروت بالجنرال الذي رتب له الأمر من فوره، فلم تتوقف السيارة إلا من إجل إبراء الأوراق الذي تم بسرعة وسلاسة.

بمجرد وصولهما إلى عمان أودع مدهش في بيت شاغر يمتلكه، مقفلاً عليه الباب بالمفتاح ومبقياً معه جواز سفره. كان مدهش قد اشترط إحضار لمياء إليه وحظر على عثمان حضور طقوس العلاج، فلما أخبر حماته بذلك معززاً صدق قدرات مدهش. أبدت تشككاً في أمره. أقواله تنطبق على كل الناس. لكن ذلك لم يحرك شكوك عثمان. حتى لو كانت أقواله تنطبق على كل الناس، فما تفسيرها لاستعادة نظره. إنه كما هو واضح لا يضع النظارة ويشوف خيراً منهما. تنهدت حماته، وضربته لمياء على ذراعه : وا

شكلاك بالنظارة أحلى... أخيراً اقتنعت أم لمياء ولم تكن لمياء بحاجة للإقناع، فرافقتاه إلى حيث أنزل مدهش ولمـا رأتـاه متربعاً في غرفة صغيرة معتمة ارتاعتا من منظره. لم يمانع مدهش في أن تلازم أم لمياء ابنتها أثناء العلاج، لكنه أصـر على ابتعاد عثمان.

لما صرخ باسم لمياء، كاد يغشى علـى أمهـا قبلهـا، وارتد عثمان الذي كان يلصق أذنه بالباب إلى الوراء. لكنـه لم يرتجف إلا عندما سمع مدهش يخاطبـه وكأنـه يـراه : أحضر ماء مغلياً مسمى عليه في وعاء نظيف. توضأ قبل أن تغسله.

- وإذا كان مغسولاً.؟...سأل عثمان بهبلٍ يقصـد بـه الاستخفاف.

لم يرد مدهش، فامتثل عثمان وتوضأ وغسـل وعـاء مغسولاً حمله بمائه المغلي إلى الغرفة، وهو يبسمل عليـه، وكانت أم لمياء في الأثناء قد امتثلت لمدهش فوضعت مخدة في حضن ابنتها المتربعة أرضاً وغطتها من رأسها ببطانيـة كبيرة احتوت جسدها كالخيمة.

ابتهل مدهش وراح يتمتم مغمض العينين حتـى وهـو يزحف نحو لمياء ويدس رأسه من أسفل الخيمـة ويرتخـي بذقنه على المخدة وظل على حاله إلى أن قرع عثمان بقدمه الباب. فاختطف مدهش رأسه إلى الخارج ونفضـه باتجـاه الباب وهو يتفرس بأم لمياء . ما أن همت بتنـاول الوعـاء، حتى صرخ محذراً بهلعٍ والتياع : لا تنجسيه... ارتدت إلـى الوراء وأحرقت طرطشة الماء المغلي يدي عثمان وهو يتقدم مرتاعاً بالوعاء ويضعه فوق المخدة من خـلال فتحـة فـي الخيمة كشفها له مدهش وأشار له للمغادرة فامتثل عثمـان. بمجرد إغلاقه الباب من خلفه حتى سحب مـدهش رباطـه الجلدي وأنقط من أنبوبه الزجاجي بضع قطرات فـي المـاء المغلي مبعداً رأسه إلى الجانب، فعبق البخار كالدخان . أحكم حولها الغطاء طالباً منها أن تستنشق بعمق. كـرر محاولتـه مرتين أخريين، صارت الخيمة بعدها تتلوح، فنهض واقفـاً وانتزع البطانية بخشونة أشعثت شعر لمياء وبدت في ذبولها وارتخائها وترنحها مخبولة شبه مغشية. قال لأمهـا : خلّيـه يدخل... اتجهت إلى الباب وأنظارها لا تفارق ابنتها. مـا أن حركت المقبض حتى انفتح الباب بعنفٍ واندفع عثمان إلـى

الداخل كأنه يسقط. وازن نفسه بجانب أم لمياء بينما مـدهش يتحرك مغادراً. قال وهو يتجاوز عثمان : خـذ امرأتـك.؟. وبارح الغرفة. تبادل عثمان وحماته النظرات المتسائلة عمـا قصد بكلمة خذ.

التفتا إلى لمياء فكانت تتمايل وتدندن مبتسمة. اتجه إليها عثمان وغادرت أمها الغرفة مغلقة الباب من خلفها. بحثـت في المنزل عن مدهش فلم تجد له أثراً. عادت إلـى حيـث الغرفة الضيقة وظلت تنتظر بجانب البـاب إلـى أن خـرج عثمان مسنداً لمياء إلى كتفه. أقفل الباب من خلفه، فسـألته : أخذتها.؟... قال باستياء جهوري : أخذناها... لوحت لميـاء يديها بجذل. سأل عن مدهش، فأخبرته أنه اختفى. دفع أليهـا لمياء حتى كاد يوقعها وأسرع ملهوفاً يبحث عنه لاعناً أمـه على أبيه، وشاتماً أعضاءهما التحتية. بمجرد أن عاد مغتاظاً إلى زوجته الخدرة وحماته الحائرة حتى انفتح باب الغرفـة الضيقة من خلفهما وأطل مدهش. ابتسمت له لمياء وأشارت له بدلال، بينما غُشيت أمها وذهل عثمان .

جاب له ليلتها سدراً معرماً بالأرز واللحـم وصـينية هريسة. لم يلتفت لها مدهش ولا أثارت شـهيته. قـال لـه بغلاظة : حضر حالك حتى ترجعني غداً.

- لماذا.؟... صرخ عثمان ملتاعاً.

- هل سأبقى حتى تلد امرأتك.!؟. عملت الذي استطيعه والباقي على ا .

- لكن هناك أمور كثيرة أمامنا...

حدجه مدهش بنظرات أكثر رعباً من نظرات موميـاء. تلعثم عثمان : قصدي، هناك مرضى غلبانين ينتظرونك حتى تعالجهم.

ظل يحدجه دونما حركة او كلمة، فاسترسـل عثمـان بارتباك : بعدين معقول يا سيدنا، تصل ديارنا وترجع مـن غير ضيافة.

- بكرة، تأتيني بالباسبور. إن لـم ترجعنـي سـأرجع وحدي.

- لبكرة يفرجها ا ...

في اليوم التالي جاءه مساء فوجده متربعاً فـي عتمـة الغرفة الضيقة. أخبره متأسياً أنه ذهب بالجواز إلى المخفـر

حتى يثبت مكان الإقامة فاحتجزوه وطلبوا منه العـودة بعـد أسبوع. لم ينبس مدهش ببنت شفة. وأسرع عثمان بالمغادرة مقفلاً الباب بالمفتاح. قاد سيارته بأقصى سرعة وكأن مدهش يطارده. ما أن عتّب باب البيت حتى أسـرعت إليـه لميـاء كالمأخوذة. قالت بصوت خفيض مشيرة إلى الـداخل : إنـه ينتظرك.؟.

- من هو.؟.

- هو... ولم تزد...

أسرع إلى الصالة ليجد مدهش متربعـاً علـى الأرض. حملق به مذهولاً وبخشية. سكن للحظة في مكانـه ولميـاء تتلصص من جانب الباب. بمجرد اقترابه منه، صرخ مدهش كالملتاع : عثمان...خطف عثمان جذعه للـوراء وتقهقـرت لمياء مترنحة كأنها خدرة : الباسبور.

- حاضر. حاضر.

ما أن استدار وهو يبلع ريقه حتى برزت يد لمياء مـن جانب الباب ممسكة بالجواز.حملق عثمان بهـا كالمـأخوذ. تناوله منها وفي ذهنه ألف سـؤال. كيـف اسـتهدت علـى مكانه.؟. وكيف فتحت الخزانة.؟. وكيف استجابت بمثل هذه

السرعة.؟. لكنه نسي كل هذه الأسئلة وهـو يرتجـف أمـام نظرات مدهش. ناوله الجواز ببعض المرح والإطراء : مـا حاجة شخص مثلك لجواز السفر.؟.

- هو يحتاجني. أنا لا أحتاجه.

- رجعنا للألغاز... عقّب عثمان وقد هيء له أن خطته للحصول على مزيد من الخدمات قد أخفقـت. لكـن آمالـه أنتعشت عندما قال مدهش بأريحية : ما المشكلة الثانيـة يـا عثمان...

لم يتردد عثمان ولم يتأخر فـي الإجابـة والاسـتجابة، فأخبره عن الكنز الذي تتبع خارطته سنوات وحفـر أرضـه شبراً شبراً دونما نتيجة، مع أنه كان يتعثر بالآثار مـع كـل رفشة. جاءه بالخريطة وراح يشرح له خطوطهـا ودلائلهـا وأين حفر وأين سيحفر. إذا رافقه وأرشده وأمر الجن بفـتح الأبواب، سيتناصفان الغنيمة.

بعد أن أفاض حوالي نصف السـاعة بالحـديث. قـال مدهش بأنه لو أراد الحصول على الذهب لجعل كـل شـيء يمسكه ذهباً، لكنه سـيفقد قدراتـه عنـدها. الـذهب عـدو المواهب . استجداه عثمان أن يساعده بالإرشاد فحسب ولـو

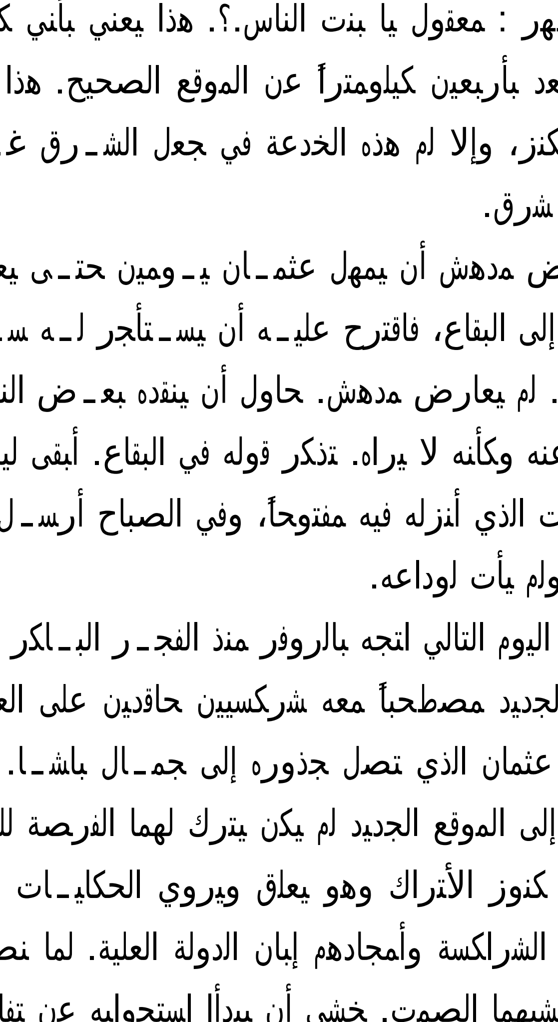
من بعد. رفض مدهش، ثم طلب منه أن يرفع الخريطة فـي مواجهة لمبة الكهرباء فامتثل عثمان. تأملها مـدهش مليـاً : هذه الخريطة معكوسة.

-ماذا.؟.

-معكوسة.

جحظت عينا عثمان وهو يحملق أولاً بوجه مدهش ثـم وهو يحدق بالورقة : لكن... وسكت وهو يرفع نظره مشيراً بيده للورقة. وكان مدهش قد لزم الصمت. أمعقول.؟. وعاود النظر للورقة : لكني تتبعتها خطوة خطـوة وكـل المسـالك والمواقع صحيحة... نظر لمدهش الذي ظل علـى سـكوته. حرك الورقة بعكس الاتجاهات فبدت خريطة مختلفـة كليـاً لكنها غير واضحة. ترك مدهش في متربعه وأسـرع إلـى مكتبته، تساعده لمياء في البحث عن ورقة شفافة. لما عاد بها إلى الصالة لم يجد مدهش. بحث عنه ولمياء في أركان البيت دون جدوى. استسلم أخيراً وهو يقول : سوف يجنني هـذا المدهش.

نسيه كما نسي أمر الجواز وهو ينكب بانفعال واستعجال على طبع الخريطة على الورقة الشفافة وتثبيـت خطوطهـا



على الظهر : معقول يا بنت الناس.؟. هذا يعني بأني كنت أبحث أبعد بأربعين كيلومتراً عن الموقع الصحيح. هذا يؤكد وجود الكنز، وإلا لم هذه الخدعة في جعل الشرق غرب والغرب شرق.

رفض مدهش أن يمهل عثمان يومين حتى يعيده بسيارته إلى البقاع، فاقترح عليه أن يستأجر له سيارة سكارسة. لم يعارض مدهش. حاول أن ينقده بعض النقود فتحول عنه وكأنه لا يراه. تذكر قوله في البقاع. أبقى ليلتها باب البيت الذي أنزله فيه مفتوحاً، وفي الصباح أرسل له السيارة ولم يأت لوداعه.

في اليوم التالي اتجه بالروفر منذ الفجر الباكر إلى الموقع الجديد مصطحباً معه شركسيين حاقدين على العرب، باستثناء عثمان الذي تصل جذوره إلى جمال باشا. في الطريق إلى الموقع الجديد لم يكن يترك لهما الفرصة للتفكير باستعادة كنوز الأتراك وهو يعلق ويروي الحكايات عن بطولات الشراكسة وأمجادهم إبان الدولة العلية. لما نضب حديثه غشيهما الصمت. خشي أن يبدأا استجوابه عن تفاصيل الكنز الموعود، فحثهما على الحديث بلعن العرب الحفاة الذين

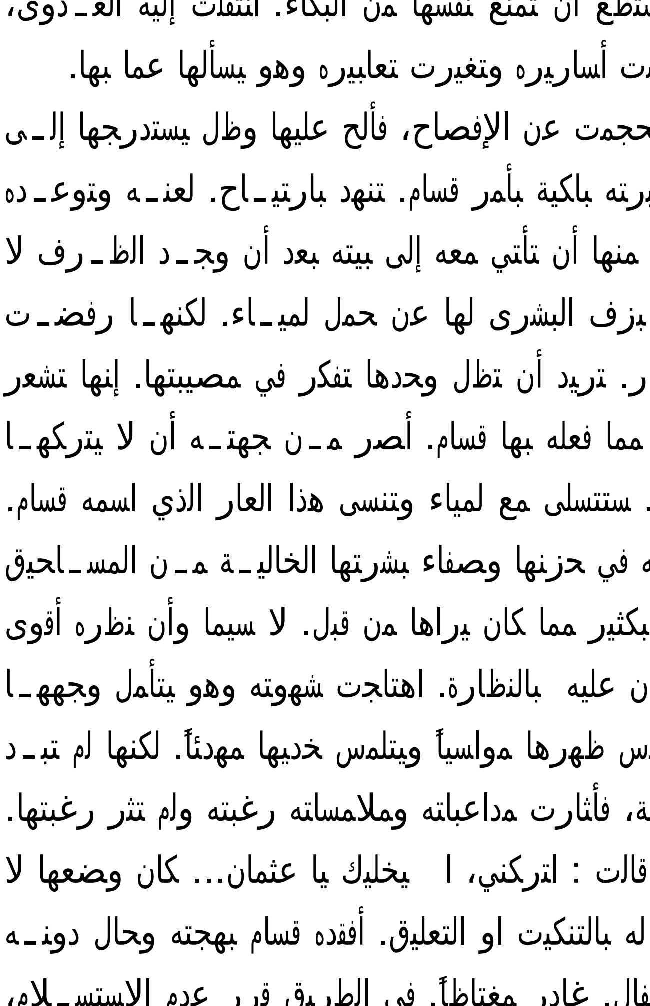
قوضوا مجد عثمان. راحا يشتمان ويلعنان بـدون انقطـاع، وكان يعرف الكثير من المفردات الشركسية، لاسيما البذيئـة منها. لما أخذت شتائمهما تتبع سكة الحديد خشي أن يتوقفـا بها في حوران، فحول الاتجاه غرباً وهو يتهم الفلسـطينيين بأنهم سبب البلاء. ليس في بلاد الشام فحسب، وإنما في العالم قاطبة. احتقن وجها الشركسيين بالسـخط والحنـق وراحـا يكيلان الشتائم بالعربية والشركسـية والتركيـة، ويتوعـدان الفلسطينيين بحربٍ ضروسٍ تقتلـع أظـافرهم وأضراسـهم وتنصر اليهود. ثنى عثمان على انتخائهم وراح يدندن معهـم بمارش عثمان. استمروا كذلك وهم يتتبعون مسالك الخارطة الجديدة التي أوصلتهم إلى جبانة صغيرة متآكلة في الجفيف. نبشوا قبورها الرملية واحداً بعد الآخر دونما نتيجة. وبقـي شاهد مائل دونما قبر نحتت فيه حروف منفصلة لكلمة ثـأر. حاولوا انتزاعه فعصي عليهم. بعد ثلاث ساعات من الحفـر وإزاحة الرمل ظهر لهم طرف صندوق معدني عليه كتابـة تركية. قرأها عثمان بحذر : محظور ما فيه على النجسـين والجنب...فوضعوه متوجسين في اللاند. قاد عثمان سـيارته بأقصى سرعة حتى يتطهر. كذلك اقتنع الشركسـيان اللـذان

حملا معه الصندوق إلى بيتـه وغـادرا مهـرولين ليعـودا مغتسلين متطهرين فوجداه نظيفاً متمشـطاً يضـع النظـارة ويرتدي الجلابية. بادرهما بفرح بالغ : انظرا ماذا وجدت يا بركة...انكمشت تعابيرهما وهما يحملقان بسـتفة مصـاحف قديمة امتلأ بها الصندوق : هذا هو الكنز الحقيقي... توزعها معهما بالتساوي وهو يبسمل. حذرهما من بيعها حتى لو دفع لهما بالمصحف الواحد ألف دينار. أولاً بيع المصاحف حرام. ثم أن قيمتها التاريخية لا تقدر بثمن.

لم يعتبر حصوله على محتويـات الصـندوق كنـزه الحقيقي بل شفاء نظره الذي استطاع به قراءة المكتوب على الصندوق من غير نظارة. أوعز للمياء بعدم تتبيل الطعام او استخدام الفلفل على الإطلاق، وحذرها مـن إثـارة حزنـه وإبكائه. استخرج خرائطه القديمة. يفرز عنها تلك التي تـاه في مسالكها او لم يهتد لمواقعها او لم تثمر حفرياتـه فيهـا. يطبعها على ورقٍ شفاف عاكساً اتجاهاتها. تارة الشرق غرباً وتارة الشمال جنوباً. وهو يعد العدة لحملة واسعة من البحث والتنقيب مع أدلاء مختلفين في كل عملية. متخذاً أمره على التنقيب بمفرده في المواقع القريبة. اشترى ناقلة صـحراوية

متوسطة الحجم ثبت في صندوقها حـافرة صـغيرة تعمـل بضغط الهواء. كما حصل بواسطة الجنـرال علـى جهـاز إشعاعي للكشف عن المعادن. وعزز علاقته بتجمع أصـدقاء تركيا حيث يجتمع الشراكسة المتعصبون للأتراك. يكيلـون الشتائم للعرب الذين تآمروا على الدولة العلية ويجاملهم بشتم الفلسطينين الذين جلبوا البلاء للأمة العربية.

اتخذ أمره على أن يبدأ حملته في تشرين ثـان، فأعـد العدة وتجهز بلوازم الحفر واتفق مع دليل شركسي يقرأ الأثر ولا يفهم بالآثار. وكانت أعراض الحمل قد واتت لمياء قبـل نحو الأسبوع، لكنها كتمت الأمر عنه إلى أن تأكـدت منهـا وأكدتها لها أمها والحكيمة، ففاجأته بالخبر في اليوم السـابق للحملة الذي قرر أن يقضيه في البيت لأنه يصادف السـابع من الشهر. لكنه ما أن تلقى الخبر حتى غشيه فـرح هائـل أنساه التفكير بالحملة والاستعداد لها والتطير من رقم سـبعة. ود لو يحتفل العالم بأسره معه، فأصر أن يذهب ليأتي بنجلاء وأمها للاحتفال معاً. رفض أن ترافقه لمياء حتـى لا يـؤثر على الجنين ارتجاج السيارة التي قادهـا بغبطـة وسـرور واستكبار. كل شيء يسير على هواه. عيناه ويداه ومشتهاه.



استقبلته نجلاء بغضب وسخط وهي تكاد تنفجر غيظـاً ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء. انتقلت إليه العـدوى، فانكمشت أساريره وتغيرت تعابيره وهو يسألها عما بها.

أحجمت عن الإفصاح، فألح عليها وظل يستدرجها إلـى أن أخبرته باكية بأمر قسام. تنهد بارتيـاح. لعنـه وتوعـده وطلب منها أن تأتي معه إلى بيته بعد أن وجـد الظـرف لا يسمح بزف البشرى لها عن حمل لميـاء. لكنهـا رفضـت بإصرار. تريد أن تظل وحدها تفكر في مصيبتها. إنها تشعر بالعار مما فعله بها قسام. أصر مـن جهتـه أن لا يتركهـا وحيدة. ستتسلى مع لمياء وتنسى هذا العار الذي اسمه قسام. بدت له في حزنها وصفاء بشرتها الخاليـة مـن المسـاحيق أجمل بكثير مما كان يراها من قبل. لا سيما وأن نظره أقوى مما كان عليه بالنظارة. اهتاجت شهوته وهو يتأمل وجههـا ويتحسس ظهرها مواسياً ويتلمس خديها مهدئاً. لكنها لم تبـد استجابة، فأثارت مداعباته وملامساته رغبته ولم تثر رغبتها. أخيراً قالت : اتركني، ا يخليك يا عثمان... كان وضعها لا يسمح له بالتنكيت او التعليق. أفقده قسام بهجته وحال دونـه والاحتفال. غادر مغتاظاً. في الطريق قرر عدم الاستسـلام،

فاشترى لحماً مشوياً ومقبلات وعاد إليها : ليس معقـولاً أن تظلي بلا طعام. من أجل الذي في بطنـك يـا روحـي... وتحسس بطنها المنفوخ بالجنين. كانت تدرك حاجته، لكن لم يكن في نفسها رغبة مع أن جسدها يطلبها بمثل مـا يطلـب الطعام الذي صارت نفسها تأباه منذ اقتياد الشـرطة لقسـام. قالت وهي تتناول منه الأطعمة : لازم تأخذني مـن هنـا... لمعت عيناه وهو يتذكر مدهش. ردد بصوتٍ خفيض وهـي تختفي في المطبخ : ملعون أبي إن لم آخذك...ناداهـا مـن قعدته : ماذا تفعلين.؟.

- أضع الأكل في صحون... أضـافت : وا مغلّـب حالك يا عثمان... لم تستطع منع نفسها من تناول شقفة لحـمٍ علكتها بدون شهية لخلوها من البهارات .

- ولا مغلّب ولا شيء. أنت لا تغلبي حالـك وتعـالي. اجلبيها كما هي يا شيخ.

لم ترد عليه وهي تبهر اللحم وتفلفه، متخيلة نفسها تفلفل قسام.حملت الصحون في صينية إلى القعدة. بلع ريقه وهـو يحملق بجسدها الذي زاده الحمل اكتنازاً وأحس بمسـؤوليته في إطعام الجنين : لازم تأكلي أكل اثنين... قالهـا مرتجفـاً

وهو يغمس قطعة لحم بمتبل الحمص ويناولها إياها في فمها. جاملته بواحدة اختطفها بفمه وهو يهمهم ويتحسس صـدرها المتقبب. ضحكت فأسعدته وابتلع اللقمة دونما مضغ ثم ابتلع أخرى بالطريقة نفسها، وفي الثالثة مضـغها وهـو يهمهـم ويطقطق أسنانه فـي صـكّات متتابعـة أفرحـت نجـلاء وأضحكتها : يا عليك يا عثمان...

أشاحت عنه لتتناول لقمة دون أن تبالي بسكون يده فـي حجرها، ولم تلحظ تباطوء مضغه وتوقف همهمته وانكمـاش تعابيره. سألها بصوتٍ خافتٍ ضعيف : هل وضعت شيئاً في اللحمة.؟.

- ناسيين يحطوا لك فيها بهارات...

قبض على فخذها بقسوة، فصرخت متوجعـة وتأخـأخ ملتاعاً بصوت مدهش. لم يقو على استكمال طعامه ولا على البقاء. وضع نظارته بمجرد أن استقر في مقعد القيادة وراح يوبخ نفسه على تصرفه الأهوج : لماذا خرجت من البيت في هذا اليوم.؟. أنسيت أنه السابع من الشهر يا غبي.؟. لعن أبـا نجلاء وأمها كما لعن لمياء. قاد سيارته بينما الغباش يغطـي

عينيه ورؤياه التي قويت بشكلٍ مدهش تذوي بشكلٍ مـدهشٍ أيضاً.

في البيت راح يبكي بمرارة ولوعة، بينما لمياء تهـدئ منه دون جدوى وقد أذهلها حزنه علـى قسـام : مسـكين مسكين. من اين جاءته هذه البلوى يا لمياء.؟!.

٢٧

فرض فؤاد نفسه في الوظيفة منذ بداية التعيين. لم يجـد الموظفون القدامى أمام تهذيبه وكياسته إلا مقابلته بقـدر مـا يستطيعون من الاحترام، وإن شعروا بالغيرة منه. كما أنهم لم يستطيعوا الكيد له، بل على العكس، صاروا يخشون كيده وقد غدا من أقرب المقربين للرئيس الذي كان يشبهه في كياسـته ويختلف عنه في جموده، إذ كان سريع البديهة مرحاً محبـاً للنكتة مع أصحابه وزواره ومقربيه. أما مع الموظفين، فكان جاداً رسمياً للغاية. يرفض استقبال أحدٍ منهم لم يرسـل فـي طلبه. لهذا تزاحمت الموظفات القليلات على وداد فؤاد فـي البداية. تارة بالشكوى له وطوراً بالشكوى على المـوظفين. قابل ذلك بأدب ودماثة، تريحهن ولا تجتذبهن، فأطفأت برودة ذكورته فوران أنوثتهن فصرن يسخرن منه فـي خلـواتهن ويقلدن مشيته وحركاته. كان مثل أمه يحب أن يكـون بهيـاً متأنقاً متألقاً متزناً موزوناً ملفتاً للانتباه فحسب، وهذا يناسب قلة من النساء على عكس أمه التي تناسـب رغبـة معظـم الرجال.كن يشعرن بالملل من جديته وجمود حديثه المجـرد من البدع والنكات وكأنه يتحدث بالإحصاء. بينما كن يرغبن

بطرائف دونها رحلات السندباد. تهيأ لهـن أشـبه بورقـة بيضاء. فأصاب عواطفهن بالخيبة لكنه ظل يملأ تطلعـاتهن الوظيفية بالرجاء، وبخاصة في نهاية العام عندما تهافتن على مكتبه يستجدين التوصية بهن من أجل الترقية والدرجة. أنهن مظلومات وكل واحدة تستحق امتيازاً. لـم يخيـبهن ونقـل رجاءهن للرئيس. فنصحه بعدم تصـديقهن وعـدم الصـدق معهن. قال له أن المرأة توقع بالنبي ويوقع بها الدجال. وكان أول درس تعلمه عن النساء. نصحه أيضاً بالمراوغة وتتفيـه الأحاديث معهن قدر استطاعته فالجدية تثير سـخريتهن ولا يمتلكهن شيء كالإضحاك كما يقول الفرنسيون.

أذهل ذلك فؤاد. ليس لأنه تعلم منه درسـاً ثانيـاً عـن النساء ولا لأنه أحس بنبرة الرئيس تباهياً وتفـاخراً بسـرعة بديهته وحضور نكتته، وإنما لأنه ذكّره بأمه. إذا كـان مـا يقوله صحيحاً، فإن أمه لم يمتلكها بعد إنسان. فهو لم يشاهدها أبداً تضحك وإن كانت تبتسم على الدوام. صار يتساءل مـن حينها عن علاقة الأزواج. لم يتردد في سؤال أمـه عنـدما عادت من فرنسا : أصحيح أن المرأة الفرنسية يمتلكها مـن

يضحكها.؟..كان بتخصيصه يدافع عن أبيـه. قالـت بغيـر اكتراث : هذا ينطبق على كل النساء.

سلّم ابو فؤاد التعهد المطلوب في أواخر الصـيف ولـم يتسلم قيمته إلا مع نهاية الخريف، وكان قد تكبد الديون فـي سبيل التنفيذ، فرغم الوفر الذي حققه مـن شـراء القمـاش مباشرة من إنجلترا إلا أن مصاريف السفر إليها مصـطحباً معه زوجته قد فاقت الوفر أضعافاً. وكان قد حصـل علـى قرض بنكي في سبيل هذه الغاية بضمانة المحل والماكنـات وكفالة فؤاد والأصحاب. وكان يستدين أيضاً لتغطية نفقاتـه الجارية ريثما يقبض قيمة العطـاء. تكفـل خلالهـا فـؤاد بمصاريف البيت التي ازدادت عن السابق حسب ما يقتضـيه حال رجال الأعمال بعد أن غدا ابو فؤاد واحداً منهم بتحوله من خياطة البدلات إلى تجارة التعهدات. كان الوضع أكثـر انعكاساً على أم فؤاد التي جعلهـا السـفر إلـى بريطانيـا تستسخف زياراتها لبيروت والشام، فاشترطت على زوجهـا أن يزورا باريس بمجرد تسلمه مبلغ العطاء، وكان رأي فؤاد أن يرحلوا من بيتهم إلى بيت أحسن وفي موقع أرقـى. لـم تعارض أم فؤاد، لكن بعد العودة مـن بـاريس. فاسـتنفدت

الرحلة جميع الربح الذي حققه أبو فؤاد من الصفقة، مؤجلين الرحيل إلى نهاية الشتاء، لاسيما وأن أبا فؤاد حصـل فـي باريس على وكالة شركة شانتيل، وقد تم الأمـر بالصـدفة ودون سابق نية او تخطيط. إذ كان يتجـول وزوجتـه فـي الأسواق فدخلا عرضاً معرضاً للثيـاب الداخليـة مملوكـا للشركة الصانعة شانتيل. رحب بهمـا المـدير الجزائـري باعتبارهما عربيين وتبادل الحديث مع أم فؤاد حـول سـوق هذه المنتجات وهو يتخيلها أجمل موديـل. منحهـا خصـماً محترماً ورتب لقاء بين أبي فؤاد ومدير البيع فـي الشـركة الذي كان يتطلع لمنافسة المنتجات الإنجليزية. وقع عقداً معه بنسبة عمولة سبعة بالمئة وهي نسبة مرتفعة كما أقـر ابـو فؤاد، لكنه في طريق العودة قرر وزوجته استيراد منتجـات الشركة وبيعها مباشرة بدلاً من تسويقها بالسمسرة، وتأجيـل دفع الديون المستحقة عليه. أعجب كلاهما بفكرة المعـرض، فقررا الاقتداء بالشركة وافتتاح محـلٍ مخـتصٍ بـالملابس الداخلية الستاتية تحت علامة شانتيل. لمـا أرسـل للشـركة تحمست للفكرة وشجعته عليها بمنحه تسهيلات بالـدفع فـي حال التنفيذ.

واجهت أبا فؤاد عقبة التمويل التي كـادت تحـول دون تنفيذ طموحه لولا مساعدة أحد أصدقائه المقربين. أقرضـه عن طيب خاطر مبلغ ألف دينار، طالما أن أم فؤاد هي التي ستتولى المحل وتبيع فيه.

كان ذلك الحدث من أكبر صرعات الخمسينات بالنسبة لعمان. فلم يكن الكثيرون يصدقون أن امرأة تتولى البيع فـي وسط السوق. وماذا تبيع.؟. شلحات وصدارات وكلاسين. أما المشدات فلم يكن أحد يجرؤ علـى السـؤال عنهـا وكيفيـة استخدامها، وكانت كثير من الفلاحات يبصقن عندما يمررن أمام الواجهة التي إن وقفت أم فـؤاد بجانبهـا تبـدوا مثـل المنيكان المتعرية فيها.

لم يساعد الديكور ولا تعري المنيكان ولا سحر أم فؤاد في الترويج كثيراً لمنتجات شانتيل. فلم يغط البيع حتى الشتاء نصف مصاريف أم فؤاد. ارتأى زوجها أن تروج للبضـائع مع الجارات والقريبات. هذا سيساعد على التعريف بالمحل. فقامت بزيارات عديدة حاملة معها عينات. ندمت بعدها أشـد الندم، فهي لم تخفق في البيع فحسب، بل أعطت للجوفيـات فرصة انتظرنها طويلاً، ولم يشتر منها إلا القلـيلات. حتـى

هؤلاء اشترين مجاملة، كما فعلت أم الخير الذي شدد عليهـا زوجها بالشراء وحذرها من الارتداء.

كانت غالبية النساء تفضل حياكة كلاسينهن من شوالات الطحين حتى تسيل رائحة العجين لعاب الزوج الهجين. أمـا الحمالات، فكان الأولى أن يكون مقاسـها بطيخيـاً ولـيس رمانياً. إذ كيف سيضعن في هذه الهشاشة حجبهن وقروشهن والمنديل الذي يتمخّطن به ويمخّطن للأطفال. أين سـيخبئن للأولاد الكعكبان وأغطية الكازوز وللبنات المسكة والـدمى. كانت المشدات ذات الأربطة أكثر ما أثار ضحك الجوفيـات الممتلئات غيظاً من أم فؤاد، فتنتفخ بطـونهن وهـن يملـن مقهقهات إلى الوراء، يغطين أعينهن بأذرعهن محرجات.

- يا ويلي. على ما يفك أبو المحروس الرباط، يكـون المدفع ضرب وصار الإمساك.

- وإن ظل راكباً رأسه يا أم المحروس.؟.

- وقتها إيدي والسكين.

- إيه إيه إيه. على راسه والا على الرباط.؟.

- إه إه إه. قطّعتي خواصري. يقطع الرباط وصـحابه. ليس قصدي يا أم فؤاد. ا يجازي الاستعمار.

- يخزيك يا أم فؤاد. لو بقي زوجـك يخـيط للرجـال أحسن مليون مرة من أن يبعثك تبيعي للنسوان.

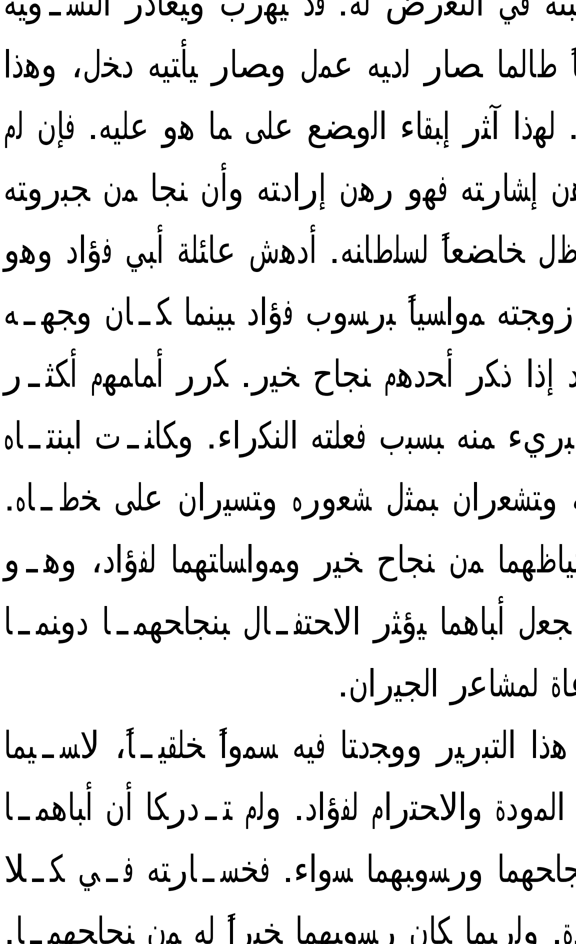
- وكنا نفكره مبسوطاً وشبعان.!.

٢٨

استعد أبو الخير لتقبل نتيجة المتـرك، سـواء أكانـت رسوباً أم نجاحاً. في كلا الحالين سـتترك ابنتـاه المدرسـة وسيفتقد لحظات الوقوف معهما أثناء الانصراف. لهذا لم تكن تؤرقه نتيجة الامتحان، طالما أن ما سوف يـتمخض عنهـا واحد. يظل له دكانه يستعرض أمامها عضلاته مع أنه صار يحس بالوهن والتعب وثقل صـدره بسـبب شـراهته فـي التدخين، إلا أنه لم يكن في نيته تركه او التخفيف منه، ولـو من أجل استعراض القوة الذي صار يضني كهولته. يكـابر في بذل أكثر مما يستطيع من قوة أمام المعلمات، وعندما ينام مهدوداً يظل صدره يخرخر حتى الصباح، وهو يحس بكتلـة اسمنتية تلتصق به. ما أن يستيقظ حتى يكون قـدح القهـوة بانتظاره فيشعل سيجارة وهو يتجرعه متأحئحـاً متنحنحـاً، يبصق بلغمه بتواصل في منفضة معدنيـة بجانبـه، كابحـاً مقاومة صدره للسيجارة التي يعز عليه إطفاؤها. كثيـراً مـا ينفجر سعاله قبل إنهائها فيسرع متقحقحاً إلى المرحاض بينما أمعاؤه تضطرب وصدره يتفسخ وأنفاسه تختنق وهو يجتـث بلغمه استقياء. في الوقت نفسه تسـرع زوجتـه لاسـتبدال

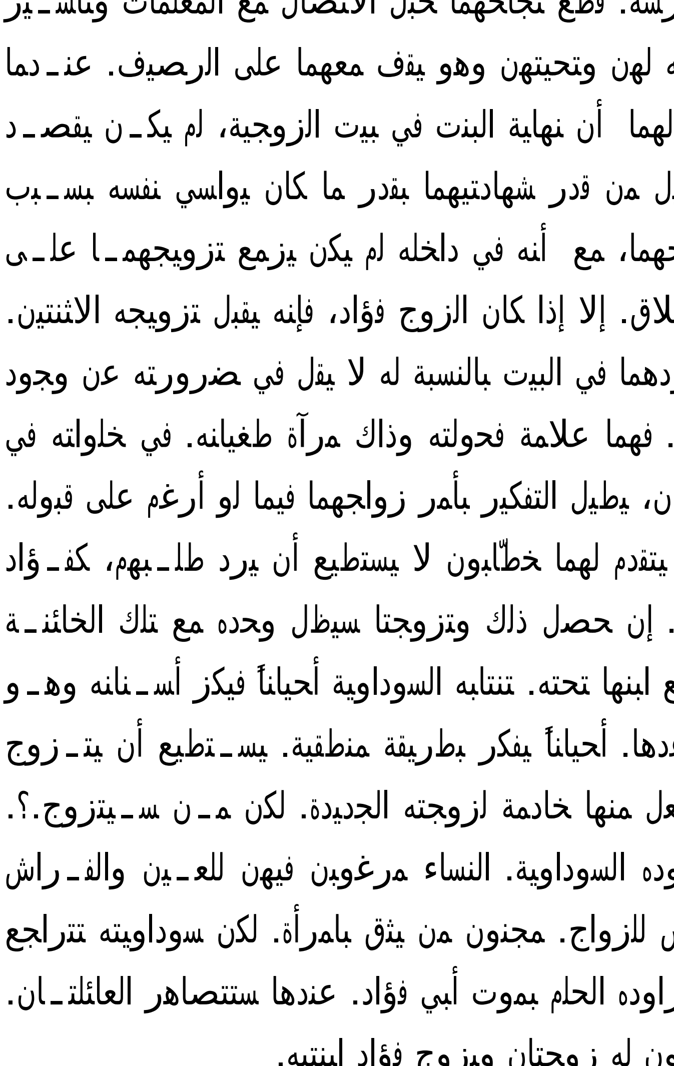
المنفضة بأخرى نظيفة وتحمل له صفيحة مـاء تقـف بهـا بجانب باب المرحاض. يتناولها منها بمجرد ارتياح أنفاسـه ويغتسل على عجل ويناولها إياها لتملأها من جديد إن كـان سيقضي حاجة. في القعدة يبدأ التدخين إلى أن تأتي زوجتـه بالإفطار. لا يتناول إلا لقماً قليلة يواصل بعدها التدخين في البيت والدكان وعلى الرصيف. كان يستهلك في اليوم الواحد ما يقارب مئة سيجارة، وإذا توتر وثارت أعصابه فإن العدد يتجاوز ذلك بكثير. وكان الجهد العضلي الذي يستعرض فيه نفسه يساعده دونما وعي منه على تنظيف صدره، إذ تنتابـه بعد كل مجهود كبير نوبة سعال تفتت بلغمه الذي يبصقه في منافض معدنية تبدلها زوجته صباح مساء، وفي الدكان يتبلغم في بكيتات دخان فارغة. في أحيان كثيرة يقذف بصاقه مـن داخل الدكان إلى الرصيف. لكنه لا يفعل هـذا أبـداً أمـام المعلمات او الزبونات او الجارات.

في قرارة نفسه، لم يكن قد غفر لخير او نسـي أمـره. لكن لأجل خاطر أم فؤاد تركه وشأنه. ظل يتحين الفرصـة للانقضاض عليه بعد امتحان المترك الذي كان متيقنـاً مـن رسوبه فيه. لكن خير خذله وتجاوز المترك بنجاح. عنـدما

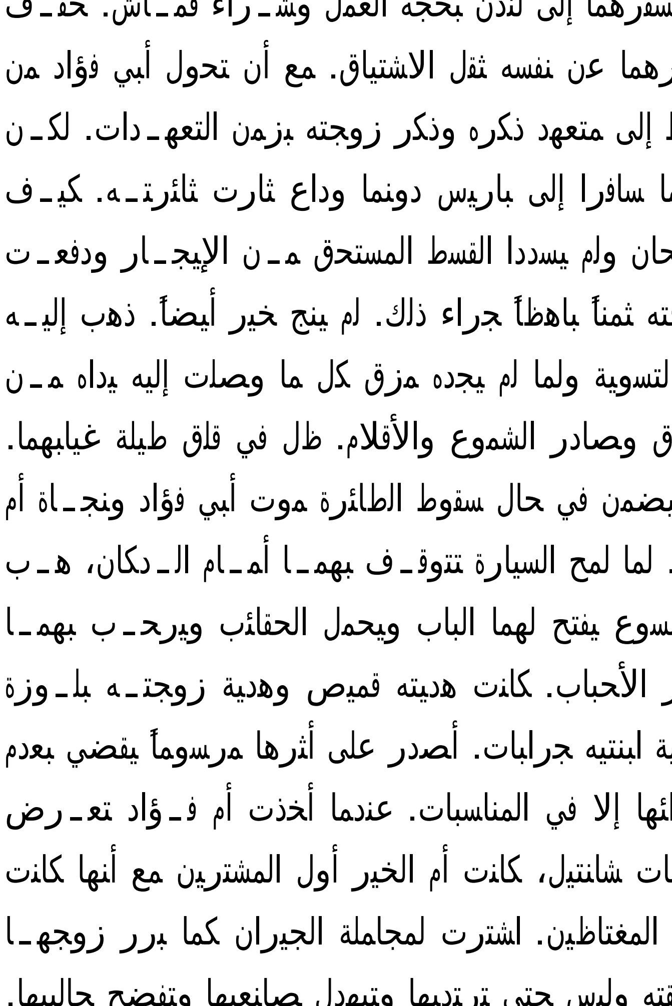


أخبره نذير عن عمله بالتخطيط ازداد غيظاً منه، وبالمقابـل انكمشت رغبته في التعرض له. قد يهرب ويغادر التسـوية ويستأجر بيتاً طالما صار لديه عمل وصار يأتيه دخل، وهذا ما كان يقلقه. لهذا آثر إبقاء الوضع على ما هو عليه. فإن لم يكن خير رهن إشارته فهو رهن إرادته وأن نجا من جبروته وعنفوانه سيظل خاضعاً لسلطانه. أدهش عائلة أبي فؤاد وهو يزورهم مع زوجته مواسياً برسوب فؤاد بينما كـان وجهـه يمتقع بالسواد إذا ذكر أحدهم نجاح خير. كرر أمامهم أكثـر من مرة أنه بريء منه بسبب فعلته النكراء. وكانـت ابنتـاه تكرران قوله وتشعران بمثل شعوره وتسيران على خطـاه. حتى في اغتياظهما من نجاح خير ومواساتهما لفؤاد، وهـو الشيء الذي جعل أباهما يؤثر الاحتفـال بنجاحهمـا دونمـا ضجيج مراعاة لمشاعر الجيران.

أقنعهما هذا التبرير ووجدتا فيه سمواً خلقيـاً، لاسـيما وأنهما تكنان المودة والاحترام لفؤاد. ولم تـدركا أن أباهمـا كان يعتبر نجاحهما ورسوبهما سواء. فخسـارته فـي كـلا الحالين واحدة. ولربما كان رسوبهما خيراً له من نجاحهمـا. بقاؤهما في البيت طيلة الوقت خيراً من غيابهما عنه وعـن



المدرسة. قطع نجاحهما حبل الاتصال مع المعلمات وتأشير ابنتيه لهن وتحيتهن وهو يقف معهما على الرصيف. عندما قال لهما أن نهاية البنت في بيت الزوجية، لم يكن يقصد التقليل من قدر شهادتيهما بقدر ما كان يواسي نفسه بسبب نجاحهما، مع أنه في داخله لم يكن يزمع تزويجهما على الإطلاق. إلا إذا كان الزوج فؤاد، فإنه يقبل تزويجه الاثنتين. وجودهما في البيت بالنسبة له لا يقل في ضرورته عن وجود خير. فهما علامة فحولته وذاك مرآة طغيانه. في خلواته في الدكان، يطيل التفكير بأمر زواجهما فيما لو أرغم على قبوله. كأن يتقدم لهما خطّابون لا يستطيع أن يرد طلبهم، كفؤاد مثلاً. إن حصل ذلك وتزوجتا سيظل وحده مع تلك الخائنة ويقبع ابنها تحته. تنتابه السوداوية أحياناً فيكز أسنانه وهو يتوعدها. أحياناً يفكر بطريقة منطقية. يستطيع أن يتزوج ويجعل منها خادمة لزوجته الجديدة. لكن من سيتزوج.؟. فتعاوده السوداوية. النساء مرغوبن فيهن للعين والفراش وليس للزواج. مجنون من يثق بامرأة. لكن سوداويته تتراجع إذا راوده الحلم بموت أبي فؤاد. عندها ستتصاهر العائلتان. سيكون له زوجتان ويزوج فؤاد ابنتيه.



لم يخف امتعاضه عندما جاء أبو فؤاد وزوجته لوداعـه قبل سفرهما إلى لندن بحجة العمل وشـراء قمـاش. خفـف تبريرهما عن نفسه ثقل الاشتياق. مع أن تحول أبي فؤاد من خياط إلى متعهد ذكره وذكر زوجته بزمن التعهـدات. لكـن عندما سافرا إلى باريس دونما وداع ثارت ثائرتـه. كيـف يسوحان ولم يسددا القسط المستحق مـن الإيجـار ودفعـت زوجته ثمناً باهظاً جراء ذلك. لم ينج خير أيضاً. ذهب إليـه في التسوية ولما لم يجده مزق كل ما وصلت إليه يداه مـن أوراق وصادر الشموع والأقلام. ظل في قلق طيلة غيابهما. من يضمن في حال سقوط الطائرة موت أبي فؤاد ونجـاة أم فؤاد. لما لمح السيارة تتوقـف بهمـا أمـام الـدكان، هـب كالملسوع يفتح لهما الباب ويحمل الحقائب ويرحـب بهمـا كأعز الأحباب. كانت هديته قميص وهدية زوجتـه بلـوزة وهدية ابنتيه جرابات. أصدر على أثرها مرسوماً يقضي بعدم ارتدائها إلا في المناسبات. عندما أخذت أم فـؤاد تعـرض منتجات شانتيل، كانت أم الخير أول المشترين مع أنها كانت أكثر المغتاظين. اشترت لمجاملة الجيران كما برر زوجهـا موافقته وليس حتى ترتديها وتبهدل صانعيها وتفضح جالبيها.

كل عائلتها لا تساوي عنده دكّة كلسون. هذه الأشياء للصبايا الرشيقات فحسب، ولم تخطر ابنتاه على باله حينها. مع أنـه كان يواسيهما بعد ظهور نتيجة المترك أنهمـا صـبيتان لا تلزمهما الشهادة. قد تخطبان في أي لحظة. وكان فؤاد يتهيـأ لثلاثتهم وهو يقول ذلك .

ظلتا بنظره حتى سنة المترك مجرد طفلتين، فهمـا وإن تغيرت حاجاتهما مع الأيام ولم تعد الألعاب تسـتهويهما، إلا أنه ظل يصطحبهما إلى الأسواق في فترات الأعياد فيشتري لهما الأحذية والجرابات والمحارم والمناديل وكانتا تحرصان على اقتناء اللون نفسه والتصميم نفسه حتى تثيران حيرة من يشاهدهما. كذلك الأمر بالنسبة للفساتين التـي تصـطحبهما أمهما لتفصيلها في مشغل الخياطة الستاتي. كثيراً ما أربكتـا الخياطة التي لم تكن تستطيع التفريق بينهما. لكنهما في سنة المترك لم تحصلا على شيء من هذا. فالاضطرابات الشعبية في رمضان حالت دون شرائهما مستلزمات العيد. وعنـدما حل عيد الأضحى كان المترك على الأبواب، فوفرتـا علـى أبيهما الشراء ووعدهما أن يطقمهما بعـد الامتحـان. لكـن النتيجة حولته عن وعده هذا إلى بذل جهـده، تحـت وطـأة

الضغط عليه من كلتيهما، لتوظيفهما. لم يخذله فـؤاد الـذي اعتبر الأمر شخصياً يخصه كما يخص عائلته. أثلـج ذلـك صدر أبي الخير وأغدق بالشكر عليه. عندما جـاءه بكتـابي تعيينهما، عانقه وحمل بنفسه ذلك المساء سدر الكنافة إلى أم فؤاد. كما سمح لابنتيه بالذهاب وحدهما في اليوم التالي إلـى الديوان لمتابعة اجراءات تعيينهما. الكبرى معلمة في ابتدائية المهاجرين والثانية في ابتدائية رأس العين. جعلتهما الغبطـة تحسان بالزهو على خير فاقترحتا على أبيهما إرسال حلوان له. أسعد ذلك أبا الخير وازداد رضاه علـى ابنتيـه وهمـا تشفيان له بعض غليله. توكل نذير بالأمانة وحمـل صـحن الكنافة ليلاً إلى التسوية، فألقاه خير بكل قوته، ولما نقل نذير ردة فعله تراقصت التوأمان فرحاً وهما تصفقان وضحك أبو الخير من الأعماق.

عندما ابتدأ الدوام وجد أبو الخير نفسـه وحيـداً علـى الرصيف معزولاً في الدكان. كان انشغال ذهنه بهما وهمـا في المدرسة يملأ عليه الكثير، وبغيابهما صار يحس بالفراغ الثقيل. حتى أنه لم يكن يجرؤ على الصعود إلى البيت. يهيـأ له أحياناً أن امرأته تنتظره بالهاون او السـكين. لـم يعـد

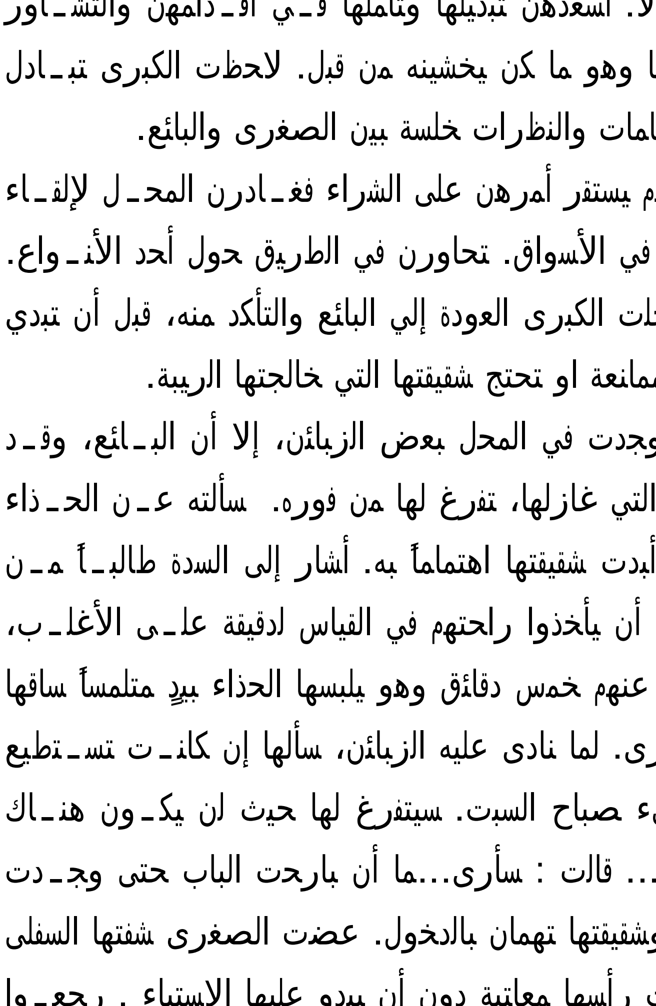
يأخذهما إلى الأسواق كما كان يفعل، ولا هما صارتا تسألانه ذلك. كان قد استبعد ضرورتهما في المدرسـة واسـتبعدتتا ضرورته في الشراء. لديهما معـاش يكفيهمـا احتياجاتهمـا وتغطيان به شيئاً من احتياجات البيت أيضـاً. وكـان هـذا يكبرهما ويصغره. لم يكـن يملـك أن يحـتج او يعـارض رغبتهما في التسوق، طالما انهما تغادران معاً كـل صـباح وتعودان مفترقتين بعد الظهر. كانتا تتغطيان بغطـاء أمهمـا التي صارت ترافقهما بدلاً منه. الآن الوضع مختلف. لـيس بالنسبة لهما فحسب، وإنما بالنسبة لأمهما أيضاً التي كانـت تنزل الأسواق متمدلة ملفوفة بثيابها السوداء مثـل باذنجانـة ذابلة. تكاد تتعثر وهي تواكب خطوات زوجهـا السـريعة، وكأنه يهرب منها او تخجله رفقتها.

كانت فرصة العمر التي طالمـا انتظرنهـا ثلاثتهمـا. فنزول الأسواق بصحبته كان يخجلهن ويزعجهن ويخـيفهن. يحسسن به قسراً وإرهاباً يجعلهن متوجسات طيلة المشـوار. وتشعر التوأمان بالخزي عندما يزجر المشاة فـي طريقهمـا وينهر البائعين أمامهما، ولم يكن يتورع عن الشجار بحجـة

الذود عنهما. لهذا كانتا تقيسان أحذيتهما بارتبـاك وتوافقانـه على اختياراته باستعجال وتختصران المشوار.

حلّ موسمهما وانحسر موسمه رغم قسـوته وتزمتـه. فهما وإن كانتا تخترقان الأسواق كل يوم بين البيت والعمل، إلا أنهما ظلتا متهيبتين من الدكاكين والبـائعين والعـابرين والسائقين. تذهبان مهرولتين وترجعـان مسـرعتين. كـان افتراقهما يضعفهما وكأنهما مسننتين تحرك الواحدة الأخـرى وتتوازن معها.

لكن بمجرد أن اجتمع شملهما غدت الأسواق مألوفة لهما فتجولتا مع أمهما بثقة وعلى مهل. وهما ترتادان ما تشـاءان من المحلات وتسألان عما ترغبان فيه مـن المعروضـات وتطيلان الحديث والمساومة مـع البـائعين والتحـدث مـع المشترين. لما دلفن محل بغدادي للأحذية اسـتغرب البـائع تماثل التوأمين، حتى في تناثر الشعر وتجاعيد الثياب. ابتسم بإشراق لهما وردتا ببشاشة لا تقل عن بشاشة أمهمـا وهـي ترفع عن وجهها الحجاب المحظور رفعه على الإطلاق فـي الطرقات والأسواق.



أسرع يأتيهن بكراتين الأحذية التـي تحتـوي ألوانـاً وأشكالاً. أسعدهن تبديلها وتأملها فـي أقـدامهن والتشـاور بأمرها وهو ما كن يخشينه من قبل. لاحظت الكبرى تبـادل الابتسامات والنظرات خلسة بين الصغرى والبائع.

لم يستقر أمرهن على الشراء فغـادرن المحـل لإلقـاء نظرة في الأسواق. تحاورن في الطريق حول أحد الأنـواع. استعجلت الكبرى العودة إلي البائع والتأكد منه، قبل أن تبدي أمها ممانعة او تحتج شقيقتها التي خالجتها الريبة.

وجدت في المحل بعض الزبائن، إلا أن البـائع، وقـد ظنها التي غازلها، تفرغ لها من فوره. سألته عـن الحـذاء الذي أبدت شقيقتها اهتماماً به. أشار إلى السدة طالبـاً مـن زبائنه أن يأخذوا راحتهم في القياس لدقيقة علـى الأغلـب، فغاب عنهم خمس دقائق وهو يلبسها الحذاء ببرٍ متلمساً ساقها بالأخرى. لما نادى عليه الزبائن، سألها إن كانـت تسـتطيع المجيء صباح السبت. سيتفرغ لها حيث لن يكـون هنـاك عجقة... قالت : سأرى...ما أن بارحت الباب حتى وجـدت أمها وشقيقتها تهمان بالدخول. عضت الصغرى شفتها السفلى وهزت رأسها معاتبة دون أن يبدو عليها الاستياء . رجعـوا

إلى البيت بحذاء للأم فقط : تعبت أمي ولم تستطع أن تكمـل معنا...

أحس بالرضى وأوشك أن يقتنص ما افترضه فرصـة يستعيد فيها موقعه، فقال : الحق علي أني أرسلتها معكمـا. غداً...

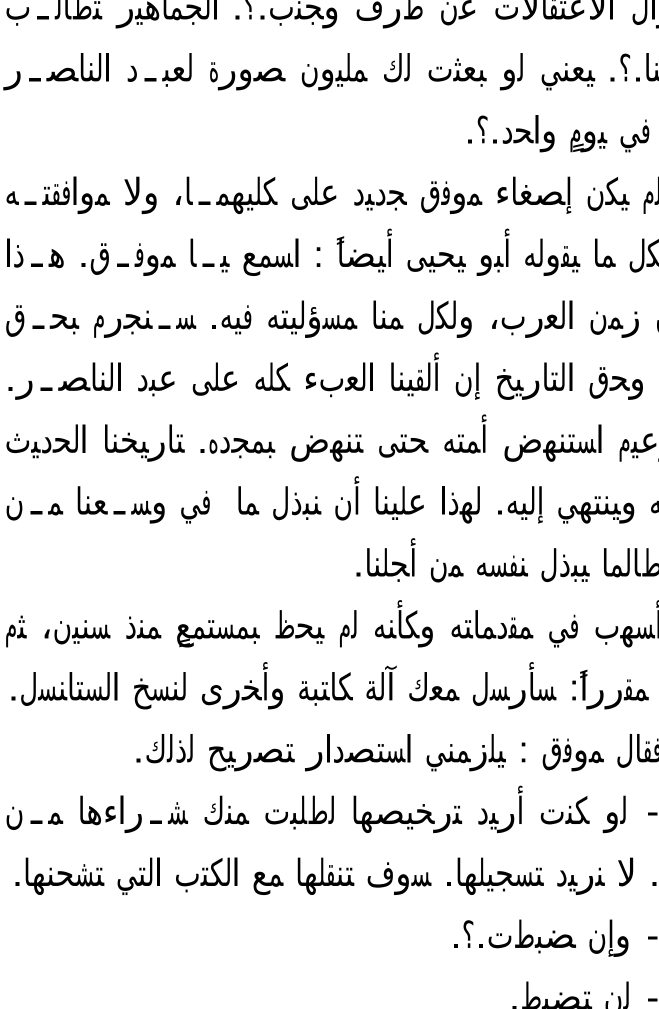
قاطعته الكبرى : غداً الخميس. عجقة كثير. أفضـل ان أذهب وأختي السبت. ما رأيك ابي.؟.

٢٩

قالت وعد بأنها لولا انشاغلها مع عائلتها بالانتقال إلـى السكن الجديد، لرافقتهم إلى الشام. ولربمـا أقنعـت هـاني بالمجيء أيضاً. سألها موفق ماذا تحب أن يحضر لها، فقالت مازحة : قاديشا.

بعد وصولهم الفندق بقليل هاتف أبا يحيى واتفقا علـى اللقاء مساء، فاتجه إليه وذهبت تغريد وأمها إلى المعرض.

أحس موفق أثناء اللقاء أن أبا يحيى قد تغير كثيراً. زاد وزنه، وخبت حيويته وصار ضيق الصدر لا يحتمل مقاطعته ولو بسؤال. استفسر منه باقتضاب عن حاله وبإسهاب عمـا تدور حوله من أقاويل. أخبره عـن تسـلم يحيـى للإيـراد المتحقق أثناء وجوده. لم يعلق ولم يبـد أي ردة فعـل. لمـا أشجن الحوار حول الوضع العام كان عبد الناصر يطل مـن كل النوافذ السياسية التي تتقاطع مع ذكريات أبـي يحيـى النيابية فلا يملّ تكرار القصة الواحدة، ويعيد روايتها بحيوية وانفعال كأنه لم يأت على ذكرها إطلاقاً، مستخدماً الكثير من التعابير باللهجة المصرية. غلب علـى أسـلوبه التقريـر، وكانت أسئلته أجوبة في حد ذاتها. الوضع خربان عنـدكم.؟.



ما تزال الاحتفالات عن طرف وجنب.؟. الجماهير تطالـب بعودتنا.؟. يعني لو بعثت لك مليون صورة لعبـد الناصـر ستنفد في يومٍ واحد.؟.

لم يكن إصغاء موفق جديد على كليهمـا، ولا موافقتـه على كل ما يقوله أبو يحيى أيضاً : اسمع يـا موفـق. هـذا الزمن زمن العرب، ولكل منا مسؤليته فيه. سـنجرم بحـق أنفسنا وحق التاريخ إن ألقينا العبء كله على عبد الناصـر. إنه زعيم استنهض أمته حتى تنهض بمجده. تاريخنا الحديث يبدأ به وينتهي إليه. لهذا علينا أن نبذل ما في وسـعنا مـن أجله طالما يبذل نفسه من أجلنا.

أسهب في مقدماته وكأنه لم يحظ بمستمعٍ منذ سنين، ثم انتهى مقرراً: سأرسل معك آلة كاتبة وأخرى لنسخ الستانسل.

فقال موفق : يلزمني استصدار تصريح لذلك.

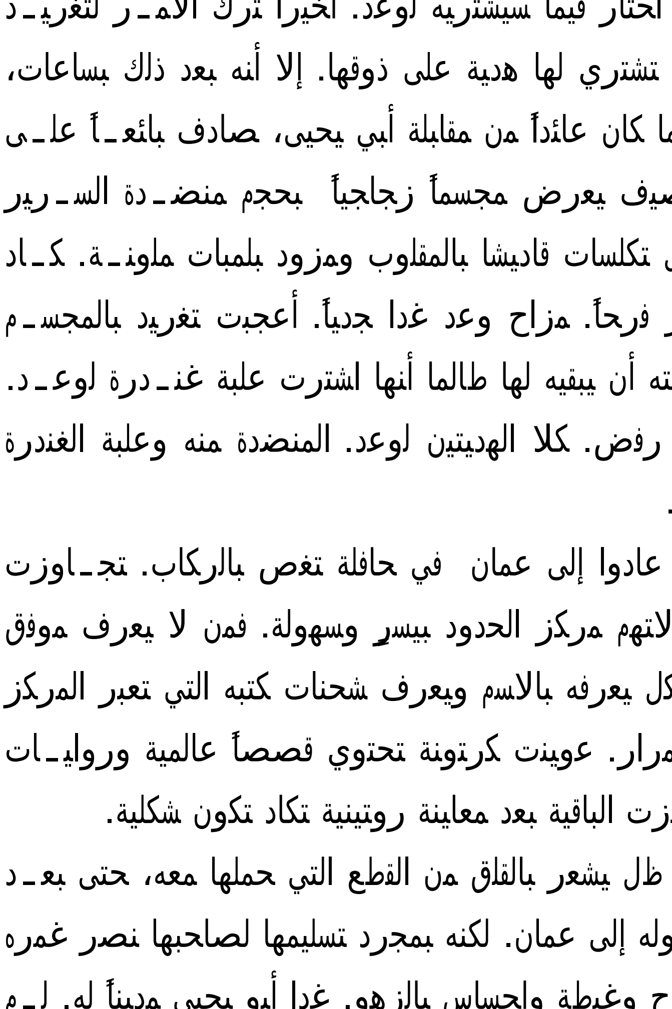
- لو كنت أريد ترخيصها لطلبت منك شـراءها مـن عمان. لا نريد تسجيلها. سوف تنقلها مع الكتب التي تشحنها.

- وإن ضبطت.؟.

- لن تضبط.

كان كل حديثه مقرراً ونافذاً ولا يناقش. سيشحن له كل ما يلزم المكتبة من خلال الـدار القوميـة للتوزيـع دون أن يتكلف شيئاً. ما عليه سوى التنسيق مع صـاحبها وإبلاغـه باحتياجاته برسالة يرسلها له مع مكتب السفريات. لـم يكـن ذلك جديداً على موفق، فمعظم رسائله للمزودين يرسلها مـن خلال مكاتب السفريات. كانت المشكلة في آلتـي الطباعـة والنسخ التي طلب منه أبو يحيى نقلها مع أمتعتـه. اعطـاه رقماً هاتفياً يتصل به فور وصوله إلى عمان يخبر صـاحبه أن الأمانة من طرف نصر قد وصلت، ورقماً آخر للاتصال به إن صادفته مشكلة في الحدود يسأل فيـه عـن الجنـرال ويخبره بمكانه ويعرفه على نفسه باسم نصر النصر.

أرسل أبو يحيى الآلتين إلـى الفنـدق مفككتـين فـي كرتونة. ضمها موفق إلى كراتين الكتب التي وصل عددها إلى عشرة خلال إقامته التي استمرت عشرة أيام ولم يشـتر في سفرته هذه أي كتاب سياسي او محظور. مع أنه معتـاد على تهريب الكتب والمجلات الممنوعة إلا أنه شعر برهبـة هذه المرة لم يشعر بها من قبل، وكأنه سـيهرب سـلاحاً او مخدرات.



احتار فيما سيشتريه لوعد. أخيراً ترك الأمـر لتغريـد حتى تشتري لها هدية على ذوقها. إلا أنه بعد ذلك بساعات، وبينما كان عائداً من مقابلة أبي يحيى، صادف بائعـاً علـى الرصيف يعرض مجسماً زجاجياً بحجم منضـدة السـرير يماثل تكلسات قاديشا بالمقاوب ومزود بلمبات ملونـة. كـاد يطير فرحاً. مزاح وعد غدا جدياً. أعجبت تغريد بالمجسـم وسألته أن يبقيه لها طالما أنها اشترت علبة غنـدرة لوعـد. لكنه رفض. كلا الهديتين لوعد. المنضدة منه وعلبة الغندرة منها.

عادوا إلى عمان في حافلة تغص بالركاب. تجـاوزت منقولاتهم مركز الحدود بيسرٍ وسهولة. فمن لا يعرف موفق بالشكل يعرفه بالاسم ويعرف شحنات كتبه التي تعبر المركز باستمرار. عوينت كرتونة تحتوي قصصاً عالمية وروايـات وأجيزت الباقية بعد معاينة روتينية تكاد تكون شكلية.

ظل يشعر بالقلق من القطع التي حملها معه، حتى بعـد وصوله إلى عمان. لكنه بمجرد تسليمها لصاحبها نصر غمره ارتياح وغبطة وإحساس بالزهو. غدا أبو يحيى مديناً له. لـم ينتظر أن تأتي وعد إلى المكتبة وقد عرفت من تغريد عـن

عودته، بل ذهب إلى البنك حاملاً إليها طقم غندرة في علبـة مخملية أنيقة مغلّفة بورقٍ مورد. تناولت منه الهدية محرجة. أخبرها عن الأخرى التي ستأتي بها تغريد إلى سكنهم الجديد. قالت بنبرة عتاب : ألا تريد أن تأتي معها لتبارك لنا... لـم يدر ما يرد به. أضافت : ولو أن الفوضى عارمة في البيت.

- وماذا سيقول أهلك.؟.

- ماذا سيقولون.؟. تغريد صديقتي وأنت شـقيقها.؟!.. صفن بها وكأنه لم يفهم الأمر على هذا النحـو، فاسـتدركت ضاحكة : سنستقبلك حتى لو أتيت وحدك. نحن متحضـرون يا أستاذ.

جاء مع تغريد إلى الفندق يحملان، أضافة إلى المنضدة، خطية من أعمال خير مبروزة في إطار خشبي مذهب، غلّفها موفق في المكتبة بورق تجليد. ظل يوصـي تغريـد طيلـة الوقت : الخطية للفندق والمنضدة لتغريد. فاهمة.

وصلا حوالي الرابعة عصراً وكان هاني في الانتظار. تأملته تغريد بشغف وهو يصافحها ويتناول منهـا البـرواز. ظلت أنظارها معلقة به وهو يصافح موفـق الـذي وضـع كرتونة المجسم على الأرض.

تقدمهما في ارتقاء الدرج إلى الطابق الثالـث، يتبعهمـا موفق قابضاً بكلتا يديه على الكرتونة من الأسفل فوصل إلى السكن خائر القوى لاهث الأنفاس.

استقبلتهما وعد بلهفة ودعتهما إلى صالة أنيقة صغيرة. قالت لهما ولم يستقرا في مقعـديهما بعـد : لمـاذا غلبتمـا نفسيكما...

قال موفق : بالعكس مقصرين... وإلى هاني : عسـاها تعجبك...

- هذه لك. أحضرتها من الشام... قالت تغريـد لوعـد وهي تنزع غطاء الكرتونة. بينما نزع موفق الغلاف الورقي للبرواز. جحظت عيناه وحملق بالخطّية التي لم يجاب انتباهه فيها إلا اسم خير. شكره بارتباك واضح. ما أن سمع صوت أبيه في الخارج : أوصل ضيفاك يا وعد.؟.. حتى أسـرع بالبرواز إلى خزانة ركنية وحشره بانفعالٍ في درفتها السفلى. لاعناً خير بكل الأديان.

لم يقض هاني معهما إلا بعض الوقت. انسحب متذرعاً بالانشغال، فتفرغ لهما أبوه يحدثهما عـن تـارخ السلسـلة الطويل بينما هربت وعد وأمها من ملل الرواية بالانشـغال

بواجب الضيافة، لاسيما وأن موفق كان حسن الإصغاء مؤدباً في الإنصات.لم يتثاءب مرة واحدة طيلة الجلسة مع أن هـذا لم يكن ليحل بين أبي هـاني ومواصـلة السـرد التـاريخي العظيم : عظيم. عظيم... كان موفق يردد من حين لحـين. فقال أبو هاني وهو يودعهما عند الباب : لازم تظل تزورنـا أستاذ موفق... وقال لوعد بعد مغدرتهما : آدمـي كثيـر. صدقي أني أحببته من كل قلبي... أخذت نفساً عميقاً وقالـت في نفسها : يا ريت...

أخبرت موفق عما قاله، فامتلأت نفسه بالرضى. عقّبت مشجعة : طالما صار يحبك لازم تظل تزورنا مثلما قال.

جاء مع تغريد في عيد الميلاد، وقبل صعودهما للسكن، نقل عامل الاستقبال أمرهما هاتفياً لهـاني، فهـبط الـدرج بأقصى سرعة خشية أن يكون قد أحضر خطّية ثانية. وجـده يحمل باقة ورد. ارتاحت أنفاسه وقال في نفسه : الآن صرت تفهم يا بني آدم... استقبل تغريد بإشراق مختلف عن المـرة السابقة. ظلت وعد وأمها منشغلتين بالضيافة بينما أبو هـاني يعيد على مسامع موفق تاريخ السلسلة الطويل. لاحظت وعد انسجام هاني وتغريد، فقالت في نفسها : يا ريت... أعـادت

الكلمة بعد حوالي الأسبوع، عندما أخبرت موفق عن ضـياع علبة رسائلها أثناء النقل. قال لها : ادعي ربـك أن تضـيع نهائياً على أن تقع في يد هاني او أبيك.

٣٠

ذهب يحيى صباح الجمعة لوداع حسن مصطحباً معـه خير، فوجدا أبا حسن وأمه قد سبقاهما. كـذلك نجـم الـذي انسحب بعد وصولهما بقليل. قـال لـه حسـن وهـو يهـم بالمغادرة : لا تنسى ما أوصيتك به.

كان نفور نجم من يحيى واضحاً. سأل يحيـى حسـن بالمقابل إن كان يوصيه بشيء. هز حسن رأسه نفيـاً، ولمـا أخرج من جيبه رزمة نقود، سأله حسن وهو يعدها : مـاذا تفعل.؟... لم يجبه ومد له من خلال الشبك عشرة أوراق من فئة العشرة. تمنع حسن في قبولها حرجاً من والديـه اللـذين شعرا بحرجٍ أكبر. نهره بضيق : إمسك خلصني.كأنـك أول مرة تأخذ مني...

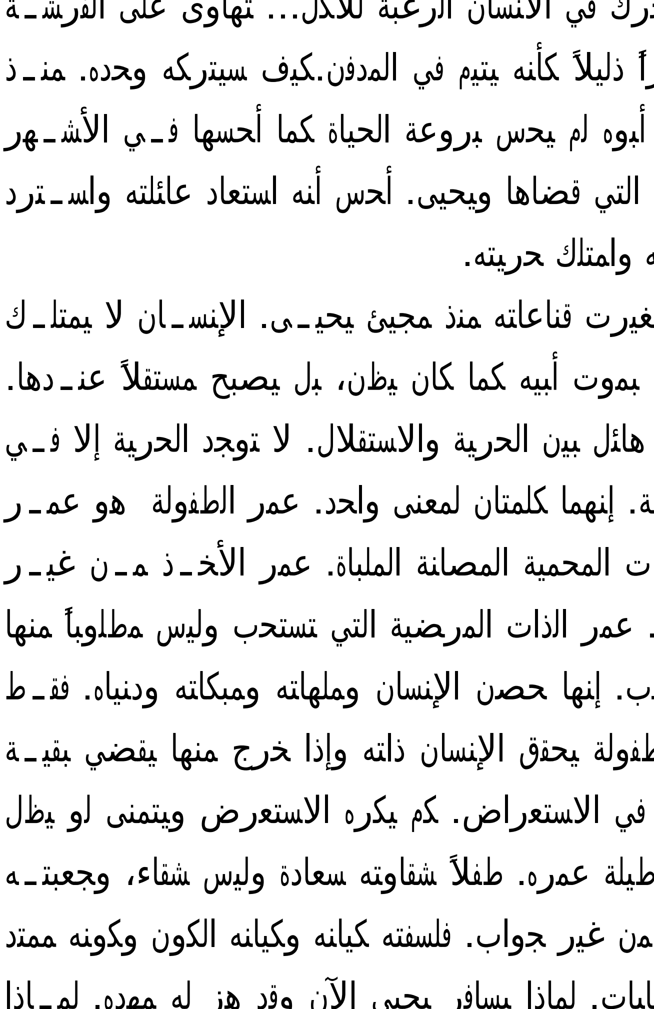
سأله وهو يتناولها مرتبكاً إن كان قد ذهب إلى العنـوان الذي أعطاه إياه، فقال يحيى بقرف : جنرالك هذا نصـاب... بهتت عينا حسن ولم يقو علـى الاستيضـاح بينمـا والـداه ينظران بفضولٍ. غير حسن الموضوع سريعاً : لماذا لم يجئ هاني معكما.

- صار كبار...قالها بضيقٍ واضح... تسـاءلت عينـا حسن : اتصلت به عشرين مرة قبل ما يتنـازل المحتـرم ويتصل معي، ولما أخبرته أني مسافر غداً، يقول اللئـيم، إن سافرت او قعدت ماذا أفعل اك.؟. حتى كلمة مع السلامة لـم يقلها. أوف.

عقّب خير : بالناقص... قالها بضيق لم يخـف علـى حسن.

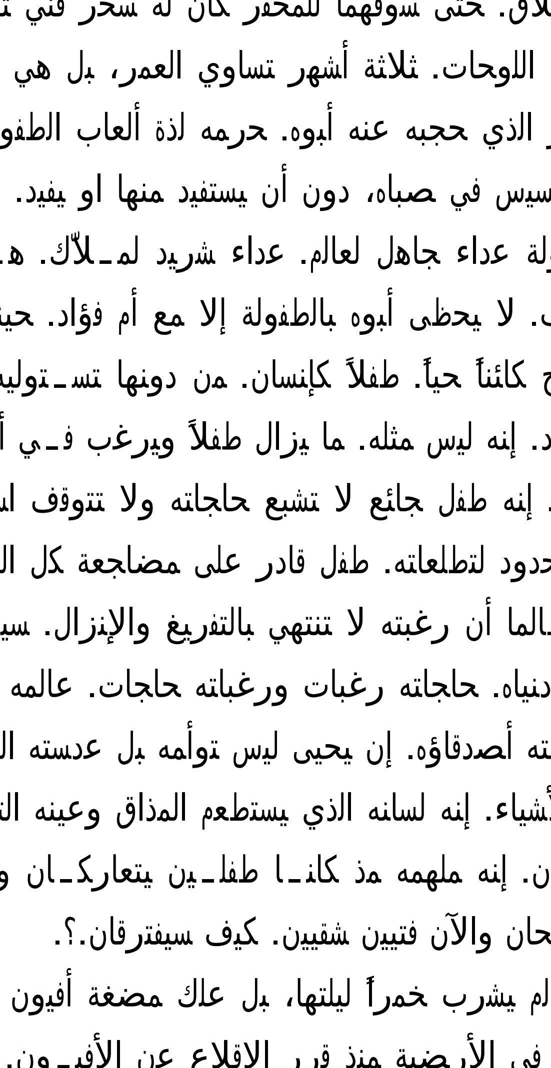
أحسا بالنفور من كل الأشياء وهما يغـادران السـجن. حتى من بعضهما. فافترقا قريباً من بيت العفيف. قال يحيـى بأن عليه تجهيز نفسه للسفر غداً. وقال خير أن لديه عمـلاً لديكران.

ثلاثة أشهر لا تنسى. تمتعا فيها أكثر مما تمتعا في سني الدراسة. لعبا فيها ألعاب الكبار بسلوك الأطفال. أنجز فيهـا يحيى كل ما طلبه منه أبوه وهو متحرر منـه بعيـد عنـه. وأنجز خير نفسه وأيقظ ذاته وأطلق الطفولة المخنوقـة فـي أعماقه.كان يحدثه أحياناً حديث حكيم وأحياناً بعمق فيلسوف. وفي كل الأحوال كطفلٍ صغيرٍ. ادعاؤه سؤال وكذبه سـؤال وجوابه سؤال. تذكر قوله وهو يلج التسوية : الجوع نعمـة.



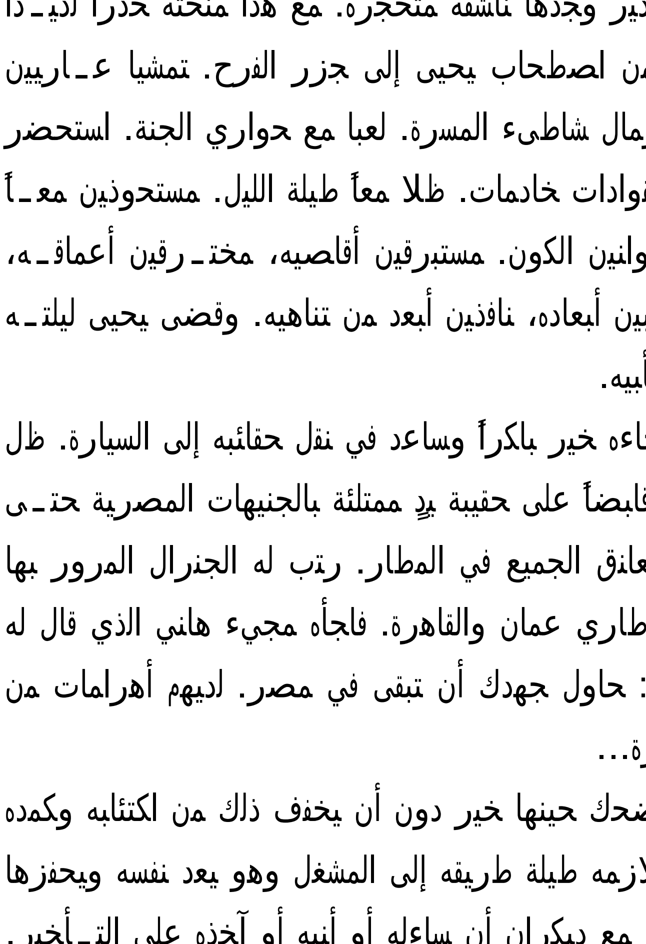
إنه يحرك في الأنسان الرغبة للأكل... تهاوى على الفرشة منكسراً ذليلاً كأنه يتيم في المدفن.كيف سيتركه وحده. منذ طرده أبوه لم يحس بروعة الحياة كما أحسها في الأشهر الثلاثة التي قضاها ويحيى. أحس أنه استعاد عائلته واسترد طفولته وامتلك حريته.

تغيرت قناعاته منذ مجيئ يحيى. الإنسان لا يمتلك حريته بموت أبيه كما كان يظن، بل يصبح مستقلاً عندها. الفرق هائل بين الحرية والاستقلال. لا توجد الحرية إلا في الطفولة. إنهما كلمتان لمعنى واحد. عمر الطفولة هو عمر الحاجات المحمية المصانة الملباة. عمر الأخذ من غير عطاء. عمر الذات المرضية التي تستحب وليس مطلوباً منها أن تحب. إنها حصن الإنسان وملهاته ومبكاته ودنياه. فقط في الطفولة يحقق الإنسان ذاته وإذا خرج منها يقضي بقية عمره في الاستعراض. كم يكره الاستعرض ويتمنى لو يظل طفلاً طيلة عمره. طفلاً شقاوته سعادة وليس شقاء، وجعبته أسئلة من غير جواب. فلسفته كيانه وكيانه الكون وكونه ممتد بلا نهايات. لماذا يسافر يحيى الآن وقد هز له مهده. لماذا يعيده إلى القيود بعد أن أفرحه بعبث الطفولة وفوضى



الانطلاق. حتى سوقهما للمخفر كان له سحر فني تعجز عنه أجمل اللوحات. ثلاثة أشهر تساوي العمر، بل هي استعادة للعمر الذي حجبه عنه أبوه. حرمه لذة ألعاب الطفولة ولذة الأحاسيس في صباه، دون أن يستفيد منها او يفيد. عداء أبيه للطفولة عداء جاهل لعالم. عداء شريد لملاّك. هذا هو السبب. لا يحظى أبوه بالطفولة إلا مع أم فؤاد. حينها فقط يصبح كائناً حياً. طفلاً كإنسان. من دونها تستوليه نزعة الجلاد. إنه ليس مثله. ما يزال طفلاً ويرغب في أن يظل طفلاً. إنه طفل جائع لا تشبع حاجاته ولا تتوقف استفساراته ولا حدود لتطلعاته. طفل قادر على مضاجعة كل الفتيات في آن طالما أن رغبته لا تنتهي بالتفريغ والإنزال. سيظل طفلاً دينه دنياه. حاجاته رغبات ورغباته حاجات. عالمه موهبته وعائلته أصدقاؤه. إن يحيى ليس توأمه بل عدسته التي تقرب له الأشياء. إنه لسانه الذي يستطعم المذاق وعينه التي تبصر الألوان. إنه ملهمه مذ كانا طفلين يتعاركان وصبيين يتباطحان والآن فتيين شقيين. كيف سيفترقان.؟.

لم يشرب خمراً ليلتها، بل علك مضغة أفيون كان قد دفنها في الأرضية منذ قرر الإقلاع عن الأفيون. أمضى



وقتاً في البحث عنها، ولما اسـتخرجها ملفوفـة بالسـوليفان والقصدير وجدها ناشفة متحجرة. مع هذا منحته خدراً لذيـذاً مكّنه من اصطحاب يحيى إلى جزر الفرح. تمشيا عـاريين على رمال شاطىء المسرة. لعبا مع حواري الجنة. استحضر معه القوادات خادمات. ظلا معاً طيلة الليل. مستحوذين معـاً على قوانين الكون. مستبرقين أقاصيه، مختـرقين أعماقـه، مستقربين أبعاده، نافذين أبعد من تناهيه. وقضى يحيى ليلتـه يفكر بأبيه.

جاءه خير باكراً وساعد في نقل حقائبه إلى السيارة. ظل يحيى قابضاً على حقيبة يدٍ ممتلئة بالجنيهات المصرية حتـى وهو يعانق الجميع في المطار. رتب له الجنرال المرور بها عبر مطاري عمان والقاهرة. فاجأه مجيء هاني الذي قال له بحزم : حاول جهدك أن تبقى في مصر. لديهم أهرامات من الحجارة...

ضحك حينها خير دون أن يخفف ذلك من اكتئابه وكمده الذي لازمه طيلة طريقه إلى المشغل وهو يعد نفسه ويحفزها للعراك مع ديكران أن ساءله أو أنبه أو آخذه على التـأخير. لكن شيئاً آخر قد حصل جعله ينسى افتقاده ليحيـى وبهجـة

الصيف معه ويعود إلى حياته الرتيبة في أيام. بحيوية ونشاط حركهما الخروج ولو لفترة من شرنقة المعتاد. فإذا به يحس بألوان الدنيا طوع ريشته. وريشته تتحرك بـالغريزة فـوق رقعة خشبية بعرض مترٍ ونصف وارتفاع متر. ظل يعمـل بها مستنيراً بضوء الشموع حتى نهاية العام. وفي كل ليلـةٍ يخفيها قبل أن ينام في مخبأ خاص جهزه لها. لمـا انتهـى منها حملها إلى موفق، فأذهل موفق بها، وسأله إن كان يمانع في عرضها بالواجهة. استهجن خير طلبه : أمـانع.!؟. مـن يرفض أن تعرض أعماله فـي وسـط السـوق. أتمنـى أن تعرضها عندك إلى أن أموت.

ذكره موفق بقوله عندما جاء يستردها بعـد أقـل مـن شهر . سأله إلى أين سيأخذها. قال باستعلاء : إلى محترفـي الخاص.

- عند ديكران.؟.. سأل موفق بخبث.
- أي ديكران هذا ؟!. لقد تركت العمل معه.
- ماذا ستعمل.؟.
- رساماً. قلت لك، أصبحت امتلك مرسمي الخاص.

٣١

في أقل من نصف ساعة، هدأت الأصـوات وراحـت الهمسات تنتقل من لسان إلى لسان، وأعلن على الفور انتهاء الفورة وأعيد السجناء سريعاً إلى قووايشهم فقبع كلٌ في ركنه متوجساً متوتراً. لملم المؤبـّدون بسطات بـيعهم، وأسـرع بعضهم إلى الغرفة التي صـدر الأمـر بإخلائهـا فـوراً. يفرغونها من أغراضها ويشطفون أرضيتها ويمسحون كوتها وقضبانها ويلمعون حديد بابها ويلوحون فيها للأعلى والأسفل بطانية نظيفة طاردين بتماوجها الرائحة ومجددين الهواء ولما يصل الجنرال بعد.

أطلت طلائعه مع وصول فرشة وثيرة ووسائد ناعمـة وشراشف نظيفة وأغطية جديدة.

بعد وصوله بقليل أرسل له المنظورون يبلغونه رغبتهم في الحضور لزيارته. اعتذر منهم بسبب زيارة يتوقعها بـين دقيقة وأخرى. بعد عودته منها، أذن لهم بالحضـور علـى دفعات، كانوا يسلّمون عليـه ويجيبـون علـى استفسـاراته فحسب. وعندما يشير بيديـه مباعـداً بـين راحتيـه : ا

يحييكم... ينسحبون. لما جاء حسن استبقاه : من أين تعـرف ابن العفيف.؟.

أدهش السؤال حسن وهو يتذكر من فوره العنوان الذي أعطاه إياه : صاحبي.

- وما الذي يجمعه بهذا الفنان ابن الجليلي.

- أصحاب منذ المدرسة.

- انتهت المدرسة يا حسن. الآن مدرستك الحبس. وغداً مدرستك الحياة.

أعجب الجنرال ببردة فعل حسن. فهو وإن شع التسـاؤل في عينيه، إلا أنه لم يسأل ولم يأت على ذكـر الموضـوع ثانية. فقربه منه الجنرال أكثر : إني أحتاجك بعـدما يفـرج عنك.

- أنا تحت أمرك منذ الآن.

لم تكن الهالة التي تحيط بالجنرال هي السبب في رهبة الجميع منه، بمن فيهم حسن. ولا حكايا السجناء عـن قوتـه وشدة بأسه ونمط حياته الصارم . بل قوة شخصيته ونفـاذ بصيرته. عيناه شهباوان جاحظتان تخطفان البصر وتسـببان الارتباك. كانت ثقته بنفسه هائلة وفي تعاليه قوة لا تباهياً فيها

ولا غرور. حديثه حِكم أشـبه بالتعليمـات وصـمته مقلـق وإصغاؤه مربك ومعلوماته محيرة. كان موسـوعة بتـاريخ العوائل وجذورهم وقدراتهم وموطن ضعفهم وأسباب منعتهم. وإذا تقرب منه الكثيرون طمعاً بكرمه، فإن آخـرين كانـت تأسرهم سطوته فيزيدون في ضعفهم من قوته. بعضهم كانت تطول قاماتهم برفقته فيتحولـون إلـى أتبـاع دون مقابـل، يزودونه بالمعلومات ويسعدهم تنفيذ التعليمات. ردد الكثيرون في غيابه، وعلى مسمعٍ من حسن، أن أساس قـوة الجنـرال معلوماته وليس جبروته. فتقرب منه حسن رغبـة ورهبـة، دون أن يتزلف في تودده او يرتبك أثناء مخاطبته او يطرفش بعينيه أمام نظراته. كأنه حليف وليس تابعاً. نصـير ولـيس مستنصراً. أعجب ذلك الجنـرال. لاسـيما وأن الآخـرين يوقّرون حسن في حضرته، وهو على صغر سـنه وقصـر المدة التي يقضيها، تمكن من فرض نفسه وإرهـاب غيـره وتفهم أساليب العيش مع السجناء والحراس وإدارة السـجن. أكبره لذلك، وأكبره أكثر حينما رفض أن يأخـذ شـيئاً مـن أغراضه التي قام بتوزيعها على مقربيه حينما أبلغ بـالإفراج عنه بعد أقل من أسبوع. سأله وهو يودعه إن كـان يحتـاج

شيئاً من الخارج، فقال حسن مازحاً بطريقته الجديدة : امرأة... قلّب الجنرال شفتيه ولم يقل شيئاً بينما ضحك الباقون.

في ليلة رأس السنة وبينما المطر ينهمر بغزارة والريح تقرقر والسماء قاتمة بالغيوم، والسجناء يرتعدون برداً في وطاءاتهم، كان حسن يستدفئ مع مجموعته بتجرع الويسكي الذي وصله مع بعض أغراض أرسلها الجنرال إليه. وكان قد مرر لحبشي شيئاً منها مع أحد المؤبدين فاعتبرها حبشي امتيازاً وظل طيلة انتشائه يدعي أمام زمرته مزهواً أنه وحسن من جماعة الجنرال المهمين.

امتزج شعور الرضى في نفس حسن مع شعوره بالعرفان للجنرال، فأقسم في نفسه أن يحفظ له الجميل، وكان بهذا يتحول دون أن يدري من حليفٍ إلى موالٍ ومن نصيرٍ معه إلى منتصرٍ له. مما جعل السجناء، وبخاصة المنظورين منهم، يعتبرونه من جماعة الجنرال وهو ينفي ذلك بطريقة يعزز فيها ظنونهم : وحدوا ا يا جماعة. من يسمعكم يصدق.

مع الربيع طلب من أهله أن يتوقفوا عن تزويده بالنقود. إنه يكفي حاجاته عن طريق بيـع المصـنوعات الخرزيـة وزودهم بشيء منها حتى يؤكد ادعاءه، بينمـا كانـت فـي الحقيقة قد جاءته لقاء الحشيشة التي يشتريها منه الخرازون.

أعيا نجم بمواصفات المقهى الذي يزمع افتتاحه لكثرة ما يتفتق ذهنه في تأملاته وخلواته. وكلما أخبره نجم أنه وجـد مطلبه، يحثه في البحث عن آخر. لديه وقت كـافٍ للظفـر بمكانٍ آمن واسع متعدد المنافذ والخدمات. لما قال نجم مـرة أن المقهى لا يستلزم كل هذه المواصفات، رد عليـه بنبـرة آمرة : أنت ابحث ولا تسأل... عبر وجه نجم عن اسـتيائه، فاسترضاه حسن بنبرة آمرة أيضاً : حتى لو ضربت رأسـك بالحائط سنظل شريكين، وأنا المعلّم.

٣٢

واكب انطلاقة خير مع يحيى طيلة الصيف انكماش في علاقته مع ديكران. هيء له في البداية أن ديكران مستاء من إجازاته الكثيرة ورواحه المبكر. إلا أن امتداد جفوة ديكـران لباقي العاملين جعلهم جميعاً يتساءلون ولم يجرؤ أحدهم على سؤاله عن سبب شروده الدائم واكتئابه واحتجابه عـنهم فـي مشغله. ثم صار يتغيب عن المحـل فتـرات طويلـة تمتـد ساعات. لم يعد يشمخ بغرور وهو يتحدث عن الفن بل أنه لم يعد يتحدث عنه، وإن اضطر فباقتضاب. كما لم تعد أقوالـه حِكماً كالسابق بل غدت أوامر يلقيها بضيق ونفاد صبر وبلا لباقة على الإطلاق.

خبا نشاطه في العمل وركدت همته في متابعة الزبـائن وقبع في غرفة مكتبه. يطلب العاملين للقدوم إليه بعد أن كان يرواح بين المكتب والمخزن والمشغل. يترك لهم أمر الزبائن بعد أن كان يمنعهم من التدخل بهم ثم يوبخهم على تـدخلهم. يرفض بفجاجة تزويدهم بمـواد جديـدة ويـتهمهم بالهـدر والإسراف ولم يتورع أن يصرخ مرة : أتريـدون نهبـي... صار يأتي مهلهل الثياب محتقن الوجه من كثرة الشراب وقلة

النوم. عيناه غائرتان ووجهه متغضن وأجفانه منتفخة وشعره أشعث، بعد ان كان يتهندم ويتأنق كالفتيان. كبر فـي أشـهر قليلة سنوات كثيرة. لم يعد يكترث بالعمل او يحترم العاملين الذين لم يعودوا يعرفون موعد مجيئه او ذهابه، وكأنه يـأتي خلسة ويغادر متلصصاً.

راودت معظم العاملين الظنون بسبب عصبيته التي لـم يعتادوا عليها وجفوته التي لم يعهدوها. فصـاروا يشـعرون بانهم غير مرغوب بهم، وأخذ بعضهم يبحث عن عملٍ قبل ان يجبر على ترك العمل. كما حصل مع الخطاط الذي احتج على إهانته أمام الجميع، فقال له ديكران : إن لم يعجبك. هذا الباب يتسع لخروجك أنت وكل من في المشغل... لم يتراجع او يراجع نفسه. رمى له مستحقاته كأنـه يرميهـا لشـحاذ. فاستكان الباقون متجنبين إثارة غضبه الذي يـأتي مسـتثاراً معه.

في غضون شهرين تحول إلى شخصٍ آخـر. تفاقمـت جفوته إلى عبوسٍ دائمٍ، فغدا وجهه قميئاً مثل قنبلـة قديمـة يفجرها أدنى ارتجاج.

كان وضعه يتأزم بسرعة وكل يوم. ولم يدر أحـد مـا الذي حصل او يحصل معه. غدا عـدوانياً ينفجـر جنـون غضبه بسببٍ او بدون سبب. قال الخطاطون فيما بينهم : جن العجوز...

شكى خير أمر تضايقه ليحيى. لم تعد حالـة ديكـران محتملة. لقد رمى لوحة بوجه أحد الخطاطين فكاد يشج لـه رأسه. لو فعلها معه سيقتله ويبتلي به وينضم لحسن. اسـتعد يحيى أن يشغله في إحدى مصـالح العائلـة. رفـض خيـر باستخفاف، وماذا سيشغله فيها.؟. كاتب. محاسـب. أم بـائع تذاكر.!. إنه لا يشكو مهنته التي يمارس من خلالها بعـض موهبته. لكنه يشكو من ديكران الذي لم يعد يهتم بالمهنـة او الموهبة. مع أنه كان لما قبل شهرين فقط يمارس مهنته فنـاً ويعتبر الفن مهنة. لما أسهب بالحديث عنه وأخبر يحيى قصة معاناته مع زوجته وتبنيه لفتاة ثم تزويجه لها ، قال يحيـى : هذا يعني أن الرجل مستجوز... مع أن خير استهزأ بقوله في البداية، إلا أنه اقتنع به بعد ذلك . حـاول التـودد لـديكران وسأله بإيثار عما به، أجابه بلؤم : هذا ليس شـأنك. شـغلك على طاولتك.

عندها اتفقت رغبته مع رغبة الآخرين واتخذ أمره في البحث عن عمل يتوافق مع موهبته. كان سوقه محدوداً بالخطاطين، الذين قال عنهم موفق ، أن مجموع عملهم في عمان لا يعادل ربع عمل ديكران. سأله عن السبب الذي من أجله سيترك العمل. سرد له خير بإسهاب حالة ديكران. لاحظ وهو يتحدث ارتباكاً واضحاً في تعابير موفق، كأنه يعرف حقيقة الأمر. لكن خير لم يسأله ولا أفصح موفق.

لم يحتج حل اللغز إلا لحوار مختصر مقتضب. نقل خير عبر الزمن لتنفتح أمامه صفحات الماضي ويطل منها على الحاضر ويستبصر من خلالها المستقبل. ففي اليوم الذي سافر فيه يحيى، اتصل بالمشغل فلم يجد ديكران. ترك له خبراً بأنه ذاهب إلى المطار لوداع صديق وسوف يتأخر ساعة فتأخر ساعتين. عاد مكتئباً من المطار يغمر الأسى والكمد وجهه. أثر به سفر يحيى بحيث لم يعد يبالي بفقدان أي شيء آخر وكان مستعداً حينها للعراك مع كل الناس، بمن فيهم أبيه وديكران.

توقع أن يحاسبه ديكران بعصبية على تأخره. وكان يتمنى ذلك. سوف يبصق عليه وعلى المشغل كما أعد نفسه

لذلك. لكن ديكران استقبله بهدوء غير متوقع، وأكثر ما أثار دهشته، أنه وهو يغادر غرفة المكتب، استوقفه ديكران وسأله بريبة : ألا تلتقي بهذا... تساءل : مـا اسـمه.؟... تصـنع النسيان تماماً : هذا يا رجل. الأستاذ في الأكاديمية.

- من.؟. قسام.؟.

- نعم. نعم. قسام. القسام.؟.. قالها بقرف مصطنع.

- وأين سأراه.؟.. قال خير وهو يقلب يديـه وشـفتيه. أضاف : لماذا.؟.

- لا شيء... قال ديكران وهو يتصنع البحث عن ورقة فوق الطاولة : رأيته اليوم وأرسل لك سلاماً.

تمعن به خير وهو يتساءل. ألغز هذا أم تلميح بالرسالة أم شماتة.؟.

في المشغل لم يستطع العمل. ماذا يقصد ديكران بهدوئه الذي أصبح غريباً واستذكاره لقسام. هـل وصـلته رسـالة أخرى، ويشك مثله بأمر قسام.؟. هل يهـدده أم يتوعـده أم يحذره.؟.ربما كان صادقاً ورأى حقاً قسـام. أيـن.؟. فـي الأكاديمية أم في الشارع أم عند موفق.؟. تذكر تعابير موفق عندما شكا له ديكران. من أذاب صخرك وهـد حيلـك يـا

ديكران.؟. ماذا وراء هذا الهدوء.؟. قسام.؟. أعوذ بالله. قسام يثير الأعصاب ولا يهدئها. بالتأكيد وراء مشكلتك امرأة كمـا قال يحيى. لكن من تكون.؟.ولماذا دخل قسام على الخط. يـا أ ...وضرب قبضته على الطاولة وقد ومض وجه نبيلة في مخيلته... انتبه له الخطاطون : شيء يصرع يا جماعة. الآن وضعت الريشة هنا... إذن هكذا يا نبيلة. هل أصبحت عشيقة لديكران. هذا هو اللغز إذن. تريدين إفهامي أنني لم أمتلكـك وأنت التي تمتلكين الناس. أولاً يحيى وهاني، ثم جـاء الآن دور ديكران. هل سخّرت قسام بعد أن سخرت منـه أمـام الجميع وكدت تحولينه إلى مسخرة.

أسرع إلى مكتب ديكران يريد أن يسأله أين رأى قسام. فوجد الغرفة مقفلة وليس من أثرٍ لديكران .

استيقظ فيه غرور الشعور بالذكاء فاتخذ أمـره علـى تحدي ديكران وقسام ونبيلة والكشف بنفسه عن حقيقة الأمـر الذي بدا واضحاً له كل الوضوح. لا يوجد تفسير غير ذلك. ستفضح المفاجأة تعابير قسام وسوف تنحل عقدة لسانه عندما يدرك أنه يعرف كل شيء. الرسائل ونبيلة وديكران.

في المساء تلهف على المغادرة، واتجه من فوره إلـى شارع المصاروة. أعـد فـي طريقـه عشـرات الأسـئلة الاستدراجية والتعليقات الذكية التي ستوقع بقسام.

دخل الحوش وصعد مباشرة إلى المرسم فوجـد البـاب مغلقاً. قرع عليه مراراً دونما جدوى. حرك مقبضه فوجـده مقفلاً. هبط إلى المنزل وقرع الباب بنعومة ووجل، ثم بقـوة وتواصل. حرك المقبض فكان مقفلاً. عاد أدراجه خائباً لكنه لم يستسلم.

في اليوم التالي عاد الى الموقع ظهراً. لن يذهب إلى أي مكان في فترة الغداء. إن صدف ولم يجده سيترك خبراً مـع زوجته. لكن الحال لم يكن مختلفـاً، إذ وجـد بـابي البيـت والمرسم مقفلين وكأن أصحابه قد رحلوا.

اتجه في المساء إلى موفق فوجد المكتبة تغص بالزبائن وموفق منشغل مع أحدهم. حياه بصرامة وجلس ينتظره أمام الحاجز. بادره بمجرد حضوره : أنا أعرف كل شيء.

- ماذا تعرف.؟... سأل موفق مستغرباً.

- هل تظنني غبياً. منذ حدثتك عن ديكران أدركت أنك تعرف القصة كاملة.

- لست وحدي الذي يعرفها.

-إذن أخبرني بها يا موفق. لا تجنني.

ضحك موفق بمرح : اسمع. أنـا مشـغول الآن. كـل الزبائن يأتون في هذا الوقت كما تعرف. انتظر قليلاً وسيمر أحد أصحابي المحامين ليحكي لك كل التفاصيل.

- لماذا المحامي.؟.

-لأن القضية في المحكمة ويتحدث بها كل الناس.

٣٣

عندما التقى ديكران وقسام في صالة المحكمة، ارتبكـا وهما يتفرسان ببعضهما للحظة قصيرة أشاحا بعدها وواصل كلٌ مع محاميه. لم يكونا بحاجة للتقصـي بعـد أن غـدت قضيتاهما أشهر قضايا ذلك الصـيف. كـان هولهـا علـى صاحبها يجعله يتوجس من النظرات والهمسات والإشـارت حتى لو لم يكن مقصوداً بها. ومع أنهما كانا يحسـان بـأن أخبارهما تتناقلها نسمات الهواء، إلا أنهمـا ظـلا يتوخيـان الكتمان وينفيان الأمر برمته إن استطاعا وإلا ينكران التهمة ويؤكدان بطلانها وزيف ادعائها . يؤكد ديكران أن دوافعهـا الابتزاز وقسام يقسم أن وراءهـا الماسـونية. لكنهمـا مـع محاميهما يبوحان بأسباب أخرى يخجلان من البوح بها أمام الناس.

لما التقيا في المحكمة، سأل كل منهما محاميه عن قضية الآخر بدافع الفضول لا أكثـر. فاسـتغرب المحاميـان أن موكليهما يعرفان بعضهما ولا يعرف أيهما عن قضية الآخر. لم يكن المحاميان يحسان بالثقل النفسي في داخليتهما . قسام سمع عن قضية ديكران، إلا أنه لم يدرك أنه ديكران الخطاط

إلا عندما التقاه في المحكمة وسأل عنه محاميه أما قبل ذلـك فلم يكن يعنيه الاستماع لغير قضيته . كذلك الأمـر بالنسـبة لديكران الذي استحوذت عليه مشكلته بحيث غدا جزءاً منهـا وليست جزءاً منه. لكنه عندما التقى قسام وتفرس به مرتابـاً وتجاهله عامداً، أحس ديكران أن قضـيته افتضـحت فـي المشغل الذي كان يحرص أن يبدو فيه كبيراً وهـو يخنـق توتره بعصبيته ويغطي خجله بعدوانيته.

كان يرزح تحت ثقل تهمتين متضادتين. فـي الأولـى متهماً وفي الثانية مدعياً. يروم من كسب الـدعوة قضـائياً تبرئة نفسه كنائسياً. عرضه هذا لمقاطعة الجالية الأرمنيـة وعدائها. إذ كانت تؤثر أن تحل القضيتان داخلياً ومن خـلال الكنيسة الأرمنية بعيداً عن القانون. لكن هول الاتهـام أفقـد ديكران اتزانه وساعد المحامون فـي تخبطـه، فافتضـحت قضيته التي كان يدعي أنها تلفيقة من الأساس.

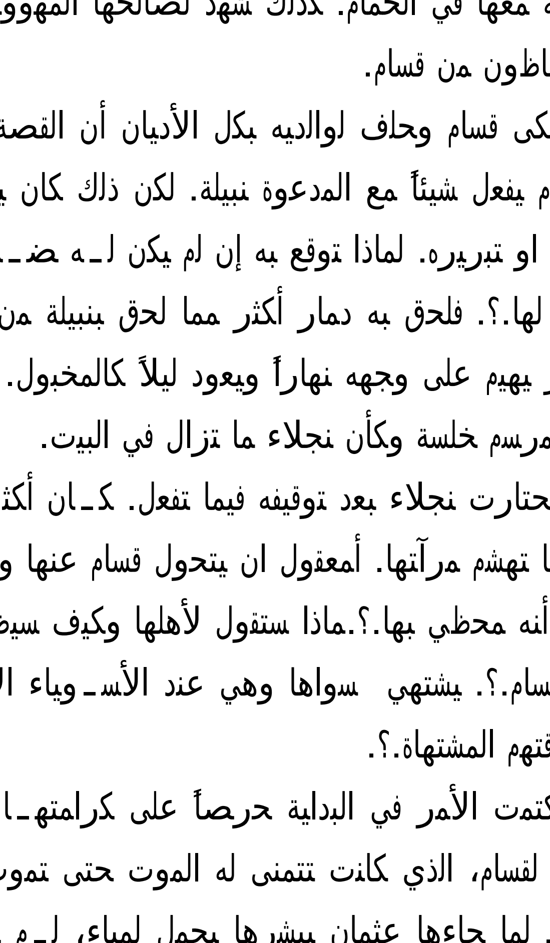
دب الخلاف بين متبناته وزوجها الـذي ابتـدأ خلافـاً صغيراً اتهمها فيه بأنها تهتم بديكران أكثر منه واتهمته بأنـه يستنزف ديكران ويهمه ثروته أكثر من اهتمامه بها وابنيها. تطورت الأمور بشكل سريع وازداد الخلاف حدة وصار كل

منهما يتعلق بأوهى الأسباب وأتفه الحوادث لاتهـام الآخـر. انتهى الأمر بتدخل ديكران لصالح متبناته وطرد زوجها من المنزل. اتهمه هذا بأنه الأب الحقيقي لطفليها ورفـع الأمـر للكنيسة طالباً التحقيق وفحص دماء الولد والبنـت. أنكـرت زوجته التهمة وردت أسبابها إلى ضبطها إياه متلبسـاً وهـو يستسفد ابنيه. وقابلت دعوته الكنسية بدعوى قضـائية شـهد فيها أبناها أن أباهما اغتصبهما مراراً. رد أبوهما التهمة على أمهما وديكران مدعياً أنهما أرغما الصغيرين على الكـذب، لتغدو العائلة بأكملها متورطة في قضية كل من فيها متهمـاً ومدعياً. كان تأثير ذلك مدمراً لهم جميعاً، لاسيما وأن وجهاء الأرمن ورهبانهم ومتنفذيهم تدخلوا بالقضية التي صارت مع قضية قسام حديث شرائح اجتماعية واسعة. وبخاصـة فئـة المحامين.

لم تكن قضية قسام تقل غرابة وإثارة للاهتمام والفضول والتندر. لاسيما وأن التهمة لم تكن عائلية وإنما جاءت بدايـة من الحق العام. إذ ضبطت إحدى دوريات الشـرطة سـيارة منزوية في طريق العارضة وفيها أربعة شبان فـي وضـع فاحش مع نبيلة. أوقفوا جميعاً بتهمة الدعارة ووجهت لنبيلـة

تهمة البغاء. لم يكن لديها ما تدافع به عـن نفسـها بعـدما اعترف أحد الموقوفين أنه دفع لها نقوداً، سـوى رد التهمـة عنها باتهام قسام الذي افتضها ودفعها للانحـراف، فجـاءت الشرطة ليلاً إلى بيت قسام واقتادته على مرأى من زوجتـه إلى المخفر ثم إلى السجن الذي أوقف فيه على ذمة التحقيق. اعترف، مع ثقـل الضـغوط النفسـية وقسـوة المحققـين، بمداعبتها وتلمس جسدها فحسب وأنكر تهمة الافتضاض. لما أفرج عنه بالكفالة بعد حوالي أسبوعين كانت نجلاء قد رحلت مع ابنتها وامتعتها إلى بيت أهلها، وكان أهلـه فـي حـرجٍ وخجلٍ من فعلته، وكانت الأكاديمية قد أصدرت قراراً بوقفه عن العمل لحين صدور الحكم في القضية، وكان خال نبيلـة قد أوكل محامياً ماهراً أصر على تحميـل قسـام مسـؤولية انحرافها مطالباً إياه بالزواج منها او تعويضها عن الضـرر الذي لحق بسمعتها.

جلبت جلسات المحكمة الكثير مـن الفضـوليين.كمـا صارت حديث اوساط المحامين وبعض الصـحفيين الـذين وجدوا فيها مادة إخبارية مثيرة. لاسيما وأن نبيلة التي أفرج عنها بالكفالة، لم تكن تتورع عن إخبار محاميهـا بتفاصـيل



دقيقة عن تحرشات قسام بها داخل القاعـة وفـي الممشـى وغرفة مكتبه، حتى أنها استشهدت بالرئيس الذي ادعى أنـه ضبطه معها في الحمام. كذلك شهد لصالحها المهووسون بها والمغتاظون من قسام.

بكى قسام وحلف لوالديه بكل الأديان أن القصة ملفقـة وأنه لم يفعل شيئاً مع المدعوة نبيلة. لكن ذلك كان يصـعب تكذيبه او تبريره. لماذا توقع به إن لم يكن لـه ضـلع فيمـا جرى لها.؟. فلحق به دمار أكثر مما لحق بنبيلة من عـار، وصار يهيم على وجهه نهاراً ويعود ليلاً كالمخبول. يصـعد إلى المرسم خلسة وكأن نجلاء ما تزال في البيت.

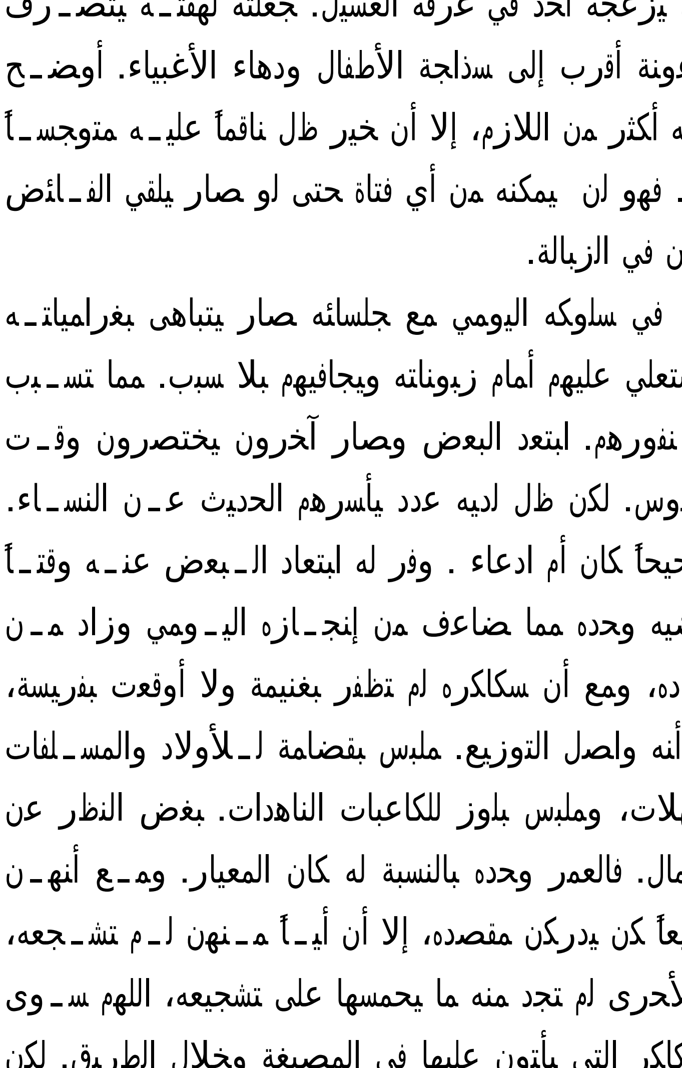
احتارت نجلاء بعد توقيفه فيما تفعل. كـان أكثـر مـا يغيظها تهشم مرآتها. أمعقول ان يتحول قسام عنها وهي التي ظنت أنه محظي بها.؟.ماذا ستقول لأهلها وكيف سيظن بهـا أهل قسام.؟. يشتهي سواها وهي عند الأسـوياء الأغنيـاء معشوقتهم المشتهاة.؟.

كتمت الأمر في البداية حرصاً على كرامتهـا ولـيس حماية لقسام، الذي كانت تتمنى له الموت حتى تموت معـه قصته. لما جاءها عثمان يبشرها بحمل لمياء، لـم تسـتطع

التظاهر بالفرح مع كل ما يلتهب فيها من اكتئاب. فلـم تقـو على كتمان الأمر الذي كان يستصرخ أعماقها للانتقال منهـا إلى أي إنسان. كاشفته بالحقيقة رغماً عنهـا فتـأجج فرحـه بحمل لمياء إلى درجة كان قادراً فيها على حمـل نجـلاء. وأحس في لحظته العظيمة تلك بقلبه يعزف مـارش عثمـان فترنح منتشياً في ذروة البهجة التي لـم يعـد يفصـله عـن حضيضها سوى لقمة واحدة فلفلتها له نجلاء. تهاوى حطاماً بعدها، يبكي ملتاعاً مصيبة قسام.

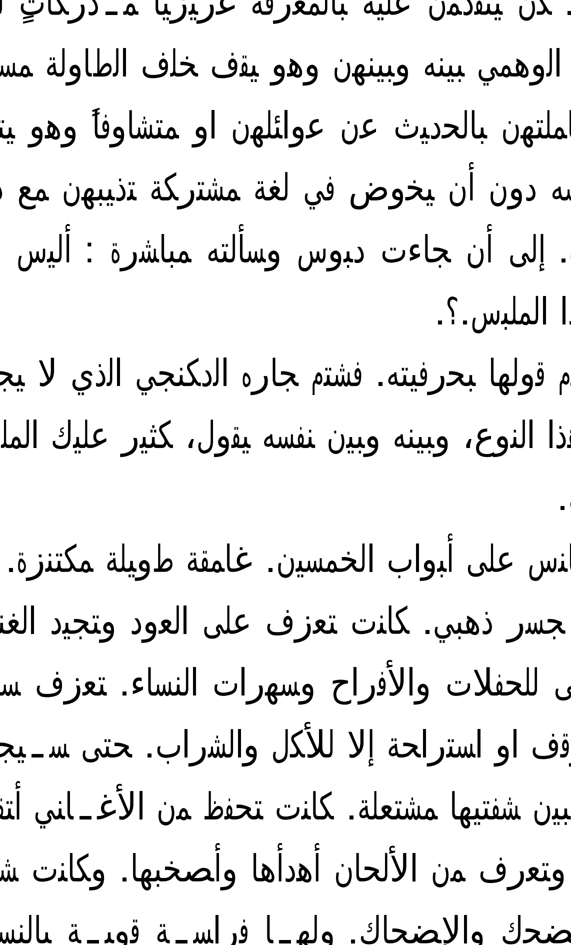
منذ جاء بصحن الكنافة إلى خير، تشجع نـذير لتكـرار الزيارة دونما وجلٍ من أبي الخير، الذي أعـد لـه التبريـر مسبقاً فيما لو ضبطه او وشى به أحدهم، فهو إنما يتقصـى عن أخبار خير ويتحقق من زواره. لكن أبا الخير لـم يـدر بأمر هذه الزيارات التي كانت أقرب إلى المباغتات. كما أن نذير لم يحظ بلقاء خير سوى مرات قليلـة، أكـد لـه فيهـا حرصه عليه ومعارضته لتمادي أبوه في نبذه وإبعـاده : ا يا خالي يغفر، لكن أباك، ا يسامحه، لا يعرف أن يغفر.

في الحديث عن أبيه،لم يكن خيـر يعلـق إلا بـأقوال مختصرة مقتضبة، حتى لا يستغلها نذير للإيقاع به. وعندما يتجه نذير بالحديث نحو النساء ويسأل خير إن كـان يتـدبر أموره معهن، فإن خير يقاهره بإجابات غامضة او إشـارت من شفتيه وعينيه تضيف تساؤلاً إلى السؤال أكثر مما توضح الجواب. يفهمها نذير أيجاباً وأنها تلمح إلى الاكتفاء، فيـزداد إلحاحاً عليه للمجيء إلى المصبغة في أي وقت يشاء إذا أراد الاستحمام او كان لديه ضيوف يخجله اصطحابهم للتسـوية. إشارة خفيفة من أول الكوربة وسيتخلص من زبائنه وجلسائه



ولن يزعجه أحد في غرفة الغسيل. جعلته لهفتـه يتصـرف برعونة أقرب إلى سذاجة الأطفال ودهاء الأغبياء. أوضـح نفسه أكثر من اللازم، إلا أن خير ظل ناقماً عليـه متوجسـاً منه. فهو لن يمكنه من أي فتاة حتى لو صار يلقي الفـائض منهن في الزبالة.

في سلوكه اليومي مع جلسائه صار يتباهى بغرامياتـه ويستعلي عليهم أمام زبوناته ويجافيهم بلا سبب. مما تسـبب في نفورهم. ابتعد البعض وصار آخرون يختصرون وقـت الجلوس. لكن ظل لديه عدد يأسرهم الحديث عـن النسـاء. صحيحاً كان أم ادعاء . وفر له ابتعاد الـبعض عنـه وقتـاً يقضيه وحده مما ضاعف من إنجـازه اليـومي وزاد مـن إيراده، ومع أن سكاكره لم تظفر بغنيمة ولا أوقعت بفريسة، إلا أنه واصل التوزيع. ملبس بقضامة لـلأولاد والمسـلفات الكهلات، وملبس بلوز للكاعبات الناهدات. بغض النظر عن الجمال. فالعمر وحده بالنسبة له كان المعيار. ومـع أنهـن جميعاً كن يدركن مقصده، إلا أن أيـاً مـنهن لـم تشـجعه، وبالأحرى لم تجد منه ما يحمسها على تشجيعه، اللهم سـوى السكاكر التي يأتون عليها في المصبغة وخلال الطريق. لكن



هذا التواصل الذي كان جديداً عليهن صار عادة كما اعتدن الحديث معه وملاطفته والإصغاء له وهو يتحدث ويسأل ويجيب. كن يتقدمن عليه بالمعرفة غريزياً مدركاتٍ لهذا الحاجز الوهمي بينه وبينهن وهو يقف خلف الطاولة مستغرقاً في مجاملتهن بالحديث عن عوائلهن او متشاوفاً وهو يتحدث عن نفسه دون أن يخوض في لغة مشتركة تذيبهن مع ذوبان سكاكره. إلى أن جاءت دبوس وسألته مباشرة : أليس عندك غير هذا الملبس.؟.

فهم قولها بحرفيته. فشتم جاره الدكنجي الذي لا يجلب سوى هذا النوع، وبينه وبين نفسه يقول، كثير عليك الملبس بقضامة.

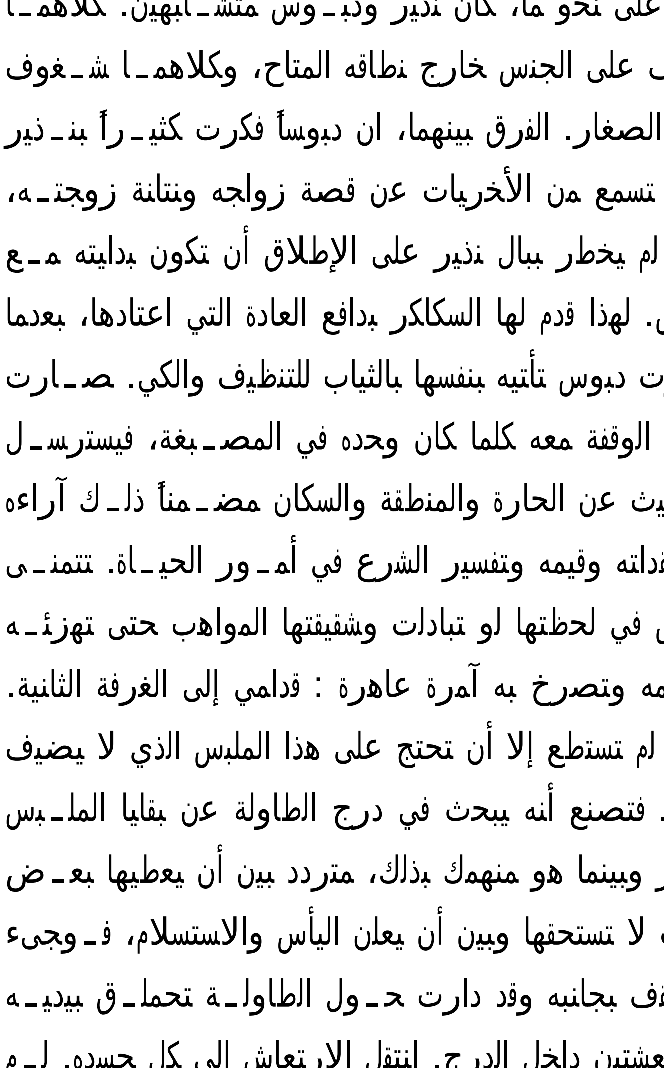
عانس على أبواب الخمسين. غامقة طويلة مكتنزة. تخلل أسنانها جسر ذهبي. كانت تعزف على العود وتجيد الغناء، فتستدعى للحفلات والأفراح وسهرات النساء. تعزف ساعات دون توقف او استراحة إلا للأكل والشراب. حتى سيجارتها توضع بين شفتيها مشتعلة. كانت تحفظ من الأغاني أتقاها وأبذلها وتعرف من الألحان أهدأها وأصخبها. وكانت شقيقتها تجيد الضحك والإضحاك. ولها فراسة قوية بالنساء،

فترضيهن في السهرات وتستدرج المتلهفات مـنهن للحـب والمحتاجات للمال والراغبات بالانتقام. فيعود عليهمـا ذلـك بالخير والرزق والدعاء. لم تكن دبوس تحس أنها قوادة وإنما مختارة، تسترد وشقيقتها النفقـات ولا تتلقيـان أجـوراً او عمولات. سكنهما ليس ماخوراً بل نزلاً يرتاده العشاق وليس المحرومون. زبوناتهما متزوجـات حريصـات وزبائنهمـا متزوجون حذرون ، تتقاسمان وأولئك الرزق ويغطي هؤلاء النفقات، دونما مفاصلة او احتجاج او سؤال او استفسار. ولا تمانعان أن تقيما من حين لحين حفلة فاجرة للمتنفذين. تتولى فيها دبوس الغناء وتتولى شقيقتها التي تكبرهـا عمـراً ولا تختلف عنها شكلاً خدمة الضيوف، سواء أجـاؤا بحاجـاتهم معهم أم رتبت أمرها الشقيقتان.

بيتهما أطلالٌ رومانيةٌ كان يظنها صاحب الأرض مجرد هيكل حجري حولـه الجوفيـون إلـى مكرهـة صـحية، فاستصلحها وأضاف لها مرحاضاً فوق بئر عميقة لـيس لـه قراراً وسور الفناء بجدارٍ طيني مرتفع. اسـتأجرته دبـوس وشقيقتها لانزوائيته ورحابة فنائه ورخص أجرته. لتكتشـفا بعد سكناهما بأشهر قليلة دهليزاً خلف أحجار الهيكل يقود إلى

مغارة عميقة في السفح، باردة في الصيف دافئة في الشـتاء. يتجدد فيها الهواء بشكل محير مجهـول. فرشـتا أرضـيتها الترابية في الأمام ببسط وطراريح ووسائد وصارتا تستقبلان فيها الزائرات اللواتي يطربهن غناء دبوس وتعجبهن جـرأة شقيقتها ويحسدنهن على استقلاليتهما وحريتهما.

صارت دبـوس تسـتمتع بترتيـب لقـاءات العشـاق والمحتاجين وتتلذذ بالتلصص عليهم، بينما تتـولى شـقيقتها قبض أجرة اللقاء الذي تسميه نفقة. تطور الأمر بعدما اهتدى إليهما الجنرال وصار يجزل لهما لقاء ترتيب حفلات طـرب له ولإصدقائه تتحول مع نشوة السكر والبهجة والمرح إلـى فجور وخلاعة. كان الجنرال يكفيهما بما يغدق عليهما مـن نقود. فلا تردان له طلباً. كان تأثيره عليهما كبيراً. فهو يدفع بلا حساب ويطرب من غير خمر ويستمتع دون انجـراف. غدا بالنسبة لهما سيداً تستجاب رغباته في الحال. فإذا أرسل خبراً مع سائقه، يتم توضيب البيت وترتيب المغارة وإعـداد ما يلزم لاستقباله وضيوفه في سهرة تبعث الحياة في الآثار. تظفر دبوس خلالها بوصال أقرب إلى الاستعراض. يرضيها ولا يكفيها.


على نحو ما، كان نذير ودبوس متشابهين. كلاهما متلهف على الجنس خارج نطاقه المتاح، وكلاهما شغوف بدنيا الصغار. الفرق بينهما، ان دبوساً فكرت كثيراً بنذير وهي تسمع من الأخريات عن قصة زواجه ونتانة زوجته، بينما لم يخطر ببال نذير على الإطلاق أن تكون بدايته مع دبوس. لهذا قدم لها السكاكر بدافع العادة التي اعتادها، بعدما صارت دبوس تأتيه بنفسها بالثياب للتنظيف والكي. صارت تطيل الوقفة معه كلما كان وحده في المصبغة، فيسترسل بالحديث عن الحارة والمنطقة والسكان مضمناً ذلك آراءه ومعتقداته وقيمه وتفسير الشرع في أمور الحياة. تتمنى دبوس في لحظتها لو تبادلت وشقيقتها المواهب حتى تهزئه وتشتمه وتصرخ به آمرة عاهرة : قدامي إلى الغرفة الثانية. لكنها لم تستطع إلا أن تحتج على هذا الملبس الذي لا يضيف سواه. فتصنع أنه يبحث في درج الطاولة عن بقايا الملبس باللوز وبينما هو منهمك بذلك، متردد بين أن يعطيها بعض حبات لا تستحقها وبين أن يعلن اليأس والاستسلام، فوجىء بها تقف بجانبه وقد دارت حول الطاولة تحملق بيديه المرتعشتين داخل الدرج. انتقل الارتعاش إلى كل جسده. لم

يدر أي منهما في تلك اللحظة خطوته التاليـة او المضـادة. فالبغي قد تتصرف بعهر على قارعة الطريق إلا أن القوادة، خارج بيت البغاء، تسلك في العادة سلوك نؤورٍ غيداء.

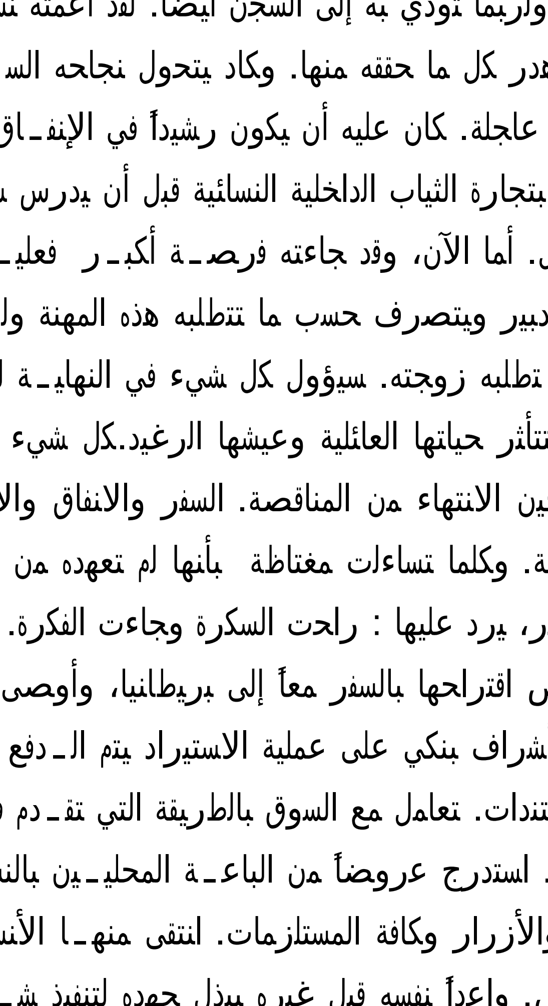
تلك اللحظة عبقت رائحتها الأنثوية فـي كيـان نـذير المتلهف على تغيير زيته المحترق وحلحلة براغيه الصـدئة التي يكاد الضغط عليها يكسرها ولا يفكفكها. أزال اقترابهـا منه حاجز الطاولة اللعين، فإذا به مـع امـرأة تجعـل مـن مساعيه حميدة. فليس الجنس الآخر بحد ذاته هو الغاية، وإنما داخلية الذات التي تنعكس في الآخر. تماماً مثلما تفعل المرايا المتوازية. فالشكل متكرر لكن الإثارة في تعـدده. وسـواء أكانت دبوس أقل جمالاً من أم عناد او أكثر نتانة منها، فـإن ذلك لم يكن ذا أثرٍ في تلك اللحظة العظيمة التي أحس فيهـا نذير أنه مرغوب ومحبوب ومطلوب. فالرجولة تسكنها دائماً طفولة تتوق للدلال او الانتقام او العدوان. انزاحا متلاصقين إلى غرفة الغسيل وضاجعها في شبه غيبوبة دون أن يغلـق الباب. كان الأمر بالنسبة إليهما مشوار في طريق جديـد. إذ صار ينتظر مجيئها إلى المصبغة في فترة الغداء، بينما الناس منهمكون في الأكل او مستريحون في القيلولـة. وصـارت

تحرص كل الحرص على أن لايعرف نذير بـأمر مغارتهـا ومحذرة إياه من إخبار أحد بقصتها. لم تكن تخشى فضيحتها وإنما فريستها التي تمكنت منها بعد جهدٍ ووقتٍ ومحـاولات. كانت تدرك أن العمر يمتص نفسه ويسترد ذاتـه. فانقضـاء الأيام علّمها أن الحياة ليست هبة ولا عطاء ولا صراعاً ولا ارتقاء، وإنما استرداد الوجود لمعالمه، وكأن الغريزة ليسـت حصن البقاء المكين وأنما حنين السنين إلى السنين. فغدا نذير بالنسبة لها عبير عمرها المقضي، وغدت بالنسبة له استراحة عمره الشقي. فمنذ أن ظفرا بتلك اللحظة العظيمـة، صـار يهمها أمره أكثر من عالمها الأثري وصار عالمه أضيق من بناء حجري. أحست بفتنتها مع شبوبيته وأحس بنضارته مع كهولتها. لكن الفرق شاسع بين الواقع المسـتطاع والواقـع المعاش. ففي سبيل الواقع المستطاع لم تعد تبالي بحفلاتهـا وصارت ترفض أحياناً الغناء وهي تزداد ولهاً بنذير. أزعج ذلك شقيقتها التي نقلت لها مـراراً اسـتياء الجنـرال مـن اعتذارها المتواصل عن الغناء وإهمالها لوجوده أمام أصدقائه وعدم اهتمامها بحفلاته.

أما نذير فقد نقله الواقع المعاش إلى الواقع المستطاع فصار يتجرأ على التلمس والتحسس والقرص والدغدغة دون أن يربكه صد المتزوجات او يثنيه نفور العازبات او يخيفه توعد الصغيرات. غدا معروفاً لدى الكثيرات بأن يده طويلة مثل لسانه، فهو يقدم الكمشة مقابل الكمشة ويحلّي ويتحلّى. لكنه أبداً لا يتجاوز الحاجز إليهن ولا يتجاوزنه إليه، باستثناء دبوس التي دون الأخريات لم تسمع بتحرشاته، ودون الآخرين لم يسمع بأنشطتها إلى أن جاء يوم أوقفا به لسببين مختلفين والدافع واحد.

٣٥

لم يكن أمام أبي فؤاد من مخرج إلا استخدام بائع يتولى شؤون المحل وبيع المتبقي من بضائعه، بعدما عزمت أم فؤاد أمرها على تركه نهائياً. لم يكن السبب ضعف سوق الشراء، فكل بداية صعبة كما كان يقول، ولم يكن السبب أيضاً ردود فعل الجوفيات واستهزائهن بأم فؤاد. فهن بنظرها متخلفات لا يستأهلن رؤية هذه الأشياء. لكن ركود العمل وبقاءها طيلة الوقت وحيدة في محلٍ ضيقٍ، أضجرها وكان يشعرها بأنها سجينة أربعة جدران. ومع أن زوجها وابنها حاولا أن يثنياها، إلا أنها عقدت عزمها نهائياً وحسمت الأمر بتسليم زوجها مفتاح المحل قبل أن يجد حلاً للمشكلة مما اضطره إلى توليته لأحد العاملين لديه. انتقاه شاباً وسيماً مهندماً، وعده بعمولة على البيع إضافة إلى راتب شهري. لازمه في المحل نحو الشهر، ولما تيقن من قدرته وكفاءته واستيعابه لطبيعة العمل الذي أحرج كليهما في البداية، صار يأتيه بضع ساعات يومياً. انقطع عنه نهائياً بعدما رست عليه مناقصة أكبر من الأولى لتزويد الجيش بثياب عسكرية صيفية. وكما السابق، اضطر للجوء إلى البنك. لكن بحرصٍ وانتباه. فأي



إسراف هذه المرة ستكون نتيجته كارثة قد تذهب بالمشـغل والمحل، واربما تودي به إلى السجن أيضاً. لقد أعمته نشـوة البداية فأهدر كل ما حققه منها. وكاد يتحول نجاحه السـريع إلى نهاية عاجلة. كان عليه أن يكون رشيداً في الإنفـاق وأن لا يغامر بتجارة الثياب الداخلية النسائية قبل أن يدرس سوقها على الأقل. أما الآن، وقد جاءته فرصـة أكبـر فعليـه أن يحسن التدبير ويتصرف حسب ما تتطلبه هذه المهنة ولـيس حسب ما تطلبه زوجته. سيؤول كل شيء في النهايـة لهـا، دون أن تتأثر حياتها العائلية وعيشها الرغيد.كل شيء يمكن تأجيله لحين الانتهاء من المناقصة. السفر والانفاق والانتقال من الجوفة. وكلما تساءلت مغتاظة بأنها لم تعهده من قبـل بهذا التقتير، يرد عليها : راحت السكرة وجاءت الفكرة.

رفض اقتراحها بالسفر معاً إلى بريطانيا، وأوصى على القماش بأشراف بنكي على عملية الاستيراد يتم الـدفع فيـه مقابل مستندات. تعامل مع السوق بالطريقة التي تقـدم فيهـا للمناقصة. استدرج عروضاً من الباعـة المحليـين بالنسـبة للخيوط والأزرار وكافة المستلزمات. انتقى منهـا الأنسـب والأرخص. واعداً نفسه قبل غيره ببذل جهده لتنفيذ شـروط

المناقصة حسب المواصفات وفي الوقت المحـدد، ومتفرغـاً للعمل كلياً وحاسباً كل نفقة بالفلس بعد ان علمتـه تجربتـه الماضية ما يحتاج وما لا يحتاج. تخلى أيضاً عـن هندمتـه التي كانت تقف حائلاً بينه وبـين تفقـد العمـال وماكنـات المشغل، فأتزر مئزراً خفيف مـن تحتـه قمـيص وبنطـال فضفاضين، مما ساعده على الحركة بحرية وميزه عن باقي العاملين الذين صاروا مع مواظبته وإشرافه المباشر يبـذلون جهداً أكبر بأداءٍ أحسن.

عندما أعلن عن عطاء خاص بألبسة الشرطة، وضـع حساباته بدقة متناهية، وقبل أن يتقدم للمناقصة عرض عليـه أحد المتعهدين الاستنكاف لقاء مبلغ خمسمائة دينار. أشـعره ذلك بأهميته كمتعهد فرفض العرض رفضاً قاطعـاً، مـع أن أرباحه المتوقعة لم تكن تزيد عن هذا المبلغ إلا بقليـل. لمـا أخبر زوجته بالأمر عاتبته بحدة. قالت له : عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة.

دافع عن موقفه وحاول تبرير سلوكه، مع أنه في داخله كان مقتنعاً بقولها، وتمنى لو أنه قبل عرض المتعهد. فالفوز بالمناقصة أصلاً غير مضمون. ثم قد ترتفع أسعار القمـاش

والمستلزمات، وحسب أرقامه فإن إيراده من العطاء لن يـزد إلا قليلاً عن ذلك المبلغ. لكن بعد أيامٍ مـن تبليغـه برسـو العطاء عليه، جاء إلى زوجته مرحاً بشوشاً أكثر مما اعتـاد، فتساءلت نظراتها وهو يقول : جاء الخير مع بعضه...

أصابها الخبر بالفرح والحزن معاً، فهي وإن تخلت عن محل شانتيل إلا أنها ما تزال تحس بأنه ربيبها. هـي التـي أنشأته وأسسته وواكبت بدايته، لهذا كان يحزنها بيعه. لكـن بالمقابل فإن بيعه سيخلصهما من أعباء كثيرة، ويـوفر لهـا قدراً كافياً من المال الذي تحترق شوقاً لإحراقه. والأهم مـن ذلك، ستتحقق رغبتها بالانتقال من هذا الجبل المتخلّف.

آثر أبو فؤاد التروي، وطلب مبلغاً أكبر ممـا عـرض عليه أسوة بجيرانه الذين تلقوا العرض نفسه مقابـل إخـلاء محلاتهم التي سيقام مكانها بناء ضخم يشتمل علـى صـالتي سينما كبيرتين أحداهما ستسمى عمان والأخرى رغـدان. إلا أن أم فؤاد أصرت على زوجها بـالقبول الفـوري حتـى لا يفوت الفرصة كما حصل معه في تعهد ألبسة الشرطة. أذعن لها ووقع قبل الآخرين، الذين أذعن لهم أصحاب المشـروع ورفعوا مبلغ التعويض. حمل ابو فؤاد مسؤولية استعجاله لأم

فؤاد، التي لم تكترث للأمر. يكفي أنه سـدد ديـون المحـل بالكامل وسوف يسدد ما يستحق عليه لأبي الخير عندما يعلمه بأمر رحيلهما بمجرد أن يستأجروا بيتاً مناسباً في حـي راقٍ يليق بهم. لم يكن ذلك صعباً على فؤاد الذي ساعده موقعـه على الظفر بسكنٍ واسع مريح في منطقة اللويبدة، أعجب أمه فأعجب أباه الذي لم يتردد في دفع بدل الإيجار لستة أشـهرٍ مقدماً اعتباراً من بداية العام. أرسل في ليلتها خبـراً لأبـي الخير.

لم تمنع رداءة الطقس وسوء الأحوال الجوية أبا الخيـر من الاستعداد. ليس هناك أجمل من السهر في الشتاء، كمـا قال لزوجته وهو يستنفرها مع ابنتيه للقيام بواجب الضـيافة. لاسيما وأنهما تدينان بوظيفتهما لفؤاد.

نُفضت المقاعد ومسح الغبار ولمـع الأثـاث وتوقـدت صوبة الحطب حتى وصل دفؤها إلى الغرف كافة، وأضيف لوكس غاز إلى لمبة الكهرباء في غرفة الضيوف حتى تشـع الإضاءة ويزداد الدفء. كما عرمت صـحون المكسـرات وجاطات الفواكه وصواني الحلويات. أضيئ الدرج والمدخل والغرف كافة. وترك الباب مفتوحاً حتى لا يتوقف الجيـران

أمام عتبته في هذا الجو البارد المطير. ما أن أطل أبو فـؤاد من المصطبة حتى أطل أبو الخير من الباب، مغتسل الوجـه ممشط الشعر حالق الذقن يشـع وجهـه بالبشاشـة كقنـديل كهرباء. ومن خلفه وقفت أم الخير ترغم فمها على الابتسـام بينما ابنتاها إلى جانبها تفركان أيديهما مرحاً وفرحـاً ودلالاً. لم تلحظا في وقفتهما انكماش وجه أبيهما ولا جحوظ عينيـه وهو يحرك رأسه يميناً ويساراً : مساء الخير جار... قال أبو فؤاد.

رد أبو الخير بسؤال : أين أم فؤاد.؟.

- لم تقدر أن تأتِ.

كان استياء التوأم بمثل استياء إبيهما، وإن كان ذهولـه أكبر وغضبه أعتى من غضب الطبيعة في الخـارج. اتهـم زوجته بأنها السبب في تطفيش الجيران. وأنها لو صادقت أم فؤاد لما فكرت بالرحيل على الإطلاق. ها هم سيرحلون الآن ويفقد الإيجار الذي منه يأكلون ويشربون ويعتاشون : من أين سأطعمك وبناتك يا بنت الكلب.

أدركت التوأمان أن البلية قد تطالهما، فهو لا يأت فـي العادة على ذكرهما والشكوى منهما إلا في الحالات الصـعبة العصية : قولوا لي، من أين سأطعمكم إن شغر البيت.؟.

- المستأجرون كثر... شع في الغرفة ومـيض بـرقٍ خاطف.

-كثـر.!. كثـر.!. أيـنهم الكثـر.؟. عنـد أخيـك الماطوش.؟... ورفسها في حوضها فطغى هدير الرعد على صراخها : لا تصيحي... ولطمها على أم رأسـها فتهـاوت على نفسها. ما أن همت بالنهوض حتى وجه لها لكمة قويـة رنحتها وألقتها على حافة السرير مغشي عليها. ظـن بأنهـا تتصنع الإغماء كالعادة فركلها في بطنها، ولما لم تتحرك فاق إلى نفسه، لكنه تماسك ولم يتنازل : ا لا يقيمك... بلع ريقه وهو يتناول علبة الدخان. أشعل سيجارة وهو ينظر بأسـفل عينيه إلى جسد زوجته الذي بدا كالجثة. قال والدخان يتبعثر من فمه : مثلي علي يا بنت الكلب... بارح الغرفة وهو ينفخ أنفاسه كالشخير. التفت خطفاً إلى ابنتيه في غرفتهما ونفـض يده إلى الوراء وهو يقول بقرف ونبرة آمرة : إذهبا شوفا ما

لها... سحب من سيجارته وهو يواصل إلى غرفة الضيوف. بينما السماء ترعد غضباً.

تهاوى على المقعـد وهـو يحـس بـالعجز والـوهن والشيخوخة. قضى على سيجارته فـي سـحبات متواصـلة وسحقها تحت قدمه. أشعل واحدة أخرى وهو يحـس بحكـة شديدة في منخريه، فركهمـا بطرفـي إصـبعيه الممسـكين السيجارة بينما سكنت أنظاره إلى الأمام وقد غاب عنه الوقت تماماً، وهو يشعل السيجارة من عقب الأخرى. أحياناً ينساها بين أصبعيه إلى أن يقع رمادها . أحس بمرارة الدخان كما لم يحسس بها من قبل، فأخذ يبلل بلسانه شـفتيه مـن حـين لآخر، وهو ساكن واجم مخذول لا يشاهد وميض البرق الذي يشع في الغرفة من حين لحين ولا يسمع هدير الرعد الـذي يتلوه. هز رأسه بأسى ومد يده إلى جيب جاكيته وأخرج منها بضعة أوراقٍ نقدية. حملق بها بذلة وقـد مـال فمـه مـن الجانبين. نخر كأنه على وشك البكاء وتساءل بصوتٍ خفيضٍ ضعيف : أأنا محتاج لنقودك يا أبا فؤاد.؟.

أحس بالتعب وألم في مفاصله وضيق في صدره. نهض بتثاقل : يا ا .

وجد زوجته تجلس على طرف السرير وهي تشهق وتبكي بينما ابنتيها ترطبان جبينها بخرقة مبللة. ما أن لمحته حتى شدت راحتها على فكها متألمة. لم يبال بهن وواصل إلى الحمام. اتكأ بذراعيه إلى المغسلة وظل مطرقاً لبعض الوقت ثم بارح مكانه. لم يجد ابنتيه في المخدع وكانت زوجته ما تزال تجلس على طرف السرير.

نزع ثيابه فالتقطتها منه وناولته البيجاما فارتداها برخاوة. رفعت له الغطاء فتمدد على السرير بهدوء طفلٍ صغير. ما أن دثّرته حتى أحس بالقشعريرة تجمع أطرافه وتكوره كالجنين. كان غضب السماء عاتياً، فالبرق متواصل والرعد يرجرج النوافذ وخيوط المطر تصل الأرض بالسماء. بعد منتصف الليل بقليل بدأ الجو يهدأ والمطر يخف. مع الفجر اشتدت قوة الريح. استيقظ من شدة السعال. لم ينتظر حتى يرتاح صدره كالعادة، بل ابتدأ التدخين ولم تأته القهوة بعد. لما جاءته بها زوجته كان قد قضى على خمس سجائر أشعلها واحدة من الأخرى. طلب ركوة أخرى فأعدتها له على عجل. تجرعها على عجل أيضاً. أخبرته أن الفطور جاهز فلم يرد عليها.

ارتدى ملابسه مرتجفاً واتجه إلى الدكان. كان المطـر يأتي في هجمات شديدة متباعدة حالت دون جلوسـه علـى الرصيف. فرابط لأبي فؤاد بجانب الباب من الداخل.

جاءته زوجته بالبابور مشتعلاً، وضعته قـرب كرسـيه وأعادت معها آخر منطفئاً. وضع صـفيحة معدنيـة فـوق البابور وظل يراوح بينه وبين الباب، مستدفئاً عليـه لحظـة وراصداً الطريق لحظات. غادرت ابنتاه وتوافدت الطالبـات على المدرسة، ثم غادر فؤاد. عج الشارع بالحركة والنشاط، ولم يظهر أبو فؤاد.

حوالي التاسعة، لم يعد يحتمل الانتظار، فعزم أمره على الذهاب إليه، لكن مجيء مشترٍ إلى الدكان أخر ذهابه. طلب منه علبة سجائر، فناوله إياها، قال له الرجـل وهـو ينقـده شلناً : ما لعينيك يا أبا الخير.؟.

- وماذا بها.؟.. رد بفظاظة وهو يتناول مـن الـدرج قرشين...

- يبدو أنك لم ترتح في النوم.؟.

- يبدو... رد بجفاء أكثر وهو يعيد له الباقي. اسـتدار الرجل نحو الباب، لكن قبل أن يبارحه، أحس بدفعـة قويـة

كادت توقعه على الرصيف، بينما أبو الخير يخرج ملهوفاً :
أبا فؤاد. أبا فؤاد.

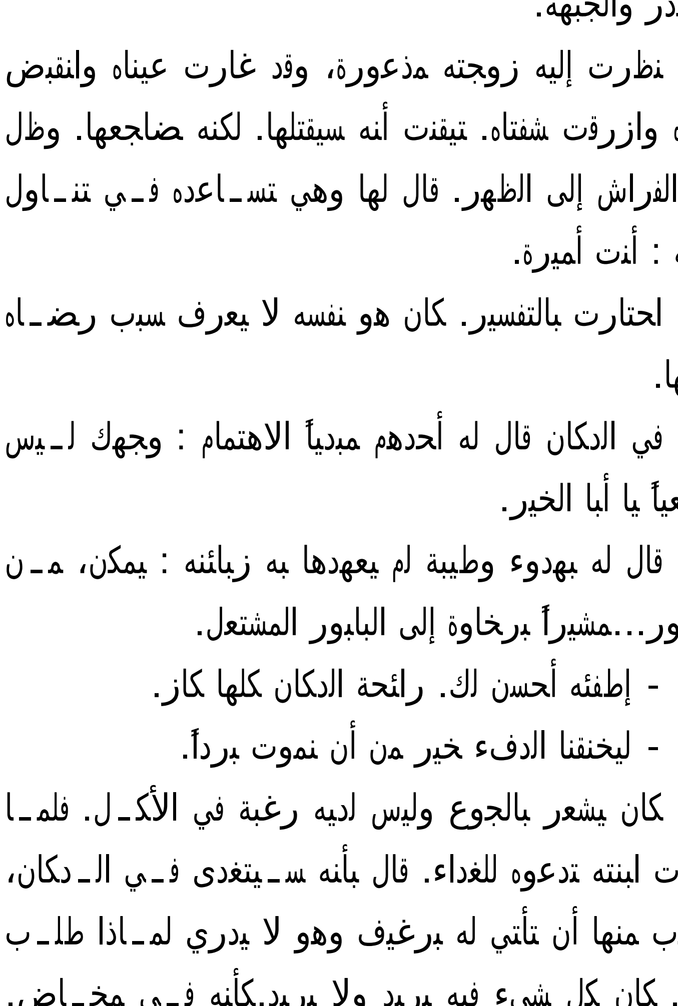
لم يجد تـودده لـه. ولا أفادتـه الاستفسـارت التـي استحضرها فلم يتح له أبو فؤاد مجالاً للأخذ والـرد. كأنـه استعد لهذا اللقاء او توقعه. كل شيء مقضي. لقد دفـع مـا يستحق عليه ودفع سلفاً عن ستة أشهر أجرة البيت الجديـد. لكنه لن ينسى أبداً جار الرضى، أبا الخير، ولن تنسى أم فؤاد أختها أم الخير. وسيظل على تواصل مع الحي الـذي سـعد بالسكن فيه مثلما سعد بالجيرة التي يعتز بها. لن تتأثر علاقة العائلتين الحميمة بهذا الرحيل الذي اضطروا له بسبب ضيق البيت، لاسيما وأن فؤاد على وجه زواج.

هدأت دماثة أبي فؤاد وحلاوة لسانه من تشنج أبي الخير الذي لم تستطع البشاشة المصطنعة إخفاءه. لكن بمجرد ابتعاد أبي فؤاد حتى قال وهو يشد على أسنانه : ا لا يردك.

ظل يحاوص في الدكان عاجزاً عن عمل شيء سـوى التدخين، وصورة أم فؤاد لا تغادر مخيلته. يتساءل حينـاً : لماذا.؟. ويشتمها حيناً : يا بنـت الكلـب.. يضـم أطـراف

أصابعه حيناً آخر وهو يكز أسنانه : مرة واحدة يا أم فؤاد.. ويرجرج راحتيه وهو يقول متشنجاً : حبيبك أنا. حبيبك.

لم يقو على البقاء في الدكان، فأقفل الباب واتجـه إلـى البيت. بمجرد أن داف المبنى راحت أنفاسه تتعالى. تباطأ في أغلاق الباب وهو يحس بالأرض تموج تحت قدميه. لهثـت أنفاسه بغتة وشعر بالدوخة فاستند بذراعيه إلى البـاب وقـد انتابه خوف شديد أنساه أم فؤاد. رفع نظره للأعلى وأعماقـه تستغيث بأم الخير. كان كل شيء بعيداً. أرخى رأسه علـى الباب وهو مغمض العينين. فتحها بعد لحظات فلـم يحـس بالدوخة. لعن الشيطان وهو يسترد هدوءه وأنفاسه. من غير وعي أزلج الباب، وهو ما لا يفعله نهـاراً. تقهقـر خطـوة وتوقف. عادت أم فؤاد تستحوذه. هـز رأسـه نفيـاً. لـيس معقولاً. لو فعلها صباحاً وزوجها في المنزل : جئت أشـرب فنجان قهوة. أخذ يرتقي الدرج ببطء متناه : لا. لا. توقـف قبل وصول المصطبة. تنفس بعمق فأخفق بالاستشهاق. أحس بصدره ينكمش في جوفه وهو يحط أقدامه على المصـطبة : لا. لا... كان هناك شيء ما، قوة ما تجتذبـه إلـى البـاب ولسبب خفي كان يقاومها. أشاح عن الباب كأنه يخافه. ما أن



استدار نحو الدرج حتى أسرع يرتقيه، فوصله لاهثاً متعرق الصدر والجبهة.

نظرت إليه زوجته مذعورة، وقد غارت عيناه وانقبض جلده وازرقت شفتاه. تيقنت أنه سيقتلها. لكنه ضاجعها. وظل في الفراش إلى الظهر. قال لها وهي تساعده في تناول ثيابه : أنت أميرة.

احتارت بالتفسير. كان هو نفسه لا يعرف سبب رضاه عليها.

في الدكان قال له أحدهم مبدياً الاهتمام : وجهك ليس طبيعياً يا أبا الخير.

قال له بهدوء وطيبة لم يعهدها به زبائنه : يمكن، من البابور...مشيراً برخاوة إلى البابور المشتعل.

- إطفئه أحسن لك. رائحة الدكان كلها كاز.

- ليخنقنا الدفء خير من أن نموت برداً.

كان يشعر بالجوع وليس لديه رغبة في الأكل. فلما جاءت ابنته تدعوه للغداء. قال بأنه سيتغدى في الدكان، وطلب منها أن تأتي له برغيف وهو لا يدري لماذا طلب ذلك. كان كل شيء فيه يريد ولا يريد.كأنه في مخاض.

احتار ماذا سيأكل بعدما جاءته ابنته بالرغيف. استقر أخيـراً على معلبة بولابيف. أكلها في لقم كبيرة ازدردهـا ابتلاعـاً. أحس بالشبع ولم يستطعم المذاق. استقيأ بعد ذلك بلغماً ملأ به في وقت قصير بكيت سجائر فارغ وظل صدره ثقيلاً يخرخر مثل بوري مختنق بالسخام.

أطفأ البابور عصراً وأقفل الدكان بعد المغرب بقليل. لم يكن يرغب في شيء ولا يريد أن يرى أحداً. تناول عشـاءه باكراً وعلى عجل. استغرب من شراهته. كأنه لم يأكل منـذ أيام. خاطب زوجته متعجباً : إلى هذه الدرجة جائع.!.

- صحتين.
- وبردان.
- خلّيك بجانب الصوبة.
- أريد أن أنام.

نام سريعاً. لكنه ظل طيلة الوقت يتقلب فـي الفـراش. تارة يجفل وهو يحس بوخزة كالطعنة في عمـوده الفقـري. وتارة يحس أن أنفاسه اختطفت او أن قلبه قد انتزع.

عندما جاءت زوجته للمخدع وجدته متدثراً حتى الرأس، فاندست بهدوء تحت الغطاء وما أن اسـتدفأ جسـدها حتـى

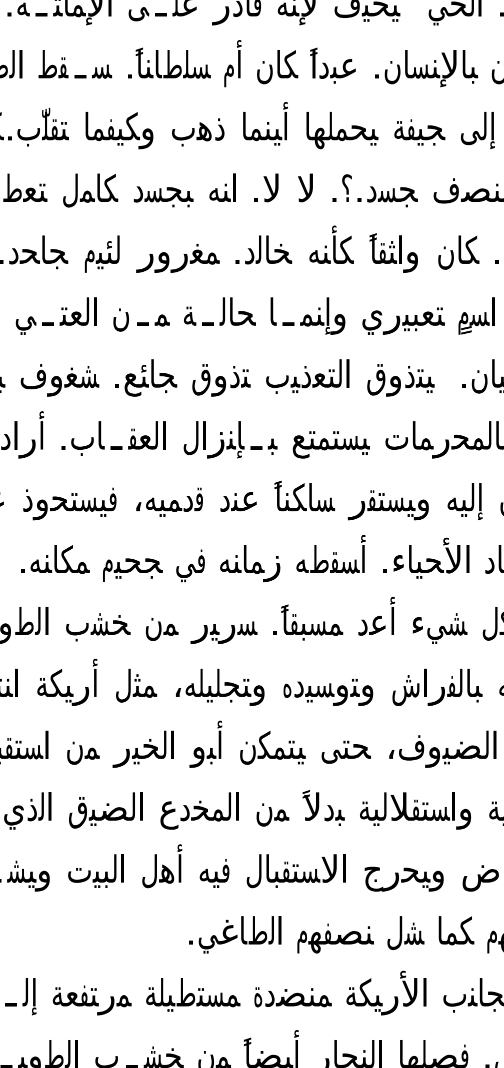
واتاها الكرى رغم شخيره وخرير صدره . كانـت السـاعة حوالي العاشرة، عندما هبت مذعورة وهو يشد عنها الغطاء. في دقائق دوى صوتها في الجوفة : خير. خير.

الفصل الثالث

١

العقاب أولى بالضرورة. خُلق الشيطان قبـل الإنسـان وسبقت الجنةَ النار. وطالما أن ا قادر على إماتـة نصـف الإنسان فهو قادر على شلّ الشيطان. هل سـتتبدد عنـدها قدرات الشيطان وينتصر خير الإنسان.؟. لا لا. لن ينتصـر هذا ولن يتبدد ذاك. العداوة معادلة الوجود. لكن ربما تتغيـر الأدوار. يتجهنم الفردوس ويتفردس الجحيم. كلمات كلمـات كلمات. يستدل بها على الأفعال ولا تشتمل على الأحـداث. من سيكون شبح مسرحيته لو كتبهـا شكسـبير.؟. أمـه أم أبوه.؟.ولماذا لا يعاقب الشيطان بدلاً من أن يعاقب الإنسـان بسبب الشيطان. القدر شبح والإنسان هو الشيطان. عليـه ان يأخذ الأمر بجدية، فا قادر على كل شيء

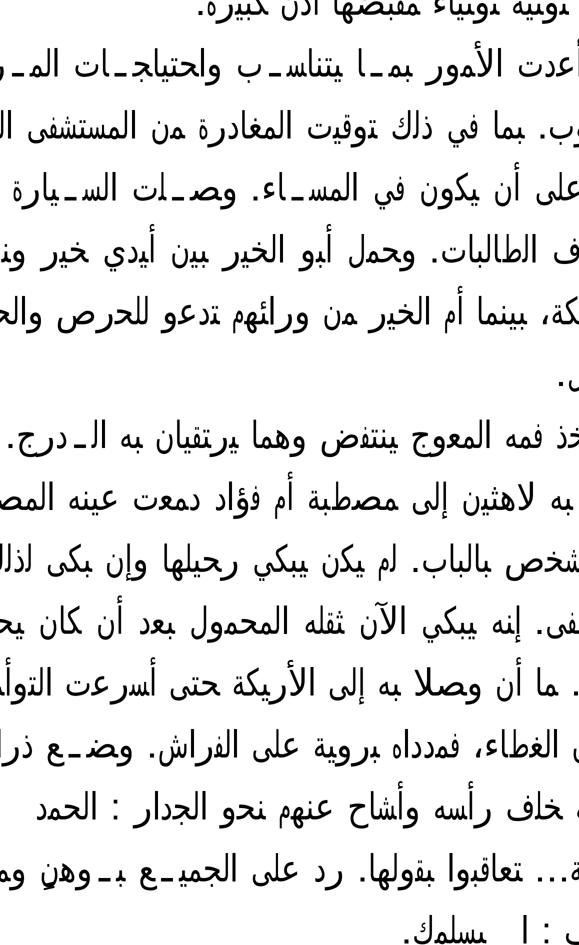
هل سيسترحم أبوه ويستغفر أمه.؟. هل سـيعترف لـه شبحه عن سبب الحقـد ومصـدر القسـوة ويدفعـه للثـأر والانتقام.؟.هل كان شكسبير عربياً حتى يسلطن الأبـاء فـي الحياة وبعد الممات.؟. من اختلق اسطورة الأشباح.؟. لو كان للميت شبح لحمل جثته بنفسه. الموت وليس الميت هو الـذي



يخيف. الحي يخيف لإنه قادر علـى الإماتـة. ا يخيـف الإنسان بالإنسان. عبداً كان أم سلطاناً. سـقط الطاغيـة وآل نصفه إلى جيفة يحملها أينما ذهب وكيفما تقلّب.كيف سيكون حاله بنصف جسد.؟. لا لا. انه بجسد كامل تعطـل نصـفه العامل. كان واثقاً كأنه خالد. مغرور لئيم جاحد. لـم يكـن مجرد اسمٍ تعبيري وإنمـا حالـة مـن العتـي والجبـروت والطغيان. يتذوق التعذيب تذوق جائع. شغوف بالاستعراض منيع بالمحرمات يستمتع بـإنزال العقـاب. أراد أن ينتهـي الزمان إليه ويستقر ساكناً عند قدميه، فيستحوذ على الحيـاة باستعباد الأحياء. أسقطه زمانه في جحيم مكانه.

كل شيء أعد مسبقاً. سرير من خشب الطوبار، بدا بعد تغطيته بالفراش وتوسيده وتجليله، مثل أريكة انتصبت فـي غرفة الضيوف، حتى يتمكن أبو الخير من استقبال عائديـه بأريحية واستقلالية بدلاً من المخدع الضيق الذي تتكوم فيـه الأغراض ويحرج الاستقبال فيه أهل البيت ويشـل نصـف حركتهم كما شل نصفهم الطاغي.

بجانب الأريكة منضدة مستطيلة مرتفعة إلـى مسـتوى الفراش. فصلها النجار أيضاً من خشـب الطوبـار وجللهـا



غطاء أبيض من جميع الجهات، ووضع فوقها طاسة ألمنيوم جديدة وصدفة بحرية كبيرة، وعلى الأرض اختفت خلف الغطاء نونية توتياء مقبضها أذن كبيرة.

أعدت الأمور بما يتناسب واحتياجات المريض المرهوب. بما في ذلك توقيت المغادرة من المستشفى الذي أصر على أن يكون في المساء. وصلت السيارة بعد انصراف الطالبات. وحمل أبو الخير بين أيدي خير ونذير المتشابكة، بينما أم الخير من ورائهم تدعو للحرص والحذر والتمهل.

أخذ فمه المعوج ينتفض وهما يرتقيان به الدرج. لما وصلا به لاهثين إلى مصطبة أم فؤاد دمعت عينه المصابة وهو يشخص بالباب. لم يكن يبكي رحيلها وإن بكى لذلك في المستشفى. إنه يبكي الآن ثقله المحمول بعد أن كان يحمل الأثقال. ما أن وصلا به إلى الأريكة حتى أسرعت التوأمان تزيحان الغطاء، فمدداه بروية على الفراش. وضع ذراعه السليمة خلف رأسه وأشاح عنهم نحو الجدار : الحمد على السلامة... تعاقبوا بقولها. رد على الجميع بوهنٍ ومذلةٍ وضعف : ا يسلمك.

- أركضي أجلبي له شربة ماء... قالت أم الخير بنبرة آمرة، فاستدارت الصغرى. لكنها قبل أن تتحرك اسـتوقفتها أمها بنبرة حازمة موبخة : أين ذاهبة.؟. خـذي الطاسـة... اختطفتها وغادرت مسرعة.

- أريد سيجارة... قال أبو الخير بمسكنة.

- هل نسيت قول الدكتور.؟.. قالت أم الخير مؤنبة.

- سيجارة واحدة... كأنه يستجدي الماء.

- إذا واحدة بسيطة... قال نذير، وهـو يخـرج علبـة سجائره.

تساعدت وخير على رفع ظهره وإسناده بالوسائد. اشعل له نذير سيجارة وقربت أم الخير إليه الصدفة. بينما سـحب أبو الخير من سيجارته سحبة أحسها تنساب فـي شـرايينه مهدئة أعصابه وباعثة فيه خدراً سريعاً لذيذاً.

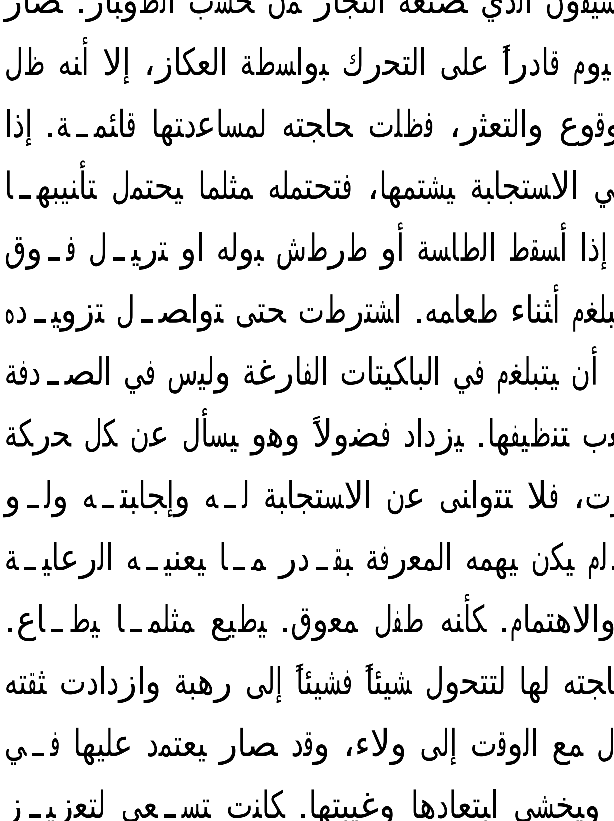
أشعل نذير سيجارة، ومد البكيت محاذراً إلى خير الذي نهره بنظرة والتفت إلى أبيه سريعاً. كان يسحب من سيجارته وهو مغمض العينين. جاءت التوأم بالطاسة. تناولتهـا أمهـا وقربتها من فم أبي الخير الذي كان يجد صعوبة في ابـتلاع الماء. سال بعضه من الجانب المنحـرف لفمـه وامتصـت

الحركة والرطوبة الخدر اللذيذ الذي انساب فيـه للحظـات. بينما خير يختلس النظر إليه ويشيح عنه كلما رفع رأسه عن الطاسة كأنه يطلب استراحة. تشردق وهو يحاول أن يقـول، الحمد ، وما يزال الماء في فمه. وضعت أم الخير الطاسة على المنضدة وتركته يسعل للحظات. أخذت منه السـيجارة وقالت وهي تمسح له فمه بطرف الغطاء : الدكتو قال، يجب أن لا تدخن... سحقت السيجارة في المنفضـة. شخصـت العيون جميعاً به. أذهلهم ردة فعله وهو يستجدي برخـاوة : كم سحبة يا بنت الحلال.

- ولا سحبة. شوف ماذا فعل بك التدخين.

منذ ذلك اليوم، بل منذ تلك اللحظة، تولـت أم الخيـر الزمام، مبتدئة عهداً جديداً منهية فيه عهد أبي الخير دون أن تنهي أمره. حياته مهمة بالنسبة لها، فهي لن تسمح أبـداً أن يحل أحد محله.

تسارع إلى تلبية حاجاته والاستجابة لطلباتـه، وتأتيـه بالأكل والشرب إلى مستقره. تساعده في النهوض والاستلقاء والنوم وتطعمه وتسقيه. لا تمل حمل النونية وهو يتبول، ولا يتعبها اتكاؤه عليها في الذهاب إلى المرحاض وإجلاسه على



كرسي السيفون الذي صنعه النجار من خشب الطوبار. صار يوماً بعد يوم قادراً على التحرك بواسطة العكاز، إلا أنه ظل يخشى الوقوع والتعثر، فظلت حاجته لمساعدتها قائمـة. إذا تأخرت في الاستجابة يشتمها، فتحتمله مثلما يحتمل تأنيبهـا وتوبيخها إذا أسقط الطاسة أو طرطش بوله او تريـل فـوق ثيابه او تبلغم أثناء طعامه. اشترطت حتى تواصـل تزويـده بالسجائر أن يتبلغم في الباكيتات الفارغة وليس في الصـدفة التي يصعب تنظيفها. يزداد فضولاً وهو يسأل عن كل حركة وكل صوت، فلا تتوانى عن الاستجابة لـه وإجابتـه ولـو باقتضاب.لم يكن يهمه المعرفة بقـدر مـا يعنيـه الرعايـة والانتباه والاهتمام. كأنه طفل معوق. يطيع مثلمـا يطـاع. اشتدت حاجته لها لتتحول شيئاً فشيئاً إلى رهبة وازدادت ثقته بها لتتحول مع الوقت إلى ولاء، وقد صار يعتمد عليها فـي كل شيء ويخشى ابتعادها وغيبتها. كانت تسـعى لتعزيـز شعوره بالحاجة إليها وعدم قدرته عن الاستغناء عنهـا عـن طريق ابنتيها اللتان كانتا ترددان أمامه على الدوام، أنه لولا رعايتها لأكلهما الدود قبل أن يأكله، فيزداد إيماناً بها وهـو ينكمش مع الوقت إلى طفلٍ صغيرٍ لا حول له إلا أن يطلب

بلسانه ولا قوة عنده غير دلاله وهو يعدها بالمبنى ويتوعـد أمامها خير بحرمانه من الميراث. امتدت هيمنتها إلى خيـر الذي كانت تلومه أمام الناس لعدم عنايته بأبيه وقسوته علـى شقيقتيه وعدم مراعاته لعذابها وهي تخدم الرجـل العطيـل. لكثرة ما أحرجته من صعوبة تحميمه استجاب لها مرة، فراح أبوه يكيل له الشتائم في الحمام ويدعو عليه ويتمنى أن يصيبه ما أصابه. لم يكن يقصد من إهانته معاداته بـل اسـتبعاده، فطيلة وقت استحمامه وهو يحـس بيـدي خيـر تعصـرانه وتخنقانه وتقضيان على حياته. توعد خير أمه إن أحرجتـه مرة أخرى بالحمام، وهددها أبوه أن يملأ لها الصدفة بلغمـاً إن أرغمته عليه.

٢

واظبت أم الخير على عيادة زوجها طيلة فترة إقامته في المستشفى منذ الصباح وحتى الليل. تنضم لها ابنتاها عصراً، ويأتي خير بعد حلول الظلام ليجد خاله نذير سبقه في الحضور. فتعيد أم الخير على مسامعه ما أخبرته للآخرين من تشخيص الأطباء للحالة وكيفية التعامل مع إبيه بعد خروجه. يجب أن يتوخوا الحذر في نقله وتنقله، كما يحظر عليه التدخين نهائياً. وكان أبو الخير يصغي لها وهو مغمض العينين شاحب الوجه مكتئباً حزيناً.

بعد تحويله من العناية المركزة ، زاره أبو فؤاد مرتين. في الأولى اعتذر عن عدم مجيء زوجته التي تخاف المستشفيات، وفي الثانية جاءه مودعاً طالباً منه السماح أن صدر عنه يوماً أية إساءة. علّقت أم الخير حينها : أنتم سامحونا يا أبا فؤاد. وا ما مر علينا جيران أفاضل مثلكم... لكن أبا الخير لم ينطق ببنت شفة، ولا نظر إلى أبي فؤاد وهو يقبله من وجنتيه مودعاً. كانت نقمته عليه كبيرة. صرخت داخليته أكثر من مرة : ا لا يسامحك لا دنيا ولا آخرة يا أبا فؤاد. في قرارة نفسه كان مغتبطاً لعدم مجيء أم

فؤاد. سيشل نصفه الثاني إن رأته بهذه الحالة. عندما أخبروه عن رحيلها، أحزنه ذلك وأبكاه، لكنه أيضاً أحـس بارتيـاح. ترحل وفي ذهنها صورته المشرقة القوية خير من أن تشاهده مشلولاً بنصف جسد.

عندما أفاق من غيبوبة الوقعة قال لزوجته كالمخمور : سوف أميت الجوفة بأسرها معي... قالها بلسان ثقيـلٍ وفـم مرتخٍ معوج. هدأت منه قائلة أن المهم خروجـه بالسـلامة، وعليه أن يتقبل أمر ا . تساءل نافياً وأجاب مؤكداً : ومـاذا حصل لى.؟. لم يحصل شيء... في لحظات احـتقن وجهـه وازرقّ لونه وتشنجت عضلات وجهه وغارت عيناه وازداد ضمور أعضائه المشلولة وانقبضت أنفاسـه، فأسـرع إليـه الأطباء، يركزون له العناية ويعيـدون إلـى فمـه أنبـوب الأكسجين، بينما أم الخير ترد على استفساراتهم كالمخبولة : لا أدري. فجأة صار هكذا...

ظلت إلى جانبه في العناية المركزة. عاد إلى وعيه بعد وقت قصير بينما ممرض ينزع عنه ثوبـه وآخـر يسـحب الشرشف من تحته. سأل بخوف عما يفعلاه. ردت أم الخيـر بسرعة : يغيران الشراشف... لكن أحد الممرضين عبر عن

ضيقه باستياء : شخيت تحتك يـا حـج... تلقـى الكلمـات كالقذيفة. نظر إلى زوجته بانكسار وقد اصفر وجهه وارتخى فمه. ما أن غادر الممرضان، حتى انفجر في البكاء.

في اليوم التالي، تأكد للأطباء استقرار حالته فـأوعزوا بنقله إلى غرفة في الدرجة الثانية يشاركه فيها ثلاثة مرضى حالاتهم متباينة كما أخبروا أم الخير التي استفاضت في شرح حالة زوجها وهو مصغ مغمض العينين.

في الأيام التالية اكتشفت أنه فقد أكثر من نصف جسده، إذ صار يتحدث أحياناً كالطفل ويعلّق برعونة على الـزوار ويمازح الممرضين ويتدلل عليهم ويرجوهم سيجارة ويتمادى في إلقاء الأوامر السخيفة التي تشغل أم الخير طيلة الوقـت مداعباً إياها متغزلاً بها وهي تقوم على خدمته، دون أن يبدو عليه الحرج من انكشاف عورته وهي تضع له المبولة علـى مرأى من النزلاء والزوار، ولا يضيره تعابير القـرف فـي وجوههم وهو يتفتف كلما نطق فمه الملتوي بالأمر او المزاح او التعليق. فتسرع أم الخير لمسحه وتنظيفه وهي تبتسم لـه مرحة، فيشكرها وهي التي لم تكـن تلقـى سـوى تعنيفـه، ويتغزل بها وهي التي كانت تستسلم لعناقه بعد عقابـه. أمـا

الآن، وإن ظل يحدثها بنبرة آمرة وصوتٍ عالٍ، إلا أنه يخاطبها حيناً باسم أميرة، وحيناً ست الستات. وإن غابت قليلاً يتلوى في سريره وهو يسأل عنها بضيق : أين ذهبت أم الخير.؟.

قال له نذير بنبرة عتاب لا تخلو من بهجة : عرفت قيمتها الآن.؟.

- إخرس أنت. لا تتدخل بين البيضة وقشرتها... هدأت أم الخير من استياء أخيها وهي تسر له هامسة : عقله ليس مثل أول.

اقتنعوا جميعاً بذلك، باستثناء خير الذي اعتبر سلوكه بمثابة استسلام ليس هو طرفاً فيه، فأبوه لم يكن ينظر إليه او يحادثه او يشير له بكلمة. ينكفىء على نفسه بمجرد وصوله، ويحجم عن الحديث إلا قليله ويغمر وجهه العبوس، وإذا سأله عن حاله يجيب باقتضاب. ماشي. الحمد   . كل شيء من ربنا مليح. وأحياناً يتجاهله إذا كان مغمضاً عينيه.

في أحدى المرات، سأله الممرض إن كان يحتاج شيئاً، فقال أبو الخير بلهفة صبي : سيجارة. سيجارة واحدة.

- أحسن. هل تريد أن تفصلني من عملي.؟.

ما أن غادر الممرض، حتى أخرج خير علبة الـ دخان. جحظت به عيون الموجودين، وقالـ ت أمـ ه بصـ وتٍ حـ ادٍ متشنج : خير. أبوك.

حملق به أبوه هذه المرة بوجه محتقن وهو يكـ ز علـ ى أسنانه بينما خير يشعل السيجارة ويمدها نحو يده السـ ليمة . فنفض أبوه يده بعصبية. ناولها لأمه : أعطيه إياها.

- والدكتور.!.

- بلا دكتور بلا بطيخ. سيجارة لن تفعل شيئاً... كانت لهفة أبي الخير للدخان الذي عبق في أنفاسـ ه أقـ وى مـ ن الشعور بالكرامة والإحساس بالإهانة. أشاح عنه وهو يقـ اوم رغبته الجامحة التي يكاد انفجارها يخضعه ويجعله يقبل في سبيلها التمرد على سطوته وسلطانه. بكيت. بكيت يخرجـ ه من جيبه على المكشوف. لكنه قبل أن ينتصـ ر لكرامتـ ه او يخضع لحاجته، حسم الأمر : خذ... قالت أم الخيـ ر وهـ ي تضع السيجارة بين شفتيه : سحبة واحدة هه... سحب منهـ ا سحبة أرخت له عضلات وجهه وحولت عبوسه الهائل إلـ ى ارتياح أقرب إلى الإشراق وأشار لزوجته بأصابعه فمدتها له ثانية. في اليوم التالي أشعل خير له سيجارة وواحدة لنفسه .

تلك الليلة دعا نذير شقيقته وابنتيها للعشاء عنده. دعا خير أيضاً، لكن ببرود. اعتذر خير باقتضاب مفوتاً على نفسه لقاء أقرب إلى اجتماع انضمت له أم عناد وابنها الذي امتلأ وجهه بالبثور. مع هذا ظل بهياً في اشقراره ونصاعة لونه القريب من لون أمه. لما لاحظه نذير منتبهاً بكل أحاسيسه للحديث، غمز الصغرى مشيراً برأسه إلى عناد ونافضاً إياه جهة الباب. سألته بمودة أن يريها غرفته، فرافقها على مضض وعيناه تراوحان بينها وبين الباب. أغلقته وتربعت معه على الأرض وأخذت تمازحه وتلاعبه بحركات صبيانية تحولت سريعاً إلى تساؤلات فضولية وهي تستفسر منه عن عضلاته وتتحسسها، وتقارنها بصدرها وهي تدعوه لتلمسها. بينما يتولى نذير في الصالة دفة الحديث الذي تضمن تساؤلات أكثر من التفسيرات.

اتفقوا في النهاية على تجهيز أريكة لأبي الخير في غرفة الضيوف يستريح فيها ويستقل ويستقبل عواده إلى أن تتحسن حالته. وطالما أن الوضع مؤقت، فليس من الحكمة شراء سريرٍ مفردٍ أو أريكة والتسوية مليئة بخشب الطوبار.

كأنهم بذلك كانوا يفكرون بالنيابة عن خير، الذي تـولى الأمر برمته. أحضر نجاراً انتقى أجود ألواح الخشب وأقلهـا استعمالاً لصنع أريكة ومنضدة حسب طلب أمـه وتوصـية خاله. لم يخبرهما عن التكلفة إلا مع انتهاء الورشـة التـي استمرت نحو أسبوع. عمل النجار خلالها على تثبيت رفوفٍ من ألواح الطوبار العريضة على امتداد جدران التسوية، كما صنع ثلاث حاملات للرقع تتحرك بفصـالات إضـافة إلـى سرير وأريكتين للزوار وثلاث مناضد إضافية. عمل أيضـاً باباً للتسوية من لوح الزينكو وخشب الطوبار حملته فصالات كبيرة ثبتت في الفتحة بعوارض سميكة، فغدا للتسوية بـاب وقفل ومفتاح. جاء بعامل رفع الطوب على شكل زاوية تقابل الزاوية الأخيرة في المدخل سقفها بما تبقـى مـن أخشـاب وغطى فتحة بابها بغطائه القديم، فصار للتسوية مرحـاض، انتقل إليه السطل الداخلي بكرسيه.

في الأثناء مد سلكاً كهربائياً طويلاً أوصله مع العداد في الطابق الثالث، فأنيرت التسوية بالكهرباء. ولم يبق عليـه إلا أن يوصل لها الماء. لكنه قبل ذلك، عمل جاهداً ولأيام عديدة في تنظيف الأرضية وتمهيدها، كذلك نظف الصوبة القديمـة

وغسلها بالكاز ونفض بواريها ونصبها على شـكل زاويـة قائمة تمتد من طرف النافذة إلى جانب الفـراش، فاسـتدفأت التسوية بخشب الطوبار الذي صار يحرقه بإسـراف وهـو يسخّن الماء ويغلي القهوة والشاي ويحمص الخبـز ويطـبخ الطعام. وبعد ذلك استحوذ على بريموس الدكان، فتيسـرت أموره المعيشية وأصبحت التسـوية قـادرة علـى اسـتقبال الزوار.

رتب أغراضه ومستلزمات رسـمه علـى رفٍ فـوق السرير، ووزع لوحاته على باقي الرفوف وغطى المناضـد بالجرائد القديمة قبل أن يستّف فوقها كتبه. في سكون الليـل يتجول في التسوية التي اكتشف بعد تفريغها مـن الخشـب وتنظيفها وترتيبها أنها أوسع من مشـغل ديكـران. تصـلح معرضاً ومرسماً ومسكناً ومضافة، وهو يدير نظـره فـي أرجائها بمرحٍ وفرحٍ وغبطة. كأنه ربحها باليانصيب.كانـت المرة الأولى التي يحس فيها بالامتلاك. تماماً مثلما أحسـت أمه وهي تفتح الدكان وتستولي على النقود المحفوظة بالدرج بحجة دفع مصاريف المستشفى كما أخبرت زوجهـا الـذي

أجازها مشترطاً : اعملي ما ترينه مناسباً. لكن إياك أن يدخل خير إلى الدكان.

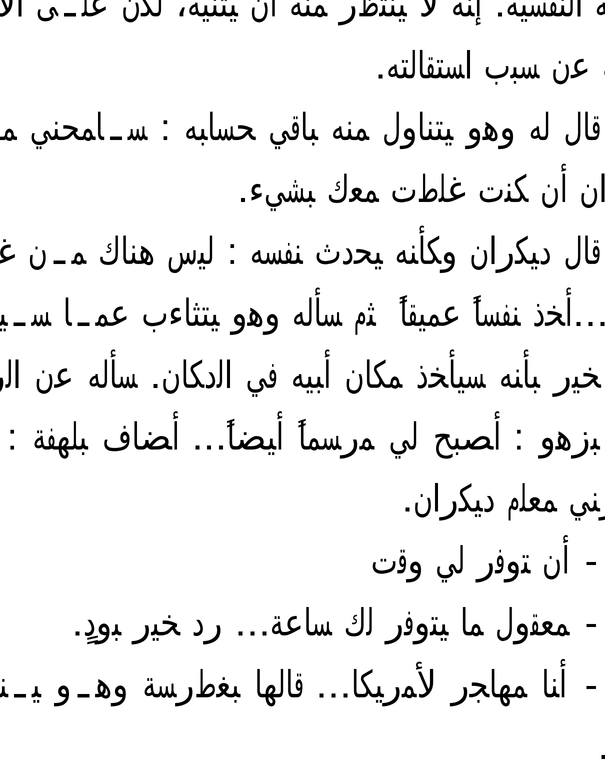
إلا أنها لم تستطع أن تحول دونه. قال لها بعصبية : لا تجعليني أعصب... صرخ بها صرخة أجفلتها : مـن أيـن سـتعيشون.؟. هل ستبيعين أنت وبناتك فيها.؟.

- لكن أباك...

قاطعها بعصبية : أبي. أبي. أنت تعرفين بأن عقله ليس كالسابق... أشار عليها بإصبعه : أنت قلت ذلك... أضاف : إذا لم تشتغل الدكان، فمن سيصرف عليك أنت وبناتك.؟.

كانت أمه تظن بأنه يريد الاسـتيلاء علـى محتويـات الدكان، لهذا قامت بحمل ما استطاعته قبل أن تعطيه المفتاح. بينما كان خير لا يعبأ بالبيع ولا الشراء. كان أبوه يعي ذلـك أيضاً. فالماضي الكامن في داخل كل منهما كان يضغط بقوة على صاحبه للاستحواذ على الموقع ما أمكن او إبعاد الآخر عنه. ففي هذا الموقع تتحقق الهزيمة والنصر على السواء.

كان خير قد طلب إجازة من ديكران في اليوم التـالي لمرض أبيه وأخبره عن حالته، فسمح لـه ديكـران دون أن يبدي اهتماماً او اكتراثاً. عندما جاءه مستقيلاً يوم خروج أبيه



من المستشفى، أصابه برود ديكران بالخيبة رغم إدراكه التام لحالته النفسية. إنه لا ينتظر منه أن يثنيه، لكن على الأقل يسأله عن سبب استقالته.

قال له وهو يتناول منه باقي حسابه : سامحني معلّم ديكران أن كنت غلطت معك بشيء.

قال ديكران وكأنه يحدث نفسه : ليس هناك من غلط مثلي...أخذ نفساً عميقاً ثم سأله وهو يتثاءب عما سيفعل، فقال خير بأنه سيأخذ مكان أبيه في الدكان. سأله عن الرسم، فقال بزهو : أصبح لي مرسماً أيضاً... أضاف بلهفة : لازم تزورني معلم ديكران.

- أن توفر لي وقت

- معقول ما يتوفر لك ساعة... رد خير بودٍ.

- أنا مهاجر لأمريكا... قالها بغطرسة وهو ينهض واقفاً.

عندما أخبر موفق بالأمر وجده على علمٍ به، وأضاف لمعلوماته أن ديكران أسقط قضيته في المحكمة تحت ضغط الجالية الأرمنية الذين اعتبروا لجوءه للقانون اختراقاً لتعاضدهم وخروجاً على تقاليدهم مما أضعف موقفه في

القضية الأخرى التي تنظر بأمرها الكنيسة. أضاف موفـق : لو لم تقدم استقالتك، لكان استغنى عنك من تلقاء نفسه. إنـه الآن يصفي أعماله ويعرض أملاكه للبيع.

علّق خير بنزق : يعني فكرك، صار ا يحبني.؟.

حمل من المكتبة كل أغراضه وخطّياته ورسوماته، بما في ذلك لوحة الاستعراض التي حاول موفق جاهداً أن يقنعه بإبقائها معروضة في الواجهة. كما اشترى بعض مستلزمات الرسم، نقلها مع أغراضه الأخرى في سيارة أجرة توقفت به أمام البيت.

أفرغها على الرصيف، ثم نادى التوأمين لتساعدانه في نقلها إلى التسوية، فاستجابتا على مضض. صعد إلى البيـت بعد انتهائه، فوجد نذير وعدداً من الجيران. حياهم باستعلاء، فردوا بجفاء. نظر إلى أبيه المسجى فوق الأريكـة : كيـف الوضع أبا الخير.؟... قال مازحاً.

- أسكت يا خالي... رد نذير... وأسترسل : أبوك اليوم تمام التمام. أخذته مع أمك إلى الحمام وعمل ما يستطيعه..

- أوف. ممتاز... وبنبرة حازمة : لكن يلزمه ديرة بال خالي هه.

- لا نحتاج توصية... وإلى أبي الخير : كم أبو الخيـر عندنا.؟...

- ا يخليك... قال أبو الخير بوهن.

سأل نذير خير ببشاشة : كيف الشغل.؟.

قلب كفه رافعاً إبهامه ومسدداً السبابة جهـة أبيـه : أي شغل هذا. خاص. سأتفرغ للدكان.

نظر الجميع لأبي الخير وقد احتقن وجهـه وغـارت عيناه. ساد صمت قصير اخترقه مجـيء أم الخيـر تحمـل الشاي : أهلاً وسهلاً... قالت وتناول نذير منهـا الصـينية. استدارت، فاستوقفها خير بينما ينثني نذير بالصـينية أمـام أحدهم : كم تريدين أيجاراً لبيت أم فؤاد.؟.

ارتجت الصينية في يد نذير وبلع ريقه. بينما أدار أبـو الخير وجهه إلى خير وأمه معاً : ما أدرانـي.؟. هـا هـو أبوك... وأطرق الجالسون.

- أنا أقول أن الإيجار التي كانت تدفعه أم فؤاد قليل... همت بالرد وتأهب أبوه، فأضاف بسرعة : على كـلٍ، هـذا شيء خاص بكم. أنا شغلي أعلق آرمة في الدكان أنه عنـدنا بيت للإيجار.

انسحب الزائرون على التوالي فودعهم نذير إلى الباب. بمجرد عودته قال له أبو الخير برخاوة وهو يشير بإصـبعه إلى خير : لا أريد أن يدخل بيتي.

ارتبكت تقاسيم نذير وترنحت في فمه ابتسامة مهدئـة. حاول أن يرد لكن تدخل خير عقد له لسانه : يا أ ... قـال خير وهو يضرب على جبهته ونظر إلى نـذير : صـدقني نسيت أنه حالف على أختك يمين... تكتف وتسأسأ بينما شع الخوف في وجه أبيه وانتفض فم نذير الذي غمره الذهول.

كان ذلك آخر احتجاج من أبي الخير على وجود خيـر في البيت والدكان. أخبر نذير شقيقته بمـا جـرى، فـلاذت بالصمت ولم تثر الموضوع ثانية. كان أمر الطلاق مرعبـاً للجميع باستثناء خير.

مع الوقت صار بمقدور أبي الخير تحريك قدمه اليسرى والتنقل بها مستنداً على عكازه، وظلت يده اليسرى منكمشـة الأصابع عصية على الحركة. إلا أن برودة الجو وتواصـل الشتاء أرغمه على البقاء داخل المنزل، مع أنه حاول مراراً الخروج وحده إلى المصطبة فتسرع إليـه زوجتـه منبهـة موبخة محذرة إياه من خطر الوقوع. في الغالب تبقي البـاب

الخارجي مقفلاً بالمفتاح بعد أن حاول مرات عديدة استغلال فرصة انفتاحه ومبارحة البيت. تلقى على أثرهـا التـوبيخ والتعنيف واتهمته زوجته بأنه يحاول ابتلاءها أكثر مما هـي فيه، فماذا سيكون عليه حالها لو وقع عـن الـدرج وشـلت حركته تماماً.؟. كان ذلك يخيفه أكثر مما يخيفها، وإن ظـل حنينه إلى المعلمات يجذبه إلى الدكان التي يغلي بسببها قلبـه حقداً على خير.

مع الربيع صار باب البيت يظل مشرعاً على الغالـب، فلم تفلح يقظة أم الخير وانتباهها في ضبطه يوماً وهو يتسلل خلسة، يجر ساقه جراً.

هز رأسه متوعداً وهو يصل مصطبة البيت الذي كانت تسكنه أم فؤاد. تفرس به غاضـباً دون أن يتوقـف، كاتمـاً أنفاسه المتعبة ومجاهداً أن يكون ثابت الخطى كأنـه يثبـت للباب المغلق أنه ما يزال قوياً قادراً كما كان. بسيطة.

أخذت منه المسافة القصيرة حوالي الربع ساعة. مـا أن ظهر في باب الدكان حتى تراخت ركبتا خير وكاد الرعـب أن يسقطه في مكانه. قال لفتاة في مريلـة مدرسـية تقـف بجانبه : روحي. روحي الآن... تابعها أبو الخير بنظـرات

حاقدة والتفت إلى خير ساخطاً متحفزاً كأنه سينقض عليـه، لكن وصول أم الخير حال دون يقظة الماضي : يا شحارنا يا ناس. كيف نزلت إلى هنا.؟!. هل تريد أن تجنني.؟. أمشي. أمشي قدامي... وتهاوى خير فوق الكرسي.

٣

ظل خير محاوصاً متوجساً حوالي الربع ساعة. قـرر بعدها الصعود إلى البيت. وجد أباه يجلس على حافة الأريكة وبين إصبعيه سيجارة قضى على منتصفها بينما أمه تضع له فنجان قهوة على المنضدة. بادرها : أعجبك.؟.

- ماذا أفعل له.؟... ردت أمه بضيق. أضافت : هـل سأترك شغل البيت وأظل أركض وراءه.

- لو وقع عن الدرج، ماذا ستفعلين.؟.

- ستكتمل مصيبتي والحمد .

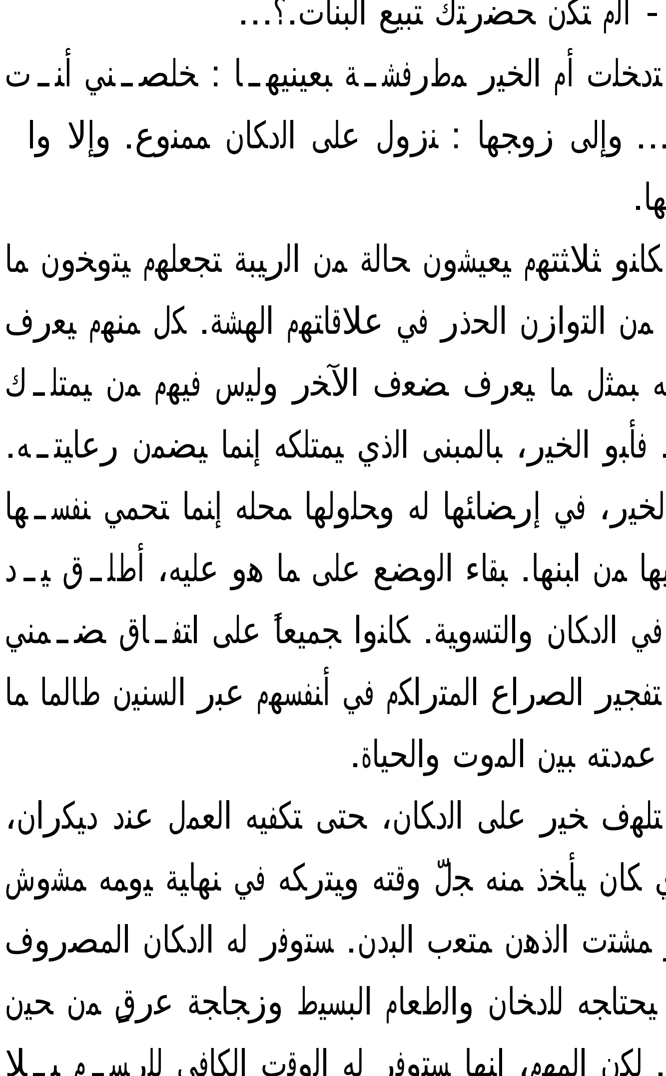
توجه خير بالحديث لأبيه : ما الذي دفعك للنـزول.؟.. أجابت تعابير أبيه ووجهـه الممتقـع وأنفاسـه المتصـاعدة كالشخير.

تدخلت أمه بنبرة موبخة : دخان معك. وكـل طلباتـك تأتي لعندك. لازم يعني تظل تلعب بأعصابي.؟.

فجأة صرخ أبو الخير : من التي كانـت عنـدك فـي الدكان.؟.

- ومن ستكون.؟!. بنت مدرسة تريد الشراء.

- بنت مدرسة.!؟.. ردد أبوه باستخفاف.

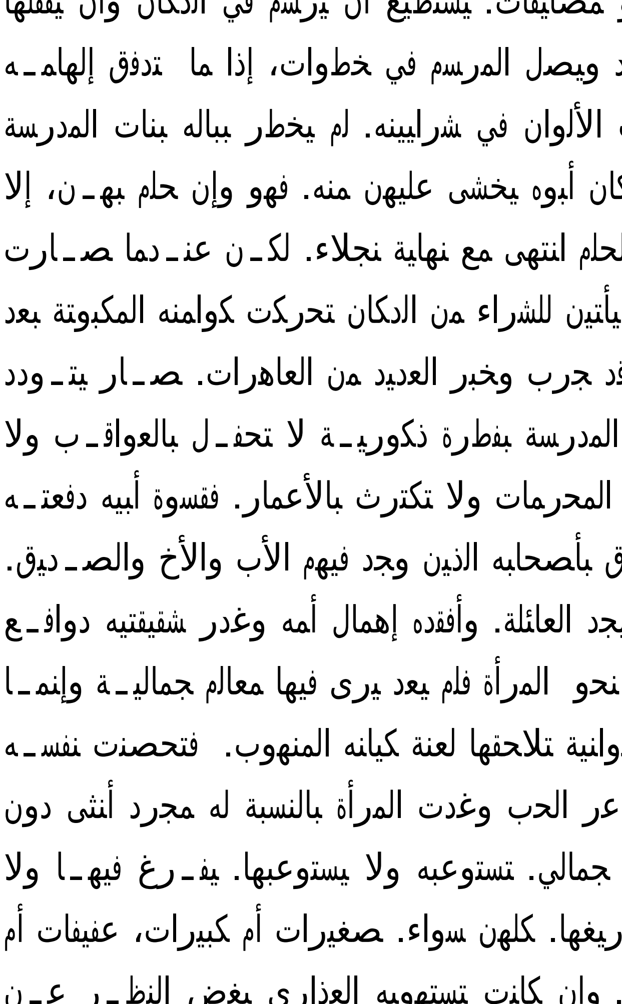


- ألم تكن حضرتك تبيع البنات.؟...

تدخلت أم الخير مطرفشة بعينيها : خلصني أنت وإياه... وإلى زوجها : نزول على الدكان ممنوع. وإلا وا سأقفلها.

كانو ثلاثتهم يعيشون حالة من الريبة تجعلهم يتوخون ما أمكن من التوازن الحذر في علاقاتهم الهشة. كل منهم يعرف ضعفه بمثل ما يعرف ضعف الآخر وليس فيهم من يمتلك القوة. فأبو الخير، بالمبنى الذي يمتلكه إنما يضمن رعايته. وأم الخير، في إرضائها له وحلولها محله إنما تحمي نفسها وابنتيها من ابنها. بقاء الوضع على ما هو عليه، أطلق يد خير في الدكان والتسوية. كانوا جميعاً على اتفاق ضمني بعدم تفجير الصراع المتراكم في أنفسهم عبر السنين طالما ما يزال عمدته بين الموت والحياة.

تلهف خير على الدكان، حتى تكفيه العمل عند ديكران، والذي كان يأخذ منه جلّ وقته ويتركه في نهاية يومه مشوش الفكر مشتت الذهن متعب البدن. ستوفر له الدكان المصروف الذي يحتاجه للدخان والطعام البسيط وزجاجة عرقٍ من حين لحين. لكن المهم، انها ستوفر له الوقت الكافي للرسم بلا

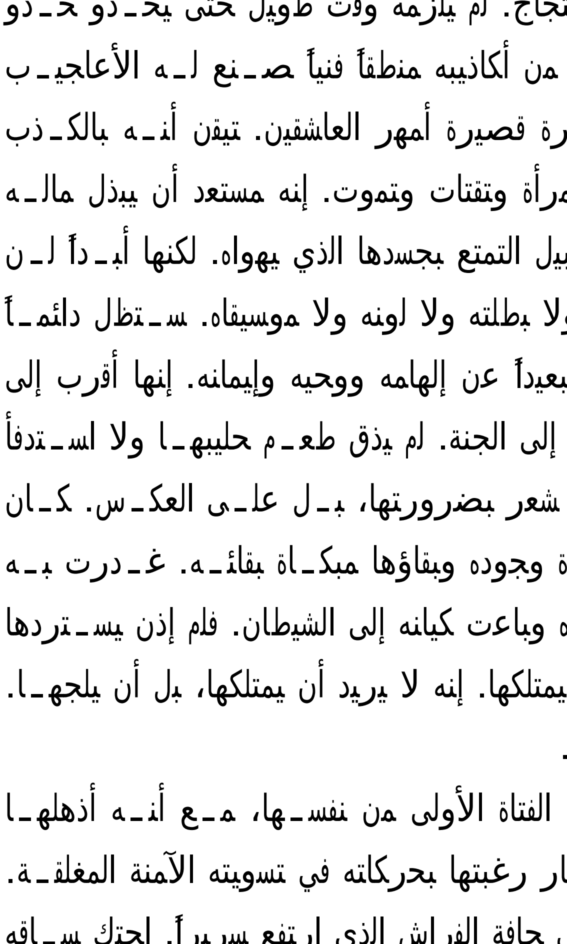


خوف او مضايقات. يستطيع أن يرسم في الدكان وأن يقفلها متى يريد ويصل المرسم في خطوات، إذا ما تدفق إلهامـه وتحركت الألوان في شرايينه. لم يخطر بباله بنات المدرسة اللواتي كان أبوه يخشى عليهن منه. فهو وإن حلم بهـن، إلا أن هذا الحلم انتهى مع نهاية نجلاء. لكـن عنـدما صـارت بعضهن يأتين للشراء من الدكان تحركت كوامنه المكبوتة بعد أن كان قد جرب وخبر العديد من العاهرات. صـار يتـودد لطالبات المدرسة بفطرة ذكوريـة لا تحفـل بالعواقـب ولا تستوقفها المحرمات ولا تكترث بالأعمار. فقسوة أبيه دفعتـه إلى التعلق بأصحابه الذين وجد فيهم الأب والأخ والصـديق. لكنه لم يجد العائلة. وأفقده إهمال أمه وغدر شقيقتيه دوافـع الفضول نحو المرأة فلم يعد يرى فيها معالم جماليـة وإنمـا بؤرة شهوانية تلاحقها لعنة كيانه المنهوب. فتحصنت نفسـه ضد مشاعر الحب وغدت المرأة بالنسبة له مجرد أنثى دون أي معلم جمالي. تستوعبه ولا يستوعبها. يفـرغ فيهـا ولا ينتظر تفريغها. كلهن سواء. صغيرات أم كبيرات، عفيفات أم عاهرات. وإن كانت تستهويه العذارى بغض النظـر عـن أعمارهن، ففي اصطيادهن تمرد على أبيه، وفي افتضاضهن

انتقام من أمه وشقيقتيه. وكان في انجرافه الخطير يعبر عن ذاته المقهورة أروع تعبير وينتقم من ماضيه دونما وازع او ضمير. لم يكن ينتزع رغبته عنوة وإن كان يمارسها بقسوة. فالطفل الذي كان يعبث داخله متلوعاً بالحرمان جعله يقسـو على النساء قسوة الفنان على الألون.

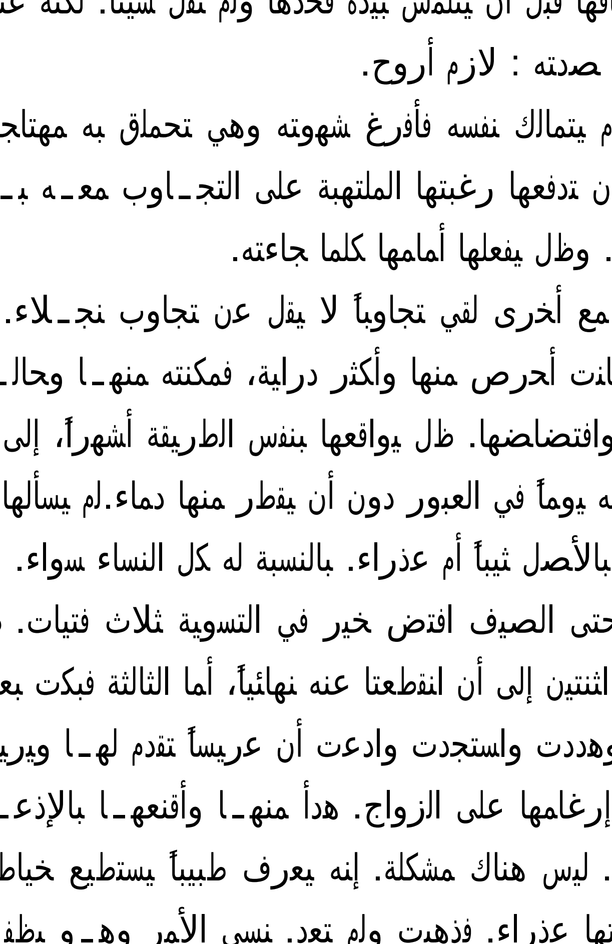
في البداية ترددت طالبات المدرسة على الدكان للشراء، فوجدن بدلاً من الكهل العتي، شاباً رث الثياب واثق الـنفس ساحر العينين. أثار فضولهن برسوماته التي علق بعضها في أرجاء الدكان.

في أقل من أسبوع ذاع صيته بين الطالبات والمعلمات، بعدما استيقظت من النسيان حكاية نجلاء التي سببت نفـور بعضهن وشجعت بعضهن على الإقـدام. أخريـات سـألنه مباشرة عن صحة الحكاية فأبدى استغراباً من مجمل الرواية التي كان بطلها ابن العفيف. وسواء أصدقنه أم لا، فإن بعض المتلهفات على التمرد بدافع الجموح او القصور او الحرمان، استجبن لدعوته وجئن لزيارة المرسم. لم يكن يـدري حتـى لحظتها أن المرأة تتقمص فن الرجل . فلأجـل أن تكـون كلمات قصيدة وبطلة رواية وألوان لوحة او تقاطيع تمثـال،



فإنها على استعداد لأن تقدم ما يطلب منها دونمـا سـؤال او ممانعة او احتجاج. لم يلزمه وقت طويل حتى يحـذو حـذو يحيى ويجعل من أكاذيبه منطقاً فنياً صـنع لـه الأعاجيـب وجعله في فترة قصيرة أمهر العاشقين. تيقن أنـه بالكـذب وحده تحيا المرأة وتقتات وتموت. إنه مستعد أن يبذل مالـه وجهده في سبيل التمتع بجسدها الذي يهواه. لكنها أبـداً لـن تكون كلمته ولا بطلته ولا لونه ولا موسيقاه. سـتظل دائمـاً محط رغبته بعيداً عن إلهامه ووحيه وإيمانه. إنها أقرب إلى الشيطان منها إلى الجنة. لم يذق طعـم حليبهـا ولا اسـتدفأ بعواطفها ولا شعر بضرورتها، بـل علـى العكـس. كـان وجودها مأساة وجوده وبقاؤها مبكـاة بقائـه. غـدرت بـه وتآزرت ضده وباعت كيانه إلى الشيطان. فلم إذن يسـتردها وهو يوماً لم يمتلكها. إنه لا يريد أن يمتلكها، بل أن يلجهـا. فقط أن يلجها.

لم تمكنه الفتاة الأولى من نفسـها، مـع أنـه أذهلهـا برسوماته وأثار رغبتها بحركاته في تسويته الآمنة المغلقـة. جلسا معاً على حافة الفراش الذي ارتفع سريراً. احتك سـاقه



مع ساقها قبل أن يتلمس بيده فخذها ولم تقل شيئاً. لكنه عندما تمادى صدته : لازم أروح.

لم يتمالك نفسه فأفرغ شهوته وهي تحملق به مهتاجـة دون أن تدفعها رغبتها الملتهبة على التجـاوب معـه بـأي حركة. وظل يفعلها أمامها كلما جاءته.

مع أخرى لقي تجاوباً لا يقل عن تجاوب نجـلاء. إلا أنها كانت أحرص منها وأكثر دراية، فمكنته منهـا وحالـت دونه وافتضاضها. ظل يواقعها بنفس الطريقة أشهراً، إلى أن ساعدته يوماً في العبور دون أن يقطر منها دماء.لم يسألها إن كانت بالأصل ثيباً أم عذراء. بالنسبة له كل النساء سواء.

حتى الصيف افتض خير في التسوية ثلاث فتيات. ظل يواقع اثنتين إلى أن انقطعتا عنه نهائياً، أما الثالثة فبكت بعـد فترة وهددت واستجدت وادعت أن عريساً تقدم لهـا ويريـد أهلها إرغامها على الزواج. هدأ منهـا وأقنعهـا بالإذعـان لأهلها. ليس هناك مشكلة. إنه يعرف طبيباً يستطيع خياطتها وإعادتها عذراء. فذهبت ولم تعد. نسي الأمر وهـو يظفـر بطالبات المدارس ويصطاد المغرمات بأفلام السينما ويوقـع بالمتسوقات ويلتقط السائحات من مداخل الفنـادق وأطـلال

الآثار، حتى غدا اسمه على كل لسان وصار يطـرق بابـه جحافل من المتوددين. كبار وصغار. أغنياء وفقراء. غرباء وأقرباء. يأتون بالطعام والشـراب والـدخان والمخـدرات. ينظفون التسوية ويرتبون أغراضها ويصغون لفنانهـا وهـو يتحدث عن مغامراته أكثر مما يتحدث عن رسـوماته التـي احتشدت على الرفوف واستندت على الجدران واستلقت على الأرضية الترابية. صار مرسمه عنواناً في الجوفة، يعرفـه الأولاد وسعاة البريد وسائقو التكسي والسكارى والحشاشون والقوادون والعاهرات. ظل نذير يأتيه مباغتاً متودداً. يقاهره خير بالمرور من أمام مصبغته كلما اصطاد أجنبية فيطـيش صواب نذير ويرسل خلفه عناد متلصصـاً، فيـدعوه خيـر للدخول. في إحدى المرات واقع أجنبية على مرآه وأوصـاه بشدة أن لا يقول لخاله نذير، الذي جاءه تلك الليلة بأكياس من الأطعمة والأشربة وعرض عليه نقوداً قبلها خير دون تـردد واعداً إياه أن يحسب حسابه بينما في داخله يحلف أن يظـل يقاهره ولو كذباً ويلوعه ويكويه ويطلق جنونه دون أن يمكنه من مسك بنطالٍ أجنبية او فستان محلية. لكنه غير من نهجه

بعدما أوقع بفتاة كان قد التقاها وهو يتفـرج علـى صـور العروض في سينما العفيف.

كانت برفقتها مجموعة من البنات يتقافزن مرحات وهن يشرن إلى صور رشدي أباظة. ابتسم لها فابتسمت. اقتـرب منهن فانحرفت عنهن. قال بصوتٍ خفـيض وهـو ينظـر للصور : أين تسكنين.؟.

- في اللويبدة... تذكر نبيلة كطيف خيال : ما قلتِ لـي اسمك.؟.

- سعاد. وأنت.؟.

- أنا سعيد... اهتز صدراهما بكركرة خفيفـة. علّـق بكلمات سريعة أقرب إلى الهمس عـن الفـيلم والممثلـين. تجاوبت معه دون أن تنظر إليه وهي تعلّق وتشير للصـور كأنها تتجاوب مع صديقاتها. لما تحركن للمغـادرة، أشـار لمعصمه، ولم يكن في يده او يدها سـاعة : بكـرة. مثـل الآن...

انتظر في اليوم التالي حوالي الربع ساعة فـي مـدخل السينما، متنقلاً من لوحة لأخرى، خاطفاً نظره إلى الشـارع بين الحين والحين. ملّ التفرج، فجلس على الـدرج مسـتنداً

على ذراعيه من خلفه. راح يحملـق بالمـارة والسـيارات. اشتهى نبيلة فراودته فكرة الذهاب إلى بيتها والسؤال عنهـا. لكنه نسي الأمر تماماً عندما لمح سعاد تمر من أمام المدخل. نظرت إليه وواصلت المسير فتبعها على مهلٍ أولاً، ثم سرع خطواته ليواكبها. عاتبها بثقة كأنه على معرفة بها : تأخرتِ.

ردت بالأسلوب نفسه : ماذا أفعل. قبل قليل غادر والدي المنزل.

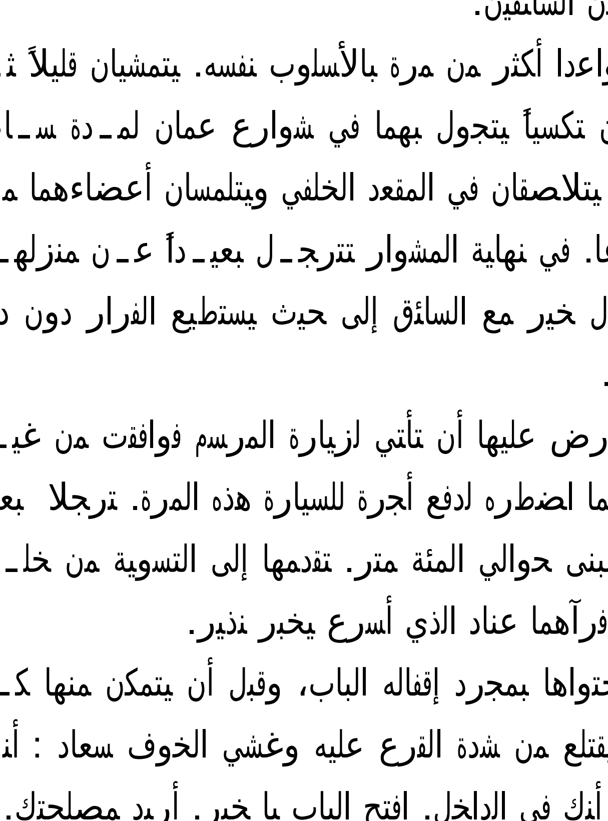
لاذا بالصمت للحظة، بينما المارة يتفرسون بهما. قالت بضيق : أخاف أن يراني أحد.

قال بسرعة وكأنه متهيء للموقف : ما رأيك أن نأخـذ سيارة.؟.

- سيارة.!؟... تساءلت باستغراب.

لم يمهلها حتى تفكر. أشار لسيارة أجرة وفتح لها الباب. أسرعت بالركوب. أدار السائق رأسه وسأل وهو ينظر إلـى ساقي سعاد : إلى أين.؟.

- خلّيك ماشي.



كشفت لقاءاته بها وحديثه معها عن سذاجتها ورعونتها لكن جمالها واكتناز لحمها كان ينسيه ذلك وهو يتلمسها فـي غفلة عن السائقين.

تواعدا أكثر من مرة بالأسلوب نفسه. يتمشيان قليلاً ثـم يستقلان تكسياً يتجول بهما في شوارع عمان لمـدة سـاعة تقريباً، يتلاصقان في المقعد الخلفي ويتلمسان أعضاءهما مـا استطاعا. في نهاية المشوار تترجـل بعيـداً عـن منزلهـا، ويواصل خير مع السائق إلى حيث يستطيع الفرار دون دفع الأجرة.

عرض عليها أن تأتي لزيارة المرسم فوافقت من غيـر تردد مما اضطره لدفع أجرة للسيارة هذه المرة. ترجلا بعيداً عن المبنى حوالي المئة متر. تقدمها إلى التسوية من خلـف البناء، فرآهما عناد الذي أسرع يخبر نذير.

احتواها بمجرد إقفاله الباب، وقبل أن يتمكن منها كـاد الباب يقتلع من شدة القرع عليه وغشي الخوف سعاد : أنـا أعرف أنك في الداخل. افتح الباب يا خير. أريد مصلحتك.

سأله من خلف الباب عما يريد، فقـال نـذير بصـوتٍ خفيض : انا أعرف أن معك بنتاً وأريد... فقاطعه بصـوتٍ عالٍ : لا دخل لأحدٍ بي.

- جئت أحذرك فقط.

- وا فيك الخير . أنا ما معي بنت ولا بطيخ. توكـل على ا ، أريد أن أنام.

- ألا يلزمك شيئاً.؟.

سألته سعاد عنه، فقال أنـه المكـوجي. طمأنهـا أن لا خوف منه، لكن ذلك لم يطمئنها فأصـرت علـى المغـادرة ورفضت فكرة المجىء إلى التسوية ثانية، فوصـلت نقمتـه على نذير ذروتها.

التقى بها كالمعتاد. تمشيا قليلاً ثم أوقف سـيارة أجـرة طالباً من السائق أن يظل مواصلاً على طول. سـأله بلـؤم، ماذا يقصد. أوضح خير باستعلاء : على طول يعني مشّورنا على كيفك إلى أن أقول لك توقف ... فاقمت النبرة المتعالية من سخط السائق الذي أثاره أن يرافق هذا الرث القذر فتـاة متأنقة جميلة. حرك سيارته ووجهه محتقن بالغيظ والسـخط. راح يشتم المشاة دونما سبب، وفي داخله كان يشـتم خيـر

ببذاءة. صعلوك حافي معه بنت مثل القمر. بينما يحرث هـو الشوارع ليل نهار وقد لا تكفيه غلّته للذهاب إلى عـاهرة : تفو على هكذا أمة...

- ما بك يا رجل.؟.

- ألم تر كيف قطع من أمامي. كأن الشارع ملك أبيه... وضرب على المقود بكلتا يديه وأطلق الزامـور : ملعـون أبوي إذا لم أهاجر.

منعتهما عصبية السائق واهتياجه ولعناته من أن يجلسـا متلاصقين وإن تمكنا من شبك يديهما اقتناصاً لبضع مـرات. كان السائق لهما بالمرصاد.

بعد ساعة من التجوال أبدت رغبتها في الرواح، فهمس لها بأن تنزل هذه المرة بعيداً عن المواقـع التـي اعتـادت بالنزول فيها. استجابت دون أن تسأل بعدما اتفقا على اللقـاء ثانية أمام مدخل سينما بسمان.

ما أن ترجلت حتى استرخى في المقعد كالأكابر وطلب من السائق بنبرة حازمة آمرة أن يذهب بـه إلـى القلعـة. اعتصر السائق المقود بيديه وهو يتخيل نفسه يعتصر عنـق هذا المهرج الذي يظن نفسه بني آدم لأنـه مصـاحب هـذه

القحبة : التعريص على قفا من يشيل... لم يعلق خير، لكنـه أجفل وهو ينقذف من مقعده إلى الأمام مع صـوت انـزلاق العجلات. وتوقفت السيارة في وسط الشارع : ماذا هناك.؟.

لم يجبه السائق. كان منشغلاً بشـتم عـورات الرجـال والنساء وهو يفتح الباب بعصبية ويركض خلف صبي قطـع الشارع. أمسكه من أذنه وهو يشتمه، فخلصه الناس منه بعد أن صفعه على خده أحسها خير على الخدين. هم بفتح الباب والهروب لولا أن السائق عاد بسرعة وعيناه تقدحان شرراً : أين قلت.؟.

- إلى القلعة... قال خير وهو يبلع ريقه.

ظل السائق طيلة الطريق ينظـر إليـه بـالمرآة كأنـه يتوعده. طلب منه أن يقف قريباً من قمـة الـدرج الطويـل أقصى شارع القلعة. سأله بنبرة واثقة أن ينتظر ريثما يـأتي بأمه. هدده السائق : دقيقة واحدة وسأفلت الزامور هه.

- طول بالك يا أخي. كل شيء بحسابه...

ترجل بتثاقل ومشى ببطء وهبط الدرج بتمهل. مـا أن أمن اختفاء السيارة من فوقه حتى نزع الزنوبة وراح يقفـز

قفزات عريضة متجاوزاً في كل واحدة عدداً من الـ درجات. وفجأة دوى الصوت من خلفه : إمسك. إمسك.

نظر إلى الخلف متوجساً، فكان السائق يسرع خلفه وهو يصرخ : حرامي. حرامي... وسدد له حجراً تكسـر قريبـاً منه. فحج قفزاته أكثر وسرع خطواته وهو يحشر الزنوبة في وسطه، بينما السائق لا يتعبه الصراخ ولا رمي الأحجار. لما وصل الرصيف حال باص المحطـة دون قطعـه للشـارع فحاول التعربش به إلا أنه لم يفلح. قطع الشارع غير مبـالٍ بالسيارت وقفز من الطرف الثاني إلى بستانٍ خورما. انضـم فلاحو البستان إلى السائق الذي ظـل يصـرخ : حرامـي. حرامي... تجاوز البستان سريعاً وقفز مـن فـوق سلسـلته الحجرية إلى مجرى السيل. توقف الفلاحون عنـد حـدودهم وواصل السائق المطاردة. غاص في مياه السيل خلفه وتبعـه وهو يمسك خاصرته عبر المقبرة إلى شارع الجوفة، بينمـا خير يكاد يسقط إعياء. مـا أن وصـل المصـبغة متقطـع الأنفاس حتى تهالك على الكرسي وهو يلهث. مد يـده إلـى نذير الذي توقفت المكواة في يده : هـات دينـار. هـات... وصرخ به : هات.

- يا ابن العرص... قال السائق وهو يسـتند بذراعيـه خائر القوى على إطار الباب.

عاتب خير السائق لأنه ترك سيارته فـي آخـر الـدنيا جرياً وراء مبلغ تافه يقل عن دينار. كان سيدفعه لـه لـولا فوجىء بالصراخ والأحجار. وعاتب نذير خير لأنه وضـع نفسه في موقفٍ محرجٍ كهذا. لو جاء بالبنت إلى المصـبغة لكان أجدى. غرفة الغسيل أريح من التسوية ولا تجاب شبهة كما أنها توفر عليه أجرة السيارات.

غادر والسائق المصبغة متراضيين. أصر خير عليه أن يأتي معه إلى المرسم. تذرع السائق بالسيارة، فرمقـه خيـر باستغراب : الآن صارت تهمك السيارة.!؟.

ما ان عبر السائق باب التسوية حتى تـولاه الـذهول : أأنت من رسم كل هذا.؟.

- ما رأيك.؟.

ظل يحملق لدقائق طويلة في لوحة الاسـتعراض. ثـم انتقل إلى اللوحات الأخرى. سأله وهو يتأمـل لوحـة فـوق حامل خشبي : من هذا.؟.

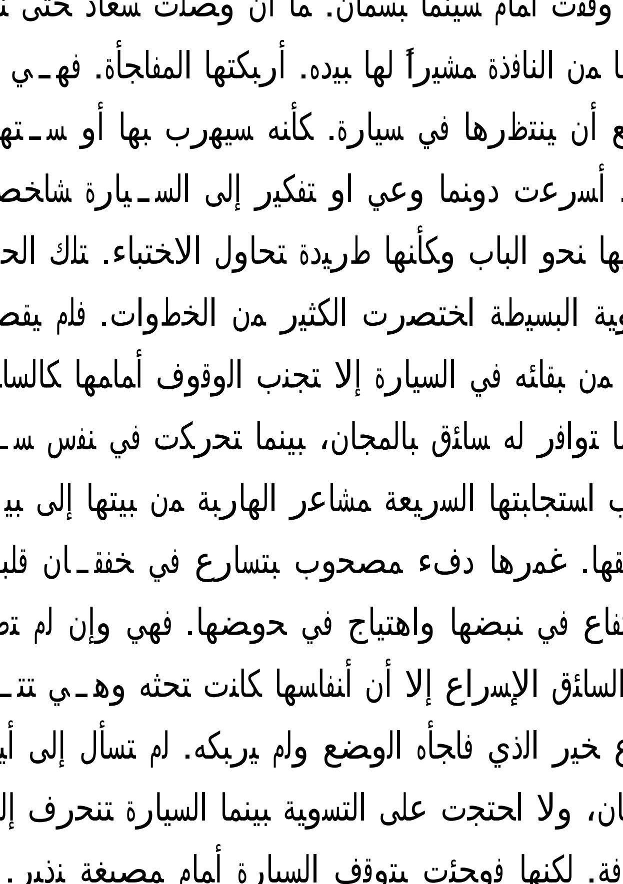
- صاحبي. يحيى العفيف، إذا سمعت عنه.؟.

هز السائق رأسه نفياً. سأله بعد أن أنهى تفقده : الفتـاة التي كانت معك، ألم ترسمها.؟.

- قريباً...

عند مغادرته أعاد له الدينار. رفض خير برخاوة، لكن السائق أصر وحلف اليمين. تناوله منه بتردد وظـل مبقيـاً عليه في يده وهو يسأله إن كان يستطيع موافاته قرب سـينما بسمان . رحب السائق بحرارة : غداً وبعد غد وفي كل يـوم أستاذ... أعجبته كلمة أستاذ، فحشر الدينار في جيبـه وهـو يردد : على خير...

لم يذهب إلى الدكان، وإنما عاد أدراجه إلى المصـبغة. عاتب نذير على إزعاجه له ذلك اليوم. وحلف نذير أنه لـم يقصد إلا خيراً. في نهاية الحديث، سأله إن كان جـاداً فيمـا عرضه. آخذه نذير، وهل مزح معه يوماً : عن جد ونصـف يا خالي... أما عن الجلساء في المصبغة، فقد طمأنـه بانـه سيتخاص منهم بمجرد أن يظهر وصديقته فـي الكوربـة : الأفضل يا خالي أن تنزل أول الكوربة وأن تتقدم صـديقتك في المشي حتى لا تلفتا الانظار... قالها بنبـرة متغطرسـة ملمحاً إلى خبرته السابقة وطول باعه.



في اليوم الموعود استكان خير في المقعد الخلفي للسيارة التي وقفت أمام سينما بسمان. ما أن وصلت سعاد حتى نادى عليها من النافذة مشيراً لها بيده. أربكتها المفاجأة. فهـي لـم تتوقع أن ينتظرها في سيارة. كأنه سيهرب بها أو سـتهرب معه. أسرعت دونما وعي او تفكير إلى السـيارة شاخصـة بعينيها نحو الباب وكأنها طريدة تحاول الاختباء. تلك الحركة العفوية البسيطة اختصرت الكثير من الخطوات. فلم يقصـد خير من بقائه في السيارة إلا تجنب الوقوف أمامها كالسائقين طالما توافر له سائق بالمجان، بينما تحركت في نفس سـعاد بسبب استجابتها السريعة مشاعر الهاربة من بيتها إلى بيـت عشيقها. غمرها دفء مصحوب بتسارع في خفقـان قلبهـا وارتفاع في نبضها واهتياج في حوضها. فهي وإن لم تطلب من السائق الإسراع إلا أن أنفاسها كانت تحثه وهـي تتـأبط ذراع خير الذي فاجأه الوضع ولم يربكه. لم تسأل إلى أيـن يذهبان، ولا احتجت على التسوية بينما السيارة تنحرف إلـى الجوفة. لكنها فوجئت بتوقف السيارة أمام مصبغة نذير. كما فوجىء نذير الذي أنسته لهفته وصيته لخير بالترجل عند أول الكوربة

أبدى السائق استعداده للعودة، إلا أن خير شكره طالبـاً منه أن يوافيه غداً في المرسم. كان نذير مستعداً كما وعـد. فأقفل باب الواجهة بمجرد مبارحة السـائق. دغـدغ خيـر عواطفه وهو يخبر سعاد بأن نذير يمتلك البنايـة بطوابقهـا الثلاث، ولديه حافلة تعمل على خط الجوفة. الرجل ميسـور لكن حظه قليل فزوجته التي تكبره لا تنجب أولاداً. لم يكشف أي منهما أمر قرابتهما. وحتى لا تنتهـي الجلسـة بكـذب الحديث وتغادر سعاد فتفوت الفرصة علـى نـذير ويخسـر لحظة سعادة تاقت لها نفسه منذ أمد بعيد، قال لخير بـأبوة : إذا كنتما تريدان الدخول... وأشار براحته إلى غرفة الغسيل وهو يضيف : تفضلا...

نظر خير إلى سعاد التي شخصت أنظارها به وسـألها بهدوء : تدخلي.؟.

قلبت يديها وشفتيها. فأسرع نذير للابتعاد مـن خلـف الطاولة : هيا. قبل أن يأتي أحد... اختصر هـذا خطـوات أخرى من الطريق، فاتجها إلى غرفة الغسيل متحاذيين. أغلق نذير الباب من خلفهما وانزوى بعيداً عن زجاج الواجهة. ظل يحاوص في مكانه وهو يفرك راحتيه وبـوده أن يباغتهمـا.

فيخاطب خير من حين لحين دون أن يندو عن غرفة الغسيل صوتاً : عندك ماء خالي...واطم فمه : هذه خالي للمحبة يـا خير. إذا احتجت شيئاً أخبرني...ديـر بالـك علـى ثيـاب الناس... طولت يا ابن الحلال... لم يقو على الانتظار طويلاً فاقتحم عليهما الغرفة وما يزالا ملتصقين رغـم انتهائهمـا : بعدك.؟... ولم يكمل بسبب اهتياجه. فقال له خير وهو ينفك عنها : تعال خلصني... أتاها نذير وهي مرتخية فـي شـبه غيبوبة. لما انتهى وخرج إلى غرفة الكي لم يجد خير الـذي غادر تاركاً الباب مفتوحاً. أقفله بارتباك وعاد إلى سعاد التي بدا عليها الحزن والكآبة. ماذا فعلا بها وماذا ستفعل.؟.

هدأ منها وهو يتحسس ظهرها وطمأنها وهـو يـتلمس خدها : ليس هناك مشكلة يا حبيبتي.

- كيف ليس هنك مشكلة.

- إن عظمت سأتزوجك. لا تقلقي... وضاجعها ثانية.

جاءته ثانية تسأل عن خير، فأخبرها، وهو يقودها إلـى غرفة الغسيل، بأنه سيرسل في طلبه، ثم أنساها أمره وهـو ينفرد بمضاجعتها، مؤكداً لها أنه سيتزوجها. صارت تتـردد عليه دون أن تأتي على ذكر خير، وفي كل مرة يخبرها بأنه

ينتظر فقط أن تفرغ أحدى الشقق في بنايته حتـى يتزوجهـا ويسكنها فيها.

منحه الظفر بها شعوراً بالانجاز لم تمنحه إياه دبـوس التي استجاب لها من القلة كما كان يردد بينه وبـين نفسـه. صار يضجر جلسائه بالحديث عن عشيقته الارستقراطية التي تستحق أن تؤدي لها الجوفة السـلام. وإذا جامله أحـدهم بالسؤال عن اسمها يرد بنزق : لأجل أن تعمل منـي قصـة مثل خير. كان غيرك أشطر... ويبخّ الماء من فمـه فـوق قطعة ثياب. وجاءته سعاد تحمل بقجة ثياب. فكادت مكواتـه تطير من يده.

اتجهت أمام ذهوله واستغراب جلسائه إلى غرفة الغسيل دونما سلام او استئذان. لحق بها مـأخوذاً فأصـاخ صـحبه سمعهم وهي تقول باكية : أنت وعدت تتزوجنـي إذا صـار مشكلة. أنا حامل. أنا حامل.

خرج مذعوراً إلى غرفة الكي وقال كالمخبول : لـيس أنا. ليس أنا. خير يا جماعة. خير.

٤

كان هاني يتطلع أثناء الدراسة إلى أن يعشق طالبة في مستوى صفه وليس في صفٍ أعلى. لكنه لم يحظ بهـذه ولا تلك. فظلت نفسه تتوق إلى حبيبة، مع فارق أساسي. يحـس الآن أنه رجل ناضج شعر من لقائه مـع تغريـد وحـديثها المتزن الواثق، أنها ناضجة أيضاً. لم تثر انتباهه في اللقاءات القليلة التي التقاها بها أثناء الدراسة. لكنهـا منـذ زيارتهـا الأخيرة مع شقيقها وهو يفكر بها. لعبت وعد دوراً كبيراً في هذا وهي تذكره بها دائماً وتتحدث عنها باستمرار، لاسـيما بعد ان جاملهما يوم عيد الميلاد. فرد الزيارة لموفق في عيد الفطر.

عبر عن إعجابه بسلوك عملي. فقد فاجأ تغريد بمجيئـه إلى البنك وطلب فتح حسابٍ شخصي له، بعدما رفض أبـوه تعامل السلسلة ولو جزئياً مع البنك العربي. سيضر ذلك فـي علاقته مع البنك العثماني .

وقع على النماذج بحضور تغريد التي أثنى المدير أمامه على نشاطها ونباهتها. مما زاد مـن تـألق صـورتها فـي وجدانه. صار يتردد على البنك من حين لحين للالتقاء بهـا

والحديث معها فحسب، متذرعاً بإيداع النقود او سحبها. دون أن يصادف يوماً موفق. كذلك عندما تـذهب وعـد لزيـارة تغريد فتجد موفق في البيت، او تأتي تغريد لزيارتها فتجـد هاني في البيت. كانت كلتاهما لا تكتمان سراً بينهما.

ظل الوضع على ما هو عليه إلى أن استصـدر هـاني إجازة سواقة، وصار يأتي في سيارة أبيه لاصطحاب وعـد مع انتهاء الدوام. سألته وعد في يومٍ مطير أن يوصل تغريد، فرحب بحرارة أنسته معهما البرد والمطر والسيول. عرض مراراً فيما بعد أن يوصلها، فكانت ترفض بحجة أن طريقها عكس طريقه.

فاجأها يوماً بسحب كامل رصيده إلا من بضعة دنانير. سألته معاتبة أن كانت هي السبب. نفى ذلك بانفعال. أخبرها أنه اشترى سيارة خاصة به. قالت بدلال أنها تريد الحلـوان أن يأتيها إلى عندها، فقال : إبشري...

في اليوم التالي أخبرتها وعد أنهما مـدعوتان للغـداء. عاتبته خلال الطريق : وعـدتني أن يـأتي الحلـوان إلـى عندي.؟.

- ما زلت عند وعدي.

لما ابتدأ الندل يراكمون الصحون فوق الطاولة، تساءلت تغريد باستغراب : ما هذا.؟.

- حلوان... قال بفرحٍ غامر. إنها المرة الأولـى التـي تأسره عواطفه أكثر من شقاوته. كل شيء في الجلسة مـبهج ولذيذ، باستثناء وعد التي اسـتوعبت اختلاجاتـه وتحرجـه بالانطلاق أمامها. فاعتذرت بمجرد انتهائها من الغداء مدعية أنها مضطرة للمغادرة. أعطت مناورتها نتيجـة سـلبية، إذ ادعت تغريد أنها مضطرة للرواح أيضاً. تراجعت وعد أمام نظرات هاني الموبخة. يمكنها البقاء نصف ساعة أخرى. إلا أن تغريد أصرت على المغادرة. حاول هاني استبقاءها دون جدوى، فأذعن وأوصلها إلى بيتها. قال لوعد متجهماً وهمـا يعودان أدراجهما : لازم تخربيها يا بنت العالي.؟.

- كان قصدي غير هكذا.

- أسكتي. بلا غير هكذا بلا مع هكذا. ما الذي يجبرني على دفع ثلاثة دنانير لقاء جلسة نصف ساعة. لو أرسلت لها للبنك وقية كنافة بثلاثة قروش أحسن وأوفر. لكن، ماذا أفعل إذا خلق ا آل العالي تيوساً.؟!.

ضحكت تغريد من الأعماق عندما نقلت لهـا وعـد قوله. ولما أضافت : الظاهر هاني واقع لشوشته... تنهـدت تغريد. وقالت : أيه، مشكلته.

- كيف مشكلته.؟.

- يا وعد لا معنى لعلاقة ليس لها نتيجة.

- أهكذا.؟.. قالت وعد وقد أحست أنهـا المقصـودة. فاستدركت تغريد : لا تفهميني غلط. رأيي هذا لا يعني أنـي على صواب. لكن هكذا أنا. لم يكن لي علاقة عاطفيـة مـع أحدٍ من قبل، ولن تكون لي فيما بعد إلا إذا كان لهذه العلاقة نتيجة.

- يعني علاقتي بموفق خطأ.؟.

- لم أقل ذلك. قلت هكذا أرى الأمور. وليس في هـذا خطأ او صواب. أنا أقدر علاقتك بموفق. هذا شـأن خـاص بكما. كما أني معجبة بهاني وأود لو نظل صديقين.

أحست وعد بالنفور بعد ذلك، وإذا سألها هاني عنهـا، تقول له : اتركك منها... سألها بارتياب إن كان لتغريد علاقة بآخر. نفت الأمر وأخبرته أنها معجبة جداً به لكنها لا تؤمن بعلاقة ليس لها نتيجة.

قال مدافعاً : ليس بالضرورة أن تـؤول العلاقـة إلـى زواج. كما ليس بالضرورة أن يسبق الزواج علاقة حـب... لم يستطع إخفاء تأثره وشعوره بالخيبة، إلا أنه لم يعد يـأتي على ذكر تغريد او يتردد على البنك. فسألته يوماً : أما زلت تفكر بتغريد.؟.

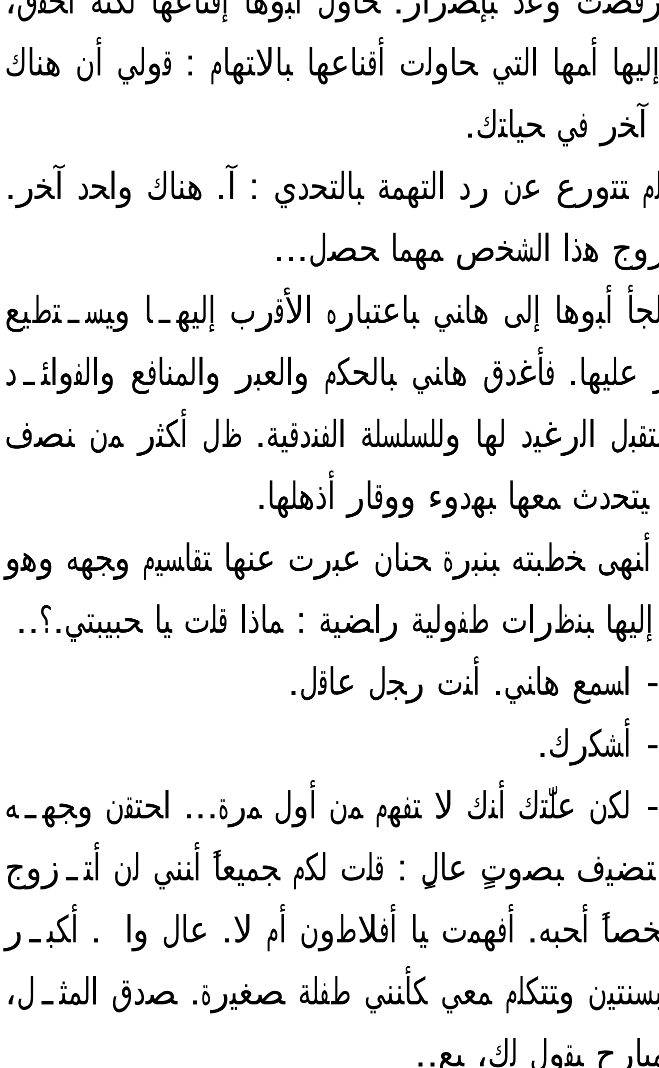
- طبعاً أفكر بها... صمت للحظة، ظلت خلالها وعـد تحملق به وهو ينظـر بثبـات إلـى الأرض. تنهـد وهـو يسترسل : طالما أنها تفكر بالزواج فهذه مشـكلتها. أنـا لا أستطيع الزواج بها ولا أرغب فيه أيضاً.

- وهل كنت ستقيم علاقة معها لـو أنهـا لـم تتـذرع بالزواج.؟.

- لم لا. ليس بالضرورة أن تؤول علاقة الحـب إلـى زواج.

- أنت إنسان رائع يا هاني...

بعد أقل من شهر، جـاء وكيـل سـيارات أميريكيـة معروف بثرائه الكبير، يخطب وعد لابنه.



رفضت وعد بإصرار. حاول أبوها إقناعها لكنه أخفق، فدفع إليها أمها التي حاولت أقناعها بالاتهام : قولي أن هناك واحداً آخر في حياتك.

لم تتورع عن رد التهمة بالتحدي : آ. هناك واحد آخر. لن أتزوج هذا الشخص مهما حصل...

لجأ أبوها إلى هاني باعتباره الأقرب إليهـا ويسـتطيع التأثير عليها. فأغدق هاني بالحكم والعبر والمنافع والفوائـد والمستقبل الرغيد لها وللسلسلة الفندقية. ظل أكثر من نصف ساعة يتحدث معها بهدوء ووقار أذهلها.

أنهى خطبته بنبرة حنان عبرت عنها تقاسيم وجهه وهو ينظر إليها بنظرات طفولية راضية : ماذا قلت يا حبيبتي.؟..

- اسمع هاني. أنت رجل عاقل.

- أشكرك.

- لكن علّتك أنك لا تفهم من أول مرة... احتقن وجهـه وهي تضيف بصوتٍ عالٍ : قلت لكم جميعاً أنني لن أتـزوج إلا شخصاً أحبه. أفهمت يا أفلاطون أم لا. عال وا . أكبـر منك بسنتين وتتكلم معي كأنني طفلة صغيرة. صدق المثـل، ابن امبارح يقول لك، بع..

لم يقو على التماسك، فصرخ بها : بـع فـي رأسـك. ستتزوجينه غصباً عنك.

- ومن سيغصبني.؟. أصحابك البلطجية.؟.

شخص بها مذهولاً وعجز عن الرد. فأضـافت : لـن أتزوج منه وليضرب وكيل السيارات رأسه بالحـائط. كـاد هاني يفعلها وهو يقول لأبيه : لا تعلقني بلسانها. خليها بـلا زواج. والأحسن نزوجها لواحد مسلم حتى تجيب خبر كـل المسلمين.

٥

بعد انتقالها بأمتعتها ومعظم أغراضها إلى بيت أهلهـا، رفضت نجلاء بإصرار وساطة أم قسام. بالمقابل أصرت أم قسام على براءة ابنها التي ستثبتها المحكمة بالتأكيد. صرخت بها نجلاء، وهل سيبرئه ذلك أمام الناس.؟. وكيف سـتجلس معهم برفقته.؟. أنهت اللقاء بالقول : فضحني ابنك وفضـح حاله وفضح أهلي وأهله.

في داخلها، كانت أم قسام متعاضدة معها. لـيس هنـاك نار من غير دخان. حتى لو برأت المحكمة قسام من تهمـة الافتضاض، فإنه اعترف بلسانه عن مداعبته لنبيلـة وعبثـه معها. مع هذا واظبت على زيارة نجلاء ومحاولة تهدئتها فقد تعلّم قسام كثيراً من هذا الدرس. وهو الآن مستعد للتضـحية بكل شيء في سبيل بيته وعائلته. سألتها نجلاء باسـتخفاف : ماذا ظل لديه حتى يضحي به.؟. عائلته.؟. عمله.؟.

ردت أم قسام بحزم : سيعيدونه إلى عمله غصباً عنهم بعدما تصدر براءته.

لكنه لم يحصل على البراءة. ففي اليـوم الـذي جـاء الطلاق نجلاء، اصدرت المحكمة قرارها بإدانة نبيلـة التـي

ضبطت متلبسة بالجريمة، إلا أنه حرصـاً علـى مسـتقبلها وسمعة عائلتها فقد حكم عليها مع وقف التنفيذ. ولإنها عاقلة راشدة، حكم بعدم مسؤولية قسام . بارك له أهله ومعارفـه وذهب مع أمه في المساء إلى بيت حميـه مباركـاً لـنجلاء بمولودتهما الجديدة التي اختارت لها اسم "خيرية". لم تسـمح له بحملها أو تلمسها كما رفضت الحديث معه او النظر إليه. لم يكن الظرف مواتياً للحديث عن عودتها إلى بيتها، فأجـل قسام الموضوع إلى أن يهدأ نفاسها وتستقر حالها ويسـتعيد أنفاسه وحقوقه.

لكن الأكاديمية التي أرغمت على فصل نبيلة بناء على الحكم الصادر بحقها، لم تبرئ بموجبه قسام. قرر الـرئيس تشكيل لجنة تحقيق خاصة للكشف عن ملابسات الموضـوع بعد أن تمرغت سمعة الأكاديمية في الطين. وكلمـا تـرأس اللجنة او التقى بأعضائها على انفراد، يحمل قسام مسـؤولية ما سوف يحيق بهم جميعاً من أذى وانقطـاع أرزاق إذا مـا ترتب على القضية إغلاق الأكاديمية. صحيح أن المحكمة لم تجرمه لأنه لم يكن بين الموقوفين مع نبيلة، لكنها لم تبرئه بل أخلت مسؤوليته فحسب.

في غضون أسبوع صدر قرار اللجنة بإدانة قسام. وبناء عليه نسب المجلس التأديبي بفصله من العمل وحرمانه من حقوقه بما فيها شهادة الخبرة وتعويضاته ورواتبه المستحقة طيلة فترة توقفه عن العمل. أشفق عليه محاميه وتعهد بمتابعة الأمر مع الأكاديمية، ولما لم يجد أذناً صاغية من الرئيس، رفع دعوى قضائية على الأكاديمية التي لا يحق لها مصادرة حقوق قسام. رفعت الأكاديمية بالمقابل دعوى مضادة تطالب قسام بمبلغ عشرين ألف دينار تعويضاً عما ألحقه من أذى بسمعتها العلمية والاجتماعية. إضافة إلى تشهيره بها عن طريق الرسائل التي طالب الرئيس بتحويلها إلى خبير خطوط لمقارنتها مع خط اليد اليسرى لقسام ، فهرول قسام مع محاميه إلى محامي الأكاديمية وتنازل أمامهما عن قضيته وحقوقه. لم يكن أمامه بعد كل هذه الخسارة سوى تجميع لوحاته والانتقال بما تبقى له من أغراض إلى بيت والديه.

جاءهما منكسراً ذليلاً لا حول له ولا قوة. يحس بالضعة والهوان أمام نظراتهما الاتهامية التي لم يستطيعا إخفاءها، شأن الكثيرين من المتعاطفين معه . كان أكثر ما يقلقهما، أن

تسكن نجلاء وابنتاها معهما، بعد أن غدا قسام بلا عمـلٍ ولا دخلٍ ولا مستقبل.

كانت قصته قد انتشرت في الحي بتعديلات كثيـرة لـم تغير في جوهرها القائم على الزنى، سواء أفعل ذلـك مـع عاهرة او طالبة. نفر الكثيرون منه وتطلعت إليه الكثيـرات. لكن ذلك جاء متأخراً، إذ ماتت لهفته على العشـق وخذلتـه موهبته كفنان وانحصر اهتمامه في السعي من أجـل البقـاء على حافة الحياة. كانت خياراته قليلة وفرصه فيها أقـل. لا سيما وأنه لم يكن أمامه لتغطية فترة عملـه بالأكاديميـة إلا الادعاء بأنه كان يعمل في إيطاليا وقد عاد إلى البلاد حديثاً. إلا أن ذلك لم يفده رغم وساطة أبيه مـع بعـض مسـؤولي وزارة التربية. فقد أصر فؤاد لقبول الطلب ضرورة إرفـاق صوراً فوتوغافية عن جواز السفر مشتملة على الصفحة التي تثبت وجوده خارج البلاد طيلة السنوات الثلاث المنصـرمة. أسقط في يد قسام ولم يعد لديوان الموظفين ثانية. لـم يكـن حظه في المدارس الخاصة أيسر. إذ سرعان مـا يكتشـف ادعاؤه عن إقامته في إيطاليا فيرفض طلبه ويخسر فرصته، ولا يجد ما يواسي به نفسه ويرد عنه الاتهام أمام أهله سوى

إلقاء اللوم على الماسونيين الذين رتبوا له المكيدة من البداية، وها هم يطاردونه في لقمة عيشه ويقطعـون عنـه رزقـه ويحولون دون توظيفه.

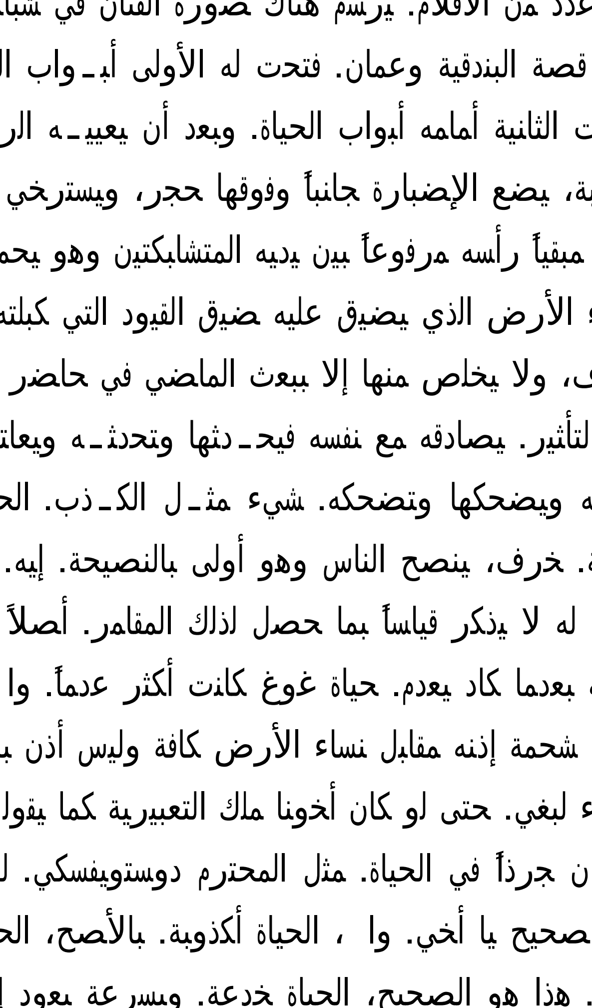
لم يعد يبالي بعودة نجلاء، بل أنه صار يؤثر بقاءها عند أهلها، ولم يؤرقه إصرارها على الطلاق الذي تستطيع نيلـه بواسطة المحكمة استناداً إلى ما جاء في قـرار الأكاديميـة، وكان هذا يخيف قسام ويؤرق والديه. فقـد غـدت القضـية بالنسبة لهما بلا نهاية. صار ينتظر كلمة تشجيع منهما حتى يتحرر من زواجه ويحرر زوجته. ليس لديه مكان لإيوائهـا ولا يمتلك الإنفاق عليها. في أعماقه صار يحس بالنفور منها والسخط عليها وبينه وبين نفسه يحملها المسؤولية. ليس لأنها تخلت عنه في أصعب الظروف فحسـب، بـل لأنـه وهـو يستذكر أحداث ماضيه أقنع نفسه بأنهـا كانـت وراء الـذي جرى له، فلو رعته كزوجة، لما أخطأ هذا الخطأ الصـغير الذي دفع بسببه الكثير، بل دفع كل شيء وآلت حياتـه إلـى دمار. احترمها وأكرمها وأطاعها فقابلته بـاللؤم والجحـود والتمرد وجعلته محط سخرية أهلها وعديله. صـحيح أنهـا كانت زوجة وفية. لكن ذلك لا يكفي. كان يريدها لوحة فنية.

ولو منحته ذلك لما أوقعت به عاهرة مثل نبيلـة. إذ كيـف ستوقع به أن كان لديه امرأة في بيته تقدر فنّه وتفخر بموهبته وتشبع حاجته.؟. لكنها بدلاً من ذلك أعاقته وهزأته وقتّـرت عليه. كم يعز عليه إصرارها على طلب الطلاق وقد أخلت المحكمة مسؤوليته. إلا إذا كانت ماسونية. مستحيل. حسـب علمه فإنه ليس هناك ماسونيات بل ماسونيون يوقعون بأمثاله عن طريق عاهرات مثل نبيلة.

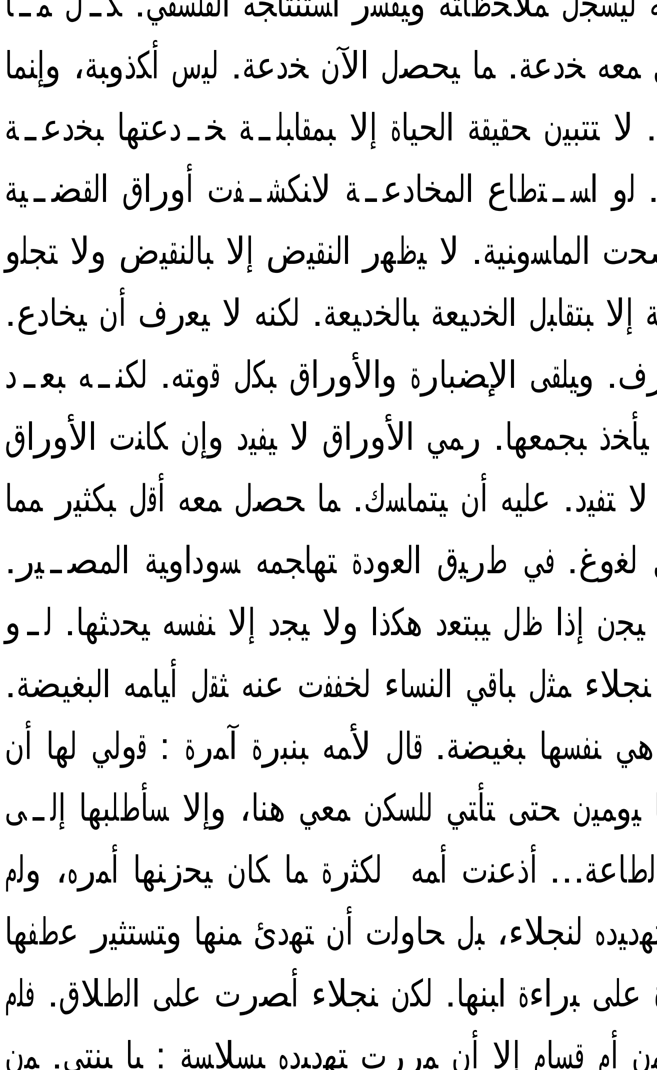
صار يهيم على وجهه طيلة اليـوم محـاولاً الاكتفـاء بالنقود القليلة التي ينقده إياها أبوه، مصراً عليه وهو يأخـذها أنها دين سيعيده إليه مضاعفاً عندما تنفتح الدنيا فـي وجهـه ويظفر بعملٍ. وبدلاً من طرقه للأبواب، كما كان يدعي أمام والديه، يذهب إلى مقهى بعيد منزوٍ خشية أن يراه معارفه او طلابه او زملاؤه. يجلس فيه ساعات يحملـق بـالطريق او يراقب بوجوم ألعاب الطاولة والشدة دون أن يتابعها بذهنـه الشارد مع القضية ونبيلة والماسونية مما كان ينفّر اللاعبـين ويتسبب في استيائهم، وبخاصة إذا جاور في جلوسه المغلوب فيهم، فيلعن هذا حظه قاصداً من لعنته قسام. إذا فرغت جيبه وحال حرجه دون سؤال أبيه او أمه يتجه إلى الأسواق يهـيم

فيها على وجهه ساعات وهو شارد غائب عن حركة الحيـاة الصاخبة المليئة بالأوجاع. فإذا مل التجول او أتعبه المشـي، يتولى عن مركز المدينة إلى السفوح الصخرية الخالية مـن البنيان، متأملاً المدينة من تحته وهو مسترخٍ فـي شـجرية القلعة او سفح الجيلاني وكأنه في ابتعاده يبعد عنه انسـحاقه، فيقضي الوقت ساهماً شارداً منهمكاً بتعديل مجرى ماضـيه لصنع حاضرٍ يمتلك زمامه ويسيطر على أحداثه، فيرافع عن نفسه أمام القاضي، ويقضي بدلاً منه بالحكم على نبيلة وفتح ملف التحقيق مع رئيس الأكاديمية وإصدار أمـر بمطـاردة الماسونية. كان في انزوائه يحدث نفسه في البداية داخلياً، ثم صار يناجيها بصوت خفيضٍ.

ما أن جاء الصيف حتى صار يحدثها علانيـة ودونمـا حرجٍ. سواء أكان بعيداً على السفوح او أثناء اتجاهـه إلـى المقهى او عودته منه. في البيت قلما ينتبه لحـديث والديـه، وكلما وجه له الحديث يسأل كمن يجفل : ماذا.؟. حتى صار تساؤله الدائم مقلقاً لأبويه ومرهقاً لهما أيضاً وصـار يثيـر سخرية وضحكات رواد المقهى. فتخلى عن الـذهاب إليـه وصار يؤثر الابتعاد كلياً عن البيت والمدينة والناس، فيتجـه



إلى سفح الجيلاني حاملاً معه إضبارة فيها ستفة أوراق وفي جيبه عدد من الأقلام. يرسم هناك صورة الفنان في شبابه او يكتب قصة البندقية وعمان. فتحت له الأولى أبـواب الفـن وأغلقت الثانية أمامه أبواب الحياة. وبعد أن يعييـه الرسـم والكتابة، يضع الإضبارة جانباً وفوقها حجر، ويسترخي على ظهره مبقياً رأسه مرفوعاً بين يديه المتشابكتين وهو يحملـق بفضاء الأرض الذي يضيق عليه ضيق القيود التي كبلته يوم التوقيف، ولا يخلص منها إلا ببعث الماضي في حاضر جديد قوي التأثير. يصادقه مع نفسه فيحـدثها وتحدثـه ويعاتبهـا وتعاتبه ويضحكها وتضحكه. شيء مثـل الكـذب. الحيـاة أكذوبة. خرف، ينصح الناس وهو أولى بالنصيحة. إيه. مـا حصل له لا يذكر قياساً بما حصل لذلك المقامر. أصلاً أبدع كتاباته بعدما كاد يعدم. حياة غوغ كانت أكثر عدماً. وا لن يقطع شحمة إذنه مقابل نساء الأرض كافة وليس أذن بحالها إرضاء لبغي. حتى لو كان أخونا ملك التعبيرية كما يقولـون فقد كان جرذاً في الحياة. مثل المحترم دوستويفسكي. لكـن حكيه صحيح يا أخي. وا ، الحياة أكذوبة. بالأصح، الحيـاة خدعة. هذا هو الصحيح، الحياة خدعة. وبسرعة يعود إلـى



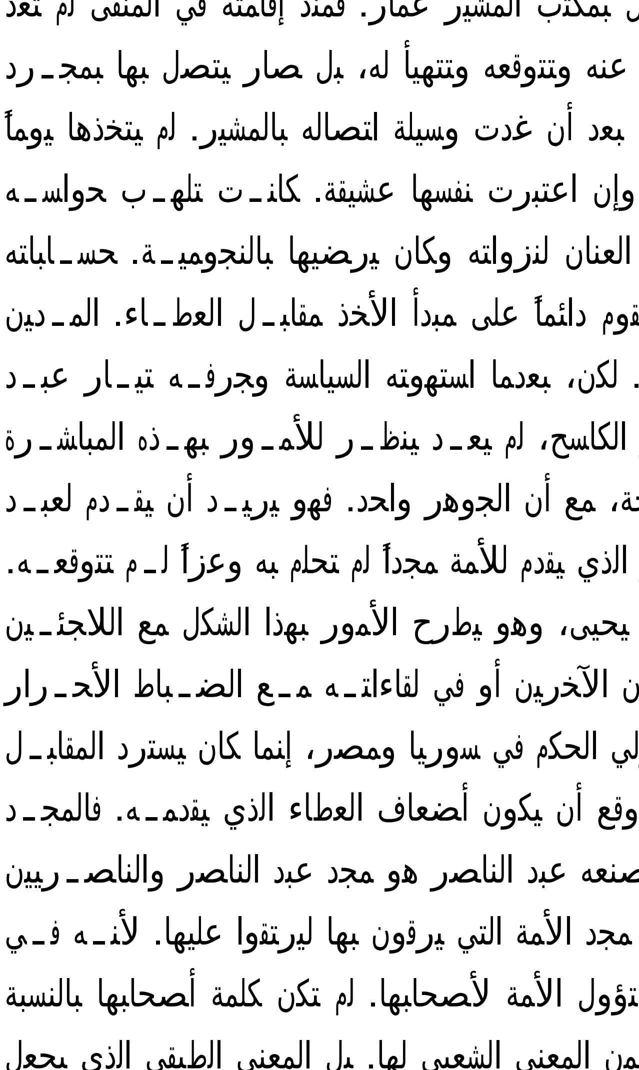
أوراقه ليسجل ملاحظاته ويفسر استنتاجه الفلسفي. كـل مـا حصل معه خدعة. ما يحصل الآن خدعة. ليس أكذوبة، وإنما خدعة. لا تتبين حقيقة الحياة إلا بمقابلـة خـدعتها بخدعـة مقابلة. لو اسـتطاع المخادعـة لانكشـفت أوراق القضـية وافتضحت الماسونية. لا يظهر النقيض إلا بالنقيض ولا تجلو الحقيقة إلا بتقابل الخديعة بالخديعة. لكنه لا يعرف أن يخادع. لا يعرف. ويلقى الإضبارة والأوراق بكل قوته. لكنـه بعـد دقائق يأخذ بجمعها. رمي الأوراق لا يفيد وإن كانت الأوراق نفسها لا تفيد. عليه أن يتماسك. ما حصل معه أقل بكثير مما حصل لغوغ. في طريق العودة تهاجمه سوداوية المصـير. سوف يجن إذا ظل يبتعد هكذا ولا يجد إلا نفسه يحدثها. لـو كانت نجلاء مثل باقي النساء لخففت عنه ثقل أيامه البغيضة. لكنها هي نفسها بغيضة. قال لأمه بنبرة آمرة : قولي لها أن أمامها يومين حتى تأتي للسكن معي هنا، وإلا سأطلبها إلـى بيت الطاعة... أذعنت أمه لكثرة ما كان يحزنها أمره، ولم تنقل تهديده لنجلاء، بل حاولت أن تهدئ منها وتستثير عطفها مؤكدة على براءة ابنها. لكن نجلاء أصرت على الطلاق. فلم يكن من أم قسام إلا أن مررت تهديده بسلاسة : يا بنتي. من

الأفضل أن تعودي له وحدك حتى لا يعيـدك عـن طريـق المحكمة... عندها انفجرت عصبية نجلاء، فصـرخت بهـا وهددتها بأنها هي التي ستلجأ للمحكمة وستجعل القاضي يفتح ملفه من جديد. لما غادرت أم قسام مخذولة، أنّبت أم نجـلاء ابنتها على حدتها وعصبيتها. بينها وبين نفسها كانت تـؤثر عودة المياه إلى مجاريها. كادت تذكرها بماضيها الـذي مـا يزال شبحه ساكناً معها. لكن نجلاء كانـت قـد تجـاوزت الماضي ونسيته. لقد دفعت ثمناً باهظاً بسببه. آن الآوان حتى تتحرر من عبء قسام. أنها تستحق أن تكون سيدة يشار لها بالبنان ولا يعيرها الناس بزوجٍ مثل قسام : هل تريـدين أن أصبح خادمة لأمه وأبيه. إذا كنت تسـتثقلين إقـامتي هنـا، فسأقيم مع لمياء، ولن يعترض عثمان... ضربت أمها علـى صدرها وشهقت. تماماً مثلما فعلت أم قسام عنـدما فاجأهـا قسام بعد أيام بنسخة عن ورقة الطلاق التـي أرسـلها عـن طريق الشرطة إلى نجلاء.

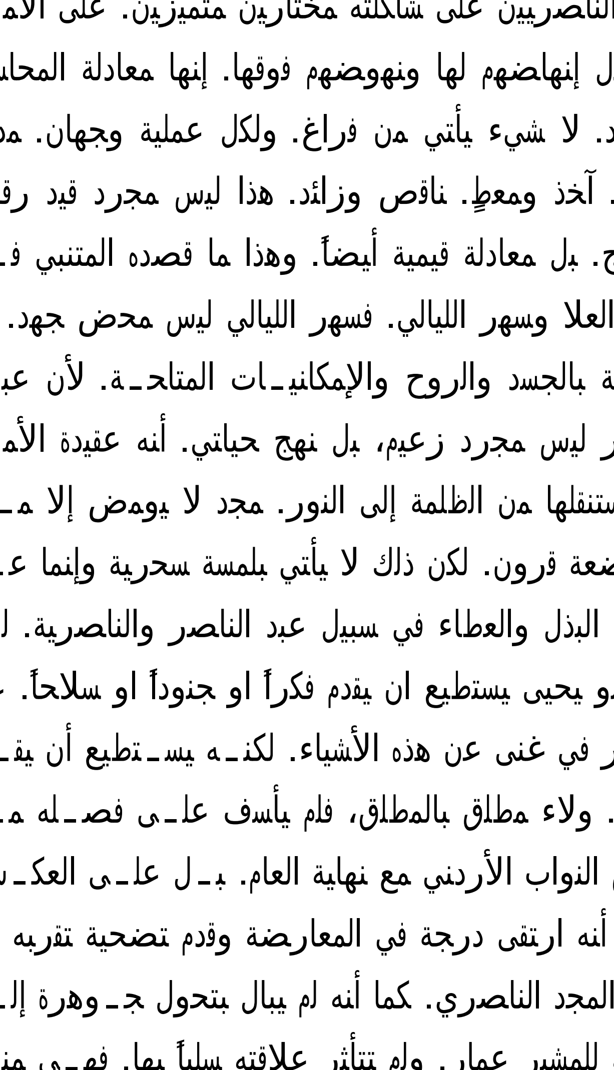
٦

وجد يحيى أباه ينتظره في القاهرة. سلمه على الفور حقيبة الجنيهات المصرية وهو يقول : مئة وخمسون ألفاً... لم يعقّب أبوه بكلمة وهو يتناولها ويضمها إلى حقائبه الأخرى في غرفة نومه. ظل يحيى يقظاً يتفقد الحقيبة طيلة الأيام الأربعة التي أقام فيها أبوه في الشقة. بمجرد سفره إلى دمشق تاركاً الحقيبة في مكانها فوق خزانته، سارع لتفقدها، فوجدها فارغة. احتار في مصير النقود، وتساءل إن كان أبوه قد أخذها إلى سوريا او استخدمها في مصر. لكن الأمر لم يأخذ منه كثير تفكير. فما أن تنفس الراحة مع سفرته، حتى سارع لتوضيب أغراضه التي أبقاها مستفة في الحقائب، خوفاً أن يكتشف أبوه زجاجات الويسكي واللوحتين اللتين اشتراهما من خير. قام بتعليقهما على جدار غرفة نومه.

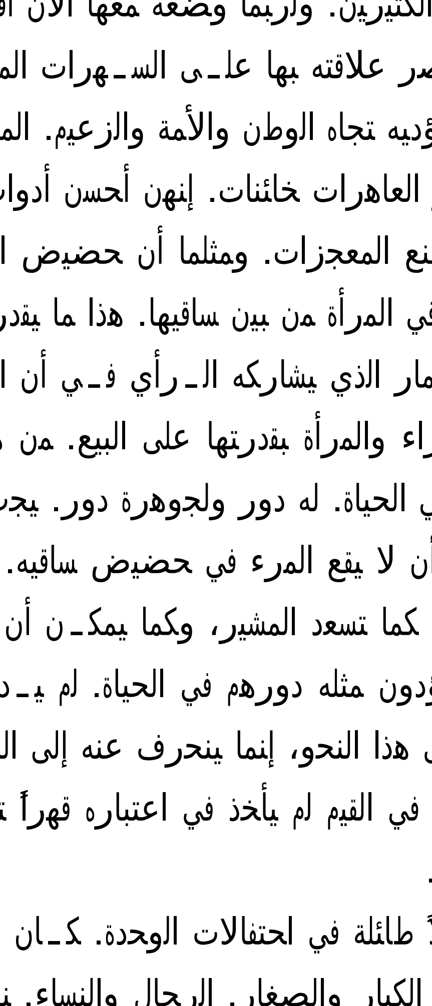
لم يكن ابوه يستقبل في شقته إلا عدداً قليل من المعارف، وإن كان رنين الهاتف لا يتوقف بمجرد وصوله. ومع أن يحيى تحدث مع جوهرة شخصياً وهاتفها مرات عديدة واعتاد صوتها في أفلام السينما، إلا أن الشك لم يراوده إطلاقاً بأنها هي التي تهاتفه من حين لحين وتترك خبراً لأبيه



للاتصال بمكتب المشير عمار. فمنذ إقامته في المنفى لم تعد تتقصى عنه وتتوقعه وتتهيأ له، بل صار يتصل بها بمجـرد وصوله بعد أن غدت وسيلة اتصاله بالمشير. لم يتخذها يوماً عشيقة وإن اعتبرت نفسها عشيقة. كانـت تلهـب حواسـه وتطلق العنان لنزواته وكان يرضيها بالنجوميـة. حسـاباته كانت تقوم دائماً على مبدأ الأخذ مقابـل العطـاء. المـدين والدائن. لكن، بعدما استهوته السياسة وجرفـه تيـار عبـد الناصر الكاسح، لم يعـد ينظـر للأمـور بهـذه المباشـرة والفجاجة، مع أن الجوهر واحد. فهو يريـد أن يقـدم لعبـد الناصر الذي يقدم للأمة مجداً لم تحلم به وعزاً لـم تتوقعـه. لكن أبا يحيى، وهو يطرح الأمور بهذا الشكل مع اللاجئـين السياسين الآخرين أو في لقاءاتـه مـع الضـباط الأحـرار ومسؤولي الحكم في سوريا ومصر، إنما كان يسترد المقابـل الذي يتوقع أن يكون أضعاف العطاء الذي يقدمـه. فالمجـد الذي يصنعه عبد الناصر هو مجد عبد الناصر والناصـريين أولاً ثم مجد الأمة التي يرقون بها ليرتقوا عليها. لأنـه فـي النهاية تؤول الأمة لأصحابها. لم تكن كلمة أصحابها بالنسبة له تتضمن المعنى الشعبي لها. بل المعنى الطبقي الذي يجعل



منه والناصريين على شاكلته مختارين متميزين. على الأمـة أن تقبل إنهاضهم لها ونهوضهم فوقها. إنها معادلة المحاسبة بالتأكيد. لا شيء يأتي من فراغ. ولكل عملية وجهان. مدين ودائن. آخذ ومعطٍ. ناقص وزائد. هذا ليس مجرد قيد رقمي مزدوج. بل معادلة قيمية أيضاً. وهذا ما قصده المتنبي فـي طلب العلا وسهر الليالي. فسهر الليالي ليس محض جهد. بل تضحية بالجسد والروح والإمكانيـات المتاحـة. لأن عبـد الناصر ليس مجرد زعيم، بل نهج حياتي. أنه عقيدة الأمـة التي ستنقلها من الظلمة إلى النور. مجد لا يومض إلا مـرة كل بضعة قرون. لكن ذلك لا يأتي بلمسة سحرية وإنما عـن طريق البذل والعطاء في سبيل عبد الناصر والناصرية. لـم يكن أبو يحيى يستطيع ان يقدم فكراً او جنوداً او سلاحاً. عبد الناصر في غنى عن هذه الأشياء. لكنـه يسـتطيع أن يقـدم الولاء. ولاء مطلق بالمطلق، فلم يأسف علـى فصـله مـن مجلس النواب الأردني مع نهاية العام. بـل علـى العكـس، اعتبر أنه ارتقى درجة في المعارضة وقدم تضحية تقربه من خلود المجد الناصري. كما أنه لم يبال بتحول جـوهرة إلـى عشيقة للمشير عمار. ولم تتأثر علاقته سلباً بها. فهـي منـذ



البداية لم تكن معشوقته وإنما مسليته، وكان يعرف أنها في غيابه تتسلى مع الكثيرين. ولربما وضعه معها الآن أفضل، فبدلاً من أن تقتصر علاقته بها على السهرات الماجنة، أصبح لها دور تؤديه تجاه الوطن والأمة والزعيم. المتخلف وحده الذي يعتبر العاهرات خائنات. إنهن أحسن أدوات الأمة وأقدرها على صنع المعجزات. ومثلما أن حضيض الرجل بين ساقيه فإن رقي المرأة من بين ساقيها. هذا ما يقدره أبو يحيى بالمشير عمار الذي يشاركه الرأي في أن الرجل بقدرته على الشراء والمرأة بقدرتها على البيع. من هنا ينبع دور كلٍ منهما في الحياة. له دور ولجوهرة دور. يجب أن لا تختلط الأدوار وأن لا يقع المرء في حضيض ساقيه. جوهرة تسعده كلما أراد، كما تسعد المشير، وكما يمكن أن تسعد غيرهما طالما يؤدون مثله دورهم في الحياة. لم يدر أنه بقبوله للواقع على هذا النحو، إنما ينحرف عنه إلى الخيال، طالما أن التحول في القيم لم يأخذ في اعتباره قهراً تجاوز عمره الألف عام.

أغدق أموالاً طائلة في احتفالات الوحدة. كان عرساً شعبياً شارك فيه الكبار والصغار. الرجال والنساء. نصبت

أقواس النصر وزينت الشوارع ورقصت الجموع على امتداد الأرض العربية. كان حلماً بعيد المنال، فصيره عبد الناصر حقيقة واقعة رفعته إلى ذرى المجـد وارتفـع معهـا علـم الجمهورية العربية المتحدة خفاقاً فوق القاهرة والشام. وكردٍ سياسي على هذه الوحدة، وقعت بعد اسبوعين اتفاقية الاتحاد العربي بين الأردن والعراق. إلا أنها لم تلق صدى أعلاميـاً ولا رضى شعبياً. مع أن أجهزة الإعلام المصرية والسورية قد رحبت بهذه الوحدة في البداية، معتبرةً أن أي وحدة هـي انتصار حتى لو جاء بها الاستعمار . إلا أن هـذه الأجهـزة سرعان ما انقلبت أقوالها وتحول الخطباء ضدها، وراحـت إذاعة صوت العرب المؤثرة تؤلب الناس عليها. فوجه أبـو يحيى واللاجئون السياسيون من منفاهم نداء أتبعوه ببيان ثـم بيان ونداء، مدعوماً بخطابات مؤثرة لعبد الناصر من حـين لحين، داعين الأردنيين والعراقيين لإسقاط الوحـدة التـي لا تختلف في أهدافها الاستعمارية عـن حلـف بغـداد. إلا أن التجاوب الشعبي في الأردن كان شحيحاً. إذ اقتصـر علـى إصدار البيانات الحزبية والتجمـع حـول أجهـزة المـذياع منصتين لخطب عبد الناصر التي تملأهم حماساً كأنها طبول

الحرب غداة حطين. لا شيء يستنهض الأمة كالاستعلاء ولا شيء يسحقها كالاستسلام .

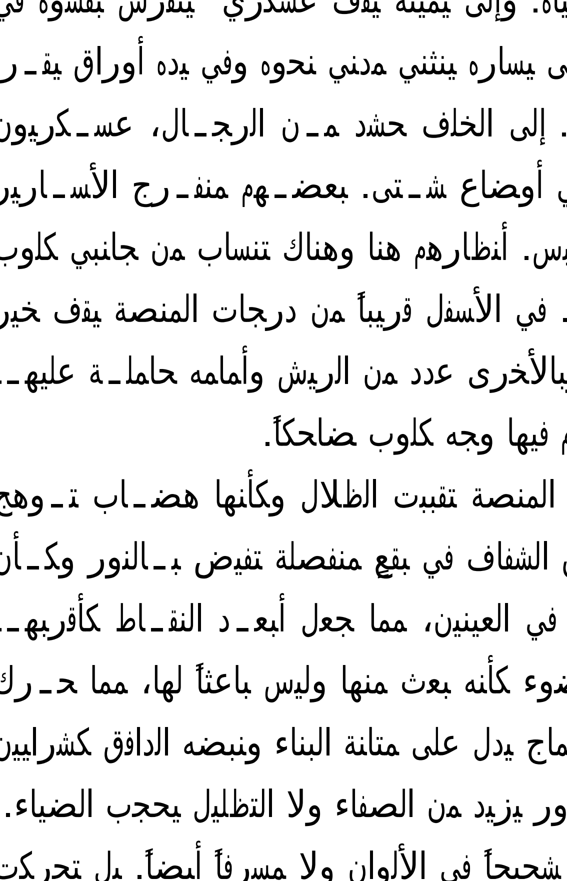
تمخضت الوحدة بـين مصـر وسـوريا عـن توافـد الأقطاعيين والرأسماليين والأثرياء السوريين إلـى عمـان وصارت سيارات الكاديلاك التي يركبها البدوان أمراً مألوفـاً في الشوارع. فانتعشت السياحة الفندقية بشكل كبير مما جعل أبا هاني يفكر جدياً بإضافة حلقة جديدة إلى السلسـة، إلا أن هاني اقترح عليه أن يوسعا نشاطهما إلى الخـارج ويفتتحـا فندقاً في بغداد. أعجب أبوه بالفكرة وأجرى اتصالاته قبل أن يسافر إلى العراق وهناك أبرم عقداً لأنشاء فندقٍ من أربعـة نجوم. إلا أن آماله انهارت وذهبت المصاريف التي تكبـدها هباء، بعدما قضت مجزرة قصر الرحاب على العائلة المالكة في العراق، لينهار الاتحاد العربي في أواسط تموز وتنكمش حدود دولتيه إلى ما كانت عليه، بعد أن كان عمقه يمتد مـن خليج العقبة إلى الخليج العربي، وتروي أرضه ميـاه الأردن واليرموك والرافدين. نزل علـى أثرهـا اللـواء المظلـي الإنجليزي السادس عشر في عمان ونزل رجـال المـارينز الأمريكيون على سواحل لبنان.

دعا أبو يحيى من منفاه الأردنيين لمقاومـة الاسـتعمار الذي طردوه يوم طرد كلوب. لكن الاستجابة الشعبية كانـت أيضاً باهتة، فباستثناء مقتل ثلاثة إنجليز فـي العبـدلي، لـم يصدر بيان بمقتلهم، فإن ذلك الربيع الذي توجتـه وحـدتان عربيتان هائلتان، قد تمخض عنه صيف من الأحقاد، جعـل خير يقول في طريق العودة من لبنان، أنه يفكـر بمشـروع لوحة قريبة في فكرتها مـن لوحـة الاسـتعراض وسـوف يسميها، المدفن.

٧

في كل لونٍ حيوية ونضارة داعبتها الريشـة بشـغفٍ ومهارة، وكأنها ألحان إيقاعات نغمية متوازنة مـؤثرة فـي اتساعها وانكماشها. في صخبها وهمسها. مما أعطى اللوحة أبهتها الجمالية كوحدة منسجمة متكاملة الشكل متوافقة البريق دون أن يختل لون فيها او تترنح لكنته او يفقد خصوصـيته. مثلما الفضاء، فوضاه اتساق وتوافقه حسي ولـيس هندسـياً. تتوزع نجومه بشفافية الروح ودقة الأرقـام. أعطـى بـذلك تماسكاً في الصورة وصلابة في التكوين. فضاعفت الألـوان الداكنة من الإشراق وأبرزت بقتاماتها ما في الألوان الأخرى من بهاء.

في صدر اللوحة منصة ذات درجـات ثـلاث قاتمـة الازرقاق تغطت من منتصفها بسجادة تباين لونهـا الـذهبي كالمحفورات وامتدت إلى منتصف المصطبة الرمادية الداكنة التي تظللت بسقيفة فوق أربعة أعمدة اسطوانية بنيـة لمـع سطحها السماوي وتشرشبت جوانبه المذهبة. داخل المنصـة جلس كلوب فوق مقعد وثير معتمراً حطـة حمـراء غطـى طرفها عينيه حتى أرنبة أنفه مما ابرز فمه الفـاغر بقتامـة،



كأنه فقد الحياة. وإلى يمينه يقف عسكري يتفرس بقسوة في الجمهور وإلى يساره ينثني مدني نحوه وفي يده أوراق يقـرأ منها بانفعال. إلى الخلف حشد مـن الرجـال، عسـكريون ومدنيون، في أوضاع شـتى. بعضـهم منفـرج الأسـارير وبعضهم عابس. أنظارهم هنا وهناك تنساب من جانبي كلوب او تتجه إليه. في الأسفل قريباً من درجات المنصة يقف خير بيده ملونة وبالأخرى عدد من الريش وأمامه حاملـة عليهـا رقعة مرسوم فيها وجه كلوب ضاحكاً.

خلف المنصة تقببت الظلال وكأنها هضـاب تـوهج بينها الأزرق الشفاف في بقع منفصلة تفيض بـالنور وكـأن اللوحة تكبر في العينين، مما جعل أبعـد النقـاط كأقربهـا محمولة بالضوء كأنه بعث منها وليس باعثاً لها، مما حـرك الظل في اندماج يدل على متانة البناء ونبضه الدافق كشرايين طفل، فلا النور يزيد من الصفاء ولا التظليل يحجب الضياء.

لم يكن شحيحاً في الألوان ولا مسرفاً أيضاً. بل تحركت ريشته عفوياً سواء في التشذيب او التعويض او الاسـتدراك او الإضافة، بحيث غدا اللون أكثر من مجرد صبغة تباين في الحدود وتزيد في البريق، بل مادة متوهجة عبرت بجـلال

وتواضع عن إيقاع الحياة. من جانب آخر فرشـت حركـة الألوان أسلوب حياة خاصة تمتد إلى أدق التفاصيل، بحيـث غدت جزئية العلاقات كلية في التعبير الذاتي عن الضـرورة والعبثية في آن. ففي اقصى اليمين سهب خفيف الاخضرار. تتنقط فوقه بقع آدمية فضية زرقاء يزيد في لمعانها تخفيـف اللون أمامها شيئاً فشيئاً ليميل إلى البرتقالي المصـفر كـأن الشمس تنبع منـه ولا تحـط عليـه. فتوهجـت الأرضـية الزعفرانية بالحرارة وكأنها مغطاة بعشب نيسان. دونما قاطع خطي مع المنصة أو ساحة الاستعراض. معتمداً في تدرجـه اللوني دليل رود في اللونيات الحديثة.

يتفاوت مستوى النظر صعوداً وهبوطاً باعثاً فضـولاً مضاعفاً في مقدمة اللوحة حيث بـدت الشـخوص غريبـة والألوان صارخة في تكوين معقد تناثرت فيه رؤوس رمادية داكنة من غير وجوه، تخال تزاحمها الفوضوي نقاط بيضـاء قببتها استدارة خيوط ناعمة سوداء . يتماوج أمامها خطـان من البني والبيج في تكثيف وتخفيف لمع مع بعضها كثيـابٍ جديدة وخبا مع أخرى كثيابٍ بالية لتبـدو أشـكالها الآدميـة متباينة القامات. تمتد منها أذرع بيج تشـير إلـى المنصـة.

وقريباً إلى اليسار يقف أحدهم حافياً فوق برميل ملوحاً بيديه وآخر يكاد يقع من فوق ستفة طوب متأرجحة وآخر يعتلـي كتفي آخر بينما ينخزه ثالث من قفاه. فـي أقصـى اليسـار عريشة زينكو كتب عليها "دخان"، وربط بها حمـار أسـقط اللون الأبيض وبره وثبت الأسود قوائمـه البليـدة وأحـرن الرمادي أذنيه المنتصبتين. وقف أمام العريشة رجل ينظـر إلى نافذة في السور تطل منها امرأة تنظر إلى الاستعراض. في الفسحة بين الحضور وساحة العروض طبالون وزمارون ومهرجون. وهناك سواس ومتسول وشرطي ينهر بعصـاه صبياً.

كل بقعة في اللوحة تعمل من تلقاء ذاتها. بما في ذلـك عروض الرياضين التي تغطت بها الساحة في فوضى منظمة خبا فيها صف العدائين مثل حبات خـرزٍ متصـاغرة فـي أقصى اليسار من المنصة، وعلى يمينها سقط ظل سـقيفتها خلف هاني فأضاءه مع متوازي الجمباز الذي يرفعه بيديـه. وقد عملت الريشة بسلاسة ومهارة جعلت الألوان تلمع فـي تشكيل فني معبر بأسلوب كاريكاتري، عن جدلية العلاقة بين ذات الفنان وموضوعه.

- أين أنا.؟... قال يحيى، بعد أن تأوأو وصفر وأبـدى الدهشة.

- ولو. أنت سعود المصـري... ضـربا كفـاً بكـف وتضاحكا، إلا أن خير كان في شوق ليريه صورته أكثر من شوقه لرؤيته، فأسرع يقلب رقعة مستندة بوجهها إلى الجدار. طاش صواب يحيى وهو يتأملها : أخيراً رسمتني يا جليلـي. لكن وا شكلي على طبيعتي أحلى.

كان قد مضى نحو شهرين على قصته مع سعاد عنـدما جاءه يحيى إلى المرسم بعد المغرب بقليل. وكما فوجىء بـه فقد فوجىء يحيى بالتسوية التي تحولت إلى متحـف مضـاء بالكهرباء. أخبره بأنه عرف من موفق عما حصل معه.

لم يقضيا في المرسم وقتاً طويلاً. قال يحيى أنه يشـعر بظمأ شديد، فذهبا إلى البار اليوناني، وقبل أن يبدءا الشرب، اقترح يحيى أن يتصلا بهاني، فرفض خير بشدة، إلا انه بعد أن شربا عدداً من الأقداح اتصلا به سوية وهدداه إن لم يأتِ إليهما سيذهبان إليه مطينين. جاء هاني بعد حـوالي نصـف الساعة وظل معهما حتى منتصف الليل.

كانت جلستهم على غير العادة، متزنة هادئـة. طغـى حديث السياسة على أحاديثهم الأخرى. أبدى يحيى هذه المرة انحيازاً لعبد الناصر والوحدة بين سوريا ومصر، بينما انحاز هاني لاتحاد الأردن والعراق. قال بزهو أنهم بصدد إنشـاء فندق ضخم في بغداد. كان خير منحازاً للتسوية التـي أثـار حديث يحيى عنها وبخاصة رسمة الاستعراض حماس هاني لزيارتها. عاتب خير لأنه لم يعلمه عن استقرار أموره فيها. لو عرف لجاءه من قبل : إخص عليك... وإلى يحيـى : آ. حبيبي يحيى. كيف أنا طالع في الرسمة.؟.

لم ينتظر لليوم التالي، فبعد أن قضوا علـى الزجاجـة، استحثهم هاني للمغادرة، وفاجأهم عنـد الشـارع بسـيارته الخاصة : أهذه لك.؟... قال يحيى مندهشاً.

- طبعاً. أوتظـن أن آل العفيـف وحـدهم يركبـون السيارات.؟!.

اتجهوا بالسيارتين إلى الجوفة. في التسوية خيبت اللوحة أمل هاني : أهذا أنا... مشيراً إلى الركن الـذي رسـم فيـه متوازي الجمباز مثل خيطين رفيعين بينهما خيط أرفع منـثنٍ طرفه. أضاف مؤنباً يحيى : ساعتين وأنت تقـول راسـمني

وراسم نجم وكل الـذي آراه خربشـة وصـورتك لحالـك المرسومة.. مشيراً برخاوة إلى صورته فوق الحامل.

- يعني ما عجبتك.؟.. سأل خير باستياء.

- مسخرة...

- أنت وكل فنادق أبيك مسخرة.

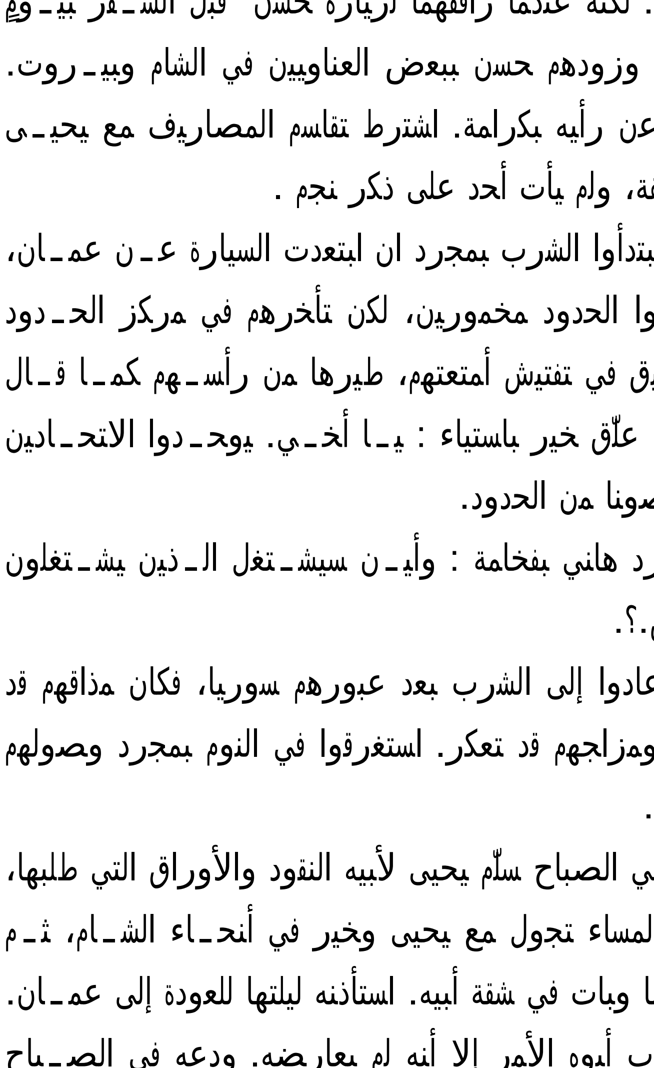
انقض عليه هاني وأمسكه مـن إبطيـه ورفعـه عـن الأرض : ماذا قلت.؟.

- خاص يا جماعة. قبل قليل كنا كبار.

انفكا وغادر هاني حانقاً، وهو يحس بـأن يحيـى فـي حديثه عن لوحة الاستعراض إنما كان يستدرجه ليشاهد رسم صورته. لكنه في اليوم التالي، أحس بالـذنب ونـدم علـى سلوكه. لعن الخمر وهو يعتذر من خير في الدكان. اتجه معه إلى بيت العفيف، فاستقبلهما يحيى بترحاب. أخبرهمـا أنـه سينقل أغراضاً لأبيه في سوريا. تحمسا لمرافقته مما جعلـه يقترح الذهاب إلى لبنان ايضاً.

تساءل خير : ونجم يا جماعة، ألن يأتي معنا.؟.

لاذ يحيى بالصمت وتبدلت أسارير هاني الذي تراجـع عن فكرة السفر في نهاية اللقاء بحجة أنه لا يسـتطيع تـرك



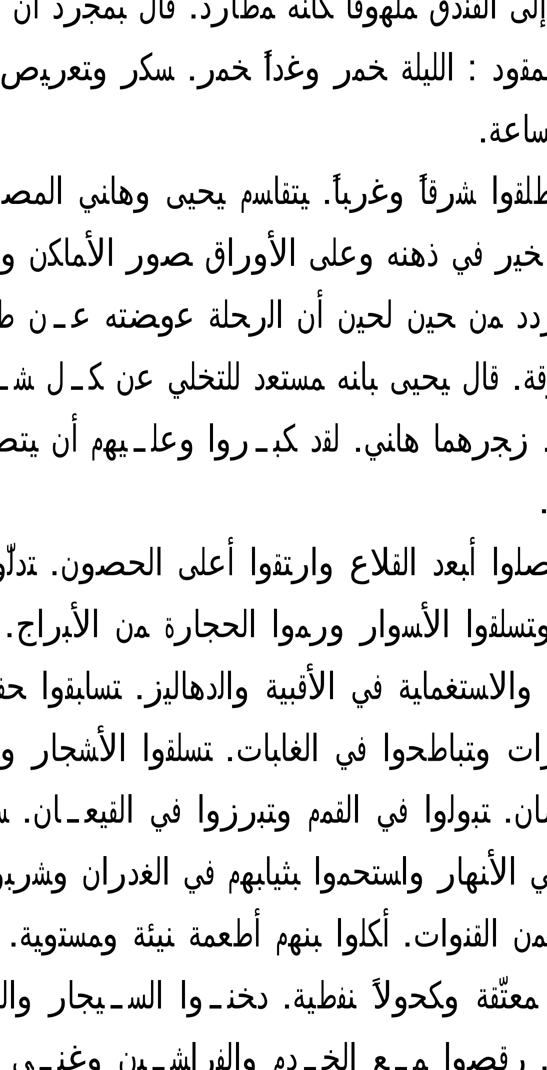
الفندق. لكنه عندما رافقهما لزيارة حسن قبل السـفر بيـوم واحد، وزودهم حسن ببعض العناويين في الشام وبيـروت. عدل عن رأيه بكرامة. اشترط تقاسم المصاريف مع يحيـى مناصفة، ولم يأت أحد على ذكر نجم .

ابتدأوا الشرب بمجرد ان ابتعدت السيارة عـن عمـان، فوصلوا الحدود مخمورين، لكن تأخرهم في مركز الحـدود والتدقيق في تفتيش أمتعتهم، طيرها من رأسـهم كمـا قـال يحيى. علّق خير باستياء : يـا أخـي. يوحـدوا الاتحـادين ويخلصونا من الحدود.

رد هاني بفخامة : وأيـن سيشـتغل الـذين يشـتغلون بالناس.؟.

عادوا إلى الشرب بعد عبورهم سوريا، فكان مذاقهم قد تغير ومزاجهم قد تعكر. استغرقوا في النوم بمجرد وصولهم الفندق.

في الصباح سلّم يحيى لأبيه النقود والأوراق التي طلبها، وفي المساء تجول مع يحيى وخير في أنحـاء الشـام، ثـم تركهما وبات في شقة أبيه. استأذنه ليلتها للعودة إلى عمـان. استغرب أبوه الأمر إلا أنه لم يعارضه. ودعه في الصـباح



وذهب إلى الفندق ملهوفاً كأنه مطارد. قال بمجرد أن اسـتعد خلف المقود : الليلة خمر وغداً خمر. سكر وتعريص علـى مدار الساعة.

انطلقوا شرقاً وغرباً. يتقاسم يحيى وهاني المصـاريف ويرسم خير في ذهنه وعلى الأوراق صور الأماكن والنـاس وهو يردد من حين لحين أن الرحلة عوضته عـن طفولتـه المسروقة. قال يحيى بانه مستعد للتخلي عن كـل شـيء إلا طفولته. زجرهما هاني. لقد كبـروا وعلـيهم أن يتصـرفوا كالكبار.

وصلوا أبعد القلاع وارتقوا أعلى الحصون. تدلّوا فـي الآبار وتسلقوا الأسوار ورموا الحجارة من الأبراج. لعبـوا الطماية والاستغماية في الأقبية والدهاليز. تسابقوا حفاة على المنحدرات وتباطحوا في الغابات. تسلقوا الأشجار وتبارزوا بالأغصان. تبولوا في القمم وتبرزوا في القيعـان. سـبحوا عراة في الأنهار واستحموا بثيابهم في الغدران وشربوا مـع البهائم من القنوات. أكلوا بنهم أطعمة نيئة ومستوية. شربوا خموراً معتّقة وكحولاً نفطية. دخنـوا السـيجار واللفـائف العربية. رقصوا مـع الخـدم والفراشـين وغنـى يحيـى

للمصطافين وهاني للفلاحين وعيش خير باكونين. سخر منه أحد المثقفين : صارت عظامه مكاحل يا محترم.

- أنت ما دخلك... وعيشه مرة أخرى، فـردد يحيـى وهاني من خلفه ثلاث مرات.

تغزلوا بالبشعات والجمـيلات، وضـاجعوا المسـنّات واليافعات. لعنوا الأتراك تودداً للأرمنيات، وأفاضـوا فـي كلاحة اللاذاقنة استرضاء للحلبيات، وتجدبوا علـى الشـوام لإضحاك الحمصيات. تقربوا من بعلو بـرش الخمـر فـي الهواء. وحتى لا يزعل التاريخ، حفـروا أسـماءهم علـى صخور أوغاريت وتضرعوا لتالاي بالعويل والبكـاء حتـى تخمر المطر وتكفيهم شراء الزجاجات. كانت أيامـاً مجيـدة على رأي يحيى.

عبروا الحدود إلى عكّار. وفي طـريقهم إلـى الأرز صاروا يرمون الزجاجات من نوافذ السـيارة فلحـق بهـم الزغارتة. لاذوا بالفرار في مسالك فرعية مسفلتة وترابيـة، فأضاعوهم وضاعوا. استنجدوا بجبلي تقدمهم فـوق حمـاره إلى مشارف زحلة.

تزودوا منها بزيت الحشيشة، دخنوه ونوافـذ السـيارة مغلقة حتى لا يضيع شيء مـن التعميـرة. مالـت أمـامهم المنبسطات وارتفعت المنحدرات وتسفلتت البساتين وتسـفنج الدبش وتكرتن الصخر وهرب عن طريقهم المشاة وتنحـى الراكبون وأفزعوا القرويين الذين ظنوهم مهربين.

فجأة وجدوا أنفسهم في شوارع مضاءة ومدينـة تعـج بالحياة : أين نحن يا جماعة.؟..

سألوا سائق تكسي فأخبرهم، مبعداً أنفه جهة اسـرائيل، أنهم في بيروت. استغربوا كيف وصلوها ومن أين جاؤوها. لكنهم تذكروا العنوان الذي أعطاهم إياه حسن، فسألوا السائق أن يرشدهم إلى بنسيون سيمونا في الزيتونة. استجاب طمعاً بأجرة ليلة كاملة وفي نيته أن يذهب بهم إلى العنـوان عـن طريق عمان. قال زيتونة قال. لكنه مـا أن تقـدمهم حتـى أهاطوا زيتون رأسه، فاختصر أقرب طريق وهـم يتبعونـه بأقصى سرعة والزوامير والأضواء والصراخ كأنه مطارد. كادوا يرتطمون به أكثر من مرة فأشار بذراعه إلى البنسيون وهو يلهث ويواصل مبتعداً متخلياً لهم عن أجرته. أينما حـل العرب تهان السياحة وتشمئز السياسة. الطمع غدار. تفكهـوا

عليه وهم في قمة الخدر والفجور. ناموا متـأخرين وأفـاقوا مبكرين، يكاد الصداع يفلق رؤوسـهم وأحشـاءهم تتلـوى وتحاول الإفلات. هدأوا من نقمة أجسادهم بتخـديرها مـن جديد، وابتدأوا الشرب مع الإفطار. عنـد العصـر اتصـلوا بعنوان آخر زودهم به حسـن، فوصـلهم الكوكـائين إلـى البنسيون. ما أن استنشقوه حتى توهجوا باليقظـة والانتبـاه وكأن أعينهم ارتفعت فوق جباههم، فاستنزفوا جميع البيـرة الباردة في البار. تاقت أجسادهم للنساء وألسـنتهم للحـديث وحيويتهم للسهر، فقرروا الذهاب إلـى الكـازينو، إلا أنهـم وجهوا بمعضلة. رفض خير بإصرار أن يتهنـدم، فطلـب يحيى المعونة من سيمونا، التي استأجرت له بدلة وحذاء على القياس وأعطته من عندها ربطة. ارتداها خير لأجل خـاطر باخوس.

-خلينا ننبسط منك وأنت متأنق يا ابن الحلال.

كادت الربطة تخنقه وهو يحاول التخلص منها ساخطاً غاضباً بينما يحيى وهاني يشيران عليـه ويتكركـران مـن الأعماق : انبسطتما.!.

كان منظره مستهجناً أيضاً في سوق البغاء وهو يعـرج مستنداً على ذراعيهما بسبب ضيق الحذاء وثقله : يا جماعة. خليني أجاب الزنوبة من السيارة.

- وصلنا. وصلنا. لا تظل تنق.

عبروا معظم الأزقة وزاروا كثيراً من بيوتهـا قبـل أن يحددوا خياراتهم وينتظروا دورهم. عانى خيـر مـن ثيابـه الرسمية أكثر مما عانى من العاهرة التي صرخت بـه وقـد ظنت أنه يستخف بها بعدما نزع عنه كل شيء إلا الربطـة أعيته. لما بارح غرفتها حاملاً حذاءه بيديه شخصت به عيون الرواد فتجاهله يحيى وهاني وهرولا راكضين إلى الشارع : التوبة أتشرشح ثانية. الأولى أن يسمونها بهدلة وليس بدلة.

- ولا يهمك... قال يحيى بفخامـة وأضـاف : فـي الكازينو جميعهم يرتدون بدلات...

ترجل خير، يتقدمه هاني ويحيى كرجلي أعمـال. لمـا اقتربوا من المدخل، تيبس يحيى في مكانـه وامـتص نفسـاً سريعاً كتمه في صدره وكشر عن أسنانه بقرفٍ وهو يضغط يده فوق عينيه : يا ا .

- ماذا بك.؟... سأله هاني.

ازدادت تكشيرته حدة وهو يشير بإصبعين إلى الأرض جهة خير.

- قلت فقط يرتدون بدلات. لن أضع كندرة في قـدمي مهما حصل.

لكنه حصل بعدما حمله هاني من ظهره وعاد به إلـى السيارة عنوة. هم بتمزيق الزنوبة، فهدده خير رافعاً أصبعه : ستكون آخرتها بيني وبينك. إياك. ما عندي غيرها.

وبخه هاني بالمقابل : هل تريد أن تفضحنا.؟.

- لماذا أفضحك.؟.. قال بنرفزة وهـو يحشـر قدمـه بالحذاء.

صرخ به هاني : كل الناس المحتـرمين فـي الـداخل يرتدون كنادر، وأنت تريد أن تـدخل بالزنوبـة... وأشـار للمبنى.

- يا أخي أنا لا أرتاح إلا بالزنوبة .

- لا تتفلسف. المحترم بكندرته فقط.

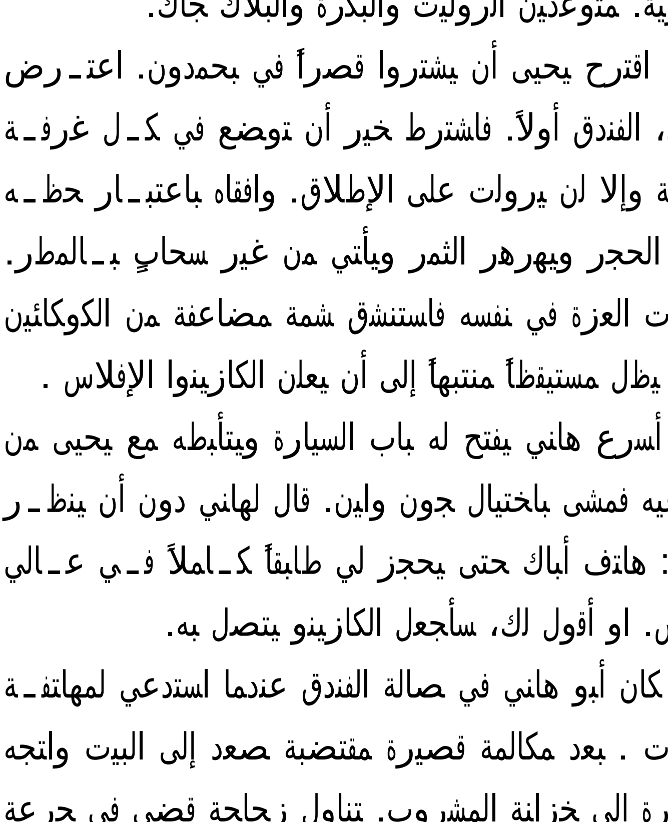
بمجرد دخولهم جلب خير انتباه العـاملين والسـائحين والمقامرين الذين راحوا ينظرون إليه مستغربين مما أربكـه وأحرجهما : أعجبكما.؟.

طمأنه يحيى بصوتٍ خفيض من طرف فمـه : أكيـد يعرفونك. أنت فنان مشهور يـا رجـل.. وانفجـر هـاني متكركراً.

- ما الذي يضحكك.؟... سأله خير باستياء. راوغ هاني في الإجابة : لا. لا شيء. قل لي يا خير. افترض يا صاحبي أنك ربحت الليلة عشرة آلاف ليرة، ماذا ستفعل بها.؟.

- سأعطيك إياها...

أعطاه إياها تنقص ألفين، وثلاثـتهم يطيـرون فرحـاً. اتجهوا في اليوم التالي إلى الأسواق وهـم يرومـون إنفـاق النقود فحسب. تلذذوا بالشراء أكثر من المشتريات. اشـتروا ما يحتاجون وما لا يحتاجون وأسرفوا فـي طقـم أنفسـهم بالثياب ولم ينسوا حسن ونجم، فاشتروا لهذا سترة من جلـد النمور ولذاك قلبقاً قوزاقياً. كانت حصة خير زنوبة جديـدة ونظارة سوداء وقبعة كاوبوي إضافة إلى ساعة أصر عليـه كلاهما بشرائها. تقلدها مباشرة كما وضع قبعـة الكـاوبوي والنظارة السوداء، مبقياً الزنوبة في الكيس لأجل العيد.



في البنسيون، دفعوا حساب الجالسين في البار وأغـدقوا على سيمونا وفتياتها، وفي انتظار الليل لعبوا معهن البـوكر العارية. متوعدين الروليت والبكرة والبلاك جاك.

اقترح يحيى أن يشتروا قصراً في بحمدون. اعتـرض هاني، الفندق أولاً. فاشترط خير أن توضع في كـل غرفـة زنوبة وإلا لن يرولت على الإطلاق. وافقاه باعتبـار حظـه يفلق الحجر ويهرهر الثمر ويأتي من غير سحابٍ بـالمطر. تفاقمت العزة في نفسه فاستنشق شمة مضاعفة من الكوكائين حتى يظل مستيقظاً منتبهاً إلى أن يعلن الكازينوا الإفلاس .

أسرع هاني يفتح له باب السيارة ويتأبطه مع يحيى من ذراعيه فمشى باختيال جون واين. قال لهاني دون أن ينظـر إليه : هاتف أباك حتى يحجز لي طابقاً كـاملاً فـي عـالي بالاس. او أقول لك، سأجعل الكازينو يتصل به.

كان أبو هاني في صالة الفندق عندما استدعي لمهاتفـة بيروت . بعد مكالمة قصيرة مقتضبة صعد إلى البيت واتجه مباشرة إلى خزانة المشروب. تناول زجاجة قضى في جرعة واحدة على حوالي ربعها وصرخ منادياً زوجتـه، فجـاءت

تركض : ابنك يا بنت الأكابر مقطوع في بيروت والبنسيون حاجز جواز سفره.

وصلوا الحدود الأردنية قبل الظهر، لكنهم لم يغادروهـا إلا عصراً بسبب احتجاز يحيى والتحقيـق معـه. عنّفـوه وأهانوه وشتموا أباه وهددوه. وبخه أحدهم مغتاظاً : أنت في الكازينوهات، وأبوك يتآمر ويمول انقلابات...وطلبـوا منـه مراجعة دائرة المباحث لتسلم جواز سفره.

غشيه كدر وضيق وراح يكيل الشتائم طولاً وعرضـاً طيلة الطريق إلى عمان. ما دخله بما يفعله أبوه. إنه يكـره السياسة والسياسيين. ويكره الانقلابات والانقلابيـين. لـيس بالضرورة أن ينشأ الابن كأبيه. إنه لا يشبه أباه ولا يريد أن يشبهه. مع أنه يحبه ويعبده ولن يغفر لهم شـتائمهم لـه ولا يقبل تهديدهم أيضاً. ما دخل أبيه بما حصل في العـراق.؟. حتى لو كان له ضلع بالانقلاب، ما دخله هو.؟. أيام مجيـدة من الفرح تنتهي مقيتة في لحظات. لينتظروا على الأقل حتى الصباح كي يقضي ليلته مع ذكريات رحلته البهيجة بدلاً من أن يقضيها مع نكد التحقيق واحتجاز الجواز كأنه مطلوب في جريمة . صرخ بأعلى صوته وهو يضرب علـى المقـود :

أبي لا يعجبهم لأنه يمول انقلابات. وأنا لا أعجبهم لأنني أقضيها في الكازينوهات. ماذا يريدون مني.؟. أن أقضيها في الجامع.؟. وهل سيتركوني وشأني عندها.؟. أنا أحب البلاد، فلماذا يدفعونني لكرهها.؟.. وصرخ : لماذا.؟.

ظل يتحدث بعصبية بينما خير في المقعد الخلفي مرخياً طرف قبعته فوق عينيه مستعجلاً الوصول إلى لتسوية التي غدت مأواه وملاذه ومحترفه. خالجه إحساس سجين أطلق سراحه ويتطلع للوصول إلى بيته حيث الأمن والاستقلالية. شاب حنينه قلق على لوحاته راح يتنامى شيئاً فشيئاً. رفع قبعته قليلاً فلاحظ الوجوم في وجه هاني وهو يدير نظره إلى الجانب محملقاً بالطريق وقد غمر وجهه كدر وكآبة ؟ قال كمن يحادث نفسه : ضاع مشروعنا في العراق... بينما المذياع يبث موسيقا عسكرية يتخللها أخبار الانقلاب العسكري الذي أودى بالحكم الملكي وقضى على الاتحاد العربي.

استقل هاني سيارة أجرة حملته وأمتعته إلى الفندق، وواصل يحيى متكدراً إلى الجوفة. فأحس خير بالارتخاء عندما ظهرت المصبغة في أول الكوربة وظلت أنظاره معلقة

ببابها السحاب المغلق حتى بعد تجاوز السيارة لها. تسللت إليه الريبة فطلب من يحيى عدم الوقوف به أمام المبنى. سوف يذهب إلى التسوية من الخلف. استجاب يحيى دونما تعليق.

استرخى متعباً في التسوية. لكنه لم يقو على البقاء، فاتجه إلى الدكان قبل أن يصعد إلى البيت لتقصي الأمر. أمعقول مات في غيبته.؟.

كان باب الدكان مفتوحاً وبجانبه عربة على عجلات تعرم سطحها بالترمس. أسرع إلى الداخل فوجد كهلاً يحتل كرسيه : ماذا تفعل هنا.؟... قالها بنبرة غاضبة حادة.

وقف الرجل مرتبكاً وقال متلعثماً : خالتي أم الخير... وأشار براحة مرتخية للأعلى : سلمتني الدكان... نظر إلى وسط خير، فشعر بالراحة لأنه لا يضع حزاماً أو مسدسين.

احتقن وجه خير وقال وهو يفتل يده بعصبية : وهل مات أبو الخير حتى تسلّمك إياه.؟. بسيطة.

اندفع نحو بيت أبيه وهو يغلي غضباً. فوجىء بصبيين يقتعدان الأرض في مصطبة الطابق الثاني وباب البيت من

خلفهما مفتوح : ماذا تفعلان هنا.؟... سأل بدهشة خففت من غضبه.

- نسكن هنا... أشار الصبي بخشية إلى الباب المفتوح. بسيطة. ردد بصوتٍ مسموع وهو يستدير نحو الدرج. وجدت فرصتها في غيابه بضعة أيام . ارتقاه قفزاً وفي نيته أن يبدأ الصراخ من عتبة الباب. كانت أمه تجلس مع أبيه على حافة الأريكة وكلاهما عابس مكفهر. بادرته ساخرة : الحمد على السلامة... قالت وهي تفتح عينيها وتهز رأسها كأنها تتوعد. بينما راح أبوه يحملق بالقبعة كالمأخوذ.

- ا يسلّمك... رد بلؤمٍ وتحدٍ. همّ بأن يضيف، فقاطعته : أين كنت غائباً.؟. في المرستان... فطن إلى قبعته.

- المرستان ليس لأشكالي... وصرخ : ماذا فعلتِ في الدكان.؟.. وأشار بيده للوراء.

- أهذا الذي يهمك.؟.

توجس من أبيه الذي راح يحاوص بانفعال وتوتر وهو يتلفت حواليه : لماذا.؟. وماذا حصل.؟.

ترنحت وقفته عندما قال أبوه وهو يكز أسنانه : إطلع من هنا... ورماه بالعكاز رمية واهنة منحرفة أصابت

اسكملة : أقول لك إطلع من هنا... قالها بصوتٍ عـالٍ هـذه المرة، فجاءت التوأمان راكضتين مع قول أمهمـا : طـول بالك. لا تزعل حالك... بمجرد أن لمحته شقيقتاه حتى عبـر وجهاهما عن حقدٍ ومرارةٍ شديدين

- عملتيها.؟.. قال وهو ينظر إلى أمه بشراسة.

- أنا التي عملتها.؟. تساءلت وهي تتفرس به بوحشـية لبؤة بينما ترمقه شقيقتاه بقرف وغيظ. أضافت وهي تتشـهد بإصبعيها : ا لا يوفقك على عملتك السوداء... هـم أبـوه بالنهوض، فأخفق.

- أي عملة.؟.. قال باستهجان حاول فيه إخفاء ارتباكه. تذكر غرفة الغسيل. فصرخ أبوه بابنتيه : ناوليني العكاز.

- أفهموني ماذا فعلت.؟... قال بقلق.

- أعطيني العكاز... صرخ أبـوه ثانيـة، فأسـرعت الصغرى إليها وتراجع خير خطـوة : تـآمرتم علـي فـي غيبتي.؟.

- أنحن الذين تآمرنا عليك يا من لا تستحي... تنـاول أبوه العكاز : عملت عملتك وهربت حتـى تحطهـا بـرأس خالك...

وقف أبوه متفرساً فتقهقر إلى عتبة الباب : اتركك منه أبي... قالت الصغرى وهي تمسكه من ذراعه : اتركيني... رد أبوه بحدة وهو يخطو خطوة.

ثنت الكبرى على قولها : لماذا تعلق معه. خلّي الشرطة تربيه... وتقدم أبوه حانقاً.

كن يتطلعن لخروجه الذي سيكون الأخير، ويريد أبـوه أن يجعله اليوم الأخير.

- وماذا فعلت حتى تبحث عني الشرطة.؟..

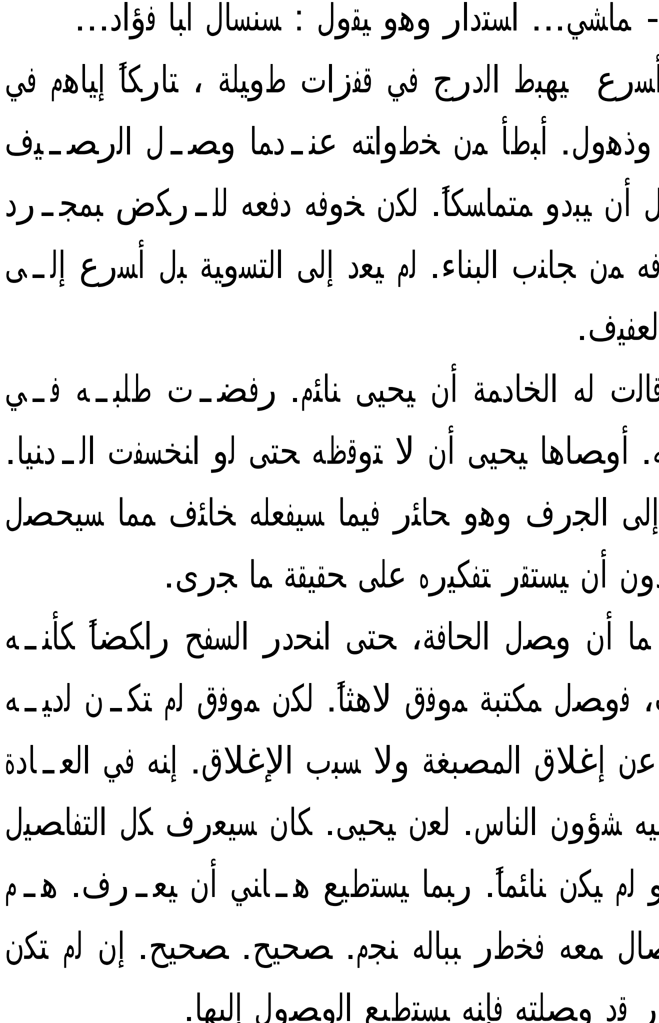
- قلت اتركيني... قال أبـوه وهـو يحـاول الـتماص بوهن : وا لأذبحك.

دفع طرف العكاز نحوه فأمسكها بيده وتنازعاها للحظة، كاد أبوه فيها أن يقع لولا أن وازنته أمه وأسندته شـقيقتاه : هيا أكمل على أبيك العطيل..

أفلت طرف العكاز وقال لأمه : كله منك يا مطلّقـة... تفرسوا به جميعاً بحقدٍ، بينما قالت أمه بضعف : من قال إني مطلّقة.؟.

أشار إلى أبيه وقال بحدة : هو قال ذلك.

- أنا ما طلقتها... قال أبوه مترجرجاً.



- ماشي... استدار وهو يقول : سنسأل أبا فؤاد...

أسرع يهبط الدرج في قفزات طويلة ، تاركاً إياهم في حيرة وذهول. أبطأ من خطواته عندما وصل الرصيف وحاول أن يبدو متماسكاً. لكن خوفه دفعه للركض بمجرد انحرافه من جانب البناء. لم يعد إلى التسوية بل أسرع إلى بيت العفيف.

قالت له الخادمة أن يحيى نائم. رفضت طلبه في إيقاظه. أوصاها يحيى أن لا توقظه حتى لو انخسفت الدنيا. اتجه إلى الجرف وهو حائر فيما سيفعله خائف مما سيحصل معه دون أن يستقر تفكيره على حقيقة ما جرى.

ما أن وصل الحافة، حتى انحدر السفح راكضاً كأنه يهرب، فوصل مكتبة موفق لاهثاً. لكن موفق لم تكن لديه فكرة عن إغلاق المصبغة ولا سبب الإغلاق. إنه في العادة لا تعنيه شؤون الناس. لعن يحيى. كان سيعرف كل التفاصيل منه لو لم يكن نائماً. ربما يستطيع هاني أن يعرف. هم بالاتصال معه فخطر بباله نجم. صحيح. صحيح. إن لم تكن الأخبار قد وصلته فإنه يستطيع الوصول إليها.

ما أن سمع نجم صوته حتى سأله بلهفة متى عاد وأيـن هو الآن وأخبره أن يوافيه على الفور فلديه أخبار هامة بشأن خاله رفض أن يبوح بها عبر الهاتف.

٨

فطنت سعاد إلى حملها بعدما تشككت أمها من انقطـاع حيضها، وكانت أعراض الحمل قد واتتها قبل ذلـك دون أن تنتبه لها. لم يكن أمامها من سبيلٍ للنجاة سوى تنفيـذ نـذير لوعده في الزواج منها. لكن نذير الـذي ردد فـي نفسـه " راحت السكرة وجاءت الفكرة "، لم يكن أمامه سوى النكران. طردها على مرأى من جلسائه طالباً منها أن تذهب إلى الذي افتضها حتى يتزوجها. قال لها أحد الجلساء منحازاً لنـذير : اذهبي للشرطة... فأوحى لها بفكرة الاشتكاء طلبـاً للحمايـة وليس طمعاً بنذير او انتقاماً منه. لاسيما وأنها وجدت نفسـها وحيدة مع مشكلتها وغدا الرجوع للبيت مستحيلاً.

أحس نذير بالورطة بمجرد مغادرتها، فأغلق المصبغة واتجه إلى شقيقته. انفرد بها شاكياً ابنها الذي يريـد تـوريط العائلة بأسرها بعد وقعة أبيه. سمعت منه دون مقاطعة، اللهم إلا لعن خير والدعاء عليه. في نهاية حديثه آخذته متسـائلة كيف يستقبله وبرفقته فتاة . أقسم أنه لم يسمح لها بالـدخول وناوله من الباب الدينار الذي طلبه حتى يخاص منـه. مـا أدراه أن خير يكيد له ويحاول الإيقاع به لأنه وقف مع أبيـه

في مشكلته مع بنت المكنوز. قبلت أم الخير هـذا التبريـر، على سذاجته. كانت مستعدة للدفاع عن براءة أخيهـا دونمـا تبرير، إن تطلب الأمر. حتى لو اقتضى ذلك تجـريم خيـر دونما دليل. بالنسبة لها كان نذير قارب النجاة الوحيد ويمثل خير مجذافه. كلاهما له أهميته ولكلٍ منهما أولويته. قد تذود عن القارب بالمجذاف، لكنها لن تفعل العكس في لجة بحـر إبي الخير وعصفه المجنون. حتى وإن سقط أبو الخير فـإن تاريخه وما حمله من سطوة ورهبة وطغيان يحتـاج سـنين للسقوط، وقبل أن يتم ذلك فإن التاريخ ينتقل من يدٍ إلـى يـدٍ تزول خلال ذلك صفحات وتتبدل صفحات، إلـى أن يـأتي مستبد آخر شغوف بصنع التاريخ. لم يكن بالإمكان أن تصبح أم الخير ذلك السيد طالما أن زوجها ما يزال على قيد الحياة، ولو صورياً. فالانتقال من تاريخٍ إلى تاريخ يسـتلزم قـدراً جديداً يزيل الرموز القديمة وليس رؤية جديدة بوجوه قديمة. فأم الخير وهي تقبض على التاريخ القديم، تستطيع التجـذيف بيديها وتتعلق بقاربها دون أن تفكر ولو للحظة بتجاوز اللجة فوق مجذافها، حتى لو كان الشاطىء هادئاً والمـوج خفيفـاً. بالقدر نفسه كان خير يؤثر أن يكون قرصاناً على أن يصبح

رباناً، لهذا فهو لا يفكر ولو للحظة بأن يستغيث او يغيـث، ولم يعد يهمه بعد كل الذي جرى أن يبيض اسمه مع عائلتـه او يغير شكله لأجلهم او يزيل عن وجهه طلاء العقوق الذي ألصقوه به. وازن هدوء الريح علاقات العائلة منذ إعادة أبي الخير إلى البيت وحتى مجيء نذير. كان مـن الممكـن أن يستمر هذا التوازن الهش خلال غيبة خير في لبنان، لولا أن هبت عاصفة سريعة خاطفة فاصطدمت سفينة الربان بسفينة القرصان.

تلك الليلة، لم يجرؤ نذير على المبيت إلا بعد منتصـف الليل وكانت زوجته تغط في نومٍ عميق. بينما كانت الشرطة تتحفظ على سعاد في سجن النساء. وفي الصباح أرسلوا أحد المخاتير إلى عائلتها وشرطيين إلى المصبغة اقتادوا نذير إلى التحقيق ومن ثم إلى سجن الرجال.

جن جنون أم الخير بعدما أرسل لها نذير خبراً. ذهبـت إلى الشرطة تطمئن عليه فقيل لها أنه تم نقله إلـى السـجن. ذهبت إليه كالملهوفة، ولما شاهدته داخل القفـص الشـبكي ارتاعت وولولت وصاحت ودعـت علـى خيـر وتهددتـه وتوعدته. لم تعد تقوى أن تقول عنه ابنهـا او يخصـها او

يقربها. صار يتهيأ لها الموقف لو أن زوجها لم يقـع. مـاذا كان سيفعل بها حينها.؟. كأنها في استجلاب صور الماضـي تتحفز للانقضاض على الحاضر. فكما دفعـت الـثمن فـي خطيئة خير الأولى سيدفع أبوه الثمن في خطيئتـه الثانيـة. وبخاصة أن الضحية شقيقها المنكوب نذير الـذي رفضـت زوجته زيارته او مساعدته.

في البيت عيرت أبا الخير بابنه وهو الذي كان يعيرهـا به وهددته إن لم يحرمه إرثه. ستتخلى وابنتاها عن خدمتـه وتنظيفه وإطعامه وإسقائه. تحولت مرة واحـدة إلـى لبـؤة شرسة. لم يكن أمام أبي الخير إلا دفع نفقات علاجه، فوافق أمام إصرارها ورجاء ابنتيه أن يتنازل بيعاً وشـراء عـن نصف المبنى محتفظاً بالنصف الثاني ضمانة حتـى تـداوم زوجته على خدمته. لم تمنحه الفرصة للشكوى او الاعتراض او التراجع وهو يوقع أمام كاتب العـدل بحضـور الشـهود والمحامي الذي أوكلته بقضية أخيها. تم كل شـيء بسـرعة وفي غضون أيام.

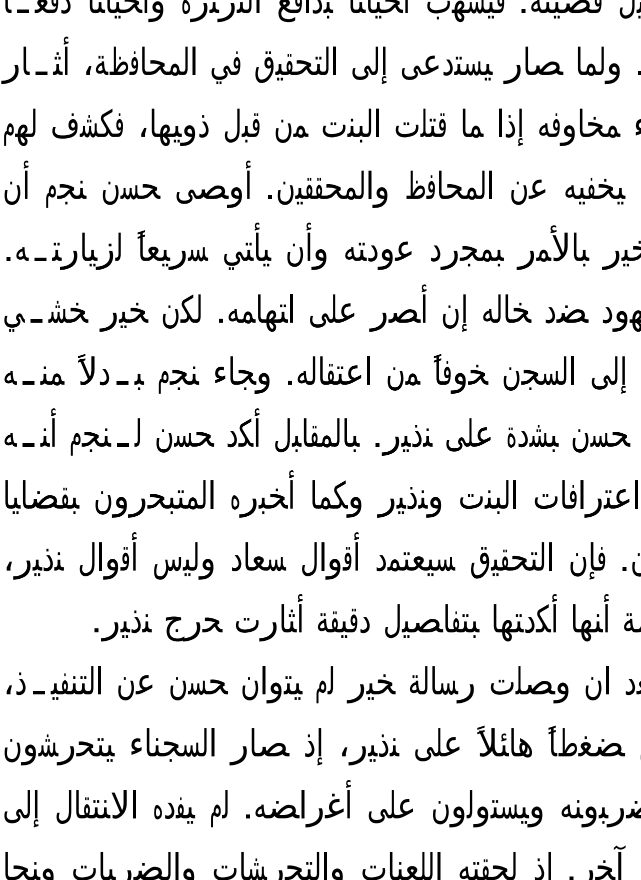
لما عاد خير من لبنان. كان زرفيل باب الدكان قد تغير وتسلمها بائع الترمس. كما تأجرت شقة أم فؤاد وقبضت أم

الخير الأجرة عن ثلاثة أشهرٍ مقدمة، دفعت نصفها مصاريف لمحامي أخيها. وصارت تنفق على البيت بالقطـارة بعـدما تكفلت التوأمان بنصف الإنفاق متوخيتين من ذلـك فـرض كيانهما وشراء حريتهما التي حجبت عنهما سنوات. لم يكـن أبو الخير مستوعباً ما تروماه وسبب ما تتكلفانه، بـل أنـه وجد في مساهمتهما فضيلة قربتهما منه بمثل ما تعمقت فـي نفسه خطايا خير وقتامته وقماءته. ولم تعد أم الخير تهتم إلا بالمصروف وقد أتيحت لها وللمرة الأولى أن تساعد شـقيقها المنكوب بزوجته وقسوة صـهره، والآن بمـا فعلـه خيـر المغضوب الذي افترى عليه وأوقع به ورماه في السجن الذي كان يجب أن يساق هو إليه. أكد غيابه جرمه وبراءة نذير، وهي تكمن له كل يومٍ بجانب النافذة، وتنزل إلى التسوية ليلاً حتى تهدده او تغريه للاعتراف بفعلته وتخليص نذير. إلى أن جاء بنفسه يعتمر القبعة التكساسية ويضع النظارة السـوداء. فعرف بالأمر، لكن لم يعرف تماماً الحقيقة ومقدار تورطـه بها إلا عندما هاتف نجم.

طمأنه نجم. بناء على ما قاله حسن، لـن يفيـد نـذير الإنكار طالما أن المدعية تصر على أنه أفتضها وعاشـرها

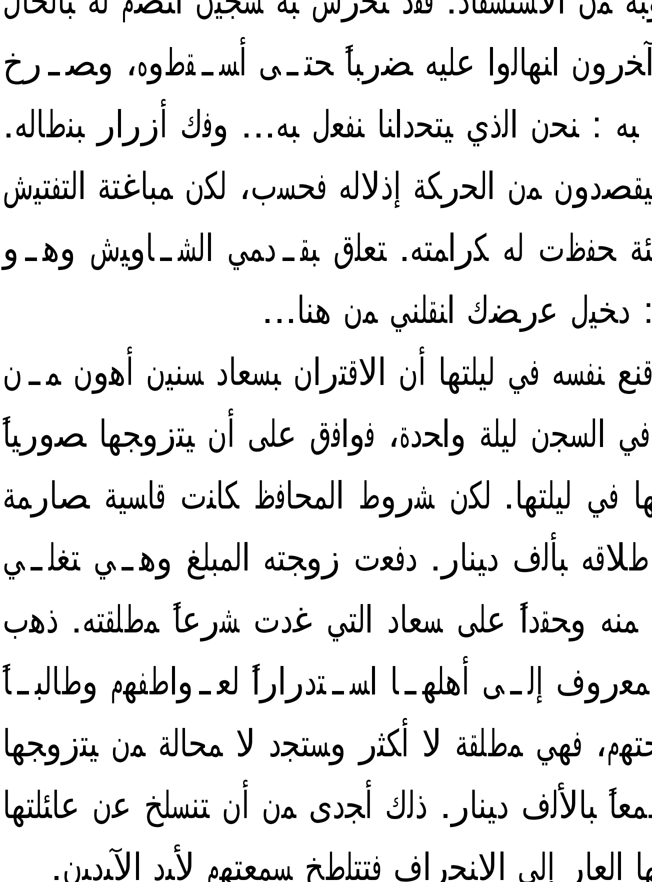
مرات عديدة. وحسب ما وصل لحسن من معلومـات، فـإن البنت لم تأت على ذكر خير على الإطلاق.

حمل خير نجم رسالة إلى حسن يرجوه فيها أن يفعل ما بوسعه لحمل نذير على الاعتراف. وكان نذير وهـو يـدفع التهمة عنه باتجاه خير قد زاد القضية تعقيداً دون أن ينجيـه ذلك من الاتهام. لاسيما وأن اقواله تضاربت وإفادته تغيرت مراراً . أنكر في البداية معرفته بالفتاة او أنه شـاهدها مـن قبل، ثم اعترف بأنه رآها فقط عندما جاء بها خيـر. ولمـا سئل عن شهادة جلسائه حول مغامراته مع ابنة اللاويبدة، أنكر أن تكون هي المقصودة، فسألوه إن كان هناك غيرها، فارتبك بعد أن عز عليه الإنكار بمثل ما أخافه الاعتـراف. صـار يبكي وهو يلقي باللائمة على خير الذي يريد دماره وخراب بيته. قال له أحدهم مشفقاً، أن ذلك لن يفيد ولن يخلّصه مـن الورطة طالما تصر البنت على اتهامه ولا سبيل له للخلاص إلا بالزواج منها : طلّقها بعدين يا أخي...أقسم أغلظ الأيمان أنه لن يتزوجها ويخاص خير الذي يريد توريطه بها، حتـى لو ظل في السجن سنوات. لكنه عدل عن ذلـك بعـد فتـرة وجيزة.



وصلت أخباره إلى حسن قبل الانتهاء من تفتيشه والسير بإجراءات الإدخال، فأوصى أن يودع في قاووش حبشي الذي دفع إليه سجيناً وراء سجين يسألونه عن أحواله وتفاصيل قضيته. فيسهب أحياناً بدافع الثرثرة وأحياناً دفعاً للاتهام. ولما صار يستدعى إلى التحقيق في المحافظة، أثار السجناء مخاوفه إذا ما قتلت البنت من قبل ذويها، فكشف لهم ما كان يخفيه عن المحافظ والمحققين. أوصى حسن نجم أن يخبر خير بالأمر بمجرد عودته وأن يأتي سريعاً لزيارته. لديه شهود ضد خاله إن أصر على اتهامه. لكن خير خشي الذهاب إلى السجن خوفاً من اعتقاله. وجاء نجم بدلاً منه يوصي حسن بشدة على نذير. بالمقابل أكد حسن لنجم أنه حسب اعترافات البنت ونذير وكما أخبره المتبحرون بقضايا السجون. فإن التحقيق سيعتمد أقوال سعاد وليس أقوال نذير، وبخاصة أنها أكدتها بتفاصيل دقيقة أثارت حرج نذير.

بعد ان وصلت رسالة خير لم يتوان حسن عن التنفيذ، فمارس ضغطاً هائلاً على نذير، إذ صار السجناء يتحرشون به ويضربونه ويستولون على أغراضه. لم يفده الانتقال إلى قاووش آخر. إذ لحقته اللعنات والتحرشات والضربات ونجا



بأعجوبة من الاستسفاد. فقد تحرش به سجين انضم له بالحال ثلاثة آخرون انهالوا عليه ضرباً حتى أسقطوه، وصرخ أحدهم به : نحن الذي يتحدانا نفعل به... وفك أزرار بنطاله. كانوا يقصدون من الحركة إذلاله فحسب، لكن مباغتة التفتيش المفاجئة حفظت له كرامته. تعلق بقدمي الشاويش وهو يبكي : دخيل عرضك انقلني من هنا...

أقنع نفسه في ليلتها أن الاقتران بسعاد سنين أهون من البقاء في السجن ليلة واحدة، فوافق على أن يتزوجها صورياً ويطلقها في ليلتها. لكن شروط المحافظ كانت قاسية صارمة قيدت طلاقه بألف دينار. دفعت زوجته المبلغ وهي تغلي غضباً منه وحقداً على سعاد التي غدت شرعاً مطلقته. ذهب وجيه معروف إلى أهلها استدراراً لعواطفهم وطالباً مسامحتهم، فهي مطلقة لا أكثر وستجد لا محالة من يتزوجها ولو طمعاً بالألف دينار. ذلك أجدى من أن تنسلخ عن عائلتها ويدفعها العار إلى الانحراف فتتلاطخ سمعتهم لأبد الآبدين.

استقبلها اخوانها بالضرب والشتائم واللعنات وحلق أحدهم شعرها وضربها بمكنة الحلاقة على رأسها الأقرع

وكاد يقتلها لولا تدخل أمها وأبيها حرصاً عليه وليس رأفـة بها .

لما وجدت مقطوعة الرأس في زقاق مهجور، نشـرت الجرائد صورة وجهها طالبين ممن يعرفها أن يعرف عليها. بعد اكتمال التحقيق نشرت الجرائد خبراً مقتضباً عن الجريمة التي كان الشرف دافعاً لها. وطوي ملفها بأسرع مما تطـوى به جنح السرقات.

صار نذير ينكر أمام جلسائه غرامياته ومغامراته وهـو يحس في داخله بالخذلان جراء تجربـة السـجن المريـرة وبالرعب جراء الجريمة، متوقعاً أن يباغته أهل سعاد بـين يومٍ وآخر. فيتلمس رقبته كلما تذكرها، ويلقي باللائمة علـى خير كلما جاء الحديث عنها. تزوجها شرعاً حتـى يسـتر عليها وطلّقها شرعاً لأن زوجته لم تطقهـا. الطـلاق لـيس جريمة حتى يثأر منه بجريمة.

جاءته دبوس. أحس أمامها بالصغار والهوان ولم يجرؤ على النظر إلى عينيها خجلاً واستحياء. عاتبته وأنبته لأنـه تصرف مع البنت على هذا النحو. لو جاء بها إليها لأبقتهـا عندها وحالت دون شكايتها ولو أخبرهـا مسـبقاً بالمشـكلة

لوجدت له ألف حلٍ يخلصه منها ويجنبـه فضـيحتها. أنهـا تعرف طبيباً يمكنه أن يخيط البكارة ويعيد الثيب عذراء. نظر إليها بدهشة وذهول وهو يتذكر تودده لخير بالادعاء نفسـه. كان حينها يريد من خير أن يشركه بفتاة. ترى بمن تريده أن يشركها.؟.

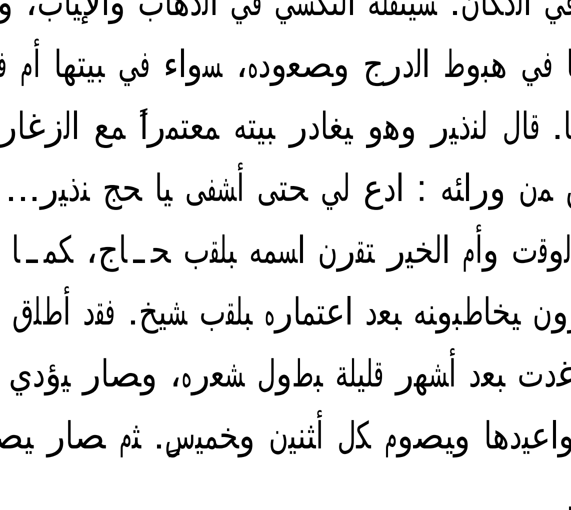
كانت قد استجدت الجنرال باكية لمسـاعدة نـذير فـي قضيته وتخليصه من معتقله، فكشفت بـذلك سـر إهمالهـا لحفلات الجنرال وعدم اهتمامها بأصدقائه، فوعدها خيراً.

بعد أسبوع من الإفراج عن نذير تناقل الجوفيون خبـر اعتقال دبوس وشقيقتها بعد أن أغارت الشرطة على بيتهمـا وضبطتهما متلبستين في المغارة بتهمة الدعارة. أحس نـذير بقماءة الحياة وانحطاط الناس. لقد تعـرض للخديعـة ممـن يصغره عمراً وبالاستغلال ممن يكبره. حظي بصبية كمنـت فيها مصيبته، ومسلفة ظنها عانسة طروباً فإذا بها مسـافحة معقاصاً قروراً. كان يغرق في الماء دون أن يحس بالبلـل، واستدعي إلى المحافظ للتحقيق معه.

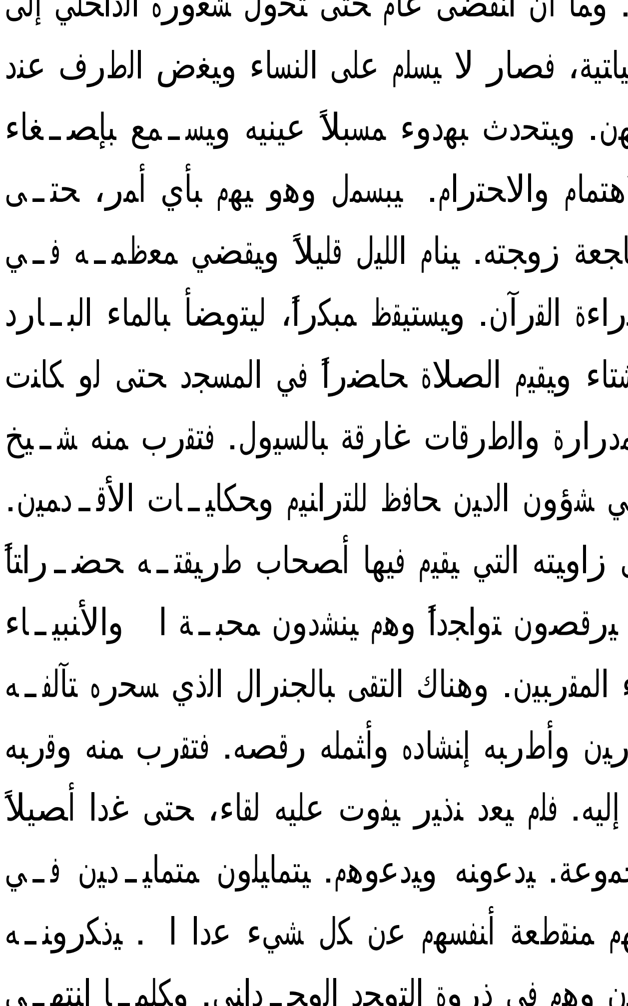
فقد رشده وخارت قواه وخانته أعصابه وهـو يحلـف أغلاظ الأيمان أن علاقته بها لا تختلف عـن علاقتـه ببـاقي

الزبائن والزبونات. كانت الساعات القليلة التي قضـاها فـي المحافظة أقسى مما عاناه خلال اعتقاله وهو يتهيأ لـه أنهـم سيعيدونه إلى السجن لا محالة. قضت عليـه النسـاء ولـم يحصل منهن سوى قاصر وعاهرة. ما أن أخلي سبيله حتـى ابتهل ودعا واستغفر ووعد نفسه وربه بالتوبة والابتعاد عـن الصغيرات والكبيرات.

لازمه هاجس الخوف من السجن أياماً قضاها بالصـلاة والدعاء والاستغفار. يتودد لجلسائه في المصبغة وهو يتعوذ من النساء أكثر من الشيطان. وفي البيت يتقرب من زوجتـه باسترضاء عناد والقسم بأغلاظ الأيمان أن يظل الزوج الصالح الذي عهدته، وأن يتجنب رفاق السؤ والمبغضين الحاسـدين الذين افتروا عليه وأوقعوا به . ومع شعوره بالضعة والعار أمام الجميع، صارت يده لا تترك المسبحة وهو يتحدث عـن التوبة الصادقة التي تخلص النفس من عذابها بمثل ما تمحـو عنها المعاصي والذنوب. قال له أبو الخيـر يومـاً بعـدما أضجره بنصائحه وأدعيته : ما ظـل عليـك غيـر تـروح للحج...

بعد أسبوع واحد، أذعن أبو الخير وذهب لوداع نـذير، رغم أنه احتج في البداية بسبب الـدرج وطـول المشـوار، فذكرته أم الخير باليوم الذي هبط فيه الدرج وحـده وباغـت خير في الدكان. سينقله التكسي في الذهاب والإياب، وتساعده

ابنتاها في هبوط الدرج وصعوده، سواء في بيتها أم في بيت شقيقها. قال لنذير وهو يغادر بيته معتمراً مع الزغاريد التي تنطلق من ورائه : ادع لي حتى أشفى يا حج نذير... ومنـذ ذلك الوقت وأم الخير تقرن اسمه بلقب حـاج، كمـا صـار الكثيرون يخاطبونه بعد اعتماره بلقب شيخ. فقد أطلق لحيتـه التي غدت بعد أشهر قليلة بطول شعره، وصار يؤدي الصلاة في مواعيدها ويصوم كل أثنين وخميس. ثم صار يصوم كل الأيام.

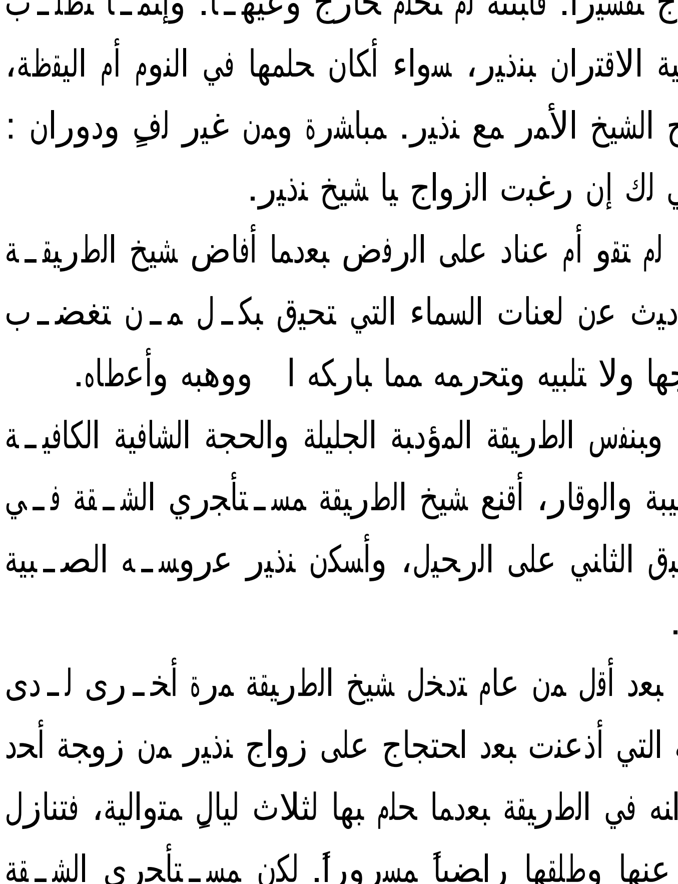
شيئاً فشيئاً استولى عليه التدين وهو يقوم معظـم ليلـه ويصوم كل الأيام، حتى غدا تدينه عادة ملازمة له تتصـاعد وتيرتها يوماً بعد يوم فامتلأت بالزهـد تجـاويف حرمانـه وتشذبت بالعبادة نتوءات رغباته، فأسدل على اللذات سـتار الإيمان بالتبعات، وتحول في نفسه الخذلان في الـدنيا إلـى انتصار في الآخرة، عازفاً عن المباهج، زاهداً فـي المتـع،



مكتفياً من النظر بأيسره متطلعـاً للوصـول إلـى منظـور الوجدان. وما أن انقضى عام حتى تحول شعوره الداخلي إلى فلسفة حياتية، فصار لا يسلم على النساء ويغض الطرف عند التقائه بهن. ويتحدث بهدوء مسبلاً عينيه ويسـمع بإصـغاء مبدياً الاهتمام والاحترام. يبسمل وهو يهم بأي أمر، حتـى في مضاجعة زوجته. ينام الليل قليلاً ويقضي معظمـه فـي القيام وقراءة القرآن. ويستيقظ مبكراً، ليتوضأ بالماء البـارد صيف شتاء ويقيم الصلاة حاضراً في المسجد حتى لو كانت السماء مدرارة والطرقات غارقة بالسيول. فتقرب منه شـيخ متبحر في شؤون الدين حافظ للترانيم وحكايـات الأقـدمين. دعاه إلى زاويته التي يقيم فيها أصحاب طريقتـه حضـراتاً صوفية، يرقصون تواجداً وهم ينشدون محبـة ا والأنبيـاء والأولياء المقربين. وهناك التقى بالجنرال الذي سحره تآلفـه مع الآخرين وأطربه إنشاده وأثمله رقصه. فتقرب منه وقربه الجنرال إليه. فلم يعد نذير يفوت عليه لقاء، حتى غدا أصيلاً في المجموعة. يدعونه ويدعوهم. يتمايلون متمايـدين فـي حضراتهم منقطعة أنفسهم عن كل شيء عدا ا . يذكرونـه مستغفرين وهم في ذروة التوحد الوجـداني. وكلمـا انتهـى

أحدهم من النشيد يستغرق الآخرون بالذكر إلى أن يبدأ آخـر الإنشاد. وفيما بينهم يتخاطبون بـالرموز والألغـاز. وكـان الجنرال مواظباً على الحضور. يأتي قبل الآخرين ويغـادر بعدهم. كان متأدباً صموتاً بالغ الاستحياء، حـافظ للأناشـيد عذب الصوت شجياً في الإنشاد. أكثرهم انتشاء في الحـال، وأضبطهم تواجداً في الحضرات حيث ترقى المقامات ويحل الوجود الشهودي محل الشهوات ويتحصن الجسد ضد اللذات وتقترب الذات من الذات فلا يعود سوى ا مشهوداً.

كان أصحاب الطريقة لا يضعون حاجزاً بين الرجـال والنساء. فطالما أنهم جميعاً أخوة، فـإن نسـاءهم أخـوات، تشاركنهم جلساتهم وتتبادلن معهم الأحاديث وتبدين الرأي في قضايا الدين والحياة. فأطفأ هذا كثيـراً مـن لـواعج نـذير المستكينة في الأعماق. ومع أنه كان يتحدث مع النسوة وهو غاض الطرف سابل العينين، إلا أنه كان يحس بهن قريبـات من نفسه بمقدار قرب رجالهن. وهو وإن لـم يكـن يلحـظ وجودهن إلا خطفاً، إلا أن العديدات منهن لاحظنـه بتأمـل وإمعان، وعرفن من الآخرين عن مأساته التي دفعته للتوبـة والزهد والترفع عن متع الحياة. فأسرت ابنة شيخ الطريقـة



لأمها يوماً بأنها حلمت في ليلتها بالشيخ نذير، ونقلت أمها الأمر لزوجها الذي قضى ليلته متوحداً صافناً يروم حلاً لا يحتاج تفسيراً. فابنته لم تحلم خارج وعيها. وإنما تطلب واعية الاقتران بنذير، سواء أكان حلمها في النوم أم اليقظة، ففاتح الشيخ الأمر مع نذير. مباشرة ومن غير لفٍ ودوران : ابنتي لك إن رغبت الزواج يا شيخ نذير.

لم تقو أم عناد على الرفض بعدما أفاض شيخ الطريقة بالحديث عن لعنات السماء التي تحيق بكل من تغضب زوجها ولا تلبيه وتحرمه مما باركه ا   ووهبه وأعطاه.

وبنفس الطريقة المؤدبة الجليلة والحجة الشافية الكافية والهيبة والوقار، أقنع شيخ الطريقة مستأجري الشقة في الطابق الثاني على الرحيل، وأسكن نذير عروسه الصبية فيها.

بعد أقل من عام تدخل شيخ الطريقة مرة أخرى لدى ابنته التي أذعنت بعد احتجاج على زواج نذير من زوجة أحد إخوانه في الطريقة بعدما حلم بها لثلاث ليالٍ متوالية، فتنازل هذا عنها وطلقها راضياً مسروراً. لكن مستأجري الشقة المقابلة رفضوا الإخلاء هذه المرة، فتدخل حمو نذير من

جديد، فأجدت بلاغته الصوفية في إقناعهم بالرحيل شـريطة أن يدفع لهم أجرة ثلاث سنين، فأوشك نذير على غض النظر عن موضوع الإخلاء وقرر إسكان الزوجة الجديديـة مـع زوجته الثانية لولا أن لجأ شيخ الطريقة إلى الجنرال الذي قام بزيارة قصيرة للمستأجرين، أخلوا بعدها بأيام دون شـروط على الإطلاق. وظل لنذير استطاعة رابعة طالما أنه منصف للنساء عادل مع الزوجات، كما قال شيخ الطريقة لابنته.

ومع تبدد حرمانه وتحقق احلامه ازاداد نـذير ورعـاً وزهداً وتقوى. لقد اصطفى ا الإنسان حباً به وليس لأجـل قمعه وقهره وحرمانه. قربه ا من كل شيء ولم يطلب منه إلا التقرب إليه. فابتعاد العباد عن العبادة اسـتعباد، وطلـب الآخرة ليس في الآخرة وإنما في الأولى، وكلٍ منها مستطاع.

خاطبني الحق من جناني فكان علمي علـى لسـاني

قـربـــ ـني مـنـــ ـه وخـصني ا واصطفاني

بـعـ ـــ ـد بـ ـــ ـعدِ

٩

اتخذ يحيى أمره للسفر بمجرد استعادته جـواز سـفره. ودع هاني تلفونياً، ولم يمض مع خير في المرسم سوى ربع ساعة. أخبره بأنه لن يعود إلى الأردن إلا بعد تخرجه، وقـد لا يعود على الإطلاق. أنبه أبوه على سلبيته. ما حصل معه شيء لا يذكر بما حصل لآخرين. رد عليه بانفعال : لم أفعل شيئاً استحق عليه الإهانة وحجز جواز السفر والتحقيق معي كالمتآمرين. قال له أبوه ضاحكاً : لكنك ابن العفيف... ولمـا أخبره أنه لن يعود إلى عمان في العطلة القادمة، قـال لـه : لحينها فرج. من يدري قد نعود إليها حاكمين.

رد بأسى : لا أريد يا أبي أن أكون حاكماً إلا لنفسـي، ولا محكوماً إلا لها. وأظل طليقاً كطفلٍ.

أثرت كلماته في نفس أبيه بمثل ما أثـرت بـه حالـه وإحباطه. فلم يعد يدقق في شؤونه ولا يسأله عـن دروسـه ومصروفه. إلا أن ذلك لم يهدئ من يحيى، بل ازداد نقمـة وغيظاً عندما فوجئ يوماً، بعد عودته من الجامعـة، بأبيـه وجوهرة يجلسان وحدهما في الصالة.

طاش صوابه واحتقن وجهه إلى درجـة أربكـت أبـاه وأخافت جوهرة. تفرس بهما للحظات، فحياه أبوه بدلاً من أن يتلقى التحية. ابتسمت له جوهرة بقلق وهـو يكـز أسـنانه وتتصاعد أنفاسه ويتحول عنهما إلى غرفته دونمـا تعليـق. صفق الباب وأقفله بالمفتاح.

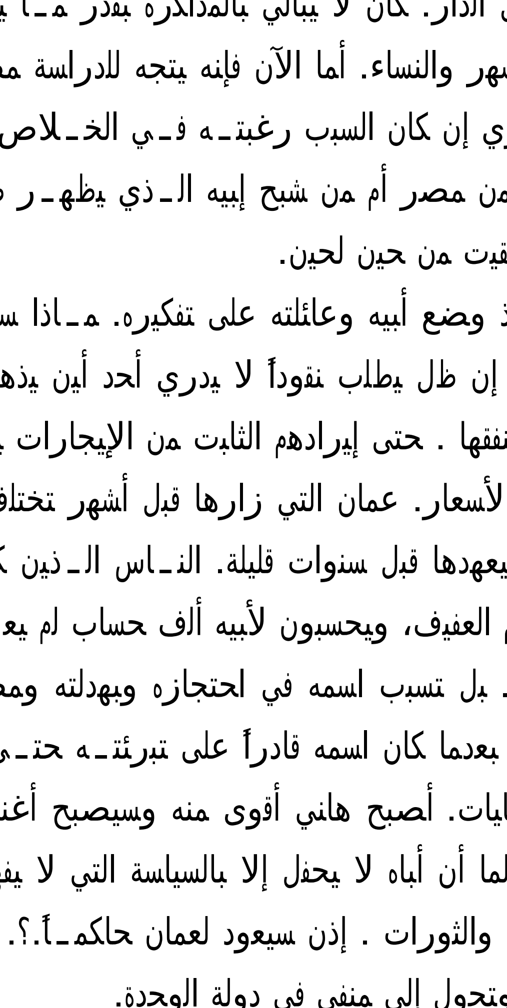
رمى كتبه ودفاتره وحطم أقلامه دون أن يستجيب للقرع على الباب ولا لنداء أبيه : افتح يا يحيى. أنت فهمت غلط...

أجهش في البكاء مثل طفلٍ صغير. على مرأى منـه. وفي شقته.؟. لقد وبخه وعنفه عندما ضبطه يوماً مـع فتـاة وهو العازب الجاهل، وحذره من أن يستقبل فـي الشـقة أي امرأة، حتى لوكانت ابنة عبد الناصر. أما هو فيستقبل فيهـا أعهر العاهرات. لهذا السبب تمنعت عليه. كيف سـتقبل بـه وهي محظية أبيه. ا أكبر. في عز النهار.؟. هـل وصـل الاستهتار به إلى هذه الدرجة.؟. ألم يتوقع عودته للشقة فـي أي لحظة.؟. لماذا لم يستأجر لها شقة او ينقلع معها إلى أحد الأوتيلات.؟. أتنقصه النقود التي يحملها له بـالآلاف.؟. لـن يغفر له ذلك. لن يغفر. وكان في بكائه الهسـتيري مخـذولاً

أكثر منه مقهوراً. فلو كان بصحبته غير جوهرة لكان الوضع أهون.

أقسم له أبوه أنه استدعاها لمناقشتها بـدورٍ سـينمائي سيوكله لها. فلماذا أثار كل هذه الضجة. ومـع أنـه بـرر الموقف بثقة، إلا أنه لم يستطع إخفاء حرجه وارتباكه، ولمـا لم يقتنع يحيى ولا زال اغتمامه، اعترف لـه بأنهـا صـلة الوصل بينه وبين المشير عمار. لم يقنعه ذلك أيضاً. غلبـه الصمت ولم يعد يتحدث مع أبيه وصار يجيب باقتضاب على أسئلته. عرض عليه السكن وحده إن كان ذلـك يريحـه. لا يريد أن يحول دون دراسته شيء. لكن يحيى رفض الانتقال مع أنه كان يتمناه. فصار أبوه يقلل من وقت إقامته في الشقة ولا يستقبل فيها من معارفه إلا القليلين.

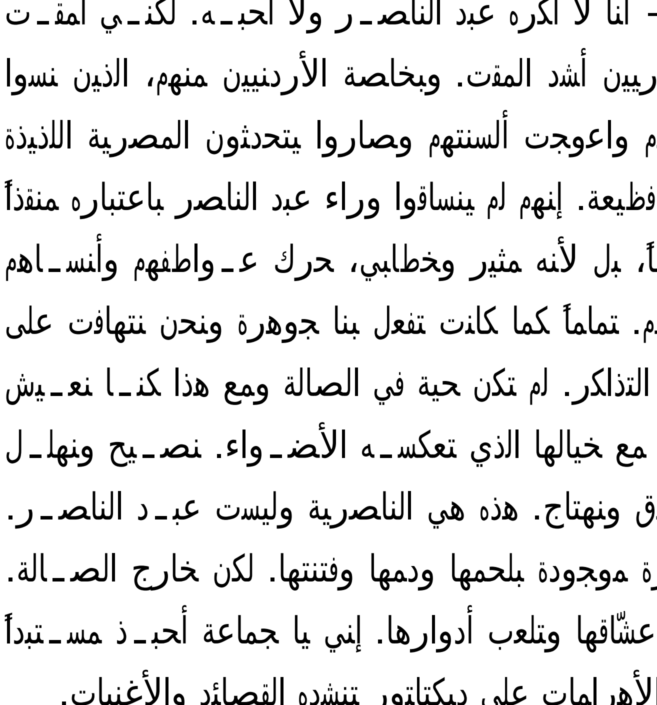
أحس مع ابتداء الدراسة أنه تقدم فـي العمـر. فالسـنة الثالثة على صعوبة موادها كان لها وقع سلبي على نفسـيته أيضاً. إذ صار يشعر بالغيرة من طلبة السنة الأولـى الـذين يتوهجون بالفرح لانضمامهم للجامعة. أما هو فيثقـل عليـه إحساس ضيف ثقيل. إنهم يعيشون حياتهم الجامعيـة كأنهـا بداية لا نهاية لها، أما هو فيتقدم نحو نهاية لا بداية لها. حتى



الفتيات ينظرن إليه كزائرٍ عابر بعدما كـان لسـنة مضـت عزيزاً كأهل الدار. كان لا يبالي بالمذاكرة بقدر مـا يعنيـه الشرب والسهر والنساء. أما الآن فإنه يتجه للدراسة مضطراً دون أن يدري إن كان السبب رغبتـه فـي الخـلاص مـن الجامعة أم من مصر أم من شبح إبيه الـذي يظهـر طيفـه المرعب المقيت من حين لحين.

استحوذ وضع أبيه وعائلته على تفكيره. مـاذا سـيحل بأعمال أبيه إن ظل يطلب نقوداً لا يدري أحد أين يذهب بها وعلى من ينفقها . حتى إيرادهم الثابت من الإيجارات يتقاص مع ارتفاع الأسعار. عمان التي زارها قبل أشهر تختلف عن عمان التي يعهدها قبل سنوات قليلة. النـاس الـذين كـانوا يرهبون اسم العفيف، ويحسبون لأبيه ألف حساب لم يعـودوا يكترثون به. بل تسبب اسمه في احتجازه وبهدلته ومصادرة جواز سفره بعدما كان اسمه قادراً على تبرئتـه حتـى لـو ارتكب الجنايات. أصبح هاني أقوى منه وسيصبح أغنى منه بالتأكيد، طالما أن أباه لا يحفل إلا بالسياسة التي لا يفهمهـا وبالانقلابات والثورات . إذن سيعود لعمان حاكمـاً.؟. كـان حاكماً فيها وتحول إلى منفي في دولة الوحدة.

ترافق مع عدد من الطلبة السوريين الذين توافقوا معه بالتفكير والاتجاه. صاروا يعرضون في لقاءاتهم بعبد الناصر ويندّدون بالناصرية ويسخرون من الوحـدة. قـال مـواطن عربي قال. صارت المواطنة درجات. مـواطن أول وثـاني وثالث وبدون. هذه هي الحضارة العربية. ألقـاب ونياشـين يكفّن بها السلطان رعاياه فيكفونه بذخ الحياة. لقد تخلى أبـوه عن كل شيء لقاء وسام المجد الناصري. مـواطن عربـي أول.؟. وماذا سيصبح هو.؟. ابن المواطن العربـي الأول أم مواطناً عربياً ثانياً. مقتل عبـد الناصـر فـي الناصـريين. يستمدون عنفوانهم من عنفوانه ويتسـلطون علـى النـاس بسلطانه. إن خبا بريقه وانهار مجده سـيحملونه مسـؤولية انهيارهم. إنه بالنسبة لهم حلـم يقظـة. إن اسـتيقظوا منـه سيحسون بالجوع والعوز والفاقة. سيكرهون الواقـع عنـدها وسيمقتون الحاضر ويهيمون سكارى مترنحين بحثـاً عـن ركوبة تحملهم وتحتملهم وإن أخفقوا ينهالون بالشتائم ورمـي الحجارة. ضحك من الأعماق عندما جاء على هـذا التشـبيه أمام بعض ندمائه من الطلبة الأردنيين. تذكر خير وأم سهير. قال له أحدهم : الغريب أنك تكره عبد الناصر وأبوك يحبه.



- أنا لا أكره عبد الناصر ولا أحبه. لكني أمقت الناصريين أشد المقت. وبخاصة الأردنيين منهم، الذين نسوا لهجتهم واعوجت ألسنتهم وصاروا يتحدثون المصرية اللذيذة بلكنة فظيعة. إنهم لم ينساقوا وراء عبد الناصر باعتباره منقذاً وملهماً، بل لأنه مثير وخطابي، حرك عواطفهم وأنساهم عقولهم. تماماً كما كانت تفعل بنا جوهرة ونحن نتهافت على شباك التذاكر. لم تكن حية في الصالة ومع هذا كنا نعيش بإثارة مع خيالها الذي تعكسه الأضواء. نصيح ونهلل ونصفق ونهتاج. هذه هي الناصرية وليست عبد الناصر. جوهرة موجودة بلحمها ودمها وفتنتها. لكن خارج الصالة. تمنح عشّاقها وتلعب أدوارها. إنني يا جماعة أحبذ مستبداً يبني الأهرامات على ديكتاتور تنشده القصائد والأغنيات.

١٠

رفض مدهش في البداية استقبال عثمان، ولمـا تسـاءل إليه رفض أن يكلمه. استجداه أن يدهن عينيه مـرة واحـدة وإلى الأبد بزيته المدهش، فظـل سـاكناً كالصـنم كأنـه لا يسمعه. عاد مخذولاً يمزقه الأسى والإحباط. كله مـن بنـت الحرام التي سممت له طعامه وأفقدته بصره. منذ ذلك اليـوم ونظره في تراجع، حتى أنه اضطر لتبديل النظارات بعد أن كاد يتخلى عنها.

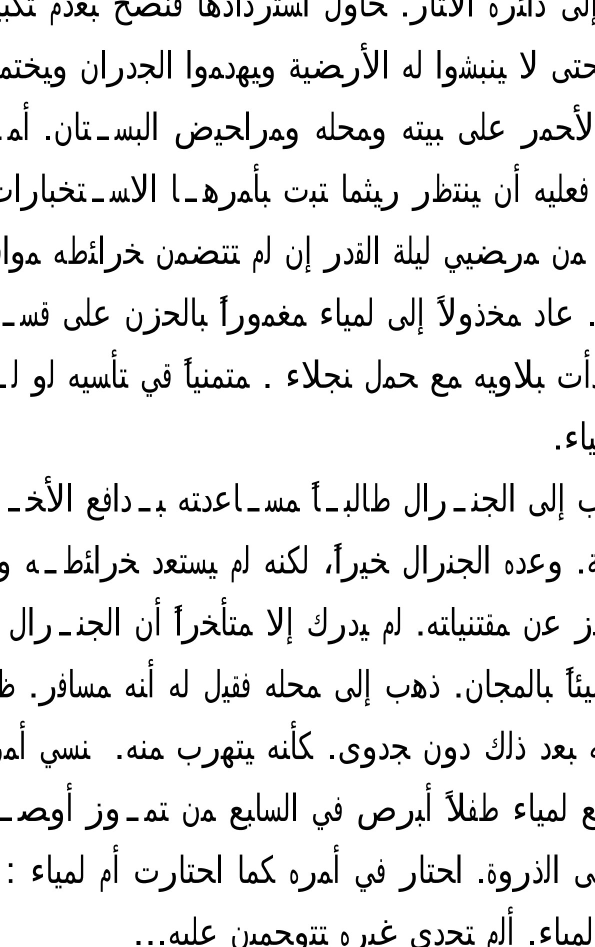
لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد تبـرع الشركسـيان ببعض المصاحف التي استلماها منه إلى أحد الجوامع أمـلاً في أن يخمن لهما الشيوخ قيمتها التاريخية. أخبرهما الشـيخ أنها ليست مصاحف أثرية معمرة. اهترأها بسبب الإهمـال وسؤ الاستعمال. تاريخ طباعتها في مصر سـنة الأربعـين مدون كتابة على الورقة الداخلية : ألا تعرفان القراءة.؟. ثـم من أين للقدماء بآلات طباعة يا أولاد الحلال.؟. البعض مـا يزال ينسخ بخط يده للآن.

أحس الشركسيان بالحرج وانسحبا خجلين. في الطريق كادا يتعاركان وكل منهما يتهم الآخر بأنه السبب في انطلاء اللعبة عليه، ثم واصلا واجمين عابسين.

لما بارحا منزلهما تصادفا وكل منهما متسلح بقامته. لم يتحادثا وهما يحثان السير إلى بيت عثمان الذي أفقده اكتئابه القدرة على المداهنة والمرواغة والدبلوماسية، فاشتبك معهما بشبرية أبيه. لم تفده قوتها السحرية إلا بإدماء الشركسيين الذين أدمياه بقامتيهما. استغاثت لمياء بالجيران فجاؤا مسرعين ليجدوا المتحاربين يلهثون على المقاعد متهالكين، وقد تلطخوا بالدماء وكلٌ سلاحه بيده.

نقلوا إلى المستشفى وهناك تعرضوا للاستجواب قبل أن يتلقوا العلاج. فاحتجزوا ومنع عنهم الاتصال بينما الشرطة تغير على بيوتهم وتقلب أغراضها رأساً على عقب. ضبطوا في بيتي الشركسيين مصاحف قديمة وبواريد دك ومواسير مدافع وبيارق تركية تجلل أيقونة لجمال السفاح وببغاء تشتم العرب ببذاءة.

هالهم عدد المراحيض التي تنتشر في بستان عثمان وضبطوا في بيته أثريات ومحفورات فخارية وحجرية



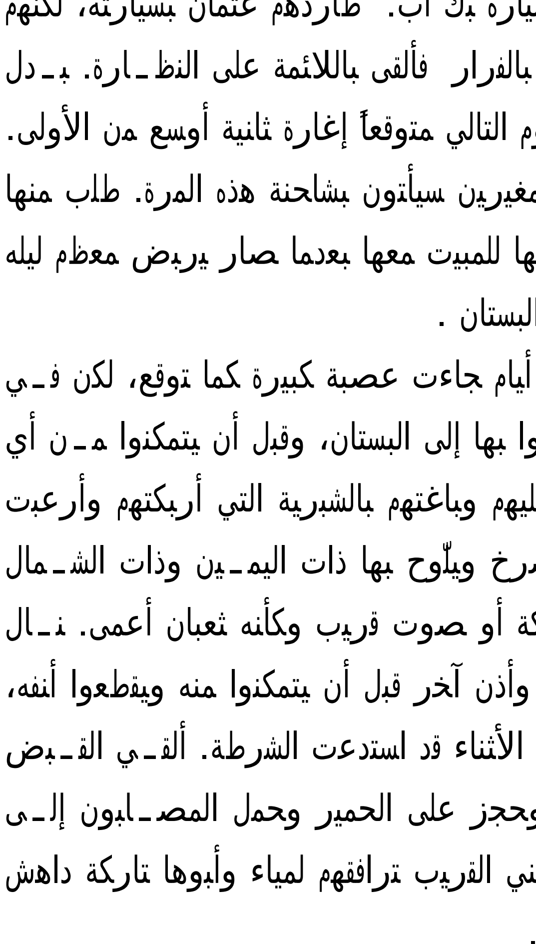
وبرونزية وذهبية، إضافة إلى اكداس مـن الخـرائط نقلـت جميعها إلى دائرة الآثار. حاول استردادها فنُصح بعدم تكبير القضية حتى لا ينبشوا له الأرضية ويهدموا الجدران ويختموا بالشمع الأحمر على بيته ومحله ومراحيض البسـتان. أمـا الخرائط فعليه أن ينتظر ريثما تبت بأمرهـا الاسـتخبارات، وسيكون من مرضيي ليلة القدر إن لم تتضمن خرائطه مواقع عسكرية. عاد مخذولاً إلى لمياء مغموراً بالحزن على قسـام الذي ابتدأت بلاويه مع حمل نجلاء . متمنياً قي تأسيه لو لـم تحمل لمياء.

ذهب إلى الجنـرال طالبـاً مسـاعدته بـدافع الأخـوة الماسونية. وعده الجنرال خيراً، لكنه لم يستعد خرائطـه ولا فك الحجز عن مقتنياته. لم يدرك إلا متأخراً أن الجنـرال لا يعطي شيئاً بالمجان. ذهب إلى محله فقيل له أنه مسافر. ظل يتصل به بعد ذلك دون جدوى. كأنه يتهرب منه. نسي أمره إثر وضع لمياء طفلاً أبرص في السابع من تمـوز أوصـل تطيره إلى الذروة. احتار في أمره كما احتارت أم لمياء : يا عليكِ يا لمياء. ألم تجدي غيره تتوحمين عليه...

اختارت لمياء لابنها اسم داهش، وفاء لـ ذكرى الرجـ ل الذي بأدعيته المباركة وزيته المدهش استطاعت أن تحمل. لم يكترث عثمان للأمر ولا أبدى اهتماماً بشـ كل المولـ ود ولا باسمه، وكلما ألحت عليه لمياء أن يحمله يرفض حتى لا يقع من يديه، وإذا قربته منه يخلع النظارة فيرعبه ويضحكها.

حاول استعادة نشاطه والعـ ودة إلـ ى مغامراتـ ه بعـ د الانقلاب في العراق. عبر الصحراء في عدد من الشاحنات، وعاد بها مثقلة ببراميل الوقود التي تسبب نضوب احتياطيها في قطع الماء والكهرباء عن أهـ ل عمـ ان وشـ حت فيهـ ا المواصلات بعدما أوقف العراق تصدير الـ نفط إلـ ى الأردن ومنعت سوريا نقله عبر الأجواء. دفع الشعب بأسره الـ ثمن وكأنه ليس سورياً ولا أرضه أرض العراق. بينما الطـ وابير تنتظر ليل نهار في محطات الوقود أملاً بوصول الصهاريج وصار الناس يتعاركون للحصول على لتر كازٍ او بنـ زين، بينما شاحنات عثمان تفرغ حمولتها الثقيلة في البستان. آمـ لاً في بيعها بأعلى الأسعار.

السائقون أنفسهم الذين استأجرهم لتهريب الشحنة، وشوا به عند السائقين الآخرين وأصحاب المصـ الح المتعطلـ ين،



فأغار بعضهم على البستان ليلاً وظفروا بعددٍ من البراميـل هربوا بها في سيارة بك أب. طاردهم عثمان بسيارته، لكنهم أضاعوه ولاذوا بالفرار فألقى باللائمة على النظـارة. بـدل عدساتها في اليوم التالي متوقعاً إغارة ثانية أوسع من الأولى. أكد للمياء أن المغيرين سيأتون بشاحنة هذه المرة. طلب منها أن تستدعي أبويها للمبيت معها بعدما صار يربض معظم ليله فوق مراحيض البستان .

بعد بضعة أيام جاءت عصبة كبيرة كما توقع، لكن فـي قافلة حمير تسللوا بها إلى البستان، وقبل أن يتمكنوا مـن أي برميل انقض عليهم وباغتهم بالشبرية التي أربكتهم وأرعبت الحمير وهو يصرخ ويلّوح بها ذات اليمـين وذات الشـمال وباتجاه أي حركة أو صوت قريب وكأنه ثعبان أعمى. نـال من عين أحدهم وأذن آخر قبل أن يتمكنوا منه ويقطعوا أنفه، وكانت لمياء في الأثناء قد استدعت الشرطة. ألقـي القـبض على المغيرين وحجز على الحمير وحمل المصـابون إلـى المستشفى الطلياني القريب ترافقهم لمياء وأبوها تاركة داهش في حضانة أمها.

لم يكن أمام لمياء إلا العودة برفقة أبيها إلى البستان، بعدما طلب منها الطبيب جلب قطعة الأنف قبل أن ينكمش اللحم، فبحثت عنها على هدى بيلٍ صغير وهي تردد بأسى : صفّينا، خزاة العين، بلا رقبة ولا منخار...

تعثرت بالأذن قبل أن يعثر أبوها على الأنف. فنجح الطبيب في تخييط الأذن وأخفق في إلصاق الأنف. لم يؤثر ذلك على حاسة الشم عند عثمان، فقد هب مذعوراً من فراشه قبل الفجر بقليل، وقد عبقت في أنفاسه رائحة حريق. ركض بشبريته ملهوفاً إلى البستان الذي اشتعل فيه النفط كالجحيم. ولم يكن بالإمكان السيطرة على النار او الاقتراب منها، فتعاون عثمان والجيران ورجال الإطفاء على الحيلولة دون امتدادها فحسب. اعترف شقيق صاحب الأذن المقطوعة أنه أضرم الحريق. لكن تجريمه لم يعوض عثمان عن نفطه ولا أعاد إليه أنفه.

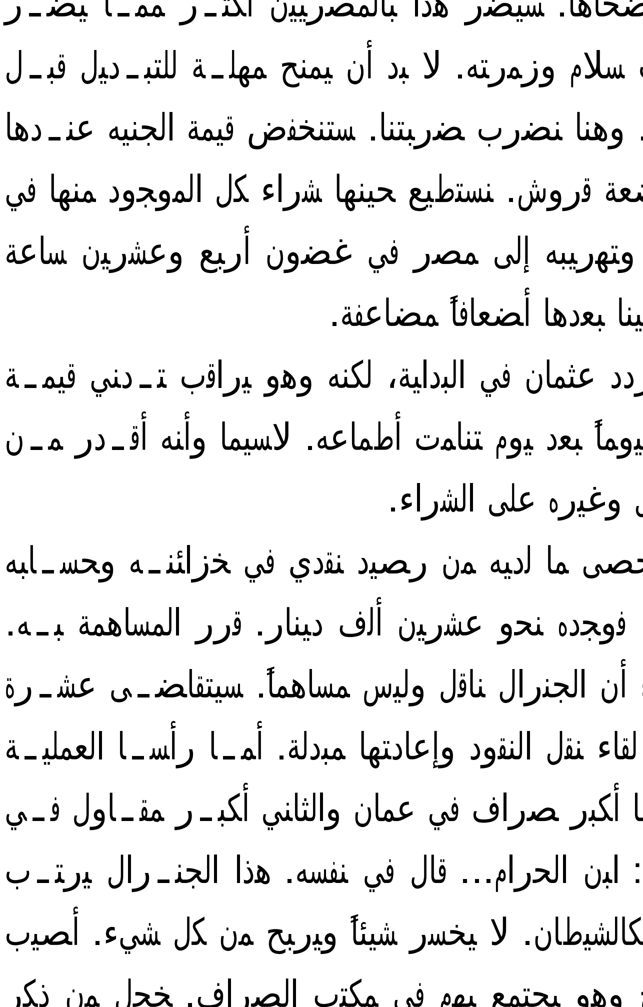
في الربيع حذر المحفل الماسوني أبناء العشيرة من الاحتفاظ بالجنيهات المصرية ذات الفئة الكبيرة ونصح بضرورة تبديلها. سيقوم عبد الناصر بإلغائها في غضون شهرٍ. طلب الاستاذ الأعظم من الأعضاء كتمان الأمر. المهم

عدم تورط أبناء العشيرة ولا يعنيهم أمـر الآخـرين. علّـق عثمان : ومن سيفشي الأمر طالما ليس بيننا نسـاء... كأنـه يعبر عن مشاعره إثر مصابه : لو كانت الماسـونية تقبـل عضوية النساء، لما حافظت على كيانها وكتمانها... قال ذلك في مداخلة لا علاقة لها بالموضوع. أستدرك بينما العيـون تنظر إليه : من هو المجنون الذي يقتني جنيهاتٍ مصرية.؟!.

لكن الجنرال جعله يتشكك في رأيـه وهمـا يغـادران المحفل : المجنون يا أخي من لا يشتري جنيهات مصرية.

لم يفهم عثمان المغزى، لكنه لم ينسه. ذهب في اليـوم التالي إلى نادي السلاح، فلم يجد الجنرال. ظل ينتظره إلـى أن جاء ظهراً. أسرع إليه مصافحاً، فبادره الجنرال قبـل أن تنفك يداهما : آ. غيرت رأيك وستقتني جنيهات مصرية.؟.

أكد له صحة المعلومات. عبد الناصر سيلغي الجنيهات من فئة الخمسين والمئة. ليس فحسب من أجل دعـم الجنيـه المصري الذي تدنت قيمته منذ الثورة. وإنما للنيل من بعض قادة الثورة اللبنانية الذين دفع لهم الملايين من أجـل إسـقاط شمعون، فاحتفظوا بـالنقود بعـد إسـقاطه وتحولـوا عـن الناصرية : إسمع يا عثمان. لن يلغي عبد الناصر الجنيه بين



ليلة وضحاها. سيضر هذا بالمصريين أكثر مما يضر بصائب سلام وزمرته. لا بد أن يمنح مهلة للتبديل قبل الإلغاء. وهنا نضرب ضربتنا. ستنخفض قيمة الجنيه عندها إلى بضعة قروش. نستطيع حينها شراء كل الموجود منها في السوق وتهريبه إلى مصر في غضون أربع وعشرين ساعة تعود إلينا بعدها أضعافاً مضاعفة.

تردد عثمان في البداية، لكنه وهو يراقب تدني قيمة الجنيه يوماً بعد يوم تنامت أطماعه. لاسيما وأنه أقدر من الجنرال وغيره على الشراء.

أحصى ما لديه من رصيد نقدي في خزائنه وحسابه البنكي، فوجده نحو عشرين ألف دينار. قرر المساهمة به. فوجىء أن الجنرال ناقل وليس مساهماً. سيتقاضى عشرة بالمائة لقاء نقل النقود وإعادتها مبدلة. أما رأسا العملية فأحدهما أكبر صراف في عمان والثاني أكبر متداول في مصر : ابن الحرام... قال في نفسه. هذا الجنرال يرتب أموره كالشيطان. لا يخسر شيئاً ويربح من كل شيء. أصيب بالحرج وهو يجتمع بهم في مكتب الصراف. خجل من ذكر رقم مساهمته الذي كان يظنه كبيراً فبدا صغيراً للغاية وهم

يتحدثون بالملايين. سأل الصراف إن كان يقبل ذهباً بدلاً من الكاش. ضحكوا من قوله وشاركهم الضحك. جعله الارتبـاك يتحامق، فالذهب ذهب والأوراق أوراق.

بمجرد أن أُنذر المصريون بقرار الإلغاء الذي سيصبح ساري المفعول ابتداء من آخر نيسان، حتى انخفـض سـعر الجنيه من هذه الفئات في أسواق عمان إلى بضعة قـروش. لاسيما وأن الملتجئين السوريين من البدوان كـانوا يحملـون أكداساً منها.

في خلال يومين اشترى الصراف كل موجودات السوق من هذه الأوراق قبل أن يحل موعد الإلغاء بأربعة أيام. رفع عثمان مساهمته إلى مئة وخمسين ألف دينـار دفعهـا نقـداً وذهباً، واثقاً من عودتها في غضون يومين أضعافاً مضاعفة.

بعد يومٍ واحد تسلمها الجنرال بالشوالات. وأرسلت فـي سيارتي لندروفر عبر الصحراء. لكنها قبل أن تصل الحدود، أعلن عبد الناصر إلغاءها قبل الموعد المحدد، فعـادت إلـى عمان أوراقاً تذكارية ليس لها أي قوة شراء.

فردها عثمان في أرضـية بيتـه وراح يحملـق بهـا كالملطوش : وماذا أفعل بها.؟.. لم تقو لمياء على مشـاهدة

الكارثة فانسحبت بابنها إلى المخدع وراحت تنشج بصـمت. تاركة عثمان في أقسى حالات الخذلان.

نهض محني الظهر كالعجوز ومشى مترنحاً كالسـقيم مرتخياً كالذليل. تتماوج شفتاه تحضراً للبكاء. تناول زجاجـة ويسكي وجلس على كرسي أمام طاولة المطبخ. ظل ممسـكاً بالزجاجة وهو يحملق بغطاء الطاولة الذي بـدا لـه ناصـع البياض. كأنه الكفن. تحول عنها وأحضر على مهلٍ كأسـاً، صب فيه الويسكي حتى فاض عنه.

حمله بيدٍ مرتخيةٍ ورشف منه رشفة صغيرة وهو يحملق بعينين ثابتيين بالشرشف الذي كتم بياضه قليلاً واتضحت فيه بعض البقع. تأمله كما يتأمل الشطرنجي رقعته. أعاد الكأس إلى الطاولة مبقياً عليه في يده. أزاحه قليلاً وكأنـه يحـرك حجر الشطرنج. كانت نقلة خاطئة أنهت اللعبة من بـدايتها. شاه مات. وقذف الكأس بالجدار وهو يصرخ ملتاعاً : يا أبي يا أبي... راح يتمايل للأمام والخاف ضـاماً قبضـتيه إلـى صدره وهو يشهق ويندب ويبكي كالأطفال.

جاءته لمياء تبدي تماسكاً لم يحل دون نخيرها من إثـر البكاء. قالت له مهدئة : يكفـي بكـاء. ومـاذا تسـتطيع أن تفعل.؟.

- أبكي لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. ضحكوا علي يا لمياء.

- لم يضحك أحد عليك. خسروا أكثر مما خسرت.

هز رأسه نفياً وهو يرتج مع بكائه : أقسم أنهم بـاعوني كل الجنيهات حتى يخلصوا منها وخلّصوا علي بها. مليـون جنيه يا لمياء. مليون جنيه سأرميها في الزبالة. آه آه. علـى رقبتي... ووضع يده على مؤخرة رأسه : أنهم لـم يرسـلوا سواها إلى مصر. إن استبدلت أخـذ الجنـرال حصـته وإلا أعادها أوراقاً دون أن يخسر سوى مشوار الطريق. بسيطة. وا لأنحره وأنحر معه الصراف.

- يا مصيبتي.!. وتبلي حالك.؟. إعقل يا عثمان. الحمد ما يزال لديك بيوت وأراضٍ. ويكفي أن ا رزقك ولـداً مثل القمر.

- على ما يكبر القمر ويصـير شـمس، راح تـذوب الأراضي والبيوت والثياب أيضاً. من يوم ولدتيه مـا شـفت ساعة خير.

- استغفر ا . من يقول عن ابنه الوحيد هكذا.؟.

- آخ آخ. فقط لو يقع بيدي.

- من.؟. داهش.؟.

- لا. مدهش.

بعد أيام ابتدأ يفرز مخزون بيوته الشاغرة ويبيعها بـأي سعر يعرض عليه، كما عرض البيوت للإيجار. كان ينتظـر نكبة حتى يؤجرها بسعرٍ مرتفع، فجاءته النكبة إلى عقر داره مما اضطره لتأجيرها على حالها بالسعر المتاح.

١١

انتقال أبي فؤاد من الجوفة واقتحامه عالم الأعمال لـم يغير في أسلوب حياته، بل تنامت احتياجاته المعيشية مع نمو دخله. ازداد إنفاقه وازدادت زوجته بذخاً وإسرافاً. ومع أنـه حقق أرباحاً مجزية من العطاءات التي رست عليـه، إلا أن ذلك لم يخفف من ديونه التـي ازدادت أضـعافاً مضـاعفة. فالعطاءات وإن كانت مبالغها كبيرة إلا أنها موسمية لا تـوفر له عملاً دائماً بينما مصاريفه الجارية متواصلة يومياً. لهـذا كان عليه أن يباشر في عمل أضافي، حدده مسبقاً في رخصة المهن التي حصل عليها. لاسيما وأنه صار يجد مهانة فـي ممارسة مهنته السابقة وخياطة البدلات بالقطعة بعد أن عرف بالسوق أنه متعهد كبير. حاول الحصول على تسهيلات بنكية من أجل استيراد القماش للمتاجرة به، فطلبوا منـه ضـمانة عقارية الأمر الذي جعله يتوجه إلى تجار الجملة في السـوق يشتري منهم ويبيع بالتجزئة متخذاً من محله معرضاً. لكـن موقعه في الطابق الثاني لم يكن يسـتجاب إلا القليـل مـن المشترين. فدفعته حاجته إلى السيولة لتلبية مطالب زوجتـه قبل تغطية مصاريفه الجارية، إلى بيع القماش أحياناً بأقل من

سعر التكلفة. مما جعل التجار يتهافتون علـى محلـه قبـل المتسوقين. فينساب الإيراد الذي يصله كالمـاء فـي جميـع القنوات باستثناء قناة التجار الدائنين. والـذين كلمـا أحجـم أحدهم عن تزويده إلا بعد سداد حسابه يلجأ إلى غيره، بينمـا توصي زوجته على الثياب الفاخرة مـن لنـدن وبـاريس، وتتأسور مصاغ الزمرد وتتخوتم كريم الألمـاس وتتقلـد درر اللؤلؤ. فعندما كانت تقيم في الجوفة كانـت تثيـر بأناقتهـا الأميرية حفيظة الجوفيات، وعندما انتقلت إلى اللويبدة أطفأت بإشراقها لمعان الأرستقراطيات. لم يكن زوجها أقل انـدفاعاً في هذا الاتجاه، إذ بدل سيارته القديمة بسيارة أمريكية فارهة واستخدم سائقاً وجلب للبيت خادمة. كما اشترى فؤاد سـيارة مكشوفة، وصاروا يوصـون علـى الطعـام جـاهزاً مـن الأتوماتيك، ويتعشون خلال سهراتهم في سيزار وفيلادلفيـا ويدعون ضيوفهم إلى الليدو ونعوم. وكان أبو فؤاد وزوجتـه لا يحتاجان إلا لدافع بسيط وعذرٍ واهٍ حتى يحمـلا حقيبتـين صغيرتين ويسافران إلى أوروبا ليعودا بحقائب مليئة بالأمتعة والتحف ومستحضرات التجميل، إضافة إلـى الهـدايا التـي كانت ترضي أصدقاءهم وتؤجل المطالبة بتسديد ديونهم.

اعتادوا الطفرة سريعاً، مما تطلـب مـنهم أن ينفقـوا أضعاف ما يكسبون، فغرق أبو فؤاد بالدين إلى أذنيه. وجـد فؤاد نفسه متورطاً، إذ كان عليه المساهمة بالإنفـاق الكبيـر رغم أن معاشه لا يكفي للإنفاق على السيارة، فاستغل علاقته برئيس الديوان للحصول على ما يقدر من إيراد وصار يتلقى الرشوة على المكشوف. بل أنه يطلبها بلسانه ويسـاوم فيهـا ويداهن ويحتال. لم يكن يخشى الشكوى ضده. ليس بسـبب علاقته المتميزة بالرئيس التي جعلتـه الرجـل الثـاني فـي الديوان، ولكن لأنه عرف من خـلال مهنتـه العديـد مـن القوانين، فالراشي والمرتشي كالزاني والزانية. كلاهما فـي النار. فتنتهي الشكاوى ضده في مكتب الرئيس الذي استطاع من دون أصدقاء العائلة جميعاً أن يضحك أم فؤاد.

عندما طرحت مناقصة الجيش للثياب الشتوية، رفع أبو فؤاد السعر المعتاد، طمعاً بربح أكثر، لاسيما وأن سعره في العطاء السابق كان يقل كثيراً عن السعر الذي يليه. معـولاً كعادته أن يحصل على تسهيلات بنكيـة بضـمانة العطـاء وإسكات بعض الدائنين الذين تحول إلحاحهم إلى تهديد. لكنه فوجئ برسو المناقصة على آخر. طـاش صـوابه واحتـد

محتجاً على النتيجة، لكنه هدأ وبدا كالمخبول وهو يطّلع على العروض التي جاء ترتيبه فيها الرابع بين المتناقصين.

لم يتوصل وزوجته إلى حلٍ للخروج من المأزق. لاسيما وأن الدائنين صاروا يتوافدون عليه يومياً منذ الصباح الباكر وكلٌ منهم يخشى أن يسبقه الآخر فـي التحصـيل. أوكـل بعضهم أمرهم إلى المحامين. هذا جانب وعماله ومصاريف محله في جانب آخر. سأل زوجته أن تبيع مصـاغها حتـى يتدبر أمره إلى أن يحين العطاء الآخر أو يحظـى بفرصـة أخرى. إلا أنها رفضت بإصرار. لكنها بعد بضـعة أشـهر قاسية ازدادت فيها الديون والمطالبات ودعاوى المحاكمـات، عرضت بنفسها أن تبيع مصاغها وأثاث بيتها الذي هربـوه خلسة قطعة قطعة بعد أن وصل زوجها إلى حافة الإفـلاس ووصل ابنها إلى حافة الخطر .

فقد تمخض انقلاب العـراق عـن تعـديلات وزاريـة متلاحقة حتى نهاية العام حيث أوكلت حقيبة وزارية لـرئيس الديوان، الذي عين الوكيل محله. ومع أن فؤاد تعامل معـه طيلة فترة وجوده بالديوان باحترامٍ وأدبٍ ودماثة ولباقـة، إلا أن ذلك لم يشفع له إساءته الكبيرة في تقربـه مـن الـرئيس

السابق واستحواذه على سلطات الرجل الثـاني، فكانـت أول مهمة للرئيس الجديد فتح ملف فؤاد والتحقيق معه بالشـكاوى المقدمة ضده والأقاويل التـي تثـار حولـه. لاسـيما وأن الموظفين بأجمعهم التفوا حول الـرئيس الجديـد وصـاروا يقدمون له الأمثلة والأدلة ويرشدونه إلى نصوص التعليمات والقوانين.

وجد فؤاد نفسه محاصراً بالإدانات التي قـرر الـرئيس رفعها لمجلس الوزراء منسباً بتحويلها إلى القضاء. لم يكـن أمامه لتجنب التهمة غير الهروب منها، فأبلغ أبويه عن نيتـه للسفر بعد أن شرح لهم الأسباب. شجعهما هذا على أن يحذوا حذوه ويشاركانه مصيره، فتقدموا دون علم أحدٍ بطلب تأشيرة لألمانيا، وبمجرد حصولهم عليها باعوا موجوداتهم بأسـعار زهيدة وحملوا حقائبهم البسيطة وكأنهم ذاهبون فـي رحلـة قصيرة.

بعد سفرهم بأيام أبلغت مراكز الحدود بإضافة اسم فؤاد إلى أسماء الممنوعين من السفر، وبعد أقل من شهر انضـم إلى القائمة اسم أبي فؤاد. الذي كان قد حصل على عملٍ في مصنع للألبسة الجاهزة في مدينة همبورغ، وحصل فؤاد على

عملٍ في سوبر ماركت في جناح الخضروات. كانت أم فؤاد أوفر حظاً منهما، إذ حققت من وراء عملهـا موديـل فـي الإعلانات التجارية دخلاً وفيراً، كما حققت فيه ذاتهـا، فقـد كانت تحس لحظة وقوفها للتصوير بأجمل لحظات عمرهـا وأبهاها وأعظمها. لم تكن تخفي على زوجها مشاعرها وهي تتأسى لأنهم لم يهاجروا منذ زمن بعيـد. لـو فعلـوا ذلـك لأصبحت أشهر عارضة أزياء وليس فقط موديلاً للـدعايات ولغدت صورتها غلافاً لأهم المجلات وليس فقـط مطبوعـة على أغلفة الصابون التي بهـرت الجوفيـات وهـن بـين مصدقات ومكذبات. أمعقول أن تكـون أم فـؤاد.؟. فارعـة دارعة مكشوفة اللحم يا ناس.؟!.

١٢

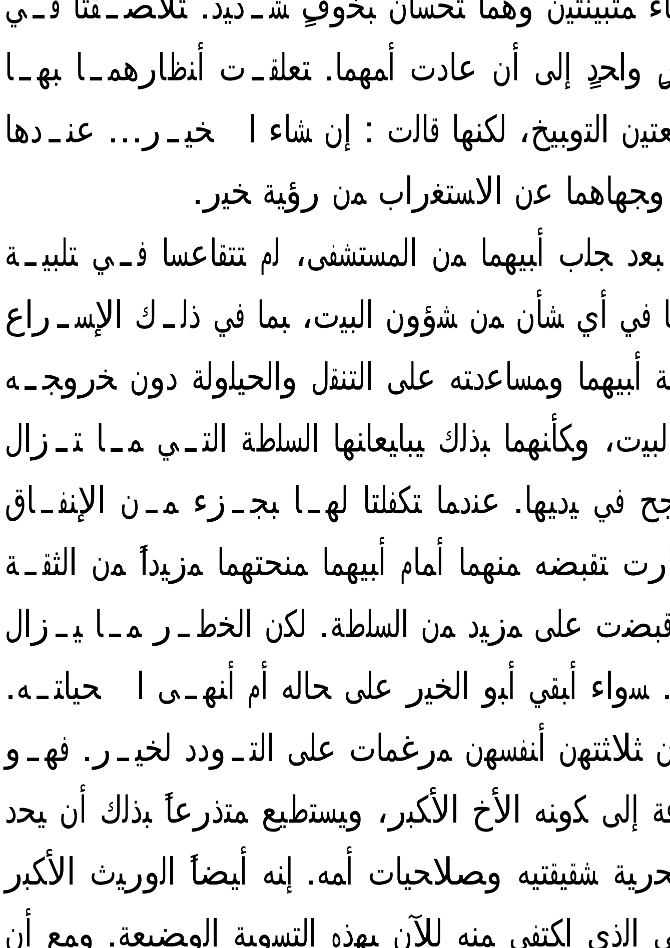
مع إقصاء خير عن البيت والدكان، توازنـت العلاقـة العائلية في بيت أبيه. تولت أمه الأمور المعيشـية بالكامـل وصارت تشرف على الدكان وتحاسـب الكهـل أولاً بـأول وتقبض إيجار الشقة من تحتهم. كما تقبض جزءاً من راتبـي ابنتيها اللتين كانتا تساهمان برضى تام لقـاء الحريـة التـي حجبت عنهما منذ الصغر. ساعدتهما الظروف فـي تجنـب قسوة إبيهما وبذلتا جهداً كبيراً في ذلك. لكنهما كانتا تقاسـيان حصاره لهما في المدرسة والبيت والأسواق. وكان جلّ مـا تخشيانه بعد وقوعه أن يثأر خير لماضيه من خلالهما وينتقم من قسوة أبيه بالقسوة عليهما. مع هذا لـم تنتظـرا للظفـر بحريتهما والانطلاق على هواهما حتى يقع أبوهمـا ويبتعـد خير عنهما. بل منذ أبتدأتا العمل وصارت أمهمـا ترافقهمـا للأسواق.

استقلتا عن أمهما وصـارتا تتـردان علـى الأسـواق وحدهما، وعندما تعرجان علـى محـل بغـدادي للأحذيـة، تتناوبان العبث مع البائع الذي ينفرد مع إحداهن فـي السـدة بينما تنتظر الأخرى في الصالة، تحس بحرارة يديه وقبلات

شفتيه وكلما شدت فستانها للأسفل تشده الأخرى في السـدة. وإذا دخل المحل زبوناً ترتبك التي تجلس في الصالة فترتبك التي في السدة وتفك عنها البائع المهتاج.

كلما صادف رواحهما في الوقت نفسه. تتواعدان فـي السوق. تتجولان قليلاً قبل أن تعرجا على محل الأحذية. لـم تزد علاقتهما بالبائع على عناق سريع يزيد في اهتياجهما ولا يطفىء شهوتيهما. كان الوقت والمكان ضيق عليهما وعلـى البائع أيضاً.

عندما وقع أبوهما، أيقظهما صراخ أمهمـا المـذعورة، لكنهما بدلاً من أن يهبا لندائها وهي تستغيث مولولة تشـبثتا بالغطاء. قالتا فيما بعد ان الخوف صلّب أعضاءهما وحـال دون حركتهما. كانتا صادقتين في ذلك. لكنه لـيس الخـوف نفسه الذي تذرعتا به. فقد ظنتا في البداية أن أمهما تسـتنجد بهما من بطش أبيهما، ولما كان أسلوبهما في التعـايش مـع الأمر الوقوف على الحياد، رفضتا التجاوب. عندما اتضـح الأمر بعد دقائق وجدتا نفسيهما تتشبثان بالسبب الذي اتضـح غيره.كانتا في توافقهما النفسي والجسدي تتصـرفان كـنفس واحدة في جسدين، فما أن هدأت الأصـوات، حتـى رفعتـا



الغطاء متبينتين وهما تحسان بخوفٍ شـديد. تلاصـقتا فـي فراشٍ واحدٍ إلى أن عادت أمهما. تعلقـت أنظارهمـا بهـا متوقعتين التوبيخ، لكنها قالت : إن شاء ا خيـر... عنـدها عبر وجهاهما عن الاستغراب من رؤية خير.

بعد جلب أبيهما من المستشفى، لم تتقاعسا فـي تلبيـة أمهما في أي شأن من شؤون البيت، بما في ذلـك الإسـراع لخدمة أبيهما ومساعدته على التنقل والحيلولة دون خروجـه من البيت، وكأنهما بذلك يبايعانها السلطة التـي مـا تـزال تتأرجح في يديها. عندما تكفلتا لهـا بجـزء مـن الإنفـاق وصارت تقبضه منهما أمام أبيهما منحتهما مزيداً من الثقـة وقد قبضت على مزيد من السلطة. لكن الخطـر مـا يـزال قائماً. سواء أبقي أبو الخير على حاله أم أنهـى ا حياتـه. وجدن ثلاثتهن أنفسهن مرغمات على التـودد لخيـر. فهـو إضافة إلى كونه الأخ الأكبر، ويستطيع متذرعاً بذلك أن يحد من حرية شقيقتيه وصلاحيات أمه. إنه أيضاً الوريث الأكبر للمبنى الذى اكتفى منه للآن بهذه التسوية الوضيعة. ومع أن أبا الخير وعد مراراً بحرمانه من الميراث، إلا أنه لـم يبـد جدية في ذلك، ولم تجرؤ أم الخير أن تضغط عليه خشية من

خير وتهديده الصريح بأنها مطلّقة. لكن الذي حصـل فـي غيابه أطلق جنونها خوفاً على أخيها، وكانت الساحة خاليـة تماماً إلا من الإدعاء. فصدر الحكـم غيابيـاً، لاسـيما وأن التوأمين لعبتا دوراً فاعلاً في مضاعفة مخاوفه من خير الذي صار يجاهر بفجوره. لم يكن انشطار الملكية يقلقهما طالمـا أنه لا يؤخر ولا يقدم في نتيجة الميراث النهائيـة. تظـلان وريثتان لأمهما وأبيهما. لكن واقع الملكية مهم لهما، وأكثـر أهمية لأمهما التي ارتقت بطفرة غير متوقعة من جارية إلى شريكة كفت يد ابنها عن الوليمة فازدادت حصة ابنتيها مـن الغنيمة. لم يكن يعني خير من كل هذا سوى الفتات، فـاكتفى بالتسوية. أما النقود التي كان يقتنصها من إيراد الدكان فلـم يفكر بها على الإطلاق أثناء قلقه ذلك اليوم الذي هددوه فيـه بالشرطة.

انتهت قضية نذير دون تورط خير . لكنه فقـد بسـببها حقه في البيت والدكان، ولم يكن يعرف أنه فقد أيضاً نصـف الميراث. فأمه كانت تتجنب أي تلمـيح بـالأمر دفعـاً لأي محاولة منه للطعن بذلك، كما أنه يظل وريثاً بنصف البنـاء، فلما جاءها محتجاً لأن الكهل يرفض بيعه إلا نقداً، قالت لـه

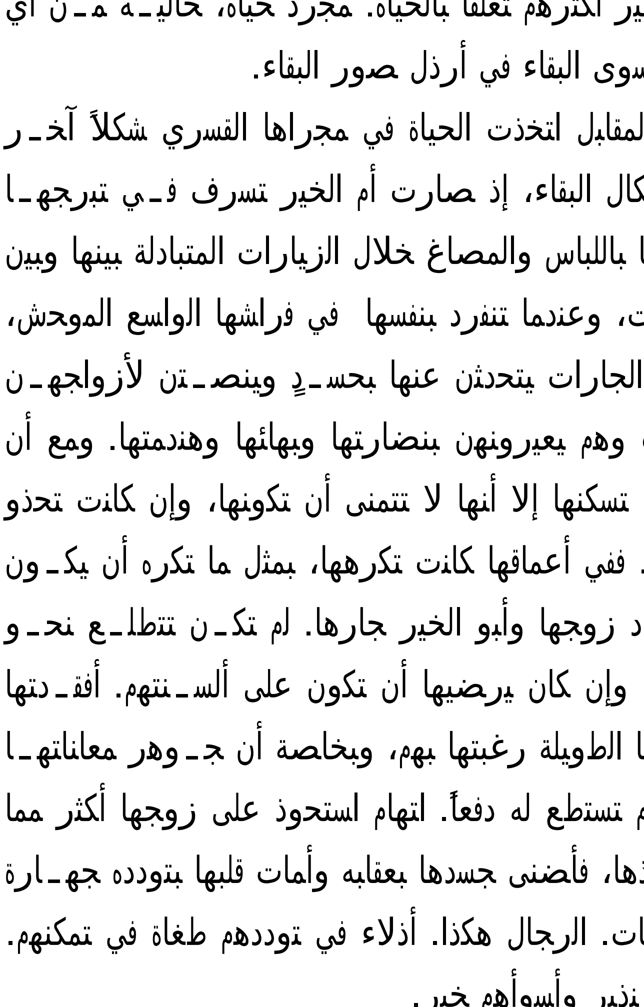
بمسكنة : أنا ما دخلني. ليس لي كلمة طالما أبوك حي. إذهب تفاهم معه... احتدت تعابيره فأضافت : أصـلاً لـولا أنـي رجوته لكان أخرجك من التسوية التي جاءه للآن أكثر مـن عشرين مستأجر لها... لم يجرؤ على مواجهة أبيـه الـذي تضاءل حجمه وتراخت عضلاته وهو يقتل السـجائر التـي تقتل فيه جزأه الحي وتزيد انكماش جزئه الميت.

حسمت بذلك الأمر. اقتصت لأخيهـا وأقصـت ابنهـا وأقفلت على زوجها، وغدت الآمر الناهي فـي كـل كبيـرة وصغيرة. باستثناء الحياة الخاصة لابنتيها سواء في العمل او الأسواق.

استعادت نضارتها بعدما استأثرت بالمخـدع والحمـام والمرآة التي صارت تتغندر بافتتان أمامها، وتتأمل جسـدها في الثياب الداخلية التي اشتراها زوجها مرضـاة لأم فـؤاد. اكتشفت أنها أجمل من أم فؤاد وأكثر أنوثـة أيضـاً بعـدما أطالت شعرها الذي كانت تقيد منه، وصارت تسرحه علـى مهلٍ بطرقٍ مختلفة. لم يكن يمنعها من أن تكون أم فـؤاد إلا المصاغ والثياب، فصارت تقتر في الإنفاق على البيت، وكلما توافر لها مبلغ من النقود تشتري قطعة ذهبية، وتوصي دائماً

ابنتيها أن تحسبا حسابها في مشترياتهما من الثياب او قطـع القماش التي تثير بها حفيظة الخياطـة لكثـرة اعتراضـاتها وتعديلاتها. كان أبو الخير يراقبها مبهوراً دون أن يقوى على السؤال او الاحتجاج، ولما صار نذير يتردد عليـه ملتحيـاً ومسبحته في يده شكاها له وسأله مؤاخذاً إن كان يرضيه أن تتصرف أخته بهذه الرعونة والاستهتار. عاتب نـذير أختـه فاحتدت واهتاجت. ماذا يظنها.؟. وأين تتبرج.؟. أحـرام أن تهتم بمظهرها داخل بيتها. وكانت النتيجة أن جافت زوجهـا لأيام عديدة لم تكن تستجيب له فيها إلا بعد لأي وبامتعـاضٍ وهمةٍ ثقيلة : بدل أن تقول لي، يكثر ا خيـرك. تشـكوني للحاج نذير.؟. هل نسيت أنك كنت تعيرني بأم فـؤاد. أم أن الغندرة والهندمة مسموحة لها وممنوعة علي.؟...

كان يدرك أنها توبخه على ماضيه، وكانت تدرك أنـه يخاف على حاضره أكثر مما يخيفه ماضيه وأن تعلقه بها لا يختلف عن تعلق السجين داخل القضبان بالسجان خارجهـا. يكرهه ويحتاجه. يخافه مبتسماً او عابساً. يقبل طعامه بمثـل ما يذعن لعقابه. في ذلك الوضع الرهيب من التعايش كـان



أبو الخير أكثرهم تعلقاً بالحياة. مجرد حياة، خالية من أي هدف سوى البقاء في أرذل صور البقاء.

بالمقابل اتخذت الحياة في مجراها القسري شكلاً آخر من أشكال البقاء، إذ صارت أم الخير تسرف في تبرجها وتزينها باللباس والمصاغ خلال الزيارات المتبادلة بينها وبين الجارات، وعندما تنفرد بنفسها في فراشها الواسع الموحش، تتخيل الجارات يتحدثن عنها بحسدٍ وينصتن لأزواجهن بغضبٍ وهم يعيرونهن بنضارتها وبهائها وهندمتها. ومع أن أم فؤاد تسكنها إلا أنها لا تتمنى أن تكونها، وإن كانت تحذو حذوها. ففي أعماقها كانت تكرهها، بمثل ما تكره أن يكون أبو فؤاد زوجها وأبو الخير جارها. لم تكن تتطلع نحو الرجال وإن كان يرضيها أن تكون على ألسنتهم. أفقدتها معاناتها الطويلة رغبتها بهم، وبخاصة أن جوهر معاناتها اتهام لم تستطع له دفعاً. اتهام استحوذ على زوجها أكثر مما استحوذها، فأضنى جسدها بعقابه وأمات قلبها بتودده جهارة للأخريات. الرجال هكذا. أذلاء في توددهم طغاة في تمكنهم. سويهم نذير وأسوأهم خير.

ترتب على تخصيص غرفة الضيوف لأبي الخير نقـل ثلاثة مقاعد منها إلى مخدع التـوأمين، فصـارتا تسـتقبلان ضيوفهما من زميلات في العمل وصديقات وجارات. لم يكن إقفال الباب يحول دون وصول الصخب والضحك إلى مسامع إبيهما الذي يشنّف أذنيه للأصوات الأنثوية فما يزال أثرهـا قوياً في نفسه. وإذا دفعه الفضول للسؤال عمـا يضـحكهن، تلجمه أم الخير : صبايا مبسوطات. هل تريد أن تتدخل فـي هذا أيضاً.؟!.. يلوذ بالصمت مبـدياً الامتعـاض. ويعـاود السؤال كلما جاءته زوجته ويتلقـى منهـا الجـواب نفسـه: وبعدين. كم مرة صرت سائلني.؟!...

عندما تنفردان بعناد تزداد ظنونه، بينما يجالسه نـذير وهو يتحدث بعنجهية وتنصت له شقيقته بإعجاب.

بعدما أودت كارثة سعاد بنذير وتاب واستشيخ، صـار عناد يتردد عليهم وحده عارضاً خدماته على أم الخير، وهو في الواقع يتقصى منها عن زوج أمـه، فتوطـدت علاقتـه بالتوأمين، وصارتا تغلقان بـاب المخـدع وهمـا تحدثانـه وتستمعان منه لأخبار الكبار والصغار. وكلما قال أبو الخير لزوجته وعيناه تشعان بالريبة : روحي شوفي ماذا يفعلون...

تلجمه كالعادة : وماذا سيفعلون. خائف عليهمـا مـن ولـدٍ صغير، ولم تكن تخاف عليهما من فؤاد.!.

قلما كانت تسأل عن ضيوفهما او تشاركهما الجلسة ولا تدخل عليهما دون استئذان، حتى لو كان الباب مفتوحاً. وإذا كان مغلقاً لا تفتحه إلا بعد القرع عليه وتلقي الجواب، حتـى لو كانتا تنفردان بعناد .

كان عناد في بداية مراهقته، ومع التوأمين في نهايتهـا، مما قارب غريزياً بينه وبينهما. وكان طوله قد شـمخ مـرة واحدة وتبثّر وجهه وأزغب صدغاه وشارباه، إلا أن بشـرته البيضاء ظلت مشرقة وضاءة نضرة.

خففت مراهقته من لهفته الطفولية فصار حذراً بعـض الشيء متردداً يحاول فرض كيانه بلسانه. لم يكن ينجح بذلك دائماً. فيتورد خجلاً في المواقف التي لم تكن تحرجـه مـن قبل، ويطرفش بعينيه أمام المشاهد التي كانت تثير فضـوله بمثل ما تحرك غرائزه. كان في فترة عمره الحرجة يتأرجح بين يقين المعرفة وفضول الدهشة.

لم تكن تصرفات التوأمين دائماً مفهومة لديه، بالأصح لم يكن يستوعب دوافع الكثير منها. فعندما تكـون ردة الفعـل

على حديثه او تعليقه، قبلة على وجهه يعتبرها أحياناً إعجاباً بقوله. وإذا كشفت أحداهما عن فخذيها، يطرفش عينيه عـن حركتها غير المقصودة كيلا يظن به السوء.

كانتا تأمنان له ويأنس لهمـا. فهمـا باكورتـه وهـو مفتاحهما. في محل الأحذية، تقتنص كل منهما متعتها بحماية الأخرى وفي غفلة عن الشارع والمشاة والزبائن المتوافدين، بينما في غرفتهما تغتنمانها معاً دونما مباغتة تتوقعانهـا او فضيحة تخشيانها. وبخاصة بعد مساهمتهما الفاعلة في تنازل أبيهما عن نصف المبنى لأمهما.

يوماً بعد يوم، توطدت العلاقة بين التـوأمين وعنـاد، فغدت دافئة حميمة أقرب إلـى معاشـقة الأقـارب. يـدخل غرفتهما دون استئذان وتستقبلانه في كل الأوضاع، حتى لو كانتا في الفراش. وتسران له بخصوصياتهما وينقـل لهمـا الأسرار. كان في طبعه المعتاد أقرب إلى تصرف النساء من الرجال، فالأحاديث تنعشه ويبهجه تناقل الأخبار عن النـاس والأقارب والجيران. فإذا بـه مصـدر معلوماتهمـا وناقـل أخبارهما، إضافة إلى العبث على الخفيف من حـين لحـين والذي تحول من قصدية ذات مظهر عفـوي إلـى سـلوك

اعتيادي، أدى إلى استقرار الجموح الغريزي لثلاثتهم. انعكس ذلك على تعامل كلٍ منهم مع الجنس الآخر ووسع آفاقه وأخرجه من شرنقته وجعله يتأقلم بفترة قياسية مع هذا الانفتاح السريع على الحياة. فكما أن أبا الخير لم يعد يحتج على انفراد التوأم بعناد، فإنه لم يقو على الاحتجاج عندما صارتا تترددان على زيارة أم عناد بعد أن كان بيتها محظوراً عليهما إلا في المناسبات.

أفرح ذلك ايضاً أم عناد التي أزالت زيارتهما رهبتها من أبيهما ومنحتها دفء العائلة التي تفتقدها. اعتادتهما مع الوقت حتى غدتا من أهل الدار. تساعدانها في التنظيف والتوضيب والطبخ وتشاركان العائلة الأكل والحديث وتتناقلان الأخبار. وكلما لاحت لهما الفرصة تنفردان بعناد، الذي أصبح سفيرهما بين أبناء الجوفة. ينقل لهما أعجابهما بهذا وافتتانهما بذاك. وبالمقابل صارتا تمهدان له طريق المعجبات، وهما تحدثان زميلاتهما وصديقاتهما عن قريبهما الأشقر البرىء براءة الأطفال، والذي تؤتمن رفقته ولو في البراري والصحراء . مما وسع دائرة الانفتاح، فصارتا تدعوانه إلى المناسبات التي تستضيفان فيها الصديقات .

ويدعوهما عندما يستضيف أصدقاءه في المناسبات. كل ذلك على مرأى من أبي الخير ومسمعه : وا يا أمي كان عيـد ميلاد ملوكياً... فيقنط أبو الخير متأسياً لأنه كان جباراً وليس جريئاً، بينما الحياة تقتنصها الجرأة ولا يخضعها الجبـروت. تجاوزه خير إليها وها هما ابنتاه تتجاوزانه، دونمـا التعـالي بالقوة والجبروت والطغيـان وإنمـا بالتفاعـل والانفعـال والمشاركة في العروض المتاحة في الاستعراض. النفس هي التي تمنح وتمنع وتخلق الفرح وتجلب المتعة وتسبب العذاب. لكن هيهات. من فوت فرصة على صـباه سـيظل أسـير حرمانها مدى الحياة. ولو قدر له أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء لتجرأ مع أم فؤاد. ماذا كان يمكـن أن يحصـل لـو صدته او شكته او عرف زوجها او عرفت زوجته.؟. خذلته قوته ونجح خير بجرأته. كان يستطيع أن ينال أم فؤاد رغماً عنها، فنال خير بنت المكنوز رغماً عنه. هذا هو الفارق بين القوة والجرأة. لا تعمل الأولـى إلا بالثانيـة، لكـن الثانيـة تستطيع العمل منفردة. الآن فات الآوان وانقضـى العمـر وغدر الزمان. عليه أن يحتمل محيطه الفاسد مثلمـا يحمـل

بعضه الميت. بل انه أكثر مداراة ورعاية وحنواً على نصفه المشلول من نصفه العامل.

١٣

أسفر الانقلاب العسكري في العراق عن انقـلابٍ فـي الموسم السياحي، أوصل الإشغال الفندقي إلى الذروة بسـبب نزوح أعداد غفيرة من العراقيين المـوالين للحكـم الملكـي وأولئك المتوجسين من الحكم الجديد، إضافة إلى من سـبقهم من أثرياء سوريا وإقطاعييها. الأمر الذي دفع العديـد مـن الفنادق إلى إضافة أسرة جديدة للغرف وفـرش المسـاحات المتاحة بما في ذلك الأسطح.

أبدى أبو هاني ندمه لأنه لم يرفـع طابقـاً او طـابقين إضافيين في عالي بالاس بعد أن أشـغلت غرفـه بالكامـل وصار عاجزاً عن تلبية الطلب المتنامي. اقترح هاني فكـرة استئجار عدد من البيوت القريبة من فنادقهم وفرشها بمخزون المستودع من أثاث بيتهم القديم واسـتئجار النـواقص مـن محلات بوتاجي جنرال. تحمس أبـوه للفكـرة وغفـر لـه سرسرته في لبنان ومنحه مطلق الصلاحية في اختيار الأثاث قديماً كان أم جديداً، شراء أم اسـتئجار. بينمـا تـولى هـو مسؤولية اختيار البيوت المطلوبة والتعاقد على استئجارها.

تطلبت عملية التأثيث فرز جميع محتويات المستودع في عالي بالاس. كذلك غرف التخزين في الفنـادق الأخـرى، لاستصلاح ما يمكن استخدامه والتخاص من الزوائد التي لا نفع منها.

جاء أحد العاملين لهاني بعلبة مخملية أنيقة فيها سـتفة أوراق بعضها ضمن مغلّفات. طاش صوابه وهو يبدأ قراءتها وجن جنونه قبل أن ينتهي منها. لم تكن أيها تتضمن اسماً او توقيعاً، إلا أن محتواها دال بسهولة على كاتبها الذي استذكر في بعضٍ منها دفء لقائهما الأول فـي المكتبـة وشـاعرية لقائهما خارجها، وبخاصة الدورة التدريبية في بيروت ورحلة القارب الذي أقلهما وتغريد عبر مغارة قاديشا.

صعد إلى البيت كالمخبول، يحمل العلبة برخاوة وهـي مفتوحة الغطاء. لم تنتبه أمه في مخدعها لدخوله. اتجه إلى غرفة وعد وأغلق بقدمه الباب. رمى العلبة علـى السـرير فانقلبت وتبعثرت الرسائل والمغلفات. جلـس علـى حافـة الفراش مرتكياً بذقنه على قبضتيه وشخصت أنظاره بالأرض دون أن ترمش أجفانه. التفت إلى مجسم قاديشـا الزجـاجي الملون باللمبات. أنها تتركه موصولاً بالكهرباء حتـى تظـل

ذكرى قاديشا متوهجة. تضحك عليهم وتستهتر بهم. بسيطة. قاديشا يا وعد.

ظل على وضعه حوالي الساعتين. تتصاعد أنفاسه تارة، وتسكن تارة أخرى، وهو يتذكر تفاصـيل الزيـارات التـي رتبتها وعد بدهاء. لما تذكر وقوفه إلى جانبها فـي سـفرة بيروت شخرت أنفاسه وضرب قبضته في راحة الأخـرى. استغلت حنوه عليها فدافع عنها وأقنع أباه بالموافقـة حتـى تذهب مع حبيبها. بيروت مرة واحدة. وهو الذي لولا يحيـى لما تجرأ على الذهاب إليها. في مغارة قاديشا يـا وعـد.؟!. هل أقاما في غرفة واحدة في بيروت.؟. لم لا وهي لا تتورع عن دعوته إلى البيت. باغتته قصة نجلاء المكنـوز. فـراح يصدها عنه ويحتال للتهرب منها. أخافه الأمر وأرعبـه. لا لا. ليس وعد. لن يمانع في علاقتهما لو كان موفق مسيحياً. لكنه مسلم، فكيف تورطت معه.؟. ليس تورطاً بمعنى تورط. إعجاب على عيني ورأسي، لكن ليس حباً ولا زواجاً. عـال وا . وتراءى له يحيى عندما لاحق نجلاء. مكتبجي يـأتمر بأوامر يحيى خير لك من وكيل سيارت. ستتزوجينه غصـباً عنك وستقطعين علاقتك بموفق فوراً وإلا...

سمع صوتها وهي تخاطب أمها عن بعد : أين الأفندي.؟. لماذا لم يأت حضرته إلى البنك. ماذا سنتغدى.؟. يا ا . كرهت أكل الأوتيل.

تصلبت أمام الباب وهي تنظر إلى رسائلها المبعثرة على السرير وعلبتها المخملية المقلوبة. ارتج فكّاها، نظرت إلى الخاف ثم إلى هاني مغرقاً وجهه في راحتيه.

أغلقت الباب واستندت عليه من الداخل. أغمضت عينها وهو تقول : يا عذراء... فتحت عينيها برخاوة وتطلعت إلى هاني الذي كان يهز رأسه بأسى : أين وجدتها.؟.

زنخر وابتسم بسخرية : لست أنا. العمال وجدوها.

عضت على شفتها السفلى : وقرأوها.؟.

- ا أعلم... شخص بنظره للأمام وهو يكز أسنانه. التفت إليها بسرعة ورماها بنظرات قاسية متوحشة... نهض واقفاً، فالتصقت بالباب أكثر : أنا... وأشار بإصبعه إلى صدره : الذي كنت أثق بك وأدافع عنك، تفعلين بي هكذا.

- ما عملت غلطاً.

أشار إلى السرير من خلفه : وهذا أليس غلطاً.؟.

- هذا كل ما بيننا.

- وبيروت.؟... صـرخ بـأعلى صـوته، فارتجـت وارتبكت وشعرت بارتخاء في ركبتيهـا وتلعثمـت دون أن تقوى على الرد.

سألها بشراسة : ماذا حصل بينكما.؟.

- لا شيء. لا شيء. وربنا... قالت بصوتٍ خفيض.

- والمكتوب في هذه الرسائل.؟... قال من بين أسنانه.

- رسائل فقط.

- وا يا وعد إن حصل بينكما... سكت للحظة قبل ان يسترسل : لأخنقك أنت وأياه بيدي هاتين...

- وماذا سيحصل.؟.قلت لك، ليس بيننا سوى الرسائل.

صرخ بأعلى صوته : وبيروت.؟...

- تعرفون أنه رافقنا من أجل تغريد.

- وأنت. ألم يرافقك أيضاً.

ظلت ساكتة. فأزاحها بخشونة : روحي من أمامي.

أمسك مقبض الباب وسكن للحظة في مكانه وقد باغتته قصة نجلاء بصورة أوضح، فقالت :سامحني يا هاني.

- يا ويلك إن كان بينك وبينه أكثر من الرسائل.

لم يلتفت إليها. بارح البيت متشنجاً وهبط الـدرج فـي خطوات سريعة. التقى بأبيه في الصالة فلم يلتفـت إليـه ولا أعار انتباهاً لمناداته. أسرع إلى الخارج وقاد سيارته بعصبية إلى مركز العفيف.

اقتحم المكتبة وفي نيتّه تهديد موفق إن اعترض شقيقته. قيل له أنه ذهب في مشوارٍ وقد يتأخر في العودة. تصاعدت أنفاسه وهو يضرب قبضتيه معاً وبوده لو يحطـم المكتبـة. سأله المعاون إن كان يحب أن يترك رسالة. لم يـرد عليـه وغادر أكثر حنقاً. أيقن خلال الطريـق أن تغريـد اتصـلت بموفق محذرة. الجبان. قال بصوتٍ مسمع : سـتتزوجين... نسي اسم الخطيب وهو يسترسل : الذي هو. ورجلك علـى رأسك.

جافاها لأيام عديدة، غشيها خلالها كمد ملحـوظ وهـو يشيح النظر عنها ولا يوجه لها حديثاً مباشراً او يرد علـى تساؤلاتها. لكنه لم ينقطع عن إيصالها إلى البنك والعودة بها. بل أنه صار يذهب بها على الوقت تماماً وتجده يوميـاً فـي انتظارها أمام المدخل . يظلان صامتين في السيارة يتجنـب كل منهما الالتفات للآخر. كذلك في البيت عنـدما يجتمعـان

حول المائدة او يجالسان الضيوف. تساءل أبواهمـا فيمـا بينهما وسألاهما عن سبب الجفوة بينهما، فلم يفصحا.

مع الوقت، عادت الأمور إلى ما كانت عليـه، دون أن تستسمحه مرة أخرى او يحذرها من جديد، ولم يأتيـا علـى ذكر الموضوع ثانية إلا عندما تقدم لها، مع بدايـة الربيـع، خطيب جديد لا يقل ثراء عن الأول، فرفضته بإصرار. إنها متعلقة بوظيفتها ولن تتخلى عنها من أجل الزواج. لكن هاني تحداها هذه المرة أمام والديه : أحكي الصحيح يا وعـد، ولا تتذرعي بالوظيفة.

- أنا لا أتذرع. هذه هي الحقيقة. إذا تزوجت سأخسـر وظيفتي، ولا أريد أن أخسرها.

حاول أبواه أن يعرفا منه الحقيقـة وقـد أثـار تعليقـه ريبتهما، فقال : اسألوها... غادر بعصـبية وهـو يقـول : بسيطة...

١٤

قبل خير إقصاءه عن البيت والدكان، مقابل أن ينسـوا أمر التسوية التي كان مستعداً للقتال في سبسلها.

توجس بداية من تهديد أمه المبطّن بالحقد على ما حـلّ بنذير. لم يكن يملك من سلاح يواجهها به إن حاولت طـرده بحجة استصلاح التسوية او تأجيرها سوى أن يشي بطلاقها. سيلجأ للشهود إن أنكر أبوه ذلك. كان يدرك هشاشة سلاحه، فأبوه يستطيع الإنكار، حتى مع وجود الشهود. كما يسـتطيع التراجع عن اليمين أو شراء فتوة. ظل متوجساً لأكثـر مـن شهر لا يقرب فيه البيت او الدكان. يقفل على نفسـه بـاب التسوية متيقظاً لكل حركة ومنتبهاً لكل صوت. لم يكن يدري أن أمه أخذت تهديده بجدية أقلقتها وحركت هواجسها، ولم يكن أبوه أقل رعباً منها. فانقضت الأيام وكل طـرف فـي موقعه متوجس من الآخر. كأنها هدنة حربٍ بين خصـمين متكافئين. انقلبت إلى سلام ازدهرت معه أحـوال أم الخيـر وساءت الأحوال المعيشية لخير.

حاول الاستدانة من الدكان، إلا أن الكهل رفـض. كـل شيء نقداً كما تصر معلمته. ولم يجرؤ على الضغط عليه او

الاحتجاج لديها. ولم يخطر بباله إطلاقاً أن يبحث عن عمل. تلك الأيام لها ظروفاً أخضعته، أما اليوم فلن يخضعه إقصاؤه عن البيت والدكان. أصلاً كان مقصياً عنها من قبـل. كـل شيء كان عابراً إلا التسوية. فيهـا حقـق ذاتـه وحريتـه واستقلاليته. لن يحتفظ بها فحسب، بل سيوصي أن يحفظ فيها ويدفن مع لوحاته في أرضيتها. لن يقهره العـوز ويرغمـه على ان يجعل منها مجرد منامة. إنها محترفه. يؤثر المـوت جوعاً على أن يتخلى عن فنّه ويعود مستخدماً عند الآخرين

لم يكن يبالي بالأكل، لكنه لم يكن يقوى على البقاء مـن غير خمرٍ ودخان. كما كان يحتاج مـن حـينٍ لحـين إلـى الألوان. استدان من هاني مـراراً إلـى أن صـار يخجلـه الاتصال به. استدان من نجم أيضاً، واشترى من مكتبة موفق الكثير من المستلزمات على الحساب. ورغم أن العديد ممـن يترددون على مرسمه كانوا يجلبون معهـم أكـلاً وخمـراً ودخاناً، إلا أن الكثيرين كانوا يستهلكون أكثر ممـا يجلبـون وبعضهم كان الكسب بالنسبة لهم أسلوب حياة، يقدمون فـي المقابل ما يطلب منهم من خـدمات ويغـدقون علـى خيـر بالتبجيل وعلى فنه بالإعجاب الذي يصل إلى درجة التقديس.

كان يرضيه ذلك وهو يتحدث عن ألوانه التـي تعبـر عـن أحزانه وتلك التي تروي مغامراته. لكن الوقت مـر سـريعاً ليجد نفسه مع نهاية العام غارقاً فـي الـديون دون إمكانيـة للتسديد. ساءت أحواله المعيشية ونضبت التسوية من المـؤن وخشب الوقود. قلّت الزيارات وتضاءل عدد الزوار بعـد أن وصل به الحال إلى عدم التحرج مـن طلـب الآخـرين أن يجلبوا له علبة دخان، وإن لم يفعلوا يسألهم سيجارة.

سأل موفق أن يعرض له في واجهة محله عـدداً مـن الرسمات والخطّيات، فاستجاب له موفق ووضع علـى كـل لوحة السعر المطلوب، جلبت الانتباه ولم تجلب مشـترين . أنحى باللائمة على موفق الذي لو قصد باعها. لكنه لم يعـد يبالي بالثقافة والقراءة والفن كما السابق. جلّ وقتـه بجانـب المذياع.

في رمضان وصل إلى ذروة العوز والفاقة، فلم يعد أحد يتردد على التسوية ولم يجد من يستدين منه علبة كبريـت. نهشه الجوع أياماً قبل أن يلجأ لنجم الذي أخبره أنه سـيفرج عن حسن قريباً. طلب منه أن ينصحه بالبقاء فـي السـجن. على الأقل يأكل ويشرب بالمجان. كان الذبول واضحاً فـي

وجهه ونحول جسده وترنح حركته. زوده نجم ببقايا أطعمـة من الفندق وأعطاه خمسة قروش اشترى بثلاث منهـا علبـة دخان لولو وظل يخشخش بالقرشين في جيبه طيلـة طريـق عودته.

مشى على الرصيف المقابل للمكتبة ولـيس فـي نيتـه الدخول إليها، لكنه عندما لاحظ خلو الواجهة مـن لوحاتـه، انفرجت أساريره وغمره الحبور. أخيراً بيعت. قطع الشارع هرولة ودلف المكتبة منفعلاً. كان موفق خلف الحاجز يستمع للمذياع.

سأله بجذل عن اللوحات. أجابه موفق باستياء أنه نقلهـا إلى السدة. عرضت بما فيه الكفاية ولا يسـتطيع أن يشـغل الواجهة بها أكثر من ذلك . استولاه إحباط هائل فعرض عليه أن يبيعها له بنصف الثمن. قابل موفق ذلك باستخفاف. مـاذا سيفعل بها.؟.. أضاف بسرعة : متى ستسدد الحساب يا خير. صار عليك مبلغ كبير. وأنا علي مصروفات. الدنيا رمضان والعيد على الأبواب... كأنه يعتذر سلفاً عـن بيعـه علـى الحساب او إقراضه : لو معي ما خليتك تسأل. انتظر حتـى أبيع كم لوحة.

- بيع اللوحات لا يطعم خبزاً يا خير. لو ترجع للعمـل عند ديكران...

- أعوذ با ... رد بعنجهية، وأضاف : لـو انخسـفت الدنيا لن أعمل عند أحد... لم تخف مكابرته علـى موفـق، لاسيما وأنه أبدى استعداداً لنسخ الكتب كما السابق. أضـاف مكابراً أيضاً : لكن في مرسمي وليس في المكتبة.

أجابه موفق ببرود أنه تخلى عن النسخ بعد أن وجد من يطبع له على الآلة الكاتبة ويسحب له على الستانسل أيضاً.

قبل أن يغادر سأل موفق بغير اكتراث : على حسـاب. قلت لي أن ديكران سيسافر إلى أمريكا.

- يبدو غير رأيه. سمعت أنـه دفـع فروغـاً للمحـل المجاور له وضمه إلى المشغل... أضاف بودٍ : روح زوره. ماذا ستخسر.؟.

- قولتك.

كان ما سمعه موفق صحيحاً، فقد اتسعت الواجهة لتشمل المخازن الأمامية كافة وغطيت بالزجاج الثلجي المموج. كان يقف بجانب الرصيف سـيارة كاديلـك مكشـوفة وأخـرى

اولدزموبيل فارهة فيها رجل يسترخي برأسه على المقـود، كأنه نائم. وعلى الرصيف وقفت سيارة ديكران.

وجد الباب مقفلاً، فاستدار إلى خلف المبنى ودلف إلـى المشغل. لم يجد أياً من زملائه الخطـاطين، وإنمـا شـابين متأنقين خلف طاولتين، يتحدثان الأرمنية.

توقفا عن الحديث بمجرد دخوله وحملقا به متسـائلين، فسألهما : أين الآخرون.؟.

قال أحدهما برطانة : لا يوجد غيرنا.

- أأنتما جدد.؟. سأل وفي وجهه علامات استغراب.

- يعني...

- هل ديكران في الـداخل.؟.. سـأل مشـيراً جهـة المستودع.

هز الإثنان رأسيهما : موافقين... استدار جهة المستودع فسأله أحدهما : من حضرتك.؟..

- شريكه... قال دون أن يلتفت، بينما تبـادل الشـابان النظرات.

كان المستودع يعج بالصناديق والكـراتين والبراميـل، إضافة إلى شوالات بودرة الألوان وعلب الدهان. هز رأسـه

وهو يبتسم ابتسامة صفراء. تذرع ديكران بالسفر إلى أمريكا حتى يخاص من خطّاطيه العرب ويستخدم أرمن. شحنه ذلك ببعض الغطرسة. تقدم بثقة نحو المكتب فكان البـاب مغلقـاً لكن ليس منطبقاً. سمع صوتاً أجش يقول : نحن يا جنـرال شغلنا مستمر.

رد صوت أجش آخر : لأنه مستمر أعطيتك هذا السعر.

- ما رأيك ديكران.؟.

- الرأي رأيك أوهان باشا.

انفتح الباب، فالتفتت إليه الوجوه وشخصت به الأعـين. كان يجلس مع ديكران رجلان متهندمان عريضا الشـاربين وقد بدت عليهما الهيبة وشعت تعابيرهما بالقسوة. حملق بـه ديكران فاغراً فاهه بذهول وارتباك وهب واقفاً : كيف دخلت هنا.؟... سأله بحنق وهو ينزاح خطوة إلى الجانب معترضاً المسافة أمام طاولة الوسط التي استقرت عليها بندقيتان وعدد من المسدسات.

- من الباب...أضاف كأنه يعتذر : كان مفتوحاً.

التفت ديكران إلى الـرجلين اللـذين تبـادلا نظـرات متسائلة : هل هناك شيء.؟. أنا مشغول.

رد بلعثمة وارتباك : جئت أسلّم عليك.

بلل ديكران بلسانه شفتيه، وقال نافضاً أصابعه نحـوه : انتظرني في المشغل. سأوافيك بعد قليل.

انسحب محرجاً وهو يحس بالإهانة. تردد بين الانتظار والمغادرة، لاسيما وأن الشابين في المشغل أهمـلا وجـوده بالكامل وظلا يتحدثان فيما بينهما بالأرمنيـة ممـا زاد مـن ضيقه فحاوص هنا وهناك، وخيال ضيفي ديكران لا يغادره. تساءل أكثر من مرة عمن يكون الجنرال بينهما وقد خطـر بباله جنرال أم سهير.

عندما جاءه ديكران بعد حوالي الربع ساعة بـدا عليـه الحرج والارتباك وهو يصافحه مصطنعاً الابتسامة. خاطـب بعدها الشابين بالأرمنية فانقبضت أساريرهما ودعـاه إلـى المكتب، فكان الرجلان قد غادرا وطاولة الوسط نظيفة مـن السلاح.

اعتذر خير عن اقتحامـه المكتـب. نفـض ديكـران أصابعه : إنس... أضاف بسرعة متحولاً عن الموضـوع : أين أنت.؟. لماذا لا تزورني.؟.

- قيل لي أنك سافرت لأمريكا.

- كنت سأسافر. لكني فكرت بـالأمر. لمـاذا أسـافر وأموري بخير يا خير... قهقه بتكلف : المهم. مـاذا تفعـل الآن.؟..

ادعى خير أنه يتدبر أموره علـى الخفيـف مـن بيـع اللوحات. أثنى ديكران على ذلك. هذا أفضل من العمل عنـد الآخرين. سأله عن عنوانه. لقنه إياه بامتعاض وهو يسـجله على قصاصة ورق. قطع عليه الطريق لطلب عملٍ : ماشي. أنا الآن مشغول. لكن بالتأكيد سأزورك قريبـاً...مـد يـده مصافحاً. حال بذلك دون أن يسأله الاستدانة.

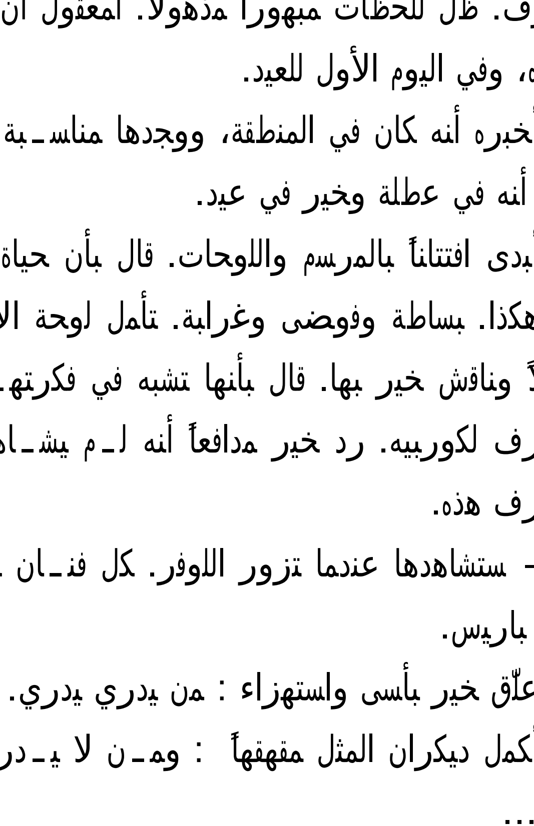
اعتبر خير ذلك تقليعة. غادر خائباً وهو يحس بالنقمـة والغيظ. صار أخونا تاجر سلاح.

تردد عليه نجم بضع مرات حاملاً له بقايا أطعمة مـن الفندق وبعض السجائر. فانقضى رمضان وهو على هـامش الحياة. في كل مرة يهم بالصعود إلى بيت أهله والاسـتيلاء قسراً على ما يحتاج، تحول التسوية دون ذلك. فهي سلاحهم وملاذه. لو أرادوا لأخلوه منها في دقائق. فقط لو يموت هذا العجوز. ستتغير عندها كل الأمور. إنهم يقتلونه في الحيـاة. لو كان ابناً حقيقياً لهم لما فعلوا به ذلك. أي أمٍ هـذه التـي

تضحي بابنها خوفاً من زوجها وتتخلى عنه إكراماً لأخيهـا. كان يتشكك من بنوته لأبيه، أما الآن فإنه يتشكك من بنوتـه لأمه.

أثقلت عليه الوحشة في اليـوم الأول للعيـد. الجميـع يحتفلون ويتزاورون ويتنعمون بالأكـل والحلـوى وجديـد الثياب. وهو يشتهي قمع سيجارة ولقمة خبز تشـاركه فيهـا الديدان. بكى وهو متكوم تحت غطائـه تكـوم جنـين فـي الأحشاء. تمنى لو كان لديه أجرة الطائرة حتى يسـافر إلـى مصر. كان عليه أن يفعل ذلك عندما عرض عليـه يحيـى الأمر. على الأقل يفهمون الفن هناك، وقد يكون في مصـر انطلاقته. أما هنا فلا يعيش سوى الآباء والمرضيون. حتـى لو كانوا مرضى ومعاقين. إنها شريعة القبيلة التـي تجعـل الخروج على الكبير جريمة والفتك بالصغير فضـيلة. إنـه عالم الكبار.

سمع قرعاً على الباب، فهب من فراشه ملهوفاً. أياً كان الزائر، سيكون خيراً : خير. خير...إنه صوت ديكران.



فاجأته الزيارة وأربكته ولم يعد يدري ماذا يفعل وكيف يتصرف. ظل للحظات مبهوراً مذهولاً. أمعقول أن ديكـران يزوره، وفي اليوم الأول للعيد.

أخبره أنه كان في المنطقة، ووجدها مناسـبة لزيارتـه طالما أنه في عطلة وخير في عيد.

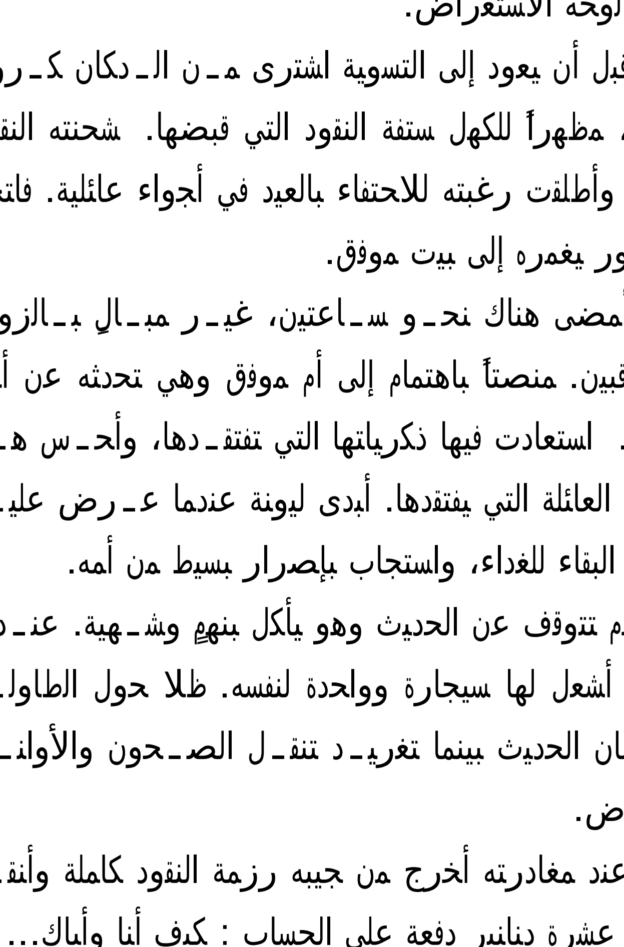
أبدى افتتاناً بالمرسم واللوحات. قال بأن حياة الفنـانين كلها هكذا. بساطة وفوضى وغرابة. تأمل لوحة الاستعراض مطولاً وناقش خير بها. قال بأنها تشبه في فكرتهـا لوحـة المحترف لكوربيه. رد خير مدافعاً أنه لـم يشـاهد لوحـة المحترف هذه.

- ستشاهدها عندما تزور اللوفر. كل فنـان يجـب أن يزور باريس.

علّق خير بأسى واستهزاء : من يدري يدري.

أكمل ديكران المثل مقهقهاً : ومـن لا يـدري يقـول عدس...

أسعد ذلك خير الذي أكبر في ديكران زيارتـه فنسـي نقمته عليه وحنقه منه، كما نسـي أمـر الجنـرال والباشـا والسلاح، عندما دفع له ديكران نقداً مئتي دينار ثمناً لخمـس



لوحات حملها معه إلى السيارة، بعدما رفـض بإصـرار أن يبيعه لوحة الاستعراض.

قبل أن يعود إلى التسوية اشترى مـن الـدكان كـروز دخان، مظهراً للكهل ستفة النقود التي قبضها. شحنته النقود بالقوة وأطلقت رغبته للاحتفاء بالعيد في أجواء عائلية. فاتجه والحبور يغمره إلى بيت موفق.

أمضى هناك نحـو سـاعتين، غيـر مبـالٍ بـالزوار المتعاقبين. منصتاً باهتمام إلى أم موفق وهي تحدثه عن أيام زمان. استعادت فيها ذكرياتها التي تفتقـدها، وأحـس هـو بدفء العائلة التي يفتقدها. أبدى ليونة عندما عـرض عليـه موفق البقاء للغداء، واستجاب بإصرار بسيط من أمه.

لم تتوقف عن الحديث وهو يأكل بنهمٍ وشـهية. عنـدما انتهى أشعل لها سيجارة وواحدة لنفسه. ظلا حول الطاولـة يتجاذبان الحديث بينما تغريـد تنقـل الصـحون والأوانـي بامتعاض.

عند مغادرته أخرج من جيبه رزمة النقود كاملة وأنقـد موفق عشرة دنانير دفعة على الحساب : كيف أنا وأياك...

مع انتهاء العيد كان قد سدد حساب البقالة والمقهى والفوال. وتزود بمستلزمات الرسم بعد أن دفع لموفق كامل حسابه، متخذاً أمره على التقتير بالانفاق. لن يضيف أحداً سيجارة، فليس لديه في كل يومٍ ديكران. بعد أقل من شهر ضاقت به الحال ثانية وغرق من جديد بالديون. ازدادت نقمته على عائلته ونقم أكثر على الفن. ما فائدة كل هذا الرسم إن كان سيبقي لوحاته في هذه المقبرة. ستبليها العفونة والرطوبة والدخان. حتى موفق رماها في السدة. في عمان لا حياة للفن ولا ارتقاء للفنان. لا يطعم الفن خبزاً كما قال موفق. بل أنه يجلب المتكسبين والأوغاد والأعداء. لا يستطيع الاعتياش من فنه ولا العيش من دونه. ما هذه الحياة.؟. ما هذا البلد الذي يدفن فيه الفنان حياً.؟!. إنه لا يريد سوى استرداد ما أنفق من ألوان. وسيقضي العمر يقتات على الفتات. الفن ليس لمثل هذا البلد الذي تسوده شريعة القبيلة ويتلذذ كباره بتعذيب الصغار. كيف سينمو الفن في بلد يعتبره أناسه رذيلة والانصياع للكبار منتهى الفضيلة. الفن للأجانب الذين لولاهم لما عرفنا الرسم ولا النحت ولا الموسيقى. ولربما لم نتعلم الكتابة ولا القراءة. أين مديره من

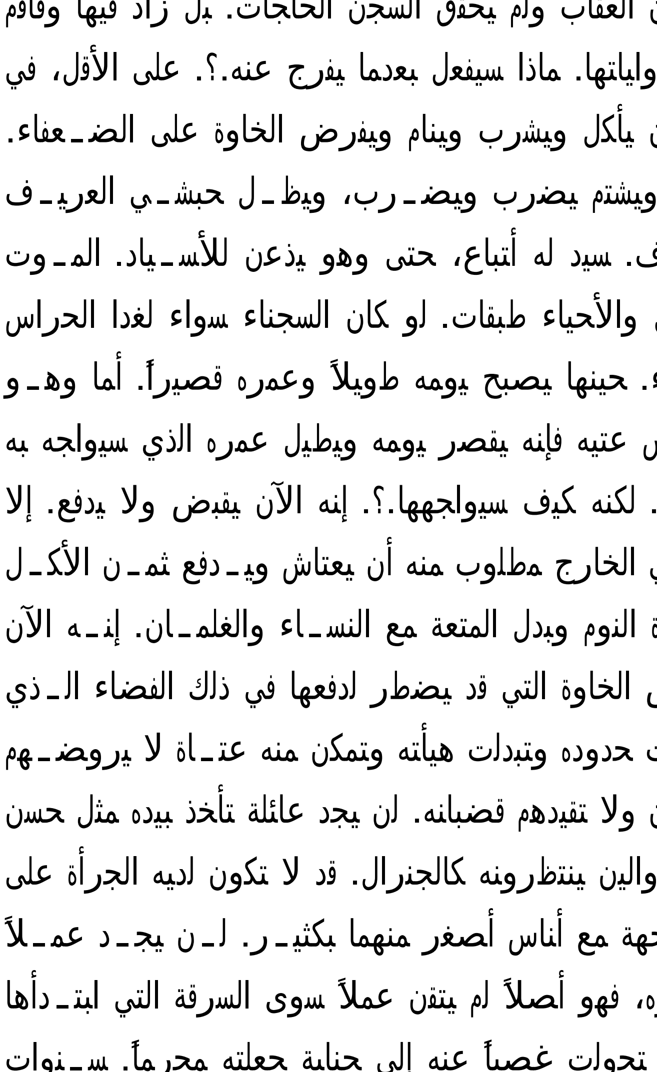
كلوب.؟. أين أبوه منه. ؟. أينه من ديكران.؟. أين الخديوات من نابليون.؟. العرب يعيقون الفن ويميتون الفنان. العـرب شغل حكي وبطن ونسوان. لن يقدره أحد في هـذا البلـد. لا أرمن ولا شركس ولا شيشان ولا بـدوان. ضـحك عليـه ديكران وأخذ خمس لوحات عمل فيها شهوراً طويلـة لقـاء مئتي دينار. إنه متأكد أنه قصد شراء سكوته بعدما باغته مع قطع السلاح. أهلين كنت في المنطقة.!. تتـذكرني أنـا يـا ديكران أم أنك كنت تخاف أن أتذكرك مع الباشا والجنـرال وقطع السلاح.؟!.

تيقظت حواسه. لم يخطر هذا الأمر على باله من قبـل. صحيح. صحيح. ما أغباه. لو طلب حينها من ديكران ألـف دينار لأعطاه. يا سيدي خمسمئة. جاء يشتري سكوته ولـيس فنّه. سيبيعه بنفس الطريقة مرة أخرى. وبخاصة إذا سأله أي الرجلين هو الجنرال. وإن كان نفسه الذي ترهبه أم سـهير. غداً يا ديكران. عليك أن تشتري عدداً آخر من اللوحـات او توصي أصحابك بالشراء. أمعقول أن يفشلك الباشا والجنرال يا ديكران.؟!.

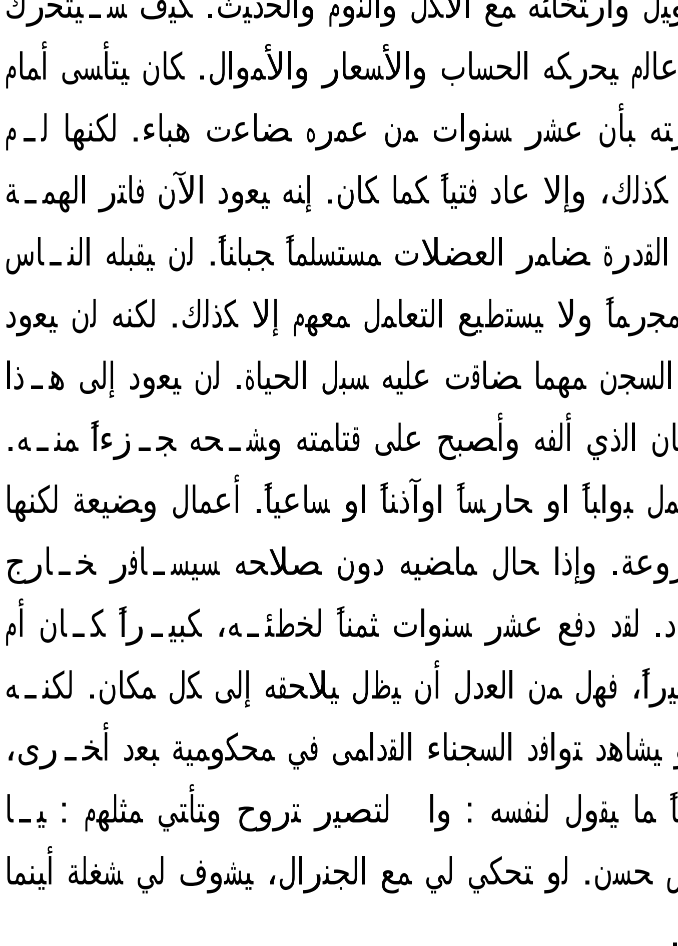
قرر ان يذهب إليه منذ الصباح ويعرض عليه شـراء جملة لوحات بأي مبلغٍ كان، لولا أنه فوجىء بحسـن ونجـم يطرقان الباب وبرفقتهما رجل ضخم الجثة أسـود البشـرة محزز الوجه.

١٥

مع بداية الخريف أفرج عن حبشي، وبمقدار مـا كـان يتطلع للحرية، كان خائفاً منها. بنى أحلاماً كثيرة خلال إقامته الطويلة في السجن. كان يزيد من فضائها شعوره بالسـطوة والهيمنة على العديد من السجناء. لكنه مع اقتراب الإفـراج عنه صارت تقترب منه ساحة الواقع الخارجي الخاوية. عشر سنين اعتاد فيها أسلوب الحياة الضيق المكشوف. يأتيه الأكل من السجن او السجناء ويتقيد بالتعليمات التي يتقيد بها الجميع ويذعن للحراس الذين تفصلهم عنه القضبان وأبواب الحديد. كيف هي الحياة في الخارج.؟. لقد أبعد عنها فتياً ويعود إليها في ذروة الشباب. أجمل حلقات عمره وأقواها انتزعت مـن سلسلتها فقيضته وقيدته وقللت من سبل الحياة. ماذا سـيعمل ومع من سيعمل وهل سيجد في ذلك الفضاء المفتوح أتباعـاً يخدمونه وأسياداً يطعمونه.؟. كثيرون أمضوا فـي السـجن سنوات وعادوا إليه بعد الإفراج عنهم بأيامٍ او أسابيع. كـان يظن أنهم لا يستطيعون التوبة ولا يتعلمون من أخطائهم. أما الآن وقد أصبح مثلهم، قاب قوسين من المواجهة مع الواقـع يفهم حقيقة الأمر. لقد دفعتهم الحاجة للجريمة. تحقـق فـي



السجن العقاب ولم يحقق السجن الحاجات. بل زاد فيها وفاقم في غواياتها. ماذا سيفعل بعدما يخرج عنه.؟. على الأقل، في السجن يأكل ويشرب وينام ويفرض الخاوة على الضعفاء. يشتم ويشتم يضرب ويضرب، ويظل حبشي العريف المخيف. سيد له أتباع، حتى وهو يذعن للأسياد. الموت أشكال والأحياء طبقات. لو كان السجناء سواء لغدا الحراس سجناء. حينها يصبح يومه طويلاً وعمره قصيراً. أما وهو يمارس عتيه فإنه يقصر يومه ويطيل عمره الذي سيواجه به الحياة. لكنه كيف سيواجهها.؟. إنه الآن يقبض ولا يدفع. إلا أنه في الخارج مطلوب منه أن يعتاش ويدفع ثمن الأكل وأجرة النوم وبدل المتعة مع النساء والغلمان. إنه الآن يفرض الخاوة التي قد يضطر لدفعها في ذلك الفضاء الذي اتسعت حدوده وتبدلت هيأته وتمكن منه عتاة لا يروضهم السجن ولا تقيدهم قضبانه. لن يجد عائلة تأخذ بيده مثل حسن ولا موالين ينتظرونه كالجنرال. قد لا تكون لديه الجرأة على المواجهة مع أناس أصغر منهما بكثير. لن يجد عملاً ينتظره، فهو أصلاً لم يتقن عملاً سوى السرقة التي ابتدأها جنحة تحولت غصباً عنه إلى جناية جعلته مجرماً. سنوات



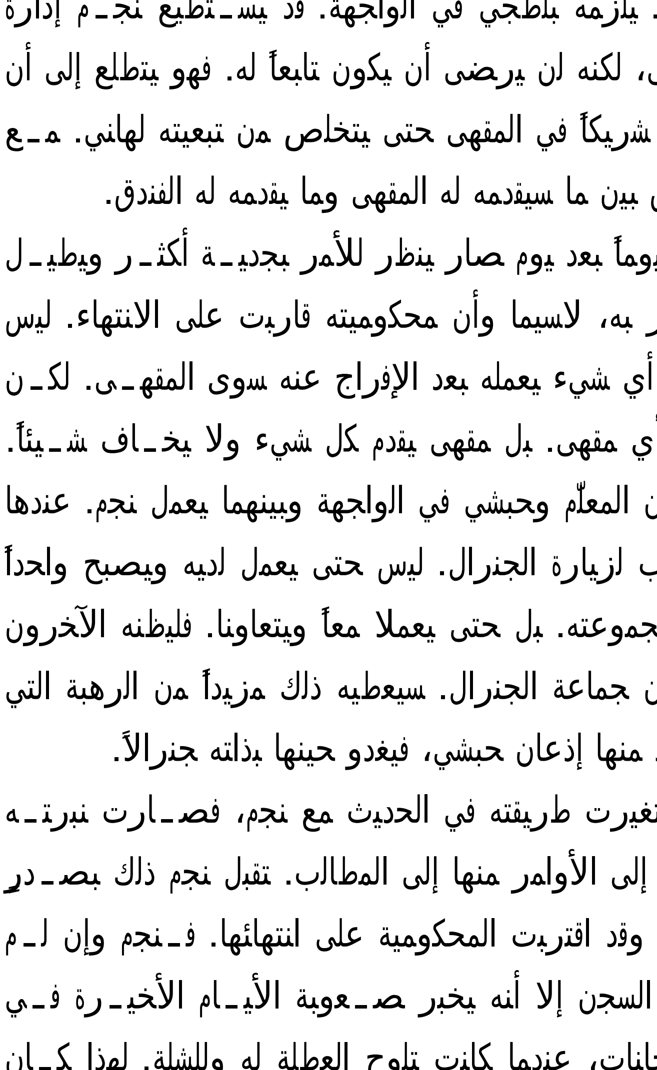
عشر، خبا فيها اندفاعه وانكمشت جرأته وازداد حجمه على حساب همته وقوة بنيته وضمور عضلاته بسبب استرخائه الطويل وارتخائه مع الأكل والنوم والحديث. كيف سيتحرك في عالم يحركه الحساب والأسعار والأموال. كان يتأسى أمام زمرته بأن عشر سنوات من عمره ضاعت هباء. لكنها لم تكن كذلك، وإلا عاد فتياً كما كان. إنه يعود الآن فاتر الهمة فاقد القدرة ضامر العضلات مستسلماً جباناً. لن يقبله الناس إلا مجرماً ولا يستطيع التعامل معهم إلا كذلك. لكنه لن يعود إلى السجن مهما ضاقت عليه سبل الحياة. لن يعود إلى هذا المكان الذي ألفه وأصبح على قتامته وشحه جزءاً منه. سيعمل بواباً او حارساً اوآذناً او ساعياً. أعمال وضيعة لكنها مشروعة. وإذا حال ماضيه دون صلاحه سيسافر خارج البلاد. لقد دفع عشر سنوات ثمناً لخطئه، كبيراً كان أم صغيراً، فهل من العدل أن يظل يلاحقه إلى كل مكان. لكنه وهو يشاهد توافد السجناء القدامى في محكومية بعد أخرى، غالباً ما يقول لنفسه : وا لتصير تروح وتأتي مثلهم : يا ريس حسن. لو تحكي لي مع الجنرال، يشوف لي شغلة أينما كان.

أسعد حسن لجوء حبشي إليه. وأسعده أكثر أن يقول له ذلك أثناء الفورة وعلى مسمع من المنظورين. أخبـره بأنـه سيرسل بمجرد الإفراج عنه توصية به للجنرال. قاصداً بذلك تعزيز ما يشاع عنه بأنه من أتباعه. كما أن مجرد اللجـوء إليه لمساعدته خارج السجن منحته الشعور بأنه متنفذ داخـل القضبان وخارجها.

استاء من حبشي عندما سأله يوم الإفراج عنه إن كـان يحتاج شيئاً من الخارج. قال له بجفاء وغطرسة : أنت مـاذا تحتاج.؟.. طلب منه بنبرة آمرة أن يترك عنوانه مع نجـم، حتى يتصل به عندما يجد له عملاً. قال له ذلك بدافع التعالي لا أكثر، لكنه فوجئ بنجم يأتيه معاتباً بعد أيام : فضـحتني يا حسن. ألم يجد صاحبك المشطّب غير أبي هـاني يسـأله عني.

رد حسن باستعلاء : أولاً، ليس صاحبي. ثانيـاً لمـاذا فضحتك. سوف يشتغل معنا في المقهى.

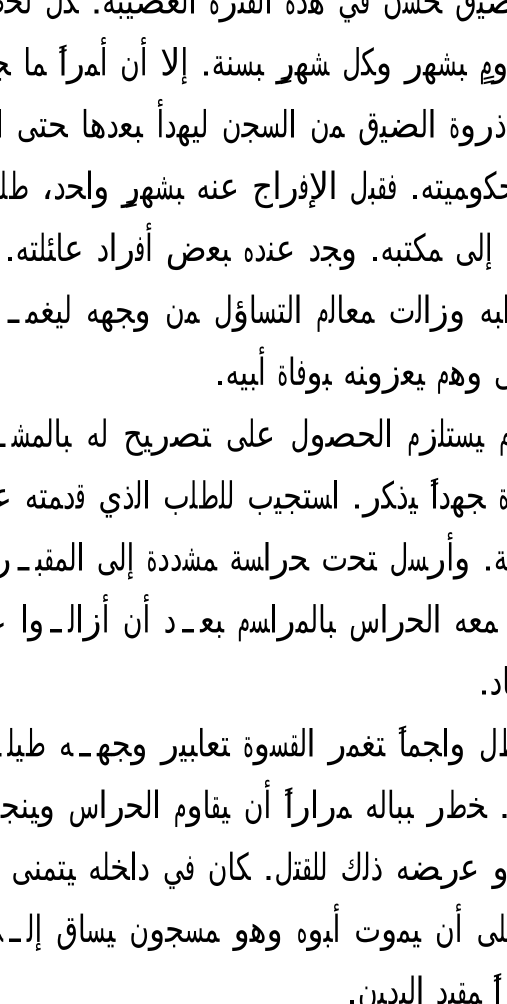
لم يكن الموضوع حتى لحظتها قد خطر على بال حسن. قاله مدافعاً عن تصرفه لا أكثر. لكنه منذ تلك الليلـة صـار يفكر جدياً بالأمر. الحياة خارج السجن لا تختلف عنها فـي



داخله. يلزمه بلطجي في الواجهة. قد يستطيع نجم إدارة المقهى، لكنه لن يرضى أن يكون تابعاً له. فهو يتطلع إلى أن يكون شريكاً في المقهى حتى يتخلص من تبعيته لهاني. مع الفارق بين ما سيقدمه له المقهى وما يقدمه له الفندق.

يوماً بعد يوم صار ينظر للأمر بجدية أكثر ويطيل التفكير به، لاسيما وأن محكوميته قاربت على الانتهاء. ليس هناك أي شيء يعمله بعد الإفراج عنه سوى المقهى. لكن ليس أي مقهى. بل مقهى يقدم كل شيء ولا يخاف شيئاً. سيكون المعلّم وحبشي في الواجهة وبينهما يعمل نجم. عندها سيذهب لزيارة الجنرال. ليس حتى يعمل لديه ويصبح واحداً من مجموعته. بل حتى يعملا معاً ويتعاونا. فليظنه الآخرون أنه من جماعة الجنرال. سيعطيه ذلك مزيداً من الرهبة التي سيزيد منها إذعان حبشي، فيغدو حينها بذاته جنرالاً.

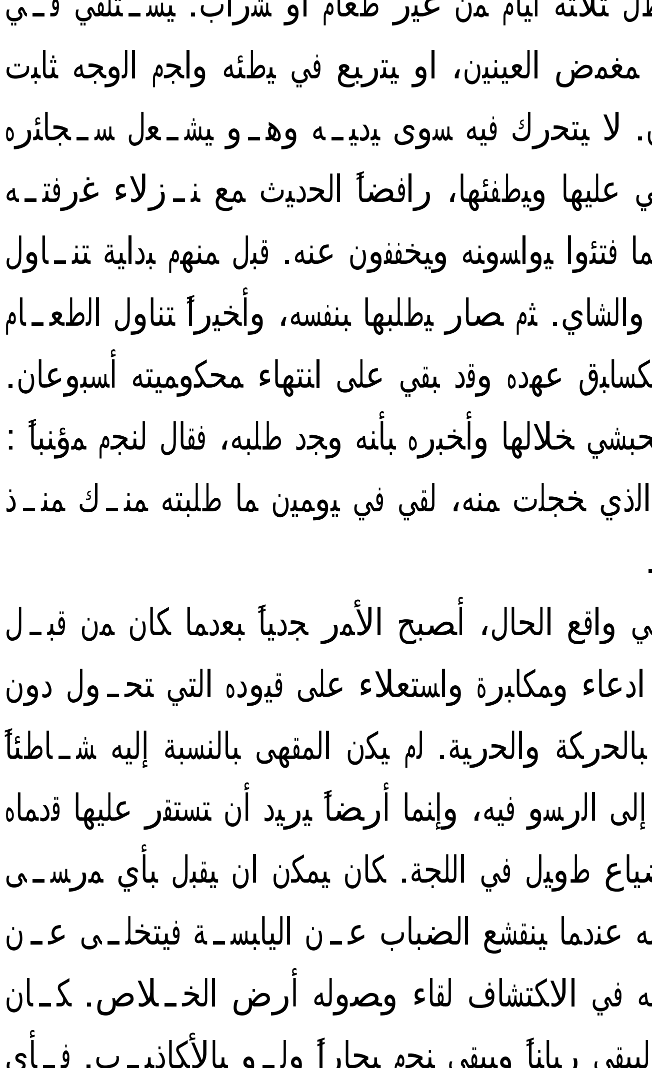
تغيرت طريقته في الحديث مع نجم، فصارت نبرته أقرب إلى الأوامر منها إلى المطالب. تقبل نجم ذلك بصدرٍ رحب وقد اقتربت المحكومية على انتهائها. فنجم وإن لم يخبر السجن إلا أنه يخبر صعوبة الأيام الأخيرة في الامتحانات، عندما كانت تلوح العطلة له وللشلة. لهذا كان



يقدر ضيق حسن في هذه الفترة العصيبة. كل لحظـة بيـوم وكل يومٍ بشهر وكل شهرٍ بسنة. إلا أن أمراً ما جعل حسـن يصل ذروة الضيق من السجن ليهدأ بعدها حتى اليوم الأخير من محكوميته. فقبل الإفراج عنه بشهرٍ واحد، طلبـه مـدير السجن إلى مكتبه. وجد عنده بعض أفراد عائلته. لـم يطـل استغرابه وزالت معالم التساؤل من وجهه ليغمـره الحـزن والأسى وهم يعزونه بوفاة أبيه.

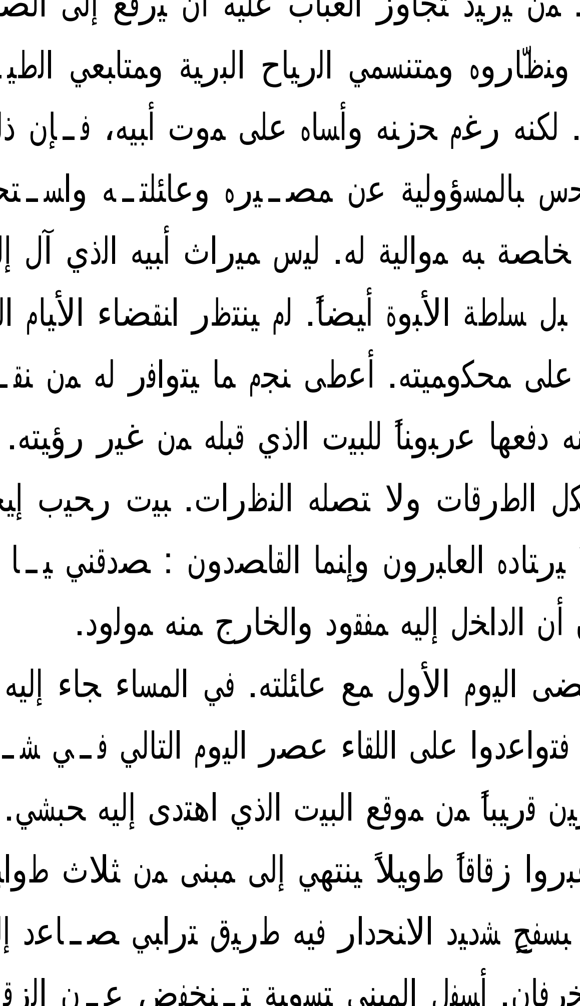
لم يستلزم الحصول على تصريح له بالمشـاركة فـي الجنازة جهداً يذكر. استجيب للطلب الذي قدمته عائلته لوزير الداخلية. وأرسل تحت حراسة مشددة إلى المقبـرة، وهنـاك شارك معه الحراس بالمراسم بعـد أن أزالـوا عـن يديـه الأصفاد.

ظل واجماً تغمر القسوة تعابير وجهـه طيلـة طريـق العودة. خطر بباله مراراً أن يقاوم الحراس وينجـو بنفسـه حتى لو عرضه ذلك للقتل. كان في داخله يتمنى لو مات قبل أبيه على أن يموت أبوه وهو مسجون يساق إلـى الجنـازة مخفوراً مقيد اليدين.



ظل ثلاثة أيام من غير طعام او شراب. يستلقي في فراشه مغمض العينين، او يتربع في بطئه واجم الوجه ثابت العينين. لا يتحرك فيه سوى يديه وهو يشعل سجائره ويقضي عليها ويطفئها، رافضاً الحديث مع نزلاء غرفته الذين ما فتئوا يواسونه ويخففون عنه. قبل منهم بداية تناول القهوة والشاي. ثم صار يطلبها بنفسه، وأخيراً تناول الطعام وعاد كسابق عهده وقد بقي على انتهاء محكوميته أسبوعان. جاءه حبشي خلالها وأخبره بأنه وجد طلبه، فقال لنجم مؤنباً : حبش الذي خجلت منه، لقي في يومين ما طلبته منك منذ سنتين.

في واقع الحال، أصبح الأمر جدياً بعدما كان من قبل مجرد ادعاء ومكابرة واستعلاء على قيوده التي تحول دون تمتعه بالحركة والحرية. لم يكن المقهى بالنسبة إليه شاطئاً يتطلع إلى الرسو فيه، وإنما أرضاً يريد أن تستقر عليها قدماه بعد ضياع طويل في اللجة. كان يمكن ان يقبل بأي مرسى يلوح له عندما ينقشع الضباب عن اليابسة فيتخلى عن طموحه في الاكتشاف لقاء وصوله أرض الخلاص. كان يكابر ليبقى ربانا ويبقي نجم بحاراً ولو بالأكاذيب. فأي


انفلات يعني مزيداً من التحدي وربما قضاء العمر في الإبحار. من يريد تجاوز العباب عليه أن يرفع إلى الصاري منظاره ونظّاروه ومتنسمي الرياح البرية ومتابعي الطيور البحرية. لكنه رغم حزنه وأساه على موت أبيه، فإن ذلك جعله يحس بالمسؤولية عن مصيره وعائلته واستحقاقه لجماعة خاصة به موالية له. ليس ميراث أبيه الذي آل إليه فحسب، بل سلطة الأبوة أيضاً. لم ينتظر انقضاء الأيام القليلة المتبقية على محكوميته. أعطى نجم ما يتوافر له من نقود، طالباً منه دفعها عربوناً للبيت الذي قبله من غير رؤيته. بيت يصل بكل الطرقات ولا تصله النظرات. بيت رحيب إيجاره زهيد لا يرتاده العابرون وإنما القاصدون : صدقني يا أبا الشيشان أن الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود.

أمضى اليوم الأول مع عائلته. في المساء جاء إليه نجم وحبشي فتواعدوا على اللقاء عصر اليوم التالي في شارع المهاجرين قريباً من موقع البيت الذي اهتدى إليه حبشي.

عبروا زقاقاً طويلاً ينتهي إلى مبنى من ثلاث طوابق ملتصق بسفح شديد الانحدار فيه طريق ترابي صاعد إلى شارع خرفان. أسفل المبنى تسوية تنخفض عن الزقاق

حوالي أربعة أمتار ويمكن الوصول إليها عن طريقين. تنفـذ الأولى إلى الزقاق والثانية إلى معبر ضيق يمتد حوالي مئتي متر على شكل زاوية قائمة تتخلل البنايات المتراصـة فـي الجانب الآخر وتنفذ ثانية إلى شـارع المهـاجرين. تبينـوا التسوية مهتدين بأعواد الثقاب. صالة واسعة معتمة ينتصـب فيها العديد من أعمدة الأساسات تقعر أحد جدرانها بما يشـبه التجويف . بجانبه مرحاض مستطيل الشكل فيـه ماسـورة أحكمت فتحتها بسدادة صدئة ومن تحتها سيفون أرضي مـن الموزاييك الخشن حشر في فتحته كتلة خيش ومن فوقها قطع دبشٍ كبيرة ثقيلة. يقابل التجويف غرف ثلاث متعاقبة تـؤدي كل منها للأخرى عبر فتحات خلعت أبوابها مع الأطـارات. في جدار الأخيرة منها كوة عالية ممنخلة محمية بالقضبان : يخرب بيتك يا حبش على هكذا مكان. ما تزال مستحبساً.!.

١٦

اعتذر خير من حسن، لعدم معرفته بموت أبيه وألقى باللائمة على نجم الذي لم يعلمه بالأمر. أخبره حسن بأمر المقهى الذي يزمع افتتاحه. فشجعه وتعهد بتزيين الجدران بالرسومات.

في اليوم التالي ذهب إلى بيت حسن فوجد نجم وهاني وتوافد في الأثناء عدد من الشيشان. وكلما سأل أحد حسن عما سيفعله، يقول بعنجهية أنه افتتح مقهى في المهاجرين. فيطرفش نجم بعينيه مبتعداً بنظره عن هاني.

تردد في إخباره عن نيته في ترك العمل. ولم يلح عليه حسن الذي انشغل لأيامٍ في إجراءات حصر حصته من ميراث أبيه، التي اشتملت على عدد من البيوت القديمة في منطقة الرصيفة إضافة إلى أراضٍ شاسعة معظمها بور وقليل منها بساتين تقوم بزراعتها واستغلال إنتاجها عائلات من الفلاحين.

عرض عقارين للبيع، فبيع أحدهما في أيام، مما وفر له المبلغ المطلوب للمباشرة في ترميم وإصلاح البيت الذي استأجره. لم يمانع عثمان في إجراء التعديل الداخلي الذي

اشترطه حسن لكنه أخلى مسؤليته عن كل ما يترتب علـى المأجور من مصاريف ورسوم وتراخيص بعدما حدد العقـد استخدامه مقهى فقط . متذرعاً بالأجرة الزهيدة التي يتلقاهـا. بينما في الواقع يروم لاستعادة بيته جديـداً مرممـاً يـؤجره بأجرة مضاعفة.كان متيقناً من عدم إمكانية حصـول حسـن على ترخيصٍ لمقهى في مبنى سكني . أغـبط نفسـه وهـو يقبض رصيد الإيجار : ا يزيد مـن أمثـالكم ... قاصـداً المنكوبين. أحس حبشي بالزهو، لاسيما وأن عثمان ترك في البيت فرشة وغطاء مباركين بأنفاس المكشوفة عنهم الحجب. كان ذلك يكفي حبشي للاطمئنان إلى المأوى. لما أنقده حسن مبلغاً لشراء بعض المستلزمات الضرورية لإقامته في البيت ريثما تنتهي أعمال الترميم تحول المأوى بنظره إلى وطنٍ قيد الإعمار.

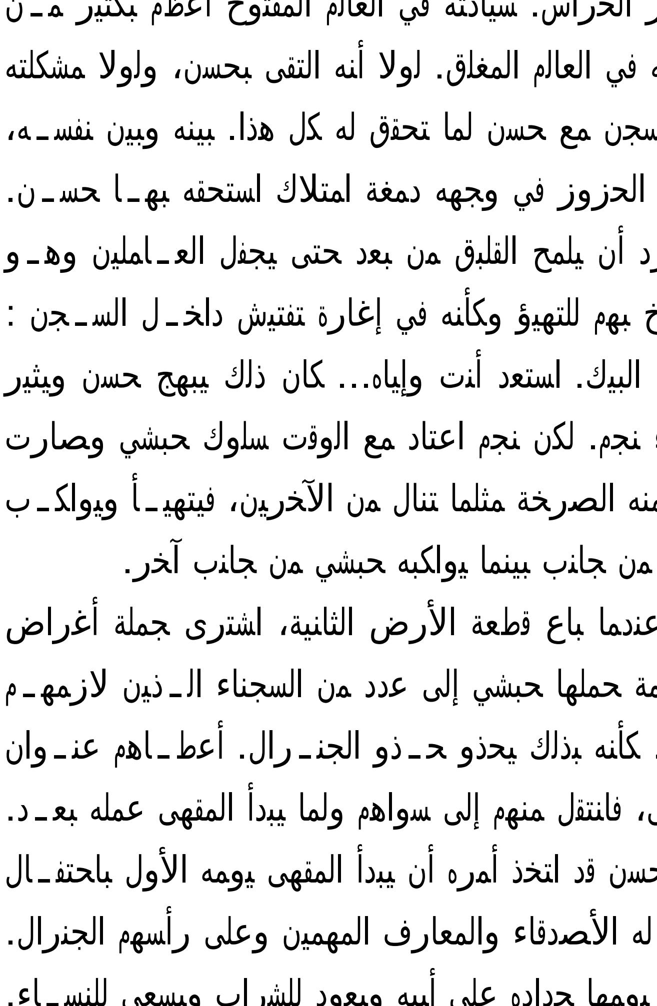
عندما رافق خير نجم إلى الموقع تراجع عـن تعهـده بالرسم على الجدران : ما هذا.؟. التسوية قصر بالنسبة لهذا المكان. وا كل دهانات البلد لن تكفي لرسم أذن واحدة..

استاء حبشي من تعليقه، ونقله لحسن الذي لـم يعقّـب بكلمة. بمجرد بيعه الأرض، أرسل له دفعة مع نجم للتـزود

بالألوان. وكان نجم قد أبلغ هاني في اليوم نفسه برغبته فـي ترك العمل بعدما غدت العملية جدية لا مجال فيها للتردد او التراجع او التأخير، فقد أوكل له حسن أمور الدفع لكـل مـا يلزم عمليات الترميم وشراء المستلزمات، كما أوكل لحبشـي مهمة الإشراف على العمل والعمال والمتعهدين.

انتهى العمل في غضون شهرين. تم فيـه فـتح بـاب إضافي عبر جدار الغرفة الأخيرة أسفل الكوة مما جعل للبيت مدخلين. وسويت تعرجات الأرضية بطبقة مـن الإسـمنت الناعم واستصلح المرحاض وغطيت النتـوءات بالقصـارة وارتفع في فتحة التجويف نصف جدار كالحـاجز. وطليـت الجدران بالشيد باستثناء جدار الصالة المحاذي للبـاب، فقـد طلب خير تنعيمه بالقصارة وطلاءه بالدهان الأصـفر حتـى يرسم عليه جداريته.

مع انتهاء الترميم زرفلت الأبواب ووصـلت الكهربـاء وتدفق المـاء. وكـان نجـم يشـتري احتياجـات المقهـى ومستلزماته أولاً بأول ويضعها في عهدة حبشي الذي وجـد نفسه للمرة الأولى يمتلك مكاناً يشتمل على كـل الخـدمات ويدير عملاً حقيقياً وليس تشليحاً وخاوات ويفرش سـكناً ولا

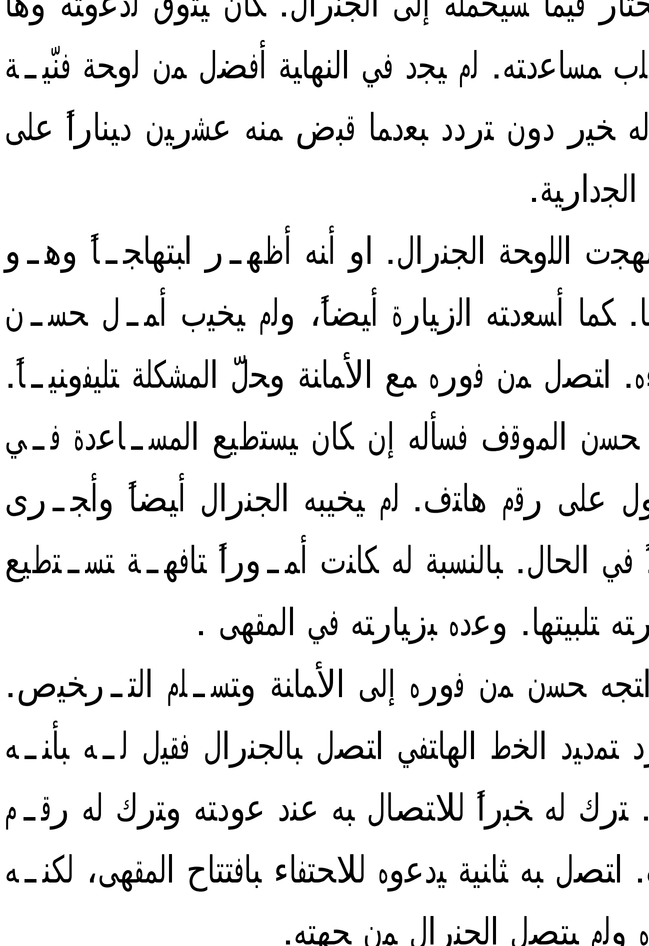


يستوطن يطأ ويتحرك برغبته وحسب حاجته وليس وفقاً لأوامر الحراس. سيادته في العالم المفتوح أعظم بكثير من هيمنته في العالم المغلق. لولا أنه التقى بحسن، ولولا مشكلته في السجن مع حسن لما تحقق له كل هذا. بينه وبين نفسه، اعتبر الحزوز في وجهه دمغة امتلاك استحقه بها حسن. فبمجرد أن يلمح القلبق من بعد حتى يجفل العاملين وهو يصرخ بهم للتهيؤ وكأنه في إغارة تفتيش داخل السجن: وصل البيك. استعد أنت وإياه... كان ذلك يبهج حسن ويثير استياء نجم. لكن نجم اعتاد مع الوقت سلوك حبشي وصارت تنال منه الصرخة مثلما تنال من الآخرين، فيتهيأ ويواكب حسن من جانب بينما يواكبه حبشي من جانب آخر.

عندما باع قطعة الأرض الثانية، اشترى جملة أغراض وأطعمة حملها حبشي إلى عدد من السجناء الذين لازمهم حسن. كأنه بذلك يحذو حذو الجنرال. أعطاهم عنوان المقهى، فانتقل منهم إلى سواهم ولما يبدأ المقهى عمله بعد. كان حسن قد اتخذ أمره أن يبدأ المقهى يومه الأول باحتفال يدعو له الأصدقاء والمعارف المهمين وعلى رأسهم الجنرال. سيفك يومها حداده على أبيه ويعود للشراب ويسعى للنساء.

إلا أن افتتاح المقهى في آواخر الربيع واجه مشـكلة. فقـد رفضت أمانة العاصمة منح حسن الترخيص بحجة أن المبنى سكني. لم تجد مراجعاته لكبار المسؤولين. ذهب إلى عثمـان غاضباً يحيط به نجم وحبشي من الجانبين. تصـنع عثمـان الهبل مبدياً استغرابه من الأمر. طلب منه حسن أن يستصدر له الترخيص او يعيد له كل قرشٍ دفعه. ادعى عثمان أنـه غشيم لا يعرف بهذه الأمور ولا دخل له بما جددوه في البيت واستصلحوه. إنه لم يخل بالعقد، أجره مقهى لكن، لا علاقـة له بالتراخيص ولا أحد يجبره على دفع قرشٍ واحدٍ. قال لـه حسن : ان لم أحصل على الترخيص ستدفع ورجلـك علـى رقبتك... تلفتت الأعين إلى حيث يفترض أن هنـاك رقبـة، بينما توهج مقبض المسدس في عيني عثمان رغـم ضـعف نظره، فلم يرد بكلمة. استدار حسن غاضباً. لحق بـه نجـم وظل حبشي يتفرس بشراسة في وجه عثمان.

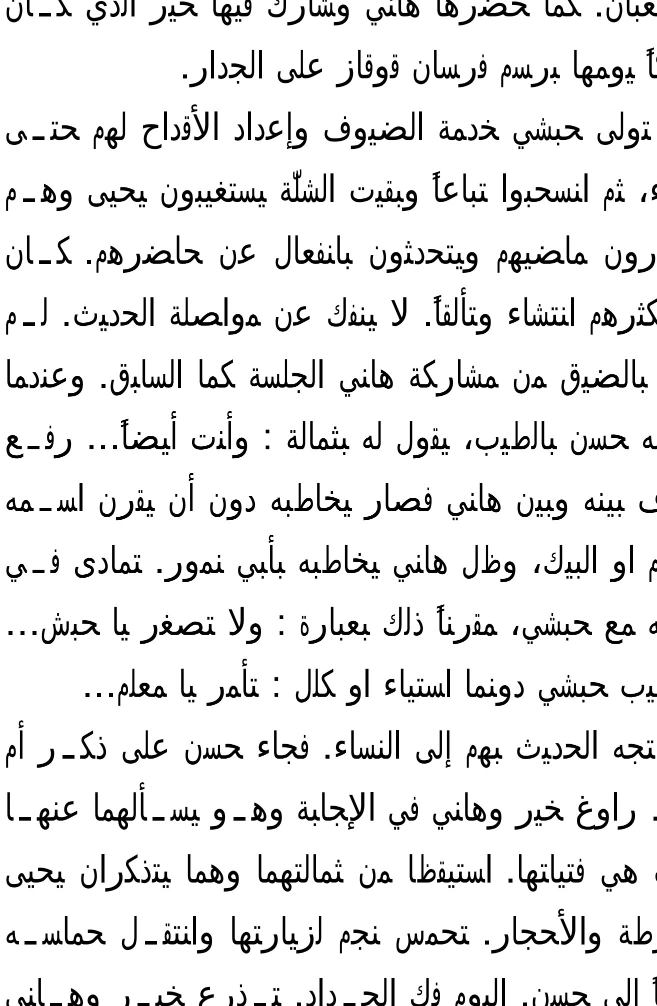
في المقهى سأل نجم حسن عمـا سـيفعلان مـع هـذه الورطة. حسن خسر نقوده وهو خسر عملـه. ظـل حسـن واجماً لبعض الوقت، ثم قال : محاولة.



احتار فيما سيحمله إلى الجنرال. كان يتوق لدعوته وها هو يطلب مساعدته. لم يجد في النهاية أفضل من لوحة فنّية قدمها له خير دون تردد بعدما قبض منه عشرين ديناراً على حساب الجدارية.

أبهجت اللوحة الجنرال. او أنه أظهر ابتهاجاً وهو يتسلمها. كما أسعدته الزيارة أيضاً، ولم يخيب أمل حسن ورجاءه. اتصل من فوره مع الأمانة وحلّ المشكلة تليفونياً. استغل حسن الموقف فسأله إن كان يستطيع المساعدة في الحصول على رقم هاتف. لم يخيبه الجنرال أيضاً وأجرى اتصالاً في الحال. بالنسبة له كانت أموراً تافهة تستطيع سكرتيرته تلبيتها. وعده بزيارته في المقهى .

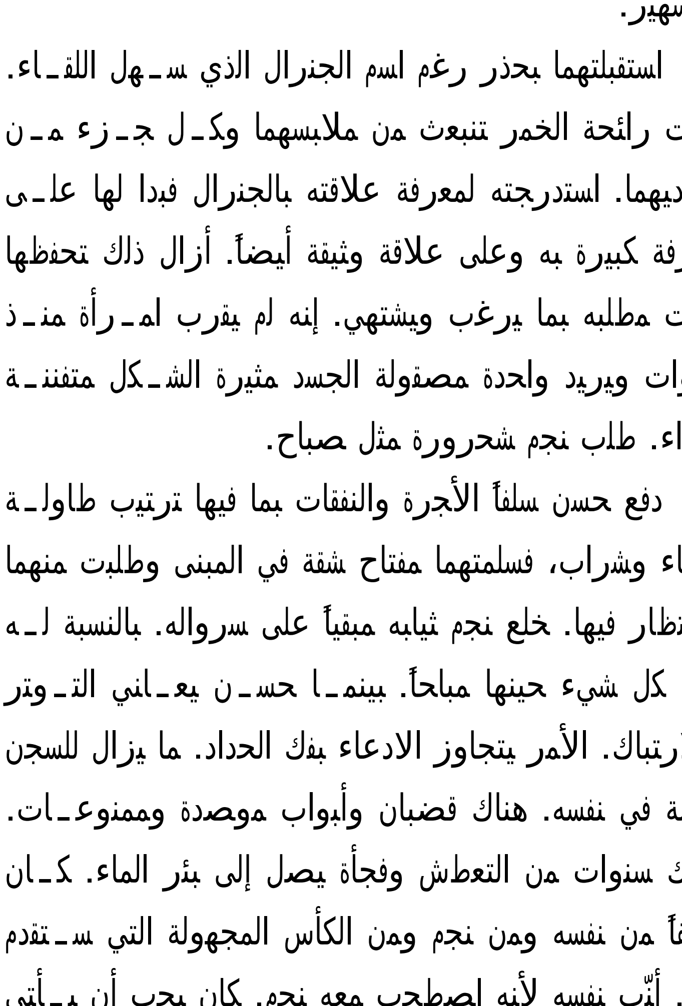
اتجه حسن من فوره إلى الأمانة وتسلم الترخيص. وبمجرد تمديد الخط الهاتفي اتصل بالجنرال فقيل له بأنه مسافر. ترك له خبراً للاتصال به عند عودته وترك له رقم الهاتف. اتصل به ثانية يدعوه للاحتفاء بافتتاح المقهى، لكنه لم يجده ولم يتصل الجنرال من جهته.



احتفى معه العديد من رفقاء السجن القدماء ومن بينهم أبو شعبان. كما حضرها هاني وشارك فيها خير الذي كان منهمكاً يومها برسم فرسان قوقاز على الجدار.

تولى حبشي خدمة الضيوف وإعداد الأقداح لهم حتى المساء، ثم انسحبوا تباعاً وبقيت الشلّة يستغيبون يحيى وهم يستذكرون ماضيهم ويتحدثون بانفعال عن حاضرهم. كان نجم أكثرهم انتشاء وتألقاً. لا ينفك عن مواصلة الحديث. لم يشعر بالضيق من مشاركة هاني الجلسة كما السابق. وعندما يخاطبه حسن بالطيب، يقول له بثمالة : وأنت أيضاً... رفع التكليف بينه وبين هاني فصار يخاطبه دون أن يقرن اسمه بالمعلم او البيك، وظل هاني يخاطبه بأبي نمور. تمادى في مطالبه مع حبشي، مقرناً ذلك بعبارة : ولا تصغر يا حبش... فيستجيب حبشي دونما استياء او كلل : تأمر يا معلم...

اتجه الحديث بهم إلى النساء. فجاء حسن على ذكر أم سهير. راوغ خير وهاني في الإجابة وهو يسألهما عنها وكيف هي فتياتها. استيقظا من ثمالتهما وهما يتذكران يحيى والشرطة والأحجار. تحمس نجم لزيارتها وانتقل حماسه سريعاً إلى حسن. اليوم فك الحداد. تذرع خير وهاني



بالنعاس وغادرا كأنهما يهربان، فاتجه حسن ونجم إلى بيت أم سهير.

استقبلتهما بحذر رغم اسم الجنرال الذي سهل اللقاء. كانت رائحة الخمر تنبعث من ملابسهما وكل جزء من جسديهما. استدرجته لمعرفة علاقته بالجنرال فبدا لها على معرفة كبيرة به وعلى علاقة وثيقة أيضاً. أزال ذلك تحفظها ولبت مطلبه بما يرغب ويشتهي. إنه لم يقرب امرأة منذ سنوات ويريد واحدة مصقولة الجسد مثيرة الشكل متفننة الأداء. طلب نجم شحرورة مثل صباح.

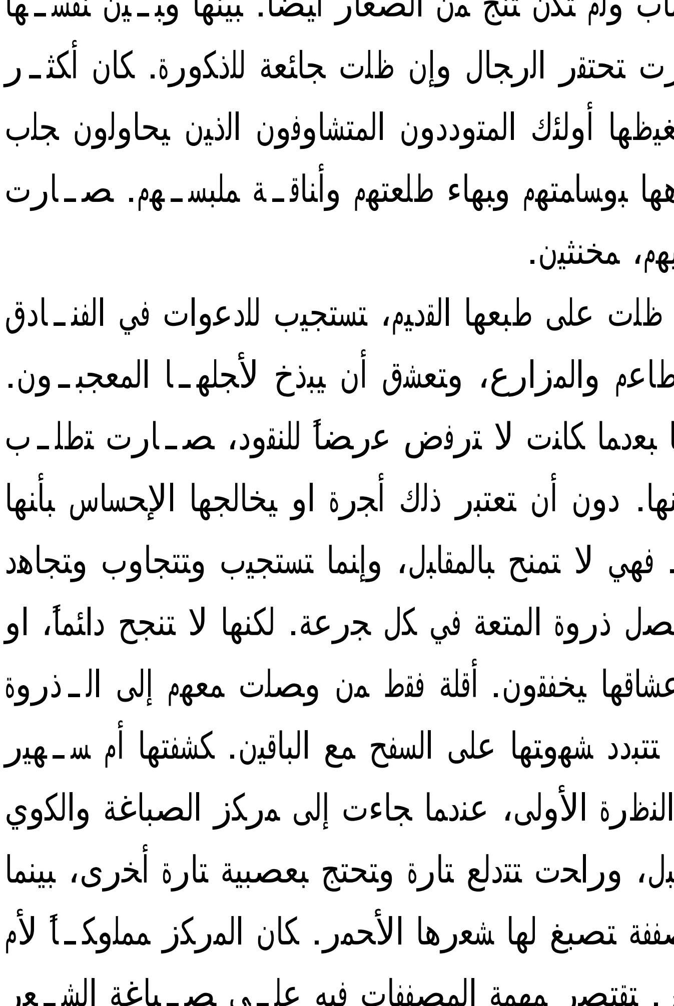
دفع حسن سلفاً الأجرة والنفقات بما فيها ترتيب طاولة عشاء وشراب، فسلمتهما مفتاح شقة في المبنى وطلبت منهما الانتظار فيها. خلع نجم ثيابه مبقياً على سرواله. بالنسبة له كان كل شيء حينها مباحاً. بينما حسن يعاني التوتر والارتباك. الأمر يتجاوز الادعاء بفك الحداد. ما يزال للسجن رهبة في نفسه. هناك قضبان وأبواب موصدة وممنوعات. هناك سنوات من التعطش وفجأة يصل إلى بئر الماء. كان خائفاً من نفسه ومن نجم ومن الكأس المجهولة التي ستقدم إليه. أنّب نفسه لأنه اصطحب معه نجم. كان يجب أن يأتي

وحده. لم تكن النساء في برنامج ليلته لولا الخمرة اللعينـة. ومع هذا واصل الشرب بمجرد أن أرسلت إليهما أم سـهير زجاجة وبعض المقبلات. بعد نحو نصف سـاعة، وصـلت نبيلة.

١٧

منذ تلك الليلة غدت نبيلة عشيقة حسـن. وجـدت فيـه الخشونة التي تحبها والقسوة التي تحتاجها. كانت أمهـا قـد جافتها بعد الذي ألم بها وحاولت حصر حريتها والحـد مـن حركتها، لكنها كفّت يدها بعدما عيرتها بلياليها الجميلـة مـع سكارى أبيها. مع هذا ظلت تضايقها بالأسئلة والاستفسـارت كلما تأخرت وتصيخ السمع لحديثها كلما هاتفت. ممـا كـان يثير أعصابها ويطلق أحياناً جنونها فتصرخ وتهدد بالرحيل، فتستكين أمها لأيام ثم تعاود المنوال. كما أثر عليهـا سـلباً مقاطعة الأقارب وبخاصة خالها وتوقـف الأصـدقاء عـن زيارتها، فلم يبعث ذلك في نفسها شعوراً بالذنب او القطيعة، بل ولد لديها إحساساً بالوحشة والفراغ زادا مناعـة الوحـدة التي غرقت بها وصارت تواكبها أينما كانت. فـي السـوق المفتوح والحمام المغلق. فتهرب من وحشة الفراش وأرقـه بالنوم مخمورة.

بعد فصلها من الأكاديمية لم يعد لديها شيء تتسلى بـه وغدت عصبية في التعامل هجومية في الحديث. ترد علـى التعليقات بأرخص الكلمات وتشتم المتحرشين وسط الطريق.



ذاع صيتها وانتشرت حكايتها فصار الرجال يلاحقونها كالذباب ولم تكن تنج من الصغار أيضاً. بينها وبـين نفسـها صارت تحتقر الرجال وإن ظلت جائعة للذكورة. كان أكثـر ما يغيظها أولئك المتوددون المتشاوفون الذين يحاولون جلب انتباهها بوسامتهم وبهاء طلعتهم وأناقـة ملبسـهم. صـارت تسميهم، مخنثين.

ظلت على طبعها القديم، تستجيب للدعوات في الفنـادق والمطاعم والمزارع، وتعشق أن يبذخ لأجلهـا المعجبـون. لكنها بعدما كانت لا ترفض عرضاً للنقود، صـارت تطلـب بلسانها. دون أن تعتبر ذلك أجرة او يخالجها الإحساس بأنها بغي. فهي لا تمنح بالمقابل، وإنما تستجيب وتتجاوب وتجاهد أن تصل ذروة المتعة في كل جرعة. لكنها لا تنجح دائماً، او أن عشاقها يخفقون. أقلة فقط من وصلت معهم إلى الـذروة بينما تتبدد شهوتها على السفح مع الباقين. كشفتها أم سـهير منذ النظرة الأولى، عندما جاءت إلى مركز الصباغة والكوي المقابل، وراحت تتدلع تارة وتحتج بعصبية تارة أخرى، بينما المصففة تصبغ لها شعرها الأحمر. كان المركز مملوكـاً لأم سهير. تقتصر مهمة المصففات فيه علـى صـباغة الشـعر

وكيه، ومهمة أم سهير اكتشاف المواهب وصـنع النجـوم. فانتظمت سفينة نبيلة بسهولة مع الأسطول واستقرت دفتها مع انشداد الشراع في اتجاه الريح. إلا أنها لم تكـن تقبـل كـل الحمولات. شأن الكثيرات ممن توقع بهن أم سهير. فتسـألها عندما تتصل بها عن مواصفات الزبـون وهيئتـه وصـفاته وعلاماته قبل أن تسأل عن اسمه ووزنه وحجم منقولاته. لم تكن في استفسارتها تتوخى الحذر والحرص مثل بعضـهن، لكنها ظلت رغم انتظامها في المهنة لا تمارسها كبغي. فبمثل ما تستجيب تنتظر أن تستجاب. طالما حظ المرأة في الـدنيا، حسب رأيها، أن تقبض لقاء ما ترغب، وعلى الرجل يـدفع فيها ما يقدر أن يدفع.

وجدت حسن مثلما تصورته. جلفاً خشناً شديد البـأس، وخاماً أيضاً. جلست بجانبه على الأريكة يتحـدثان بتبـادل أسئلة سخيفة كأجوبتها. أضفى نجم بعـض البهجـة وهـو يتكركر حيناً ويمول حيناً ويتفلت للنزول إلى أم سهير حتـى يسألها عن شحرورته، فيصرخ به حسن : كيف ستنزل لهـا بالكلسون يا أخي.؟.

- ليس هناك مشكلة... وهم بتنزيله، فصرخ به حسـن محذراً : إياك أن تفعلها يا نجم. خلينا أصحاب... وراحـت نبيلة تتكركر.

طبطب نجم على حوضه وهو يقـول : وا   لا أبـدلك بمال الدنيا.

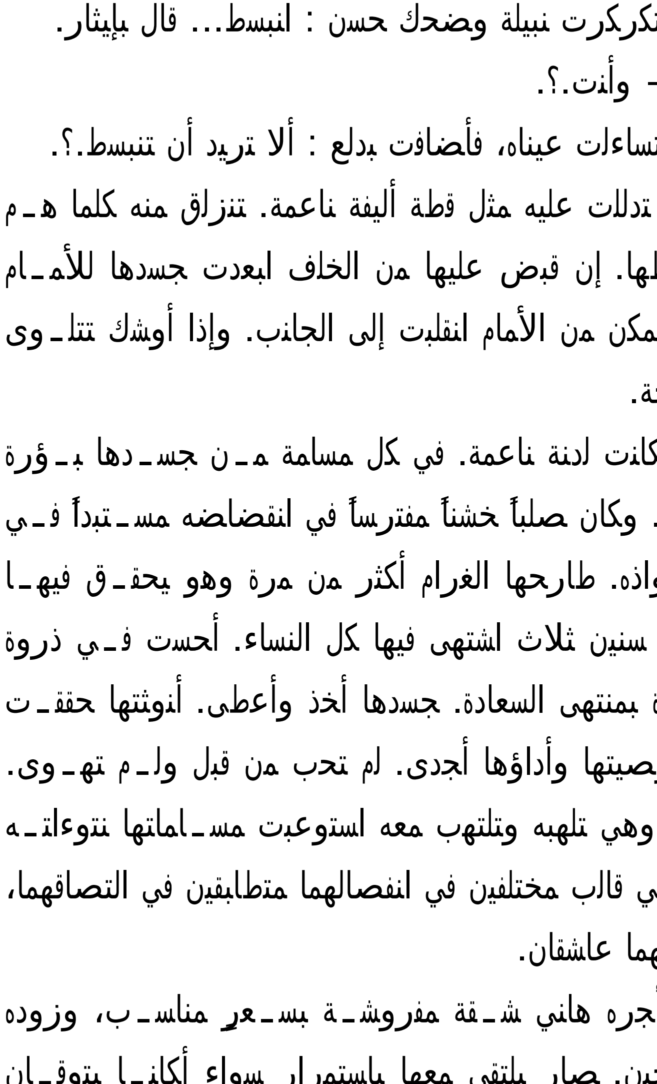
قال حسن ساخراً : لكنه غدر بك عند النور... انتبهـت عينا نبيلة، بينما ارتخى فم نجم قبل أن ينفجر فـي البكـاء : وأقول عنك صاحبي. علي الحرام لن أظل دقيقة واحـدة... لكن إطلالة الشحرورة أنساه اليمين. أشرقت تعابيره وابتسـم ابتسامة عريضة وهي تتقدم متأنزقة كصباح. عندها تصرف حسن كأبي علي : ها هي شرفت. ظل إبكي.

حملق بها نجم مأخوذاً : أأنـت حصـتي.؟... سـألته مداعبة.

قال برخاوة : أنا وكل عائلتي.

مد يده إلى جهة المخدع وقال بإنجليزية مفخمة مفخخة : السيدات أولاً.

تقدمته إلى المخدع فاستدار نحو حسن ونبيلة. لاوقهمـا بلسانه وأنزل سرواله خطفاً قبل أن يسرع خلفها مغلقاً الباب.



تكركرت نبيلة وضحك حسن : انبسط... قال بإيثار.

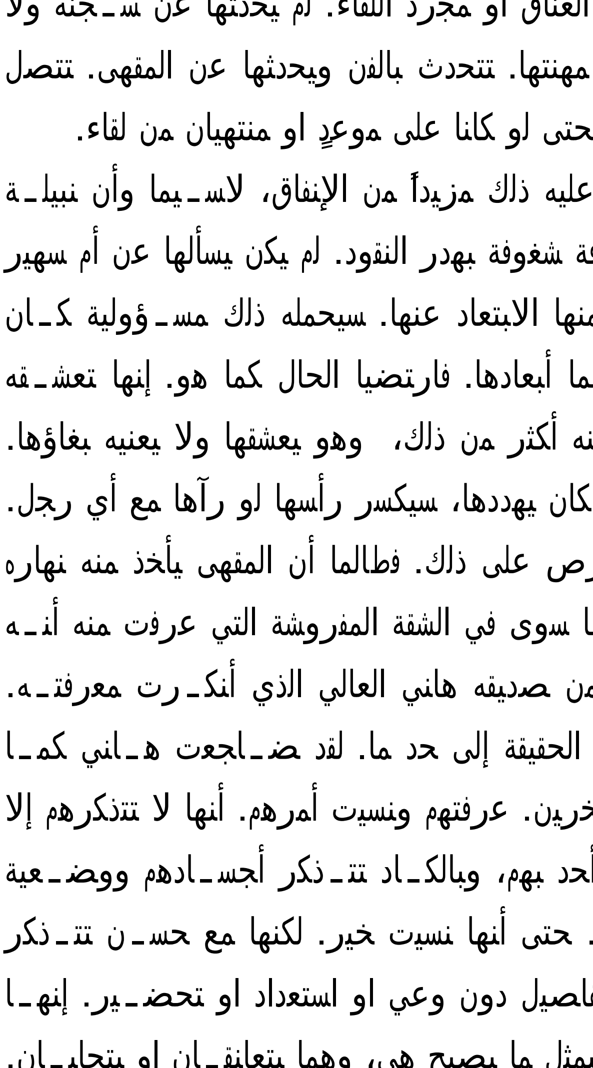
- وأنت.؟.

تساءلت عيناه، فأضافت بدلع : ألا تريد أن تنبسط.؟.

تدللت عليه مثل قطة أليفة ناعمة. تنزلق منه كلما هم بالتقاطها. إن قبض عليها من الخلف ابعدت جسدها للأمام وأن تمكن من الأمام انقلبت إلى الجانب. وإذا أوشك تتلوى منزاحة.

كانت لدنة ناعمة. في كل مسامة من جسدها بؤرة شهوة. وكان صلباً خشناً مفترساً في انقضاضه مستبداً في استحواذه. طارحها الغرام أكثر من مرة وهو يحقق فيها أحلام سنين ثلاث اشتهى فيها كل النساء. أحست في ذروة النشوة بمنتهى السعادة. جسدها أخذ وأعطى. أنوثتها حققت خصوصيتها وأداؤها أجدى. لم تحب من قبل ولم تهوى. لكنها وهي تلهبه وتلتهب معه استوعبت مساماتها نتوءاته كوجهي قالب مختلفين في انفصالهما متطابقين في التصاقهما، فإذا بهما عاشقان.

أجره هاني شقة مفروشة بسعرٍ مناسب، وزوده بمفتاحين. صار يلتقي معها باستمرار سواء أكانا يتوقان



للحديث او العناق او مجرد اللقاء. لم يحدثها عن سـجنه ولا حدثته عن مهنتها. تتحدث بالفن ويحدثها عن المقهى. تتصل به كل يوم حتى لو كانا على موعدٍ او منتهيان من لقاء.

رتب عليه ذلك مزيداً من الإنفاق، لاسـيما وأن نبيلـة كانت مسرفة شغوفة بهدر النقود. لم يكن يسألها عن أم سهير ولا طلب منها الابتعاد عنها. سيحمله ذلك مسـؤولية كـان يدرك كلاهما أبعادها. فارتضيا الحال كما هو. إنها تعشـقه ولا تريد منه أكثر من ذلك، وهو يعشقها ولا يعنيه بغاؤها. المهم، كما كان يهددها، سيكسر رأسها لو رآها مع أي رجل. وكانت تحرص على ذلك. فطالما أن المقهى يأخذ منه نهاره فأين سيراها سوى في الشقة المفروشة التي عرفت منه أنـه استأجرها من صديقه هاني العالي الذي أنكـرت معرفتـه. كانت تقول الحقيقة إلى حد ما. لقد ضـاجعت هـاني كمـا ضاجعت آخرين. عرفتهم ونسيت أمرهم. أنها لا تتذكرهم إلا إذا ذكرها أحد بهم، وبالكـاد تتـذكر أجسـادهم ووضـعية مضاجعتهم. حتى أنها نسيت خير. لكنها مع حسـن تتـذكر تفاصيل التفاصيل دون وعي او استعداد او تحضـير. إنهـا تصبح هو بمثل ما يصبح هي، وهما يتعانقـان او يتحابـان.

كانت قسوته تنعشها واستبداده ينشطها وخشـونته تطفؤهـا. كانت بالنسبة له خمره وجمهـوره الـودود الـذي ينشـده استرضاء وليس طمعاً فيه. ومع أنها واصلت البغاء دون أن يراها وكانت تقبض لقاء ذلك أجرتها، إلا أنها لم تكن تعتبـر النقود التي تقبضها من حسن إيجاراً. بل إنفاقاً مـن عشـيق على عشيقة. فعندما غضب منها يوماً بعدما لمحها في سيارة أحدهم، صفعها وركلها وأدمى وجهها. آلمها ذلك لكنهـا لـم تبك ولم تغضب، إلا أنه عندما رمى لها ببعض أوراق نقدية سحقها وأذلها. أمسكت الأوراق ورمته بها. صـرخت فـي وجهه وهمت بضربه. قيد بيديه ذراعيها وهي تتلوى وتتفلت وتبكي بمرارة. بلغ حنوه الذروة وهو يضـمها إليـه بينمـا تحاول الإفلات والابتعاد. تهاوت أخيراً وأغرقت رأسها فـي صدره وهي تنشج بينما يملس لها شـعرها ويهدهـد علـى كتفها : سأذبحك إن عملتها ثانية... لكنها عملتها ثانية وثالثة وهلم جرا، إلى أن اتصلت به يوماً بعدما خذلتها أم سهير لأن الزبون الذي ضبطت معه لم يأت بوساطتها.

كانت التهمة ثابتة. يدعمها سوابق نبيلة المعروفة لرجال التعقيب. لم يوفق حسن بالإفراج عنها ولو بكفالة. مرة ثانية

وجد نفسه أسيراً للجنرال. فهو في هذا الموقف أكثـر مـن عشيق يريد إنقاذ عشيقته. بل الشيشاني الذي كان منذ السجن يبسط نفوذه.

قال للجنرال هاتفياً : أريد أن يخلى سـبيلها الآن، وأنـا تحت أمرك... قالها بنبرة آمرة هزت الجنرال وأذابت كل ما بقي بينهما من تحفظ وارتياب.

في الشقة انهال عليها لكماً وركـلاً وهـي تسـترحمه صارخة : تبت تبت... وترتمي على قدميه فيركلهـا : كـل مرة تقولين تبتِ تبتِ... ويعاقبها كطفلـة جانحـة قاصـرة. يضربها غاضباً منها مقهوراً عليها. ما أن تهالك على المقعد حتى جثت أمامه وهي تنشج وتشهق وتقبله من فخذه : مـرة ثانية اذبحني. خاص. خاص. يا حبيبي يا حسن... شدها من شعرها وقلبه يذوي حنواً عليها : وا ، مرة ثانية لن أريـكِ وجهي.

- لا لا. وا سأقتل نفسي.

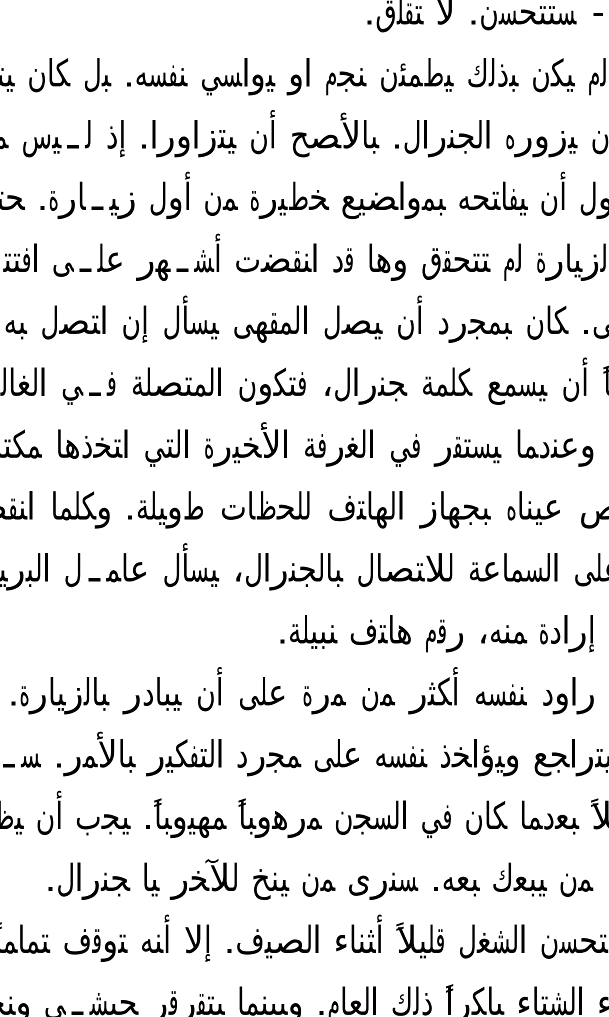
- أخرتها تجرجريني للمخافر... دافعاً رأسها عنه بقهرٍ وألم.

-سامحني. سامحني يا حسن.

كان قد سامحها بمجرد أن كف عن ضربها. وقبـل أن يغادر تعانقا وغابا في قبلة عنيفة طويلة استذكرت خلالها أم سهير واستذكر حسن الجنرال.

لم يكن قد نسيه. بل كان يتذكره كل يوم ويخطر ببالـه كل ساعة. مع أنه فقد الأمل في أن يأتي لزيارته في المقهى كما وعد. أمور المقهى لم تتقدم كما كان يتوقع. تردد عليـه العديد من السجناء الذين كان يفرج عنهم. لكن معظمهم كان يأتيه طلباً للمساعدة ثم يختفي، بينما كـان يأمـل مـنهم أن يصبحوا زبائن دائمين. أما أحلامه في أن يصبح من كبـار تجار الممنوعات فقد ذابت على أرض الواقع. اختراق سوق الحشيشة لم يكن أمراً ميسوراً. المتاجرة بها داخـل السـجن ليست كالمتاجرة خارجه. بيع قليل هنـاك يعطـي مـردوداً كبيراً. على الأقل بالنسبة للسجن ومتطلباته البسيطة. أما في هذا العالم المفتوح فالبيع يجب أن يكون كمياً وإلا فإنـه لـن يغطي المصاريف التي تقتضيها المخاطرة. كما أنه لم يوفـق للآن في ترويج المقهى. لا في اسـتجلاب زبـائن القهـوة والشاي، حيث الموقع بعيد مغمور يخيف عابريـه. ولا فـي تقديم الحشيشة أيضاً. يجب توافر خمسة حشاشين كحدٍ أدنى

في كل دورة للنرجيلة. أما بيعها بالمفرق فلم يوفق به حتـى الآن. تظل محششة أبي شعبان أيسر على العبور ومعروفـة للجميع. كما أن ما يدفعه لأبي شعبان ثمناً للحشيشة لا يقـل كثيراً عما يدفعه عابر الطريق. لن يحقق ربحاً معقولاً إلا إذا اختصر الموزعين. فأبو شعبان يرفض تحوطـاً ان يبيعـه كمية كبيرة كما يرفض مناقشة السعر الذي لا يختلف كثيـراً عن سعر التوزيع. وكان حسن يدرك أن أبا شعبان يقصد من تعامله هذا خنقه في المهد، لاسيما وأن المقهيين في منطقـة واحدة. ولولا أن أبا شعبان يحسب له الحساب لربما وشى به وأزاله تماماً من الطريق. لكن المشكلة لا تكمـن فـي أبـي شعبان وإنما في الوصول إلى المنبع الذي يـورد الحشيشـة والأفيون بالجملة. ذلك ليس ميسوراً. فحبشي الذي كان يقول أنه يعرف الخبايا والخفايا بدا لا يعرف شيئاً غير الصـراخ بالزبائن وإخافتهم. أما نجم الذي وضع الوزرة البيضاء، فإنه قلما يخشخش بها. وغالباً ما يشارك الـرواد القلائـل لعـب الباصرة او الطاولة، وفي وجهه علامات حزن دائمة ويعبـر على المكشوف عن ندمه من ترك عملة في الفندق : أنا أقول استعجلنا كثيراً يا أبا علي.

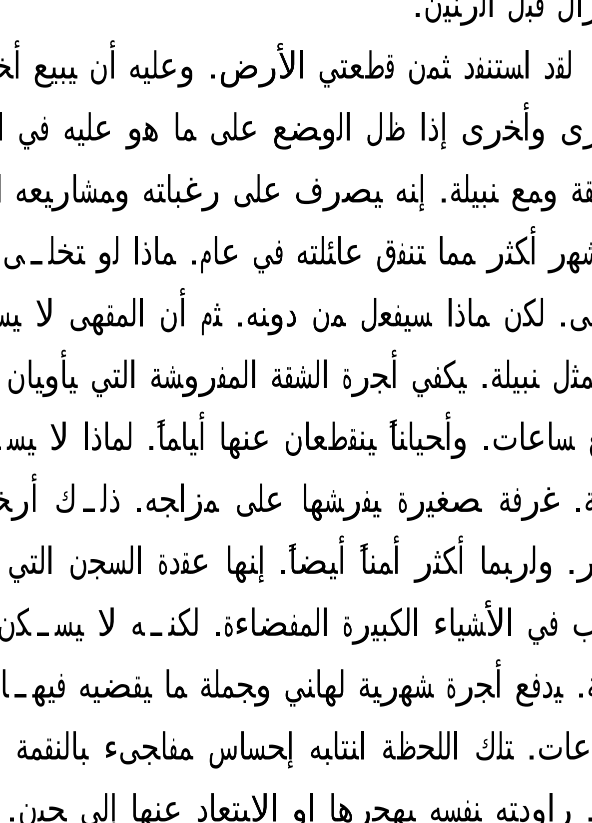


- ستتحسن. لا تقلق.

لم يكن بذلك يطمئن نجم او يواسي نفسه. بل كان يتطلع إلى أن يزوره الجنرال. بالأصح أن يتزاورا. إذ ليس من المعقول أن يفاتحه بمواضيع خطيرة من أول زيارة. حتى هذه الزيارة لم تتحقق وها قد انقضت أشهر على افتتاح المقهى. كان بمجرد أن يصل المقهى يسأل إن اتصل به أحد متمنياً أن يسمع كلمة جنرال، فتكون المتصلة في الغالب نبيلة. وعندما يستقر في الغرفة الأخيرة التي اتخذها مكتباً له تشخص عيناه بجهاز الهاتف للحظات طويلة. وكلما انقضت يده على السماعة للاتصال بالجنرال، يسأل عامل البريد، دونما إرادة منه، رقم هاتف نبيلة.

راود نفسه أكثر من مرة على أن يبادر بالزيارة. لكنه كان يتراجع ويؤاخذ نفسه على مجرد التفكير بالأمر. سيبدو متطفلاً بعدما كان في السجن مرهوباً مهيوباً. يجب أن يظل هكذا. من يبعك بعه. سنرى من ينخ للآخر يا جنرال.

تحسن الشغل قليلاً أثناء الصيف. إلا أنه توقف تماماً مع مجيء الشتاء باكراً ذلك العام. وبينما يتقرقر حبشي ونجم برداً حول بريموس الكاز، يظل حسن خلف طاولة المكتب

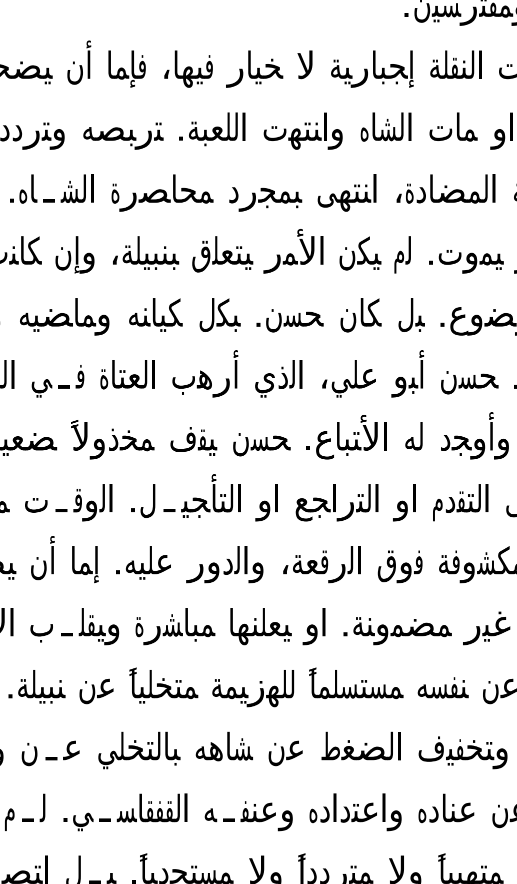


واضعاً يديه في جيبي معطفه وقلبقه على رأسه وعيناه شاخصتان بثبات في جهاز الهاتف يتوقع أن يسمع صوت الجنرال قبل الرنين.

لقد استنفد ثمن قطعتي الأرض. وعليه أن يبيع أخرى وأخرى وأخرى إذا ظل الوضع على ما هو عليه في المقهى والشقة ومع نبيلة. إنه يصرف على رغباته ومشاريعه الفاشلة في شهر أكثر مما تنفق عائلته في عام. ماذا لو تخلى عن المقهى. لكن ماذا سيفعل من دونه. ثم أن المقهى لا يستنفد منه مثل نبيلة. يكفي أجرة الشقة المفروشة التي يأويان فيها بضع ساعات. وأحياناً ينقطعان عنها أياماً. لماذا لا يستأجر غرفة. غرفة صغيرة يفرشها على مزاجه. ذلك أرخص وأوفر. ولربما أكثر أمناً أيضاً. إنها عقدة السجن التي تجعله يرغب في الأشياء الكبيرة المفضاءة. لكنه لا يسكن في الشقة. يدفع أجرة شهرية لهاني وجملة ما يقضيه فيها يعد بالساعات. تلك اللحظة انتابه إحساس مفاجىء بالنقمة على نبيلة. راودته نفسه بهجرها او الابتعاد عنها إلى حين. كان في ذروة اغتمامه من نفسه ساخطاً على كل من حوله، بمن

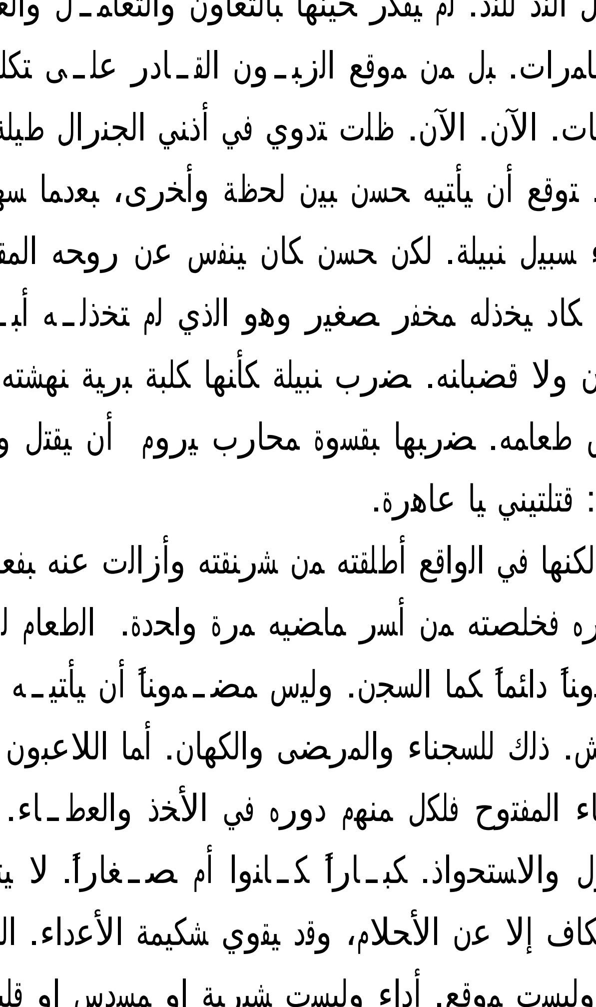
فيهم نبيلة، عندما رن جرس الهاتف وكـان المـتكلم مخفـر
المدينة.

١٨



حركة واحدة انشدت فيها كل الخيوط، فإذا بالحياة شبكة عنكبوت منتظمة مترابطة لا نشوز فيها ولا متطفلين، وإنما فرائس ومفترسين.

كانت النقلة إجبارية لا خيار فيها، فإما أن يضحي حسن بالوزير او مات الشاه وانتهت اللعبة. تربصه وتردده وخوفه من النقلة المضادة، انتهى بمجرد محاصرة الشاه. إما أن يغامر او يموت. لم يكن الأمر يتعلق بنبيلة، وإن كانت نبيلة هي الموضوع. بل كان حسن. بكل كيانه وماضيه وحاضره وأحلامه. حسن أبو علي، الذي أرهب العتاة في المدرسة والسجن وأوجد له الأتباع. حسن يقف مخذولاً ضعيفاً غير قادر على التقدم او التراجع او التأجيل. الوقت محدود، واللعبة مكشوفة فوق الرقعة، والدور عليه. إما أن يضحي، والنتيجة غير مضمونة. او يعلنها مباشرة ويقلب الأحجار ويتخلى عن نفسه مستسلماً للهزيمة متخلياً عن نبيلة. لكنه آثر المناورة وتخفيف الضغط عن شاهه بالتخلي عن وزيره، فتنازل عن عناده واعتداده وعنفه القفقاسي. لم يتصل بالجنرال متهيباً ولا متردداً ولا مستجدياً. بل اتصل به



اتصال الند للند. لم يفكر حينها بالتعاون والتعامـل والعمـل والمغامرات. بل من موقع الزبـون القـادر علـى تكليـف المهمات. الآن. الآن. ظلت تدوي في أذني الجنرال طيلة ذلك اليوم. توقع أن يأتيه حسن بين لحظة وأخرى، بعدما سهل له إخلاء سبيل نبيلة. لكن حسن كان ينفس عن روحه المقهورة بعدما كاد يخذله مخفر صغير وهو الذي لم تخذلـه أبـواب السجن ولا قضبانه. ضرب نبيلة كأنها كلبة برية نهشته حتى تسرق طعامه. ضربها بقسوة محارب يروم أن يقتل وهـو يقتل : قتلتيني يا عاهرة.

لكنها في الواقع أطلقته من شرنقته وأزالت عنه بفعلتهـا غروره فخلصته من أسر ماضيه مرة واحدة. الطعام لـيس مضموناً دائماً كما السجن. وليس مضـموناً أن يأتيـه إلـى الفراش. ذلك للسجناء والمرضى والكهان. أما اللاعبون فـي الفضاء المفتوح فلكل منهم دوره في الأخذ والعطـاء. فـي التنازل والاستحواذ. كبـاراً كـانوا أم صـغاراً. لا يثمـر الاعتكاف إلا عن الأحلام، وقد يقوي شكيمة الأعداء. السلطة دور وليست موقع. أداء وليست شبرية او مسدس او قلبق او

نيشان. السلطة غنيمة لا تؤخذ بالحلم. بل قسراً او احتيالاً او بالتنازلات.

قال للموظف في الخارج أنه على موعد مع الجنرال ولم يكن كذلك. فبعد أن قال للجنرال عبر الهاتف : أنـا تحـت أمرك... رد عليه الجنرال قائلاً : تأمر... فقال له : سـأمر عليك بعد أن ننتهي من هذه المشكلة.

طلب منه الموظف مراجعة السكرتيرة فلم يجـدها وراء طاولة مكتبها العريضة الفاخرة المكتظة بـالتحف الصـغيرة والأوراق. كان باب المكتب منغلقاً ولـيس منطبقـاً. سـمع الجنرال يقول : وهل يلـزمكم لحمايـة أنفسـكم كـل هـذا السلاح.؟.

رد رجل برطانة وصوتٍ أجش : المهم تصلك نقودك.

تلكأ حسن عند الباب : لا. مهم جداً أن أعـرف أوجـه الاستخدام. لكل وجه سعر.

ابتعد حسن قليلاً عن الباب : جنرال. هذه النشرات تثبت أننا لا نقصد إلا حماية أنفسنا. نحن أصلاً دعاة محبة وسلام. إقرأ المكتوب. نحن نشتغل على المكشوف ولا نقصد شراً.

سادت لحظة صمت، ابتعد خلالها حسن نحو الطاولـة مستنداً بأصابعه عليهـا ومعطيـاً ظهـره للبـاب. تأملتـه السكرتيرة التي ظهرت فجأة تحمل فنجان قهوة. تقدمت نحو باب مكتب الجنرال وأحكمت إغلاقه : تفضل... قالت وهـي تضع فنجانها على الطاولة : معي موعد مع الجنرال.

- من حضرتك.؟.
- أبو علي الشيشاني.
- أنت الذي اتصل بالأمس.؟.

هز رأسه إيجاباً.

أشارت إلى مقعد قائلة : استرح.

لكنه قبل أن يفعل انفتح الباب وظهر الجنرال وديكران : أبو علي. أهلاً. صدقني، متوقع أن تأتي. تفضل. تفضل.... مشيراً إلى باب مكتبه، بينما وقفت السكرتيرة متهيئة وأبـدى ديكران تجاهلاً له : دقيقتان... وإلى السكرتيرة : أطلبي لنـا قهوة...

تغيرت تعابيرها وقادت حسن بارتباكٍ وترحيـبٍ إلـى الداخل.

كانت غرفة واسعة. أثاثها بسـيط متواضـع. طاولـة المكتب أصغر حجماً من طاولة السكرتيرة وأقـل اكتظاظـاً بالأوراق. على الجدار المحاذي لها خزانة خشبية ذات أبواب زجاجية مقفلة على أنواع عديدة من البنـادق والمسدسـات والمحنطات. في زاوية الجدارين الداخليين خزنـة حديديـة كبيرة يقابلها في الزاوية المقابلة خزانة معدنية للملفات. فـي الوسط عدد من المقاعد الجلدية تحيط باسكملة عريضة عليها فنجانا قهوة مستهلكان وستفة مجلات أجنبية تحمـل أغلفـة بعضها صور سيارات سباق. بجانبها عدد من المنشـورات بألوان فاتحة متنوعة مطوية رباعياً على طريقة الأكورديون. تناول حسن واحداً منها بدافع الفضـول الـذي أثـاره فيـه الحديث. قرأها بسرعة وغير اكتـراث. كانـت منشـورات مفعمة بالنصائح الدينية وتمجيـد الـرب وتبجيـل الجـيش المريمي.

ألقاها على الطاولة مع دخول الجنرال : حكي فاضي... قال الجنرال، مشيراً باستخفافٍ إلى المنشور. بـدا محرجـاً وهو يجمعها ويضعها داخل إحدى المجلات : ألـم تتغلـب فتاتك.؟.

هز حسن رأسه نفياً وقال بانشراح : كله بفضلك.

- يا رجل. لم أفعل شيئاً.؟!. هذه شغلة بسيطة. يسرني أن أخدمك.

- أنا الذي أريد أن أخدمك. لن أنسى جميلك.

- المهم. كيف أمورك ماشية.؟.

- يعني. نصف على نصف.

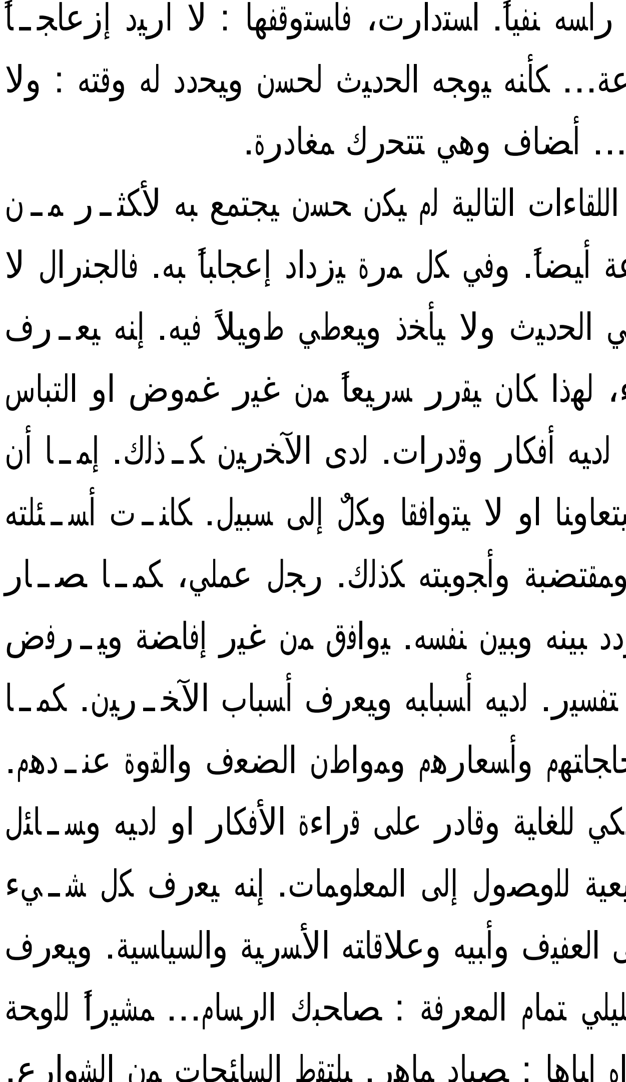
- لا. يجب أن يكون النصف مع النصف وليس عليه...

انفتح الباب وتقـدمت السـكرتيرة بـالقهوة، فبادرهـا الجنرال : إن شاء ا لم ينتظر أبو علي... باسـطاً راحتـه نحو حسن : طويلاً

- أبداً... ردت مبتسمة وهي تضع فنجاناً على الاسكملة أمام الجنرال : يا دوب وصل عندما خرجت أنـت ومسـيو ديكران. ووضعت فنجان حسن أمامه.

- أهلاً وسهلاً... قال الجنرال وهو يتناول فنجانه.

- تأمرني بشيء... سألت بجدية تامة. بينما الجنـرال يرشف من فنجانه.



هز رأسه نفياً. استدارت، فاستوقفها : لا أريد إزعاجاً لربع ساعة... كأنه يوجه الحديث لحسن ويحدد له وقته : ولا تليفونات... أضاف وهي تتحرك مغادرة.

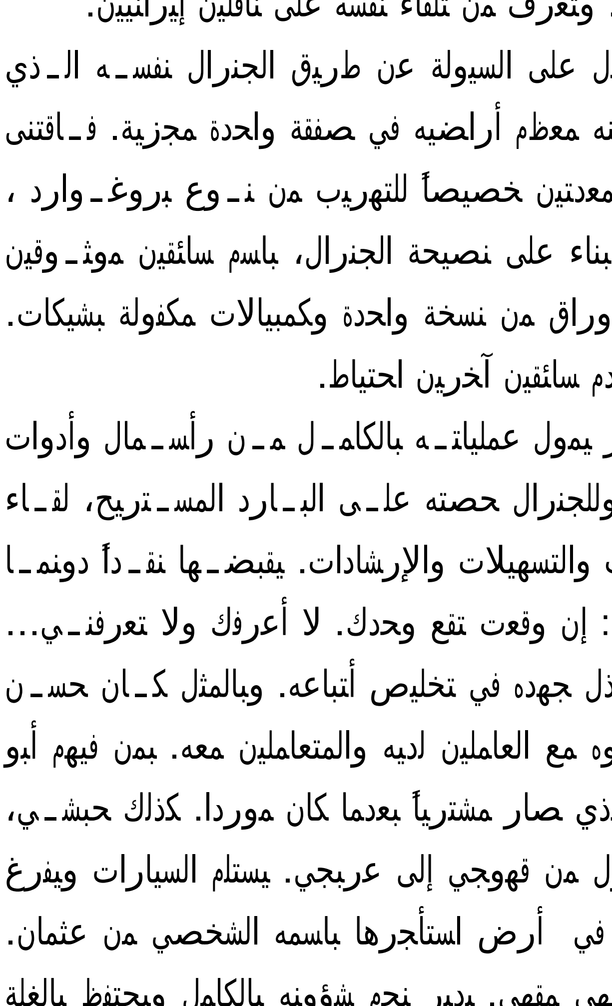
في اللقاءات التالية لم يكن حسن يجتمع به لأكثر من ربع ساعة أيضاً. وفي كل مرة يزداد إعجاباً به. فالجنرال لا يراوغ في الحديث ولا يأخذ ويعطي طويلاً فيه. إنه يعرف كل شيء، لهذا كان يقرر سريعاً من غير غموض او التباس او تردد. لديه أفكار وقدرات. لدى الآخرين كذلك. إما أن يتوافقا فيتعاونا او لا يتوافقا وكلٌ إلى سبيل. كانت أسئلته مباشرة ومقتضبة وأجوبته كذلك. رجل عملي، كما صار حسن يردد بينه وبين نفسه. يوافق من غير إفاضة ويرفض من غير تفسير. لديه أسبابه ويعرف أسباب الآخرين. كما يعرف حاجاتهم وأسعارهم ومواطن الضعف والقوة عندهم. إما أنه ذكي للغاية وقادر على قراءة الأفكار او لديه وسائل غير طبيعية للوصول إلى المعلومات. إنه يعرف كل شيء عن يحيى العفيف وأبيه وعلاقاته الأسرية والسياسية. ويعرف خير الجليلي تمام المعرفة : صاحبك الرسام... مشيراً للوحة التي أهداه إياها : صياد ماهر. يلتقط السائحات من الشوارع.

دير بالك عليه. قد تستفيد منه... ذكره به مرة ثانيـة دون أن يأتي على ذكره : سـواح الأوتـو سـتوب، غالبـاً لـديهم ارتباطات... لم يكن يتهم أحداً ولا يبـرىء أحـداً أيضـاً. ارتباطات. قال له مرة : من في الدنيا ليس لـه ارتباطـات. كلمة مطاطة تشتمل على كل شيء بمـا فـي ذلـك علاقـة المخلوق بخالقه.

صار حسن يزداد حذراً وحرصاً مع كل يومٍ ينقضـي. حتى أنه راودته الشكوك بنبيلة. هئ له في خضـم سـخطه عليها وغضبه منها أن الجنرال دفعها إليه منذ البداية. لكنـه عندما يعود إلى حنوه ويقبل توبتها ويغفر لها زلتها، يعـاوده الإحساس بجنراليته، فتزول ظنونه وتستحوذه العزة بـالنفس، وهو يحقق في أشهرٍ قليلة ما تعجز الأحلام عن تحقيقه.

لم يعد ينتظر أن يأتيه المفرج عنهم من السجن، حتـى يتباهى بمقهاه ومعلميته، متوقعاً أن يبادروا في فتح أسـواق الممنوعات.

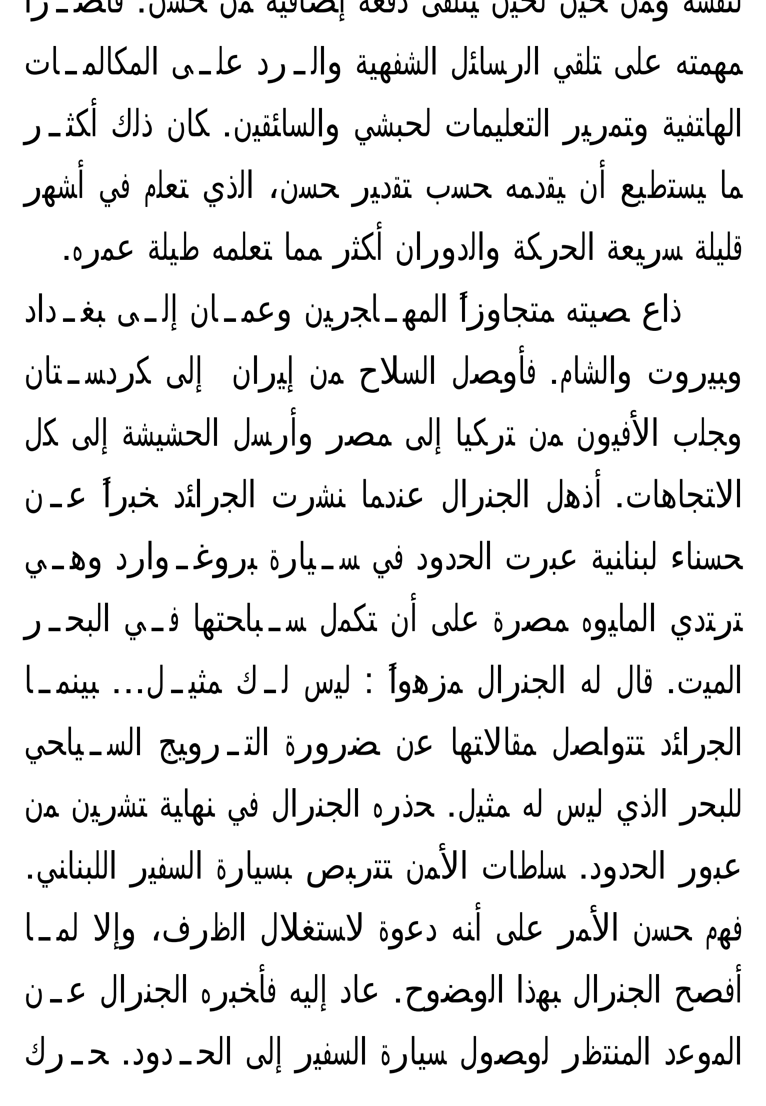
صار يرسل في طلبهم، ويتقصى عنهم قبل أن يوكل لهم أمراً او يرسلهم في مهمة. أضاف إلـى زمرتـه مجـرمين يحملون رخص سواقة وعتاة يعتبرون القتل سياحة. ربطـه



الجنرال بموردي المخدرات اللبنـانيين ومشـتري السـلاح العراقيين. وتعرف من تلقاء نفسه على ناقلين إيرانيين.

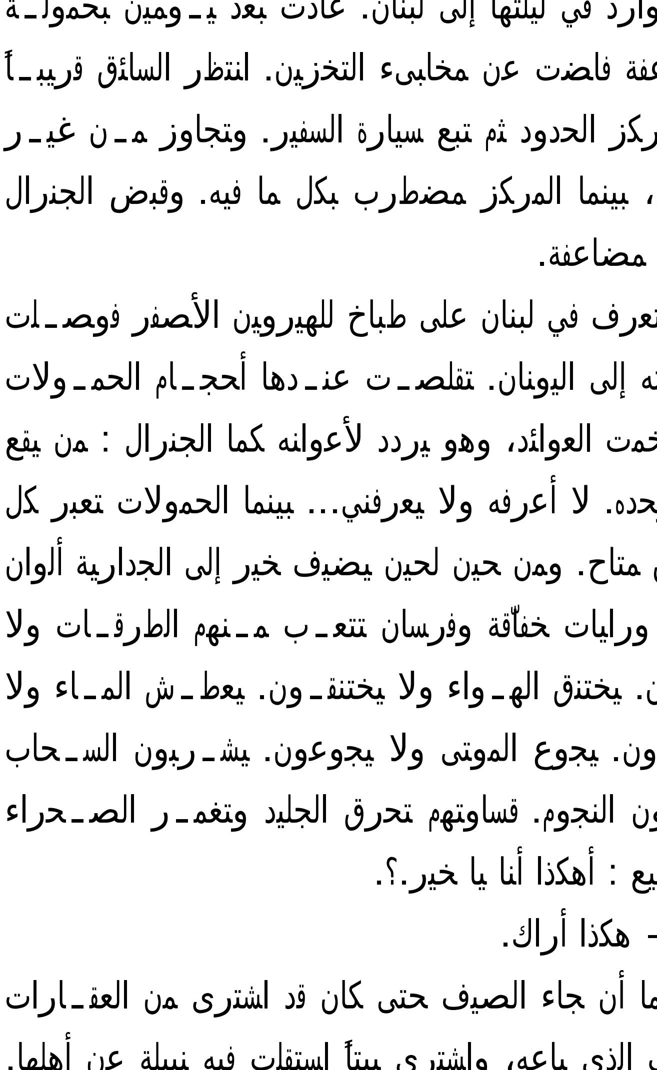
حصل على السيولة عن طريق الجنرال نفسـه الـذي اشترى منه معظم أراضيه في صفقة واحدة مجزية. فـاقتنى سيارتين معدتين خصيصاً للتهريب من نـوع بروغـوارد ، سجلهما، بناء على نصيحة الجنرال، باسم سائقين موثـوقين موثقين بأوراق من نسخة واحدة وكمبيالات مكفولة بشيكات. كما استخدم سائقين آخرين احتياط.

صار يمول عملياتـه بالكامـل مـن رأسـمال وأدوات وناقلين، وللجنرال حصته علـى البـارد المسـتريح، لقـاء المعلومات والتسهيلات والإرشادات. يقبضـها نقـداً دونمـا مسؤولية : إن وقعت تقع وحدك. لا أعرفك ولا تعرفنـي... مع أنه يبذل جهده في تخليص أتباعه. وبالمثل كـان حسـن يحذو حذوه مع العاملين لديه والمتعاملين معه. بمن فيهم أبو شعبان، الذي صار مشترياً بعدما كان موردا. كذلك حبشـي، الذي تحول من قهوجي إلى عربجي. يستلم السيارات ويفرغ حمولاتها في أرض استأجرها باسمه الشخصي من عثمان. وظل المقهى مقهى. يدير نجم شؤونه بالكامل ويحتفظ بالغلة



لنفسه ومن حين لحين يتلقى دفعة إضافية من حسن. قاصراً مهمته على تلقي الرسائل الشفهية والرد على المكالمات الهاتفية وتمرير التعليمات لحبشي والسائقين. كان ذلك أكثر ما يستطيع أن يقدمه حسب تقدير حسن، الذي تعلم في أشهر قليلة سريعة الحركة والدوران أكثر مما تعلمه طيلة عمره.

ذاع صيته متجاوزاً المهاجرين وعمان إلى بغداد وبيروت والشام. فأوصل السلاح من إيران إلى كردستان وجلب الأفيون من تركيا إلى مصر وأرسل الحشيشة إلى كل الاتجاهات. أذهل الجنرال عندما نشرت الجرائد خبراً عن حسناء لبنانية عبرت الحدود في سيارة بروغوارد وهي ترتدي المايوه مصرة على أن تكمل سباحتها في البحر الميت. قال له الجنرال مزهواً : ليس لك مثيل... بينما الجرائد تتواصل مقالاتها عن ضرورة الترويج السياحي للبحر الذي ليس له مثيل. حذره الجنرال في نهاية تشرين من عبور الحدود. سلطات الأمن تتربص بسيارة السفير اللبناني. فهم حسن الأمر على أنه دعوة لاستغلال الظرف، وإلا لما أفصح الجنرال بهذا الوضوح. عاد إليه فأخبره الجنرال عن الموعد المنتظر لوصول سيارة السفير إلى الحدود. حرك

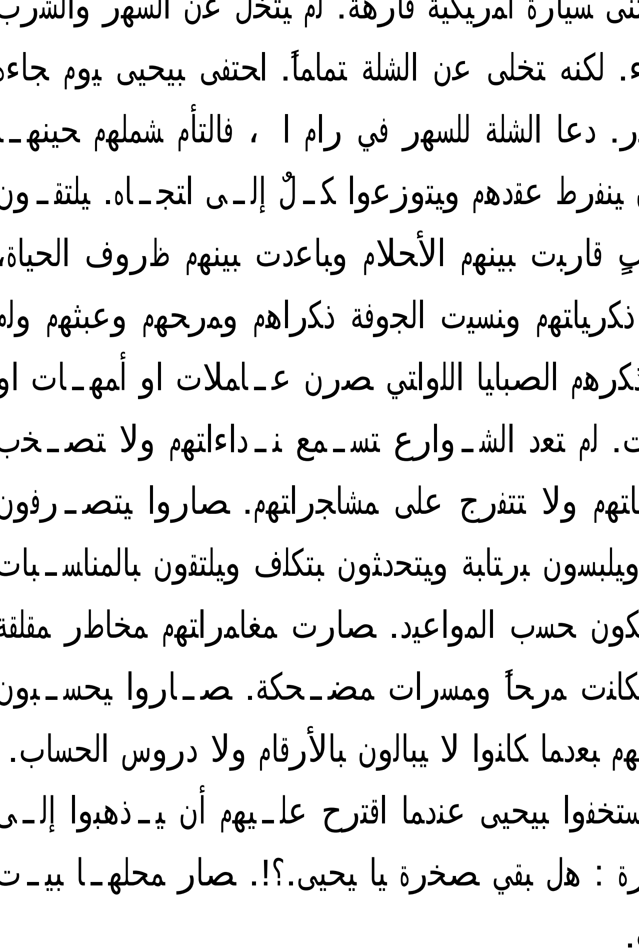


البرغوارد في ليلتها إلى لبنان. عادت بعد يومين بحمولة مضاعفة فاضت عن مخابىء التخزين. انتظر السائق قريباً من مركز الحدود ثم تبع سيارة السفير. وتجاوز من غير تفتيش، بينما المركز مضطرب بكل ما فيه. وقبض الجنرال حصة مضاعفة.

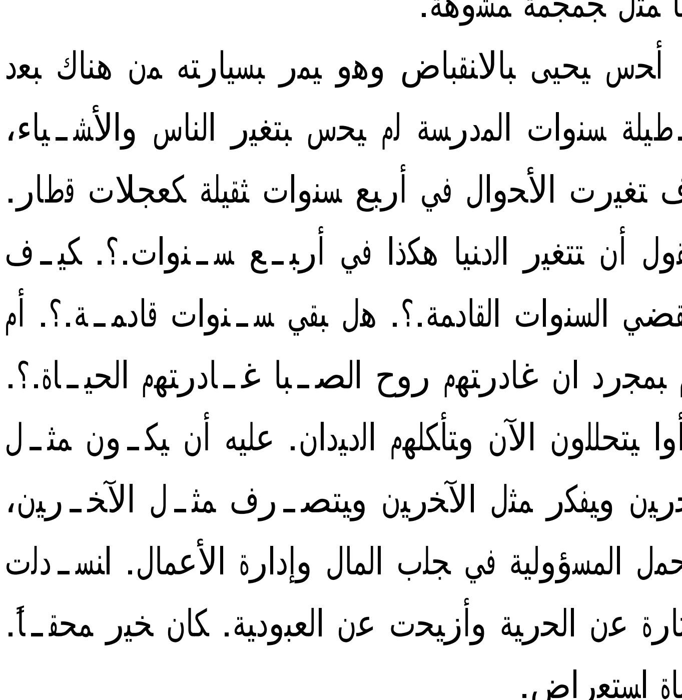
تعرف في لبنان على طباخ للهيروين الأصفر فوصلات عملياته إلى اليونان. تقلصت عندها أحجام الحمولات وتضخمت العوائد، وهو يردد لأعوانه كما الجنرال : من يقع يقع وحده. لا أعرفه ولا يعرفني... بينما الحمولات تعبر كل طريق متاح. ومن حين لحين يضيف خير إلى الجدارية ألوان براقة ورايات خفّاقة وفرسان تتعب منهم الطرقات ولا يتعبون. يختنق الهواء ولا يختنقون. يعطش الماء ولا يعطشون. يجوع الموتى ولا يجوعون. يشربون السحاب ويأكلون النجوم. قساوتهم تحرق الجليد وتغمر الصحراء بالصقيع : أهكذا أنا يا خير.؟.

- هكذا أراك.

ما أن جاء الصيف حتى كان قد اشترى من العقارات ضعف الذي باعه، واشترى بيتاً استقلت فيه نبيلة عن أهلها.


كما اقتنى سيارة أمريكية فارهة. لم يتخل عن السهر والشرب والنساء. لكنه تخلى عن الشلة تماماً. احتفى بيحيى يوم جاءه مع خير. دعا الشلة للسهر في رام ا ، فالتأم شملهم حينهـا قبل أن ينفرط عقدهم ويتوزعوا كـلٌ إلـى اتجـاه. يلتقـون كأغرابٍ قاربت بينهم الأحلام وباعدت بينهم ظروف الحياة، فنسوا ذكرياتهم ونسيت الجوفة ذكراهم ومرحهم وعبثهم ولم تعد تتذكرهم الصبايا اللواتي صرن عـاملات او أمهـات او جاريات. لم تعد الشـوارع تسـمع نـداءاتهم ولا تصـخب بضحكاتهم ولا تتفرج على مشاجراتهم. صاروا يتصـرفون بحذر ويلبسون برتابة ويتحدثون بتكلف ويلتقون بالمناسـبات ويتحركون حسب المواعيد. صارت مغامراتهم مخاطر مقلقة بعدما كانت مرحاً ومسرات مضـحكة. صـاروا يحسـبون خطواتهم بعدما كانوا لا يبالون بالأرقام ولا دروس الحساب.

استخفوا بيحيى عندما اقترح علـيهم أن يـذهبوا إلـى الصخرة : هل بقي صخرة يا يحيى.؟!. صار محلهـا بيـت وبيوت.



لكنها ظلت صخرة صلدة لامعة تطل من الأسفل علـى بيت الجندي، ويطل عليها بيت العالي بطابق ثالـث ارتفـع قميئاً مثل جمجمة مشوهة.

أحس يحيى بالانقباض وهو يمر بسيارته من هناك بعد أيام.طيلة سنوات المدرسة لم يحس بتغير الناس والأشـياء، فكيف تغيرت الأحوال في أربع سنوات ثقيلة كعجلات قطار. أمعقول أن تتغير الدنيا هكذا في أربـع سـنوات.؟. كيـف ستنقضي السنوات القادمة.؟. هل بقي سـنوات قادمـة.؟. أم أنهم بمجرد ان غادرتهم روح الصـبا غـادرتهم الحيـاة.؟. ابتدأوا يتحللون الآن وتأكلهم الديدان. عليه أن يكـون مثـل الآخرين ويفكر مثل الآخرين ويتصـرف مثـل الآخـرين، ويتحمل المسؤولية في جلب المال وإدارة الأعمال. انسـدلت الستارة عن الحرية وأزيحت عن العبودية. كان خير محقـاً. الحياة استعراض.

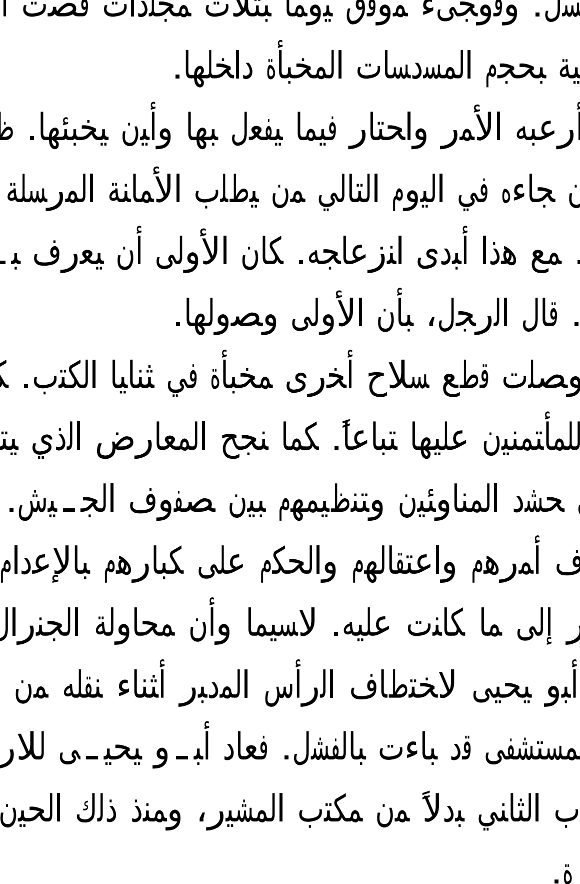
١٩

منذ الوحدة استقر أبو يحيى في دمشق وازداد ارتباطـه واللاجئين السياسين بالمكتب الثاني الذي اتخـذت ملاحقتـه للمناوئين لعبد الناصر طابعاً عنيفـاً سـواء عـن طريـق الاغتيالات او التعذيب حتى الموت أثناء التحقيق او الاختفاء إلى الأبد في غياهب السجون. مما أدخل الرهبة في قلـوب المؤيدين لعبد الناصر أيضاً فصاروا يخشون بطـش رجـال المكتب، وإن كانوا يحتمون به ويهددون باسمه. الأمر الـذي جعلهم لا يجرؤون على رفض أي مهمة يوكلون بها، والتـي غالباً ما تتعلق بفتح قنوات الاتصال مع البلدان التي جـاؤوا منها في الأردن ولبنان والعراق.

لم يعد المكتب الثاني يكتفي بحشد الأنصـار وإرسـال النشرات، طالما أن الحرب الإذاعية الساخنة من راديو دمشق لم تعط فاعليتها في الأردن بينما الثورة تنـدلع فـي لبنـان وتطيح برئيس الجمهورية. ضـغط رئـيس المكتـب علـى اللاجئين السياسيين الأردنيين لفتح قنوات اتصال مباشرة مع المعارضة مبدياً الاستعداد لتقديم المساعدة بالغاً مـا بلغـت، حتى لو تطلب الأمر تدخلاً عسكرياً.

حاول أبو يحيى الاتصال مع المشير عمار الذي تـولى أمور الأقليم الشمالي في دولة الوحـدة فبـاءت محاولاتـه بالفشل. لقد ضحى بمكانته وأعماله في سبيل عبـد الناصـر والاقتراب منه، فإذا به يتحول مع انتصار الناصـرية إلـى مجرد لاجىء سياسي مـأمور. زاد تـولي المشـير عمـار وانشغاله بإدارة دفة الحكم من مشاعر الإحباط التي يحس بها أبو يحيى. ومع هذا استجاب على مضض لتعليمات المكتـب الثاني وفاء لعبد الناصر.

نجح بفتح قناة اتصال مع أحد الضباط الكبار المنـاوئين للحكم في عمان. عندها عاود المشير اتصاله المباشـر بـه وجاءت جوهرة للسلام عليه في دمشق، بعدما كانت تـزداد ابتعاداً عنه كلما ازدادت اقتراباً من المشير. لم يكن أبو يحيى يبالي بأمرها ولا يهمه ابتعادها او اقترابها، لولا أنهـا فـي اقترابها من المشير ابتعد المشير عنه. لهذا فإنـه اسـتقبلها وكأن شيئاً لم يكن. احتفى بها وأتحفته. اندفع منذ ذلك الوقت بحماس وهمة ونشاط، مجاهـداً لتمتـين علاقتـه المتجـددة بالمشير وتعزيزها وإثبات فاعليتها. واظـب علـى إرسـال الصور والمنشورات دون انقطاع إلى موفق الذي كان يقـوم



بتوزيعها واستنساخ ما يمكن استنساخه على آلة سحب الستانسل. وفوجىء موفق يوماً بثلاث مجلدات قصت أوراقها الداخلية بحجم المسدسات المخبأة داخلها.

أرعبه الأمر واحتار فيما يفعل بها وأين يخبئها. ظل قلقاً إلى أن جاءه في اليوم التالي من يطلب الأمانة المرسلة له من نصر. مع هذا أبدى انزعاجه. كان الأولى أن يعرف بالأمر مسبقاً. قال الرجل، بأن الأولى وصولها.

وصلت قطع سلاح أخرى مخبأة في ثنايا الكتب. كانت تسلم للمأتمنين عليها تباعاً. كما نجح المعارض الذي يتصل به في حشد المناوئين وتنظيمهم بين صفوف الجيش. إلا أن اكتشاف أمرهم واعتقالهم والحكم على كبارهم بالإعدام، أعاد الأمور إلى ما كانت عليه. لاسيما وأن محاولة الجنرال الذي جنده أبو يحيى لاختطاف الرأس المدبر أثناء نقله من السجن إلى المستشفى قد باءت بالفشل. فعاد أبو يحيى للارتباط بالمكتب الثاني بدلاً من مكتب المشير، ومنذ ذلك الحين لم ير جوهرة.

هدأت الأمور أيضاً بالنسبة لموفق، فقد توقف تهريب قطع السلاح في شحنات الكتب، كما قلت الصور

والمنشورات أيضاً مع هدوء الحرب الكلامية بين عمان ودمشق. وكلما قالت له وعد أنها مشتاقة لكتاباته، يبتسم قائلاً : يكفي ما حصل. أحمدي الله لأن الأمور انتهت عند هذا الحد... فهو منذ أخبرته عن وقوع رسائله في يد هاني، ظل متوجساً من وقوع منقولات أبي يحيى في يد السلطات. ومع أنه كان يحقق ذاته في كتابة الرسائل ويستمتع بها ويجيدها أكثر من الحديث، إلا أنه توقف عنها تماماً. أقلقه الأمر أكثر مما أقلق وعد. وصار يخشى أن يلتقي بهاني. كيف سيواجهه وبماذا سيرد عليه إن اتهمه باستغلال شقيقته للوصول إلى شقيقته.؟. هل سينكر علاقته.؟.وهل سيلوذ بالصمت إن أهانه ويستكين إذا ضربه.؟. من حيث لا يدري، كان يجير خوفه من بريد أبي يحيى إلى بريد وعد. فبعدما أخبرته عن ضبط رسائله، قلل زياراته للبنك، ولم يحاول الالتقاء بها خارجه. كان يكرر لها كلما جاء إلى البنك أن دافعه الحرص عليها.

انقضى نحو عام، لم يلتقيا فيه على انفراد إلا مرات قليلة، ومراتٍ كثيرة في المكتبة على عيون الأشهاد، عندما تأتي لاستئجار كتاب أو إعادة آخر. لكن دونما رسائل او

تواعد او اتفاق على لقاء. فقد أربك بريد أبي يحيـى موفـق واستحوذت عليه النتائج المترتبة عليه. كما ازدادت ضـغوط العمل على وعد وصارت مشاكله تستحوذ على تفكيرها يوماً بعد يوم.

مع الوقت نسي هاني أمر الرسائل. ونسيها موفق مـع توقف بريد أبي يحيى. ساعده في ذلك عدم مجيء يحيى في إجازته السنوية إلى عمان. فعاودا الالتقاء في المقصورة ذلك الصيف، واستمرا على هذا النحو حتـى الصـيف التـالي. ليخبرها أن عليهما البحث عن مكان آخر يلتقيان فيه بعيـداً عن الأنظار، بعدما تخرج يحيى في الجامعة وتولى شـؤون أبيه بما فيها المقصورة.

في تلك الفترة، تقدم خطيب آخر لوعد. كان يختلـف عن الخطيبين السابقين. او أن وعد قد اختلفـت، فـأخبرت موفق بأمره بأسلوب مختلف أيضاً : ما رأيـك.؟... سـألته وهما يتمشيان في الشارع الذي شهد لقاءهمـا الأول. أحـس بأنه اللقاء الأخير : رأيي بماذا.؟... وازدادت فـي وجهـه معالم الكآبة التي جاءت معه.

- بالخطيب. لا أدري ماذا أقول لأهلي.

- هذا عائد لك.

- كيف عائد لي يا موفق. يهمني رأيك.

- يعني. هل ستوافقين او ترفضين بناء على رأيي.؟.

ردت بعصـبية وضـيق : لا أدري. لا أدري. أهلـي يضايقونني. ولا أستطيع أن أظل أقول لا.

لكنها قالت لا بعصبية وإصرار، بعد شهرين فقط، ولـم يلح عليها هاني. بل هدأ من إلحاح أبيه الذي استغرب وقوفه معها هذه المرة : اتركها يا أبي. دعنا نؤجل الموضوع قليلاً.

ذهب إليها في غرفتها، فكانت تجلس مطرقة على حافة السرير بجانب مجسم قاديشا. قال لها وهو في الباب : أنا لم أضغط عليك لأني أقدر وضعك الآن. لكن يجب أن تحطـي في رأسك أن علاقتك به انتهت. حتى لو كان بريئاً مما اتهم به... وصرخ بها : فاهمة.

لم ترد بكلمة. ظلت مطرقة واجمة إلى أن غادر الغرفة فانفجرت بالبكاء.

٢٠

تفاجأ خير تلك الليلة بحسن يضع القلبـق ومعـه نجـم وحبشي. كما تفاجأ حسن بقبعة خيـر وسكسـوكته. أمسـكه منها : ما هذه.؟.

- حتى أكون متميزاً في عمان. ولو أنه ليس في جيبي قرش واحد.

دفع حسن حبشي إلى السوق فاشترى مؤنـاً وشـراباً تكفي خير أياماً، لكنه رفض أن يشارك المجموعة الشـرب لإنه في حداد. وإن شاركهم صواريخ الحشيشة. لم يرد نص بتحريمها في أي دين. أنها تسطل ولا تسكر.لم يتحدثوا عـن ذكرياتهم بقدر ما تحدث حسن ونجم عن المقهى. أبدى خيـر استعداده لتغطية الجدران بالرسومات، فتحمس نجم وحسـن للفكرة. رغم تحذير حبشي بأن الرسم حرام. وكـان خـلال ذلك يقوم على خدمتهم وملء الكؤوس لهم وتجهيـز لفـائف الحشيشة بينما تكفل خير بالصواريخ.

في اللقاء الثاني، عرض عليه خير أن يبيعـه مسـدس أبيه. أنبه حسن. وهل بينهما بيع وشراء. لكنه لم يمانع فـي تقبله هدية وأنقده دفعة محرزة حتى يشتري الألوان اللازمـة

للرسومات. أنفقها خير في أيام. ذهب إلـى المقهـى فوجـد أعمال الترميم تجري على قدمٍ وساق. سأل حسن عما فعلـه بالمسدس، فأنقده دفعة أخرى، وظل على هذا المنوال إلى أن ابتدأ الجد مع انتهاء أعمال الدهان. انقطع بعدها عن المقهى.

انشغال حسن بتسوية قضية التراخيص لم ينسه خيـر. استاء من انقطاعه، فأوعز لنجم بتخطيط الآرمة في الجوار، فتم تجهيزها وتركيبها في غضون ثلاثة أيام.

لما لمحها خير بعد أسبوع. تغيرت تعابير وجهه وعاتب حسن باستعلاء : لماذا لم تتركها لي. كنت سـأخططها لـك بالمجان... أهذا تخطيط يا أبا علي.؟!.

لم يرد عليه حسن بكلمة وتجنبه رغم تودده. أخيراً قال بنبرة تهديد : إسمع جليلي. أنا لا أحب أن ينضـحك علـي. فاهم. أطلب نقود كما تريد. لكن لا تقل لي دهـان وألـوان وفرسان...

مع هذا أنقده قبل أن يغادر مبلغاً : خذ. كلما احتجـت تعال. لا أريد رسومات ولا بطيخ. خلينا أصحاب أحسن.

في اليوم التالي جاء خير بالألوان والمستلزمات وأبتـدأ وضع التخطيطات على الجدار. وكلما انتهـى مـن إحـداها

يسرع إلى حسن يطلب رأيه ونصيحته. ظل على هذا المنوال حوالي عشرة أيام. انتهى بعدها من جدارية فرسان القوقـاز. ومن حين لآخر ينقده حسن مبلغاً من المـال يكفيـه سـكراً ودخاناً وألواناً.

زاد المردود الهائل الـذي تحقـق لحسـن فـي دنيـا الممنوعات من إنفاقه. صار يغدق على خير كلمـا جـاءه، ليس لأنه صديقه فحسب. لكن عملاً بنصيحة الجنرال أيضاً. فتوافر لخير ما لم يتوافر له طيلة سني عمره. وقد كفاه حسن طعاماً وشراباً وألوان، فنفذ في غضون عام مئات الخطّيات التي حقق فيها قيماً جمالية متقنة، وأبدع عشرات اللوحـات التي تجاوز فيها الحسابات الخطية الدقيقة إلى ألوانٍ زاخـرةٍ بالمعاني ناطقةٍ بالأفكار عميقة الأبعاد . لم يحتج نقـوداً ولا افتقر إلى النساء اللواتي كـان يصـطادهن مـن الشـوارع ويلتقطهن من بين الأطلال. ومن حين لحين يتوق إلى البغايا فيذهب إلى زاهر او فاتنة ولم يجرؤ على الـذهاب إلـى أم سهير. كانت العاهرات تستهويه رغم غنائمه من السـائحات الأجنبيات والمتلهفات المحليات، فهو يجد في العاهرات متعة

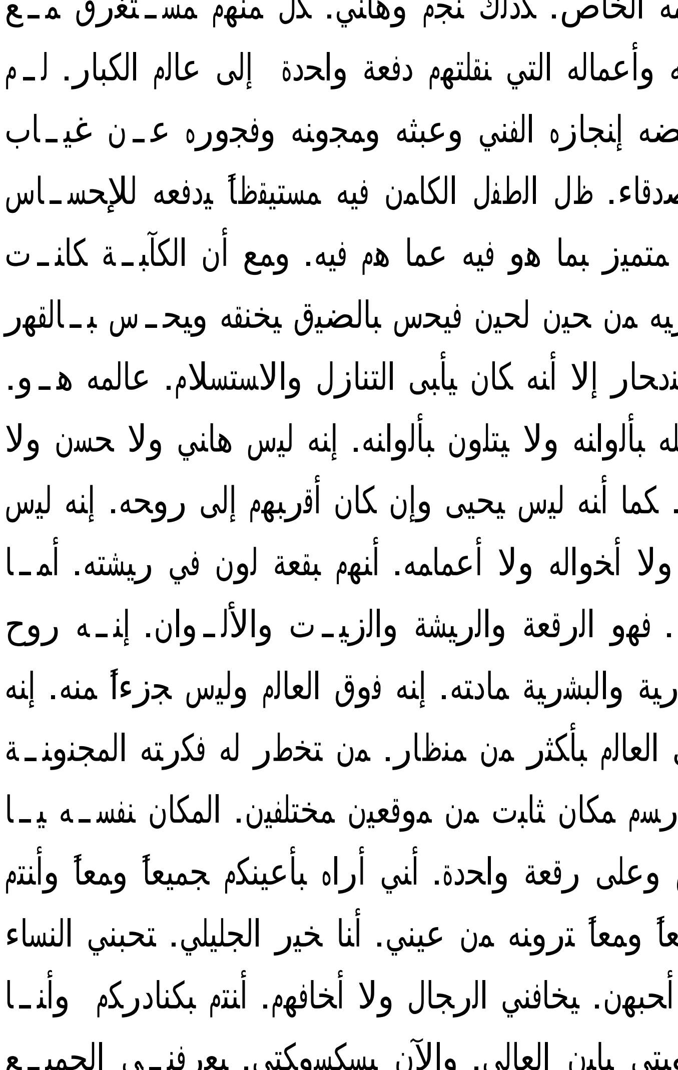
وجبات المطاعم، يتناول فيها حسب الطلب. لا يأكل إلا عندما يجوع وفي جيبه نقود.

ذاع صيته وانتشرت سمعته السيئة في كل مكان. وصار معارفه يجلبون فرائسهم عنده، فيناله على الغالب حصة، وإذا شاهد أحدهم سائحات الأوتو ستوب يأتي إلى التسوية ملهوفاً او يرسل له خبراً. فيندفع وراءهن بزنوبته وقبعته وسكسوكته، غير مبالٍ بالنظرات المستخفة والتعليقات الساخرة والضحكات المستهترة.

كانت أكثر السنوات زرعاً وحصاداً. رسم على نصف رقعة شارع الهاشمي من فوق هضبة القلعة، ورسم على النصف الثاني المشهد نفسه من الجهة المقابلة فوق المدرج الروماني فبدا وكأنه انعكاس للموقع في مياه السيل. كما رسم المقبرة القديمة في لوحة موحشة صامتة أسماها المدفن. رسم الضبع في شجرية البشارات ورسم التسوية والدكان ومدرسة البنات. رسم أباه متمدداً في المستشفى وفي فمه أنبوب الأكسجين كأنه النبل. وكانت أكثر الصور مجلبة للانتباه رسمة بائع الفلافل الأحدب الذي تقوس ظهره وهو ينتشل حبات الفلافل المتنشنشة بالزيت من مقلاة الصاج.

كذلك رسم لوحة لا تقل زخماً وحركة عن لوحة الاستعراض معتمداً المنهج السريالي متخيلاً أليمبوس دونما خطوط لونية فاصلة، دال على حدودها مخلوق نصفه مـن عنـد الـرأس طاووس في حدود الجنة ونصفه الآخر ضبع فـي حـدود الجحيم. كان يميز لوحاته بوضع اسمه متناسباً مع الألـوان وكأنه امتداد لها وجزء منها وليس دخيلاً عليها. رسم لوحـة انطباعية عن غروب الشمس في صـياغة. وواقعيـة عـن استوديو تصوير تجلس فيه امرأة بشعة على كرسـي أمـام مرآة يوجهها المصور بيده من خلف كاميرته. رسم العديـد من اللوحات الصامتة، أهمها لوحة رسمه وهو يجلس علـى الأريكة مستنداً بظهره إلى الجدار وفي يده كتاب. ومـع أن الأشكال الهندسية كانت أساس إبداعه الفني إلا أنه لـم يلجـأ للتكعيبية إلا نادراً، فغلبت التعبيرية على معظم رسوماته.

عمل كثيراً وتخدر كثيراً وأحرق آلاف السجائر وطارح عشرات الغرام. لكنه ظل وحيداً قلما يسـتأنس للآخـرين او ينطلق معهم. لا ينسيه وحدته وظلم أهله سوى تجرع العرق وتدخين الحشيشته ومضغ الأفيون. أحياناً يتعاطاها جميعاً معاً وهو يتطلع بشوق وحنين لعودة يحيى، بعدما غـدا لحسـن

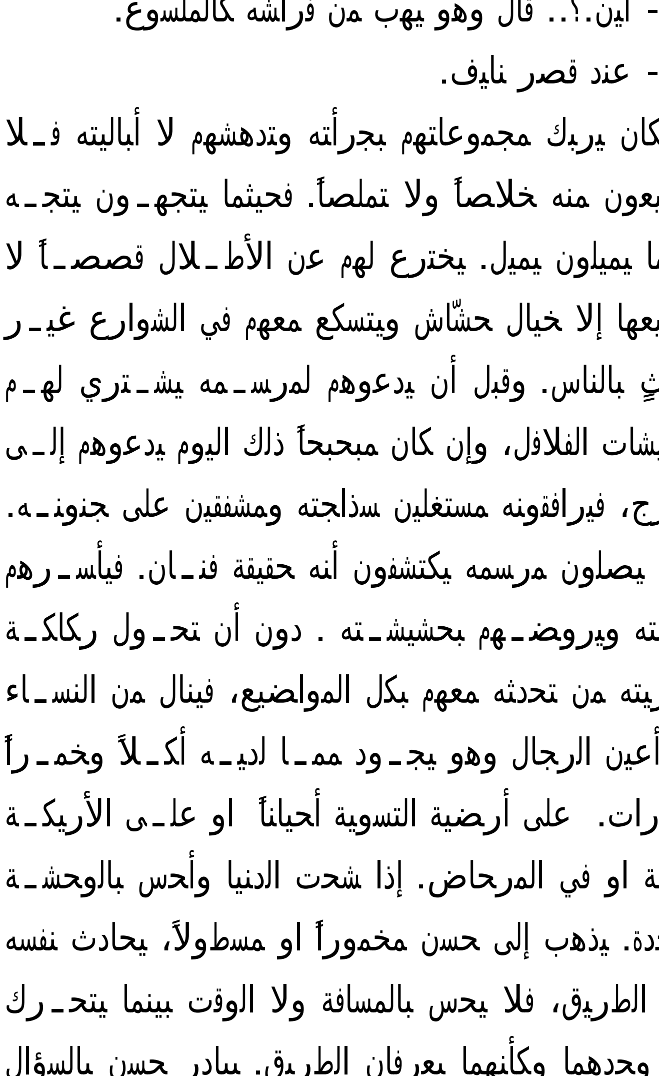


عالمه الخاص. كذلك نجم وهاني. كل منهم مستغرق مع آماله وأعماله التي نقلتهم دفعة واحدة إلى عالم الكبار. لم يعوضه إنجازه الفني وعبثه ومجونه وفجوره عن غياب الأصدقاء. ظل الطفل الكامن فيه مستيقظاً يدفعه للإحساس بأنه متميز بما هو فيه عما هم فيه. ومع أن الكآبة كانت تعتريه من حين لحين فيحس بالضيق يخنقه ويحس بالقهر والاندحار إلا أنه كان يأبى التنازل والاستسلام. عالمه هو. يشكله بألوانه ولا يتلون بألوانه. إنه ليس هاني ولا حسن ولا نجم. كما أنه ليس يحيى وإن كان أقربهم إلى روحه. إنه ليس أباه ولا أخواله ولا أعمامه. أنهم بقعة لون في ريشته. أما هو . فهو الرقعة والريشة والزيت والألوان. إنه روح البشرية والبشرية مادته. إنه فوق العالم وليس جزءاً منه. إنه يرى العالم بأكثر من منظار. من تخطر له فكرته المجنونة في رسم مكان ثابت من موقعين مختلفين. المكان نفسه يا ناس وعلى رقعة واحدة. أني أراه بأعينكم جميعاً ومعاً وأنتم جميعاً ومعاً ترونه من عيني. أنا خير الجليلي. تحبني النساء ولا أحبهن. يخافني الرجال ولا أخافهم. أنتم بكنادركم وأنا بزنوبتي يابن العالي. والآن بسكسوكتي. يعرفني الجميع

لغرابتي. طبعاً غريب. أنا غريب في عالم ليس أنا منه. أنـا من عالم أرفع من الكنادر والثياب والأصل والفصـل. أنـا فصل ليس له مثيل. تتقاتلون على الدور أمام بـائع الفلافـل وتتهافتون على الشراء دون أن تروا البائع والصاج والزيت الجهنمي. أنا وحدي رأيته. أنا صنعته. لولاي لما كان لبـائع الفافل وجود. لا ليس كفراً. أنا أقول الحقيقة. بعد سنين لـن يعرف أحد أنه كان هناك بائع فلافل. سيأتي كثيرون غيـره. لكنهم سيختفون أيضاً وسيظل البائع الذي صنعه خير الجليلي حياً بالألوان. هذا هو الفن يا جهلة. هذه هي الموهبـة. أمـا أنتم فواظبوا على الأكل. أريدكم أن تظلوا أحياء لأنكم مادتي. ولن تظلوا أحياء إلا بروحي. أنا الفن الذي لولاه لما عـرفتم أن للوجود تاريخاً وفي الدنيا حضارات. الرجل بكندرته. هه. ومن بالزنوبة يا هـاني.؟. رجـل أم امـرأة.؟. شـيطان أم إنسان.؟. لا هؤلاء ولا أولئك : خير. خير. أأنت هنا.

قطع عليه الصوت خطبته وأجفله الطرق. ومض فـي مخيلته نداء أمه في تلك الليلة الباردة، فانسابت البرودة إلـى ركبتيه وهو يقول من فراشه : من.؟.

- إفتح. هناك سائحات في الجوفة.



- أين.؟.. قال وهو يهب من فراشه كالملسوع.

- عند قصر نايف.

كان يربك مجموعاتهم بجرأته وتدهشهم لا أباليته فلا يستطيعون منه خلاصاً ولا تملصاً. فحيثما يتجهون يتجه وحيثما يميلون يميل. يخترع لهم عن الأطلال قصصاً لا يستطيعها إلا خيال حشّاش ويتسكع معهم في الشوارع غير مكترثٍ بالناس. وقبل أن يدعوهم لمرسمه يشتري لهم سندويشات الفلافل، وإن كان مبحبحاً ذلك اليوم يدعوهم إلى الأوبرج، فيرافقونه مستغلين سذاجته ومشفقين على جنونه. عندما يصلون مرسمه يكتشفون أنه حقيقة فنان. فيأسرهم بموهبته ويروضهم بحشيشته . دون أن تحول ركاكة أنجليزيته من تحدثه معهم بكل المواضيع، فينال من النساء على أعين الرجال وهو يجود مما لديه أكلاً وخمراً ومخدرات. على أرضية التسوية أحياناً او على الأريكة الضيقة او في المرحاض. إذا شحت الدنيا وأحس بالوحشة والوحدة. يذهب إلى حسن مخموراً او مسطولاً، يحادث نفسه خلال الطريق، فلا يحس بالمسافة ولا الوقت بينما يتحرك قدماه وحدهما وكأنهما يعرفان الطريق. يبادر حسن بالسؤال

عما فعله بمسدسه، أو يقتـرح عليـه أضـافات لجداريـة الفرسان، فيقبل منه أي مبلغ ينقده إياه ويتجه على الفور إلى الأوبرج. يختار طاولة في الوسط حتى يراه الجميع، ويأخـذ بالشراب. سرعان ما ينبعث فيه الغرور فيثير حنق العـاملين بفرقعة أصابعه حتى يلبوه. وإن تقاعسوا يضع زنوبته علـى الطاولة، ويصرخ بصاحب المحل : مـاذا هنـاك يـا أبـا اسماعيل.؟. يبدو لست مالىء عيون جرسوناتك... فيواتونـه مغتاظين. قال أحدهم لزبائن قريبين منه، قاصداً إسماعه : لم يمر علي أنمرد من هكذا بني آدم. يظن نفسه ابن منكـو... لكنه أسرع إليه بعدما راح يفرقع له بالإبهام والسبابة : هات ترمس... مشيراً بقرف إلى صحن الترمس الفارغ. أكثر مـا كان يغيظهم، أنه يأتي من حين لحين وبرفقتـه سـائحات لا يقلون عنه رثاثة واستهتاراً وجوعاً للطعام وعطشاً للشراب : ابن العرص. من أين يأتي بهن ـ بهم ـ. غدا بإلحاح داخلي وحشاً همجياً لا يقلق على شيء ولا يخيفه شيء.

لم يعد يحتاج إلى شراء الحشيشة والأفيون بعدما اخترق حسن أسواقها. فصار يأخذ منه حاجته نقيـة مئـة بالمئـة. وعندما وصل حسن إلى الهيروين أعطاه شـمة، فاستنشـقها

دون تردد. أصابته بالغثيان والضياع إلا أن بهجة استرخائها جعلته يأتي في طلبها ثانية فرفض حسن. قال بأنه كان يريد تجربتها فحسب. أذهله بمقدار ما أغضبه لكنه لم يجرؤ على إغضاب حسن : محسوبك يا أبا علـي.كـل مـا أردت أن تجرب، نادني.

جلجل حسن مقهقهاً. وهو ما لم يعتده أحد به. لم يكـن أحد يدرك سر العلاقة بين المعلم حسـن وأبـي السكسـوكة الصعلوك سوى نجم، الذي لم تكن حفاوته بخير تقـل عـن حفاوة حسن وهو يستقبله بالأحضان كلما أتى إلـى المقهـى حتى لو كان مخموراً تنبعث رائحته مـن بعـد أمتـار، او مسطولاً ينهشه الجوع لكثرة ما أشعل من صواريخ : أطلـب لي أي شيء آكله... يتأبطه نجم إلى التجويف الـذي أعـد لتجهيز طلبات الزبائن. يجلسه على كرسي واطىء يخفيه عن الآنظار : أقعد. وا أنت ما فيه مثلك. كل الدنيا تتغير وأنت كما أنت.

- أين الزفت حسن.؟.

يتلفت نجم حواليه وهو يعض على شـفته... فيضـيف خير : متى سيسدد حسابه.؟. إلى متى سأنتظر.؟. مـا معـه

يعطيني ثمن الفرد... ويصرخ وهو يسترسل : يعطيني أجرة فرسان الزفت.

- إهدأ يا خير.

- كيف سأهدأ وأنا ما معي آكل... ويصـرخ بـأعلى صوته : يعطيني حقي يا أخي. أم أن كل الشغل مجاناً.

- سأطلب لك شيئاً تأكله.

- لا أريد جميلتك. أنا لست شحاذاً. أريد حقي.

إذا جاء حسن على صوته يهب واقفاً : أين أنت يا أبـا علي. صار لي ساعة أسأل عنك... وإذا لم يكن حسـن فـي المقهى يوصي نجم على الطعـام ويجلـس معـه يـأكلان ويتحدثان. فعالم حسن أصبح أكثر غرابة على نجم من عالم هاني.

لم يتغير الوضع على خير كثيراً عندما رجـع يحيـى، وكانت فكرة الذهاب إليه فى مصر قد راودته مراراً في العام المنصرم، بعدما عرف من موفق أنه لن يأتي في عطلته إلى عمان. إلا أنه كان ينسى الأمر مع شروعه بالرسم او عبثـه مع النساء اللواتي غدون بالنسبة له سائحات. محليات كن أم أجنبيات : يا ريت... رد على أطراء يحيـى الـذي قـال :

سمعت أنك كل يوم مع امرأة جديدة... كان حقاً يروم ذلـك. قال بأنه لو قدر له أن تأتيه في كل يوم امرأة جديـدة لحـاز الجنة دون أدنى شك : الجحيم أهون من أن تلازمك امـرأة بعينها. أنا لا أقوى على النوم معها في فراش واحـد ليلـة واحدة. لكن المجبور مجبور أن يعيش العمر كله مع نصـف امرأة إن اضطر.

- أي نصف.؟... سأل يحيى بجذل.

- نصفها الأعلى لا يعنيني على الإطلاق. أصـلاً كـل البلاوي ابتدأت يوم ظن الرجل أن المرأة تحسـن التفكيـر. بكرة وأنت في الجحيم اسأل عمن أودى بأبونا آدم.

- من أسأل.؟.

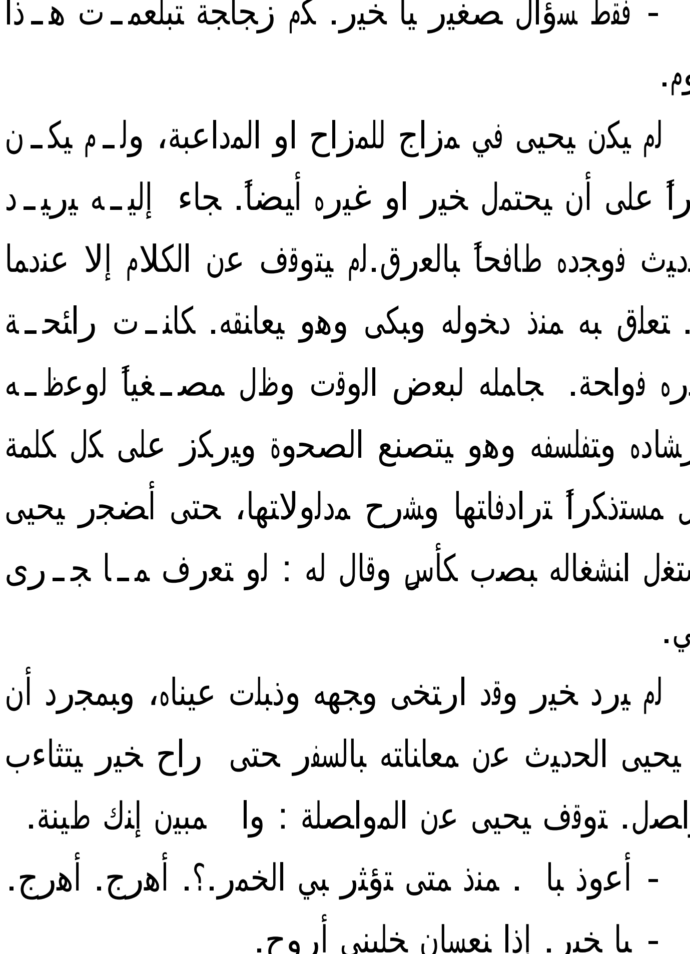
- جار الرضا الشيطان.

- أنت جاري.

- هل تقصد أني الشيطان خير. أم خير الشيطان.؟.

- وبعدين. غبت عنك سنة، رجعت لقيتك مجنون.!.

- سنتين يا يحيى. سنتين وأنا لحالي. لحالي... وأخـذ بالنحيب.



- فقط سؤال صغير يا خير. كم زجاجة تبلعمـت هـذا اليوم.

لم يكن يحيى في مزاج للمزاح او المداعبة، ولـم يكـن قادراً على أن يحتمل خير او غيره أيضاً. جاء إليـه يريـد الحديث فوجده طافحاً بالعرق.لم يتوقف عن الكلام إلا عندما نام. تعلق به منذ دخوله وبكى وهو يعانقه. كانـت رائحـة خمره فواحة. جامله لبعض الوقت وظل مصـغياً لوعظـه وإرشاده وتفلسفه وهو يتصنع الصحوة ويركز على كل كلمة تقال مستذكراً ترادفاتها وشرح مدلولاتها، حتى أضجر يحيى فاستغل انشغاله بصب كأسٍ وقال له : لو تعرف مـا جـرى معي.

لم يرد خير وقد ارتخى وجهه وذبلت عيناه، وبمجرد أن بدأ يحيى الحديث عن معاناته بالسفر حتى راح خير يتثاءب بتواصل. توقف يحيى عن المواصلة : وا مبين إنك طينة.

- أعوذ با . منذ متى تؤثر بي الخمر.؟. أهرج. أهرج.

- يا خير. إذا نعسان خليني أروح.

- نعسان ماذا يا رجل.!. هذا لأني أغمضت عينـي.!. ا يسامحك . أهرج أهرج. صاحي لكـل كلمـة تقولهـا... وتثاءب بعمق مطبقاً جفنيه ولم يفتحهما حتى اليوم التالي.

عندما استيقظ كان يعاني صداعاً. ظل حوالي السـاعة مغمض العينين وهو بين النوم واليقظة. تراءى لـه طيـف يحيى. لا يتذكر كيف رآه بالمنام : يمكن قرب يجيء... لكنه عندما حملق بزجاجة ويسكي مختومة، كاد يطيش صـوابه. كان رأسه يزداد ثقلاً ويكاد الصداع يشققه. تذكر أن يحيـى زاره، لكنه لم يتذكر إن كان واقفاً في التسوية أم جالسـاً. ا أعلم ماذا خبص أمامه. تناول الزجاجة ونزع سدادتها وتجرع من فوهتها جرعة خفيفة. قال بصوت مسموع : أكيد أزعلته. تجرع جرعة أكبر جعلت أنفاسه تهدأ وتنبعث فيـه بعـض الصحوة. ابتدأت تفيق جلسة الأمس فـي قفـزات سـريعة متعاقبة. يخرب بيتك. التفت إلى المنضدة فكانت تقف عليهـا زجاجة عرق فيها ملء قطّارة. حرك الجرائد مـن الأسـفل فكان هناك العديد. لا لا. قديمات. أمعقول أن يحيـى جـاءه وهو منطفئ تماماً. اتخذ أمره أن يذهب إلى بيته. سـيفطر معه. نظر إلى ساعته. ملعون أبو الوقت. صارت الثانية. آثر

البقاء حتى المساء. وعاد إلى سريره، لكنه لم يستطع النـوم، فأسرع إلى بيت العفيف : كلها خطوتان.

قالت له الخادمة أنه نائم. صرخ بها بحدة : أفيقيه.

ما أن انسحبت إلى الداخل، حتى قال بإباء وهو يتلفـت حواليه : عال وا ... وبعد قليل : نائم... ثـم : زمـن أول حول يا جردونة... وبصق.

- صرت تحكي لحالك.؟... سـأله يحيـى وهـو فـي البيجاما.

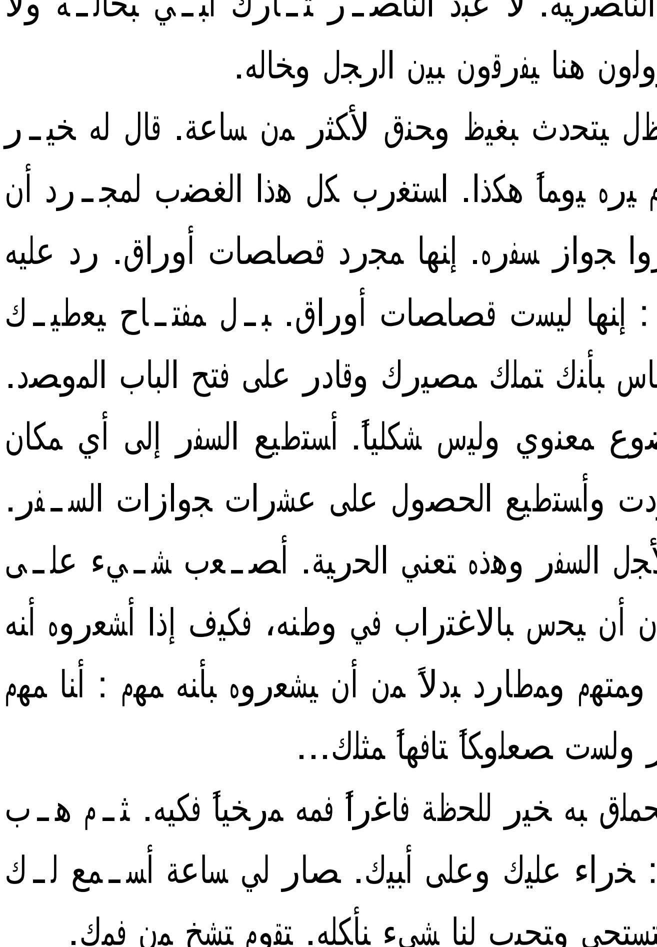
- حبيبي يحيى... وبسط ذراعيه وعانقه بحرارة : يـا بني آدم ابتدأت الشرب منذ الآن.؟.

- شرب ماذا.؟. هذه. هذه. رائحة من الأمس.

- كنت البارحة مستوي على الآخر... انزاح له فـداف وهو يفرك راحتيه.

فوجىء عندما أخبره يحيى بأنه وصل قبل ثلاثة أيـام. أصغى إليه بذهول وهو يروي ما جرى معه. لم يـأت إلـى عمان في العطلة الماضية، بسبب ما تعرض له من إهانة في مركز الحدود أثناء عودتهم من لبنان. الآن وبعـد أن جـاء للاستقرار نهائياً حاملاً شهادة جامعية يحجزون جواز سـفره

ويوقفونه طيلة الليل ويستجوبونه كالمجرمين. لقد أخبرهم كل شيء يعرفه قبل عامين. يعرفون تمام المعرفة أنه لـيس لـه علاقة بأنشطة أبيه. مع هذا يوقفونه ويهينونه ويشتمون أبـاه أمامه. لماذا يفترضون أنه مثل أبيه. إنه ليس مثله ولا يريـد أن يكون مثله يضيع عمله وثروته افتداء لعبد الناصر. صار أبوه الآن إمعة بعدما كانت الدنيا تخافه والنـاس يحسـبون حسابه. ماذا فعل له عبد الناصر سوى أناشـيد الحمـاس.؟. أبوه ليس سياسياً. إنه لا يصلح للسياسة وإنما للأعمال، فلم لا يتركه عبد الناصر في المجال الذي يمكن أن يقدم فيه ويتقدم، بدلاً من أن يؤخره ويتأخر. عبد الناصر ضـد الرأسـمالية، فلماذا كان أبي استثناء.؟. وأبي طيلة عمره فرديـاً. كيـف رضي الانصياع.؟. هناك خلل ما. هناك فجوة يفحج الاثنـان من فوقها وهما يتصافحان. إذا انزلـق أحـدهما سيسـقطان كلاهما : خرب بيتنا عبد الناصر. عائلتنا أصبحت عـائلتين وبيتنا انشطر جزئين. أبي لا يستطيع المجيء وأنا لا أستطيع السفر. هو منفي وأنا محجور علي. لو رأيت حال أبي الآن. إنه يتصل هاتفياً ساعات حتى يحظى بلقاء ربع سـاعة. كـم أكرهه وهو في هذا الحال. مطلوب مني أن أديـر شـؤونه



بعدما ضيق الخناق علينا وغدوت من حيـث لا أدري مـن عداد الناصرية. لا عبد الناصـر تـارك أبـي بحالـه ولا المسؤولون هنا يفرقون بين الرجل وخاله.

ظل يتحدث بغيظ وحنق لأكثر من ساعة. قال له خيـر بأنه لم يره يوماً هكذا. استغرب كل هذا الغضب لمجـرد أن صادروا جواز سفره. إنها مجرد قصاصات أوراق. رد عليه بحنق : إنها ليست قصاصات أوراق. بـل مفتـاح يعطيـك الإحساس بأنك تملك مصيرك وقادر على فتح الباب الموصد. الموضوع معنوي وليس شكلياً. أستطيع السفر إلى أي مكان إن أردت وأستطيع الحصول على عشرات جوازات السـفر. تلك لأجل السفر وهذه تعني الحرية. أصـعب شـيء علـى الإنسان أن يحس بالاغتراب في وطنه، فكيف إذا أشعروه أنه مجرم ومتهم ومطارد بدلاً من أن يشعروه بأنه مهم : أنا مهم يا خير ولست صعلوكاً تافهاً مثلك...

حملق به خير للحظة فاغراً فمه مرخياً فكيه. ثـم هـب واقفاً : خراء عليك وعلى أبيك. صار لي ساعة أسـمع لـك حتي تستحي وتجيب لنا شيء نأكله. تقوم تشخ من فمك.

- أقعد. أقعد. طلعت غصباً عنـي... وصـرخ بـه : مقهور يا أخي.

- ا لا يردك. صرت ضد عبد الناصر.!. لم يعد أبوك يعجبك.!. وأنت رجوت صرمايتي... نظـر كلاهمـا إلـى الزنوبة : ألف مرة حتى أرسم له صورة.

- كان مختلفاً.

- ا لا يقيمك ولا يقيمه. أنا لا يهمني المصـاري ولا الزعامة. وا ما شايف قدامي أحد. لا عبد الناصر ولا عبد العفيف. جئت أسلم عليك حتى تطيرها من رأسي.!. تعال خذ الويسكي. أنا مشروبي عرق.

خرج غاضباً فلم يستوقفه يحيى. لحق به بعد سـاعتين، حاملاً معه بضعة أصناف من الأطعمة، فوجده قد أتى علـى نصف الويسكي. لم يتعاتبا إلا بعد مضي نحو الربع الساعة. تقاطعت أحاديثهما خلال ذلك دون أن يترك أحدهما للآخـر فرصة الانتهاء. ثم اقتحمت سيرة حسن الجلسة فقررا الذهاب إلى المقهى.

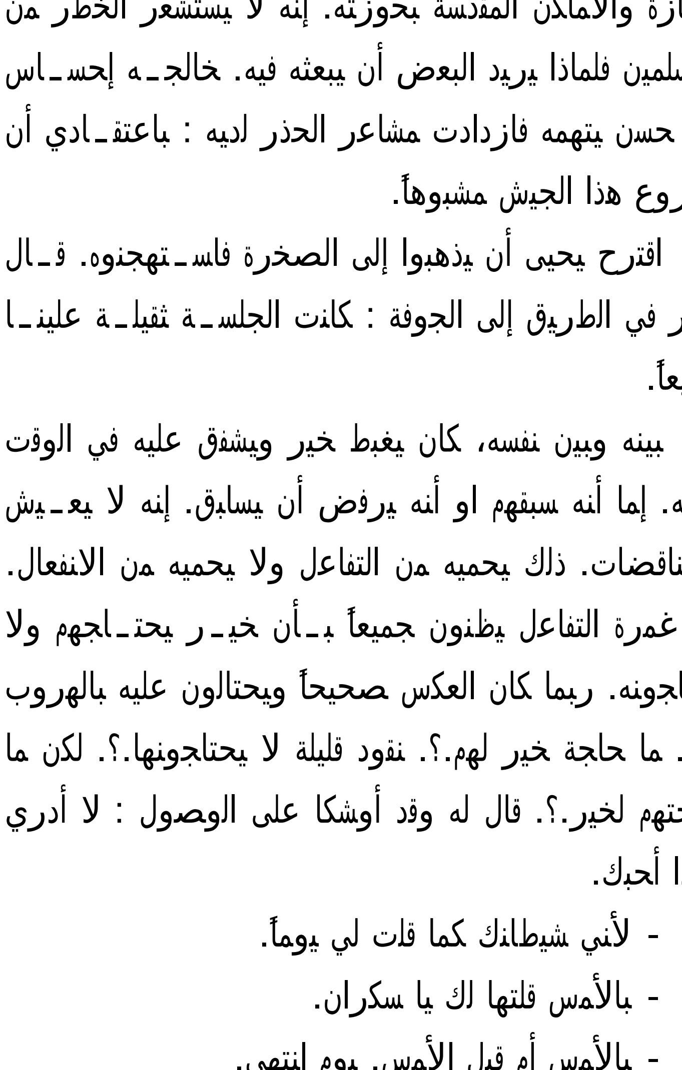
احتفى حسن بيحيى في ليلتها. حجز طاولة للشـلة فـي مطعم نعوم. قال هاني بأنه سيوافيهم هناك فسبقوه في سيارة

حسن. لم يتحدثوا كثيراً خلال الطريق، كان حسـن مقـلاً، ونجم ويحيى حذرين. أما خير فظل معظم المسافة نائماً.

انضم إليهم هاني بعد حوالي الساعة من وصولهم. كانوا قد بدأوا الشرب وبدا عليهم الانشراح. تحدثوا بجدية منفـرة عن المرأة وتفلسفوا في القضايا السياسة. لـم يتمـازحوا إلا قليلاً ولم يستذكروا من أيامهم الماضية مغامراتهم إلا بعضها الساذج. سبب وجود نجم خللاً في الجلسة. علاقتـه السـابقة بهاني. مشاعره المتضاربة مع مشاعر يحيـى تجـاه عبـد الناصر. معرفته للدروب المعتمة التي يسلكها حسن. جعلـه هذا متربصاً وجعل الآخرين حذرين. باستثناء خير الذي عبر عن ضجره بالتثاؤب العميق من حين لحين وإغماض عينيـه والالتفات هنا وهناك.

لم تتقاطع الأحاديث ولم يبد أحد انفعالاً وكأنهم غربـاء، يصغون باهتمام ويجيبون علـى الأسـئلة بإسـهاب كـأنهم يوضحون. وظل حسن يهرب من الحديث باستدراج الآخرين إليه.

سأل هاني عن علاقته بالجيش المريمي. أنكر هاني أي علاقة. قال إنه مرتاح واموره ميسورة وعلاقته بالمسـلمين



ممتازة والأماكن المقدسة بحوزته. إنه لا يستشعر الخطر من المسلمين فلماذا يريد البعض أن يبعثه فيه. خالجـه إحسـاس بأن حسن يتهمه فازدادت مشاعر الحذر لديه : باعتقـادي أن مشروع هذا الجيش مشبوهاً.

اقترح يحيى أن يذهبوا إلى الصخرة فاسـتهجنوه. قـال لخير في الطريق إلى الجوفة : كانت الجلسـة ثقيلـة علينـا جميعاً.

بينه وبين نفسه، كان يغبط خير ويشفق عليه في الوقت نفسه. إما أنه سبقهم او أنه يرفض أن يسابق. إنه لا يعـيش المتناقضات. ذلك يحميه من التفاعل ولا يحميه من الانفعال. في غمرة التفاعل يظنون جميعاً بـأن خيـر يحتـاجهم ولا يحتاجونه. ربما كان العكس صحيحاً ويحتالون عليه بالهروب منه. ما حاجة خير لهم.؟. نقود قليلة لا يحتاجونها.؟. لكن ما حاجتهم لخير.؟. قال له وقد أوشكا على الوصول : لا أدري لماذا أحبك.

- لأني شيطانك كما قلت لي يوماً.
- بالأمس قلتها لك يا سكران.
- بالأمس أم قبل الأمس. يوم انتهى.

- إيه. انتهى.

٢١

ظل خير على حاله. متخدراً جلّ يومه، سـواء أكـان يرسم او يأكل او يطارح الغرام. يذهب بين وقت وآخر إلـى مقهى الشيشاني. ويطل عليه يحيى من حين لحـين حـاملاً طعاماً وشراباً، فيسهران ويسكران ويعربدان طيلة الليل. ثـم يفيقان من نشوة الحلم إلى عناء المخاض. خير في مرسـمه، ويحيى في مركز العفيف بعد أن احتل مكتب أبيـه وصـار يدير أعماله بمساعدة عميه وموظفيه.

شيئاً فشيئاً، اعتاد الوضع، لاسيما وأنـه صـار لديـه سكرتيرة تنظم له أوقاته وتحدد مواعيده فتنامى فـي نفسـه الشعور بالأهمية والذي كان يعبر عنه فيما مضى من خـلال تباهيه. أما الآن فإنه يمارسه سلوكاً يوميـاً مـع المـوظفين والمتعاملين. كلما شعر بالضيق يلجأ إلى خير يـروح عـن نفسه بعيداً عن رسميات المكتب. يسـتمتع معـه باسـتعادة الذكريات والانطلاق على سجيته التواقة للانعتـاق. فيسـكر دونما كوابح ويعربد دونما تحفظ ويفسق ما اسـتطاع . ثـم ينسى الأمر بمجرد صحوته ويتوجه إلـى مكتبـه مشـحوناً بالطاقة والنشاط. من حيث لا يدري، كان يقيد نفسـه بخيـر

ويحرر خير منه. بوهيمية خير تستهويه ولا يستهوي خيـر رتابته وانضباط سلوكه.

استخدم سائقاً وصار يحمل معه حقيبة يد فـي ذهابـه وإيابه وتجواله، باستثناء زياراته لخير. كمـا صـار يضـع ربطة عنق ويبدل ثيابه يومياً ويحافظ على أناقته مـا أمكـن ويتوخى الحذر في حديثـه ويتكلـف الضـحك والإنصـات والانتباه وعدم الاهتمام. كل شيء يجـب أن يحسـب بدقـة الميزان. هكذا الأعمال.

- اتركني من هكذا أعمال... يقول خير كلمـا تـبجح أمامه بصرامة الحياة التي يعيشها، وهو في الحقيقـة يشـكو منها : معك حق.

- قرفتني حياتي. صار لك ساعة تشكي وأنا سـاكت. إلى متى سأحتمل مجعصتك أنت وحسن الزفت. وا إن لـم يدفع لي حقي لأرفع عليه قضية. أنتما الاثنان تغرقان بالنقود وأنا مليم واحد ما معي..

كان يمكن أن يستمر هذا الوضع لفتـرة طويلـة، وأن يعتاداه أيضاً ويصبح جزءاً رتيباً من حياتهما يعكس توافـق

المتغير والثابت وإمكانية الانسجام بينهما لولا أن طرأ متغير جديد في اليوم التالي لسهرتهما العابثة.

ذهب يحيى متأخراً ذلك الصباح. وجد محفظـة البريـد تنتظره فوق طاولة المكتب. أوصى على فنجان قهوة وأخـذ يتصفح الرسائل. جاءت لـه السـكرتيرة بـالقهوة فتنـاول الفنجان. قال وهو يهم أن يرشف منه : كم الساعة.؟.

عندها اهتز الفنجان في يده وانسكبت القهوة على ثيابـه مع دوي انفجارٍ مروع رجرج المبنى بمن فيه. التفـت إلـى السكرتيرة التي اندفع الخوف أصفر إلى وجهها : ما هذا.؟... لم ينتظر توضيحها بل أسرع إلى النافذة فلم يتبين شيئاً فـي الشارع.

شيء ما جعله يهبط الدرج مسرعاً ولمـا وصـل إلـى مدخل البناء، كانت صفارات الشرطة تنطلق من كل اتجـاه وبعض المشاة يركضون في الشارع.

كان موفق يقف أمام المكتبة وقد اصفر وجهـه وعـلا الخوف تعابيره، شأن الكثيرين ممن وقفوا يستطلعون.

سأل يحيى عما يجري، فأجابه موفق بحركة متسائلة من يديه وشفتيه : إذا سمعت شيئاً أخبرني... هز موفق رأسـه،

لكن قبل أن يلج يحيى المدخل، جاء أحدهم راكضاً من مركز المدينة : فجروا الرئاسة. فجروا الرئاسة...

في أقل من ساعة أعلن حظر التجول، فأسـرع النـاس يقفلون محلاتهم ويلتصقون بالمذياع الذي راح يبث تـلاوات قرآنية قبل أن يذيع الخبر :

في الساعة الحادية عشرة والنصف من قبل ظهر يـوم الأثنين ٢٩ / ٨ / ١٩٦٠. انفجرت في مبنـى دار رئاسـة الوزراء في عمان، قنبلة موقوتة دمرت مكتب دولة الـرئيس وعدداً من المكاتب الأخرى، وأعقبتها فـي السـاعة الثانيـة عشرة ظهراً قنبلة ثانية انفجرت في الجناح الشرقي من مبنى الرئاسة. وقد نتج عن هذا الحادث الدنيء اللئيم استشهاد دولة رئيس الوزراء وعشرة أشخاص آخرين، إضافة إلى جـرح خمسين مواطن آخر. هذا وقد تم تشكيل لجنة تحقيق عسكرية بدأت تحقيقها على الفور.

تلك الليلة، أغار رجال الشرطة على بيـت العفيـف، وسيق يحيى مخفوراً إلى دائرة المباحث. بعد يومين، أغارت المباحث على مكتبة موفق وقاموا بتفتشها قطعة قطعة وكتاباً وراء كتاب، بينما اقتيد موفق إلى التحقيق.

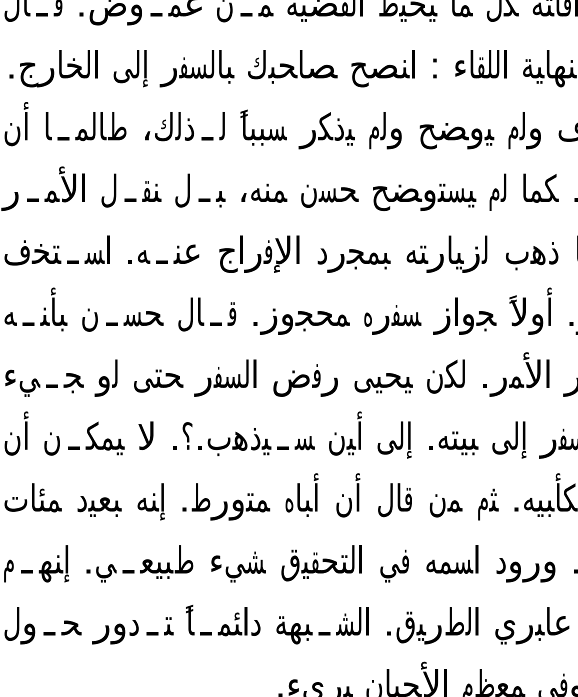
جاء خير ملهوفاً إلى حسن يخبره عما جرى ليحيى، بعد أن سرى أمر اعتقاله من بيت إلى بيت في أقل من نصـف نهار.

لم يكن حسن بحاجة إلى من ينتخيه. طلب من نجـم أن يرعى خير الذي كان على وشك الانهيار، فجلب لـه نجـم زجاجة عرق وزوده حبشي بقطعة حشيشة، بينما ذهب حسن إلى الجنرال. بادره بنبرة آمرة كما فعل يوم اعتقال نبيلـة : أعز صديق عندي. مستعد أدفع ما تريد.

هدأ منه الجنرال : ليس الأمر بهذه السهولة. الموضوع خطير. رئيس وزراء اغتيل في مكتبه.

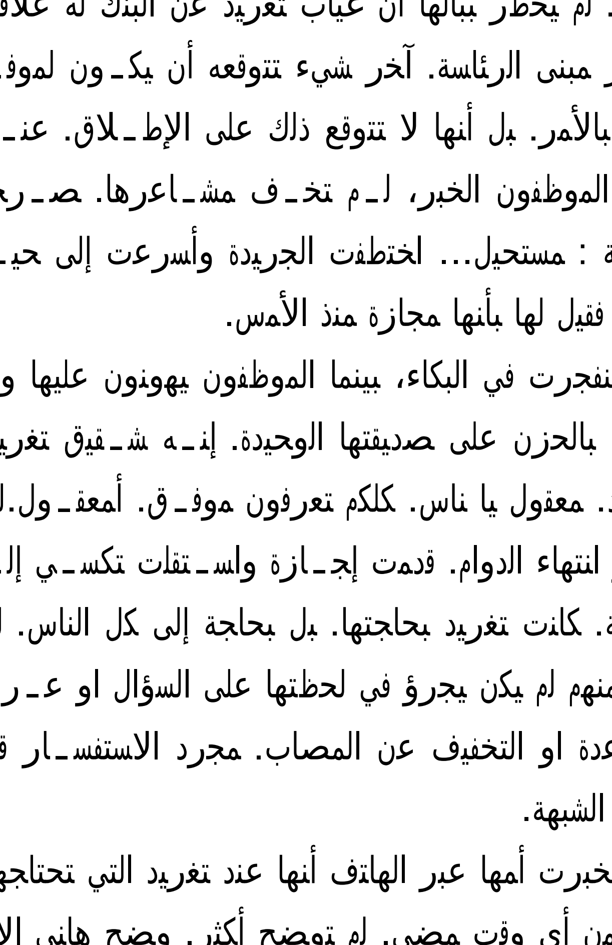
أقسم حسن بتراب أبيه أن يحيى بريء. إنه لا يمكن أن يؤذي أحداً إلا بلسانه. حتى لسانه قد لُجم بعدما كبر. إنه يريد من الجنرال هذا المعروف وسيحفظه له طيلة العمر. رجـاه أن يتدخل قبل أن يورطه آخرون مـن حيـث لا يـدري : الموضوع خطير يا جنرال.

اتصل الجنرال بحسن بعد يومين. طلب منه أن يوافيـه في المكتب. طمأنه. يحيى غير متورط. سيفرج عنـه فـي غضون يومين. لكن أباه متورط. كذلك صاحب المكتبة الذي



كشف باعترافاته كل ما يحيط القضية مـن غمـوض. قـال الجنرال في نهاية اللقاء : انصح صاحبك بالسفر إلى الخارج.

لم يضف ولم يوضح ولم يذكر سبباً لـذلك، طالمـا أن يحيى بريء. كما لم يستوضح حسن منه، بـل نقـل الأمـر ليحيى عندما ذهب لزيارته بمجرد الإفراج عنـه. اسـتخف يحيى بالأمر. أولاً جواز سفره محجوز. قـال حسـن بأنـه يستطيع تدبير الأمر. لكن يحيى رفض السفر حتى لو جـيء له بجواز السفر إلى بيته. إلى أين سـيذهب.؟. لا يمكـن أن يعيش منفياً كأبيه. ثم من قال أن أباه متورط. إنه بعيد مئات الكيلومترات. ورود اسمه في التحقيق شيء طبيعـي. إنهـم يسألون عنه عابري الطريق. الشـبهة دائمـاً تـدور حـول المعارض، وفي معظم الأحيان بريء.



٢٢

عرفت وعد بالخبر من خلال الصحف، شأن معظم الناس. لم يخطر ببالها أن غياب تغريد عن البنك له علاقة بتفجير مبنى الرئاسة. آخر شيء تتوقعه أن يكون لموفق ضلع بالأمر. بل أنها لا تتوقع ذلك على الإطلاق. عندما تناقل الموظفون الخبر، لم تخف مشاعرها. صرخت ملهوفة : مستحيل... اختطفت الجريدة وأسرعت إلى حيث تغريد فقيل لها بأنها مجازة منذ الأمس.

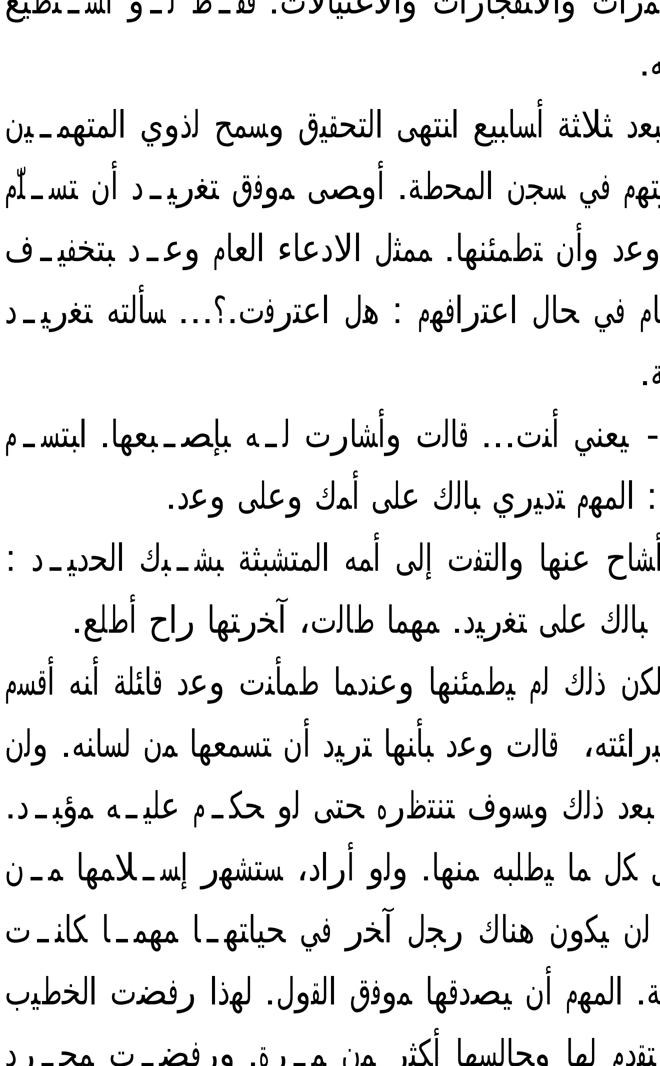
انفجرت في البكاء، بينما الموظفون يهونون عليها وهي تتذرع بالحزن على صديقتها الوحيدة. إنه شقيق تغريد الوحيد. معقول يا ناس. كلكم تعرفون موفق. أمعقول.لم تنتظر انتهاء الدوام. قدمت إجازة واستقلت تكسي إلى الجوفة. كانت تغريد بحاجتها. بل بحاجة إلى كل الناس. لكن أحداً منهم لم يكن يجرؤ في لحظتها على السؤال او عرض المساعدة او التخفيف عن المصاب. مجرد الاستفسار قد يجلب الشبهة.

أخبرت أمها عبر الهاتف أنها عند تغريد التي تحتاجها أكثر من أي وقت مضى. لم توضح أكثر. وضح هاني الأمر

أثناء الغداء وقد شعر بالأسى تجاهها : أكيد تحتاجها. شقيقها متورط بانفجار الرئاسة... كان أبوه قد عرف الأمـر مـن الجرائد أيضاً : ا يكون بعونهم...

ظلت وعد عند تغريد حتى المساء. انسحبت بعدما جاء خير مواسياً. عانقته أم موفق طويلاً وهي تبكي بمرارة. بكت وعد على كتف أمها : راح تجن تغريد. راح تجن... كانـت هي التي على وشك الجنون.

تجنبها هاني وطلب من أبويه تجنبها أيضاً. معها حـق. إنه شقيق صديقتها... ينسحب من فوره بعد أن يقول ذلـك. كأنه يريدهما أن يفهما الوضـع بنفسـيهما. أثـارت نبرتـه تساؤلاتهما. وسواء أفهما عليه أم لا، فإنهما لم يسـألا وعـد لماذا طلبت إجازة أسبوع، ولا أثارت قلقهما بـذهابها منـذ الصباح إلى بيت تغريد والعـودة مسـاء. كانـت تطمئنهـا وتطمئن نفسها : في أصعب الأحوال سيحكم بالسجن. هذا إن لفقوا ضده القضية. سيخرج مع أول عفـو. كانـت تطمـئن نفسها. مع هذا ظلت تغريد ترفض حتى التوقيف : بريء يا وعد. أقسم أنه بريء. أخي وأنـا أعرفـه. مـن أيـن لـه



بالمؤامرات والانفجارات والاغتيالات. فقـط لـو أسـتطيع مقابلته.

بعد ثلاثة أسابيع انتهى التحقيق وسمح لذوي المتهمـين بزيارتهم في سجن المحطة. أوصى موفق تغريـد أن تسـلّم على وعد وأن تطمئنها. ممثل الادعاء العام وعـد بتخفيـف الأحكام في حال اعترافهم : هل اعترفت.؟... سألته تغريـد بدهشة.

- يعني أنت... قالت وأشارت لـه بإصـبعها. ابتسـم وقال : المهم تديري بالك على أمك وعلى وعد.

أشاح عنها والتفت إلى أمه المتشبثة بشـبك الحديـد : ديري بالك على تغريد. مهما طالت، آخرتها راح أطلع.

لكن ذلك لم يطمئنها وعندما طمأنت وعد قائلة أنه أقسم على برائته، قالت وعد بأنها تريد أن تسمعها من لسانه. ولن تبالي بعد ذلك وسوف تنتظره حتى لو حكـم عليـه مؤبـد. ستفعل كل ما يطلبه منها. ولو أراد، ستشهر إسـلامها مـن أجله. لن يكون هناك رجل آخر في حياتهـا مهمـا كانـت النتيجة. المهم أن يصدقها موفق القول. لهذا رفضت الخطيب الذي تقدم لها وجالسها أكثر من مـرة. ورفضـت مجـرد

الحديث بأمر الزواج. ردت على أبيها بانفعال : إنها لا تريد الزواج. إنها مرتاحة هكذا ولا تريد الحديث بـالأمر. طلـب هاني من أبويه تأجيل الموضوع قليلاً. استغربا تساهله معها وهو الذي كان أشد منهم إلحاحاً. عزا أبويهـا الأمـر إلـى مراعاته لها بسبب حزنها على كلارك جيبل. كانا يـدركان مدى عشقها له، فأشفقوا عليها وهي تبكي موتـه بمـرارة. عندما أخبرتهما أن أم تغريد مريضة وطلبت إذنهما لمرافقتها في زيارة شقيقها، تقبلوا الأمر ببساطة ولم يجدا غضاضة في ذلك. لاسيما أبوها الذي يكن الاحترام لموفق، وكتمت الأمر عن هاني.

أوصت صباح الجمعة على أطعمة متنوعة وحلويـات وفاكهة ستأخذها معها. وكان هاني قد ابتـدأ بـاكراً تفقـده للفندق. استغرب طلبية الأكل. مشويات في التاسعة صـباحاً. ولمن كل هذه الأصناف. هل لديهم فـي البيـت ضـيوفاً.؟. أخبرته أمه أن وعد أوصت عليها. ستأخذها تغريد لأخيها في السجن.

لم يقل شيئاً. لا غبار على ذلك حتى الآن. لكن عنـدما أضافت أن وعد سترافق تغريد إلى السجن طاش صـوابه :

ماذا.؟... أضاف بحدة : تروح له إلى السجن.!... قال وهو يندفع هائجاً إلى غرفتها. فوجدها علـى وشـك الخـروج. أمسكها من ذراعها وهو يلج الغرفة : لن تخرجي من هنا... وشدها بعنف إلى الداخل، فأفلتت من يديـه وترنحـت إلـى الوراء توازن جسدها حتى لا تقع. انقض عليها مرتاعاً حتى يحول دون سقوطها فسقط معها فوق مجسم قاديشا ونادت أمه من خلفه بهلع : هاني.

ذهبت تغريد إلى السجن وحدها. أخبرت موفـق أنهـا كانت متفقة مع وعد على زيارته. لكن شـيئاً مـا أخرهـا. اتصلت مع الفندق مراراً، لكن الخطوط مشغولة فاضـطرت للمجىء دونها حتى لا تفوتها الزيارة.

في الزيارة الثانية وصلت السـجن شـاحبة. تماسـكت عندما جاء موفق إلى الشبك. سألها عن وعـد، فاسـتنجدت بنفسٍ عميقٍ ينقذها من البكاء. قالت له بأنهـا لـن تسـتطيع زيارته. هز رأسه : هاني منعها.؟.

هزت رأسها مطرقة وأوشـكت علـى البكـاء، فقـال مبتسماً : بالتأكيد أحزنها موت كارك جيبل.

نظرت إليه مشفقة، فأضاف : كانت تحبه كثيراً.

- موفق...

- المهم أنه مات وهي ما تزال تحبه... انفجـرت فـي البكاء وهي تقول : إنسها يا موفق. الأفضل أن تنساها.

– هل نسيتني...

أطرقت وهي تنشج، فقال : سأعذرها حتى لو كرهتني.

في الزيارة التالية، لم يأتيا على ذكر وعد. كـان لكـل منهما سببه. كانت تخشى عليه وكان يخشى أن يسـمع بـأن وعد تخلت عنه. اقتصر الحديث عما يقوله محامو الـدفاع، وبدا موفق قلقاً من نتيجة المحاكمة التي ستبدأ بعد أيام.

جاء خير خلال وجود تغريد، فشع وجهها بالقلق. أخذت تراوغ في الحديث مع موفق بتوتر وانفعال ملحوظين وتعيـد له أقوال المحامين. تطمئنه باستمرار. مهما سـتكون نتيجـة المحاكمة، فإن المحامي متأكد أنه سيتم العفـو عـنهم مـع المتهمين بالانقلاب. للآن لم ينفذ بهم الحكم، رغم أن محكمة أمن الدولة نفسها قد قضت بإعدامهم قبل نحو عام. لم تتـرك في حديثها المتواصل فرصة لخير أكثر من السلام وبعـض الكلمات التي كانت تترنح في فمه العابق برائحة العرق.

لم يكن في حال أفضل عندما ذهب إلى عالي بالاس. تفحصه موظف الاستقبال من الأعلى للأسفل وخير يرمقه باحتقار : أعجبتك. أم لا.؟.

سمح له الموظف على مضض بالصعود إلى السكن . وجد الباب مفتوحاً والصالة تغص بالرجال. استوقفه نادل يحمل في إحدى يديه دلة قهوة نحاسية وبالأخرى عدداً من فناجين السادة : ماذا تريد.؟.

قبل أن يجيبه خير، أسرع نحوه أبو هاني : من سمح لك بالصعود. ا يعطيك عمي.

شمخ خير برأسه وقال بتعالٍ : أنا خير الجليلي يا أبا هاني.

حملق به أبو هاني للحظة. تذكره لحظتها بكل أفعاله. نظر إلى الخلف حيث يحتشد البيت بالمحترمين المتكندرين وأمامهم على اسكملة عريضة دلاء قهوة نحاسية.

بلع ريقه وبدا محرجاً وهو ينظر إلى الزنوبة. مع هذا تجاوز الموقف وقاده إلى مخدع هاني : مليح أنك جئت. هاني مقفل على نفسه الباب منذ الحادثة ولا يريد أن يفتحه لأحد. على ا تقنعه يا ابني. يكفي ما خسرناه.

- أهو هنا.؟... سأل خير محتداً.

هز أبو هاني رأسه، فصرخ خير بكل صوته وهو يدير وجهه للباب : هاني... أجفل أبو هـاني وجـاء عـدد مـن المتكندرين فزعين ومعهم النادل. استدار إليهم أبو هاني وعاد بهم إلى الصالة موضحاً بينما خير يطرق على الباب وهـو يتقافز وينادي بتواصل : هاني إفتح. أنا خير..

رجع إليه أبو هاني فوجده يقتعد الأرض لاهثاً متعرقاً : علي الحرام أن الذي اشتغل الباب أصله حرامي.

هب واقفاً وصرخ بأبي هاني : روح أجلـب بلاطـة... وإلى الباب : علي الحرام إن مـا فتحـت لأكسـر البـاب وليحصل ما يحصل... وإلى أبي هاني : بعدك واقف. قلـت أجلب بلاطة.

حاوص أبو هاني في مكانه وهو لا يدري مـاذا يفعـل وبماذا يرد. لكن صوت دوران المفتاح بالباب خلصـه مـن حيرته وما أن أطل هاني، حتى مد خير ذراعيـه : هـاني. حبيبي... وانفجر في البكاء وهو يعانقه ودخل معه الغرفـة مغلقاً الباب بقدمه.

بعد حوالي النصف ساعة، انفتح البـاب وأطـل خيـر برأسه إلى الخارج. صرخ بحدة : أبا هاني.

جاءه ملهوفاً. فبادره : أجلب علبة جولد ستار... وأغلق الباب.

ما أن ابتعد أبو هاني خطوتين حتى انفتح البـاب مـن جديد : أبا هاني... وبنبرة آمرة صارمة، أضاف : أجعلهـم اثنتين مع كبريتة.

بعد ربع ساعة انفتح الباب من جديد : أبا هاني... جاءه مسرعاً، فبادره قبل أن يصل : أجلب لنا كأسين ليموناضة... توالت المطالب. أبا هاني أجلب شاف ماء بارد مـع حبتـين أسبرين. أبا هاني، أعطيني دلة قهوة سادة مع فنجانين. أبـو هاني، كاس ويسكي صغير، وشبر بيده.

مع آخر نداء، قال أبو هاني للرجال : لألعن أباه علـى أبي هاني... اتجه إليه محتداً، لكن خير لم يطلب شيئاً هـذه المرة. تركه يقترب منه. وقال له بحنان. ابنك يحتاجـك الآن أكثر مني... وتقدم به واضعاً يده على كتفه : سـتدير بالـك عليه هه. أنت المسؤول.

أجلسه كالدمية على حافة السرير بينما هاني قد شـحب لونه وذبل عوده وطالت ذقنه. ما أن رمى رأسه فوق كتـف أبيه وابتدأ العويل وأبوه النشيج، حتى انسل خير إلى الخارج.

في اليوم التالي أجفل خير على انفتاح الباب بعنف، وقد هيء له أنه أبوه. لكن اقتحام أبي هاني التسوية أراحه وعقـد لسانه في الوقت نفسه. بادره بانفعال : هل رأيت هاني.؟.

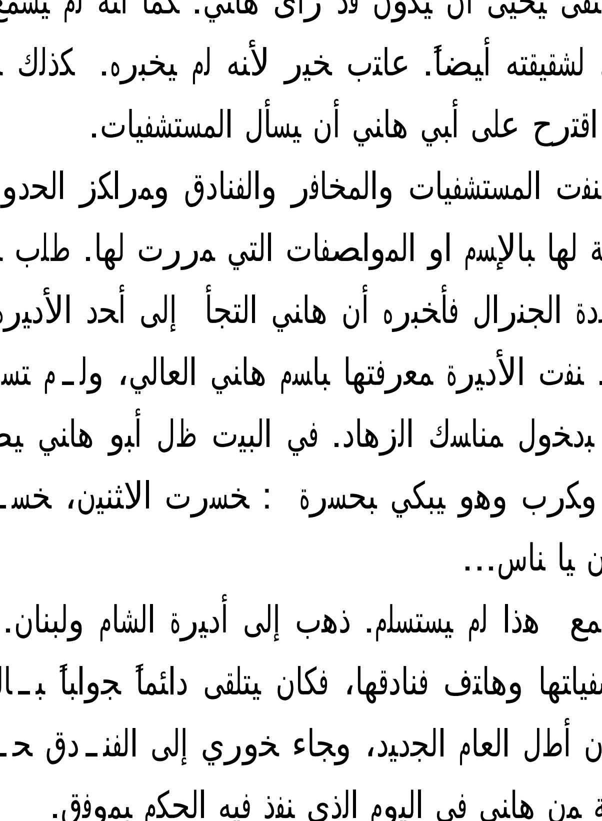
نفى خير أن يكون قد التقاه بعد ذلك الوقت. أنبه لأنـه تركه وحده : أوصيتك تدير بالك عليه.

- يا عمي. قال بأنه يريد ان ينزل إلى الأوتيـل يغيـر هواء. هل أمنعه.؟!.

- لا. لا تمنعه. إنزل معه يا فصيح.

- هل تريد أن تستد مني.؟.

أخبره في الطريق إلى بيت العفيف أنه أمضى ساعات قبل أن يستهدي على بيت الجليلي. أنبه بنبرة مخففة : مـن يعرف بيت الجليلي يا عمي.؟!. كان يجب أن تسأل عن بيت الفنان.



نفى يحيى أن يكون قد رأى هاني. كما أنه لم يسمع بما جرى لشقيقته أيضاً. عاتب خير لأنه لم يخبره. كذلك حسن الذي اقترح على أبي هاني أن يسأل المستشفيات.

نفت المستشفيات والمخافر والفنادق ومراكز الحدود أي معرفة لها بالإسم او المواصفات التي مررت لها. طلب حسن مساعدة الجنرال فأخبره أن هاني التجأ إلى أحد الأديرة ولم يحدد. نفت الأديرة معرفتها باسم هاني العالي، ولـم تسـمح لأحدٍ بدخول مناسك الزهاد. في البيت ظل أبو هاني يصرخ بكمدٍ وكرب وهو يبكي بحسرة : خسرت الاثنين، خسـرت الاثنين يا ناس...

مع هذا لم يستسلم. ذهب إلى أديرة الشام ولبنان. سأل مستشفياتها وهاتف فنادقها، فكان يتلقى دائماً جواباً بـالنفي، إلى أن أطل العام الجديد، وجاء خوري إلى الفنـدق حـاملاً رسالة من هاني في اليوم الذي نفذ فيه الحكم بموفق.

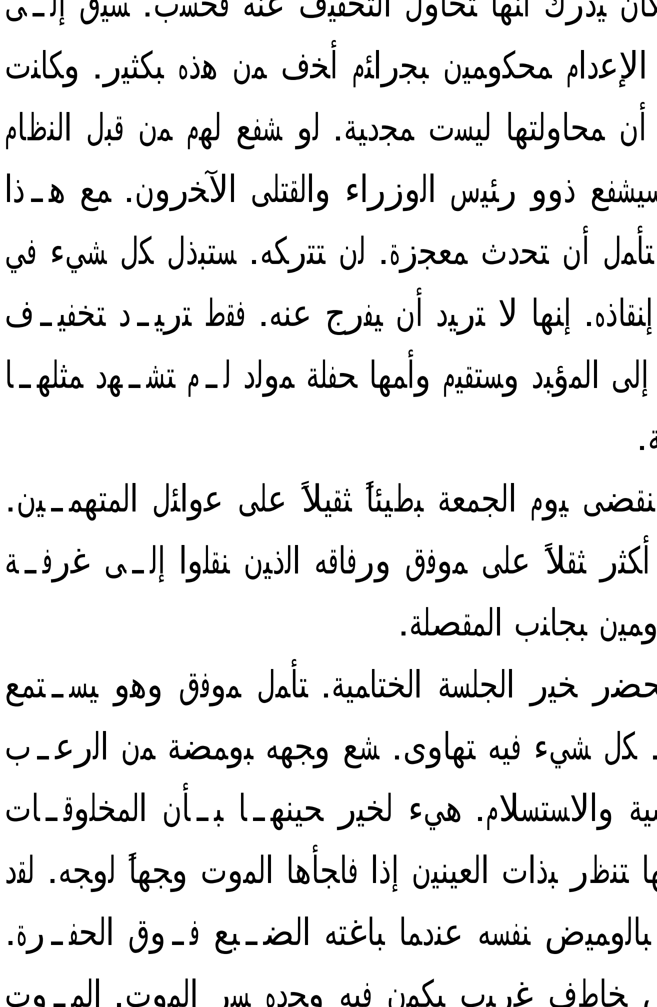
٢٣

ابتدأت محكمة أمن الدولة جلستها العلنية الأولى في الثالث من كانون الأول وقضت في التاسع والعشرين منه بشنق موفق وثلاثة آخرين وجاهياً، وغيابياً بإعدام أبي يحيى وعدد من المتورطين الموجودين خارج البلاد.

كانت جلسات المحاكمة علنية، سمح فيها لذوي المتهمين ورجال الإعلام بحضورها. فكانت تغريد تبكي في الأثناء بمرارة وهي تسمع الاعترافات.

لم تستغرب كما لم يستغرب أحد قساوة الأحكام نظراً لهول الجريمة. إلا أنها ظلت تدعو وتبتهل وتتطلع لتخفيفها. فاعترافات موفق والآخرين كانت صريحة واضحة لا لبس فيها ولا شبهة.

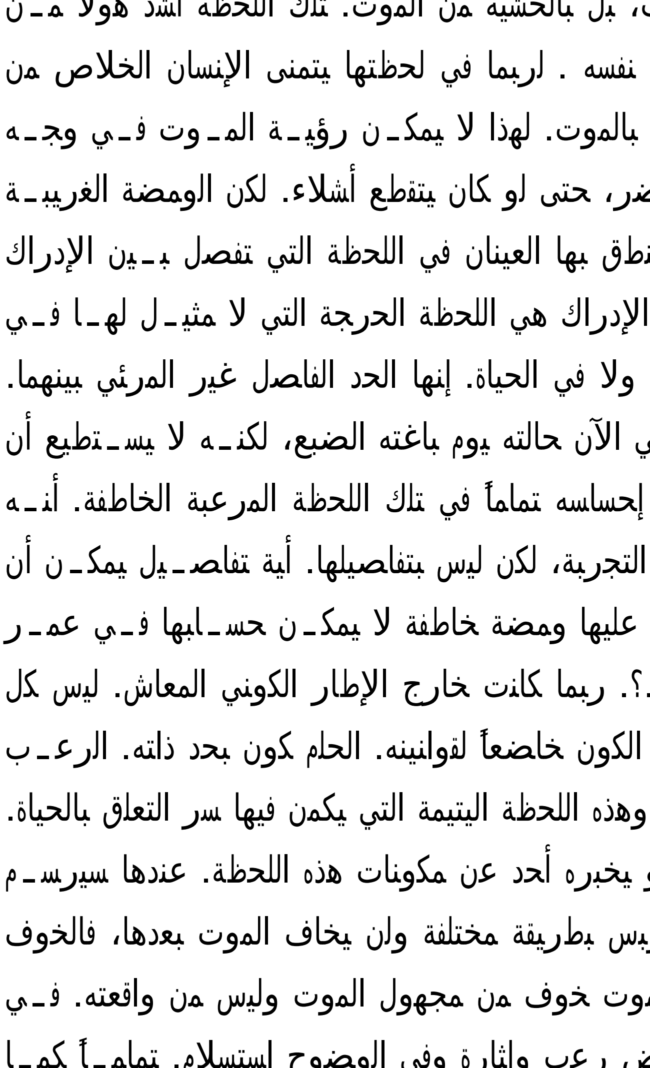
صدر الحكم يوم الخميس، فذهبت تغريد يوم الجمعة إلى السجن. ظلت تتكلم طيلة الوقت بينما موفق شاحب الوجه منكمش الجسم عاجز عن قول أي شيء. طمأنته. الحكم شيء وتنفيذه شيء آخر. لا يمكن أن يشنقوا أحداً. أخبرته بأنها ستتقدم صباح السبت مع عدد من عوائل المحكومين بالتماس لتخفيف الحكم.



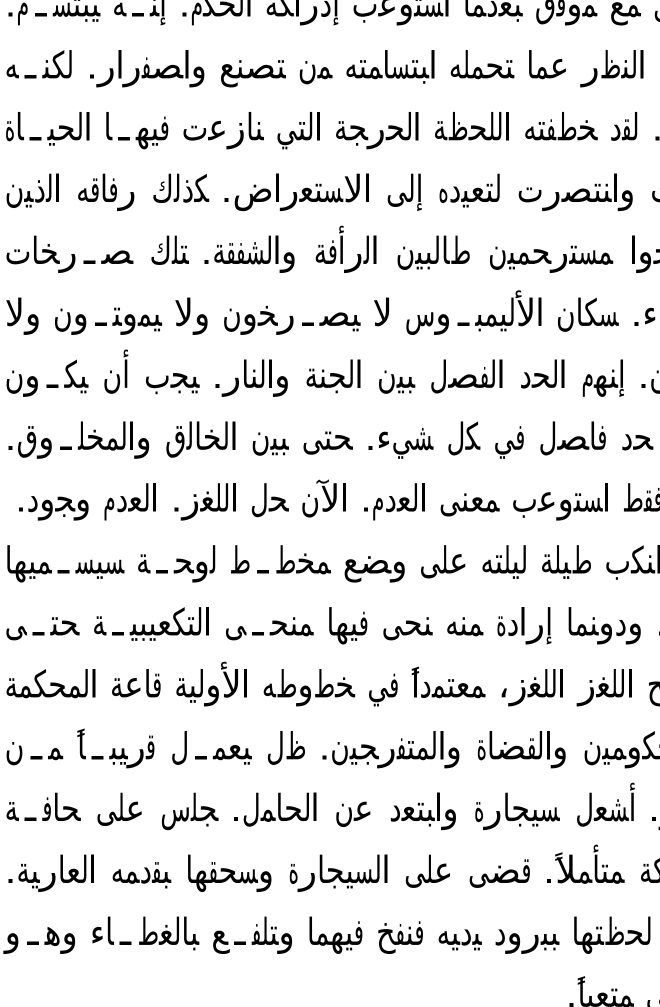
كان يدرك أنها تحاول التخفيف عنه فحسب. سيق إلى غرفة الإعدام محكومين بجرائم أخف من هذه بكثير. وكانت تدرك أن محاولتها ليست مجدية. لو شفع لهم من قبل النظام فهل سيشفع ذوو رئيس الوزراء والقتلى الآخرون. مع هذا ظلت تأمل أن تحدث معجزة. لن تتركه. ستبذل كل شيء في سبيل إنقاذه. إنها لا تريد أن يفرج عنه. فقط تريد تخفيف الحكم إلى المؤبد وستقيم وأمها حفلة مولد لم تشهد مثلها الجوفة.

انقضى يوم الجمعة بطيئاً ثقيلاً على عوائل المتهمين. وكان أكثر ثقلاً على موفق ورفاقه الذين نقلوا إلى غرفة المحكومين بجانب المقصلة.

حضر خير الجلسة الختامية. تأمل موفق وهو يستمع للحكم. كل شيء فيه تهاوى. شع وجهه بومضة من الرعب والخشية والاستسلام. هيء لخير حينها بأن المخلوقات جميعها تنظر بذات العينين إذا فاجأها الموت وجهاً لوجه. لقد أحس بالوميض نفسه عندما باغته الضبع فوق الحفرة. وميض خاطف غريب يكمن فيه وحده سر الموت. الموت بحد ذاته ليس حالة يمكن تأملها، لأن الإنسان لا يحس

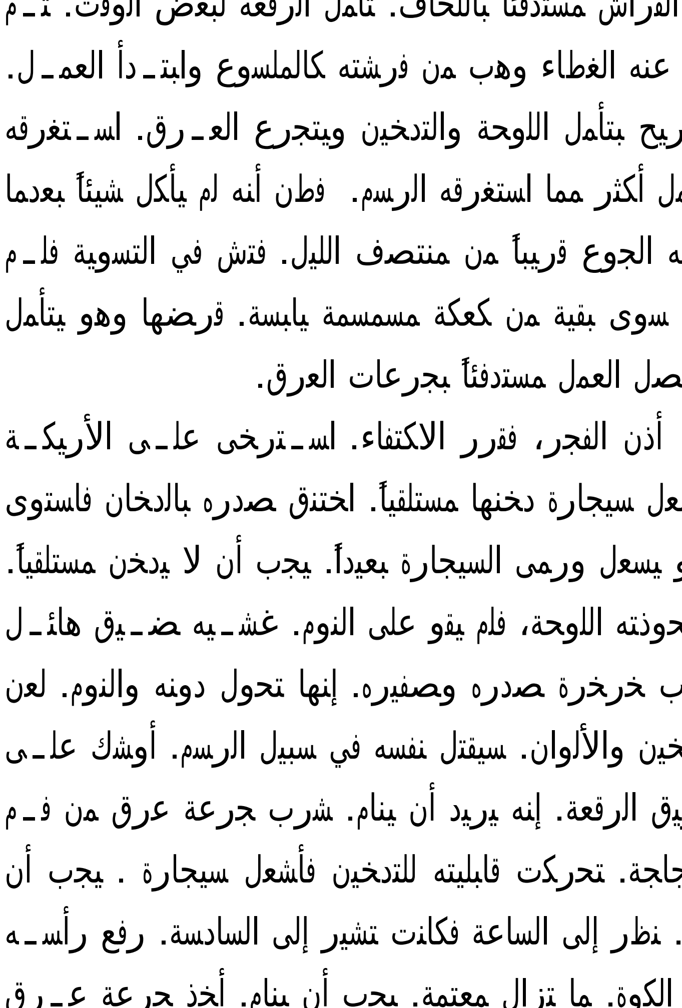


بالموت، بل بالخشية من الموت. تلك اللحظة أشد هولاً مـن الموت نفسه . لربما في لحظتها يتمنى الإنسان الخلاص من الموت بالموت. لهذا لا يمكـن رؤيـة المـوت فـي وجـه المحتضر، حتى لو كان يتقطع أشلاء. لكن الومضة الغريبـة التي تنطق بها العينان في اللحظة التي تفصل بـين الإدراك وعدم الإدراك هي اللحظة الحرجة التي لا مثيـل لهـا فـي الموت ولا في الحياة. إنها الحد الفاصل غير المرئي بينهما. إنه يعي الآن حالته يوم باغته الضبع، لكنـه لا يسـتطيع أن يتذكر إحساسه تماماً في تلك اللحظة المرعبة الخاطفة. أنـه يتذكر التجربة، لكن ليس بتفاصيلها. أية تفاصـيل يمكـن أن تشتمل عليها ومضة خاطفة لا يمكـن حسـابها فـي عمـر الزمن.؟. ربما كانت خارج الإطار الكوني المعاش. ليس كل ما في الكون خاضعاً لقوانينه. الحلم كون بحد ذاته. الرعـب كون، وهذه اللحظة اليتيمة التي يكمن فيها سر التعلق بالحياة. فقط لو يخبره أحد عن مكونات هذه اللحظة. عندها سيرسـم الأليموبس بطريقة مختلفة ولن يخاف الموت بعدها، فالخوف من الموت خوف من مجهول الموت وليس من واقعته. فـي الغموض رعب وإثارة وفي الوضوح استسلام. تمامـاً كمـا



حصل مع موفق بعدما استوعب إدراكه الحكم. إنـه يبتسـم. بغض النظر عما تحمله ابتسامته من تصنع واصفرار. لكنـه يبتسم. لقد خطفته اللحظة الحرجة التي نازعت فيهـا الحيـاة الموت وانتصرت لتعيده إلى الاستعراض. كذلك رفاقه الذين صرخوا مسترحمين طالبين الرأفة والشفقة. تلك صـرخات الأحياء. سكان الأليمبـوس لا يصـرخون ولا يموتـون ولا يحيون. إنهم الحد الفصل بين الجنة والنار. يجب أن يكـون هناك حد فاصل في كل شيء. حتى بين الخالق والمخلـوق. الآن فقط استوعب معنى العدم. الآن حل اللغز. العدم وجود.

انكب طيلة ليلته على وضع مخطـط لوحـة سيسـميها اللغز. ودونما إرادة منه نحى فيها منحـى التكعيبيـة حتـى يوضح اللغز اللغز، معتمداً في خطوطه الأولية قاعة المحكمة والمحكومين والقضاة والمتفرجين. ظل يعمـل قريبـاً مـن الفجر. أشعل سيجارة وابتعد عن الحامل. جلس على حافـة الأريكة متأملاً. قضى على السيجارة وسحقها بقدمه العارية. أحس لحظتها ببرود يديه فنفخ فيهما وتلفـع بالغطـاء وهـو يستلقى متعباً.



استيقظ متأخراً قريباً من العصر، فأشعل سيجارة وهو في الفراش مستدفئاً باللحاف. تأمل الرقعة لبعض الوقت. ثم دفع عنه الغطاء وهب من فرشته كالملسوع وابتدأ العمل. يستريح بتأمل اللوحة والتدخين ويتجرع العرق. استغرقه التأمل أكثر مما استغرقه الرسم. فطن أنه لم يأكل شيئاً بعدما لسعه الجوع قريباً من منتصف الليل. فتش في التسوية فلم يجد سوى بقية من كعكة مسمسمة يابسة. قرضها وهو يتأمل وواصل العمل مستدفئاً بجرعات العرق.

أذن الفجر، فقرر الاكتفاء. استرخى على الأريكة وأشعل سيجارة دخنها مستلقياً. اختنق صدره بالدخان فاستوى وهو يسعل ورمى السيجارة بعيداً. يجب أن لا يدخن مستلقياً. استحوذته اللوحة، فلم يقو على النوم. غشيه ضيق هائل بسبب خرخرة صدره وصفيره. إنها تحول دونه والنوم. لعن التدخين والألوان. سيقتل نفسه في سبيل الرسم. أوشك على تمزيق الرقعة. إنه يريد أن ينام. شرب جرعة عرق من فم الزجاجة. تحركت قابليته للتدخين فأشعل سيجارة . يجب أن ينام. نظر إلى الساعة فكانت تشير إلى السادسة. رفع رأسه إلى الكوة. ما تزال معتمة. يجب أن ينام. أخذ جرعة عرق

أكبر لم تفعل شيئاً. كان كل شيء فيه مستيقظاً. لماذا النوم إن لم يستطعه. تأمل الرقعة وهو على وشك أن يأخـذ جرعـة أخرى، عندما سمع جلبة وأصوات. أسرع إلى الخارج فلـم يجد أحداً، لكنه ما أن استدار نحو المدخل، حتى ظهر رجـل وصبي يهرولان باتجاه الزقاق. قـال لـه الرجـل دون أن يسأله : علّقوهم... وظل مواصلاً.

صرخ به : من هم.؟.. فلم يجبه.

ظهر آخر وآخر وآخر يهرولون إلى الزقاق كأنهم فـي سباق. ركض خلفهم من غير زنوبة ودون أن يقفل البـاب. كانت غشاوة العتمة آخذة بالانقشاع والناس يتراكضون مـن كل اتجاه نحو مركز المدينة. وصل لاهثاً متعرقاً. زاحم حتى يخترق حشود الآلاف التي تجمعت أمام ساحة الجامع، للتفرج على موفق وثلاثة آخرين معلقين من رقابهم فـي عارضـة حديدية ترتفع عن الأرض نحو ستة أمتار وقد ألصـق بكـل منهم لافتة كتب عليها اسمه وآية " ولكم في القصاص حيـاة يا أولي الألباب ".

لم يع الكثيرون كم من الوقت انقضى على وقـوفهم، ولم ينتبهوا للشمس التي أشرقت بصفاء ذلك اليوم وهي تغمر

المدينة بكل أرجائها غير مبالية بما يفعله المستدفئين بشعاعها.

ابتعد خير إلى الوراء واقتعد الأرض أمام باب محلٍ مغلق. انتبه لنفسه عندما سأله صاحب المحل الابتعاد عن الباب. نهض بتثاقل. سأل الرجل سيجارة. أشعلها له وهو يحملق بثبات في عود الثقاب. نظر إلى حيث المشنقة. لم يكن موقف يختلف عن الآخرين. جميعهم يتلوحون بهدوء مع نسمات كانون الباردة. استيقظ فيه الشعور بعبثية الحياة. طالت أم قصرت، شنقاً أم احتضاراً. الموت واحد والحياة قصاص. نخر نفساً سريعاً وسحب من سيجارته سحبة طويلة واستدار. مشى مطرقاً يحك قدميه بالأرض مع كل خطوة. ما أن ابتعد حوالي خمسين متراً حتى سمع جلبة في الوراء. التفت فكان الونش يمد ذراعه نحو المشنقة. استدار وظل يراقب المشهد الذي تهافت عليه الناس إلى الأمام. كأنهم يتزاحمون للدخول إلى السينما. هم بالاندفاع مثلهم، لكنه تراجع وهو يتساءل : وماذا سأرى.؟.. الإثارة بالشنق وليس بإنزال المشنوقين.

سحب ما تبقى من سيجارته وهو يبتعد. فجأة ظهـرت أمامه أم موفق مهلهلة الثياب مكشوفة الرأس شاحبة مصفرة. كأنها ساحرة من غابر الزمان : أين ذاهبة.؟... سألها بلهفـة وخطف نظرة إلى الوراء.

- يا خالتي، يقولون أنهم سيشنقون موفق.

- من قال لك ذلك.؟.

- الراديو والناس.

- تعالي. تعالي..

ضمها من كتفها وأدارها فتجاوبت معـه تلقائيـاً : يـا خالتي. خذني لقائد الشرطة.

- طيب. طيب... ومشى يدفعها بذراعه إلـى الأمـام بحنان وإيثار وهو الذي لم يشفق يوماً على امـرأة. كانـت عيون الناس تتجه تلقائياً صوب الجامع فلم يلحظها أحـد او يعير انتباهاً لحالتها. حتى لو كـانوا واقفـين او يعاكسـونها الاتجاه. مر شرطي، فتعلقت بذراعه : يا خالتي، وا موفق بريء...

- من.؟... أمسك الشرطي عن الكلام بعد أن تقابلـت نظراته ونظرات خير. ارتج وجه الشرطي وخلص ذراعه : خذني لقائد الشرطة، ا يخليك.

ابتعد الشرطي بخطوات سريعة. ربت خير على كتفهـا ودفعها بأناة فواصلت معـه. انحـرف معهـا باتجـاه درج الخلايلة، وهي تهذي بعبارات غير مفهومة وكلمـات غيـر مترابطة. قالت بعد ان تجاوزا المنحـدر الترابـي القصـير الموصل للدرج : وا يا خالتي ما بقي عندي همة للمشي.

جلست على الدرج وسألته سيجارة. تلفت حواليه وسأل أحد العابرين، فاحتقره بنظره وابتعد سريعاً : لو نمشـي يـا خالتي. سنجد في البيت دخان.

- قولتك. إيه. يا ميسر. يعني رأيك مـا أروح للقائـد وأروح للملك.

- طيب يا خالتي. عندما نصل سنتحدث بالأمر.

- أنا أحببتك يا خالتي من أول مرة شفتك فيها.

- وأنا أحببتك أيضاً.

- لو إنك متعلم مثل تغريد زوجتك إياها.

كان صراخ تغريد يدوي في المنبسط، بينما حشد مـن النسوة يحلن دون تمزيقها لثيابها وتخميش وجههـا : مـاذا جرى.؟... سألت أم موفق وهما يعبران حوش الدار : مـن أزعل تغريد.؟.

استلمت النسوة أم موفق بمجرد وصولها وتقهقر خيـر منسلاً.

نظر من فوق الجرف إلى بيت موفق الذي تتدفق عليـه النساء وتنبعث منه الصراخات بعيدة كالنداءات. اتجـه إلـى بيت يحيى. قالت له الخادمة بقلق أنه ليس موجوداً. اسـتدار وابتعد بضعة أمتار، ثم التفت خطفاً إلى الوراء مـع منـاداة يحيى له من خلال خصاص الباب. أسرع إليه وهو يتلفـت حواليه.

ظل يحيى متوجساً طيلة فترة المحاكمة، ينتظر أن يـتم اعتقاله او استدعاؤه للتحقيق، بعدما اعترف موفق عن علاقته بأبيه. لم يقم بزيارته في السجن حتى لا يجلب الشبهة لنفسه، ولم يعد يذهب إلى مكتبه او يغادره بانتظام. يقضي جل وقته في البيت يقرأ او يستمع للمذياع بينما تخبر الخادمة زائريـه أنه ليس موجوداً. كما لم يعد يلتقي بخير إلا عندما تضيق به

الدنيا ويحس بالبيت سجناً ضيقاً يخنق أنفاسه، فيـذهب إلـى التسوية في عمق الظلام. يشكو لخير بؤسه ويسمع منه عـن شقائه.

أصغى إليه بانتباه وخشية أقرب إلى الذهول. سأل عـن تفاصيل أدهشت خير وحيرته فهي لم تخطـر ببالـه علـى الإطلاق. هل كانوا موثقين.؟. هل شنقوا معاً أم فرادى.؟.من لفظ أنفاسه قبل الآخر.؟. ماذا كان المتفرجون يقولون.؟. هل كانوا مشفقين عليهم أم متشفين.؟.

كان وجهه فاقع الاصفرار وهو يلقي باللائمة على عبد الناصر ويسأل ملهوفاً ولا يمل السماع، ولما سـمع عـن أم موفق قال وهو يبسط كفيه للأعلى : عبد الناصـر خـرب بيوت العباد... ثم انفجر في البكاء : لو شنقوني مئة مرة لن أدعهم يخدشون أبي.

٢٤

أبي...

يوماً ما كانت الحياة عندي عملاً فنياً رائعاً، أجمل مـا فيه غموض معناه. كانت الحياة عندي مثيرة مثل جسد امرأة شهية. يكفيني بصيص من النور في مدى ضوء شمعة، حتى أتأمل محاسنها وأتلمس مفاتنها وأندفع بالإثارة على هداها إلى منتهاها، فلا أملها ولا أعتادها. بل أعـيش العمـر راضـياً مأخوذاً بسحرها وجمالها.

كنت سعيداً.

يوماً ما كان لي أصدقاء. رؤيانـا تتحـد وإن اختلفنـا. ميولنا تتفق وإن تنازعنا. كنا أشقياء نبحث عن الإثارة فـي الطرقات المعتمة. لا تبالي أقدامنا العارية بحفر الطريق ولا أحجارها ولا شظايا الزجاج المتناثر فيها.

كنا سعداء.

الآن، صرت غريباً عن نفسي وعنهم. لا أعرف مـاذا يريدون وماذا أريد منهم. أتحايل على ما أشعر به من بـرود عواطفي وواقعية أفكاري فأدعي فهم الحياة وهـي تنسـاب مني. لم يشترط أحد علي أن أخضع المسرة للمعايير. فلماذا

اشترطتها على نفسي.؟. معايير متغيـرة متشـقلبة غـدارة أكرهتني على تسليم شقيقتي إليها. الرب يعلم أني لم أقصـد سوءاً بوعد. كم أكره نفسي.

أنك لا تدرك عمق الهوة التي صارت تفصلنا، والتي لا سبيل لردمها او عبورها او تجنبهـا او إهمـال وجودهـا. مستحيل يا أبي أن يعيش أحدنا عالم الآخر.

كدت تفلح في أن تجعلني مثلك. أتعامل مع الحياة منطقاً وواقعاً لا صخب فيه ولا عبـث ولا خـروج ولا اسـتثناء. قواعده صارمة ومقاييسه ثابتة وشرائعه مقدسة.

كم كنت غبياً.

العالم كما أراه الآن ليس عملاً فنياً رائعـاً، ولا جسـد امرأة شهية. إنه عالم بشع وضيع. لا تقل بشاعته عن بشاعة لوحة زيتية أذابت ألوانها شمس الظهيرة. ولا تقل وضـاعته عن وضاعة امرأة شرقية أشرعت معابرها للريح الغربية.

غدا عالمي المشرق زنزانة ضيقة خانقة. لا يعيش فيها إلا شبح أو مجنون. عالم كالسجن. الحرص فيه كبير والأمل صغير. عالم مقاييسه معكوسة. أرضـه مقعـرة وأضـواؤه دائرية وأنهاره تصب في منابعها وسماؤه سـاكنة التهمـت

ظهيرتها نجومها وأحرقت أبراجها. عالم مسحور ملعون. لا حقيقة فيه إلا للخضوع.

لكن، طالما أن هناك خيطاً باهتاً من النور يتسلل إلـى منسكي، وطالما أنه ما يزال لدي قدر من الأمل المسـتحيل للتحرك بقليل من الحرية بين أوراقي وكتبي، وطالما أني ما زلت قادراً على الانفعال المضحك الباكي، سأكتب لك مـن حين لحين.

سأكتب لك، ولا أملك من سبيلٍ آخر للوصـول إليـك والاتصال بك. فالسجن الذي أعيش فيه محكم منيع. لا مرآة عندي أعكس فيها وجهي، ولا رقم على صدري أُعرف فيـه نفسي، فاغفر لي عجزي وخضوعي. اغفـر لـي غربتـي وقيودي. فالمسافة بيني وبين العالم غدت طويلة، والهوة التي تفصلني عنه عميقـة، والطريـق إليـه مليئـة بـالحواجز والمخاطر. ولربما في ابتعادي أجد نفسي وفي زهدي اهتدي لذاتي وأعتاد اغترابي وأمحو انتمائي. ففي هذا العالم الـذي سرقت شمسه أبراج أحلامي، غدوت فيه مجرد طيف ليس له معنى أمام أضواء الحقيقة النفاذة. وليس لي من خيار أحتاجه

حتى أعيش وأكرهه طالما أبقى سوى الموت في الحياة. مـا أصعبه من خيار.

هاني العالي

دير اللطرون ٣١ / ١٢ / ١٩٦٠

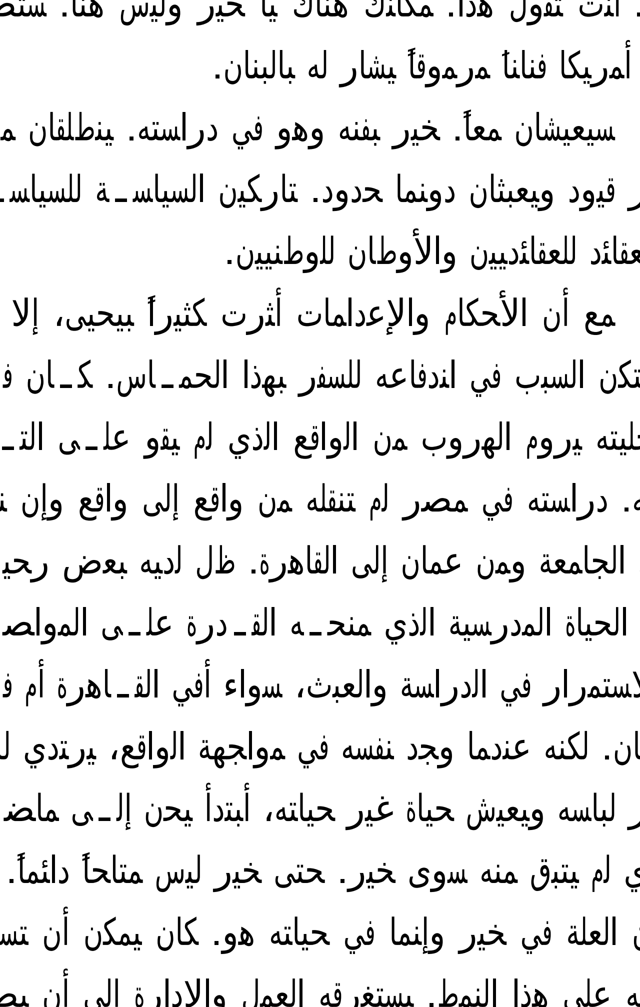
٢٥

أرسل أبو يحيى خبراً لابنـه حتـى يلتحـق ببرنـامج الدراسات العليا في مصر. وافقه يحيى على الفكرة وعارضه بالنسبة للمكان. سيكمل دراسته في أمريكا. لم يعارض أبوه. كان يروم فقط إبعاده عن عمـان بعـد ورود اسـمه بـين المحكومين بالإعدام. وكان يحيى حريصاً على أن يأخذ خير معه باي طريقة.

استعاد له حسـن بوسـاطة الجنـرال جـواز سـفره، واستصدر لخير جوازاً خاصاً به. كما ساعد الجنـرال فـي حصولهما على تأشيرتي دخـول إلـى الولايـات المتحـدة الأمريكية. وتعهد يحيى بشراء تذاكر السـفر والمصـاريف المترتبة على سفرهما معاً عبر أوروبا. دون أن يتوقف عن حث خير على السفر بتنبيهه أنه يجب أن يعمـل بجـدٍ فـي أمريكا إذا أراد أن يعيش مثل الناس.

ظل يشجعه ويحمسه كلما تراخت همته. سيظل مغموراً، بل مخنوقاً في تسويته ولن تشاهد لوحاته النور. مكانه فـي أمريكا. بلاد الفرص. هناك سيقف الناس طوابير يتزاحمـون على دخول مرسمه ويتهافتون علـى معارضـه ويـدفعون

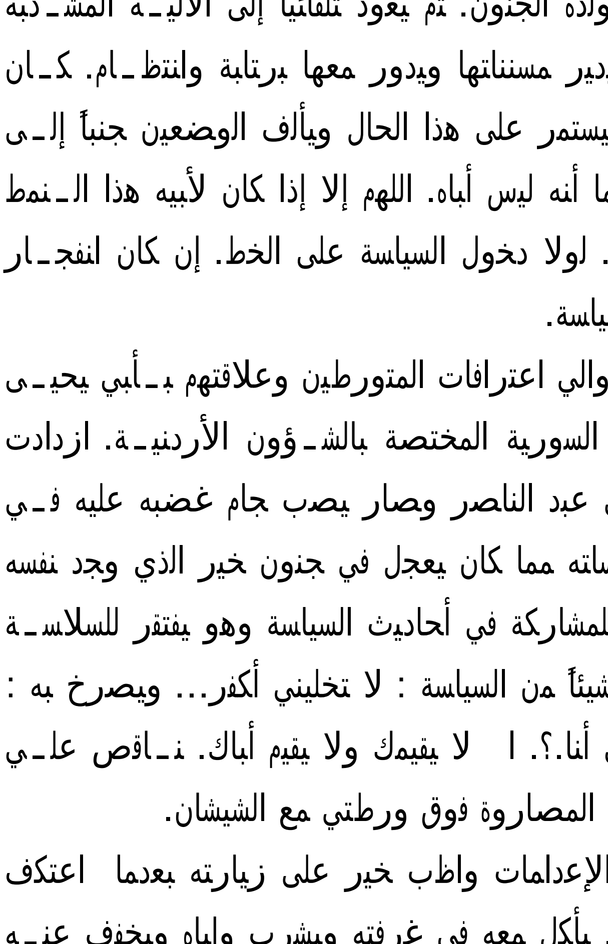
الآلاف لقاء لوحاته. بينما يقبع هنا منتظراً أن يطرق أحـدهم الباب حاملاً إليه زجاجة عرق ورغيف خبز. مكانه في تلـك البلاد الواسعة المعطاءة التي تقدر الفن أياً كـان مصـدره، وليس في هذا البلد الذي يتغطى فيـه كـل شـيء بالحطـة والعقال. حتى حريته في اللبس وأسلوب حياته تثيران سخرية الآخرين وضحكاتهم. أما الرسم فإنه يثير حنقهم وأحقادهم او أنه يلاقي منهم الصدود والإهمال. ديكران الذي قـدر فنـه، سرق جهده أيضاً ودفع له الفتات لقاء خمس لوحات : مجالك هناك وليس هنا يا خير... يكرر له كلمـا وجـده متـردداً، وبخاصة عندما يثقل العيار ويأخذ بالبكاء. إذ كيف سـيترك التسوية.؟. إنها أكثر من مأوى وملاذ. إنها تستوطن وجدانه مثلما يستوطن حدودها. صحيح أنها مزرية مشـوهة غيـر مكتملة البناء. لكنه متعلق بها ويحبها بشغف وهيـام. إنهـا وطنه حتى لو كانت مزبلة. لمن سيتركها إذا سـافر.؟. قـد تسطو عليها أمه، تستصلحها وتأجرها او يجعلهـا الجيـران مكب نفايات. ثم ماذا يفعل بكل هذه اللوحات.؟. تركها مشكلة وحملها مستحيل وبيعها في هذا البلد من رابع المستحيلات :



هه. أنت تقول هذا. مكانك هناك يا خير وليس هنا. ستصبح في أمريكا فناناً مرموقاً يشار له بالبنان.

سيعيشان معاً. خير بفنه وهو في دراسته. ينطلقان مـن غير قيود ويعبثان دونما حدود. تاركين السياسـة للسياسـين والعقائد للعقائديين والأوطان للوطنيين.

مع أن الأحكام والإعدامات أثرت كثيراً بيحيى، إلا أنها لم تكن السبب في اندفاعه للسفر بهذا الحمـاس. كـان فـي داخليته يروم الهروب من الواقع الذي لم يقو علـى التـأقلم معه. دراسته في مصر لم تنقله من واقع إلى واقع وإن نقلته إلى الجامعة ومن عمان إلى القاهرة. ظل لديه بعض رحيـق من الحياة المدرسية الذي منحـه القـدرة علـى المواصـلة والاستمرار في الدراسة والعبث، سواء أفي القـاهرة أم فـي عمان. لكنه عندما وجد نفسه في مواجهة الواقع، يرتدي لباساً غير لباسه ويعيش حياة غير حياته، أبتدأ يحن إلـى ماضـيه الذي لم يتبق منه سوى خير. حتى خير ليس متاحاً دائماً. ولم تكن العلة في خير وإنما في حياته هو. كان يمكن أن تستمر حاله على هذا النمط. يستغرقه العمل والإدارة إلى أن يضيق عليه الخناق، فيتحلل من قسوة الرتابة مع خير الذي يمنحـه



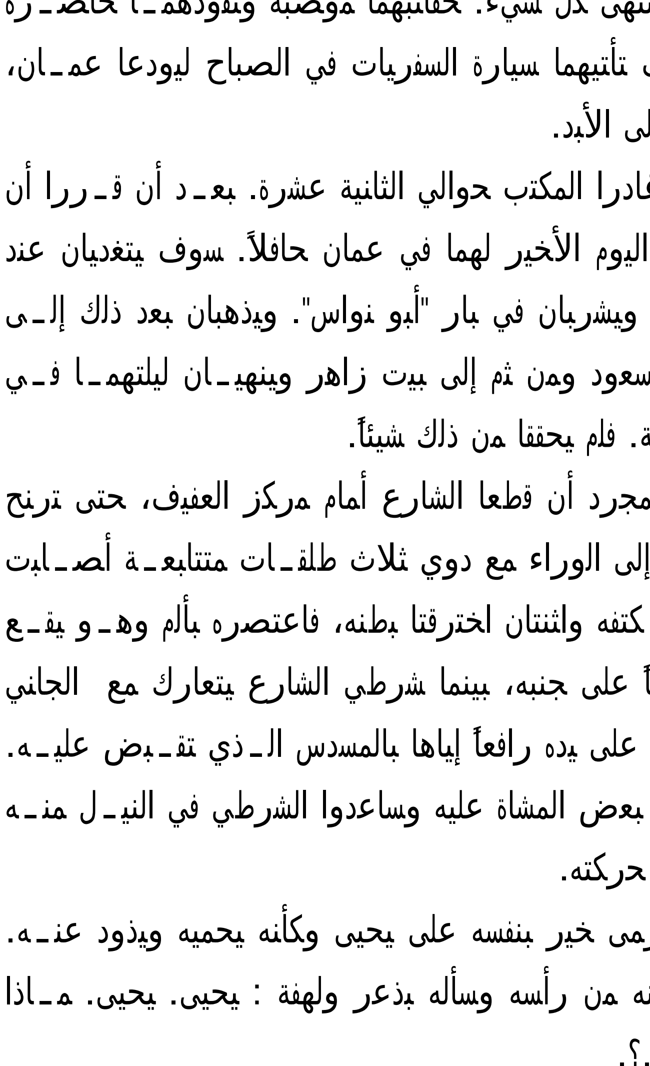
الصدق في المعاشرة والعفوية في السلوك فيحس معه بالنقاء والصفاء ولذة الجنون. ثم يعود تلقائياً إلى الآليـة المشـذبة الأسنان ليدير مسنناتها ويدور معها برتابة وانتظـام. كـان يمكن أن يستمر على هذا الحال ويألف الوضعين جنباً إلـى جنب طالما أنه ليس أباه. اللهم إلا إذا كان لأبيه هذا الـنمط من الحياة. لولا دخول السياسة على الخط. إن كان انفجـار الرئاسة سياسة.

مع توالي اعترافات المتورطين وعلاقتهم بـأبي يحيـى والأجهزة السورية المختصة بالشـؤون الأردنيـة. ازدادت نقمته على عبد الناصر وصار يصب جام غضبه عليه فـي معظم جلساته مما كان يعجل في جنون خير الذي وجد نفسه مضطراً للمشاركة في أحاديث السياسة وهو يفتقر للسلاسـة ولا يعي شيئاً من السياسة : لا تخليني أكفر... ويصرخ به : ما علاقتي أنا.؟. ا لا يقيمك ولا يقيم أباك. نـاقص علـي أتورط مع المصاروة فوق ورطتي مع الشيشان.

بعد الإعدامات واظب خير على زيارته بعدما اعتكف في منزله. يأكل معه في غرفته ويشرب وإياه ويخفف عنـه بتولي الحديث عن الفن والرسم متجنباً أي إشـارة للماضـي

القريب الذي يؤلمهما استذكاره. كان موفق بالنسبة لكليهما يشغل حيزاً من حياتهما ونفسيتهما حتى لو لم يكونا يلتقيانه إلا في فترات متباعدة او في المناسبات. لكنه كان جزءاً حياً عاملاً في أعماقهما. لهذا أحسا بالألم من انتزاعه او إماتته في موضعه. عبر خير عن هذا الإحساس الغريب الذي انتابه بلوحة هائلة رسم فيها أباه يذود عن ذراعه المشلولة بذراعه السليمة. قال ليحيى وهو يعرض الرسمة عليه : ليس من السهولة انتزاع جزء من الكائن الحي، حتى لو كان هذا الجزء ميتاً او مغيباً او كان بقاؤه مؤلماً. بكى خير حينها رغبة في البكاء، وإن تذرع بالحزن على موفق. بعد نحو الشهر بكى بمرارة وهو يودع يحيى إلى الأبد.

جاءا يومها معاً إلى المكتب. فأرسل يحيى ساعياً لجلب تذكرتي الطائرة التي ستقلهما من بيروت إلى باريس. بعد أن اتفقا على قضاء أسبوع فيها قبل الطيران لأمريكا. وكان حسن قد أنقد خير دفعة محرزة على حساب لوحة الفرسان وبقي له في الرصيد حساب.



انتهى كل شيء. حقائبهما موضبة ونقودهما حاضرة وسوف تأتيهما سيارة السفريات في الصباح ليودعا عمان، ربما إلى الأبد.

غادرا المكتب حوالي الثانية عشرة. بعد أن قررا أن يكون اليوم الأخير لهما في عمان حافلاً. سوف يتغديان عند جبري ويشربان في بار "أبو نواس". ويذهبان بعد ذلك إلى دكان سعود ومن ثم إلى بيت زاهر وينهيان ليلتهما في التسوية. فلم يحققا من ذلك شيئاً.

بمجرد أن قطعا الشارع أمام مركز العفيف، حتى ترنح يحيى إلى الوراء مع دوي ثلاث طلقات متتابعة أصابت واحدة كتفه واثنتان اخترقتا بطنه، فاعتصره بألم وهو يقع مترنحاً على جنبه، بينما شرطي الشارع يتعارك مع الجاني ممسكاً على يده رافعاً إياها بالمسدس الذي تقبض عليه. انقض بعض المشاة عليه وساعدوا الشرطي في النيل منه وتقييد حركته.

رمى خير بنفسه على يحيى وكأنه يحميه ويذود عنه. احتضنه من رأسه وسأله بذعر ولهفة : يحيى. يحيى. ماذا حصل.؟.

نفخ يحيى نفساً من حلقه وقد شعر بالسخونة فـي كـل جسده. إنه يحترق ولا يستطيع أن يقول لخيـر، اتركنـي او ابتعد عني. كان يريد أن يتنفس وليس لديه القوة للاستنشاق. ويريد من خير أن يظل قربه. سأله : ماذا حصل.؟.

- يحيى... قالها خير وهو على وشك البكـاء. بينمـا احتشد حولهما الناس. هذا يصرخ طالبـاً الإسـعاف وآخـر ينادي على تكسي. وهذا يستفسر عما حصـل وذاك يقـول، طخوا ابن العفيف.

- طخّوني.

ضمه خير إليه أكثر وماس على وجهه الـذي غادرتـه الحيوية والانشراح فبدا متعباً يتخلله الشـحوب : لمـاذا.؟.. سأل بوهن.

نخر خير وراح ينشج ويتمايل للوراء والأمام : لأنـك الأحسن... أدار نظره في الواقفين الذين يطلون عليه كإطلالة الضبع فوق الحفرة. قال لهم بمسكنة : وا إنه بـريء. لـم يفعل شيئاً.

قال يحيى بوهن وصوت خفيض لم يسمعه أحد : أبـي فعل... نفخ نفساً ضعيفاً متعباً وهو يحـس بجفـاف حلقـه

ونشفان شفتيه ويحس بتلوح رأسه مع تلوح خير كأنه يهدهده في المهد.

- خير.
- نعم.
- ضاعت سفرة أمريكا.
- لا تتكلم.
- لكنني ثرثار.
- لست ثرثاراً.
- نسيت. أنا نبي.. ابتسم بوهن مغمضاً عينيه. ملـس خير راحته على وجهه البارد. في ثوان تدفقت فيه الحرارة واستعاد لونه مع قفزة قوية في بطنه ارتج لها جسـده. فـتح عينيه على اتساعهما ونظر لخير بذهول بينما تلاطخت شـفتاه بالاحمرار وفي ومضة من الوقت تقيـأ دمـاً. مـرر خيـر أصابعه بنعومة على الشفتين المدميتين : يحيى. أغمـض. لا تخيفني. أغمض ا يخليك... مرر أحدهم يده على العينـين الساكنتين فتمدد الجفنان للمرة الأخيرة.

خشي الكثيرون المشاركة بالجنازة. بمن فـيهم أقربـاء يحيى الذين شاركوا متوجسين بعدما عرف الجميع من خلال

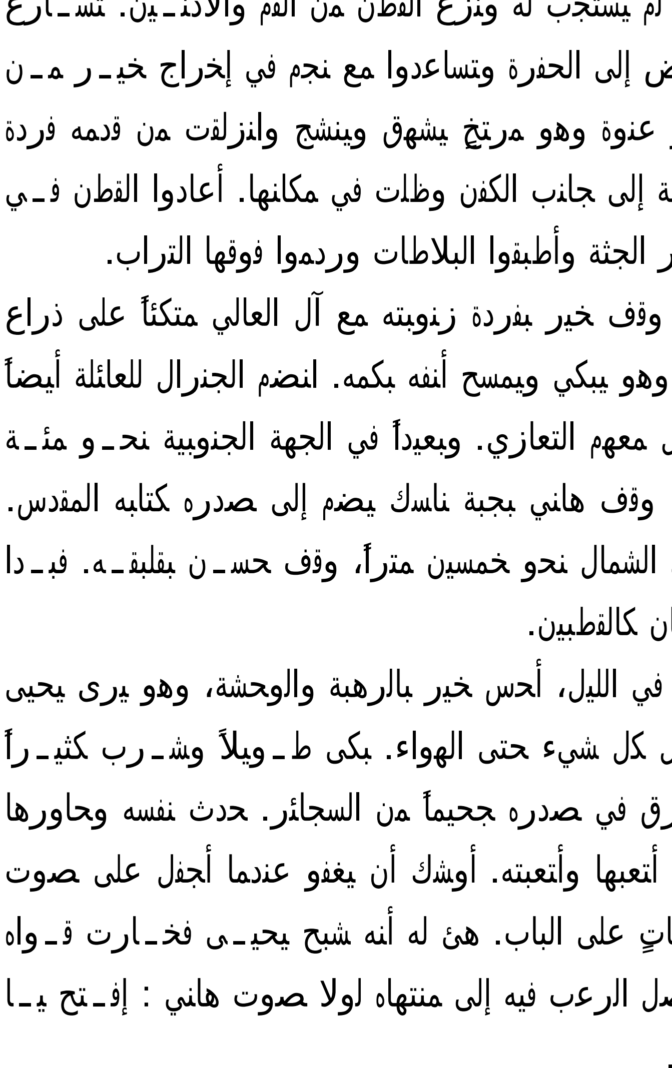
وسائل الإعلام أن دافع الجريمة هو الثأر وأن القاتل ابن أحد القتلى في انفجار الرئاسة.

كانت جنازة متواضعة حمل فيها نعش يحيى في سيارة موتى حملت قبله كثيرين. وفي المقبرة اسـتوعبت الحفـرة الضيقة الجثمان الذي لم تكن تستوعب حيويتـه الجوفـة ولا عمان.

أصر خير وهو يبكي بمرارة على النزول مع نجم إلـى داخل القبر. تناول معه الكفن المربوط من الطرفين ومـدداه بتأنٍ داخل الحفرة التي ظل في جوانبها فراغ فبدت واسـعة على الجثة. ارتخى خير بجانب الرأس وهـو ينشـج : كنـا سنسافر معاً... صرخ بكل قوته الواهنـة : لمـاذا تـذهب وحدك.؟.

أمسكه نجم من كتفه فأبعده بضربة مـن كوعـه وهـو ينهره بحدة : أتركني...

مال على الجثمان وفك عقدة الكفن وهو مرتخٍ يترجرج من البكاء. أحس بالخوف وهو يكشف عن الرأس : يـا أ . لماذا بشّعوك.؟... ونزع القطن من فمه. شده نجم من عضده بقوة : خير. ماذا تفعل.؟.



لم يستجب له ونزع القطن من الفم والأذنين. تسارع البعض إلى الحفرة وتساعدوا مع نجم في إخراج خير من القبر عنوة وهو مرتخٍ يشهق وينشج وانزلقت من قدمه فردة زنوبة إلى جانب الكفن وظلت في مكانها. أعادوا القطن في معابر الجثة وأطبقوا البلاطات وردموا فوقها التراب.

وقف خير بفردة زنوبته مع آل العالي متكئاً على ذراع نجم وهو يبكي ويمسح أنفه بكمه. انضم الجنرال للعائلة أيضاً وتقبل معهم التعازي. وبعيداً في الجهة الجنوبية نحو مئة متر، وقف هاني بجبة ناسك يضم إلى صدره كتابه المقدس. وإلى الشمال نحو خمسين متراً، وقف حسن بقلبقه. فبدا الإثنان كالقطبين.

في الليل، أحس خير بالرهبة والوحشة، وهو يرى يحيى يتخلل كل شيء حتى الهواء. بكى طويلاً وشرب كثيراً وأحرق في صدره جحيماً من السجائر. حدث نفسه وحاورها حتى أتعبها وأتعبته. أوشك أن يغفو عندما أجفل على صوت طرقاتٍ على الباب. هئ له أنه شبح يحيى فخارت قواه ووصل الرعب فيه إلى منتهاه لولا صوت هاني : إفتح يا خير.

جلسا متلاصقين على حافة الأريكة. يستندان بأكواعهما على ركبهما ويحملقان في الأرض بحـزنٍ وكـرب. بعـد لحظات قاسيةٍ من الصمت تناول خير زجاجة عـرق. هـم بالتجرع منها لكنه عدل ومـدها لهـاني. لكـزه بذراعـه : إشرب...

تجرع هاني منها قليلاً وتجرع خير كثيراً. ارتخى فمـه كأنه موشك على البكاء وراح يتلوح ببطء ذات اليمين وذات الشمال مصدراً همهمة كالأنين.

خريف ١٩٩٩

(للحكاية بقية)